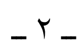
اعترافات سميراميس

ملكة الشرق والسحر



اعترافات سميراميس

"ملكة الشرق والسحر"

رواية للمؤلف عبد الكريم ناصيف

/اعترافات سميراميس/
رواية للمؤلف عبد الكريم ناصيف
الطبعة الأولى: ٢٠٠٧.
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.
الإخراج الفني: بشار الحلبي
تصميم الغلاف: فيصل الحفيان

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:
دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ـ تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠
ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

١

"ما أعجب ما تقولون!! امرأة تقود الجنود وتقتحم الحصن؟" قال الملك الآشوري مستغرباً، فتابع القائد"أجل يا مولاي!! لقد رأيتها بأم عيني تتقدم فرقة من رجالنا وتطبق على ثغرة في سور القلعة. كما رأيت جند الفرس يولون الأدبار مذعورين، فانتهزت الفرصة وأصدرت الأمر إلى جندنا الذين يحاصرون القلعة، فاندفعوا وراءها وهكذا سقطت "بكتريا" التي استعصت علينا طوال هذه المدة.. أجل يا مولاي كان الفضل الأول لهذه الفارسة، ولقد كانت تبدو على صهوة جوادها الأبيض في ضوء الفجر كأنها إلهة.."

بتلك القصة بدأ تعارفنا.. عفواً أقصد تعرفي إليك يا ملكة آشور وسائر الشرق، يا سميراميس الساحرة!! فأنت لم تعرفيني ولن تعرفيني البتة. آلاف السنين تفصل بيننا يا أسطورة الزمان!! لكن.. الآن أعترف لك.. بكل صدق وأمانة أن قصتك أثارتني أيما إثارة وقد وقعت عليها مصادفة في أحد الكتب فبدأت أقرأ.. ولفتت انتباهي تلك الفقرة.. ثم سمرتني تلك الكلمة "إلهة".. أجل.. أعترف لك أن عيني تسمرتا عليها.. مسمارين تجذبهما كتلة مغناطيسية.. ما أجمل أن تغدو المرأة إلهة، بل ما أروع أن يقول الرجال عنها إلهة!! وبدأ الحلم يتبرعم في داخلي.. لم لا أكون أنا أيضاً كذلك؟ لم لا أصبح مثلك يا ملكة آشور!؟ يا ربة العرش والصولجان!؟ أسطورتك ملء الدنيا، اسمك على كل لسان فكيف لا تلفتين نظري وبيننا وشيجة لا فصام لها: الاسم.. أجل يا سميراميس.. اسمانا متشابهان..أسطورتك تقول إنَّ اسمك يعني "الملكة الحسناء" و"سيدة البلاد" لكن المفسرين مخطئون.. هم لا يعرفون العربية.. لو عرفوا لأدركوا أن سميرا من السمر و"ميس" من "المياس".. أنا نفسي اسمي سميرة وأمي اسمها ميس.. ورغم أن لي أباً وله اسم إلاّ أنَّ أبناء أبي وبناته وأقرباءه جميعاً لم يكونوا ينسبونني إلاّ إلى أمي فيقولون جاءت سميرا بنت ميس.. ذهبت سميرا بنت ميس.. ثم تطور الأمر فصاروا يختصرون: قالت سميراميس.. فعلت سميراميس.. بذلك أصبح اسمي كاسمك تماماً.. وهو ما جعلني منذ البداية أتتبع أسطورتك.. أحاول أن أقرأ المزيد والمزيد عنك.. ستقولين لي.. لكن لماذا كانوا ينسبونك إلى أمك!! أنتم في مجتمع ذكوري، الأولاد فيه ينسبون للآباء فلم أنت لا؟ ها.. ها.. سأقول لك.. هنا مرة أخرى نتشابه.. بداياتنا يا سميتي واحدة.. أو شبه واحدة.. أسطورتك تقول إنه بين المراعي والمروج على أرض "شنعار" كان "سيمو"، راعي البلاط، يسوق قطعان الملك الكلداني كي ترعى.. فجأة استوقفه بكاء متقطع اقتفى صداه ليجد "قفة" من القش بداخلها طفلة في القماط.. وكنت أنت يا سميتي.. الطفلة التي أنجبتها الربة "درسيتو" حامية عسقلان من راع جميل مجهول كان يذهب ليقدم لها التضحية فوقعت في غرامه واستبد بها الهيام إلى أن نسيت نفسها وحملت منه.. لكن ما

إن راح الآلهة يوبخونها على فعلتها حتى تملكها الخجل وهجرت عشيقها ثم ما إن وضعت حملها حتى تخلصت من طفلتها بأن وضعتها في أطراف بادية الشام عند نقطة التقائها ببادية السماوة في العراق.. "في مكان مهجور مليء بالحصى"، لكن لحسن الحظ لم يتركك اليمام للموت بل أشفق عليك فعشش في جوارك وراح يسهر عليك.. بعضه يحضنك ويدفئك بأجنحته وريشه كما يفعل بالبيض حتى يفقس، بعضه الآخر يلقمك الحليب بمناقيره ويمامات أخريات يطعمنك الجبن الذي يحملنه لك من مخازن الرعاة، إلى أن جاء "سيمو" راعي ملك بابل.. فجن بك فرحاً هو وزوجه العاقر وقد وجداك الطفلة "ذات الجمال الأخاذ"... كم سحرتني تلك الأسطورة يا سميتي!! وكم عاودت قراءتها المرة تلو المرة وأنا أشعر أن فيَّ شيئاً منها.. ليس تشابه الأسماء فحسب.. بل البدايات أيضاً.. تسألينني كيف؟ سأقول لك: لم يكن أبي راعياً جميلاً كأبيك بل كان تاجراً جميلاً وغنياً في مدينة من مدن البر يقصد مدينة البحر ليأتي من مرفئها ببضاعته.. وفي مدينة البحر كان يقصد ـ ككل رجال الشرق الذين يعانون الكبت والحرمان ـ معبد عشتار حيث النساء يمارسن أقدم مهنة في التاريخ ناذرات أجسادهن لربة الحب والخصب عشتار.. في ذلك المعبد وتحت سمع عشتار وبصرها نمت علاقة بين التاجر الجميل وامرأة جميلة كأنها الربة درسيتو اسمها ميس نذرت نفسها وجسدها لعشتار.. عابدة مخلصة مدى الزمان.. لكن مثلما حدث للربة أمك حدث للعابدة أمي.. فنقم عليها الكهنة وأنحت عليها باللائمة رفيقاتها الأخريات فلا أمومة مع البغاء.. حتى ولو كان بغاء مقدساً.. وهكذا طردها كهنة عشتار من معبد عشتار.. لتخرج إلى أطراف المدينة مشردة بائسة.. تضع طفلة دون قابلة أو طبيب.. وحدها في أطراف المدينة كانت تتوجع يشتد عليها المخاض عاصراً حاصراً فتخرج صرخاتها كأنها من فم سكين.. بداية غريبة يا سميتي.. أليس كذلك؟ قد قلت لك.. ثمة نقاط تشابه كثيرة بيننا.. فقد همت أمي بأن تأخذني للصحراء وتتركني هناك.. كما تركتك أمك.. وربما كانت ستضعني في قفة كما وضعتك.. ثم أسير الطريق نفسه الذي سرت لولا أن جاء المخلص المنقذ آخر لحظة..

المخلص المنقذ أبي بالطبع، إذ كان قد ذهب إلى معبد عشتار يسأل عن معشوقته.. أخبروه بما جرى فجن جنونه.. ومضى يضرب هنا وهناك إلى أن أوصلته قدماه إلى حيث كانت عابدة عشتار تحضنني بين ذراعيها آخر مرة قبل أن تتركني للصحراء..

"تتركينها؟" قال أبي.. "ألا ترين أنها ذات جمال أخاذ؟".

"أرى.. لكن ماذا أفعل.. وهي ابنة غرام لا أب يعترف بها ولا أهل".

"أنا أعترف بها فكوني امرأتي نكن لها أهلا"..

لم تصدق أمي ما سمعته.. فراحت تمطره أسئلة شك علها تصل إلى اليقين.. وحدث اليقين، إذ عاد بها العاشق إلى مدينة البر حيث أهله وزوجه، بناته وبنوه..

جحظت عيونهم جميعاً، وقفت شعور رؤوسهم وهم يرونه يدخل بامرأة وطفلتها إلى طابق ثان كان يملكه.. غير مبال بأسئلتهم وصرخاتهم.. "هذي زوجي.. وتلك ابنتي" قال ثم أقفل عليه وعليها الباب فيما ولولات المرأة الأخرى تملأ الفضاء، احتجاجات بناتها وأبنائها تقطع الأزقة والشوارع.

منذئذ صار بين أبي وأهله ما صنع الحداد.. بينه وبين زوجه حرب بسوس.. امتدت حتى وصلت إلي.. فهي لا تراني على سلم أو في طريق حتى تنقض علي ضاربة شاتمة.. أولادها يرفضون الاعتراف بي أو اللعب معي، بل يرفضون حتى مخاطبتي فكل ما يرونه فيّ هو أمي ميس وأنا مجرد سميراميس.. منذئذ انغرست في نفسي فكرة واحدة أنا منبوذة من منبوذي الهند.. لم أكن حينذاك قد سمعت بك ولا بأسطورتك ولم يكن لي عزاء في الدنيا.. مفردة، موحشة، كنت أقضي الساعات.. الشارع محظر علي.. البناء محرم علي، فيه أسرته الأخرى.. صبيان وبنتان.. لكن كلهم أعداء ينظرون إلي شزراً إن مررت، يدفعونني بعيداً إن اقتربت.. ويحكمون علي الطوق: حصاراً كحصار القلاع.. وأنا وأمي في الداخل عزلاوان بلا سلاح.. أتدرين ما يعني أن يكون المرء أعزل بلا سلاح؟ أنت تدرين بالتأكيد يا سميراميس، وأنت الفارسة المقدامة التي خاضت المعارك والحروب، تعلمين ولا شك معنى أن يكون المرء دون حول أو طول أمام أعداء لا يرحمون.. كانوا كلهم يكرهونني.. يكرهون أمي.. ولم تجد محاولات أبي نفعاً.. فزوجه الحاقدة كانت كتلة من جليد القطب تعجز شموس الدنيا كلها عن إذابته.

كانت أمي تتعذب.. أنا أتعذب.. أبي يتعذب.. وكان الحصار حولنا يشتد، ملزمة مطبقة الفكين لا نملك معها إلاّ أن نصرخ ونتوجع.. وحدها المدرسة أرخت قليلاً فكي الملزمة.. بات علي أن ألتحق بالمدرسة والمدرسة بعيدة.. فمع من أذهب؟ أحد أخوتي يصغرني قليلاً.. إحدى أختيَّ تكبرني قليلاً.. الأخرى تكبرها قليلاً.. ونحن في مدرسة واحدة فكيف يمكنهم التنصل مني؟ أبي أخذني أول يوم.. ترافقنا أختاي الأخريان وأخي.. ذلك الأخ الذي سيكون لي معه شأن وأي شأن.. هو العنيد صلب الرأس لكأنه البغل.. إذ رفض منذ ذلك الصباح أن يسير بقربي.. متعمداً أن يسبقني خطوات.. أختي ربى سارت في الجانب الآخر لأبي.. عُلا بجانبها الثاني.. كانتا تسمعان أوامر أبي طوال الطريق "هذه أختكما.. شئتما أم أبيتما أختكما.. فلا تفعلا ما يفضحنا أمام الناس.. أتسمعان؟ الفضيحة.. إياكما والفضيحة".. وبدا وكأنما كان لموعظته أثر بالغ.. صحيح أن أختي عُلا ظلت متعالية لا تتنازل حتى للنظر إلي، لكن الصحيح أيضاً أن رُبى غدت نوعاً من السهل الممتنع.. هي تسير إلى جانبي كالأخت ترد عليّ إن سألتها وتدافع عني إن اعتدت علي

إحداهن.. منذئذ أحببت المدرسة، هي التي رفعت عني الحصار وأزاحت عن صدري الصخرة قاطعة الأنفاس.. صرت أخرج من القلعة.. أرى الأطفال.. ألعب مع التلميذات.. ولحبي الشديد لها صرت أتمنى ألا تكون هناك عطلة.. الجمعة.. الأعياد الوطنية، رمضان، الأضحى.. أتمنى ألا تأتي.. ثلاثة أيام.. أربعة أيام في القلعة المحاصرة.. أية كارثة؟ أما عطلة الصيف فتلك هي الطامة الكبرى!! مائة يوم!؟ ماذا أفعل في الأيام المائة تلك؟ الباب يغلق علي أنا وأمي.. هي التي كانت عابدة متعبدة لدى عشتار صارت عابدة متعبدة لدى الزوج، وأنا معها حكمي حكمها.. أخوتي لا يعود باستطاعتي رؤيتهم.. فلا نحن نذهب إليهم ولا هم يأتون. عُلا تزداد تعالياً وغطرسة، رُبى ترفع الحواجز القديمة من جديد.. وحده أبي يظل يعطف ويحنو..

أترين يا سميتي؟ هنا أيضاً بيننا تشابه فالراعي الكلداني الذي وجدك في الصحراء كان يحبك كثيراً مثلما كان أبي يحبني.. كان يدللك مثلما كان يدللني.. فهو يأتي لي بأطيب الحلوى.. أغلى الهدايا.. كما يملأ جيبي بالنقود وأنا ذاهبة إلى المدرسة، فأشتري بها أشياء أخطب بها ود هذه الزميلة أو تلك وأعلم مذ ذاك.. ما يعني أن تملكي المال.. ما يمكن للنقود أن تحقق من أغراض.. مع ذلك.. لم أستطع كسب زوجة أبي.. أو التخفيف من غلواء حقدها.. في هذا فقط كنا نختلف يا سميراميس، فزوجة الراعي الذي تبناك كانت تحبك حب العبادة.. ربما ذلك لأنها كانت بلا أولاد، فاعتبرتك هبة من الربة عشتار أو من الإله مردوخ تعوض بها ما كانت تفتقده.. لكن ما تراها ترى فيّ زوجة أبي؟.

أمي كانت قد بلغت درجة اليأس.. محاولات أبي لإصلاح ما بينهما ذهبت كلها أدراج الرياح.. مصدات الرياح عالية كثيفة لا تسمح حتى لنسمة الهواء بالمرور، فكيف تمر أمي وقد راحت تكدس أطباقاً أطباقاً من الشحم واللحم؟ لكن أنّى لي أنا أن أيئس وأنا بأمس الحاجة للأمل؟ لكسر الطوق؟.

هنا، كنا نختلف يا سميتي.. فأنت في بابل، أمامك الفلوات.. تذهبين مع أبيك إلى المراعي تسرحين مع الحملان تمرحين مع الجديان.. كل من حولك يحبك، كل ما حولك مبهج سار.. النهر.. الأشجار.. المراعي.. المروج كلها ترحب بك فاتحة أذرعتها لك.. الحرية ملك يديك.. السعادة ملء جانحيك.. تذهبين أنى تشائين.. تفعلين ما تشائين.. فتتدربين على الرمي بالقوس والطعن بالرمح والمبارزة بالسيف.. الفلاة مدرستك تعلمت فيها فنون القتال، لكن مدرستي لا تعلم فنون القتال تلك التي يتعلمها الرجال فيخوضون المعارك ويشاركون في الحروب.. أتراك كنت تحدسين بمستقبل فريد ينتظرك؟ مستقبل لم تكن تعرفه الفتيات؟ ما الذي دفعك يا ترى لأن تفعلي ذلك؟ ما الذي جعلك تميلين لممارسة ما يمارسه الرجال؟ أهو رعي الإبل في

الفيافي؟ خشيت أن يأتيك نهاب سلاب فيسلبك إبل الملك دون أن تستطيعي الدفاع عن نفسك وعنها؟ أخشيت أن ينقض عليك الغزاة وأنت لا تملكين سيفاً ولا رمحاً؟.

يقولون: الإنسان يصنع قدره، ولقد صنعت قدرك حين تعلمت الرماية والمبارزة.. ركوب الخيل وخوض الحروب.. صنعت قدرك حين لم ترضي أن تكوني مجرد راعية أغنام أو إبل.. وجاء اليوم الذي أثبت فيه أنك الفارسة الشجاعة التي تعمل ذكاءها وزندها فتدحر الأعداء وتفتح الحصون، فيراها منينوس قائد الجند أشبه بإلهة حرب لا يقف في وجهها سور ولا يستطيع مقاومتها عدو..

كان تشابه الأسماء والبدايات قد جعلني أمعن النظر في أسطورتك باحثة منقبة حتى أفعم صدري لا إعجاباً بك فحسب، بل تقديراً وتصميماً على أن أكون مثلك أو بعضاً منك إلهة أو بعض إلهة.. فهل تسمعينني؟ إنني أعترف لك يا قدوتي ومثالي فهل تصغين إلي؟ إنها الاعترافات التي تثقل كاهلي فهل تسمحين لي.. أفضي بها إليك وأتحلل من عبئها بعد أن حملته طويلاً؟.

لقد غدوت حلمي الكبير، الحلم الذي لا أطمح إلا إلى تحقيقه.. صورتك التي رسمتها أسطورتك كانت تبهر عيني.. فلا أرى فيك إلا الفتاة ساحرة الجمال التي حملت أرفع الألقاب "ملكة البر والبحر"، "سيدة البلاد"، رغم أنها ترعرعت في ظروف صعبة، الخطر يحدق بها من كل صوب، تخرج إلى البراري متأهبة لمواجهة الحيوانات المفترسة وهي تتربص بمواشيها فتكتسب مهارة وفروسية تبزُّ بها ذكور عشيرتها إلى أن جاء اليوم الذي حسم فيه القدر أمرها بمصادفة غريبة.. في ذلك اليوم دارت رحى معركة طاحنة إذ غزا الآشوريون مدينتك بابل، وقاتل البابليون عن مدينتهم قتال الأبطال لكن الملك - راعيك وحاميك - أصيب بجروح بالغة فتراجعت مركبته الملكية به، علها تنقذه، من الموت وتثبين أنت إلى العربة الملكية تصدين عنها المهاجمين بيمينك وتضمدين جراح الملك بشمالك.. بطلة تنزعين عن وجهك اللثام وعن رأسك العصابة تضمدين جراح الملك وينسدل شعرك الحريري الفاحم على كتفيك، يراك بطل آشور وقاهر كلدان فتأخذين بلبه ويقع في غرامك.. وتبدأ بذلك قصتك العظيمة.. أسطورتك التي غدت ملء الدنيا.. وأول هذه الدنيا رأسي.. أنت أيها الحلم الذي لم يعد يفارقني.. أراه في اليقظة والمنام.. تقودين الرجال.. فلماذا لا أقود أنا الرجال؟ أنت صرت شيئاً هاماً في هذه الدنيا فلماذا لا أكون أنا شيئاً هاماً أيضاً؟ لماذا لا أصبح مثلك أسطورة.. سيدة مطلقة السلطان لا يملك أمامها الرجال إلا أن يحنوا هاماتهم خاضعين خانعين؟ الله!! هذا الخضوع الخنوع هو ما كنت أحلم به فأشفي غلي من خضوع آخر عانيت منه طويلاً.. طفولتي.. صباي، حياتي كلها كانت خنوعاً.. كيف لا وكل ما حولي كان فظاً قاسي القلب؟ كل من حولي كان

ينظر إلي من عل، وكأنني سقط متاع.

تسألين كيف يا ملكة السحر والشرق؟ سأعترف لك وفي حلقي غصة وفي فمي مرارة: إذ حتى أبي الذي بدأ عاشقاً متيماً لأمي، لا يناديها إلا "حبيبتي" "مهجة روحي"، بل يضحي من أجلها بكل شيء، يخرجها من الحمأة التي كانت فيها، يعقد قرانه عليها، يعطيها اسمه ويقف في وجه أهله متحدياً منافحاً، هذا الأب نفسه هو الذي تحول إلى جلاد عيناه تقدحان شرراً وسوطه يلهب الظهور ولا يتردد لحظة واحدة في أن يقطع بسيفه الرؤوس.. لقد تحول أبي.. لا أدري متى.. أمي قالت أن ذلك حدث بعد أربع أو خمس سنوات من مجيئها إلى مدينة البر.. لعله تعب من شدة المنافحة والتحدي.. لعلها، كما يقولون، راحت السكرة وجاءت الفكرة.. لكن أمي تذكر جيداً كيف بدأ يتحول.. بل أنا نفسي أذكر شيئاً منه.. فالمشاوير الصغيرة التي كان يأخذنا إليها توقفت، بل حتى تلك التي كانت أمي تأخذني إليها توقفت، لم يعد هناك حديقة ولا منتزه، لا مراجيح ولا ألعاب بل حجج من أمي وأعذار. ذات أصيل ألححت وألحفت، نشجت وبكيت، فرق قلب أمي لتأخذني في واحد من تلك المشاوير، لكن ما إن جاء والدي حتى أقام الدنيا على رأسها ولم يقعدها.. كانوا هناك قد وشوا بنا.. فجاء كالثور الهائج ينطح ويبطح.. بل لقد وصل نطاحه إلي.. أنا الطفلة الصغيرة ". خروج من هذا البيت ممنوع"، "مشوار ممنوع"، "ذهاب، إياب ممنوع منعاً باتاً"، مفهوم؟" كانت أوامره صريحة وحكمه قاطعاً، ولم تستطع أمي أن تستأنف حكمه ذاك أو تنقضه.. فغدونا أنا وهي سجينتين وهو السجان.. أجل.. يا سميراميس.. أبي تحول إلى سجان يعطي الأوامر وعلينا نحن أن ننفذ دون تردد أو تذمر.. لقد أوغروا صدره.. زرعوا في نفسه شكاً أسود كوجه الشيطان لم يستطع بعده أن يثق بها لحظة واحدة أو يطمئن لتصرف من تصرفاتها، أليست خريجة معابد عشتار؟ إذن كيف يمكنها أن تعصى أمراً لعشتار؟ كيف لا تلبيها إذا ما دعتها وأبالستها في كل مكان، لهم عيون تغمز، أيد تلمس وألسنة تغزل كلاماً جميلاً تدور له الرؤوس!؟.

ذلك السجن ربما هو الذي زرع في نفسي حبي الشديد للتحرر وهو نفسه ما جعلني أكره العطل وأفرح كل الفرح بالذهاب إلى المدرسة، فهناك على الأقل كنت أخرج خارج القفص، أسير على الدروب، أشم الهواء، أرى الناس، وإن كان حرص أبي الشديد وأوامره الزميتة جعلتني دائماً بين المطرقة والسندان: أخي عاصم وأختي ربى..

آه كم كانت قاسية تلك الأيام وكم أحسدك يا سميتي.. سميراميس.. التي لم تعرف قيداً ولم تختبر سجناً.. بين المراعي والمروج ترقص للشمس، تطير في الهواء، تسبح في النهر.. ألم تكوني تبتردين بمياه الفرات حين يشتد الحر؟ هنا نحن نختلف يا سميراميس.. فأبي الذي

صـار جـلاداً حـوّل حيـاتي إلى جحـيم.. عكـس "سـيمو" يـا سميرامـيس.. لقـد صـار أقسـى مـن الصوان.. غدا كله شكاً وريبـة.. "الدجاجـة قطعوا منقارهـا مـا غـيرت كارهـا"، كـان يكـرر كلما بـدرت مـن أمـي بـادرة، أو نـشب بينـه وبينهـا خـلاف، "طـب الجـرة علـى فمهـا تطلـع البنـت لأمها" كـان يجلـدني بمثلـه ذاك كلمـا انـزعج مـني لـسبب مـن الأسـباب فيـشدد الخنـاق علينـا.. ويحكـم حصاره، يساعده في ذلك امـرأة حاقـدة وأبنـاء مبغضون.. إن غـاب كـانوا هـم الأعـين التي تراقب، إذا سكت كانوا هم المناخس التي تنخس، بل لم تكن تلك المرأة ترعوي عن التحول إلى أعين تختلس النظر وآذان تسترق السمع..

ذات مـرة فتحـت البـاب علـى عجـل فـإذا بـأختي عـلا ترتـد مـذعورة عنـه نازلـة الـدرج مثنـى وثلاث.. مـرة ثانيـة كانـت ربـى.. أقـول لأمـي فتقـول، مـلء عينيهـا الـدموع ومـلء صـدرها القهـر.. "الضرة صعبة يا بنتي.. والضرة حقد وكراهيـة.. نميمـة ووشـاية".. ذلـك ربمـا، يفسـر ثـورات أبـي تلك التي كانت تبدو في حينها وكأنها بلا مبرر.. إذ يدخل البيت هائجاً، وبهـذه الحجـة أو تلـك ينقض على أمي ضارباً رافساً إلى أن يملأها كدمات وتورمات.. ثم تطور الأمر فجاء بخيزرانـة.. راح يهـوي بهـا علـى رأسـها، ظهرهـا، بطنهـا.. ولم أكـن أنـا نفسـي أنجـو مـن لـدغاتها، لـدغات الحيات الرقطاوات، حين تنحرف عن ظهرها لتسقط علي، أنا المتشبثة بساقيها، الباكية على بكائها، الخائفة من خوفها.. آه!! يا لتلك الخيزرانة يا سميراميس!! كم امتصت مـن جلـد أمـي وجلـدي دمـاء!! كـم اقتلعـت مـن أعمـاق أعيننـا الـدموع!! أجـل.. كانـت الخيزرانـة تـدمينا، ولم يكـن أحد يضمد جراحنـا.. إذ مـا إن تهمـد سـورة الجـلاد حتـى يـدعنا لاعنـاً آباءنـا وأجدادنا ثـم يصفق البـاب وراءه فـلا تـراه أعيننـا إلا بعـد أيـام. كانـت أمـي تلعـق جراحهـا وتـسكت، تـضمد جراحـي وتواسـيني.. مـسكينة أمـي!! كانـت مستـسلمة لقـدرها، خاضـعة لزوجهـا خـضوعها لكهنة عشتار وعبّادها.. الخضوع في دمها، بل ربما يا سميتي، هو في دم كل امرأة منـا.. نقبلـه وكأنه جزء من قدرنا.. جزء من لحمنا وعظمنا.. لكن لا.. يا سميتي.. أنت لم تكوني كذلك.. أنت كرهت الخضوع منذ البداية، لهذا أحببتك، ولهذا أردتك أن تكوني القدوة الـتي أحتـذي بها، فلا أعرف خضوعاً ولا أسأم ذلاً.. الخضوع!؟ الذل؟ آه منهما.. هما عقدتي يا جدتي العليا!! أجل أنت جدتي العليا.. صحيح أن آلاف الـسنين تفـصل بيننـا لكـنني علـى يقـين مـن أن مورثـات منك وصلت إلي وفي رأسها حب السلطة، حب السيطرة هذا الـذي كـان في داخلـي يمـور ويمـور ومثلما كنت تحبين السيطرة على شياهك وإبلك وأنت راعية بدا علي ذلك وأنا تلميذة. أردت أن أسـيطر علـى زميلاتـي.. أنـا الخانعـة الخاضـعة لأخـوة.. أخـوات.. لا أجـرؤ علـى رفـع رأسـي في وجوههم، تكشفت عن ولع شديد بالسيطرة على زميلاتي وكـان جسمي لا عقلـي هـو أداتـي..

إذ كنت الأطول بينهن.. بنية متناسقة متينة.. إنها الموروثات التي ربما لم تأت من أمي وأبي وحسب، بل منك أنت.. ألم تكوني طويلة قوية متينة البنيان؟ إذن، كيف لا يصل إلي ذلك وأكون شبيهة بك!؟ في ملعب المدرسة كانت مواهبي تبرز.. أركض فأسبق الجميع، أشتبك مع إحداهن فألقيها أرضاً، نلعب لعبة فأنتصر.. كنت في الملعب، كما كنت أنت في الميدان، السباقة المجلية دائماً.. وكان ذلك طريقي إلى أن أمارس السيطرة التي أحببت حب العبادة.

ذلك كله دعم مكانتي داخل الصف، فطول قامتي وقوة بنيتي كانا يجعلان المعلمة تسميني "عريفة الصف". وكان ذلك وحده كافياً لأن يمنحني قوة إضافية على زميلاتي، الكل يخشين أن أسجل أسماءهن على اللوح فتعاقبهن المعلمة، العصا لمن عصى.. أليس هذا هو المبدأ الذي عمل به الناس منذ القديم؟ كنت مع المعلمة لينة هينة أطوع لها من بنانها، لكن ما إن تخرج حتى أتحول إلى جبارة عنيدة.. أريد من البنات كلهن أن يقدمن لي فروض الولاء والطاعة.. وكن يفعلن.. في البداية، حاولت بعضهن التمرد.. إظهار هذا الشكل أو ذاك من أشكال العصيان، لكن الصرامة والقسوة جعلتاهن يرتدعن..

علاماتي في الصف كانت تعزز موقعي أيضا، إذ كنت أحفظ دروسي، أكتب وظائفي، أضرب، أطرح على خير ما يرام.. كنت بحاجة إلى سلاح وكان العلم سلاحي، مثلما كان السيف سلاحك.. فآليت أن أتقن المبارزة به مثلما آليت أن تتقني الطعن بالرمح والمبارزة بالسيف وكنت أيضاً المجلية السباقة..

ذلك استمر طوال المرحلة الابتدائية، ولا أخفيك يا جدتي الكبيرة أنني كنت أعيش شيئاً من سعادة، أقطف بعض اللذائذ، أتخلص من عقدة الذل والخضوع، لكن ما إن دخلت المرحلة الإعدادية حتى انقلبت الأمور رأساً على عقب، والسبب؟

والدتي.. فالمرأة التي حبست في قمقم يحرسه ستة من الجن لم تعد تطيق القمقم.. لقد ضاقت به أنفاسها حتى كادت تختنق، المرأة التي كانت تذل وتهان، تجلد بالخيزرانة وترفس لم تعد تتحمل كل ذاك، وللإنسان طاقة للتحمل قد تكبر وقد تصغر، قد تدوم وقد تزول، وها هي عند والدتي قد زالت.. بلغ السيل لديها الزبى.. أفقنا ذات صباح فإذا بالمنزل قفر نفر، لا خبر عن ميس ولا أثر، "أين هي؟" صاح أبي "متى خرجت؟" "كيف ذهبت" أسئلة لم يكن لدي جواب عنها.. فعند ميس وحدها الخبر اليقين.. وميس فص ملح وذاب.. هي التي كانت تكبس الملح على الجرح وتسكت، تنهال عليها الخيزرانة وتسكت، حتى الصراخ لم تكن تقاربه.. بل تكز على شفتيها، تئن وتنوح داخلاً ولا تسمح له بالخروج خارجاً.. كان أهون عليها أن تموت ألف مرة من

أن تسمع ضرتها صرخاتها فتشفي غلها، وتطفئ نارها، تلك التي أشعلتها أمي يوم تزوجت أبي.. لكن إلى متى يستمر ذلك التحمل؟ شعرة أحياناً تقصم ظهر البعير.. كانت تلك الشعرة وجبة خيزرانة تناولتها ذلك اليوم.. مسكينة.. أمي.. طويلاً تحملت الضغط، طويلاً تحملت الكرب.. لكن كان لا بد من أن تنفجر فانفجرت، أليست شدة الضغط تولد الانفجار؟.

ذلك الصباح أذكره لكأنه اليوم.. كان صباحاً شتائياً قارص البرد، تلمست الفراش بجانبي فوجدته بلا أمي. فتشت البيت كله فوجدته بلا أمي، صرخت، بكيت.. لكن كانت قد ذهبت أمي.. "أكيد عادت حليمة لعادتها القديمة"، كان أول تعليق لضرتها التي بدت وكأنها ترقص فرحاً. لقد أثبت الزمان صواب رأيها، جاء البرهان القاطع على صحة ما قالت لزوجها حين جاءها بالضرة "أغرتك خضراء الدمن والرسول الكريم يقول إياكم وخضراء الدمن؟" لكن والدي كان يهيم عشقاً يومذاك بخضراء العينين، شقراء الشعر، بيضاء البشرة ولم يكن يراها خضراء دمن فكان يرد ويدافع، أما وقد تركته عائدة إلى دمنتها، فما عساه يقول؟.

صمت والدي يومذاك وكظم، ثم عاد إلي، ربما ليستل معلومة مني، يحصل على سر، وربما لينتقم.. أليست البنت سر أمها والابن سر أبيه؟ سألني، حاول أن يعرف شيئاً عن أمي، لكنني ما كنت أعرف شيئاً، فهي بالحقيقة، لم تكن تبوح لي بأسرارها، لم تكن تشاركني أفكارها وأحزانها.. لعلها كانت تشفق علي.. فحملها أثقل بكثير من أن يحمله عود غض لم يكن قد اشتد بعد. ولأنه لم يجد لدي جواباً انهال عليّ ضرباً ورفساً كأنني أنا المسؤولة عن هروبها.. كانت يداه، ركبتاه، قدماه، كلها تعمل معاً في جسدي ذاك الذي كان يتكوم على الأرض متدحرجاً هنا متدحرجاً هناك، باعقاً زاعقاً كجدي يُسلخ حياً.. زعقاتي جاءت بأخوتي، بضرة أمي وكان الكل يتفرجون دون أن يقدم لإغاثتي أحد.. بح صوتي نشفت مآقي، وهنت عظامي.. ثم لم أشعر إلا وأنا أفقد حتى الحس بالألم.. أفقد حتى وعيي..

تلك كانت المرة الأولى التي أفقد بها وعيي، كما كانت المرة الأولى التي أحس بها بأخوة أحد من أبناء أبي.. إذ فتحت عيني لأجد نفسي على سريري وبجانبي أختي ربى تشقني الكحول..

هتفت منكبة علي.. "الحمد لله!! أنت ما تزالين حية!! ما تزالين حية!! "وهل حسبتني ميتة؟" تمتمت متعجبة "كلنا حسبناك ميتة.. فالشكر لله.. قد عدت بعد موت.. الحمد لله"..

علمت من ربى بعد ذلك أنني ظللت ملقاة على الأرض فترة من الزمن.. ربما ساعة.. ساعتين.. هي لا تدري.. فقد تركني أبي حيث كنت ثم جرف الجميع معه، جرف السيل للحصى، مغلقاً علي الباب دون أن يترك فرصة لمساعدتي.. لكن نارها لم تسمح لها بالبقاء

على تلك الحال.. هي حدثتني بذلك، وأنا أفيق من غيبوبتي.. "لا..لا.. الدم لا يصير ماء.. أنت أختي فكيف أتركك تموتين؟" وتنهدت حزينة.. إذن أمها، أخواها.. أختها.. كلهم ربما كانوا يريدونني أن أموت.. فيجتث الشر من جذوره بل ربما كانت الأم تهتف فرحاً.. "الضرة ولت وها هي ذي البنت.. فأية نعمة يا رب!!".

أختي وحدها خيبت آمال الجميع.. انتهزت فرصة غاب فيها أبوها وانشغلت أمها فخرجت إليّ مسرعة.. رشت علي الماء.. كسرت البصل.. جاءت بالكحول تحشره في منخري فتتفتح عيناي وتفرح الأخت التي كانت تشعر أن الدم لا يصير ماء.. بعد ذلك امتدت بيني وبين ربى جسور كنت قد أخفقت في مدها من قبل. كانت الشفقة عاملاً مساعداً لي، أنا التي أصبحت بلا سند ولا ظهر.. أخوتي يتحكمون بي.. عُلا تعاملني معاملة الخدم، امرأة أبي تسومني كل أنواع العسف، وأبي مشيح عني مهمل.. الأمهات يأكلن الحصرم والبنات يضرسن.. ففرار أمي جعل أبي يذكر كل سوءة لها، لمهنتها، لمنبتها، ثم يعكسه علي لأغدو أنا الملومة المذنبة التي تناط لا بعرقوبها هي بل بعرقوب أمها. بات نادراً ما يتوجه إلي بخطاب إلا آمراً أو ناهياً، ونادرا ما ينظر في وجهي، لكأن مجرد النظر إلي دنس يتجنبه.. ولكم آذاني ذاك يا جدتي العظيمة!! أبوك ذاك الراعي اللطيف أكان يعاملك كذلك؟ لا، أنت تقولين لا.. وأنا واثقة فأسطورتك تتكلم عن حبه العجيب لك، تعلقه الشديد بك، وهو ما أغبطك عليه يا سميتي، أنا التي افتقدت حنان الأم وحب الأب معا وبضربة واحدة. قبل فرارها كان لدي حضن حنون على الأقل ألوذ به في الملمات ومرفأ آمن ألجأ إليه إذا هبت العواصف، لكن وقد ذهبت أي حضن أجد؟ وبأي مرفأ ألوذ؟.

آه كم كان غيابها قاسياً يا سميتي!! وكم حاولت في السر أن أحطم تلك القسوة، أن أجد ثغرة في سور ذلك المجهول المظلم لكن عبثاً، فهي لم تترك لي رسالة أقرأها، خبراً عند أحد يوصله إلي، لكن كيف تفعل ذلك وهي الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب؟ عند من تترك الخبر وهي مقطوعة من شجرة!؟ غريبة في مدينة لا تعرف فيها أحداً؟ ألم تكن رهينة المحبسين: محبس زوجها ومحبس ضرتها؟ فكيف تتعرف إلى أحد؟ رغم ذلك راحت الضرة تردد "لا بد أنها أوقعت في شباكها أحد أغنياء المدينة فمضت إليه،" أخي الكبير يقول" العادة طبع ثان وهي متعودة حياة الفجور والفسق فكيف ترضى بحياة العفة والطهارة؟" ثم بدا أن الكل متفقون على أن المرأة عاودت سيرتها الأولى.. رجعت إلى مدينة البحر تتعبد في معبد عشتار، لم يحاول أبي البحث عنها، بل لم يعد إلى ذكرها قط.. لكأنه كان يريد أن يكفر عن خطيئة سابقة بمسحها حتى من ذاكرته.

لكن ما تراني أفعل أنا؟ أأستطيع أن أمسحها من ذاكرتي؟ أأستطيع إخراجها من جلدي، من أنفاسي؟ هي التي كانت معي.. تملأ كل خلية من خلاياي تعشش في تلافيفي الدماغية، لكن ما كان علي قط أن أفصح عن ذلك.. الأم صارت من المحرمات.. إذن علي أن لا أقرب تلك المحرمات.. تحت اللحاف.. فقط كنت أقربها، أناجيها. في جنح الظلام، أفكر فيها.. أستعيد لحظاتي الحلوة معها، أوقاتنا السعيدة، ضحكاتنا، وأحلم بأن أراها من جديد.. أن أعرف شيئاً عنها من جديد، وقد صرت بعدها واحدة من الأيتام على مأدبة لئام.

شعوري ذاك جعلني أنكمش على نفسي، أنطوي في غرفتي، ذلك أنني إن خرجت سألتقي بامرأة أبي الحاقدة.. فتعمل على الانتقام مني.. تنهرني.. تشتمني.. وبمن تشتمني؟ بأمي.. أجل يا سميراميس.. لم يكن يمر يوم وإلا وأسمعها تصرخ بي "يا بنة الشر.." "يا بنة العا.." وأطأطئ رأسي ذلاً على ذل.. كانت المشكلة أنني أعلم أصل أمي ومهنتها السابقة.. هم أنفسهم كانوا قد حكوا لي كي يذلوني.. منذ طفولتي الأولى كانوا يعملون على إذلالي.. ثم فرت فتجددت المأساة وازداد الطين بلة..

"لا، لا" كنت أقول لنفسي "خير لي ألا ترى عيني تلك المرأة الحاقدة ولا تراني عينها". بل لعلها هي نفسها كانت تؤثر ذلك، فلا تراني إلا إذا أرادت استخدامي أمة رقيقة اشترتها من سوق النخاسة. وكنت أقبل، أكنس لها، أشطف الدرج، أغسل الصحون.. وكل ذلك بصمت مطبق علني أتفادى شتائمها المقذعة..

والدي صار كالحجر الجلمود.. جلمود!؟ أجل يا سميراميس.. وجه قمطرير، حاجبان مقطبان، شفتان مطبقتان وفوق هذا وذاك يدان جاهزتان للضرب فصرت أخافه.. بل أعترف لك يا سميتي صرت أراه في أحلامي وحشاً" حاد المخالب والأنياب يهجم علي يريد تمزيقي.. كنت أفيق صارخة مستغيثة.. فتفيق ربى مسرعة إلي وألجأ إلى صدرها محدثة إياها عن الكابوس الذي لم يعد يفارقني.. عن الوحش الذي يريد تمزيقي.. لكنني لم أكن أقول لها إن لذلك الوحش وجه أبي، ذلك الوجه القمطرير المكفهر دائماً.

خوفي منه تحول شيئاً فشيئاً إلى خوف من الرجال جميعاً..

أجل يا جدتي الشجاعة!! في تلك المرحلة افتقدت شجاعتي كلها تجاه الرجال، لم أعد أراهم إلا وحوشاً يمكنها في أية لحظة أن تمزقني إرباً إرباً، فصرت أتفاداهم.. أخوتي في البيت صاروا وحوشاً، المعلمون في المدرسة، المارون في الشارع، لقد سيطر عليّ الكابوس إلى درجة لم يكن بمستطاعي التخلص منه.

مع الخوف صار يمتزج شعور آخر: الكراهية.. صرت أكره أبي.. أتصدقين يا سميتي؟ صرت أكرهه كثيراً.. بقدر ما كنت أحبه من قبل، صرت أكرهه، أليس هو سبب بلائي كله؟ لولاه، ما كنت قد جئت إلى هذه الدنيا.. ما كنت عانيت تلك المعاناة!! وشيئاً فشيئاً راحت كراهيتي تمتد، كما امتد خوفي من قبل، إلى الرجال جميعاً.. الرجل أصل البلاء في هذه الحياة.. هو الذي يقف وراء شقاء المرأة، وراء كل بلية ومصيبة.. ولأن أبي رجل فقد وقف وراء شقاء أمي، وراء شقائي، أنا التي يعاملها شر المعاملة ويذيقها مرّ الويلات.

لكن لكل شيء حسناته مثلما له سيئاته.. حسنة وضعي الجديد هي أنها وفرت علي الضرب والرفس من أبي، إذ لم نعد نلتقي إلا نادراً، بت في انطوائي، أؤثر أن آكل الشطيرة أو اللقمة الخفيفة، مبتعدة ما استطعت عن مشاركتهم موائد الغداء والعشاء. ولم يكن يسر امرأة أبي كقراري ذاك.

بات أقصى ما أحلم به أن أتحاشى اللعن والسباب، أن أنجو من الحساب والعقاب.. فكنت أنطوي في زاويتي أجتر أحزاني وأراكم أحقادي حتى غدت كل شيء في حياتي.. أكنت كذلك يا سميراميس؟ لا.. هنا.. أظننا نختلف أيضاً، فأنت لم تعرفي الأحزان ولا حملت الأحقاد، لكن لعلها الأزمان المختلفة والظروف المختلفة.. ابنة مراعي كلدان لا يمكن أن تكون كابنة مدينة البر حيث الأسوار والحيطان، تذهبين فتصدك الحواجز، تتحركين فتقف في وجهك الموانع.. أنت لم تعرفي الحواجز ولا الموانع.. لم تعرفي سوى الآفاق المفتوحة والسهول الواسعة، تركضين على هواك، ترقصين على هواك، أنت ربة المراعي، ابنة الحرية.. أما أنا فابنة القيود.. عبدة من عبيد امرأة أبي.. جارية بخسة الثمن لدى أخي وأختي.. نفاية من نفايات الزمن لدى أبي.. رغم أني فلذة من فلذات كبده إلا أنه يلفظها، يود أن لا تراها عيناه، فهل ترين حين تختلف الظروف كم تختلف السميرتان؟...

إيه يا سميتي!! كم كنت أود ألا نختلف.. لكنه الوضع الجديد وسيئاته الكثيرة.. لقد انسحب انطوائي على المدرسة.. فصرت أتحاشى زميلاتي.. لم أعد تلك المندفعة المقدامة التي تحب السيطرة، ولم يعد طولي ومتانة بنيتي يهيئانني لأن أكون عريفة صف. صرت تلميذة عادية تسير الحائط الحائط وتقول يا رب الستر. الدروس لا أبرز فيها، في المناقشات لا أشارك، وإذا كان المدرس ذكراً كنت أتحاشى النظر إليه. كان عاملا الخوف والكراهية يقفان حاجزاً بيني وبينه، فأعمد إلى عدم النظر إليه، أو الإسهام في نقاش بحضوره وهو ما انعكس بدوره على نتائج امتحاناتي.. صرت أنجح لكن بالمقبول فقط من العلامات، وبهذا المستوى نلت الإعدادية.

في الثانوية كان علي أن أكون شيئاً آخر.. فأنا أريد متابعة دراستي الجامعية ولا جامعة هنا إن لم أحصل على علامات عالية.. لكن كيف أحصل على تلك العلامات؟ أنا أريد ذلك لكنني لا أستطيع.. أجل يا جدتي العظيمة!! حفيدتك لا تستطيع.. الطلاب هنا يستعينون بمدرسين خصوصيين. بشراء أساتذة، ضمائر، أسئلة فحص.. لكن أنا، ماذا باستطاعتي أن أفعل؟ ذلك كله بحاجة إلى مال وأنا لا أملك المال.. أختي ربى تساعدني أحياناً هي التي تكشفت عن طالبة تجود مع تقدمها في الصفوف مثلما تجود الفرس الأصيلة كلما تقدمت في السباق، لكن مساعدتها لا تكفي.. أخي عاصم بات يجود علي من حين إلى حين بحل مسألة رياضيات أو شرح معضلة كيمياء أو فيزياء، لكن هذا أيضاً لم يكن يكفي.. ماذا؟ أرى في عينيك تساؤلاً يا سميتي؟! عاصم يساعدك؟ أجل.. لقد نسيت أن أقول لك: علاقتي بعاصم تغيرت بعض الشيء، لا لسواد عيني بل لسواد عيني منال، زميلتي في الصف الحادي عشر إذ رآها معي فوقع في غرامها. ولكي يتقرب منها كان لا بد من أن يتقرب مني، وهكذا وجدته فجأة يكسر جبل الجليد، يلقيه في البحر ويسبح إلي "أختي، سميرة" انتبهي يا سميتي، لم أعد لديه سميرا بنت ميس بل أخته سميرة. قلت له، وقلبي ملؤه الفرح، "نعم أخي"، "اسمعي.. أنا آسف.. على كل ما مضى.. فهل نستطيع فتح صفحة جديدة؟" لم أكن ساعتئذ أعلم ما وراء فتح تلك الصفحة فهللت فرحاً" لم لا وأنت أخي..؟ أنا كلي استعداد لأن نبدأ من جديد، كأنما لم يكن هناك شيء.." حينذاك شعرت أن الدنيا لا تسعني، فالطوق المحكم الذي كان حولي والأسوار العالية كلها ستنهار إن كانت علاقتي بعاصم جيدة.. صحيح أن رُبى كانت تخفف قليلاً من إحكام ذلك الطوق، فتفتح لي ثغرة هنا، كوة هناك أخرج رأسي منها، أتنشق الهواء، أرى الضياء، لكن الثغرة الحقيقية سيفتحها لي عاصم.. ربى وعاصم معي، إذن يا لفرحتي!! لكن سرعان ما تعكرت بحيرة فرحتي حين تكشف لي مقصد عاصم.. كان يريد أن أدبر له لقاء مع منال.. "في المنزل، في الشارع، في السينما. المهم أن نلتقي" قال لي موشوشاً وشوشة الأخ لأخته.. صدمت، أعترف لك يا جدتي أنني صدمت. لماذا؟ لا أدري.. لكن في الليل وأنا في سريري أقلب الأمر بطناً لظهر وظهراً لبطن، أدركت أن علي أن لا أصدم هكذا.. هي الدنيا مصالح ومنافع.. وتلك هي فرصتي لكسر الطوق وإقامة جسر يصل بيني وبين عاصم، أشد أخوتي عداء لي ومراقبة لتحركاتي.. فاتحت زميلتي بالأمر فوجدت قبولاً.. كيف لا، وعاصم مكتمل البنية طويل القامة، وسيم بكل ما لكلمة الوسامة من معنى؟ صحيح أنه كان ما يزال ناحلاً لكن الصحيح أنه كان يبشر بمستقبل واعد، فهو سريع البديهة، حاد الذكاء، خفيف الروح يعرف النكتة جيداً ويستخدمها جيداً، أنا التي لم تكن ترى منه غير وجهه العابس وحاجبيه المقطبين، لم تكن تسمع منه غير

الأمر والنهي.. عرَّفته إلى منال فتكشف وجهه الآخر.. وجه من يريد إغراء الأنثى والاستحواذ على إعجابها.. وأعجبت به منال.. لم أكن قد حدثتها عن علاقتي السابقة به، ولا عن ظروفي العائلية القاسية.. بل قدمته لها أخاً غالياً، صلة رحم حميمة.. كانت منال على أهبة الاستعداد للوقوع في غرامه، مراهقة لا يشغلها إلا الجنس الآخر، فلم تمض أيام إلا وهما يتواعدان ويتلاقيان، من وراء ظهري ومن أمامه.. لم يزعجني ذلك بل كنت في غاية الفرح فقد انعكس علي ذلك راحة وانفراجاً.. بل لعله هو نفسه ما جعلني أتلفت حوالي، أنظر إلى الفتيان، أفكر في نفسي فقد بت أحس بمشاعر غريبة تعتمل في داخلي.. أجل.. أعترف لك يا سميتي، ذلك الكره للرجال، الخوف من الرجال، باتا يمتزجان بانجذاب إليهم واهتمام بهم.. لكن ما إن أذهب إلى البيت، أرى الوجوه المدلهمة، النظرات الصارمة حتى أعود فأنكفئ على نفسي مدركة أن قدري غير قدر منال، حظي غير حظ رُبى أو أية فتاة أخرى تعيش في كنف أم تحنو عليها وترعاها.

وهكذا، طوال ذلك العام والعام التالي ظللت نهبة التمزق، الفتيان يراودون أحلامي، يشغلون ذهني، لكنني لا أجرؤ على مد جسر مع أحدهم. كنت خائفة والخوف يقطع الجوف. رُبى مشغولة بالدراسة، هي إلى جانبي في الغرفة تدرس وتدرس تريد أن تحصل على أعلى العلامات، فيما أنا أفتح الكتاب لأشرد، أحاول أن أقرأ فلا أفهم، أكنت أقل ذكاء منها؟ أم تراها الظروف أراحتها وضيقت علي؟ رُبى تحلم بأن تكون طبيبة أو صيدلانية، لكن، أنا بماذا أحلم؟.

صدقيني، سميراميس، كل ما كنت أحلم به هو أن أتحرر من ربقة القيود التي تكبلني، أن أخلص من مهانات ضرة أمي، من احتقار أخوتي، إهمال أبي، فلا أظل الفتاة المسترقة، موضع الشك والريبة بينهم.. المتهمة الآثمة لديهم..

كنت أعلم أن تحصيلي العلمي هو وحده الذي سينقذني.. أن حصولي على شهادة عالية هو طريقي إلى كسر الطوق والخروج إلى الحرية والحياة، وكنت أدرس، بل أعترف لك، أرغم نفسي على الدراسة، فالشرود كان عدوي.. انشغال البال خصمي الذي لم أستطع قهره.. وما أكثر ما كان يشغل بالي: أمي، أين ذهبت؟ لماذا تخلت عني؟ لماذا لم تحاول إرسال خبر واحد إلي؟ أبي إلى متى سيظل آخذا إياي بجريرة أمي؟ الضرة إلى متى ستظل حاملة لي ذلك الحقد الأسود؟ أخوتي.. أهل أبي.. كل من يعرف أنني ابنة ميس إلى متى يرسمون حولي إشارات الشك والاستفهام؟ تلك كانت شواغلي فكيف تراني أستطيع التركيز؟ كيف يمكنني فهم الرياضيات والفيزياء، العلوم والكيمياء، ومسائلها أعوص علي من متاهة ثورندايك؟ أأطلب إلى أبي أن يأتي لي بمدرس خصوصي.. كيف ورُبى ذاتها لم تطلب ذلك؟ هي تدرس بنفسها.. لا عون ولا مساعدة.. لكن رُبى لا يشغل ذهنها شيء، هي خالصة مخلصة لدراستها، وهي بارعة في حل

مسائل الرياضيات والفيزياء.. حاولت الاستفادة منها، مجاراتها، لكن عبثاً.. هي الفرس المجلية وأنا السكيتة فكيف نسير معاً؟ لم يكن لديها وقت تهدره علي وكنت أخجل من نفسي أن أثقل عليها، أضيع وقتها هي التي كانت تشكو دائماً من ضيق الوقت..

وهكذا، لم يفاجأ أحد حين ظهرت نتائج الثانوية ونجحت رُبى بدرجات تؤهلها لتحقيق حلمها في دراسة الطب، فيما أنا رسبت.. احتفل الكل بنجاح رُبى، أقاموا لها حفلاً بهيجاً، قدموا الهدايا، أما سميتك، سميراميس، فلم تسمع كلمة مواساة واحدة، بل لم يلتفت إليها أحد وإذا التفت فبنظرات شزراء وددت معها لو تخسف الأرض تحتي فلا يراني ناظر.. وحدها رُبى قالت لا عليك سميرة.. عليك أن تعيدي السنة تجدي وتجتهدي علك تحصلين في العام القادم على درجات عالية. هزت الضرة رأسها ساخرة "من أين والمكتوب مقروء من عنوانه؟" فيما علق كمال" يا طالب الدبس من قفا النمس" وضحك ضحكة مجلجلة أحسست بها تنغرز خناجر في صدري، ففررت بنفسي إلى غرفتي أنشج وأبكي.

ذلك الصيف بكيت كثيراً، إذ عاد الحصار يحكم طوقه علي.. لم تعد هناك مدرسة فأين أذهب؟ ليس هناك جامعة أسجل فلماذا أخرج؟ بضع مرات فقط احتاجت إلي ربى أذهب معها إلى هنا في الجامعة أو هناك، تخرج أوراقاً، تصدق وثائق، وكنت بفرح أذهب، بنشوة أرافقها، فأخلص معها من ربقة البيت واستعباد ربة البيت. تلك التي تفيق باكراً وتكره لأحد أن ينام فكيف بجاريتها الرقيقة؟ كان أول ما تفعله أن تأتي إلي "انهضي ويلك، لدينا شغل كثير، أم تريدين أن تنامي حتى الضحى؟ هيا.. أسرعي"، وكنت أسرع.. أبي.. أخوتي.. يذهبون كل إلى عمله.. لنبقى وحيدتين، تريني فنون إذلال لم تعرفها امرأة قط.. "تباً لك!! ألا ترين الوسخ على هذه الصحون؟ اجليها مرة ثانية واجليها مرة ثانية.. "كنست الأرض!؟ لا، لا.. اكنسيها مرة ثانية.. امسحيها مرة ثالثة.. أريدها أن تلمع كالمرآة.. " وأمسح الأرض حتى تصير كالمرآة، دون اشتكاء، دون تذمر، كنت أعمل، إذ كنت أدرك أن علي أن أواجه قدري مفردة وحيدة، لا يسمع لها أحد ولا يراها أحد، فلماذا الشكوى إن لم يكن هناك من يسمعك أو يراك؟ كان علي أن أفعل كل شيء في المنزل وهي ترقبني واضعة يديها حول خاصرتيها، ناهرة بي صارخة.. فأنا التي تفرم البصل، تقشر البطاطا، تغسل، تشطف.. خادمة دون أجر.. كانت تنتقم بي من أمي ولم أكن أملك حيالها حولاً أو طولاً.. ظللت رهن أمرها.. من الصباح حتى المساء، أنفذ طلباتها، أركض هنا، أركض هناك، أشهق ولا ألحق، فأوامرها لا تنتهي وشغل البيت كثير.. حتى شعرت بظهري ينهد أو يكاد.. شعرت أن الاستمرار على تلك الحال من المحال.. فبدأت أشكو.. لربى حيناً ولعاصم حيناً آخر.. وكنت

أجد آذاناً صاغية أحياناً.. لكنهما كانا يحثانني على الصبر إلى أن يفرجها الله.. لكن الله لا يفرج علينا إلا إذا سعينا.. رحت أصل الليل بالنهار تفكيراً واستبصاراً "كيف أخرج من هذا القمقم؟" حتى صار ذلك هاجسي.. لقد رفض أبي تسجيلي في مدرسة خاصة أعيد بها دراسة الثانوية، فأين أذهب؟ "لا تذهبي إلى مكان" قال أبي منذ البدء" ادرسي في البيت وإن كنت شاطرة نجحت بعلامات تؤهلك لدخول الجامعة مثل أختك". لكنني كنت أعلم كما كان هو نفسه يعلم، أنني لن أكون كأختي.. ثمة مواد لا تدخل دماغي البتة.. مواد بيني وبينها حواجز لا يمكن ليدي الواهنتين أن تتسلقاها ولا لرجلي الضعيفتين أن تجتازاها.. مع ذلك رحت أدرس.. في وقتي المستقطع، في الليل، خلسة عن عفريتة القمقم رحت أدرس.. لكن لأرسب أيضا في السنة الثانية.. وحدها السنة الثالثة أنقذتني.. لقد نجحت لكن بدرجات شعرت معها بالخزي، إذ لم تكن تؤهلني حتى لدخول معهد، فكيف بكلية؟.

"لماذا لا أبحث عن عمل؟".. فكرت ذات ليلة وأنا مسهدة لا تعرف عيناي النوم.. كان اليأس قد تمكن مني وكان العذاب قد حفر أخاديد في نفسي، فانبجست الفكرة" ابحثي عن وظيفة تجدي فيها خلاصك.. أو انتحري إن ظللت على هذه الحال"، هنا، لا أخفيك يا جدتي الكبرى أن فكرة الانتحار كانت تراودني لتصدها أشياء كثيرة عني.. في رأس تلك الأشياء أنت، يا سميتي!! كنت أتذكرك دائماً، أستعيد أسطورتك، فأستمد منك القوة.. أراك طفلة مرمية في الصحراء وترفض الموت، يتيمة بلا أب ولا أم وترفض الموت، راعية وحيدة في الصحراء ولا تزداد إلا حباً بالحياة ورفضاً للموت!؟ ثم ألم تكوني قد صرت قدوتي ومثالي، فكيف أنتحر؟ "لا.. لا.. يجب أن أصمد، أصعد، أن أكون سميراميس أخرى.. يجب أن أفعل المستحيل كي أنتقم لنفسي، لأمي فلا أظل ممسحة تحت أقدام الآخرين.. يجب أن أحولهم هم إلى مماسح لقدمي.. "وكان ذلك يجعلني أصمد، لا تقتلعني حتى الرياح.

فكرة الوظيفة استهوتني.. راحت تتنامى حتى بدأت تملأ علي أطراف ذهني كلها.. "الوظيفة طريقي إلى الاستقلال، إلى الحرية، إلى الخلاص" وماذا كنت أبغي سوى الاستقلال، الحرية، الخلاص؟ "رُبى، ساعديني أرجوك.." قلت لها ذات مساء ونحن نتعشى وحيدتين.." تتوظفين، تقضين على كل أمل لك بالدراسة في الجامعة" ردت صادقة العاطفة مشفقة علي، "لن تقضي الوظيفة على شيء.. أنا التي لا تحلم بدخول الجامعة""لماذا؟" "أتريدينني أن أقدم الثانوية عشر مرات؟ أنا فقط أريد أن أخرج من هذا القمقم.. أكاد أختنق ربى.. أكاد أموت.. أرجوك.. ساعديني"، وكانت ربى تعلم أنني في قمقم حقيقي وأن عفريتة شديدة البطش والهول تغلق علي فوهته لتمارس علي أصناف الظلم والقهر كافة.. "وعاصم، هل حدثته بذلك؟"

سألتني وهي تعلم أن من الضروري كسب تأييده قبل طرح المسألة على بساط البحث". لمحت له، فلم يبد استجابة كبيرة".. "لا، لا، ابحثي معه الأمر، دعيه يوافق ثم نطرح الأمر على أبي ونضغط عليه نحن الثلاثة.." انتهزت فرصة وجودهما معاً، هو وربى، وطرحت السؤال "أخي.. عاصم.. الكثيرون يتوظفون على أساس الثانوية، فلماذا لا أتوظف أنا؟" "وما حاجتك للوظيفة؟" أجاب عاصم بعد إطراقة من تفكير "هل قال لك أبوك أنه بحاجة إلى راتبك يتخفف به من عبئك؟" "لا، ليست المسألة مسألة مال أو عبء.. بل مسألة حياة.." وتوقفت الكلمات في حلقي وغصة قهر كبيرة تسد علي منافذ أنفاسي.. فتح عاصم عينيه وكأنما فوجئ بغصتي وقهري، فتابعت رُبى تورد حججاً من هنا وحججاً من هناك، إلى أن بدا وكأنه اقتنع.. "لكن شرط أن تتابعي دراستك" ختم موافقته بنوع من التوكيد الصارم فقلت"هذا حلمي ولن أتنازل عنه أبداً". "إذن فاتحي أباك بالأمر ولسوف نساندك".

لكن كيف أفاتحه إن كانت زوجه موجودة؟ رحت أفكر ليلي ونهاري.. هي ذات تأثير طاغ عليه.. أفترض أن أخرج من تحت نيرها، هي التي تحرث علي منذ الصباح حتى المساء؟ كيف تتركني أفلت هي التي تفرغ شحنة انتقامها فيّ، وتريح نفسها على كتفي!؟ كان الأمر عسيراً وكان علي أن أقتنص فرصة ننفرد فيها به..

ذات مساء من مساءات كانون جاءت الفرصة. كان عاصم في غرفته يدرس وكنت أنا ورُبى في غرفتنا هي تدرس، وأنا أرتاح من عناء النهار، الهم يتأكلني وأنا أفكر بنفسي وسوء حظي، أنا ابنة ميس التي تحمل صليب أمها على كتفها دون أن تكون قد اقترفت ذنباً.. كان الحزن يمسك بتلابيب قلبي فلا يترك لي ذرة من فرح ولا قبسة من ضوء تنير حلكة أيامي..

فجأة ظهر والدي بوجه مضيء وفم بشوش فتفاءلت.. كان، كعادته، يتفقد رُبى، الغالية، التي لا يفتأ يبدي افتخاره بها وإعجابه، فيصعد إلى شقتنا العليا يطمئن على حالها ودراستها، ثم يمضي.. هذه المرة لم أدعه يمضي.. غمزت ربى بطرف عيني أن "هي ذي الفرصة "فتشبثت به تجلسه على طرف السرير وهي خلف طاولة الدراسة.. ثم متعمدة أسهبت في حديث تعلم أنه يحمل له الراحة والبشاشة، فيما أسرعت إلى الغرفة الثانية أهمس لعاصم بالإسراع إلى حيث والدي.. غمزتني رُبى مشجعة، مع ذلك لم أجد الشجاعة لمفاتحته بالأمر، أنا التي لم تجرؤ على النظر في وجهه.. رددت عليها بحركة من يدي أن ابدئي أنت.. فأطلقت زفرة ثم بدأت "أبي.. لي عندك طلب.. أتخجلني؟" "ما عاش من يخجلك ربى.. أنت تأمرين فقط" "حسن.. اسمح لسميرة أن تتوظف" "ماذا؟ سميرة تتوظف؟" "وماذا في ذلك يا أبي؟" أجاب عاصم"خير من أن تظل هنا لا شغل ولا عمل". "هي تدرس، تريد أن تكمل الجامعة.. أليس كذلك يا بنت؟" وجه لي

السؤال وقد قطب حاجبيه من جديد. "الوظيفة لن تؤثر في دراستي.. بإمكاني أن أجمع الاثنتين معاً.. وافق أبي.. أرجوك.. أتوسل إليك". لكنه لم يوافق إلا بعد جهد جهيد كان لربى فيه الباع الأطول، هي التي تعلم كم لها من دالة عليه.. لكن أية وظيفة ستجدين؟" سألني أخيراً، مكرهاً أخاك لا بطل. "أبحث عن وظيفة في إدارة، عمل في شركة أو مؤسسة.." "لا" صاح بشيء من حدة "أي عمل!؟.. لا.. أريد وظيفة محترمة، تكونين فيها محترمة وتحافظين على اسمي وسمعتي" وكدت أطير فرحاً، لقد وافق الرجل الذي يهتم باسمه وسمعته. "ما رأيك إذن أبي؟" تدخل عاصم مقترحا "أنت واسع العلاقات، لك كثير من الصداقات.. ما رأيك أن تسعى لها بعمل، تؤمن لها وظيفة في مكان أنت نفسك ترضى عنه؟" لم يرد أبي لتوه فتابعت أختي مثنية "فكرة رائعة أبي.. بل هذا خير من أن تذهب هي، تبحث بنفسها وتفتش.. تكلم مع أحد معارفك.. أصدقائك.. أنت تعلم.. الوظائف بالواسطة.. وأنت لا تعدم مثل هذه الواسطة". هز أبي رأسه دون أن يجيب ثم خرج مطرقاً لكن عند الباب توقف، تمتم "حسن.. سأحاول.." ثم مضى.. وكأنني على نابض وثبت ملء طولي، احتضنت رُبى بكلتا ذراعي، قبلت أخي على خده الأيمن ثم الأيسر وأنا أغمغم "الله!! كم أنا مدينة لكما بالشكر!! كم أنا مدينة لكما بالامتنان!!" ولم يرقد لي جفن تلك الليلة. رحت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً، أخرج إلى الممر، أفكر، أحلم، ولا أدري إن كان هناك ليل أو نوم.

خمسة أيام، عشرة أيام، عشرون يوماً مرت، ولم أسمع من أبي شيئاً. "أتراه لم يحاول؟ أم حاول ولم يخرج بطائل؟" كنت أتساءل عد الدقائق والساعات بكل رعونة وإلحاح أتساءل وصاحب الحاجة أرعن ملحاح، لكنني لا أجرؤ على سؤال أبي فأسأل أختي، أسأل أخي، ويهز كل منهما كتفيه بالنفي "لا نعلم، لم يقل شيئاً، لم يتوصل إلى شيء". كان علي أن أطول بالي كما كانت تقول ربى، أن أنتظر، كما يقول عاصم.. وانتظرت.. على حر الجمر انتظرت.. مؤرقة الليالي انتظرت.. إذ كنت أخشى أمرين: أن ينكشف الأمر لامرأة أبي فتحول بينه وبين المحاولة، أو أن تخفق محاولته فالبطالة مستشرية في البلد، والوظائف صعبة يدفع الناس الأموال الطائلة للحصول عليها، وتكون النتيجة ان أظل مقيمة في البيت، رهينة حبسي الذي بدا لي وكأنه لا خلاص منه..

لكن لشد ما كنت على خطأ.. فما من حبس يظل إلى الأبد. مهما سمكت جدرانه وعلت أسواره لا بد من أن يجد المرء ثغرة للخروج.. أنت لم تجربي الحبس يا سميتي سميراميس؟ أيامك لم يكن هنالك حبوس للنساء.. فتاة مثلك لم تعرف سوى الفضاء الحر والحياة الحرة.. لكنني أنا جربته.. ولكم كانت تجربة مريرة.. خطواتك محسوبة، كلماتك معلومة، أنفاسك مرقومة.. هو ذا

الحبس، فماذا هنالك أصعب منه؟ أية حياة أشقى من الحياة فيه؟ لكن قديما قال الشاعر:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت إخالها لا تفرج

أجل.. أخيراً فرجت يا جدتي العظيمة.. بعد أن قلبني الانتظار على جمره شهراً وبعض الشهر جاءت ربى تحمل البشرى "سميرة.. مبارك عليك.. ألف مبارك أختي!!" وطرت إليها أعانقها ثم أخطف غلافاً من يدها أفضه بسرعة وأقرأ كتاباً إلى أحد أصحاب الرفعة بطلب توظيفي.. "لكنه طلب توظيف وليس قرار توظيف"، قلت بشيء من صدمة.." لا عليك، صاحب هذا الكتاب لا يرد له طلبا صاحب الرفعة"، قال أبي وقد دخل غرفتي سامعا ما قلته لأختي "غدا تذهبين إليه أنت وربى وهو يتكفل بالبقية"، "حقا أبي؟" تساءلت وأنا لا أكاد أصدق. "حقا وصدقا.. فقط خذي معك شهادتك وهو سيضعك في الوظيفة المناسبة". وتنفست الصعداء.. لكن سرعان ما انكتمت أنفاسي حين أطل الصباح وهممت بالخروج.. "أين بسلامتك؟" سألت الضرة زاجرة وقد اعترضت طريقي أمام المنزل.. لم يفاجئني ذلك، كنت أعلم أنها ستعترض طريقي هي التي تعارض فكرة توظيفي.. أصلا، لهذا اتخذنا للأمر عدته، اتفقنا أنا وربى على الخروج خلسة، والواحدة تلو الأخرى لكن غالبا ما تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.. إذ ما ان نزلت درجتين أو ثلاثا حتى فتح بابها وأطلت بشعرها الأشعث ووجهها القبيح.. بالمناسبة، يا سميتي، ربما كان ذلك أهم أسباب كرهها لأمي ميس.. إذ بقدر ما كانت أمي جميلة رشيقة القوام ذهبية الشعر، كانت هي قبيحة الوجه متورمة الجسم حتى لتحسبيها برميل شحم، شعرها غالبا ما يستعصي على النظافة والأمشاط ليزيد وجهها قبحا على قبح..

"مشوار صغير" أجبتها وأنا أطرق أرضا محاذرة أن أثيرها أو أستفز أعصابها: "مشوار صغير!؟ وشغل البيت، لمن تتركين؟" "لن أتأخر.. ربى تريدني معها ولن أتأخر البتة.." رددت بصوت لا يكاد يسمع فهي لا تكره كمن يرفع صوته في وجهها ويضع عينيه في عينيها "لا، ما حزرت لدينا كنس ومسح اليوم، غسيل وتعزيل، طبخ ونفخ.. وأنا لست خادمة عند أمك تلك العا.. أسمعت؟" "لكنه مشوار ضروري أبي يريدني أن أذهب" "لا أبوك ولا أمك.. أتفهمين؟ أنا وحدي هنا الآمرة الناهية، عودي.. البسي ثياب الشغل وارجعي إلي".. تحيرت في مكاني لحظات أفكر.. ما تراني أفعل؟ عصيانها وخيم العاقبة وطاعتها أوخم، هما خياران أحلاهما مر، فماذا تختارين يا سميراميس؟ "هيا أسرعي.. لماذا تقفين كالبلهاء؟ هيا" ودفعتني من كتفي دفعة كدت أسقط معها على الدرج.. لكنني تماسكت عند أول درجة وقد ثارت نفسي غضبا "لا.. لابد لي من الذهاب.. هذا أمر من أبي وأنا لا أعصى أمر أبي" كان صوتانا

كلتينا قد ارتفعا على ما يبدو، وعلى نحو بلغ مسامع ربى أسفل البناء. صعدت ربى الدرج مثنى وثلاثا "ماذا هناك سميرة؟ ماذا هناك أمي؟" "تريد أن تمنعني من الذهاب" قطعت عليها طريق الكلام "أليس أبي من يريدني أن أذهب؟ "سألت ربى بصوت يمتزج فيه النحيب بالرجاء "طبعا.. طبعا.. هناك عمل علينا أن نقوم به.. موعد لابد من أن نصله في الوقت المحدد أمي" "موعد؟ أنت وهي؟ ولماذا؟ مع من؟" انهالت بالأسئلة علينا رشاً. "أمي" بدأت ربى من جديد ممسكة بذراع أمها وبصوت التضرع راحت تشرح "حرام.. لدى سميرة فرصة.. أبي عمل لها واسطة من أجل وظيفة".. "وظيفة؟" قاطعتها أمها باعقة بعاق عنزة تختنق.. "ابنة ميس تتوظف؟ ماذا؟ جننت أنت وأبوك؟ ألا يفكر لحظة واحدة بما يفعل؟ أم نسي من هي أمها وما يمكنها أن تفعل ان أرخى لها العنان.. هذه الفلتانة بنت الفلتانة؟ "وصعقت في مكاني لا أدري ما أفعل أو أقول، كان كمال وعلا قد سمعاهما الآخران بعاقها، فخرجا يستفسران ويساندان.. لكأن مدفعيتها وهي تنصب على رأسي لم تكن كافية فجاء الطيران والصواريخ لتنقض جميعا هادرة مزمجرة ولأبدو أنا وربى وقد تحولنا بينهم إلى شظايا..

سرعة بديهة ربى هي التي أنقذتنا، فقد أسرعت إلى الهاتف، دون أن يشعر بها أحد، كان الكل منشغلا بي، يصب علي جام غضبه ويغرقني بسيل من الشتائم واللعنات تمنيت معها لو أن الأرض تنشق وتبتلعني، فيما راحت الرفسات والدفعات تعيدني أدراجي إلى المنزل مذمومة مدحورة،.. لكن قبل أن افتح باب شقتي سمعت ربى تصيح"أمي.. تعالي.. أسرعي.. أبي يريدك على الهاتف" وتوقف كل شيء.. الزعيق.. البعيق.. اللكمات.. الرفسات.. فيما بدأت أمها، مستغربة ذلك الطلب، تلبيته بروح المرأة الشرقية التي لا تعرف غير الخضوع والطاعة.

غابت عفريتة القمقم داخل المنزل فيما ظل ولداها في الخارج، ربى تحدثهما وكأنها تحاول إقناعهما بشيء، وهما ينظران إلي بشزر واحتقار.. يا الهي لم كل هذه الكراهية؟ ما الذي فعلته لهما؟ ان كانت أمهما قد أصيبت بضر من أمي، فما الذي أصابهما هما؟ "لكن ما كان باستطاعتي أن أجد الجواب.. كانت المشكلة قديمة العهد.. أمي نفسها لم تستطع حلها، فولت الأدبار في ليلة لا نجوم فيها ولا أقمار دون أن تترك وراءها أية أخبار أو آثار. بضع دقائق ربما، ظللنا مسمرين، كل في مكانه، فيما كان صوت العفريتة يلعلع في الداخل دون أن أستطيع فهم ما تقول، لاشك أنها مشتبكة مع زوجها في جدال حاد لا تبلغنا إلا أطرافه.. كان صوتها فيه ينطلق متدافعا كأمواج بحر في عاصفة.. ناثرا زبده كل مكان..

همد الصوت لحظة ثم ظهرت عفريتة القمقم "اغربي عن وجهي.. اللعنة عليك وعلى أمك" مشيرة بيدها إلى الأسفل، فكدت أطير وأنا لا أصدق أن باب القمقم قد فتح. كنت أكرج

الدرج كرجا.. أرأيت الدولاب يا سميرامس ينزل من أعلى تلة وقد تلقى دفعة من كف عفريت؟ هكذا كنت وأنا أنزل الدرج، في إثري ربى فرحة منتصرة فيما ست عيون أخرى تلاحقنا وقد ملأها الغيظ والقهر.

لم أشعر بالطريق وسيارة الأجرة تدرج بنا على مهل.. كانت ربى تحدثني محاولة التبرير والاعتذار، فيما كنت أنا شاردة وقد سيطر علي هاجس واحد: " يجب أن أتوظف، بأي شكل يجب أن أؤمن العمل".. عند باب عال توقفت السيارة، سألنا، قدمنا اسمينا، عرضنا الكتاب فقيل لنا أن ننتظر.. لحظات ثم جاء أمر آخر بأن ندخل.. حينذاك فقط تأوهت آهة الراحة وكلي إحساس بأن الله سيستجيب لدعواتي، ينقذني من عفريتة القمقم. عبر ممرات ودهاليز قادنا حاجب دمث إلى أن وصلنا إلى مكتب فاخر الأثاث جميل الرياش، وبإشارة منه جلسنا، ليدخل هو مكتبا آخر، بابه من خشب الصندل الثقيل.. نظرت إلى ربى فإذا بها منذهلة متكومة على نفسها تنظر في كل ما حولها وكأنها لا تصدق عينيها. "أيعقل؟" كانت عيناها، مثل عيني، تقولان "هذا البذخ؟ هذا الترف؟ من أين هو يا ترى؟ الأرائك وثيرة واسعة إلى درجة خيل إلي أنها تتسع لسرب من الفتيات أمثالي.. هي رخية ناعمة كذراعي عاشق.. تغوص فيها وتغوص.. الثريا ذهب خالص.. مقابض الأبواب ذهب خالص" يا الهي!؟" بدأت هامسة متعجبة لكنني لم أكمل، فقد خرج الحاجب مشيرا إلي "الآنسة سميرة؟" "نعم" أجبت بهزة من رأسي، فقال محددا ناظريه.. "تفضلي آنستي".. نهضت لكن قبل أن أخطو أول خطوة نظرت إلى أختي أريدها أن تنهض معي، لم يدعني أكمل نظري إذ قال آمرا.. "صاحبة الحاجة فقط تدخل أما الأخرى فتنتظر"، وخيل إلي أنني صرت بلا لسان، بل حتى ربى بدت بلا لسان، وهي تعاود الجلوس.. بدأت السير وراءه وكأن في ساقي قيدا من حديد يجلجل ويصلصل جاعلا قدمي تتعثران وخطواتي تقصر، أنفاسي تتقطع وأوصالي ترتعش.

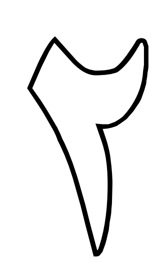
سميراميس، يا جدتي العليا، أتذكرين يوم التقيت بقائد آشور منونيس، وقد لفت نظره بشجاعتك وإقدامك؟ بدفاعك المستميت عن راعيك، ملك كلدان؟ ربما أنت لا تذكرين لكنني أنا أذكر حتى اليوم تلك اللحظة التي التقيت فيها بمنونيسي أو بالأحرى "مؤنسي" ذاك الذي غدا المشكاة التي أضاءت حياتي، مبيدة ظلماتي.. هنا أيضا نلتقي يا سميراميس.. فالرجلان كلاهما يحملان الاسم نفسه.. الأول قائد آشور منونيس.. والثاني صاحب الرفعة مؤنس أليسا اسما واحدا أو شبه واحد؟ لكن المنقبين الغربيين عن آثارنا يجدون كتابات لا يجيدون قراءتها فيشوهونها: يحذفون حرف علة أو يضيفون آخر فتجيء الأسماء غير الأسماء والشخوص غير الشخوص والمدن غير المدن.

"أوه!! أنت ذات جمال أخاذ" غمغم صاحب الرفعة كالمسحور وهو يمد يده إلى يدي، يتلمسها، يشد عليها ثم يحولها كامخاً بين شاطر ومشطور.. جسداً وروحاً.. كنت أرتعش مبهورة منقطعة الأنفاس، فالمكتب الواسع الشاسع حتى لتطارد فيه الخيل، الستائر المخملية، الأرائك الوثيرة، الجدران الخشبية، السجاد الأعجمي.. كل شيء كان يقطع الأنفاس.. "تفضلي.. اجلسي" وجلست غائصة في أعماق أريكة رضية رخية لم أعرف مثلها من قبل، فيما جلس هو إلى جانبي متفحصا إياي، من أخمص قدمي إلى قمة رأسي، ومن قمة رأسي إلى أخمص قدمي". يا إلهي!! أهذا هو الامتحان الذي سأنجح فيه أو أرسب.. نجحني يا رب! وبدا أن الرب استجاب لدعوتي إذ سرعان ما مضى إلى طاولة مكتبه، أعاد قراءة الكتاب الذي حملته إليه ثم قال"سميرة، تريدين وظيفة؟" ولم أدر من أين عدت فاستخرجت صوتي. "ان تكرمت يا سيدي" كان صوتي ما يزال يرتعش أبح ضعيفا ربما لم يسمعه إلا بالكاد، لكنه تبسم بكثير من المودة ثم قال "كنت سأتكرم كرمى لمن أرسلك بهذا الكتاب، لكنني الآن سأتكرم كرمى لعينيك.. الخضراوين الجميلتين أليست عيناك خضراوين جميلتين؟" تساءل وهو يقترب من جديد ليتفحص عيني عن كثب، "لا.. لا أدري يا سيدي" معقول؟ فتاة لا تعرف لون عينيها، أين المرآة إذن؟" وضحك بقهقهة مجلجلة أفزعتني. أنا بالحقيقة لم أكن أعرف لون عيني.. فهما أحيانا زهر فول، وأحيانا عسل نحل وأحيانا ثالثة سندس مروج.. أو لعلهما كانتا مزيجا من ذلك كله يتغير لونهما حسب الضوء والمزاج.

لكنه لم يتوقف كثيرا عند ذاك.. لكأن صمتي أعطاه الجواب الذي يريد. عاد إلى طاولته، ضغط زر انترفون، وبلهجة حاسمة مقتضبة قال"أصدروا قرار تعيين باسم سميرة دك السور في مؤسسة الفضيات" وفرحت.. إنها المرة الأولى بعد المدرسة لا يطرق سمعي فيها اسمي الآخر سميرة بنت ميس، ليكون سبة ووصمة عار.. دك السور.. اسم جميل يدل على القوة والعظمة، فمن يدك الأسوار غير الأبطال؟ لكنني توقفت من شرودي وهو يتابع بنبرته الحاسمة إياها. "الآن، في الحال.. ثم لا تعطني أحدا وأرسل لي فنجاني قهوة." بعدئذ أغلق الانترفون وهو يجلس على الكرسي الفاخر وراء طاولته الفاخرة.. "تشربين القهوة، أليس كذلك؟" "كما تريد يا سيدي" قلت بالمنعكس الشرطي ذاته دون أن أتيح لنفسي التفكير حتى بأختي التي كانت تتقلب هناك، ولاشك، على نار الجمر. مرتين أو ثلاثا فكرت أن أطلب إليه إدخالها إلينا فنشرب القهوة نحن الثلاثة، لكن لساني لم يطاوعني. صدقيني، سميراميس، كان لساني يتلجلج في فمي متيبسا كقطعة من حطب.. مهيبا يا سميراميس كان مؤنسي، هيبته تغلغلت في أعماق أعماقي فكيف يتحرك اللسان مع هيبة كتلك؟ أهكذا كان منونيس يا

سميتي؟ أهذا ما حدث لك أول مرة تلتقيان؟ لكن لا!! أنت كنت فارسة تقاتل، رآك أول ما رآك في ساحة الوغى تنجدين ملك بابل وتضمدين جراحه، أنت كنت مزودة بالسيف والترس، بالدرع والرمح، وبسنوات عديدة من خبرة الميدان والقتال.. لكن ما تراه كان زادي أنا التي كانت طوال عمرها حبيسة القمقم والمهانة؟ لم تضرب بسيف ولم تطعن برمح فمن أين تأتيها الشجاعة والإقدام؟ عشرات الأسئلة طرح علي لكأنه كان يريد أن يعرف كل شيء عني.. ولقد أجبته.. لا أدري كيف لكنني أجبته.. كنت أشعر أن تلك هي ساعة الحسم، إما الهلاك وإما النجاة.. إما الموت وإما الحياة وقررت أن أحيا فأجبت ورأيت الإعجاب في عينيه.. جاءت القهوة فجاء يجلس إلى جانبي، متأملا إياي "أيراني أنثى يا ترى؟ أينظر إلي كما ينظر الرجل إلى المرأة؟" رحت أتساءل وأنا أسترق النظرات خلسة. لم يكن يخطر ببالي أن صاحب رفعة عظيم الشأن مثله ينظر إلى مثلي أو يفكر بمثلي، لكنني بدوت غرّة جاهلة كما بدوت أنت غرة جاهلة وقائد آشور يستدعيك وكل ظنك أنه سينتقم منك، سيضرب بالسيف عنقك.. "اسمعي" بدأ بكل لطف ورقة "الآن تستلمين قرار تعيينك في مؤسسة الفضيات.. أنت تعرفين مؤسسة الفضيات.. هي وسط المدينة.. لن يكلفك الذهاب إليها أي جهد.. سأجعلهم يضعونك في مكان جيد، مكتب صحي مناسب، وتكونين على ما يرام.. أربعة وعشرين قيراطا فما رأيك؟ "رأيي؟ الله يا سيدي.. أنا كثيرة الامتنان لك.. عظيمة الشكر.. بل الحقيقة لا أدري كيف أشكرك" "أنا أعلمك كيف؟" "حقا.. وأنا على أتم الاستعداد" قلت صادقة مخلصة وأنا أرى الخلاص بعيني فتنفك الرعشة عن جسدي وأستعيد ثقتي بنفسي.. في تلك اللحظة دخل رجل بشاربين كثين كمقشة خرجت لتوها من يد الصانع. ثم حيا بكل مهابة واحترام، مقدما بيده اليسرى كتابا وباليمنى قلما، أخذهما صاحب الرفعة ثم وقع الورقة توقيعا بدا لي كبيرا كنسر فارد جناحيه. أعاد القلم إلى الرجل فتراجع مسرعا، فيما مد يده بالكتاب إلي لأقرأ فيه قرار تعييني كاملا مكملا لا ينقصه شيء. فتحت وأغمضت عيني مرات عدة وأنا لا أصدق، ثم هممت بالنهوض وأنا أغمغم بالشكر، فأمسك بيدي يقعدني من جديد "لا.. أنت طلبت إلي ان أعلمك كيف تشكرينني. أليس كذلك؟" "بلى يا سيدي". "إذن هكذا يا حلوتي". واقترب من وجهي، مادا شفتيه هاما بتقبيل شفتي. ودون أن أدري، رأيتني أثب متراجعة إلى الوراء. فوجئ صاحب الرفعة بل أصابه ما يشبه الصدمة. "ما هذا؟ ألن تشكريني بقبلة فقط؟" "لا يا سيدي، أرجوك، أنا لا أعرف هذا الشيء، أنا عذراء يا سيدي لم يقبل فمي غير أمي".. "عظيم!! هذا أحسن.. أجل أنت من كنت أبحث عنها، عذراء لم يقبل فمها غير أمها". وتقدم مني فتراجعت. أسرع متقدما فأسرعت متراجعة، لكن بدا وكأنما استفزته حركتي

فغذ خطاه باتجاهي، غذذت خطاي أيضا وأنا أصل إلى طاولة الاجتماعات لديه في مكتبه الشاسع الواسع الذي تطارد فيه الخيل، صرت في الجانب الآخر منها وهو في الجانب الأول، عيناه تقدحان شررا، ووجهه محمر مزرد "يا الهي!! يريد اغتصابي!!" وتراجعت فيما بدأ يجري حول الطاولة وأنا أجري هاتفة به"لا يا سيدي.. أرجوك يا سيدي.. أتضرع إليك يا سيدي.. اعف عني يا سيدي" وأنا أتعثر بهذا الكرسي، بتلك السجادة لكنني أجري.. غزالة رشيقة أمام سبع عجوز.. دورتين، ثلاثا، أربع دورات لا أدري كم درنا، حين توقف لاهثا منقطع الأنفاس.. "ترفضينني؟" قال من بين أنفاسه المتقطعة.. "إذن لا وظيفة.. هاتي كتابك" فصعقت "لا.. لا يا سيدي.. أرجوك أتوسل إليك".. قلت متضرعة وأنا أقترب منه أركع عند قدميه يكاد الخوف يلجم لساني "كل شيء إلا الوظيفة.. حياتي وموتي في هذه الوظيفة". "إذن، اعلمي أن لكل شيء ثمنا.. وان كنت تريدين الوظيفة فعليك أن تدفعي الثمن".. "أدفعه يا سيدي.. أدفعه.. لكن ليس هنا.. أرجوك.. ليس وأختي هناك في الخارج.. ليس وأنا كلي خوف ورعب". وكأنما هدأ قليلا ربت بباطن كفه رأسي ثم قال "حسن أرسلك مع السائق في سيارتي تباشرين عملك هناك في المؤسسة ثم تعودين معه إلى مزرعتي.." "حسن.. أعود يا سيدي.. أعود.. لكن غدا أرجوك.. ليس اليوم يا سيدي.. بل غدا.. أتوسل إليك" "غدا.. حسن.. غدا" قال وهو يتلمظ بلسانه مقتربا من خدي طابعا قبلة سريعة عليه مستأنفا "وماذا في ذلك؟ غدا.. وان غدا لناظره قريب".



(بعد أن رأى بطل آشور وقاهر الكلدانيين القائد منونيس تلك الفارسة الجميلة ذات الشعر الفاحم وهي تضمد جراح ملك بابل.. تملكت خياله.. ولم يعد يرى سوى وجهها الجميل وقامتها الهيفاء.. صارت الفارسة هاجسه ثم ما ان سأل عنها وعلم أنها ابنة الراعي سيمو حتى راحت تقض مضجعه أكثر فأكثر، إذ لا أروع من سحرها سوى بأسها وليس أعظم من جمالها سوى إقدامها، وغدا، هو قاهر بابل وقد قهرته ابنة بابل، النوم يجافيه والحيرة تغلبه إلى أن جاءت لحظة حزم فيها أمره وقد رأى أن لا مفر له ولا خلاص. أرسل منونيس للراعي سيمو يأمره بالمثول أمامه على جناح السرعة وفي صوته نبرات صارمة "أصخ السمع أيها الكلداني.. أريد ابنتك.. سبية من السبايا" "ماذا؟" رد سيمو وفي عينيه شرر "لا.. أيها القائد.. سميراميس تقتل نفسها ولا تذهب سبية من السبايا أو جارية من الجواري".. ودون إبطاء رد الفارس منونيس "إذن زوجة وسيدة لهذا القصر". فرح سيمو وأسرع إلى الراعية الفارسة. لم ترفض سميراميس ما نقله والدها بالتبني لها، فقد كانت أكثر حكمة من أن ترفض طلب قائد آشور، هو الذي يستطيع أن يحولها إلى أمة رقيقة يبيعها في سوق النخاسة، بل أن يقتلها أو يفعل بها أي شيء.. عدا عن ذلك، كانت سميراميس قد أمعنت فيه النظر لحظة وهي تفر بالعربة الملكية منه، وكان قد أعجبها، رجل لا كالرجال، وفارس لا يضاهيه فارس.. لقد وقع في قلبها، وبحدس الأنثى ووحي السماء عرفت أنه هو رجلها.. هو قدرها الذي كانت تنتظره، فأومأت لوالدها برأسها أن "أوافق يا أبت". لكن قبل أن تزف إلى القائد الآشوري كان لابد لوالدها من أن يوصيها وصيته الأخيرة "ابنتي سميراميس" قال لها الراعي الذي أحبها أكثر مما لو كانت ابنته من صلبه. "هاتان التعويذتان" وأشار إلى تعويذتين تتدليان من عنقها لتختبئا بين نهديها "أرجو أن لا تفارقا عنقك مهما أحاط به من حلي ومجوهرات". تعجبت سميراميس، فقد كانت التعويذتان في صدرها منذ طفولتها لكنها لم تكن تظن أنهما بتلك الأهمية، فقالت مستغربة "لكن لماذا يا أبت؟" "هذه التميمة" أجاب الوالد بالتبني "لكي تحميك من القتل، وضعتها في عنقك أمك الربة درسيتو. "إذن سأحافظ عليها بكل ما أوتيت من قوة" ردت سميراميس التي كانت تعرف جيدا أن أمها الربة درسيتو، فتابع الراعي سيمو "وهذه التميمة الثانية وضعتها في صدرك إلهة الحب والخصب والجمال، ربة بابل، عشتار، علها تحميك من نفسك وتكبح جماح شهواتك، فلا تدعيها تفارق عنقك أيضا." ووعدت الابنة المطيعة سميراميس والدها سيمو بالحفاظ على التميمتين، ثم دون عرس، دون احتفال، انتقلت سميراميس من أحضان أبيها الكلداني إلى أحضان قائد آشور منونيس..).

وهكذا، كما انتقلت أنت يا سميتي إلى عالم جديد انتقلت أنا إلى عالم جديد كل الجدة.. لم يكن الكتاب الذي أخذته من "مؤنسي" سوى التعويذة التي ستفتح لي باب الحياة على مصراعيه، وكان في صدري مثلك أيضا تميمة وضعتها أمي مذ كنت طفلة أرضع ثدييها.. فهي ابنة عشتار والعابدة في معبدها، كانت تعلم ما تريده عشتار وما تأمر به رعيتها من النساء المقهورات المسحوقات اللواتي كن عرضة دائما للسبي والقتل، لظلم الرجال واستعبادهم. وكانت أمي توصيني، مذ وعيت الدنيا، بأن أحتفظ بتلك التعويذة في صدري، أما مؤنس فقد أوصاني بأن أذهب بتعويذته إلى مدير المصلحة في الحال.. لاستلام العمل لديه.

خرجت أرقص فرحا من لدنه لأجد أختي تشتعل قلقا وخوفا.. أرادت أن تسألني، أن أجيبها لكنني تابعت طريقي منطلقة كالسهم. كان سائقه يسير أمامنا وأذنه وراءه جاهزة لاستراق السمع، فأشرت لها بوضع إصبعي على فمي ونظرة تحذير من عيني.. في السيارة فقط أريتها الكتاب القاضي بتعييني في مصلحة الفضيات، فاندلقت علي تقبلني فرحا "الحمد لله.. وجدت أخيرا خلاصك.. لكن لماذا تأخرت؟" همست في أذني فلا يسمعنا السائق الذي كان لا يفتأ يرسل أذنيه وراءه وكذلك عينيه، فاستراق السمع مهنته واختلاس النظر هوايته. "ماذا أقول لك؟" أجبت بنبرة الهمس ذاتها "عشرة هواتف لديه.. لا يرد على هاتف حتى يرن آخر ولا يجيب آخر حتى يرن اثنان.. فلم يتح لي الوقت لأكلمه بقضيتي إلا وقد طلعت روحي.. مسكين.. كم هو مشغول!! لا يجد دقيقة من فراغ" كذبت، وكانت تلك بداية الطريق، فقد خشيت إن قلت لأختي ما جرى معي في ذلك المكتب الفاخر الذي تلعب به الخيل، أن يقشعر بدنها ويقف شعرها وتمضي إلى أبي تطلق أبواق الإنذار، فيقع على رأسي الويل والثبور..

لم يدعنا السائق ندخل إلى المدير بمفردنا، بل تقدمنا بخطاه الواثقة حاملا تعويذتي بيده. أهكذا كانت تعليمات صاحب الرفعة؟ يبدو كذلك يا سميتي فأنت تعلمين، قائدك منونيس كان هكذا يعطي تعليمات محددة ولا يستخدم إلا الجند السميعين المطيعين الذين ينفذون أوامره دون تردد أو تذمر. بالترحاب استقبلنا المدير، هاشا باشا يكاد ظهره ينقصم وهو ينحني للتعويذة التي قدمها له السائق الذي حل محلي في الخطاب، حتى حسبت نفسي لا أعرف الخطاب.. "أيعجبك هذا المكتب؟" قال لي المدير وهو يقودني بنفسه إلى غرفة يتصدرها رجل أشيب سميك النظارتين هب ملء طوله وقد رأى المدير يقتحم عليه خلوته. "يعجبني" رددت باقتضاب وأنا أتفحص الغرفة التي لم يكن فيها سوى ذلك الأشيب سميك النظارتين.."ستساعدينه في أعمال المحاسبة، رزق الله علمها.. على مهل.. لكن علمها.."

"حاضـر، سـيدي المـدير" قـال رزق الله فالتفـت إلـى المـدير "غـدا صـباحا سـتجدين طاولتـك وكرسيك وكل ما تحتاجين.. أهلا وسهلا بك.. وعلى الرحب والسعة".

وكـان ذلـك النـصر الأول الـذي أسـجله في حيـاتي تلـك الـتي لم تـشهد سـوى الهـزائم والانسحاقات. كان استقبال المدير يبهر ووداعه يبهر، فلم تستطع ربى إلا أن تنقل انبهارها ذاك إلى البيت.. "مكتب فخم ستكون فيه مع موظف واحد". "وما هذا الموظف؟" سأل أبي "هـو أشيب أهتم محني الظهر.. نظارتاه بسماكة هذا البلور" وأشارت إلى البلور المحجر في نافذة علوية يحجب نصف أشعة الشمس. "حسن.. لكن عليك أن تنتبهي منذ الآن.." تابع أبي مشيرا بسبابته إشارة التحذير والتهديد "لا كلام مع موظفين.. لا علاقات.. لا ذهاب ولا إياب.. من عملك إلى بيتك ومن بيتك إلى عملك، أتسمعين؟" "تأمر أبي" "السمعة.. الشرف.. الأخلاق هذا ما أوصيك به" "تأمر أبي" كررت من جديد وأنا أستعيد في ذهني الوصية التي أوصاك بها والدك بالتبني، يريد منك الحفاظ على تعويذتين إحداهما تحميك من نفسك وتكبح جماح شهواتك، لكن من تراه يكبح جماح شهوات الآخرين وقد عاد إلى مخيلتي جريي وراء الطاولة ومؤنس يجري ورائي.. "لا أريد وجع رأس أبدا" تابع أبي بصرامته وحاجبيه المقطبين.. "توجعينني رأسي أعيدك إلى المنزل وأقفل عليك بالقفل والمفتاح" وارتجف كل ما فيَّ، ثم بلعت ريقي وأنا أتصور نفسي عائدة إلى القمقم تغلق علي فوهته وتقف حارسة عليه عفريتتي الرهيبة تلك التي لم تكن تزداد يوما بعد يوم إلا حقدا وانتقاما.. طوال الليل لم يرقد لي جفن.. ربى مستغرقة في سبات عميق على وجهها الهناء وبين شفتيها الابتسامة.. وأنا أتقلب على جمر النار خروفا يشوى على سفود موقد.. "ماذا أفعل غدا؟ مؤنس يريد الثمن وأبي يقف لي بالمرصاد.. زلة واحدة ويقطع رأسي".. أجل يا سميتي كنت أعلم أن أبي الصارم الممتلئ حقدا علي وعلى أمي لن يسامحني أبدا إذا ما أخطأت.. بعظمة لسانه قال"لا أريد وجع رأس" مهددا إياي بإعادتي إلى القمقم وإقفاله بالقفل والمفتاح، فماذا ان علم بما يريده مني صاحب الرفعة ذاك الذي أرسلني إليه لقمة سائغة على طبق من فضة؟".

كنت على مفترق طرق يا جدتي الكبرى، فتاة غرة حائرة لا تدري ما تفعل.. أسئلة كثيرة تدور في رأسي، مسائل كثيرة بحاجة إلى حل.. ولا أحد حولي أسأل أو أستشير.. كان علي أن أقرر بنفسي، أن أواجه مصيري وحدي، وتذكرت.. ألم تقرري أنت بنفسك؟ ألم تواجهي مصيرك وحدك؟ كان منونيس عدوك.. هو قائد آشور ذاك الذي كنت تحاربين قبل يوم واحد فقط.. وهو قاتل ملكك وقاهر مدينتك بابل، مع ذلك قررت بنفسك ألا ترفضي طلبه، أن تذهبي إليه عروسا مجلوة على طبق من ذهب.

هكذا فعلت حفيدتك يا سميراميس!! قررت أن أذهب إليه وأن أواجهه.. عند ذاك فقط نمت، ومع أشعة الصباح الأولى أفقت.. لكن لأجد نفسي في ذروة نشاطي وحميا حماسي.. كان علي أن أبدأ حياة جديدة.. موظفة تداوم في الصباح، لتثبت جدارتها بالراتب الذي ستقبضه آخر الشهر..

لم يرحب بي رئيسي، ذلك المحاسب الأشيب ذو النظارتين السميكتين ولم يعبس بي، بل اكتفى بقول بضع جمل يعرفني بها إلى المكتب وأعمال المكتب، دافعا إلي بسجل أنقل إليه أرقاما وحسابات من سجل آخر.. لم أجد في ذلك ضيرا.. الرجل غير معني بي.. لا يريد أن يكون سلبا ولا إيجابا تجاهي.. حسن.. ماذا أريد غير ذلك؟ لو وضعوني في جحر خارج القمقم ذاك لرضيت، فكيف بغرفة واسعة حسنة الأثاث فيها هاتف وطاولة وكرسي وأوراق أعدها المدير لي قبل وصولي؟ "سأنكب على سجلي هذا فلا أرفع رأسي. لم أكن أريد أن أختلط بأحد أو أتعرف إلى أحد.. كنت حريصة أن أنفذ أوامر والدي فلا أسبب له وجع رأس.. ثم لم العجلة؟ أليس في العجلة الندامة وفي التأني السلامة؟ "إذن تأني سميرة.. ارصدي وراقبي ثم انظري ما يحدث".

في العاشرة والنصف جاء الآذن مسرعا "سيادة المدير يريدك" ورفع رئيسي الأشيب رأسه بنظارتيه السميكتين محملقا، سألته برأسي"هل أذهب" فأومأ برأسه كأنما يقول "وهل أستطيع إلا أن أوافق؟" حملت حقيبتي وأسرعت إلى المدير وكلي رجاء ألا يكون سبب دعوتي هو نفسه سبب خوفي.. لكن رجائي خاب إذ ما ان دخلت مكتبه حتى رأيت السائق نفسه هناك "صاحب الرفعة يطلبك"، قال المدير مبادرا. "هناك بعض الإجراءات لابد من استكمالها." وكان ذلك الاستكمال هو ما أخشاه.. لكنني كنت أعلم أيضا أنه لابد مما ليس منه بد.. وأن اليد التي أعطت تريد أن تأخذ.. فأومأت برأسي للمدير أنني جاهزة ثم تبعت السائق وأنا مطرقة.

كنت خائفة، بل لا أخفيك رحت أرتعش مفاصل وأوصالا والسيارة تنهب بي الأرض وقد خرجت خارج المدينة. "إذن صاحب الرفعة لا يضيع الوقت.. هاهي السيارة تأخذك إلى المزرعة، قد حان حينك يا سميراميس". رحت أتمتم مرتعشة كالمقرورة. أجل يا سميتي كان خوفي من الرجال قد عاد إلي مصحوبا بتلك الكراهية القديمة.. هل راودك مثل ذلك الشعور وأنت تذهبين إلى قصر منونيس؟ أنا واثقة أنه راودك.. أنت التي خضت المعارك ضده!؟ أنت التي رأيت أهل مدينتك بابل يقتلون على يديه.. أسوار بابل تدكها مجانيقه.. رفاقك في المعركة يجندلون بسيفه ورمحه.. كيف تراك لا ترين فيه العدو القاهر الظالم؟ يريد أن يدك أسوارك كما دك أسوار بابل.. أن يهرق دمك كما أهرق دم أهلك ورفاقك!! لكنك قلت، كما قلت أنا ولاشك، لابد مما ليس منه بد ومضيت أنت راعية الإبل إلى قصره الفخم لتصبحي سيدة ذلك القصر.. لكن هل كنت

أنا سألقى مثل تلك الخطوة؟ هل سأصبح سيدة تلك المزرعة وذلك القصر؟" "اسمعي" قال لي وقد استقبلني بوجهه البشوش وابتسامته العريضة "أريدك أن تأخذي راحتك هنا تماما.. تتصرفي وكأنك في بيتك". لكنه لم يكن بيتي. كان بيته هو، بيت المزرعة الشاسعة الواسعة، حيث تتوفر وسائل الراحة كلها: غرف نوم، "شيمينيه" للشتاء، مسبح للصيف، وكل ما لذ وطاب من أطايب الطعام والشراب.. لكن من يستطيع أن يقارب الطعام والشراب؟.

كانت الرعشة ما تزال تسكنني، وكان الخوف منه، من أبي، من أخوتي، يمسك بتلابيبي حتى لأكاد أشعر بالاختناق. "أرجوك.." قلت له بنبرة كلها ضعف وتوسل "أنا أكاد أموت خوفا.." "تموتين خوفا!؟ لماذا؟ ممن ونحن في أمان؟ بل في أكثر من أمان!! أترين هذه الفيلا الكبيرة الفخمة؟ ليس فيها أحد سوانا.. خادم واحد فقط يقوم بخدمتنا الآن.. وهذا الخادم أعمى أصم أبكم.. مثله مثل السائق الذي جاء بك.. أليس هو الآخر أعمى أصم أبكم؟" "بلى".. قلت بقدر كبير من التلعثم، إذ لم أكن واثقة كثيرا من ذلك. "إذن.. كوني على ثقة.. هم جميعا عندي صم بكم عمي لا يفقهون" وضحك مقهقها قهقهته المجلجلة تلك التي كنت قد سمعتها مرة من قبل. "أنا هكذا أنتقيهم.. فأنت تعلمين؟ سمعة المرء أهم ما يهم المرء، خاصة من كان في مقامنا ومكانتنا.. كريستين كيلر أطاحت بوزير في بريطانيا.. ونحن حريصون ألا يطيح بنا أحد.. "وشعرت بكف من راحة تمسح داخلي.. تهدئ من بلبالي.. "إذن، هم يخافون أيضا.. فاستفيدي من خوفهم سميراميس".

"هه.. ماذا؟ أنت لا تتكلمين؟" قال وهو ينهض إلى بار كبير في صدر القاعة الواسعة المدفأة، الفاخرة، "نشرب كأسا أولا.. فتهدأ نفسك، وتطمئن أفكارك.. ماذا تشربين؟" "أشرب.. أنا عمري لم أشرب غير الماء" أجبت وقد احمر خداي، كأني اقترفت موبقة. "اسمعي.. من الآن فصاعدا ستشربين.. أتدرين لماذا؟" "لماذا؟" "لأن الشراب أروع متعة من متع الحياة.. ولأنك الآن تبدئين الحياة" "أبدأ الحياة؟" تساءلت في سري وأنا أعلم أنني أبدأ الحياة، ثم رفعت صوتي أستفسر "ماذا تعني يا سيدي؟" "لا تقولي سيدي.. أنا هنا مؤنس.. مؤنس فقط وأنت سميرا.. سميرا فقط.. تمام؟" "تمام" رددت وقد سرني ذلك حقا فاستأنف "أعني ان كنت تريدين أن تشقي طريقك في الحياة، عليك أن تخلعي ثيابك القديمة وتلبسي ثيابا جديدة، تلقي بأفكارك القديمة وتحتضني أفكارا جديدة بل أقول لك عليك أن تفعلي كما تفعل الحية.. تسلخ جلدها بالكامل لتلبس جلدا جديدا" وتلمست بيمناي صفحة خدي، عنقي، إلى أن وصلت إلى ذراعي "أحقا علي أن أسلخ هذا كله لأصطنع لنفسي جلدا جديدا؟" لكن صوت فرقعة عالية جعلني أجفل قاطعا علي أفكاري دافعا بي من كرسيي لأقف على رجلي. "أوه!! ما هذا؟" صرخت

خائفة وعيناي تتسمران على زجاجة تطلق في الهواء زبدا أبيض كالسهم فيما انطلقت قهقهته هو عالية مجلجلة كفرقعة الزجاجة. "هذه شمبانيا.. سنشرب الشمبانيا، نخب لقائنا الأول.. يوم دخلتنا" وشعرت بنفسي أصدم من جديد، اصطكاك ما ألم بفكيّ، بمفاصلي.. "الدخلة!؟ هكذا دون عرس؟ دون حفل زفاف؟ دون تمهيد أو مقدمات؟" وتذكرت.. أنت أيضا ذهبت إلى منونيسك دون عرس، دون حفل زفاف.. انتقلت بعربته المذهبة إلى القصر، قصر بابل، لكن زوجة عقد عليها قرانه. "ألا ينبغي أن نعقد قراننا أولا"؟ سألته بتغاب تعمدته علني أصل إلى مبتغاي.. فضحك وهو يقدم لي كأسا من شراب أصفر يعلوه حباب أبيض ما فتئ يتصاعد ويتهابط. "اشربي.. أولا.. اشربي.. هذا أخف شراب يمكن لفتاة أن تشربه.. ابدئي به.. بعدئذ تنتقلين للأثقل فالأثقل، ولسوف تشكرينني في المستقبل عندما ترين بنفسك كم هو لذيذ ممتع!!" وشربت، طعم الشمبانيا لذيذ.. أجل يا سميتي.. هو حلو، بارد، منعش.. أيامكم، هل كان هناك شمبانيا؟ لا.. لا أعتقد.. أنت كنت تعرفين النبيذ، العرق، المعتقات الأخرى كلها.. وكنت تشربين.. أو بالأحرى صرت تشربين.. في قصر منونيس تعلمت أيضا ما لم تتعلميه وأنت راعية شياه وإبل، فكيف لا أتعلم أنا؟.

"لم تجبني؟" سألته وقد رشفت رشفة من كأس جعلته يبتسم وهو يراني أستطعم الشمبانيا وأستحسن مذاقها. "اسمعي سميرا.. سأكون صادقا معك فلا أخدعك بحرف.. أريد لعلاقتنا منذ البدء أن تكون واضحة صريحة.." وفرحت في داخلي: الوضوح والصراحة لا يعنيان سوى الزواج ولو بعقد عرفي. لكنه قطع علي تفكيري "ذلك كله لكي نستمر.. الوضوح والصراحة وحدهما يجعلان العلاقة تستمر.." "أجل، صحيح.." رددت بغبطة وفرح، لكنه قاطعني بنبرة فيها الكثير من الصرامة.. "لهذا أقول لك.. قران، زواج، هذا الكلام الفارغ كله انزعيه من رأسك، فأنا هارب من الزواج، من زوجتي.. أجل هي هناك.. رشيقة جميلة.. دافئة عاطرة لكنها أم أولادي.. ما عدت أشتهيها.. بل شهوتي تموت أمامها.. وأنا أريد امرأة تثير شهوتي.. تجعلني أنط كالحصان.. وهذا لا يحدث إلا مع امرأة أخرى غير الزوجة.. ألم تسمعي ما قاله الشاعر بشار لامرأته وقد حلت محل معشوقته في الفراش؟" "لا، ماذا قال؟" "قال بعد أن قضى وطره منها وكان أعمى لا يميزها فقالت له. أنا امرأتك فبماذا أختلف عن معشوقتك؟ قال: آه يا امرأة!! ما أطيبك حراما وما أبغضك حلالا!!" ورشفت رشفة ثانية وقد أدركت ما يقصد لكنني تابعت بإصرار اليائس "لكن ماذا عني أنا؟ ماذا أفعل ان انكشف أمري؟ سيذبحني أبي.. سيقتلني أخوتي" "لا تخافي.. لن يكشف أحد أمرك وبالتالي لن يذبحك أحد أو يقتلك أحد.." "أنت لا تعرفهم.. لا تعرف أبي.. لا تعرف.." لكن سرعان ما قاطعني "على هونك سميراميس.." "ماذا؟ أتعرف اسمي ذاك؟" قاطعته

بدوري وقد تملكني العجب.. "طبعا".. أم تظنينني لم اسأل عنك؟ لم أعرف كل شاردة وواردة تتعلق بك؟ بأبيك.. أخوتك.. أمك تلك التي جاءت على غير ميعاد ثم هربت على غير ميعاد.." وتوقف.. عيناه تنغرسان في عيني متغلغلتين إلى أعمق أعماقي كأنما تريدان تثبيتي وقد سدد إلي الضربة القاضية. لكن سرعان ما نفضت رأسي مبتعدة بناظري عنه "إذن.. عليك أن تكون أكثر خوفا علي وأشد حرصا" "وأنا كذلك.. صدقيني سأكون أشد حرصا عليك من نفسك.. نلتقي هنا.. في أوقات محددة.. فلا يشعر بعلاقتنا أحد.. أنت تعلمين.. عملي.. مكانتي.. أشغالي لا تسمح لي أن أراك كل يوم.. مرة في الأسبوع نلتقي وعلى الأكثر مرتين.. تأتي بك السيارة وتعيدك السيارة وكل ذلك أثناء الدوام.. فكيف يشعر بك أحد؟" كان الرجل قد فكر بكل شيء، لكنني كنت ما أزال خائفة "سيلحظ المدير ذلك.. الموظفون.. وسيتكلمون.." قلت فرد على الفور "إذن، تأتي بك السيارة من خارج المصلحة.. وتعيدك إلى خارجها، وأنا أعطي المدير أوامري بأن يسمح لك بالخروج متى تشائين". "ويقبل" "هو ينفذ الأوامر، لا يرفض ولا يقبل!!" وشعرت بأنني أفحم.. تسد أمامي الطرق.. رجل كله ذكاء وخبرة يفكر بالصغيرة والكبيرة فكيف لا يفحمني ولا يسد أمامي الطرق؟ مع ذلك بلعت ريقي فأسرع يدق كأسه بكأسي.. ارتشفت رشفة أخرى وجدتها ألذ من سابقاتها ثم قلت وأنا أتشبث بآخر حصوني "وماذا ان.." وأطرقت برأسي إلى الأسفل.. نحو بطني." أدرك معنى الإشارة فعاد يضحك ضحكته المجلجلة "لا.. لا تخافي.. العلم تقدم كثيرا إلى درجة لم تعد المرأة تخشى حبلا أو فضيحة. تعالي معي.. سأريك ما يوجد في مخدع نومي من وسائل احتياطات وواقيات". ولم أشعر إلا وأنا أنقذف على قدمي ثم أسير وراءه بقوة يده الجاذبة، مسحورة لا تملك من أمرها شيئا. هناك أراني أدوات ووسائل لم أكن أعلم شيئا عنها ولم أسمع بها حتى. بعدئذ سار بي إلى السرير الوثير.. "اسمعي.. أنا بحاجة إليك.. بل صدقيني أنا بأمس الحاجة إليك.. لقد أعجبتني مذ وقعت عليك عيناي.. جمالك الأخاذ هذا، صباك الساحر هو ما أنا بحاجة إليه.. أنا أحب الصبايا الصغيرات.. أتفهمين هذا؟ لا أطيق كبيرات السن.. الهرمات بل حتى النساء اللواتي حبلن وولدن لا أحبهن.. أحب العذراوات.. اللوليتات يسحرنني وقد سحرتني أنت فكوني لي.. استجيبي لي تتفتح لك أبواب الجنة.. أجل سميرا.. سأفتح لك أبواب الجنة.. سأحقق لك كل ما تشتهين.. أتسمعين؟ كل ما تشتهين.. فقط أريد كل شيء أن يظل في السر.. طي الكتمان فلا يعرف أحد ما بيننا.. واطلبي وتمني.. لبن العصفور آتيك به.. شبيك لبيك سأكون بين يديك.." وكان ذلك كل ما أريد.. السر والكتمان، فتح أبواب الجنة.. لبن العصفور يأتيني به.. شبيك لبيك يصير بين يدي.. ها هي ذي الأحلام تتحقق وأشعر أني أطير.. أحلق عاليا في السماء حتى لم أعد أشعر بشيء.. إلى أن جاءت

وخزة ألم حادة وشيء حار يسيل بين فخذي.. صرخت لكن ما تراه يجدي الصراخ وقد فتحت البوابة واخترقت القلعة حتى الأعماق.

عند الظهيرة، عادت بي السيارة إلى المصلحة والدوام لما ينته بعد، كان علي أن أثبت أول يوم على الأقل، أنني ملتزمة بأوامر أبي مطيعة لتعاليمه، لكن شيئا في داخلي جعلني وأنا أصل إلى المنزل، أسرع الخطا مطرقة إلى غرفتي.. كان وقت الغداء وكان علي أن ألتحق بطاولة الغداء حيث يجتمع أفراد العائلة.. لكن كيف أجتمع بهم وكلي إحساس بأن هناك آثارا من صاحب الرفعة فاقعة على جلدي.. دما على فخذي.. يرونه فتكون الفضيحة.. يرونه فيستلون الخناجر والسكاكين ويعملون بي ذبحا وسلخا.. في سريري تمددت، خالعة ثيابي لابسة رداء نومي.. أتحسس فخذي.. ما بين فخذي.. لم يكن ثمة شيء أمعنت النظر في وجهي، عنقي، صدري فقالت المرآة ليس ثمة شيء.. الرجل قد عراني حتى من ورقة التوت. قطعة قطعة عراني.. موضعا موضعا تلمسني.. فمن أين جاءني ذلك الشعور؟ أهو الخوف الشديد؟ أهي التجربة الأولى؟ لا أدري.. قبلني دغدغني.. أفعل منونيس ذلك معك يا سميتي؟ أم تراكم تلك الأيام لم تكونوا تعرفون أساليبنا الحديثة اليوم؟ لقد تطور الرجل يا جدتي، تطورت المرأة، صارا يعرفان جيدا كيف يداعب واحدهما الآخر وكيف يدغدغه؟ هل كنتم تمارسون ذلك يا ملكة الشرق والسحر؟ هل كان الرجل يهتم بإثارة المرأة أم كان يخترقها وحسب.. مؤنس اخترقني، صحيح، وقد آلمني ذلك.. صحيح أيضا.. لكنه قبل ذلك كان قد فعل المستحيل لجعلي أستجيب له.. لإثارة رغبتي فأشتهيه كما يشتهيني.. الخوف وحده.. رهبة المرة الأولى، هي التي جعلت رغبتي تنكبح فلا أشتهيه كما يشتهيني.. أم تراها التعويذة التي كانت في عنقي والتي حاول نزعها فتمسكت بها، وأنا أسمع رجاء أمي يرن من جديد في أذني "لا تتخلي أبدا عن تعويذتك هذه" ولم أتخل عنها.. مثلك أنت ظللت متمسكة بتعويذتي.. فقد كنت تعلمين أيضا أنها وحدها التي تكبح شهوتك وما تراه يجري إن أفلتت شهوة المرأة من عقالها وغدت دون كابح؟ في سريري.. تظاهرت بالنوم خشية أن يأتي من يدعوني للغداء.. وكل ظني أن أمرا ما سيفضحني.. أن عيني عفريتة القمقم ستخترق أحشائي فترى ما اخترقها من قبل.. أبي.. أخوتي.. ربما يرون ذلك على جبيني.. في عيني.. فقد كانوا يخيفوننا ونحن صغار بأن من يرتكب خطأ يظهر ذلك على جبينه أو في عينيه، وماذا ان ظهرت جريمتي الآن؟ لا، لا، لأدفن نفسي في سريري فلا يراني أحد. كانت ربى ما تزال في جامعتها.. ولم يكن يسر امرأة أبي كأن لا تراني.. أما أبي فربما نسي وجودي فكيف بذهابي إلى الوظيفة؟ في المساء فقط تذكر، فجاء يستفسر.. كنت قد أفقت من النوم للتو، والنوم ممحاة تمحو الكلمات

والسطور. مطرقة واجهته، لكن دون كبير خوف. سأل أجبت، استفسر أعلمت، ثم مضى وكله طمأنينة وأمان..

الله!! ما أسهل الخداع يا سميراميس!! ما أيسر الإخفاء!! صدرك صندوق تغلقينه على أسرارك ثم تقفلينه بالمفتاح فلا يعرف أحد ما فيه.. واتخذت قرارا قاطعا باتا: سأظل صندوقا مقفلا على الجميع لا يعرف أحد ما فيه.. أهكذا قررت أنت أم تراك لم تكوني بحاجة؟ منونيس زوجك وأنت ربة القصر فلماذا تخافين؟ لكن كل من حولك أعداء لك. هم آشوريون وأنت كلدانية، فكيف يكنون لك الحب؟ قبل عقود طويلة كانت الحرب قد استعرت بينهم ولم تتوقف قط.. هؤلاء ينتصرون حينا، أولئك ينتصرون حينا آخر.. حرب سجال ما انفكت بينهم ملؤها الأحقاد والأضغان، الثأر والانتقام فكيف يحبونك؟ كيف يقبلون بك ربة للقصر وزوجة لقائد آشور؟.

لا أدري يا سميتي فأسطورتك لا تتحدث كثيرا عن هذه المسألة، أما أنا فقد كنت على يقين أن أحدا لن يوافق على ما حدث، أحدا لن يقبل بما تم الاتفاق عليه بيني وبين مؤنسي.. مع ذلك ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ أي خيار كان أمامي أو أمامك غير أن نستسلم؟ نرفض؟ إذن يأخذك منونيس جارية مسترقة ويحرمني مؤنس من الوظيفة لأعود إلى القمقم؟ ثم ألم تري في منونيس خلاصك كما رأيت في مؤنس خلاصي، قدرك كما رأيت فيه قدري، ذلك القدر الذي غير مجرى حياتك ولسوف يغير مجرى حياتي.. السلم الذي ارتقيته إلى أن بلغت السطح ولسوف أرتقيه إلى أن أبلغ السطح.. ألسنا متشابهتين يا سميتي؟ ألم أر فيك نفسي؟ إذن مؤنسي هو منونيسك وهو نفسه ذلك السلم.

منذ ذلك اللقاء بدا الأمر واضحا.. أستعيد، وأنا في سريري، كلماته، تحركاته، تصرفاته، فأراه كما كنت أشتهي وأتمنى.. لديه عقدة متحكمة مسيطرة.. عقدة اللوليتا.. وأنا تلك اللوليتا فلماذا لا أحكم قبضتي حول عنقه؟ هل كان قائد آشور مصابا بعقدة لوليتا تلك؟ أم تراك لا تعرفين تلك العقدة؟ لم تسمعي بها قط؟ حسن.. في عصرنا الحديث هذا، ثمة علوم لم تكن موجودة أيامك يا جدتي.. أنتروبولجيا، سوسيولوجيا. سيكولوجيا. هذه السيكولوجيا أو علم النفس، مثلا لم تكونوا تعرفونه.. اكتشافات عجيبة غريبة فيه، أحدها أن بعض الرجال كبار السن يولعون بالفتيات صغيرات السن.. ابنة ثلاثة عشر ربيعا.. أربعة عشر، عشرين.. ذلك الولع يتملكهم حتى لا يعود باستطاعتهم التخلص منه.. إحدى الحالات كانت المعشوقة تدعى لوليتا، وكانت في الرابعة عشرة فيما كان عاشقها في أواخر الخمسينات.. بون شاسع كان بينهما، لكنه العشق.. تحكم به إلى حد الهيام.. فلماذا لا

يكون مؤنسي كذلك؟ لماذا لا تتحكم به عقدة لوليتا حتى تجعله ألعوبة بين يدي؟ وأعجبتني الفكرة.. ما أروع أن يصبح ألعوبة بين يدي!! إذن لأحققن كل ما يراود ذهني من أحلام!!

جاءت ربى، جاء عاصم، سألا بدورهما، استفسرا.. لكن الصندوق ظل مقفلا.. "الوظيفة رائعة.. العمل صعب.. حسابات ومشاكل مالية.. لكن أجمل ما فيها أنها تملأ الوقت.. فطوال ست ساعات لم أجد دقيقة فراغ" قلت لهما، كل بدوره، وأنا أعجب من نفسي كم أكذب وكيف، ثم أتساءل من أين تعلمت الكذب يا سميراميس؟ "لكن سرعان ما تذكرت ذلك المثل "الكذب ملح الرجال" فكيف بالنساء وكيدهن عظيم ومكرهن أعظم؟ أداة المكر الكذب.. أجل الكذب عملة السوق الرائجة: المرأة تكذب على الرجل، الرجل يكذب على المرأة، التاجر على الزبون، الجندي على القائد.. القائد على الجند والسلسلة لا تنتهي، بل ان شعار غوبلز النازي كان: اكذب اكذب فلا بد أن يصدقك الناس". منذئذ كان علي أن أجعل الناس يصدقونني دائما.. ربة العفة والصون أظل، طاهرة الذيل أبقى، فلا يطمع بي طامع أبدا.

كنت أذهب إلى الدوام كالعادة، وكنت أعمل مع رئيسي الأشيب سميك النظارتين، لكن دون أن أحاول التعرف إلى الموظفين أو عقد صلات معهم، كما أمرني مؤنسي.. بعضهم جاء للتعرف إلي، شابات وشبانا، لكنني قطعت عليهم الطريق. لم أبتسم في وجوههم ولم أبادلهم الكلام. رد السلام وهز بالرأس على أسئلتهم دون زيادة أو نقصان، وكانوا يذهلون.. بل إن أحدهم لم يتورع عن سؤال رئيسي الأشيب "مالها الموظفة الجديدة؟ أهي بكماء؟" اكتفى الأشيب بهز رأسه لذلك الموظف وصرفه بيده، هو المشغول بحساباته حتى عن الاهتمام بي، لكنه زجر الثاني بصوت ليس بالهمس "ما لكم وما لها؟ دعوها وشأنها".

وبدا وكأنهم امتثلوا للأمر.. فقد باتوا يمرون بجانبي مكتفين بنظرات الاستغراب حيناً وقلب الشفاه حينا آخر.. فيما أكتفي أنا بالجلوس على طاولتي أدفن رأسي في سجل حسابات أو دفتر وثائق يطلب مني إنجازه.. لكن لكي أجرب، حملت حقيبتي ثالث يوم وخرجت، مررت بمكتب المدير أطلب منه الإذن، فأسرع يعطينيه "إذنك معك دائما.. اخرجي متى تشائين". وعلمت أن مؤنسي العظيم بر بوعده، وأنه رجل يعتمد عليه.. لم يكن لدي عمل في الخارج فمضيت أتسكع.. شوارع المدينة رحبة، الناس فيها مبتهجون.. لا أدري لماذا.. كانت الشمس ساطعة رغم أن الفصل شتاء، فهل هي الشمس الساطعة في يوم شتوي؟ لا أدري، ما أدريه فقط أنني أنا نفسي كنت مبتهجة، أتهادى في مشيتي، ملء نفسي إحساس بالحرية، بانعتاق لم أحس به من قبل.

التسكع!؟ يا لها من متعة لا تفوقها متعة!! دون هم، دون غم، تطلق العنان لساقيك تجوبان الأرصفة وتعبران الشوارع على غير هدى، ولماذا الهدى؟ إنها نوع من القيود، لكن ان تترك نفسك بلا قيود، تسير هنا وهناك، تشعر بأنك حر كشعاع الشمس.. متخفف من كل ثقل، ملكك الدنيا كلها.. هكذا كان شعوري وأنا أسير، فندمت على يومين مرا دون أن أخرج إلى التسكع وأقتنص تلك المتعة التي طالما حرمت منها..

في اليوم التالي فعلت الأمر ذاته إلى أن انتهى الدوام فمضيت إلى منزلي لكن يوم الخميس لم أتسكع. كان ذلك موعد لقائنا وكانت السيارة ستأتي في العاشرة والنصف.. خرجت أستبق الموعد ببضع دقائق. دون خوف ركبت السيارة هذه المرة، رهبة المجهول كانت قد زالت. كنت أعلم أين سأذهب، ماذا سيحدث، وكان في أعماقي نوع من التوق لما سيحدث. في المرة الأولى كان ثمة ألم ودم، وكان خوف وقلق. ذلك كله جعلني أشعر بالانكماش والانطواء، أظل جاهلة بكل ما أسمع عن المتعة التي تحملها ممارسة الحب.. أجل أول مرة لم أعرفها يا سميتي فهل عرفتها أنت؟ لا أدري لكن ما أدريه أنه كان بي فضول شديد لأن أعرفها.. ذلك الفضول جعلني أتعجل اللقاء، علني أكتشف والاكتشاف نفسه متعة.. كان مؤنس بانتظاري وكان يريدنا أن نستحم معا.. "المسبح مريح يرخي الأعصاب" قال، لكنني استغربت "مسبح في الشتاء؟" "طبعا، هو مدفأ، خصيصا للشتاء.." شعرت بالخجل، كيف سأتعرى هكذا جهارا نهارا؟ في غرفة النوم.. معقول لكن في مسبح؟ وتحت عين الشمس؟ لا.. لا.. بل كيف تراني أنظر إليه عاريا هكذا؟ لكنه لم يدع مجالا لتساؤل أو استحياء.. إذ أمسك بيدي دافعا بي أمامه إلى المسبح الواسع المدفأ، "هيا.. اخلعي ثيابك" قال وهو ينزع سترتي، ثم يبدأ بخلع ثيابه حتى صار كأبيه آدم قبل أن يعرف ورقة التوت..

خلعت بعض ثيابي مترددة حائرة، فسارع يكمل ما بدأت.. وأنا أتهرب منه، أتلفت حولي"لا أحد هنا.. لن يراك أحد في العالم.. هيا.. نحن وحيدان.. آدم وحواء في جنة تجري من تحتها الأنهار" ودفع بي إلى الماء الساخن وقد صرت حواء بلا ورقة توت.. كان الماء منعشا حقا، وكانت ذراعه دافئة تحيط بخصري وهو يسبح بي على مهل.. ثم جاءت قبلة أشد دفئا وأكثر حميمية ترخي ما بقي لدي من عقد محبوكة وشلل مشبوكة، حتى شعرت وكأنني أعود هيولى من جديد.. هيولى لم تعرف التشكل بعد.

تلك المرة عرفت طعم اللذة.. لقد ولى عهد الألم والدم ليأتي عهد جديد فتحه كسابق عهده بمداعبات بدا بارعا فيها كل البراعة.. دغدغات تحرك كل ما في الأنثى من مكامن. كان كل شيء فيه قد تحول إلى أداة إثارة ووسيلة مداعبة فكيف لا أثار يا سميراميس!! أول

مرة أحس بلذة المطر الدافئ وهو ينسكب زخات زخات.. ثم أغرق في ما يشبه النوم.. في ما يشبه الحلم..

أفقنا بعد لأي على جوع وظمأ.. فأسرع بي إلى الداخل حيث المائدة قد مدت.. أصناف من الطعام لم أعرفها من قبل.. وأصناف من الشراب لم أسمع بها من قبل.. أكلنا.. شربنا.. عاريين.. لم أعد أخجل منه.. لم أعد أخجل من نفسي.. كان كل شيء جميلا بل بدا كل شيء كما في حلم.. أنا في الجنة.. وحيدة مع آدمي.. هو قال: ثمة رجل يخدمنا لكن ان كان هناك سواه في الفيلا فلاشك أنهم من الملائكة.. أجساد نورانية ترعاك، تخدمك لكن دون أن تراها عينك أو تسمعها أذنك.. فالمتع لا تكون بحضور العذّل والحساد..

في موعد العودة، فاجأني بعلبة من قطيف أحمر، فتحها فإذا فيها خاتم من ذهب. "محبس زواجنا؟" سألته، فابتسم. "اعتبريه كذلك منذ اليوم أنت عشيقتي وفي حمايتي.. لا يقاربك أحد إلا قطعت يده، فلا تخافي.. امشي كما أريد، نفذي ما أقول تكوني في حرز حريز" "اللّه كم أشكرك!! اللّه كم أحبك" وتعلقت بعنقه أمطره قبلا.. أعقبتها في الحال مكافأة أخرى: ظرف أصفر في داخله رزمة كبيرة من نقود "أنت بحاجة إلى مصاريف، ملابس.. اصرفي.. اشتري.. أسعدي نفسك.. ولا تفكري بشيء". قال وهو يودعني إلى السيارة، يراودني إحساس واحد: الرجل يفكر بي حقا.. هو يحبني بالتأكيد لكنه لا يقول ذلك، بل هو يفكر عني بكل شيء فلماذا أفكر بأي شيء؟.

بعد ذاك سارت الأمور كما يسيل الماء في واد.. في موعد محدد مسبقا نلتقي، مرة واحدة في الأسبوع وأثناء الدوام. كنا كلانا حريصين على ألا يشعر بلقائنا أحد، كما كنا حريصين على إبعاد أي شك أو شبهة عني، ولقد بعد الشك.. كثيرا بعد الشك إذ اثبت الزمن أني موظفة منتظمة الدوام. تذهب ككل الموظفين وتعود ككل الموظفين، أستلم راتبي أول الشهر فأقدمه لأبي، لكن أبي يرده إلي "اصرفي على نفسك.. هذا عرق جبينك وأنت أولى بعرق جبينك" وكان ذلك يجعلني في بحبوحة.. أشتري هدية لربى، أعرض نقودا على عاصم، وأحرص دائما أن أصرف بسخاء.. الكرم يغطي نصف العيوب.. وقد صار باستطاعتي أن أكرم علني أغطي كل ما لدي من عيوب.

وحدها عفريتة القمقم لم تقبل كرمي، كنت أعلم أن حقدها علي شديد وأنه فالج لا تعالج، فلماذا أتعب نفسي؟ ولماذا أنفق مالي على لئام لا ينبت الخير عندهم إلا الشر؟ رحت أحتاط للزمان فلا أحد يدري متى يقلب له الدهر ظهر المجن..

"معك قرش تساوي قرشا" وكنت مصممة أن يصبح ثمني أكثر بكثير من القرش.. فتحت حسابا في مصرف وصرت أودعه ما أحصل عليه من مال.. كان الرجل غاية في السخاء.. لا يفتأ من حين إلى حين يقدم لي رزمة من نقود ، عقدا من ذهب، أساور من كل شكل ولون.. بل ذات مرة جاءني بخاتم من الماس.. في أعلاه حجر كبير يشع كالشمس إشعاعا بهر ناظري.. كان دائما يأتيني بما يبهر ناظري.. لكنني كنت أحاذر ألا أبهر أنظار الآخرين.. أبي، أخوتي، عفريتة القمقم، كلهم كانوا لي بالمرصاد، يتفحصونني، يلاحقون خطواتي، يدققون في ما ألبس، أحمل من حلي وكان علي أن أتسلح بالكتمان.. فلم أظهر من كل ما جاءني سوى ذلك الخاتم الأقرب إلى المحبس رمزا لرباط سري يربطني بمؤنس.

كانت أختي ربى تسير سيرا حثيثاً في الطب، عاصم انتقل إلى الجامعة يدرس الهندسة، أخي كمال تزوج بانيا لنفسه خلية جديدة فيما تزوجت علا في مكان بعيد.. هكذا غدا بيتنا أكثر سلاما وأقل زحاما.. مع ذلك كنت أؤثر دائما أن أنأى بنفسي عنه. كنت أشعر وكأنني أعيش في حلم.. سلام من حولي، انسجام مع مؤنسي، صفاء في عملي، ولم أكن أحلم بأكثر من ذلك.

أنت أيضا عشت مثلي ذلك الحلم.. أليس كذلك يا سميتي؟ حين أخذك منونيس إلى نينوى بدوت كالربة عشتار في عليائها وأنت في قصرك الباذخ لا يصل إليك أحد ، لا يزعجك أحد.. خدم وحشم حولك، ترفلين بالخز والديباج تضوعين المسك والعنبر. الذهب في يديك، الماس حول عنقك، كلمتك أمر لا يملك أحد إلا أن يحني هامته لها. كنت زوج القائد الذي انتصر على بابل والذي يحبه ملك آشور ويثق به كل الثقة، فلم لا تكونين سعيدة تنضحين غبطة وبهجة؟ الحرية؟ هل افتقدت الحرية سميراميس؟ بعضهم كتبوا على الرقم الفخارية أنك كنت تحنين كثيرا لبابل، لأبيك وأمك بالتبني، الراعي سيمو وامرأته سيماء.. لم لا؟ الوفاء إحدى شيمك والوفاء يجعل المرء يحن.. يتذكر الجميل، يستعيد لحظات الحب والصفاء.. وقد استعدت وحننت.. الأسطورة تقول انك طلبت إلى منونيس أن تذهبي إلى بابل فتزوري الأهل ومرابع الصبا، وتردد منونيس.. كان يخشى أن تذهبي فلا تعودي، هو الذي تعلق بك تعلق الحب والهيام.. لم يعد يستطيع العيش بغيرك.. أنت التي كنت ترينه كل يوم فنا جديدا من فنون الحب والغرام.. فكيف يستغني عنك لحظة واحدة؟ ولكي لا يستغني ذهب معك.. ذهبتما دون خدم أو حشم، عسكر أو جند.. أنت اقترحت عليه أن تذهبا فارسين على ظهر فرسيهما فلا يلفتان نظر أحد. فقط كانت وراءكما عربة كبيرة حملتها هدايا وأعطيات للأهل في بابل.. في الطريق ظهر لكما سبع من تلك السباع الكبيرة بحجم الحمار وبهول التنين، تلقاه منونيس يدافع عنك ودارت معركة.. كر وفر بين السبع وسبعك، خر فيها حصان سبعك

صريعا.. وقد احتدت المعركة. السبع ضار شرس وسبعك صار على رجليه فقط.. بالسيف، بالترس، بالرمح، لكن السبع ضار شرس، رأى لحما أمامه وهو جائع فكيف به لا يكون الشرس؟ انقض السبع على منونيس فضربه بالسيف، راغ السبع وارتطم السيف بالصخر لينكسر ويمضي السبع بعيدا، ثم يعود من جديد، هذه المرة كانت عينا السبع تقدحان شررا وكان في مخالبه وأنيابه الموت الزؤام، عرف سبعك ذلك فرماه من بعيد بالرمح لكن الرمح أخطأه وانغرس في التراب وبات سبعك أعزل. زأر السبع زأرة وصل دويها إلى الفرات.. عند ذاك علمت أنها ساعتك.. ان فاتت ضاع كل شيء، وكلمح البرق، انتضيت رمحك ومن على فرسك رميته رمية أصابت عنق السبع.. حيث أوردة القلب وشرايينه. شب السبع عاليا وهو على بعد خطوة واحدة من سبعك ثم سقط أرضا.. نظر منونيس إليه غير مصدق.. فقد كان الموت قاب قوسين أو أدنى منه. بعدئذ نظر إليك.. وهو غير مصدق أيضا.. ضربة رمح لا يضربها هو نفسه.. ضربة من القوة زلزلت أركان السبع وصرعته أرضا.. هل تذكرين تلك اللحظة يا سميراميس؟ ماذا؟ لكأني بك تتكلمين.. لكأنني أسمع صوتك يأتيني رقيقا ناعما من عمق التاريخ!! "أنا التي تذكر يا بنيتي.. أجل.. أذكرها لحظة بلحظة.. منونيس وهو يقفز إلي فرحا، يفتح لي ذراعيه، ألقي بنفسي بينهما، ونذهب معا في عناق حميم لم ينته بعد ذلك قط.. فقد جعله فعلي ذاك يموت بي حبا.. يثق بي كل الثقة، يهبني مطلق الحرية وماذا تريد المرأة من رجلها غير الحب والثقة والحرية؟".

صحيح، أنت تقولين الحق يا جدتي.. المرأة لا تريد من رجلها إلا الحب والثقة والحرية.. وقد بدا لي أنني أستحوذ عليها جميعا من مؤنسي.. هو الذي لم يكن يريد من المرأة إلا السرية والكتمان، فلا تتباهى بعلاقتها به ولا تثير له الإشكالات، ولا توقعه في ورطات.. كانت تجاربه السابقة قد علمته الكثير، في رأس ما تعلمه الخوف والحذر.. فمركزه، مكانته لم يكونا يسمحان له إلا بأضيق هامش من الحرية.. كانت عقدة اللوليتا قد تحكمت به إلى درجة لا يستطيع معها أن يرغب إلا بالفتيات الصغيرات المراهقات وكانت الواحدة منهن ما ان تصل إليه حتى تبدأ الضغط عليه للخروج معها إلى أرقى المطاعم، أفخم الفنادق وأمام أعين الناس فاقئة في عيونهم الحصرم متفاخرة بما ترفل من دمقس وحرير، حلي وجواهر.. وكان هذا عينه ما يريد تجنبه.. ولقد جعلته يتجنبه..

كان حسبي أن ألتقي به مرة في الأسبوع.. يتصل بي، لا يتصل بي، لم أكن أولي الأمر أية أهمية.. فحين أشتاق إليه، أو أريد منه شيئا كنت أنا من يتصل، وكان قد أوعز للمدير أن يمد هاتفا إلى مكتبي، لماذا إذن أزعجه أو ألح عليه؟ مرتين أو ثلاثا فقط كنت أتصل به،

وكنت أحرص أن أكون خفيفة الظل ما أمكن.. لا أريد أن أثقل عليه، أنا التي تعلم كم على كاهله من أثقال، لا أريد أن أشغله أنا التي تعلم أن المشغول لا يشغل وهو الكثير الأشغال..

السرية، الكتمان، أنا نفسي كنت بحاجة إليهما أكثر من حاجته هو، يخاف على منصبه؟ يخشى امرأته؟ أبناءه؟ أنا أيضا أخاف على مستقبلي، أصطك رعبا من أبي.. أخوتي.. هكذا التقت رغباتنا والتقى حرصانا فأسعده ذلك كل السعادة. كان ينظر إلي بوله حقيقي وكأنه لا يصدق أنه وجد أخيرا ضالته، الفتاة التي تهمها سمعتها كما تهمه سمعته. تراعي العادات والتقاليد كما يراعيها هو، بل ربما أكثر، الفتاة التي لم تكن تتطلب الكثير.. بل لم يكن لها متطلبات البتة.. حتى قال لي ذات مرة "أنا أعجب منك كل العجب" وحين أبديت استغرابي "كل العجب؟" "أجل.. فتاة في مثل وضعك، تأتيني كل يوم بطلب.. واسطة.. شأن من الشؤون" "لا.. اطمئن.. أنا لا طلب لي ولا واسطة.. بل كيف يكون لي طلب أو واسطة ولا أحد يعلم أني أعرفك.. حسبي من هذه الدنيا أنت.. وأنت فقط دون أن يعرف بذلك أحد"، وكاد يقفز فرحا فقد كان في كلامي التأكيد كله على السرية والكتمان، وهو أقصى ما يبتغيه.. "لكن.. أنت لا تطلبين حتى نقودا؟" "وهل تدعني أحتاج.. أنت أكرم من حاتم الطائي.. وما حاتم الطائي من يدع أحدا يطلب منه.. هو يعطي دون طلب" ضحك ضحكته العالية وقد دغدغه إطرائي ثم تنهد "إيه!! كم أنا حاقد على المال!! لهذا ترينني أشفي غلي منه، أرمي به هنا.. هناك.. وكأنني أنتقم منه".. وتعجبت "تنتقم؟ لماذا؟" "انه الفقر.. يوم كان يلقي علينا بكلكله فيقطع أنفاسنا.. الفقر كريه.. الفقر بغيض.. ربما أنت لم تجربيه، أنت ابنة المدينة والتجارة لكن أنا ابن الريف والزراعة جربته.. كنا ونحن صغار نمشي حفاة، لا نجد إلا الخبز الحافي، لا نلبس إلا الهدم المرقع.. هل عرفت الهدم المرقع؟" وهززت رأسي أن لا.. فوالدي، الذي كان تاجرا عريقا يملك دكاناً في قلب المدينة لم يكن يدعنا نلبس ثوبا باليا.. صحيح أنه لم يكن واسع الغنى لكن الصحيح أن الفقر لم يطرق بابنا قط.. كان يعرف الثراء جيدا، وكانت تمر به حالات من المد والجزر.. لكن هاهو ذا مؤنس يتكلم عن الفقر المدقع. "أجل.. أنا عرفته.. بل لم أصل إلى الإعدادية.. إلا بشق النفس"، قال ضاحكا ثم تابع، "بالمناسبة تلك الأيام، كانت الإعدادية شيئا عظيما.. شهادة ترفع الرأس.. تفتح لك أبواب الوظيفة والحياة" "أية وظيفة وأية حياة؟" سألته وأنا أستلقي إلى جانبه على السرير أستغرب ما الذي دعاه لاسترجاع الماضي. "ها.. ها.. بالإعدادية صرت وكيل معلم.. هل تدرين ما وكيل المعلم؟" "لا.. ماذا؟" "يناديه الناس بالأستاذ، ويسيطر على كل من في المدرسة طلابا وأذنة، أما أهل القرية فيعاملونه باحترام شديد: الرجال يحتفون به ان دخل المضافة والنساء يحملن له الطعام والماء..

أجل.. أنت لا تصدقين.. نساء القرية كلهن كن يحلمن بخدمتي، بالحديث إلي.. بل بعضهن بذلن المستحيل لإقامة علاقة معي". "وهل أقمت علاقة معهن؟" "الحقيقة لم أجرؤ" بدأ ثم أطرق قليلا قبل أن يستأنف "القرية نائية وأهلها زميتون متعصبون.. لا يرعوي واحدهم عن إغماد خنجره في قلب الآخر ان تناول أخته أو امرأته بكلمة، فكيف أورط نفسي؟ منذ البداية قلت لا.. أسير الحائط الحائط وأقول يا رب الستر!!" "وهل أنقذتك وكالة المعلم تلك من الفقر؟" "بالطبع لا.. كان لي أخوة وأخوات.. وكان ثمة قحط.. لا مواسم ولا واردات، فكان علي أن أحمل عن أبي بعض العبء.. ليظل الفقر صخرة على صدري.. كنت أترك لنفسي بضعة دريهمات وأرسل الباقي إلى أهلي كيلا يقتلهم العوز.. فلدى أبي أفواه جائعة: تسعة صبيان وبنات وهو وأمي وجدتي.. أنا نفسي لم أكن بحاجة للمال.. أهل القرية يأتون إلي بالطعام وبالشراب، يؤمنون لي المسكن، التدفئة.. والقرية نائية معزولة لا دار لهو فيها ولا صحب.. فلماذا أحتاج للمال؟ ثلاث سنوات ظللت هناك إلى أن نلت الثانوية وشققت طريقي الجديد.. إيه.. ما أصعب تلك الأيام!! ما أصعب الفقر!! أنا أكره الفقر، أكرهه". وفهمت حينذاك سر البذخ الذي يشتهر به.. سر التبذير الذي يبذره.. فبذلاته الجوخ كلها من لندن، ربطات عنقه من باريس، أحذيته من روما.. بل لا يذهب إلى مطعم إلا وحوله حاشية: سادة وسيدات، يأمر لهم بكل ما يطلبون ويتمنون.. وسكي، شمبانيا، كافيار، قلوب إوز.. كل ما يشتهون.. وينفخ صدره متباهيا بأنه أسخى العالمين بطون راح!! إنها العقدة التي كانت تتحكم به مذ وعي الدنيا.. يريد أن ينتقم من الفقر، فراح يفعل كل شيء، حراما، حلالا، قانونا، غير قانون بهدف واحد: كسب المال.. ولقد تحقق له ذلك الهدف.. صار لديه الكثير الكثير من المال.. بل بعضهم يقول هو نفسه لا يدري كم يملك من المال، فلماذا لا ينفق على هواه؟ لماذا لا ينتقم من المال؟

"تدرين؟" تابع وقد غاص هنيهة أيضا في خضم ذكرياته "أنا أريدك أن تطلبي مني.. أنا أحب من يطلب مني.. أشعر بأنني أبلغ النشوة وأنا أسمع رجاء أحدهم.. توسله.. لكن ذروة النشوة لدي حين يتضرع أحدهم إلي مادا يده يريد المال.. الله!! أية متعة أشعر بها حينذاك". وأغمض عينيه مطلقا آهة شعرت بها تصعد من أعمق أعماقه وكظمت "أتريدني أنا أن أمد يدي.. أتضرع إليك؟" "لا.. لا.. أنا آسف.. أنت لست مثلهن.. غيرك من الفتيات يطلبن، يتوسلن.. لكن.. أنت.. لا.. لا.. أعتذر أنا أعلم أنك لن تطلبي. ربما هذا ما رفع قدرك لدي، ما جعلني أحبك أكثر.." ثم انزلق عن السرير مادا يده إلى جيبه مخرجا دفتر شيكات، كتب شيئا على أحدها ثم قدمه لي "تفضلي.. دون طلب.. فأنا أربأ بغزالتي الفاتنة أن تطلب".. أخذت الشيك.. بلمحة سريعة رأيت الرقم مائة ألف، فابتردت جوانحي وافترت أساريري. لقد كان ذلك أعلى

رقم يصلني منه. شكرته قائلة "لكن هذا كثير.. بل أخشى أن أكون قد صرت عبئا عليك". "عبء؟" تضاحك هازا رأسه "لا.. لا.. لدي بحر من المال.. فاغرفي من ذلك البحر.. أريدك أن تستقلي بنفسك.. أن تكوني غنية أم تراك لا تحبين الغنى؟" "ومن لا يحب الغنى يا مؤنسي؟ الشاعر القديم قال: دعيني للغنى أسعى فاني رأيت الناس شرهم الفقير، وعلي بن أبي طالب قال: كاد الفقر أن يكون كفرا، فكيف لا أريد أن أكون غنية، أنا التي تعلم أن الغنى طريقي الوحيد إلى الاستقلال". "عظيم!! إذن نحن متفقان: المال والاستقلال، لكي تشقي طريقك في الحياة عليك أن يكون لديك مال وأن تستقلي الاستقلال الاقتصادي التام، فالمرأة عبر التاريخ لم يكسر ظهرها سوى اعتمادها على الرجل: هو يطعمها، يكسوها ينفق عليها فكيف لا تكون تابعة له خادمة؟".

وكان أبغض ما في الدنيا علي صورة المرأة التابعة الخادمة تلك، فقلت "علمني يا سيدي.. أنت معلمي وأستاذي، هاديّ ومرشدي.. فعلمني كيف أكون غنية مستقلة.. علمني كيف أشق طريقي في الحياة.." "سأفعل.. شريطة أن تكوني تلميذة نجيبة" "ألم أكن تلميذة نجيبة حتى الساعة يا معلمي؟" "يشهد الله أنك كذلك.. لكن ثمة دروس كثيرة عليك أن تحفظيها.. أشياء كثيرة عليك أن تتعلميها" "وأنا على أتم الاستعداد" "حسن.. الدرس الأول: المال والسلطة أروع ما في الوجود بل غاية الوجود.. أحبيهما.. اعملي على الوصول إليهما بأي شكل وبأية طريقة" "تقصد كما قال مكيافيللي: الغاية تبرر الوسيلة" "طبعا.. الغاية تبرر الوسيلة وتذكري دائما أن مكيافبللي هذا عبقري العباقرة وما كتبه في أميره: أبدع ما كتبه الكتاب والمفكرون". وصمت قليلا فيما كنت أنا نفسي أغرق في تفكير عميق". في حياتي الطويلة هذه" تابع معلمي بعد لأي "كان أول هدف وضعته نصب عيني هو أن أصل إلى السلطة.. أية سلطة، أن أتخلص من فقري.. بأي شكل ولقد وصلت وتخلصت.." "كيف؟" سألته شبه مقاطعة "ها ها.." أجاب ضاحكا "منذ البدء، أقصد مذ استلمت منصبا في هذا البلد.. ولم يكن كبيرا.. قلت في سري.. مصلحتك ثم مصلحتك يا رجل.. اعمل لمصلحتك سخر كل شيء لمنفعتك.. وسخرت كل شيء.. بذكاء سخرت وبالسر والكتمان عملت، فالمرء أكثر ما يحتاج في قضاء حوائجه للكتمان.. وبدأت خططي تؤتي أكلها.. كنت آكل، أقبل الهدايا، أغض النظر عن يد تمتد إلى جيبي برزمة نقود، عن حاجات ثمينة أو غير ثمينة تصل إلى بيتي، أنت تعلمين، مصالح الناس كثيرة وحاجاتهم أكثر وهم يدفعون ان تقضي لهم حوائجهم.. ولقد كنت أقضي.. لا أحد في البلد إلا وأعرفه ويعرفني، لا مسؤول إلا وأزوره ويزورني.. زوجي تطبخ جيدا، تحسن استقبال الضيوف، وأطعم الفم تستحيي العين.. وهكذا صرت لا أطلب شيئا إلا يلبى.. والناس

يشمون الرائحة.. يعلمون أنك تخدمين مصالحهم تلبين طلباتهم فيأتون إليك، ولا أحد يأتي فارغا.. بل ان بعض القضايا كنت أمطمطها، بعض المشاكل أجعلها تتعسر.. ولا تتحل إلا بعد جيئات كثيرات وذهابات كثيرات.. وفيها كلها هدايا تغدق وأموال تتدفق.. أعرفت الآن لماذا سألتك باستغراب: لا طلب لك.. لا واسطة؟" وضحك شادا إياي من كتفي، مقبلا خدي.. وكأنه يقول "يا لك من مسكينة ساذجة!!" "حقا.. يا لي من مسكينة ساذجة!!" أمنت على كلامه في سري، وأنا أستعيد في ذهني الفرص الكثيرة التي ضاعت مني وأنا التي تربأ بنفسها عن الطلب والواسطة.. في مكان عملي، كان الكل قد باتوا يعرفون أني مدعومة وأن ورائي واسطة ثقيلة. لهذا كثيرا ما حاولوا التقرب لطلب المساعدة، لكن دون جدوى.. فالمبدأ الذي أسير عليه واضح "لا أعرف أحدا، لا أمون على أحد، ليس لي صلة بأحد" فكيف أفضح نفسي وأفتح باب الطلبات والواسطات؟ "كنت أظن أن السرية والكتمان أهم ما تطلب مني وأهم ما تحتاج" فقال "أجل.. أنت على حق.. ذلك بالتحديد ما أريد أن تستمري عليه.. هو وحده يضمن لنا الاستمرار والبقاء معا فتمسكي به وسيري عليه.. لكن اطلبي لنفسك أعطك.. أنت تعلمين أنا أنسى.. مشاغلي كثيرة.. فاطلبي تصلي إلى الغنى والاستقلال" "لا.. لا.. أنا أكره الطلب" قلت بشيء من التلعثم "لكن ما رأيك تخصص لي راتبا كل شهر؟" "فكرة.. أي والله فكرة.. كم راتبك في وظيفتك؟" سأل بعينين فارغتين تماما وكأنه لا يعلم شيئا عن رواتب مستخدميه وموظفيه.. "راتبي ثلاثة آلاف.." "ماذا؟" قاطعني مستغربا "فقط ثلاثة آلاف؟" هززت رأسي مؤكدة فقال بأريحية عالية طار لها لبي "ما رأيك إذن أخصص لك مائة ألف كل شهر؟" وجرضت بريقي.. الرقم كبير لم يستطع المرئ لدي ابتلاعه.. "يا الهي!!" حدثت نفسي دون صوت" خلال عام واحد سأحصل على أكثر من مليون.. سأصير مليونيرة!؟ أي رجل كريم معطاء هذا الرجل!؟" وأسرعت إليه أضمه أقبله، ألقي بنفسي عليه عارية كما كنت طوال ذلك الوقت، نازلة من فوق إلى أسفل وأنا أقبله، أتلمسه، أدغدغه.. وبي رغبة جامحة لأن أثيره مرة أخرى فنمارس الحب من جديد.. لكنه تملص مني هاربا "لا، لا تستغلي كرم يدي طامعة بكرم الآخر.. يدي أكرم يا عزيزتي من ذلك الآخر" وضحك، فيما انقلبت على جانبي، خائبة الأمل.. كان الرجل قد صار في خمسيناته.. ولا تمر الخمسون على رجل إلا وقد تركت آثارها واضحة على الخارج والداخل.. "مرة واحدة تكفي"، كان يردد مرفقا ذلك بضحكته المعهودة وكان يحرص أن يلتزم بذلك. "لكن مرة واحدة لا تكفي" كنت أمازحه أحيانا وأنا أشفق في قرارة نفسي أن يجهد نفسه فيقع في ما أكره.. كنت أحرص على صحته.. فهو صلتي الوحيدة بعالم الأحلام وحبل السرة الذي يصلني بالدنيا والحياة.. لهذا كنت أكتفي بما يقدم، لا أطلب

ولا أضغط.. وكان هذا أيضا ما جعله يتعلق بي أكثر.. الرجل يخشى المرأة المتطلبة كثيرا، خاصة ان كان لا يستطيع التلبية، ويكرهها كثيرا ان جعلته يشعر بالعجز، فلماذا أجعله يخشاني أو يكرهني؟.

منذ ذلك اليوم صار راتبي مائة ألف أقبضها حين نلتقي أول كل شهر. أخذتها أول مرة فلم أصدق عيني.. يا الهي!! هذا الراتب أين منه الآلاف الثلاثة؟ وأوشكت أقول له "لا مؤنسي، يكفي نصفه.. ثلثه.." لكنني خشيت أن يسخر مني، فهو الذي يهدر المال يمنة ويسرة، ماذا يعني بالنسبة إليه مبلغ كهذا؟ أنا نفسي رحت أسخر من نفسي وقد انفتح علي انفتاحا تاما حدثني فيه صراحة عن سلطاته الواسعة، ميزانيته الكبيرة، صفقاته الكثيرة وله منها القدر المعلوم.. كان الرجل قد أمضى سنين طويلة صاحب رفعة عظيم الشأن. كان المنصب الصغير قد قاده إلى منصب أكبر ثم أكبر إلى أن صار صاحب رفعة يعرف مداخل رفعته ومخارجها، لا يدخل شيء ولا يخرج شيء إلا بأمره وكان لا يشبع.. يأكل يأكل ولا يشبع بل إذا شبع فعل ما كان يفعله الرومان في مآدبهم: يضع إصبعه في فمه ليتقيأ ثم يعاود الأكل من جديد تاركاً حوله الكثير من الفتات.. فلماذا لا آخذ بعض ذلك الفتات؟

لكن الفتات يتراكم ومع تراكمه راحت تتراكم الثقة في نفسي والاعتداد بها، صرت أكثر انفتاحا في دائرة عملي، بت أمد جسورا مع بعض الزميلات والزملاء، بل حتى مع أخي عاصم، أختي ربى، أبي، صرت أقل انطوائية وأكثر انبساطا.. أفتح معهم الأحاديث، أجلب الهدايا في المناسبات، بل أدعو ربى إلى مطعم أو آتي للمنزل بطعام وبدا السلام يرفرف علي والطمأنينة تحف بي إلى أن جاء خاطب يطلب يدي..

خاطب نزل علي من غامض علم الله.. لم أكن قد رأيته أو سمعت به من قبل.. رآني فأعجب بي، وكان تاجرا موسرا، فأعجب ذلك أبي، كما أعجب أخي وضرة أمي.. "هو مليء "قال لي أبي مغريا إياي بالقبول "لديه كل ما تحتاجه المرأة وأكثر.. سيوفر لك حياة لا ينقصك فيها شيء". أنا كنت مليئة أيضا، أحيا حياة لا ينقصني فيها شيء.. لكن كيف أقول ذلك لأبي؟ كان الرجل قصير القامة أصلع الرأس محمر الوجه دائما كمؤخرة سعدان، يتفتف في حديثه ويبعبع لكأنما هو في عجالة دائمة من أمره.. رأيتهم متحمسين له فآثرت ألا أصدهم وجها لوجه.. رحت أداور وأناور، لكنهم كانوا يريدونه، كأنما به يريدون الخلاص مني وحسب.. امرأة أبي تشتعل حماسة، تقنع أختي ربى، تحث أبي على الضغط علي، وأبي يضغط، عاصم يضغط، بل ربى نفسها راحت تضغط.."اسمعي مني سميرة.. زوج من عود خير من قعود" وبدا كلامها معقولا فيه الكثير من المنطق لو كان القعود حالتي.. لكنها لم تكن

كذلك. هي لا تعرف وأنا لا أستطيع أن أجعلها تعرف. كانت تستدرجني لكي تتغلغل إلى أعماقي، تعرف حقيقة موقفي.. لكن السلحفاة في داخلي شعرت بالخطر فانكفأت داخل درعها منكمشة على نفسها. "لا.. ربى، أنا سعيدة هكذا، لا أريد إلا أن أظل كما أنا" قلت وقد اختبأت داخل درعي السميك. "لكنها سنة الحياة.. الزواج غاية كل فتاة" ردت بكثير من الحكمة وادعاء المعرفة. "ماعدا أختك هذه.. الزواج ليس غايتي ولا يدخل في باب اهتماماتي. "عجيب!! أنت غير الفتيات جميعا؟" سألتني فشردت بعيدا.. أجل يا سميراميس شردت وأنا أعود إليك فأرى نفسي مثلك.. غير الفتيات جميعا. تركيب فريد.. مصير فريد.. عقل فريد.. ألم تكوني أنت هكذا؟ إذن أنا هكذا.. لم تقعدي في المنزل تطبخين وتنفخين.. هكذا أنا. بيتك الفيافي والقفار ترعين الإبل والشياه، هكذا أنا.. أخرج كل يوم إلى مكتبي.. أجلس قليلا.. أخرج إلى الشارع.. أتسكع كثيرا.. أعود.. أتحدث مع مؤنسي.. أقرأ في كتاب.. أتبادل الحديث مع فتاة.. لكنني لا أكره كالجلوس في البيت أكنس وأمسح، أطبخ وأنفخ وأنتظر الزوج الذين يمن علي بابتسامة أولا يمن، ثم يستولدني دزينة من الأطفال أغدو بعدها خرقة بالية لا تصلح إلا لعتبة أو مزبلة.

نقلت الخبر إلى مؤنس وكأني راغبة فيه، فارتد إلى الوراء مصدوما موشكا على الغضب "ماذا؟ تتزوجين وتتركينني؟" "الزواج أمان للفتاة، ضمان لمستقبلها وماذا تريد الفتاة غير الأمان والضمان؟" قلت وأنا أستجره لنبش ما في داخله "أين إذن طموحاتك التي حدثتني عنها؟ أين حبك للاستقلال؟ للحرية؟" "ما تزال كما هي.. صدقني.. لا أريد شيئا في الدنيا كاستقلالي، حريتي، صعودي إلى الأعلى" "إذن الزواج مقبرة تدفنين فيها هذا كله. أما الأمان والضمان، فما أحسب زوجا في الدنيا يوفر عشر ما أوفره لك.. والآتي أعظم.. صدقيني.. الآتي سيكون أعظم بكثير.. سأوفر لك من الأمان والضمان ما لم تحلمي به من قبل" وانفرجت أساريري.. كان ذلك الوعد بغيتي فعدت أؤكد "هذا وعد؟" "وعد وعهد أقسم عليه بكل مقدساتي.. لأبذلن المستحيل كي أجعلك تنالين ما تشتهين ولألبين كل ما ترغبين".

كان ذلك هو المرتكز الصلب الذي أردت التأكد منه كي أستمر في الرفض، فلم أغير موقفي من الخاطب ولم أبدل، وما كنت لأفعل حتى لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي.. عندئذ لجؤوا إلى التهديد: أبي هددني، أخي عاصم، امرأة أبي، لكنني لم أبال. كنت أسند ظهري إلى حائط من صوان فلماذا أخاف؟ وممن؟ ثبتُّ قدمي بالأرض وأصررت على موقفي فارتد الخاطب خائبا بعد أن كان صائبا لكن لتسوء علاقتي بأهلي من جديد.. ذات مرة كنت أصعد الدرج، وكان الباب الخارجي مفتوحا فسمعت امرأة أبي تقول"أنت

رجل!؟ أنت أب!؟ لا تقبل به زوجا!؟ لكأن عليك أن تأخذ برأيها تقبل أو لا تقبل.. أرغمها يا رجل.. دس على رقبتها.. جرها من شعرها إلى بيت زوجها.." لكن أبي تأفف"أتحسبين أننا ما نزال في العصر الحجري؟ كيف أرغم فتاة موظفة متعلمة على الزواج؟" "أخرجها من هذه الوظيفة القذرة.. احبسها في البيت.. قل لها خيارك الوحيد الزواج فتتزوج".. "لا.. لا أستطيع" "لا تستطيع؟ انتظر إذن العار والشنار.. هذه الوظيفة لن تعود عليك إلا بالفضيحة.. وهذا سالفي.. أحلقه ان لم تخلق لك ألف مشكلة وفضيحة.." ولم أتابع استراق السمع.. كانت المرأة حاقدة وكنت أعلم ذلك.. كانت تريد التخلص مني وكنت أيضا أعلم ذلك.. لكن.. كان قد مر علي زمن في الوظيفة لم أثر فيها مشكلة ولا فضيحة فكيف تتجنى علي؟ تساءلت ليخرج في الحال شيء في داخلي بلسانه محتجا "لو انكشفت الحقيقة لكانت فعلا أعقد مشكلة وشر فضيحة؟" وسكت وأنا أصعد الدرج ثم أدخل غرفتي، ألقي بنفسي على السرير وقد امتلأ صدري بكل ما في الدنيا من هم وغم، ثم لم يرقد لي جفن إلا وقد صممت على شيء.. قلت لصاحب الرفعة أريد أن أصقل جسمي، أقوي عضلاتي، فقال"هذا حقك.. مارسي الرياضة" "الرياضة.. أجل.. لكن أين أمارسها؟" "سأسجلك في أرقى ناد.. اسبحي.. العبي تنس.." "لا.. لا.." قاطعته "أريد أن ألعب كارتيه.. جيدو.. فأدافع عن نفسي ان وقعت في مأزق" "فكرة حسنة.. أي وحق الله!! اذهبي غدا إلى نادي النمور.. اسألي عن المدير.." وذهبت إلى نادي النمور.. سألت عن المدير فإذا بالرجل يهلل ويرحب. لقد جاءت التوصية وهو تحت الأمر..

وهكذا، بدلا من التسكع في الطرقات أو تقطيع الوقت هنا أو هناك، صرت أذهب إلى النادي، أسبح، أجري، أمرن عضلاتي على تلك الآلات التي لم أكن قد عرفتها أو سمعت بها من قبل.. لكن الكاراتيه هي التي سحرت لبي.. كانت لعبة فذة حقا.. تحتاج إلى سرعة بديهة وذكاء عاليين، كما تحتاج إلى المناورة والمداورة، القوة والصلابة.. وكنت أريد أن أكون هذه كلها.. فلا يغلبني، ان تواجهنا، أحد.

لكن مشكلتين ظهرتا: أولاهما في المنزل، إذ باتت الرياضة تؤخرني أحيانا عن العودة. سألني أبي ذات مرة ثم أخي فاحتججت بالوظيفة.. لكن ذلك لم يعجبهما كليهما.. ذات يوم مضى عاصم إلى مكتبي يسأل عني.. "غير موجودة" قال له الآذن "أين هي؟" "خرجت منذ العاشرة والنصف ولم تعد" وزلزلت الأرض زلزالها، مخرجة أثقالها...

"أين كنت؟" بادرني عاصم وهو يقطع علي طريق الدرج.. "كنت في وظيفتي" أجبت دون أن أفكر "كذابة" صرخ في وجهي، وهو يقترب مني أكثر، غارسا عينيه في عيني أكثر. "كذابة؟ ما هذه اللهجة عاصم؟" "ما ينبغي أن تسمعيه.. أنا نفسي ذهبت إلى مكتبك.. أين

كنت من العاشرة والنصف حتى الآن؟" كدت أقول له ما شأنك وأبدأ معركة مفتوحة وحاسمة، لكنني كبحت جماح نفسي.. كانت المعركة قد فرضت علي، مكانا وزمانا ولم أكن قد اتخذت استعداداتي لها، والمقاتل البارع هو الذي لا يدخل معركة إلا باختياره وبعد أن يستعد لها. "إذن أنت لا تعرف؟" قلت وقد قررت دخول معركة أخرى.. "وما الذي أعرف؟" "أنا أذهب إلى الرياضة.. أتمرن على الجيدو والكارتيه" ورأيته يصعق.. جاحظ العينين، فاغر الفم، لبث لحظات وهو لا ينبس ببنت شفة. "من ورائنا؟" أخيرا نطق لكن بنوع آخر من النغمة.. "من ورائكم، أمامكم، أنا أحب الرياضة، وأريد أن أعد نفسي للحياة، فمن يدري؟ قد أكون سائرة في الطريق فيتعرض لي أحد، يتحرش بي أحد، فأدافع عن نفسي". "الله!! الله!! تريدين أن تخلقي لنا مشاكل إذن، أن توجعي رأسي ورأس أبي كما كنا دائما نخشى". "أنا قلت لك أريد أن أدافع عن نفسي لا أن أهاجم الناس.. أم تريدني أن أستسلم لمن يعتدي علي؟" "لا أريد منك شيئا.. أريد فقط أن أرتاح من همك.. لماذا لم تتزوجي؟ ها" وبدا وكأننا نعود إلى نقطة الصفر.. لم أجبه، بل صعدت الدرج بسرعة إلى غرفتي ورغم أن أبي جاء يصب جام غضبه علي، إلا أنني لم أهن ولم أضعف. كنت متمسكة بحقي في ممارسة الرياضة، فاحتج أبي "ووظيفتك؟ كيف يسمحون لك بالغياب هكذا ساعات؟" "هم يعلمون أنني في النادي.. المدير سمح لي.. وهو يوم أو يومان في الأسبوع". "إذن.. لا تتأخري.. أريدك هنا مع انتهاء الدوام". وضحكت في سري. لقد كان في نبرة صوته اعتراف بهزيمة جعلتني أزداد إصرارا على الطريق الذي بدأت أشقه في الحياة.. أنا أذهب إلى الرياضة.. أتدرب على لعبة عنيفة، صرت أتدرب عليها حتى في البيت، تراني ربى، يراني عاصم، وأنا أشخر أنخر، أضرب بقبضتي يدي، أرفس بقدمي، أنط يمينا شمالا، فوق تحت، فيسري في نفوسهم شيء من رهبة.. صحيح هي تتدرب على الكارتيه. ثم سلموا كليا حين مازحت ربى ذات مرة وعالجتها بضربتين أو ثلاث من حركات كاراتيه كنت قد تعلمتها ذلك اليوم.. وإذا كانت قد أخذتها بالمزاح أول مرة فإنها لم تأخذها كذلك، حين بادرتها مرة ثانية بحركة جيدو سريعة رافعة إياها ملقية بها على الأرض وعظامها تطقطق. لعنت ربى الجيدو والكارتيه، طالبة مني ألا أمازحها مرة أخرى.. وعدتها بذلك مطمئنة خاطرها معتذرة منها، فقد تحقق مبتغاي: الرسالة التي أردت إيصالها إلى امرأة أبي ومن لف لفها وصلت: لا يقترب أحد مني، سأدافع عن نفسي.. وانعكست الرسالة تغيرا في سلوك أبي، امرأته، ابنه.. إذ باتوا ينظرون إلي باحترام أكبر، وفي الوقت نفسه بجفاء أكثر وكأن جدارا عازلا راح يرتفع بيني وبينهم.. أول آثاره أنهم لم يعودوا ينتظرونني على الغداء.. ولا يسألونني لم تأخرت أو أين كنت، وكان في ذلك نصري الأول.

المشكلة الثانية كانت في المكتب، فالتقرب الذي بدأه الموظفون والموظفات صار أشد وأشد. كانوا كلهم قد غدوا على يقين من أنني مدعومة دعما شديدا وأن ظهري قوي جدا، بإصبعي أرفع وبإصبعي أخفض.. فغدوا جميعا يحاذرون إزعاجي، يحاولون التودد إلي، عقد عرى الصداقة، وإذا كنت في البداية قد قررت صدهم والنأي بنفسي عنهم، فقد أدركت بعد لأي، أن من الخطأ الاستمرار في نهجي ذاك.. "لم لا أستغلهم لخدمتي؟ لم لا أسخرهم لمصلحتي؟" وبدأت تكتيكا جديدا.. أكلم هذه، آخذ وأعطي مع ذاك، أشرب قهوة مع تلك، وكان بعضهم يتوسط لدي "أرجوك أريد إجازة ساعية من المدير" فأذهب إلى المدير وآخذ ما أريد.. "أنا أستحق مكافأة.. قولي للمدير يعطيني مكافأة" وأقول للمدير، فلا يردني خائبة. المدير يلبي كل ما أطلب.. هو يعلم مكانتي عند معلمه الكبير، يعلم أنني بإشارة من إصبعي قد أجعله يطير في السماء ريشة في مهب الريح، فيحاذر أن يسيء إلي، بل هو دائما يسعى إلى مرضاتي.. "أتنقصك حاجة؟ أيزعجك أحد؟" يسألني فأرد مازحة "بوجودكم أيجرؤ أحد يا سيدي؟" طبعا لم يكن يجرؤ أحد، فالناس كلهم كانوا قد تعلموا شيئين: الخوف والذرائعية.. كان عسر الأحوال وضيق ذات اليد قد نعّجهم جميعا، جعلهم يخافون على لقمة العيش.. هم يعلمون أن الوظيفة طوق نجاتهم الوحيد فكيف لا يتمسكون به؟ البلد مسحوقة بالفقر مرهونة للبطالة، ان ذهب طوق نجاتهم ذاك غرقوا في يم الفقر والبطالة.. فكان أن تعلموا الرياء، النفاق بهدف واحد: البقاء في الوظيفة.. صحيح أنها لا تسمن ولا تغني من جوع، لكنها تظل قوت اللايموت فتبقي المرء حيا وتحفظ البقية الباقية من ماء الوجه.. هذا الخوف علمهم الشيء الآخر: الذرائعية.. لقد اكتشفت مع الزمن أنني لم أكن وحدي الوصولية النفعية التي تتربص بالفرص كي تنتهزها ولم أكن وحدي التي تسخر العالم لمصلحتها وحسب، بل بدا لي أن كل من حولي هكذا: انتهازيون لا يفوتون فرصة، يعرفون جيدا من أين تؤكل الكتف، يمسحون الجوخ جيدا.. أنا نفسي صاروا يمسحون لي الجوخ، ينتهزون أضأل فرصة ليطلبوا مني هذه الخدمة أو تلك.. وصار لي صداقات: رجاء، خالد، أمجد.. بل حتى موظف الاستعلامات "درويش" بات يقف ملء طوله كلما رآني أدخل أو أخرج ضاربا لي سلاما كسلام العسكر، فينتبج صدري دون أن أدري، وأكاد أرفع يدي له ردا لتحيته العسكرية التي باتت تدغدغ شغاف قلبي: أليست السلطة لذيذة؟ أنت جربتها يا جدتي!! العسكر من حولك يا زوجة القائد منونيس، يؤدون لك التحية كما يؤدونها له. حبه لك، تعلقه بك جعلاك ترتفعين في أعينهم وترتفعين، لكن إنقاذك لحياته، ضربة رمحك لذلك السبع جعلاك أرفع وأرفع، أليس كذلك يا جدتي؟ أسطورتك تقول ان القصة انتشرت في كل مكان.. منونيس نفسه كان

يرويها لكل من يرى، في بابل، في أورك، في نينوى، بل حتى في دمشق، حين ذهب متفقدا جنده هناك، ولكم سر أبوك وأمك حين سمعا بما فعلت.. كان ذلك نصرا لك جعلك تتفردين شخصية وسلوكا.. لم تعودي تخجلين من خروجك مع منونيس في حله وترحاله، ولم تعودي تترددين في أن تلبسي لباس الرجال وتمضي إلى ساحات التدريب، تطاردين على الخيل، تبارزين بالسيف، تلاعبين بالرمح، فارسة لا تريد أبدا أن تتوارى في قصور الحريم، فهل أتوارى أنا يا سميتي؟ أنت قدوتي، فكيف لا أحذو حذوك؟ في عصرنا يا سميراميس، لم يعد هناك سيوف ولا رماح، بل مسدسات وبنادق.. فلماذا لا أتدرب عليها كما تدربت أنت على السيوف والرماح؟

"أريد أن أتدرب على الرماية" قلت لمؤنسي فهش وبش "ولم لا؟ خولة بنت الأزور كانت تخوض المعارك جنبا إلى جنب مع الرجال" "وسميراميس كانت تقود الرجال.. بل تصرع أشجع الشجعان فيهم" قلت له وأنا أبوح له باسمك لأول مرة "كأني بك تحبين سميراميس هذه" قال فأجبت للتو "اشد الحب، بل هي مثلي الأعلى يا مؤنسي!! سميراميس سميتي، أليس اسمي كاسمها؟ هي ملكة الشرق الحسناء سيدة البلاد العظيمة، أي شيء أرفع من هذا؟ أي شيء أحب إلى قلب المرأة من أن تكون سيدة وملكة وحسناء؟".

رتب لي مؤنس، وبطرقه الخاصة، كل ما يلزمني للتدرب على المسدس. ففي النادي الشاسع الواسع، كان بإمكان المرء أن يصول ويجول، يرمي بالمسدس يصطاد الحمام ببنادق الصيد، يسدد على هذه الدريئة أو تلك ويرمي. الرصاص كثير والمدربون بارعون بل ووسيمون أيضا رياضيو الأجسام أقوياء البنية، أكثر من مرة تلمظت على هذا المدرب أو ذاك وقد أرخت لمسة من يده مفاصلي، إذ كان لابد لقبضة يده من أن تمسك بيدي، لابد له من أن يقف ورائي، يرفع ذراعي بالمسدس كي يعلمني كيف أسدد، وكان هذا كافيا لإشعال النار في جسدي، لكن سرعان ما كنت أحرك التميمة في صدري كي تكبح شهوتي.. كنت أعلم أن غلطة واحدة قد تودي بي إلى هاوية التهلكة.. أن أعينا كثيرة ترصدني كي تنقل لصاحب الرفعة ما تراه من لوليتاه، أهي مخلصة أم غير مخلصة؟ سهلة المنال أم عصية المنال؟ وكنت أكز على شفتي، أكبس الملح على جرحي وأستعيذ بتمتمتي كي أظل عصية المنال فلا أضعف أمام شهوات جسدي.. أنهيت التدريب وقد غدوت أسدد على الزجاجة فأطيح بها.. وهكذا مكافأة لي على براعتي قدم لي صاحب الرفعة مسدسا مفضضا خفيفا ظريفا صنعته المعامل خصيصا للجنس اللطيف فلا يزعج أناملهن ولا يصعب استعماله عليهن يدعونه البكرة.. تضعين الرصاص في ثقوبه لتدور البكرة تلقائيا مع انطلاقة كل رصاصة، وفرحت به أيما فرح.. لكن ربى اندهشت أي اندهاش "مالك وماله؟" "كيف مالي وماله؟ نحن ما نزال

في غاب.. شريعتنا شريعته فكيف لا تحتاجين إلى رشاش وليس إلى مسدس؟" "غاب.. رشاش.. مسدس.. ما بك سميرا.. أجننت؟" "بل أنا بكامل قواي العقلية.. هذا الغاب الذي يعج بالنمور والذئاب يفرض عليك أن تستعدي له، كي تدفعي عن نفسك كل ذي ظفر وناب". وهزت رأسها يمنة ويسرة "أفكارك فظيعة سميرا، بل عدوانية.. فمن أين جاءتك هذه العدوانية كلها؟" سألت، هي التي كانت تعلم كم تعرضت للعدوان في حياتي، كم عانيت من الظلم والقهر، فقلت "أنت ربى تسألينني؟" ثم اكتفيت بنظرة كلها لوم وعتاب. أبي قابل مسدسي بتقطيب حاجبين وزم شفتين ثم لم يتكلم فيما كان لعاصم موقف آخر.. لقد أحس وكأنه هو المقصود بمسدسي فأنكر واستكبر.." كيف تفكرين بأمر كهذا؟ ثم من أين جئت به؟" شرحت له أن الحياة علمتني أن أتخذ أقصى استعداداتي لأسوأ الظروف.. وأن المصلحة هي التي أمنت المسدسات بالتقسيط المريح: عشرة بالمائة من راتبنا كل شهر.. وبدت الحجة معقولة، رغم أنها لم تزده إلا امتعاضا ونفورا.. "هذا الطريق الذي تسيرين فيه لا يعجبني: جيدو كاراتيه، مسدسات.. ما هذا؟ لكأنك تعدين نفسك لحرب ضروس، لحياة كلها معارك بمعارك".. "وهل الحياة سوى معركة إثر معركة؟ أجل عاصم الحياة حرب دائمة علينا أن نخوضها بكل جدارة أو سحقتنا سنابك الخيل.." لكنه لم يسمع بقية حديثي.. كان يكره النقاش معي، بل كثيرا ما كان يقول إننا لا نتكلم لغة واحدة، فإذا تكلمت لا يفهمني، وإذا تكلم لا أفهمه.. وكان ذلك صحيحا إلى حد كبير.. كانت أيام منال قد ذهبت ولم يعد بحاجة إلي.. كما كان عقله مختلفا عن عقلي.. هو الذي درس الهندسة وتخرج بتفوق، كان منطلقه: اثنان+اثنين=أربعة كما كان يؤمن أن هناك نظاما يسيّر العالم وقوانين تحكم الوجود: السببية، الماهية، الغائية، الجدلية الديالكتيكية.. كلها علينا أن نؤمن بها ونعمل طبقا لها، لكن.. هل كان لي أنا علاقة بذلك؟ أنا التي كنت أرى كل ما حولي فوضى، انتهاكات للقوانين، سحقا للنظم.. أأظل أؤمن بالقوانين والنظم؟ كان عاصم بمقدماته المنطقية ومحاكماته العقلية يرى أن العقل والمنطق هما اللذان يسيطران على العالم.. فيما كان كل شيء حولي يقول "العقل والمنطق هما الوحيدان الغائبان عن هذا العالم. الحظ، المصادفة، الفوضى، هي وحدها التي تسود العالم.. انه الحظ الذي يرفعك والحظ الذي يخفضك." "شطارتك لا كفاءتك." إمكاناتك البارزة وذرائعيتك لا أخلاقك وشهاداتك". كان البون بيني وبينه شاسعا لا صلات بين أفكارنا ولا جسور.. لكن وهنا أعترف لك يا سميتي.. كان لذلك المسدس أثر كبير علي، لقد خلق لدي شعورا جديدا بدأت الإحساس به مع الكاراتيه والجيدو لكن ليكتمل بالمسدس. انه الثقة المطلقة بالنفس.. أجل، سميراميس باتت

ثقتي بنفسي كبيرة، خوفي من الرجال زال.. لعلها الرصاصة التي كنت أسددها لقلب الدريئة فتخترق ذلك القلب منحتني ذلك الشعور.. أهو نفسه الشعور الذي كان يمنحك إياه السيف حين تسددينه إلى صدر العدو أو الرمح حين تطعنين به السبع؟ لا أدري، لكن صرت لا أفارق مسدسي، كما كنت أنت لا تفارقين سيفك.. صرت أرتاد النادي دائما.. أركب الخيل أيضا وأطلق النار.. ففي النادي خيل يا سميتي، مثلما كان لدى منونيس، قائد آشور، خيول وعربات.. لم أكن أركب الخيل لكي أصبح فارسة تخوض ميادين القتال، بل لكي أختبر المشاعر التي كنت تشعرين بها وأنت تمتطين صهوة حصانك. كنت أعلم أن لصهوة الحصان تأثيرا لا يعرفه إلا من يعتليها، وأن فيها لذة لا تضاهيها لذة، أليس هذا ما قاله الشاعر "ألذ مكان في الدنى سرج سابح.." كان علي أن أجرب بنفسي.. وجربت. بعد التدرب على المسدس.. تابعت المسير، أعربت لمؤنس عن رغبتي، فأعطى أوامره ليكون لي في الغداة أجمل الخيول وأعتقها.. اعتليت ظهر الحصان، نظرت.. فإذا بالأرض كلها تحتي.. الرجال.. النساء.. كلهم أنظر إليهم من عل.. وأنا محلقة فوق.. آه!! ما أجمل أن تكوني فوق.. والناس تحت؟ أليس كذلك يا سميتي؟ ألم يكن هذا شعورك وأنت تمتطين ظهر جوادك تسابقين الريح فتحسبين نفسك طائرة على بساط ريح؟ ذلك كان شعوري يا جدتي وأنا أطلق العنان لفرسي أول مرة، وقد وثق المدرب بقدرتي على الطراد ووثقت أنا بنفسي.. فشعرت أنني عقفاء تطير فوق ذرى الجبال، والعالم ينبطح هناك في الأسفل كله خضوع واستسلام.

أجل يا سميراميس، صرت أعلم ما كنت تشعرين به وأنت على صهوة الجواد وفي يدك السيف. أنا كنت أفعل ذلك أعتلي صهوة الجواد وأرفع بيدي المسدس، أطلق على الدريئة من الحركة.. فعلى المرء أن يتعلم الرمي من الثبات ومن الحركة كي يصير راميا ماهرا.. ولقد صرت.. فارسة ماهرة ورامية ماهرة.. مثلك يا سميراميس.. يجب أن أكون مثلك كي أشعر بما كنت تشعرين من قوة وثقة بالنفس.. ولشعوري بتلك القوة والثقة قلت لمديري"اكتب لي كتابا تأمرني فيه بالعمل الإضافي في المساء"، وكتب الرجل.. بخضوعه واستسلامه كتب.. أليست العقفاء هي التي تحلق فوقه بجناحين قويين وعينين ثاقبتين.. كيف إذن لا يخضع ولا يستسلم؟ كنت قد فكرت طويلا بالأمر.. وكنت أشعر بحاجة ماسة أكثر للتخلص من كل قيد.. وكان قد بقي قيد واحد: لا خروج في الليل إلا إذا كان برفقتي أحد من أفراد العائلة.. قلت في نفسي لا حرية مع القيود.. فلماذا أبقي على هذا القيد؟ أنا بحاجة لمزيد من الوقت، أتدرب، أمارس الرياضة، أذهب إلى منونيسي ليلا والليل أطيب لذائذ وأكتم سرا.. فخرجت بتلك الفكرة: الدوام المسائي.. حجة مفحمة للتغيب مساء والخروج متى أشاء.

لم يعترض أبي لكنه علق"دوام مسائي!! لكن لماذا؟" "آخر عام وجرد مالي وشغل كثير إلى درجة لا تكفينا ساعات الدوام النهاري"، أجبته وقد عرضت عليه الكتاب. صمت أبي هازا رأسه علامة الخضوع.. أما عاصم فلم يعترض ولم يسأل، لسبب وحيد هو أنني كنت قد قررت ألا أسأله.. ولماذا أسأله؟ لا.. لا، ينبغي أن أخرج عن الطوق.. أبي وحده هو المسؤول عني، آخذ رأيه وحسب، لكن هذا جعله يثور حين سمع بغيابي المسائي. سأل، فعرف الحقيقة وجاء إلي هائجا يفتح معي تحقيقا، لكنني كنت أيضا قد قررت "اسمع عاصم.. القاضي راضي، فما شأن المفتي؟" واشتد هياجا.. طرح أسئلة كثيرة، لكنني لم أجب.. كاد ينقض علي لكن ربى تدخلت "عاصم.. دعها وشأنها.. لقد أخذت موافقة أبيك، فما شأنك أنت؟" ومضى يحرق الإرم غيظا.. وهو لا يدري ما يفعل.. هو يحسب حسابا للتغيرات الكثيرة التي طرأت علي.. البحبوحة التي أعيشها، الرياضة التي أمارسها، المسدس الذي أحمله، وفي الوقت نفسه، لا ينسى أنه أخي، حامي الحمى وحارس الشرف الذي ينبغي أن يظل سيفه فوق رأسي مسلطا كسيف ديموقليس.. آه يا سميتي.. أنت لا تعرفين ديموقليس هذا.. انه من الإغريق أولئك الذين لم يكونوا قد ظهروا في عهدك.. كانوا ما يزالون برابرة همجا لم يعرفوا مدنية ولا حضارة، لكنهم أخذوهما من بابل وجبيل، من صور وصيدون ثم ارتقوا ليحملوا ردحا من الزمن مشعل الحضارة.. ولقد ضرب بسيف ديموقليس هذا المثل رمزا للتسلط والطغيان.. لكنني كنت في طريقي للتحرر من كل تسلط، كنت أعمل جاهدة للتخلص من كل طغيان، فهل أدع أخي الأصغر سنا يطغى علي أو يتسلط؟ أهو خير مني؟ أذكى؟ أقوى؟ لا.. لا.. كنت قد صرت شيئاً آخر، المال لدي، الظهر والسند، القوة والدربة، فلماذا لا أحصل على تحرري كاملا؟.

فكرة الدوام المسائي حررتني.. يا إلهي!! رمية صائبة كرميتك لذلك السبع.. لم يعد أحد يسألني أين كنت؟ ذلك السؤال الذي كنت أكن له كل المقت.. لم يعد أحد يتفقدني من حين إلى حين.. جئت، لم أجئ، ذلك بات شأني.. وغدا المنزل كأنما ألقى بي إلى النسيان. آ؟ نسيت، لم أخبرك يا سميتي أن عفريتة القمقم ذاتها أدخلتها إلى القمقم وأغلقت عليها بسدادة من رصاص.. لا.. لم يكن الرصاص من تلك المقذوفات التي يطلقها المسدس، بل ليرات من ذهب كنت قد صنعتها في إسوارة ذات خشاخيش ثم قدمتها لها وقد تذكرت المثل "أطعم الفم تستحيي العين" وأجدى ذلك نفعا.. كان الذهب نقطة ضعفها وقد اكتشفت نقطة الضعف تلك، فغدت، هي التي كانت تكرهني حتى الموت، تتملقني.. أليس معي نقود؟ ألا أستطيع أن أشتري لها الذهب؟ إذن يمكنها أن تنسى أمي.. تنسى حقدها القديم ذاك، وتغض الطرف عن كل ما أفعل.. فكم يفعل المال يا سميتي!! كم يسكت أفواها وكم يشتري ضمائر!!.

وحده مديري بدأ يتكلم. والحقيقة، أعترف لك يا سميتي، كان قد سكت طويلا. رآني أذهب الدوام بطوله، سمح لي أمارس الرياضة، أتدرب على الرماية وركوب الخيل، ولم يتكلم. لكن ما ان طلبت إليه أن يلعب معي لعبتي الأخيرة حتى لعب الفأر بعبه.. إذ لم يكن هناك دوام مسائي للموظفين.. هو وحده كان يأتي أحيانا.. وكان ثمة حاجب مناوب، فلماذا أردت منه أن يكذب على أهلي؟ في الرز بصل إذن، فلماذا لا يكون له حصة في ذلك الأرز والبصل؟.

"اسمعي.. الأقربون أولى بالمعروف، فلماذا تحرميننا ذلك المعروف؟" بادرني ذات مساء وقد مررت بالمكتب كنوع من التغطية. "لم أفهم.. ماذا تقصد سيادة المدير؟" "لا، أنت تفهمين، أم أننا لسنا قد المقام؟" "ولو.. أنت مدير كبير.. وأنا مجرد موظفة صغيرة.. فعن أي مقام تتكلم؟" "إذن، دعينا نعقد اتفاق جنتلمان.. اذهبي.. تعالي.. لك مطلق الحرية.. لكن نحصل على بعض الفتات". "ماذا تقصد سيادة المدير؟" "ولو، هذه المائدة العامرة" قال، وهو يشير إلى نهدي البارزين وشفتي الحمراوين "يوم كانت لصاحب الرفعة فقط لم ننطق بحرف.. لكن الآن.. وقد بات هناك مدعوون آخرون.. ضيوف مشاركون صار من حقنا أن نحصل على بعض فتاتها" وأرفق قوله بنظرة شبقة انغرست في صدري نازلة إلى خصري فحوضي لأشعر بها تخترق حتى أحشائي.. "خسئت" رددت بكثير من الحدة وأنا أشعر أن زمام الأمور يكاد يفلت.. "النجوم أقرب لك مني." إذن، لا دوام مسائي بعد اليوم، سأرسل كتابا معاكسا لأهلك، بل أرسل نسخة منه لصاحب الرفعة فيعلم ما تفعلين من ورائه". "تهددني سيادة المدير؟" "أنا لا أهددك بل أطالبك بجزء من حقي أم تريدينني أن أخرج من المولد بلا حمص؟" "وهل أنا مولد، لكل منكم حصة فيه.. أم تراني ملك مشاع، للجميع حق فيه؟" "أنا أراك تذهبين تأتين، تعيشين حياتك بالطول والعرض وكله تحت ستار أنا أصنعه لك، فهل كثير علي أن أنال تعويضا ما يا آنستي؟" "هكذا إذن؟ تريد تعويضا؟" "لا، لا، ليس تعويضا بما تعنيه الكلمة.. بل بالمعنى الذي يدل على ودك ورضاك.." قال بلهجة جديدة، فيها الكثير من الرقة واللطف "صدقيني أنا أحبك، بل قولي أحببتك من أول يوم.. لكن كنت أراك منغلقة على نفسك، مسيجة إياها بسياج من شوك.. فلم أجرؤ.. صدقيني لم أجرؤ يوما أن أبوح بشيء مما في نفسي.. فاسمعي مني.. نأتي هنا في الليل.. أو نذهب إلى شقتي هناك.. في أحد الأحياء البعيدة ولا أحد سمع ولا أحد دري".

يا للزمن العجيب!! يراودني عن نفسي وقد كان لا يجرؤ على النظر إلى وجهي.. يحسبني سلعة يريد شراءها بثمن بخس هو سكوته عني.. وزفرت مشيحة بنظري عنه وحوار في رأسي يدور "أنت التي أخطأت.. شاركته في لعبتك.. وكان عليك أن تلعبي بمفردك.. فكل شريك في لعبة سيطالب بحصته".. "هه.. ماذا قلت؟" عاد إلى الكلام، لكن بحميمية أكثر "صدقيني..

فرصة ذهبية.. نمارس الحب.. نستمتع.. فكلانا بحاجة لذلك.. صاحب الرفعة بات أقل قدرة وأكثر عجزا ولاشك.. وأنت بحاجة لرجل.. شاب يقضي لك وطرك.. يشبع غريزتك.. هو الذي لا يستطيع ذلك". وشعرت بالقهر.. اللعين فكر بكل شيء وعرف كل شيء.. فصاحب الرفعة لم يكن قادرا حقا على إشباع جسدي الفائر دائما، تلبية رغبتي المتأججة دائما والمدير في ريعان شبابه.. قامة طويلة وصدر عامر ومحيا جميل.. يثير مكامن أنوثتي كلما وقعت عليه عيناي، لكن من يضمن رجلا كهذا؟ فكرت وأنا أطرق من جديد. هو يساوم الآن، فلماذا لا يساوم فيما بعد؟ لماذا لا يتحول إلى مجرد مبتز جشع لا يقف عند حد؟ "لا.. لا.. لن تخرج من المولد بحبة حمص واحدة.." توصلت إلى قرار في سري لحظة خيل إليه أنني وافقت فاقترب مني ممسكا بكتفي، مدنيا فمه من فمي، وكأنما يريد ختم اتفاقنا بالخاتم والتوقيع.. "ويحك.. أتجرؤ؟ قسما لأجعلنك تدفع الثمن.." اندفعت صارخة ثم مضيت لا ألوي على شيء..

في اليوم التالي، صعق كل من في المصلحة، إذ لم تحل الظهيرة حتى "انتقل المدير" بدأت الوشوشات في المبنى. "المدير سقط على الحلبة بالضربة القاضية، فمن تراه خصمه، ذلك الملاكم العنيد؟" راحت التعليقات تترى: رجاء، خالد، أمجد، دعد، كلهم راحوا يعلقون.. فقلت، نوعا من المشاركة لا غير.. "معقول!؟ المدير قوي جدا.. كان يراهن على البقاء هنا مدى العمر، فكيف حدث ذلك؟" "هو ذا ما يدهشنا جميعا.. هكذا فجأة وبلا مقدمات ينتقل إلى بلدة صغيرة نائية!! مسكين!! يكاد يجن!!" قالت رجاء وهي لا تخفي شفقتها وضيقها.. هي المقربة المحببة..

وجاء إلي يكاد يجن. رجاني أن أذهب معه قليلا إلى المكتب، كي نتحدث بمفردنا فذهبت. "أرجوك.. أتوسل إليك".. قال وهو يركع عند قدمي "أنا لم أقصد والله.. سامحيني بالله عليك.. قولي له أن يلغي الأمر.. وافعلي ما تشائين.. لا أريد منك شيئا.. أكون إصبعا في خاتمك.. فقط لا تدعيني أنتقل.. سأموت ان خرجت من هنا.. سمكة تخرجينها من الماء.. فاشفقي علي.. ارحميني.." وانكب على يدي يقبلها.. ذلك المتنمر بالأمس المهدد المتوعد.. تحول إلى دودة تتمرغ بالتراب، تلعق حتى حذائي.. آه!! كم شعرت بالمتعة!! كم دغدغت نفسي ألذ المشاعر!! هاهو ذا الرجل - الإله يركع أخيرا عند قدمي.. عبدا ذليلا صار بين يدي.. خرقة من قماش أمسح بها حذائي.. فلماذا لا ترفعين رأسك تيها يا سميراميس؟ لماذا لا تنفخين صدرك عزة وكبرياء؟ "هه!! أتكلمينه؟ أتدعينه يلغي القرار؟" سأل وهو يقف على قدميه من جديد مخدوعا بصمتي وهدوئي، لكن سرعان ما صعقته بجواب قاطع "بل تنفذ الأمر.. دون تردد أو تذمر، أتسمع؟ أي تردد أو تذمر سيعود عليك بالويل والثبور.. هذا كلامه وأنا أحذرك" قلت

وأنا أعاود الخروج.. فيما هو فاغر الفم، جاحظ العينين لا يدري ما يفعل.. لكن قبل أن أفتح باب مكتبه التفت إليه من جديد وبنبرة التحذير ذاتها تابعت "وليكن في علمك كلمة واحدة تتلفظ بها عن سبب نقلك تمسح عن وجه الأرض.. أتسمع؟ تمسح تماما عن وجه الأرض؟ هذا كلامه أيضا.. ولقد بلغت.. اللهم إني قد بلغت" ثم خرجت صافقة الباب ورائي صفقة سمعت دويها المصلحة كلها.

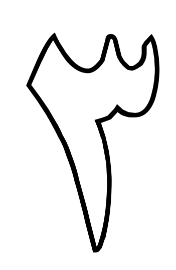
منتصبة القامة، مرتفعة الهامة خرجت إلى الممر، فإذا بأبواب الغرف كلها مفتوحة والموظفون والموظفات هناك، آذان صاغية تسترق السمع، لكن ما تراهم سمعوا؟ ربما لم يسمعوا شيئا لكنهم رأوني أخرج صافقة الباب ورائي منتصبة القامة مرتفعة الهامة فأسرعوا إلي "يرجوك أن تتوسطي له؟" "طلب إليك التدخل؟" "مسكين، ساعديه.. أنت تستطعين ذلك فساعديه" لكنني لم أرد على أحد بل حملت حقيبتي وخرجت.

كنت بحاجة ماسة للوحدة، أجتر فيها مشاعر فرحي وسعادتي على مهل، أتمتع ذرة ذرة.. كشارب خمرة ليس في كأسه سوى الثمالة ولا يريد أن تنتهي تلك الثمالة.. السلطة!! آه كم تفعل السلطة!! آه!! ما أعظم أن تكوني صاحبة سلطة!! تأمرين فيلبي الناس، تنهين فينتهي الناس.. أنت يا سميتي تعرفين ذلك!! كنت امرأة قائد جيش.. وكان حولك الجند والأتباع.. لكن.. أنا ما كنت يوما صاحبة سلطة.. شعوري بالزهو والفخار نبع تلك اللحظة. أنا وحدي رسمت قدر المدير!! بكلمة واحدة قلبت حياته رأسا على عقب.. لم لا ومؤنس مثل منونيسك، بيده الأمر والنهي، يعز من يشاء ويذل من يشاء.. على عجل أقلتني السيارة إلى مكتبه "هذا المدير ينبغي قطع رأسه" بادرته ما ان دخلت المكتب.. "هذا الوغد السافل ينبغي مسحه عن وجه الأرض" وأسرع إلي يهدئني، "سأقطع رأسه.. سأمسحه عن وجه الأرض فقط قولي.. ماذا فعل؟ أي إثم ارتكب؟".

وبدأت أروي القصة، حاذفة منها ما يسيء إلي، مضيفة ما يسيء إليه فيزداد ذنبه ضخامة.. "يراودك عن نفسك!؟ الحقير الواطئ سأريه".. "ماذا ستفعل؟" سألته وأنا أحاول الاطمئنان.. "لا عليك.. اذهبي أنت الآن فلا يراك أحد.. وغدا ترين ما أفعل" قال وهو يمسك بمرفقي، سائرا بي نحو الباب.. كنت أعلم أنه يكره أن أزوره في المكتب.. منذ زيارتي الأولى تلك حرم علي زيارته فلا يعرف بي أحد.. لكنني كنت غاضبة حين اتصلت به.. لا أدري ما أقول. ولعله خشي علي مغبة الغضب فأرسل السيارة.. "لا تنس.. أرجوك" بنبرة التوسل قلت له قبل أن نصل إلى الباب.. "أنسى؟ لا.. لا.. اطمئني فقط.. قولي له عن لساني إياك أن تنطق بحرف واحد عن أي شيء..! فقلت له عن لسانه وارتجف المدير واصفر وجهه.. الله!! كم كنت سعيدة وأنا أراه يرتجف

ويصفر.. كم كنت سعيدة وقد بر مؤنس بوعده. "أجل" ليعاقب ذلك المدير.. هو يستاهل بدل العقوبة ألفا. سيحرمه ذلك أن ينظر إلى أعلى.. أن يتطاول على من هم أرفع منه.. فكم أنت ذكي فهلوي يا مؤنسي!! كنت أحسبك ستسرحه من العمل.. تجلده.. ترسله إلى السجن.. لكن لا.. هذه العقوبة أفظع.. سيظل عنقه تحت سيفك وسيفك مسلط يهدد بقطعه كل لحظة.."وضحكت.. ملء شدقي ضحكت.. بل قهقة عالية كقهقة مؤنسي قهقهت..

"أعجبتك العقوبة" سألني مؤنسي وقد التقينا في موعدنا الأسبوعي. "وهل تفعل شيئا لا يعجبني؟" رددت وأنا ألقي بذراعي حول عنقه أزرعه قبلا.. ثم أنتقل إلى خديه، شفتيه، حتى ضج بالقبل فألقاني على أقرب أريكة، وهو يلهث متقطع الأنفاس. في ذلك اللقاء شربت النبيذ المعتق من جسده.. كما شرب النبيذ المعتق من جسدي. كان يسكب الكأس قطرات من دم أحمر بين نهدي ثم يلعقها من هناك.. من سرتي.. أسفل بطني.. وكان منتشيا سعيدا.. كما كنت منتشية سعيدة، وحيدين في جنة لا يعكر صفوها شيء.. لحظات من حب مارسناه كما لم نمارسه من قبل، فقد كان يمور في داخلي عرفان بالجميل يمتزج بالرغبة، بالشهوة، بما لست أدري من مشاعر، وكان هو لا يقل عني موارا بخليط من المشاعر، ربما في رأسها إحساس بالنصر لامتلاكه نضارة الصبا الذي بين يديه.. كان الرجل يموت ولعا بالصبا.. عشقا للنضارة ينهل من مائها ولا يرتوي، يقضم من تفاحها ولا يشبع.. ولم يكن في ذهننا كلينا سوى أن نسبح في نهرنا الدافئ أكثر فأكثر، نغوص في بحر سعادتنا أكثر فأكثر. لكن قبل أن نغادر المخدع، وربما كي يكمل تلك السعادة، أخرج من جيبه حلقة مفاتيح مقدما إياها إلي.. "ما هذه؟" "ألم تقولي انك بحاجة إلى ضمان وأمان؟" "بلى" أجبت وأنا أستعيد في ذاكرتي حديثا قديما كنا قد تحدثناه ذات يوم ."حسن هو ذا جزء من الأمان الذي وعدتك به: شقة من أربع غرف، ملكك ومسجلة باسمك." ولم أصدق أذني ولا عيني.. كانت حلقة المفاتيح في يدي.. وكانت كلماته في أذني "حقا مؤنسي.. تعطيني بيتا؟" "أجل.. بيت كامل بكل ما تحتاجينه من أدوات.. وكل ما تحتاجينه من استقلال." ولم أشعر إلا وأنا أقفز إلى عنقه من جديد، أحيطه بذراعي ثم أزرع كل ما فيه بالقبل..



أنا متأججة أنا شقراء

أنا رمز العشق والهيام

روحي تطفح برغبة المتعة

أتبحث عني؟

كلا ، لا أنشدك أنت

جبهتي ناصعة البياض وضفائري من ذهب

بوسعي أن أغمرك بفيض من سعادة لا نهائية

لدي كنز من ألحان تناديني

أنا كلا لا أناديك أنت

أنا حلم أنا المستحيل أنا طيف باطل

من الغيم والنور

أنا روح أنا عديمة اللمس

أنا لا أقوى على حبك

هكذا كنت تترنمين يا جدتي الكبرى يا رمز العشق والهيام، روحا تطفح برغبة المتعة، جبهة ناصعة البياض وضفائر من ذهب، لكنك في الوقت نفسه ظللت حلما، طيفا باطلا، روحا عديمة اللمس.. أقرأ أشعارك أتمعن في أسطورتك فيتملكني العجب.. هل أنا إلا أنت؟ تماه كامل يا جدتي البعيدة!! لكأنني نزلت من بطنك أمس، غذيتني من حبل سرتك، كونت حتى مخ عظمي على شاكلتك فخرجنا واحدة لا اثنتين.. أنت في ذلك الزمن المغرق في البعد وأنا اليوم.. ثلاثة آلاف سنة أم تراها أكثر.. لا أحد يدري، فالأساطير لا عمر لها مثلما هي لا أب لها ولا أم.. في غفلة من الزمان جاءت مغفلة الحسب والنسب إلا أنها تجسد حقيقة أكيدة هي ذلك الغموض الساحر في حياة البشر.. في الكون ذاته ذاك الذي خلق من هيولى.

كنت هكذا تخاطبينه في سرك.. منونيس زوجك وعاشقك لكنك لم تكوني قادرة على العشق بل لم تكوني تستطيعين حتى الحب.. شيء ما في داخلك كان يحول بينك وبين الحب؟

ما هو يا سميتي؟ أرجوك.. قولي أي شيء علني أفهم نفسي أنا.. أعالج ما في داخلي من برد يمسك بحشيشة روحي فيجعلها لا تعرف الحب ولا تقوى على الحب.. مثلما كنت أنت.. مسكين منونيس، ألم يكن قد قدم لك قلبه على طبق من فضة؟ ألم يكن قد نذر نفسه عاشقا متيما بك؟ ها هو ذا يناديك في إحدى قصائد عشقه..

آه.. تعالي.. أنت تعالي

عندما على صدرك تحنين جبينك الحزين

إخالك زنبقة كسيرة

لأن الله عندما وهبك الطهارة

ذاك الرمز السماوي

كوّنك على صورة تلك الزنبقة

من ذهب وثلج

لقد كان منونيس يعلم أنك مجبولة من ذهب وثلج.. تلمعين من الخارج براقة كالذهب، لكنك من الداخل باردة كالثلج.. هو يهيم بك حبا.. وأنت باردة يا سميراميس.. لا تعرفين وهج الحب، لا يقاربك دفء الحب، حميميته. تخلصين لقائدك.. أجل.. لكنك لا تذوبين به حبا.. تظلين في داخلك كتلة من المطامح والتوثب، البسالة والفروسية، تظلين سميراميس، الساحرة الغامضة، الفريدة المتفردة التي لا يستطيع اختراق روحها أحد، تظلين اللغز الذي يحير منونيس كما يحير نينوى، بابل، بل مملكة آشور برمتها، ولم أكن إلا مثلك يا سميتي.. أنا نفسي لم أكن إلا أنت.. هامش ما يظل بيني وبين مؤنسي.. نلتقي، نمارس الحب، نعيش لحظات حلوة لكن الحب نفسه ناء بعيد.. الأمر ذاته ينطبق على كل من حولي.. خندق ماء يقوم بيني وبينهم، كتلك الخنادق التي تقام حول القلاع كيلا يستطيع الوصول إليها أحد.. فيما الجسر الوحيد الذي يمكن عبور الخندق عليه مرفوع إلى الأعلى لم أنزله لأحد كي يعبره حتى احتجت صديقتي رجاء ذات يوم. "ما لك.. بعيدة.. نائية.. كنجمة الصباح؟ لا يستطيع الوصول إليك أحد." "لكن ها أنذا قريبة.. يدي بيدك وكتفي بكتفك فكيف لا تصلين إلي؟" أجبتها ضاحكة وأنا ألتصق بها أكثر وأكثر في مكتبي.. "لا.. لا.. أقصد هذه الطبقات العازلة التي تغلفين بها نفسك فلا يبلغ حقيقتك أحد." واكتفيت بإمعان النظر فيها. كنت أعلم أنها تريد

أن تجرني إلى الحديث، وكنت أرفض أن يجرني أحد.. كان الكل يغمزون.. يلمحون "أنت وحدك من كان وراء نقل المدير." لكن كيف؟ لماذا؟ من ورائي؟ لم يكن أحد يدري.. مرات كثيرة حاولت رجاء أن تعرف لكن عبثا "لا أدري" "من يعلم؟" "لا علاقة لي" كنت أجيب، لكن كان فضولها أشد من أن يكف عن ملاحقتي.. "أنت محيرة" تتابع محتجة "غامضة.. أنت لغز.." وحين كنت أضحك رادة بأنني مجرد إنسانة بسيطة لا حول لها ولا طول كانت تهز رأسها لائمة "بسيطة وتطيرين المدير كأنه ريشة!؟ لا حول لك ولا طول وضربة واحدة من قبضتك تلقي بمدير طويل عريض أرضا؟" وأضحك ضحك الإنكار لما تقول، الإثبات لما حدث، فتزداد حيرة على حيرة وفضولا على فضول، كانت رجاء حزينة على المدير، فالمعاون الذي حل محله "خروق" ثم لا تعرف خيره حتى تجرب غيره وغيره أثبت صغاره وضعته.. هي تريدني أن أتوسط له، أعيده إلى مكانه، علاقة ما ربما كانت تربط بينهما فكان انتقاله المفاجئ صدمة لها بل ربما للكثيرين.

لم تكن رجاء، وحدها تضغط علي لإعادته، بل أمجد، خالد، دعد، كلهم راحوا يضغطون علي، فالقرائن كلها تشير إلي بإصبع الاتهام. ذات مرة بقت رجاء البحصة "تحرش بك؟" بدأت متسائلة لكن دون أن تنتظر ردي "يا عزيزتي افرضي أنه تحرش بك.. ماذا في ذلك.. شاب واستحلى؟" ولم أشعر إلا وأنا أرد بانفعال "يستحلي.. لكن لا يمد يده.." "ها.. ها.. هنا حطنا الجمال.. يمد يده.. لا يمد يده.. المهم المرأة.. ما الذي تريده المرأة؟ تستجيب أم لا تستجيب؟ هو ذا المهم.. أنثى الحيوان في الغابة لا يستطيع الذكر اعتلاءها إلا بإرادتها فكيف بالمرأة؟ لا.. ما أظن باستطاعة رجل أن يصل إلى امرأة إلا برغبتها.. وأنت لا ترغبين.. إذن كلمة واحدة تردعه.. أم تراه مجرم يريد اغتصابك وقتلك؟" "لا، ما هكذا الأمور.. المدير لطيف.. مهذب.. أنا أعترف" "إذن.. أرجوك.. بل الزملاء كلهم يرجونك.. أعيديه.. ارحمي أطفاله.. ارحمينا نحن.. فلن نجد مثله مديرا." وكانت رجاء على حق.. فالمدير كان ذا أياد بيضاء كثيرة على المصلحة، وكل من في المصلحة.. بل أنا نفسي كان معي سمنا على عسل.. صحيح.. أنه كان ينفذ أوامر.. لكن الصحيح أيضا، أنه طوال تلك السنين كان مثال المدير المسؤول، غطى علي، لم يغمز، لم يلمز فلماذا لا أعترف؟.

ووجدتني يعتريني شعور بالندامة.. أتراني انفعلت أكثر مما يجب؟ تسرعت أكثر مما يجب؟ "حسن سأحاول" وعدت رجاء وقد شددت الضغط. "بل قولي سأعيده." أكدت علي.. "أو تحسبينني الآمرة الناهية هنا؟" قلت ضاحكة "ومن الآمر الناهي إذن؟" أجابت بابتسامة ساخرة "في هذا البلد، المرأة هي الآمرة الناهية، المرأة تذلل كل عسير. بغمزة من عينها تصل إلى كل

ما تريد." "ولماذا لا تغمزين أنت؟" بدأت ردي وفي نفسي شيء من امتعاض. لكنها قاطعتني "لا.. ليس أية امرأة.. بل قصدي المرأة الجميلة.. امرأة مثلك.. شقراء بيضاء ذات عينين خضراوين، أي مكان يا ترى لا تصل إليه ان أرادت؟" وأفحمتني. كنت أعلم أن تلك حقيقة واضحة كعين الشمس ولم أكن أحب أن أماري بحقيقة واضحة كعين الشمس. مؤنسي نفسه ذلك الهرقل الجبار، لم يحتج لأكثر من سهم من سهام عيني الخضراوين.. حتى خر صريعا عند قدمي.. بلمحة عين صرت موظفة، بلمحة عين فتحت لي أبواب لم تفتح لسواي، أغدقت علي أموال، هدايا، بيت.. ثم ذلك الدلال كله في دائرتي أيصح لأحد؟ لا، لا، أنا أعلم جيدا أني وحدي صاحبة الحظ السعيد التي لا يطبق عليها نظام ولا يراعى قانون.. لا تحاسب ولا تراقب.. أليس ذلك بفضل جمالي وأنوثتي؟ لو كنت عدنان أو باسما أو محمودا، أيعاملني صاحب الرفعة هكذا؟ أكان سيعطي أوامره ذاتها التي أعطاها من أجلي؟ لا.. لا.. رجاء على حق.. هي بنت البلد وتعرف كل ما في البلد. في مجتمعنا، مجتمع الكبت والحرمان، للمرأة باع طويل.. فقط تلعب اللعبة فتبلغ الغاية التي تريد.. أكان الأمر عندكم كذلك يا سميتي؟ لا.. لا.. أيامكم لم يكن هناك كبت ولا حرمان.. كان كل شيء بسيطا يسيرا تحكمه قوانين الطبيعة، لا قوانين العادات البالية والتقاليد المهترئة.. لم تكن المرأة مقيدة بألف قيد، بل كانت حرة كشعاع الشمس، تخرج، تدخل، تعمل، تشارك الرجل في كل شيء، ألم تكوني أنت ترعين الإبل والشياه؟ ألم تكن نساء بابل يعملن في الحقول، يذهبن إلى الأسواق؟ يبعن، يشترين؟ غانيات عشتار ألم يكن متاحات لكل زائر لمعبد عشتار؟ فلماذا يكبت الرجل نفسه ويشعر بالحرمان؟ لماذا تكبت المرأة نفسها، تحرم نفسها والرجل متاح لها زوجا وعشيقا، سيدا وخادما؟ آه!! ما أجمل أيامكن يا سميراميس!! ما أحسن حياة الإنسان وهو يحيا وفق قوانين أمه الطبيعة: الحرية والانعتاق.

"أعد لي المدير" قلت لمؤنسي ونحن في السرير نستريح. "ماذا؟" رد فاتحا عينيه على سعتهما وكأنه لا يصدق ما يسمع. "مديري السابق، حرام، كلهم يطالبون به" "حرام!! كلهم يطالبون به!؟ ما هذا الذي تقولين؟" قاطعني وفي عينيه لوم وتقريع "أقول.. يكفيه.. لقد عوقب العقاب الذي يستحق.. يمكنك الآن أن تعيده" "لا ما كنت أحسبك تنسين بهذه السهولة ما أعلمك إياه من مبادئ ودروس." "أية مبادئ ودروس!؟" تساءلت وأنا أحاول التذكر، فقد أعطاني الكثير من الدروس وعلمني الكثير من المبادئ. "لا ترحمي ضعيفا ولا تشفقي على مسكين.. أليس هذا ما علمتك إياه؟" "بلى." "إذن كيف يخطر ببالك أن تشفقي على رجل راودك عن نفسك؟ وضع نفسه في كفة الميزان الأخرى قبالتي؟ خطر بباله أن يطأ المرأة التي وطأت؟" وشعرت في

نبرة صوته بحنق شديد لم يفصح عنه من قبل. هو إذن يعتبر الأمر كله إهانة موجهة لـه، ينتقم لنفسه أكثر مما ينتقم لي. "ما.. ما.. هذا قصدي.." بدأت متعثرة وقد اضطربت أفكاري بحيث لم أستطع ترتيبها.. "قصدك.. ليس قصدك.. اسمعي.. هذه الرحمة.. الشفقة.. الإنسانية.. كلها هراء يجب أن تتخلصي منه.. أنت تلميذتي فتعلمي، ان كنت تريدين أن تصبحي شيئا." "أريد." صحت بحماسة شديدة "أجل.. أريد أن أصبح شيئا فعلمني يا معلمي" "إذن.. اسمعيني جيدا.. الحياة معركة والناس جند يخوضونها أنساقا أنساقا.. السهام تنصب عليهم من العدو.. فيسقط هذا ويستمر ذاك.. لكن ان سقط أحد بجوارك لا تلتفتي إليه.. لا تتوقفي لتضميد جراحه.. أو إغاثته.. فكل من يتوقف في ساحة المعركة تدهسه سنابك الخيل وأقدام المشاة.. عليك في المعركة أن تتابعي أو تنتهي.. لا تدعي شيئا يوقعك أرضا أو يوقف سيرك.. الأنساق وراءك لا ترحم، ستكتسحك في طريقها كما تكتسح النار الهشيم." وشردت بأفكاري .. كان ما يقوله خطيرا جديدا على عقلي غريبا على مفاهيم الناس. لكنه معلمي وعلي أنا تلميذته أن أصغي إليه جيدا.. أنا التي آلت على نفسها أن تتعلم منه. الرجل كبير، صاحب رفعة وشأن، ليس منذ يوم أو يومين، بل منذ سنين وسنين، فكيف تراه وصل إلى ما وصل وكيف احتفظ بما احتفظ، لو لم يكن عبقريا فذا؟ مع ذلك وجدتني مدفوعة دفعا لأن أرد "لكنهم يقولون: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". ضحك ملء شدقيه ثم غرس في عيني عينيه منقلبا على جنبه ملتحما بجنبي لحما للحم وجلدا لجلد. "هؤلاء يا صغيرتي هم الأنبياء، الفلاسفة، الشعراء من يقولون ذلك فليقولوا ما يقولون.. نحن لنا قول آخر.. كل من يريد أن يكون سيدا مسيطرا يجب أن يقول شيئا آخر، أن يتصرف تصرفا آخر، وإلا ما كنت رأيت حاكما ومحكوما، راعيا ورعية؟".

"تعني.. أنتم كلكم هكذا، لا ترحمون الضعيف ولا تشفقون على المسكين؟" "كما قلت لك.. الشفقة، الرحمة، الإنسانية كلها عملة باطلة لدى من يريد أن يسود، أن يقيم دولة ونحن السادة الذين يقيمون دولة.. نحن من نسوس الناس بسلطان الله الذي أعطانا" "وهل الله هو الذي أعطاكم هذا السلطان؟" "بالطبع.. أم تراك تظنين أنه جاءنا هكذا؟ إنها إرادة الله.. اختارنا لأن نكون الصفوة، السادة الذين يأمرون وينهون.. ويكون الآخرون عبيدا ينفذون ويطيعون.. أجل.. نحن خلفاء الله في الأرض.. مثلنا مثل الخليفة أيام زمان.. الملك أو السلطان، من تعرض للسلطان أرداه ومن تطامن تخطاه.. وإذا زادك السلطان إكراما زده إعظاما وإذا جعلك عبدا اجعله ربا.

هي ذي المبادئ التي كان يسير عليها الحكام والملوك قبلنا والتي ما زلنا نؤمن بها ونعمل وفقها وما أحسبها إلا باقية كذلك أبد الآبدين."

وشعرت أنني أزداد إعجابا بالرجل.. ليس عبثا إذن أنني سلمته نفسي وقيادي، جعلته معلمي ومرشدي، هو عليم فهيم.. لديه مبادئ وأسس يؤمن بها ويطبقها.. بل هو يفاجئني بالجديد كل مرة يعطيني فيها درسا على العشاء أو في السرير، في السيارة أو في الحديقة، نشرب، نسبح. كان حريصا دائما أن يحدثني عن تجربته.. أن يعلمني بعض ما يعلم.. وكنت أنهل من الكثير الذي يعلم، رمل صحراء لا يرتوي أبدا من مطر.. كان مؤنس هو الرجل الذي أحتاج، الضالة التي أنشد.. ملكه كثير، سلطانه كبير.. آفاقه واسعة يمكنها احتوائي بقضي وقضيضي، ولقد فعل ذلك أبا يحتضنني، تلميذة يعلمني، ضالة يرشدني.. لكن ذلك المساء، وقد التحم بي، يداعب خصلات شعري، أعدت التفكير بما قال فداخلني شيء من استغراب، شعرت بأن هناك وجها آخر للمسألة غائبا عن ناظريه.. ربما هو من مقامه الرفيع، لا يراه.. وتحيرت.. أأناقشه من جديد؟ أأحاول أن أريه ذلك الوجه؟" كيف وأنا مجرد تلميذة أمام سقراط عصره؟ أنا أسمع، أجل، غالبا ما أسمع فقط، فقد كنت على يقين أن على مثلي أن يستمع لمن مثله كي يتعلم.. مع ذلك ألح علي الشيء الآخر.. وأنا أرى بعين خيالي زميلتي رجاء وهي تصدم ويخيب أملها.. لقد وعدتها أن أحاول.. ألحت علي إلى أن وعدت، فكيف أعود إليها خاوية الوفاض؟ هل ستقنع مني بحجج غريبة على الفهم: لا تشفق لا ترحم.. اضرب حتى توجع.. من تعرض للسلطان أرداه ومن تطامن تخطاه.. هي لن تفهم ذلك.. أنا على يقين.. والآخرون.. ان سمعوا ما قاله مؤنسي استغربوا بل ربما جن جنونهم "ما هذا الذي يقول؟" سيردون "إذا زادك السلطان إكراما زده إعظاما وإذا جعلك عبدا اجعله ربا.. هذا كلام عتيق بال من أيام لوقيانوس ورعمسيس، بختنصر وآشور بانيبال فهل نقبل به اليوم؟ لا.." سيتابعون "نحن اليوم في عصر المساواة، الحرية، حقوق الإنسان.. فكيف يكلمنا بلغة العصور الحجرية؟ الناس كلهم سواسية كأسنان المشط.. كيف استبعدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.. هي ذي المبادئ التي تربينا عليها، فكيف يحدثنا عن جعل السلطان لك عبدا فتجعله ربا.. لا.. لم يعد هناك رب وعبد، لا راع ولا رعية بل مواطن ومسؤول أمامه عن شؤون الوطن: أصواتهم في أذني تقول ذلك، خاصة أمجد، ذلك الأربعيني الذي درس الفلسفة وتشبع بمبادئ أرسطو وأفلاطون.

خرجنا من السرير لنرتدي ثيابنا فلم أجد نفسي إلا وأنا أندفع إليه نصف كاسية، نصف عارية، أطوق خصره بذراعي دافعة بوسطي إلى وسطه وبشفتي إلى مقربة من أذنه "لا أنكر يا معلمي،" وشوشته بكل ما في أنوثتي من إغراء، "ان كل ما قلته بخصوص المدير صحيح،

وأنني معجبة به مكبرة له.. لكنك نسيت شيئا هاما لم توله اهتمامك؟" فوجئ بالعودة إلى أمر اعتاد ألا أعود إليه وقد انتهى منه. "شيء هام؟ أي شيء؟" "ها.. ها.." بدأت وجسدي كله يتلوى على جسده بحركات إغراء كنت أعلم أنها شديدة التأثير فيه. "نسيت أنني وعدتهم بإعادته.. فإذا لم أف بوعدي حط ذلك من قدري وانتقص من مهابتي؟" "ومن قال لك عديهم؟" "أنت"، "أنا" رد وقد فوجئ تماما. "كيف؟" "ثقتي بك، مكانتي عندك، شعوري بأن كلمتي لديك لا ترد.. فوعدت" "لكن هذا خطأ.. خروج على المبادئ التي ينبغي أن تسيري عليها." "هذا صحيح، كل ما تقوله لا يأتيه الباطل من أمام ولا من خلف.. لكن ألم تقل لي ذات يوم جوع كلبك يتبعك.. اضربه بالعصا يزدد تذللا وخضوعا؟" "بلى قلت.. وهو أحد المبادئ الأساسية التي نطبقها." "حسن.. الآن.. وقد جوعنا كلبنا حتى الهلاك وضربناه بالعصا حتى الموت، لم لا نعود به ذليلا صاغرا عبدا طائعا لا يرفع رأسا ولا يعصى أمرا؟".

وتوقف لحظة مبتعدا عني، يتفرسني "هي فكرة والله!! لكن من يضمن أن تكون ردة فعله هكذا؟" "مضمونة يا معلمي.. فخلال هذه الأشهر جاء إلي عدة مرات.. بل هو لا يجيء إلى هنا إلا ويأتي إلي زاحفا متضرعا، بل أكثر من زاحف ومتضرع.. هو عبد يا معلمي.. في داخله عبد صاغر وتابع ذليل، ولقد علمته الضربة أن عليه أن يظل عبدا.. فلماذا لا نسخره، سيما وأن المعاون الذي كلف بالإدارة بعده لا يبدو جاهزا لأن يكون عبدا؟" "ماذا؟ أيضايقك؟" "لا.. ليس بعد؟" "تعنين يمكن أن يفعل ذلك؟" وبرمت شفتي هازة رأسي بغير ثقة ثم غمغمت "ربما.. من يدري؟" مستعيدة إلى ذاكرتي نظراته المتسائلة دائما وهو يلاحقني حين أدخل أو أخرج.. "ماذا تعنين بربما؟ ان كان يضايقك أقطع لك رأسه.. فقط قولي" وشعرت بصدمة جعلت جسدي ينفصل عن جسده.. لم يكن هذا ما أريده.. أنقل هذا.. أقطع رأس ذاك.. لا.. كنت أريد سلتي بلا عنب.. لا أقتل هذا الناطور ولا ذاك.. هو لا يهمه الأمر، لكن أنا يهمني فقلت بنبرة كلها هدوء "لا.. لا.. الرجل لم يفعل شيئا.. لكنني أقول: من تعرفه خير ممن تتعرف إليه.. ثم كما قلت لك، ان أمرت بعودته الآن ضربنا عصفورين بحجر واحد." "أي عصفورين؟" تساءل وقد توقفت متعمدة "نضمن عبدا صاغرا لخدمتنا، لقناه درسا لن ينساه أبدا، ونؤكد للجميع أن ورائي ظهرا قويا ودعما مكينا لا يجرؤ ابن أنثى بعده على مقاربتي." وابتسم فعلمت أنه أوشك أن يرفع راية الاستسلام.. حين ودعني فقط وهو يغادر شقتي فعلها: كان قد احتضنني بذراعيه ذلك الاحتضان الذي أعهده منه عند الوداع، إذ يشدني بكل قوة يطبق بفمه بقوة يريد قبلة طويلة قبل أن نفترق، لكنني ابتعدت برأسي، "ماذا؟ ألن تقبليني؟" "ليس قبل أن تعدني؟" فضحك "عنيدة!! لا تتراجعين أبدا.. حسن.. أعدك.." وانقض على شفتي يلتهمهما التهاما..

أغلقت الباب خلفه ثم رحت أدور على نفسي أكاد أطير فرحا. كانت تلك هي المرة الأولى التي أخوض معركة مباشرة معه. وجها لوجه كانت المعركة.. وكان على أحدنا أن يخرج غالبا والآخر مغلوبا وخرجت الغالبة.. أجل.. كان ذلك نصري المباشر الأول.. انتصاراتي السابقة كانت كلها باللف والدوران، بحيل المرأة ومكرها.. هذه المرة فقط انتصرت بالحجة والإقناع.. فلماذا لا أثب وأفرح؟ رقصت، غنيت هزجت.. البيت بيتي، أفعل فيه ما أشاء.. صحيح أن الخيل لا تلعب فيه لكنه واسع.. حسبي أن أطلق العنان لساقي حتى أجد متسعا أكبر بكثير مما كنت أجده في بيت أبي..

الله كم فرحت حين دخلته أول مرة.. أعطاني المفاتيح، ثم جاء بي السائق لأفاجأ بمنزل فُرِش أفخر فرش، زُوِّد بكل ما يحتاج إليه الإنسان، فأي رجل سخي معطاء أنت يا مؤنسي؟ تفقدت غرف البيت الأربع، جربت أرائكه، قفزت إلى الأعلى والأسفل فوق سريره والفرحة لا تسعني.. "الآن أحقق استقلاليتي الكاملة".. الآن أمتلك حريتي التامة" رحت أصيح وأنا أتواثب فوق السرير والود ودي أن أصرخ ملء فمي "أنا حرة مستقلة!! أنا حرة مستقلة!!" كيف لا والفرح يا سميراميس، لا يجعلك تتسين نفسك، بل تصرخين، تتمنين أن يشاركك فرحك الآخرون لكأنه لم يخلق للإنسان كفرد بل كجماعة تتشارك فيه. خطر ببالي أن أذهب إلى ربى.. إلى رجاء.. لكنني كظمت. "لا.. لا تهدمي كل ما بنيت.. الكتمان.. السرية أليس هذا ما ألزمت به نفسك دائما؟" فكيف تخرجين عن القاعدة الآن؟" وعدت أضبط نفسي.." ينبغي ألا يعلم أحد.. هذا لنا وحدنا نلتقي فيه ان لم نذهب إلى الفيلا هناك" قال وهو يعطيني المفاتيح ثم أكده يوم التقينا فيه أول مرة، عشا جميلا لا يصلح إلا لطائرين مثلنا.. عاشق ومعشوق يتناغمان ويتحابان.. كان أقرب من الفيلا بكثير وكان يوفر عليه الوقت، كما كان أكتم بكثير للسر فهو بين منازل يضيع فيها الزائر والمزار. وهكذا غدا عشنا الحقيقي.. لا أشعر بالحميمية إلا فيه ولا بالدفء إلا بين أحضانه، فكيف لا أطير فرحا وقد حققت أول نصر فيه..

صباح اليوم الثالث ظهرت نتيجة النصر، إكليل غار توجت به رجاء رأسي.. إذ ما إن دخلت مكتبي حتى أسرعت إلي "سميرة.. كم أشكرك!! كم أنا ممتنة لك!! قد ربحت الرهان!!" "أي رهان؟" سألتها وكلي استغراب. "لقد راهنوني هناك" بدأت مشيرة بيدها إلى الوراء حيث مكتبها "أن المدير ذهب إلى الجحيم وأنه لن يعود أبدا فيما راهنتهم أنا بأنه عائد.. وهاهو قد عاد.." "عاد!؟ هو الآن في المكتب؟" "أجل.. منذ الأمس جاءت برقية بعودته.. أين كنت أمس؟" "أوه!! أنت تعلمين.. النادي والرياضة" "أعلم.. أعلم.. لكن كم كان بودي أن تري ما حل بهم حين وصلت البرقية.. كيف فغرت أفواههم وجحظت أعينهم وانطلقت صيحاتهم: يا الله!!

ما أقوى سميرة!! كم ظهرها مكين!!" "لكن.. كيف عرفوا بالأمر؟" "هم يعرفون كل شيء.. من نقله.. من أعاده.. من يفك حبل المشنوق.. الناس يعرفون سميرة.. فلا عليك.. أنا مكانك.. أفرح كثيرا.. أكيد أعدائي، أفقأ في عيونهم الحصرم، فلا يفكر في إيذائي أحد." "وهل يجرؤ على إيذائي أحد؟" سألت وشيء من الاعتداد داخل نفسي" ما دمت قوية، لا، لكن اضعفي قليلا.. اسقطي أرضا تجدي مائة سكين تنغرز فيك." وارتددت إلى الوراء.. أسقط أرضا!؟ أضعف؟ لا.. لا.. يجب أن أظل قوية، بل أن أزداد قوة.. فأزداد منعة وحصانة.. أصبح في مأمن أشد وأشد من بنات آوى وذئاب البرية.. وما أكثر ذئاب البرية!!.

"آنستي!! أسعد الله صباحك!!" بادرني ذئب البرية قاطعا علي شرودي فنهضت ملء طولي، فيما وقفت رجاء مرحبة "أهلا.. سيدي المدير نورت إدارتك سيدي المدير".. وكادت سبحتها تكر لولا أن قاطعها الذئب الذي امّسخ إلى جرو صغير بلا أنياب ولا مخالب. "النور هنا.. رجاء" قال وهو يشير إلي منكبا على يدي التي امتدت تصافحه مقبلا إياها قبلات الذل والصغار. "معاذ الله يا رجل.. ماذا تفعل؟" صحت مرتعشة وأنا اسحب يدي من يده "بل هذا نزر قليل مما يتوجب علي تجاهك.. أقبل يديك.. أقبل قدميك.. أنت سيدتي وولية نعمتي.. لن تجديني أبدا إلا خاتما في إصبعك، تقولين أيها الخادم فأرد شبيك لبيك عبدك بين يديك." وشعرت بأنامل خفية تدغدغ شغاف قلبي.. فرح غامر يملأ صدري.. "هو ذا ما توقعت. آه لو تسمعه يا مؤنسي!! الذئب الذي أراد أن يفترسني يوما صار جروا صغيرا يلعق قدمي.. تماما كما توقعت يا مؤنسي.. فانظر كم أنا سعيدة!! لكن مؤنسا لم يكن بقربي كي أحدثه أو يحدس بما كان يجول في خاطري، بل هو الجرو الصغير تابع لعق قدمي.. "أنا لن أنسى لك هذا الجميل.. رجاء حدثتني.. كانت قد راهنت على أنك أنت ستعيدينني، وها قد أعدتني فكيف أشكرك؟ قولي لي وأنا على أتم الاستعداد.."

"على ماذا تراهنتم؟" قلت لرجاء وكأنني لم أسمع ما كان يقوله المدير. "هريسة بالسمن العربي.. أنت تحبينها.. أعلم أنك تحبينها.. صدر من الهريسة سيصل الآن." "حسن، تشكرني بأن نأكل معا الهريسة" قلت متجهة بخطابي إليه دافعة بيدي رجاء من جديد. "هيا.. أين هريستك؟ ائتوا ببرهانكم ان كنتم صادقين.." وضحكنا ثلاثتنا فيما لاح من الباب آذن المبنى يحمل بين يديه صدرا يتصاعد البخار منه، وهو متحير لا يدري أين يذهب به..

"تعال.. تعال هنا" صاحت به رجاء لتنهي حيرته، ثم يدخل في إثره كل من في الدائرة من زميلات وزملاء لم يدعوا من صدر الهريسة شيئا.. الله يا سميراميس ما ألذ طعم النصر خاصة حين يكون على رؤوس الأشهاد.. يشهد لك الجميع به، ويصفق لك الجميع!! أنت جربته

كثيرا.. أجل.. يا جدتي العظيمة أنت أكثر امرأة جربته.. لقد كان النصر دائما طوع بنانك خادما يسير في ركابك.. ألم تخوضي المعارك؟ ألم تجندلي الفرسان؟ ألم تصرعي النمور والسباع؟ إذن، أنت التي عرفت طعم النصر وشهد لك به الجميع.. أنا جربته أيضا، بمفردي.. جربته.. مع مؤنس جربته، لكن أمام زملائي وزميلاتي كلهم لم أكن قد جربته.. وشعرت بغصة.. لو أستطيع تجريبه أمام أهلي.. أولئك وحدهم من كنت لا أجرؤ على البوح لهم بانتصاراتي.. أبي.. امرأة أبي.. أخي.. كلهم ينكرون علي كل ما اقطف من ثمار الانتصارات.. لسبب وحيد يا سميتي هو أنهم يعرفون أن وراء كل نصر تنازلا تنازلته أو ثمنا دفعته وهم ينكرون كل ما أقدمه من تنازل أو أدفعه من ثمن..

كان أهل أبي قد نبذوه نبذ البعير الأجرب حين تزوج بأمي، بنت الهوى التي جاء بها من مدينة البحر، فكيف يرضون بابنته تصبح بنتا من بنات الهوى؟ عشيقة من عشيقات صاحب رفعة تأكل طعامه وتشرب شرابه وتسكن بيته.. هكذا دون شرع أو قانون؟ أبي الذي خاف علي هذا المصير، فناضل وقاتل مشددا علي القيود محكما الطوق، ماذا يفعل ان حكيت له عن انتصاراتي لدى صاحب الرفعة وعلى فراشه؟ أخوتي!؟ أوه أخوتي!! أولئك الذين ينكرني بعضهم فلا يكلمونني ولا يعترفون بي، فيما أحدهم ما انفك عينا تراقب ولسانا يقرع ويدا تترصد. أما امرأة أبي فحدثي ولا حرج!! هي العقرب التي تنتظر اللحظة المناسبة كي تلسع.. رغم الهدايا.. الأعطيات، المال الذي كنت أضعه في جيبها من حين إلى آخر، كانت تلسع.. حقدها الدفين لم يكن يموت.. كراهيتها لأمي.. لي.. لم تكن لتخمد نارا.. وإذا ما وجدت الفرصة استغلتها أبرع استغلال نافثة سمها في عروقي، وكل أملها أن تشفي غلها بموتي..

وحدها ربى كنت أستطيع أن أحدثها عن بعض انتصاراتي.. ليس بزهو كبير فقد كنت أخشى ردة الفعل المعاكسة، بل ببساطة وهدوء.. كانت ربى قد تزوجت وابتعدت.. لكنا كنا نلتقي.. من حين إلى آخر كنا نلتقي، تأتي إلى البيت أذهب إلى بيتها.. كان لابد من رؤيتها.. أحدثها ببعض ما في نفسي، تحدثني ببعض ما في نفسها، فليس من إنسان لا يحتاج إلى من يبوح له ببعض ما يثقل النفس.

ربى هي التي كنت أبوح لها بذلك البعض.. مذ كنا يافعتين.. وجدتها وحدها أمامي.. كانت تشفق علي.. أنا أعلم ذلك.. الأمر كله بدأ شفقة ثم تطور إلى إلفة فحب الأخت للأخت.. كانت تغبطني على جمالي وكنت أغبطها على ذكائها، ذلك الذكاء الذي جعلها تصير طبيبة تعالج الناس ويلمع اسمها على لوحة كبيرة تشغل واجهة عيادتها هناك، في أحد أحياء المدينة البعيدة. لكنها كانت تشجعني "جمالك هذا يمكنه أن يعوضك.. فقط وظفيه جيدا..

توظيف الجمال الصحيح هو ما يفرق بين أن يكون نعمة وأن يكون نقمة".. كانت تقول لي مذكرة إياي من حين إلى حين وكأنها تخشى علي السقوط.. ربما كانت أمي السبب.. الإحساس المسيطر بأن البنت لأمها ربما هو الذي كان يدفعها لتذكيري.. "أحسني استخدام جمالك ليكون خيرا ونعمة لا شرا ونقمة".. وكنت أتفهم موقفها وأتفق معها.. لكننا كنا نختلف في معنى الاستخدام.. كيف يكون خيرا وكيف يكون شرا؟ وكنا نتناقش.. بل لعلي كنت بحاجة دائمة لذلك النقاش، فالمسألة ملحة باستمرار ماثلة أمام عيني باستمرار.. كل يوم يلوح أمامك إغراء، أتقبلينه أم ترفضينه؟ استغلال الجمال قد يواجهك كل يوم فهل تمارسين ذلك الاستغلال أم لا؟ تلك كانت المسألة.. وذلك ما كنا نختلف عليه.. هي تنظر للأمر من زاوية الأخلاق والمبادئ، وأنا أنظر إليه من زاوية المنفعة والمصلحة فمن كان منا على حق؟ لم نكن ندري، لكننا كنا نتحاور.. دون عنف.. دون انفعال كنا نتحاور.. هي تريد أن تعلم ما يشغل بالي، ما يحمل رأسي من أفكار، وأنا أريد أن أنفث تلك الشواغل والأفكار. لم أكن أريد رأيها أو تقييمها، فأنا أعرفهما سلفا.. بل كنت فقط أريد محاورا.. طرفا آخر أبثه لواعج نفسي وهمومها، وكنت من حين إلى حين أعرض عليها مالا، فشغلها لم يكن قد انطلق تماما وزوجها لم يكن بالثري الكبير.. كانا قد تعرفا واحدهما إلى الآخر في الجامعة، زميلين يدرسان معا لكنهما لا يملكان شيئا وكانا قد تعاهدا أن يسيرا الطريق ذاتها معا، يشقاها معا، ويبنيا مستقبلهما معا.. من الصفر.. من تحت الصفر، لم يكن الأمر يعنيهما، كان الحب وحده يعنيهما ولكي يعيش ذلك الحب تزوجا.. ليبنيا حياتهما لبنة لبنة، وكنت أشعر، والمال يتدفق علي غزيرا، أن علي أن أمد لها يد العون وكنت أمدها لها بهذا الشكل أو ذاك، ربما ليحدثها المال نفسه عن نجاحي والأساور التي أحملها في ساعدي عن انتصاراتي.

بيد أني كثيرا ما كنت أضطر لتقديم الشروح وتوضيح الحجج، فربى لم تكن تلك البسيطة الساذجة التي تمر عليها الأمور، فتسأل "من أين لك هذا؟" وهي ترى رزمة من المال معي "ألم أقل لك من قبل؟" أجيبها "نحن في المصلحة اتفقنا: عشرون من الزملاء يدفعون كل شهر مبلغا من المال، يأخذه واحد منا.. هذا الشهر كان دوري.. أترين؟ أنا غنية ربى.. غنية.. فخذي.. تبحبحي.." وأقدم لها نصف الرزمة.. حتى الأساور قدمت لها اثنتين منها، لكنها ردتهما "لا.. لا.. أنا لا أحب الذهب" وفغرت فمي. "أهناك أنثى لا تحب الذهب؟" جداتنا البعيدات سميراميس، نفرتيتي، زنوبيا، بلقيس.. كلهن كن يلبسن الحلي ويضعن العقود والأساور." جداتنا منذ الماضي السحيق ضحك عليهن الرجل.. وضع في أيديهن وأعناقهن قيودا يجرهن بها جواري وإماء وأنا أكره أن أكون جارية أو أمة.. أكره كل أشكال العبودية" "الذهب حلية

جميلة لا قيد عبودية.." "هكذا يخيل للمرأة.. لكنني على يقين أنه ما من ذهب تلبسه المرأة إلا وهو نوع من القيود.. انظري إلى الخاتم، أليس هو طوقا في إصبع المرأة؟ العقد، أليس هو نوعا من السلسلة في عنق المرأة؟ الإسوارة، أليست هي جنزيرا في معصم المرأة؟ ولماذا توضع الأطواق والسلاسل والجنازير في أيدي الناس؟ أليس لاستعبادهم وإخضاعهم؟" "رأي عجيب.. لم أسمع بمثله في حياتي" "عيشي كثيرا تسمعي كثيرا"عقبت أختي ضاحكة "لكن صدقيني هذه هي الحقيقة.. الرجل استعبد المرأة عبر التاريخ، ألبسها الحلي لكي يستطيع قيادتها أنى شاء، أغرقها بالذهب لكي يبهر عينيها ويغلق فمها فلا تستطيع أن تنبس ببنت شفة.. لهذا ترين المرأة تسير خلف الرجل شاة خانعة خاضعة، لا ترفع رأسها بشكوى حتى ولو كان يسوقها إلى المذبح.." "في هذا أنا معك" رددت وأنا أنتعش قليلا"، فقد دقت على الوتر الذي كنت كثيرا ما أدق عليه.. "في هذه نحن متفقتان، لكن ليس بالذهب وحده يستعبد الرجل المرأة؟" "أنا لم أقل بالذهب وحده.. بل بكل الوسائل والذرائع التي تجعله قيما عليها، هو الذي يطعمها، يسقيها، يكسوها، يؤويها.. إذن هو الرب الذي عليها أن تعبد أمة سميعة مطيعة لا تتقن إلا فن الخضوع. "صحيح.. ما تقولينه صحيح.. وهو نفسه ما يجعلني أسعى من أجل حريتي، أكافح من أجل استقلالي." "اسعي.. كافحي.. لكن لا يبهرك ما يبهر المرأة عادة.. الذهب، الحلي، الجواهر.. كلها أوجدها الرجل لخداع المرأة، يبهر عينيها كي يقيد يديها، وإذا أرادت المرأة الحرية، عليها قبل كل شيء أن تحرر نفسها من كل مظاهر الخداع وأشكال القيود التي ظل الرجل يكبلها بها عبر التاريخ".

رأيها الأخير أعجبني بل بدا لي أنه هو رأيي ذاته.. لكن أن تكون الحلي والمجوهرات قيودا أمر لم يعجبني.. فالذهب يبهرني.. أجل يا سميتي، أعترف لك هنا أنه كان وما يزال يبهرني.. الماس، يطير له عقلي.. أهي الوراثة؟ لا أدري.. أمي كانت تحب الحلي والمجوهرات.. كل ما كانت تجنيه من مال كانت تحوله إلى أساور وأطواق وخواتم.. كان لديها علبة من قطيف أحمر ملأى حتى الحافتين بالحلي.. وكنت، وأنا صغيرة، أجد كل المتعة في احتضان علبة القطيف تلك وإخراج حليها منها.. أضع أساورها في يدي، عقودها في عنقي، خواتمها في أصابعي.. ثم أتفرج على نفسي في المرآة ولا أشبع!! لكن العلبة اختفت من حياتي باختفاء أمي.. مخلفة في نفسي حسرة ولوعة ما أزال أذكرهما حتى اليوم.. لاشك أن أمي لم تستطع مفارقة علبتها.. استطاعت مفارقة ابنتها الوحيدة لكنها لم تستطع مفارقة ذهبها.. أترين يا سميتي؟ قد تحب المرأة الذهب أكثر من فلذة كبدها. ألا يقول الشاعر: الذهب الرنان يخطف البصر؟ أجل.. هو يخطف البصر.. قولي لي يا جدتي ألم يخطف بصرك أنت؟ بلى.. تماثيلك كلها

تؤكد أنك كنت تلبسين الحلي.. ها هو ذا تمثالك، الذي اشتريته منذ زمن طويل والذي لا يفارقني أبدا، يوضح أنك كنت تضعين في أذنيك قرطين جميلين وفي عنقك طوقا من زمرد وياقوت وفي معصمك أساور مرصعة كلها بالماس، بل يبين أحد تماثيلك في المتحف، وأنت بطولك الكامل، أنك كنت تضعين الخلاخيل في ساقيك.. لا.. هذه العادة بطلت يا جدتي.. كما بطل شنف الأنف. الحقيقة، هذا كريه، كما تقول ربى، يذكر على الفور بالحلق الذي يضعونه في منخري الثور كي يحكموا سيطرتهم عليه. ويخضعوه ان فكر بالعصيان.. هنا.. الأمر واضح، شنف الأنف للإخضاع وحسب، الخلاخيل في الساقين قيود واضحة.. صحيح أن لها رنينا جميلا.. لكنه يذكرني في الحال بصلصلة القيود والمرء يجررها.. لا.. لا أنا لا أحب الشنف والخلاخل وأحمد الله أنها زالت من حياتنا فلم تعد تعرفها المرأة..

ربى كانت محقة في جانب ومخطئة في جانب آخر، لكنني أحب آراءها على كل حال، بل كنت أشعر أنني بحاجة ماسة لآرائها، بحاجة ماسة لأن تسمعني وأسمعها.. تشاركني فرحي وأشاركها فرحها.. حين أعطاني مؤنس البيت.. كظمت بعض الوقت لكنني لم أستطع المقاومة أكثر، فذهبت إليها أبوح لها ليس بالحقيقة الكاملة فمن المستحيل البوح بها، بل بجزء من الحقيقة مطلية بطبقة من الكذب.. "أنا فرحة ربى.. فرحة كثيرا" "أفرحينا معك.. قولي.. لماذا أنت فرحة؟" "صار لدي بيت.. الجمعية السكنية ستعطيني بيتا".. "معقول؟ لكن متى اشتركت في تلك الجمعية؟" "أوه.. منذ أشهري الأولى في الوظيفة.. والآن جاء دوري.. سأستلم البيت قريبا.. وبدت أقرب إلى التصديق.. فالكثيرون، مثلي، يشتركون في جمعيات، وينتظرون عشر سنين، خمس عشرة، عشرين.. المهم يحصلون على بيت في النهاية. عجبها ليس لأنني سأحصل على بيت، بل لأنني لم أنتظر خمس عشرة أو عشرين سنة.. شرحت لها أن القائمين على الجمعية لدينا نظيفون نزيهون.. فلم تعلق.. هي تؤمن أن الدنيا لا تخلو وأنها ان خلت خربت.. لهذا، ربما بدا الأمر مقبولا حين همست لها بعد أشهر أنني استلمت البيت فباركت لي داعية بأن يكون بيت السعد وأن يكون بشير خير فيجر معه العريس وحياة الاستقرار والاطمئنان.

لكن ان كان باستطاعتي أن أقنع أختي ربى بسهولة ويسر، فالأمر لم يكن كذلك مع عاصم.. الفتى الذي كان يصغرني بقليل والذي غدا رجلا فارع الطول، منتفخ العضلات كأبطال كمال الأجسام، كفه كخف البعير، ان وقعت على رجل زعزعت أركانه فكيف بامرأة؟ كان قد تخرج من الجامعة مهندس نفط يبحث عن الثروات المعدنية في باطن الأرض ويعمل مع شركة تعطي الكثير من الحقوق والامتيازات.. لم يكن الرجل بحاجة إلى نقود

أقدمها له ولم يكن، بالتأكيد، ممن يعنون بالحلي والذهب، وكان ما يزال على شكله القديم بي فكيف لا يكون تعاملي معه صعبا؟ وكيف يمكن لحججي وتبريراتي أن تجد لديه أذنا صاغية؟.

كنا نلتقي بين الفينة والفينة وان كان دائما يبدو مشغولا بي.. كان أبي الذي كبر وبدأت أخاديد الشيخوخة وأمراضها تتسرب إلى جسده قد أنزلني عن كتفه هو الذي لم يعد قادرا على حمل همي، فحمله أخي.. لقد شعرت بذلك مذ بدأ اهتمام أبي بي يخف، ملاحقته لي وسؤاله عني يتضاءلان.. أبي الذي كان زميتا متشددا بوده لو يحبسني في قمقم، لم يعد كذلك. أهي الشيخوخة وحدها، أم امرأته التي كانت تحرضه علي من قبل فتوقفت؟ لا أدري.. ما أدريه، يا جدتي العظيمة، أنني ارتحت من أبي إلى درجة لم يعد يصعد إلى شقتي إلا نادرا.. هو في الشقة السفلى مع امرأته، وعاصم هنا وهناك.. له غرفة نوم عند أبيه وأمه وغرفة نوم في شقتي، فلا أدري متى يجيء ومتى لا يجيء، وكأنما ذلك هو الهدف ذاته: يضيعني فأحسب له دائما كل حساب.

والحقيقة، يا سميتي، كنت أحسب له كل حساب.. إذ باستطاعته أن يحيل حياتي إلى جحيم ولم أكن أريد أن تتحول حياتي إلى جحيم.. كنت أعيش في ما يشبه الجنة فلماذا أخرج من تلك الجنة؟ التقية، الإخفاء، الكتمان، هو كل ما كنت أستخدم من سلاح، وكانت أسلحة مجدية أبقتني في مأمن من أي تدخل أو إزعاج.. كانت سياستي معه غير سياستي مع ربى.. شعرة كانت بيننا بل شعرة واهية للغاية، لكن كنت أحافظ عليها فأفعل كما كان يفعل معاوية: ان شد الشعرة أرخيتها وان أرخاها شددتها.. وقد أجدت نفعا تلك السياسة.. صحيح، أنه كان يحاول اختراق الحجب التي أسدلها على حياتي الخاصة، لكن الصحيح أيضا أنه كان يخفق دائما.. فلقاءاتي مع مؤنس في حرز حريز لا يمكن لأحد أن يعرف بها، ألم يقولوا: اثنان لا يعرف بهما أحد: موت الفقراء وغرام الأغنياء؟ إذن، أنى له أن يعرف بما بيني وبين مؤنس؟ إلى النادي ذهب أكثر من مرة بل رآني كيف أتدرب. في الدائرة، أموري على خير ما يرام، يزورني أحيانا فيجد العذر الذي يقدمونه عني ان كنت غائبة، والقهوة والترحاب ان كنت حاضرة.. وكنا أحيانا نخرج معا. يظل معي حتى آخر الدوام، وكأنما يتقصد ذلك، ثم نخرج، أخوين متحابين متفاهمين، ووحده الله يعلم ما في السرائر.

ذات مرة انتهزت فرصة خروجنا معا ودعوته إلى الغداء.. وبأعجوبة قبل. أجل.. سميراميس، كانت تلك أعجوبة إذ كثيرا ما دعوته من قبل إلى عشاء أو غداء، كثيرا ما حاولت أن أقدم له هدايا: ربطة عنق، قميصاً، حذاءً إيطالياً، ففي عصرنا يا مليكتي لا تلبس الطبقة الراقية

إلا الأحذية الإيطالية، لكنه كان يرفض.. بهذه الحجة أو تلك كان يرفض. أنا أعلم السبب الحقيقي لرفضه.. هو يخشى أن أطعم فمه فتستحي عينه.. وهو يريد أن يبقى العين الساهرة علي، العقل الممسك بزمام أمري فلا تأخذه في الحق لومة لائم.. آه!! ما أصعب على الآثم المرتكب أن يرى الحر الشريف أمامه. وكله أعين تبحث عن آثامه وارتكاباته!! كنت أريد أن أجر قدمه معي، بأي شكل كنت أريده أن ينزلق.. أليس جميلا إن انزلقت أن تري الجميع ينزلقون معك؟ ان انحرفت أن تري كل من حولك ينحرفون؟ هذا يسهل الأمور كثيرا، وهكذا يسعى العميل لتحويل كل من حوله إلى عملاء، السارق إلى دفع كل من حوله إلى السرقة.. العاهرة إلى جعل كل امرأة تصل إليها عاهرة.. هذه هي سنة الحياة.. يا سميتي، ولا أخفيك، أنا التي تجلس على كرسي الاعتراف، أنني حاولت مع عاصم، بل بذلت كل جهدي لأن أطور علاقتي به، أوثق عرى الأخوة، أغريه بالمال، بالهدايا بل بالمرأة لكنني أخفقت.. منال، ألم تكن ضربتي الأولى لكسر الجليد بيني وبينه؟ وأجدت منال نفعا.. فقد ظل طوال تلك السنة بل ونصف السنة الأخرى يبادلني الود، يغض الطرف عني، يعاملني معاملة الأخ.. لا الأخ الكامل، بل الأخ غير الشقيق.. لكن ما ان انتقلت منال إلى الجامعة حتى بدأت تبتعد عنه.. ربما وجدت البديل فصرفت النظر عنه.. منال معشاقة.. أنا أعرفها.. تحب الشبان كثيرا، وتحب التغيير.. كانت تقول لي: "أنا لا أستطيع العيش دون عشق.. أنا بحاجة للرجل حاجتي للماء والهواء.." وكانت تعشق، تغير، تبدل دون خوف من حساب أو عقاب.. أمها هي المسيطرة في البيت.. ولأمها باع طويل في صولات الغرام وجولاته.. الطبقة الأرستقراطية في المدينة كلها تعرفها، تعرف حبها للمغامرات والرجال فكيف لا تكون ابنتها مثلها؟ "أنا أعجب كيف تتحمل المرأة رجلا أكثر من بضعة أشهر!؟" كانت الأم تتباهى بحبها للتغيير حتى أمام ابنتها، فتمضي هذه تردد ما تقوله أمها. "غيري الرجل كما تغيرين فستانك" كانت الأم تقول، فتحرف الابنة القول مازحة "بل كما تغيرين حذاءك.. هكذا سأكون عندما أكبر.." كانت تصرح لي، فلا أملك إلا أن أعجب بجرأتها في التعبير عما في نفسها.. أنا التي كنت مقموعة حتى الموت، مكبوتة حتى التجلد.. ترى كيف لا تعجبني مثل تلك الأفكار؟ منال في الجامعة، حولها الكثير من الزملاء فلماذا تظل على علاقة به؟ لعلها ملت منه، تريد أن تجرب سواه، هي التي كانت منذ الثانوية تعيش حياتها بالطول والعرض، حبوب منع الحمل في حقيبتها لا تغادرها. تستخدمها بانتظام، لا سرا عن أمها بل جهارا.. أمها تؤمن بالحرية الجنسية فكيف تمنعها عن ابنتها؟ صدقيني يا ملكة الشرق والسحر أنا نفسي فوجئت أول مرة حين رأيت ظرف حبوب في حقيبتها.. "ما هذا؟" سألتها فقالت "مانع حمل" "ماذا؟" سألت بما يشبه الصراخ،

فلكـزتني "مـا بـك ويحـك؟ حبـوب تأخـذهـا المـرأة كـيلا تحبـل.. ألم تـسمعي بهـا مـن قبـل؟ ألا تعيشين في القرن العشرين؟" وبهت كل الانبهات. "أيتها المتخلفة.. في العالم المتحضر لا فرق بـين امـرأة وبنـت.. متزوجـة وعازبـة.. كلتاهمـا تعيشـا حياتهـا، تمـارس الجـنس، أم تريـدين أن تعـيش الكبت والحرمان؟" ولم أناقشها بعد ذلـك، كنـت أعلـم أنهـا تعيش طـرازا مـن الحيـاة كـذاك الذي يعيشونه في أوروبا وأمريكـا، لا طـراز أمهاتنـا وجداتنا، وكـنت في سـري أحسدها علـى تلك الحياة، أتمنى من صميم قلبي أن أكون مثلـها، لكـن كـيف وأبـي، أخـوتي، امـرأة أبـي، كلهم عيون ترصد وآذان تسمع؟ ولكـي أعوض عن خيبتي، ربما، عرفتها حينذاك إلى عاصم.. بـل الحقيقـة. كانـت قـد التقـت بـه أكثـر مـن مـرة وهـو يوصـلني إلى المدرسـة أو يعـود بـي مـن المدرسة، ولعله أعجبها، فقلت اضـربي عـصفورين بحجـر واحـد وضـربت.. لكـن أيـستمر ذلـك؟ منال تحب التغيير.. غيرته فشعرت بذلك. لم يكـن يحدثني عن منال، لكـنني أنـا كـنت أسـأله وكان يجيبني.. أجوبة مقتضبة لكنهـا تلبي حـاجتي.. لـو ذهبـت مـع منـال إلى الجامعـة لاختلـف الأمر ولكنت قد ظللت على صلة بهـا، أعـرف أخبارهـا منهـا.. لكـن منـالا ذهبـت وتـركتني، علاماتها أهلتها للـدخول في كليـة الأدب الفرنـسي.. فيمـا بقيـت أنـا أرسـب وأرسـب حتـى إذا مـا نجحت كنت عاجزة حتى عن دخول معهد.

بعد منال حاولت أن أعرفه إلى هذه الزميلة أو تلك من زميلاتي في الدائرة لكـن محـاولاتي كلها باءت بالفشل. لقد غدا كـالعصفور "المنكّر".. أنت لا تعرفين معنـى هـذه الكلمـة.. حسن "المنكـر" هو العصفور الذي مر بتجربـة مـن قبـل تجعلـه يعـرف الـشرك أو الفـخ فـلا يقربـه البتـة. عاصم كان كذلك فأقلعت عن محاولاتي، صار كل همي أن أحافظ على شعرة معاوية معـه. هـو أخـي علـى كـل حـال. وهـو أخ يـثير الإعجـاب.. غايـة في الوسـامة، أختـه تعشقه.. وأنـا أختـه فكيف لا أعجب به؟ لكن عبوسه الدائم، رصانته الدائمة، حديثه، كلها كانت تحول بيني وبين إبداء ذلك الإعجاب.. فأكتم ما في نفسي وأسلك مثله طريق التجهم والجد..

تلك المرة قبل دعوتي فسررت أيما سرور، شعرت أنه بات أكثر نضجا.. لم يعد ينظـر إلـي كفتـاة ينبغـي ان تحـبس في قمقـم إلى أن يـأتي الـزوج فيخرجهـا إلى قمقـم آخـر ثـم يغلـق عليهـا بسدادة.. بات يعرف ما يدور حوله في المجتمع، كيف تعيش الفتيات.. هو لـه علاقـات.. أنـا أعلم ذلك من الهواتف التي تأتيه أحيانا، من غياباته الكثيرة.. ولقد تعلم من تلـك العلاقـات ولاشـك.. بل حسبه ما تعلم من منال هي التي كانت تأخذه معها إلى المنزل.. بحضور أمها كانا يذهبان، يدخلان غرفتها.. تماما كمـا تفعـل الفتيـات في الـسويد أو النـرويج.. حريـة تامـة وشـأن شخـصي حتى الأبوان لا يحق لهما التدخل فيه.. فما تراه رأى بعد منال وجرب؟ بصراحة، يـا سميتي، أنـا

لا أجرؤ على سؤاله.. حسبي منه أن يظل راضيا عني ولو ذلك الحد الأدنى. رضاه يعوضني عن الكثير ويحمل لي من الراحة الكثير. كان الجو ربيعيا، مضينا إلى مطعم في حديقة غناء، زهر الياسمين فيها تفتح وكذلك أزهار المشمش والدراق.. الجو ملؤه العبق وكم يغريني العبق!! هو يفتح النفس، يوسع من حولك الآفاق، يصنع لك أجنحة تطيرين بها عاليا فوق دخان المدينة وضباب الأنفاس. بذلك الانفتاح حاولت أن أفرش له أزهار أخوتي، سجاد محبتي، فرصة علي أن أنتهزها، وما أشد ما أؤمن بانتهاز الفرص.. لكنه كان يريد شيئا آخر. كان قد نصب مجساته وراح ينقب.. يستشعر عن بعد، عن قرب، المهم كان يريد أن يعرف أين وصلت!؟ أية أرض أضع قدمي عليها.. لكأنه لم يكن يصدق أنني أعيش فقط بين الدائرة والبيت.. لكنني طمأنته.. بكل مكر المرأة.. خبث المرأة، أساليبها الملتوية التي تعلمتها عبر التاريخ.. أقنعته بأنني فتاة بسيطة تسير الحائط الحائط وتقول يا ربي الستر..

"والفراغ!؟ ألا تحسين بالفراغ؟" سألني وهو يتفحصني جيدا "أوه!! الفراغ!! هذا الوحش العظيم كيف لا أحس به؟ آه لو تعلم كم أعاني من هذا الفراغ.. لا فراغ الوقت فحسب بل الفراغ في كل شيء،" رحت أشكو بنبرة ملؤها العذاب والمعاناة.. "ماذا تفعلين إذن؟ كيف تملئين ذلك الفراغ؟" كان في سؤاله خبث.. أحسست به للتو، فعلمت أنه يحاول زلقي إلى منحدر هاوية، فأعترف له بعلاقة أقيمها، أو قصة أشارك في حبكها.. لكنني أنا الأشد حذرا من ثعلب.. قلت "ماذا أفعل؟ ألوذ بالصبر والانتظار!! أليس هذا شأن المرأة دائما؟ تصبر وتنتظر.. آه.. يا أخي!! كم أتمنى لو أنني خلقت صبيا.. أنتم السعداء أيها الصبيان!! أنتم أصحاب الحظ والحظوة.. أما نحن البنات فلم نخلق إلا للضنى والعذاب!!" "حقا!! تفكرين بذلك!؟" "لم لا وها نحن أنا وأنت خير مثال على ذلك.. أخوان أبوهما واحد، بيتهما واحد، عيشهما واحد، لكن انظر ما تتمتع به أنت من حقوق وامتيازات، وما أحرم منه من حقوق وامتيازات، تعلم كم الأنثى مظلومة في هذا المجتمع!! كم تلاقي المرأة من عذاب ومعاناة!!" "لكنك تذهبين إلى النادي، تمارسين الرياضة!؟" "هو ذا عزائي الوحيد.. تعلم، عاصم، لولا الرياضة لمت.. صدقني، الرياضة وحدها هي التي حالت بيني وبين الانتحار." وارتد إلى الوراء مصدوما "فكرت بالانتحار؟" "لم لا.. أنا التي لا تجد حولها إلا الأعداء، الضغينة، الذئاب الناهشة، لم لا تفكر بالانتحار؟ أنا أشعر بالظلم عاصم ولا منصف، بالانسحاق ولا خلاص.. الحياة كلها طرق مسدودة، لا شيء فيها يغري.. بل هي كلها قيود، اضطهاد.. استعباد".. وتوقفت مختلسة النظر إليه علي أعرف وقع كلماتي.. لحظات بدا مندهشا وكأنه لم يتوقع أن يسمع مثل ذلك الكلام.

كان الغداء قد جاء، وكان مع الغداء بيرة.. رحنا نرتشفها على مهل.. آه يا سميتي كم تمنيت حينذاك أن نشرب أعتق المسكرات فتذهب بجدنا وصرامتنا، بعقلنا ومنطقنا وأتغلغل إلى أعمق أعماقه أمسح كل ما فيها من شكوك وظنون، كراهية وحقد.. كنت أريده الأخ الحق أستند إليه إذا ملت، وأمسك بيده إذا وقعت.. لكنها كانت مجرد بيرة وكنا نشرب ونأكل..

"أنت على حق" قال بعد أن أطرق مليا متفكرا "المرأة مضطهدة مستعبدة، لكنني أعتقد أنه أمر طبيعي" فانتفضت "طبيعي.. كيف؟" "سميرا، فاقد الشيء لا يعطيه، الرجل نفسه في مجتمعنا مضطهد.. هو مثل المرأة مستعبد، مثلها بلا حرية فكيف تريدينه أن يعطيها الحرية؟" وتوقف لحظة ربما ينتظر إجابتي، لكنني كنت حائرة لا أدري بما أجيب. الفكرة صحيحة مفحمة وفاقد الشيء لا يعطيه بالتأكيد، فماذا أقول؟ "هذه حجة يحتج بها الرجل لكي يمارس اضطهاده للمرأة" قلت بعد أن بلعت ريقي وبنبرة من تريد المشاكسة والاستفزاز. "لا، سميرا صدقيني، هذه هي الحقيقة.. الرجل نفسه مسحوق، مظلوم، مضطهد.." "كيف وهو يذهب، يأتي بلا قيود ولا حدود، يتنقل يسافر بملء حريته.. بل يتزوج أربع نساء وما ملكت يمينه أيضا بملء حريته، فكيف يكون مسحوقا مضطهدا؟" "أنا أقول لك سميرا" بدأ فشردت لحظة. لقد كان حريصا دائما على مناداتي بسميرا، بالألف، وكأنما ليذكرني أن هناك اسم أمي أيضا يضيفه فأصبح سميراميس.. أترين يا سميتي؟ هكذا تعود منذ الصغر والمرء رهن عادته.. تصبح لديه طبعا ثانيا يصعب عليه التخلص منه.. "يتزوج.. يتنقل.." انتبهت إليه وهو يقول، فتأسفت أنه فاتني بعض ما قال، "هذه كلها مجرد مظاهر خارجية.. آثار قوانين ونظم وضعها الرجل بحيث تخدم مصلحته.. القلم بيده أو تريدينه أن يكتب نفسه شقيا؟ آ؟" هززت رأسي نفيا وقد انتبهت أنه يريد جوابا مني. "المسألة، سميرا.. هنا في الداخل" تابع بكثير من التركيز مشيرا بإصبعه إلى صدره، ثم رأسه. "أهو حر في داخله؟ الرجل لدينا، أهو حر النفس، حر التفكير، حر الضمير؟ أنا أقول لك: لا، هو عبد حقيقي في مجتمع لا يعرف الحرية أبدا.. عقله مؤطر ضمن أطر لا يستطيع الخروج منها. أفكاره مقولبة منذ آلاف السنين، بل ان المجتمع في العالم الثالث كله مجتمع قطيع والحاكم راع يفعل بقطيعه ما يشاء، فكيف يكون الرجل حرا؟ الحاكم أمير إقطاع، كل ما في إقطاعه ملك له، أرضا وثروات، ناسا وحيوانات، فيأخذ منها ما يشاء ويترك منها ما يشاء.. يعتبر أنه بوضع يده على البلاد صار حقا شرعيا له كل ما في البلاد ومن فيها فيسلب، ينهب، يغتصب، ينتهك، من يحاسبه؟ أتقولين لي من يحاسبه؟ ان رأى رجلا لم يعجبه فزجه في السجن من يستطيع منعه؟ ان رأى امرأة جميلة اشتهاها فاغتصبها من يقول له لا.. لا تفعل؟ ان اكتشف كنزا في أرض أو

ثروة في منجم فأخذها لنفسه من يرده؟ هو ذا الحاكم الشرقي، يعتقد أنه خليفة الله في الأرض وبديل الله على الأرض فيتصرف كما تتصرف الآلهة.. هذا هو عهدنا مذ جاءنا المماليك، العبيد المسترقون، الأذلاء الصاغرون، صارت بيدهم السلطة فحولوا أنفسهم بسبب عقد النقص والدونية إلى أرباب والناس إلى عبيد.."

وقفز ذهني في الحال إلى مؤنس.. كلام عاصم صحيح.. لقد قال الرجل حينذاك "نحن نؤمن أن سلطتنا إلهية.. مصدرها السماء نفسها" كما كرر الكلام ذاته تقريبا.. إذا جعلك السلطان عبدا فاجعله ربا".. إذن، عاصم يفهم جيدا ما يجري حوله.. مع ذلك تابعت مشاكستي "عبر التاريخ الحاكم هكذا.. في الشرق، في الغرب.. الحاكم هكذا.." "لا.. لا.." قاطعني عاصم "الحاكم المستبد في الغرب يعين أمته على الكسب ليشاركها ما تكسب، أما الحاكم المستبد في الشرق فانه لا يفكر إلا في سلبها ليس ما تكسبه وحسب بل وجودها ذاته.. لهذا أقول لك المسألة معقدة.. ليست كما يطرحها البعض مسألة رجل وامرأة، ظالم ومظلوم، بل مسألة نظم وقوانين، أعراف وتقاليد عمرها بعمر الزمان كلها تعمل على سلب المجتمع حريته، كرامته، وجوده.."

"أنت تعقدها كثيرا عاصم، تتكلم وكأنه لا خلاص." بل ثمة خلاص" تابع عاصم شبه مقاطع "يعمل الرجل والمرأة معا يكون الخلاص.. يضع الواحد منهما يده بيد الآخر لتحرير المجتمع ذاته يكافحان من أجل تخليصه من قيوده وعبوديته يكون الخلاص.. وإلا لماذا بيننا وبين الأمم المتقدمة مئات السنين تقدما وحضارة؟" "لماذا؟" "لأن الكل هناك نساء ورجالا عملوا معا من أجل حرية الإنسان وحقوقه ديموقراطية الحكم وتطور المجتمع فحصلوا على ما أرادوا.." وشردت من جديد.. كان يتكلم لكنني لم أكن أسمع حرفا واحدا.. كنت قد عدت إلى مؤنس أستعيد أقواله وأتذكر أحاديثه.. يا إلهي!! عاصم يفهم جيدا كيف يفكر ذوو الرفعة وأصحاب السلطان.. هوسهم بالسلطة، هوسهم بالمال، بالمرأة، هم الذين يعملون على وضع أيديهم على كل شيء.. هو حقهم السماوي فلماذا لا يأخذون حقهم؟ "الحق للسيف.." هكذا قال لي مؤنس ذات مرة.. "من يملك السيف يملك الأرض والعباد.." إنه منطق القوة، وهم لا يعترفون إلا بمنطق القوة فيما يتكلم عاصم بمنطق آخر هو منطق الحق.. وبدا الأمر محيرا. أيهما الصحيح يا ترى: منطق الحق أم منطق القوة؟ وكدت أسأل.. لكن عاصما كان قد أنهى كلامه، وكان ينظر إلي وكأنما يتساءل ماذا؟ مللت حديثي؟ شردت عنه؟ فهمت تساؤله فقلت معتذرة "آسفة، أخي.. يبدو أنني شردت.. كلامك صعب على فهمي يبدو أنني لم أستطع متابعته" "لماذا لا تقرئين إذن؟" "أقرأ؟ وماذا أقرأ؟" "أوه.. ثمة الكثير مما يجب أن تقرئيه..

لكن طوال عمرك لم تكوني تحبين القراءة.. أما زلت كذلك؟" "وأكثر" رددت ضاحكة. "فالكتب أشياء جامدة.. وأنا أكره التعامل مع كل جامد." "ومن قال ان الكتب جامدة؟ بالعكس.. الكتاب ملؤه الحياة.. جربي.. اقرئي شعرا، رواية، قصة، بحثا.. ستجدين المتعة.. صدقيني.. فقط تعودي، والقراءة، ككل شيء، عادة.. نكتسبها فنسير عليها، وليس هناك خير من عادة القراءة.. ثم لا تنسي.. القراءة تملأ الفراغ وأنت تشكين الفراغ." "سأحاول." "لا تقولي سأحاول.. قولي سأقرأ.. نحن، سميرا، شعب أمي.. كلنا أميون لم نعتد القراءة، تنقصنا المعرفة، ولا خلاص لنا إلا بالمعرفة.. صدقيني.. مجتمعك هذا كله سيظل كما هو ان لم يحصل على العلم والمعرفة.. الاستعباد، الاضطهاد، الظلم كله لن يزول إلا بالعلم والمعرفة، بل الحرية التي تحدثت عنها لا نصل إليها إلا بالعلم والمعرفة." هززت رأسي بالموافقة دون أن أدري كيف يمكن أن يكون ذلك، لكن كان علي أن أوافقه إذ كان يهمني رضاه. كنا قد أنهينا الطعام والشراب، وكان الوقت قد مر.. أشار لي بالذهاب فأومأت برأسي موافقة. ثم أشرت للنادل أن يأتي بالحساب، لكنه خطف الفاتورة خطفا "عاصم.. أنا أدفع.." قلت وأنا أمد يدي محاولة أخذ الفاتورة، لكنه زجرني بنظرة كلها جد وصرامة "معقول.. الأخت تدفع وأخوها موجود!؟ أين الرجولة إذن؟ "أين الشهامة؟" وضحكت في سري.. كان على الرغم من أفكاره المتقدمة جدا المتحررة جدا.. ما يزال الرجل الشرقي تتحكم به عادات الشرق وتقاليده: النخوة والشهامة، الرجولة والفروسية، ثم الأخ المسؤول عن أخته، أيا كانت تلك الأخت، غنى وثروة، عمراً ومركزاً!!.

في الطريق فقط همس قرب أذني.. "صحيح، صار لديك بيت؟" وتسمرت لحظة.. إذن، هو ذا بيت القصيد.. قبوله دعوتي، تحمله لي، حديثه كله كان للوصول إلى هذه الغاية، فهززت رأسي وأنا على يقين أن ربى حدثتهم جميعا بذلك. "أجل.. خصصوه لي لكنهم لم ينتهوا منه بعد"، قلت وبنيتي أن أقطع عليه الطريق ان قال "هلمي نذهب لنراه" وتكون الطامة الكبرى.. "آ؟" "يعني ما يزال في مرحلة الاكساء؟" "تماما.. الاكساء.." قلت فرحة بإنقاذه لي، إذ لم أكن أعرف تلك الكلمة ولم أكن أستطيع إيجاد بديل لها. "وأنت تعلم.. الجمعيات تعمل على الموجة الطويلة.. سنة.. سنتان لا أحد يدري متى يكملون إكساءه" وشعرت به يتنفس الصعداء. لكأنه كان يحمل ثقلا على منكبيه وأنزله عنهما. تنفست أنا الصعداء أيضا بعد أن ارتعشت في داخلي وأنا أتصور اكتشافه للبيت بكل ما فيه من أثاث وديكور.. بار ومشروبات ثم حمدت الله في سري على سرعة بديهتي التي أنقذتني.. شعرت بندم شديد.. أجل.. يا سميراميس شعرت

بأنياب الندم تعضني فتدميني.. لماذا قلت لربى عن البيت؟ لماذا لم أستطع كتم فرحتي؟ ألم أحسب حساب تدخل الأب والأخ؟ وأقسمت في سري أن لا أفشي بعد ذلك سراً أبداً.

كان لذلك اللقاء فوائد عدة شعرت بها فيما بعد. لقد بت أفهم أخي أكثر.. لم يعد عاصم ذلك الصندوق المقفل في وجهي، بات لدي بعض مفاتيحه.. وبات بيننا بعض الجسور.. صحيح أن أفكاره مثالية كثيرا غريبة علي كثيرا، لكنها أفكار يمكن للذهن أن يناقشها، يأخذ بها، لا يأخذ، لا يهم.. المهم أنها تفتح الذهن، تمهد له الطريق لتوليد أفكار أخرى، على أن الفائدة الكبرى كانت: القراءة، تلك التي نسيتها وكأنه لم يكن في العالم كتاب.. حتى الصحف كنت أمر بها مرور الكرام، لكن ما ان قال لي: اقرئي.. حتى تذكرت أن هنالك كتبا فعلا، مجلات وجرائد.. ورحت أتساءل: لماذا لا أقرأ؟ أهو فقط مجرد عدم اعتياد؟ أم هو نفور من كل ما يتعب الذهن؟ سؤال محير، لكنني أياما وأياما ظللت أفكر به. ربما كلامه صحيح، ان أردت أن أصعد علي أن أعرف.. ولكي أعرف لابد لي من أن أقرأ.. بغير قراءة لا توجد معرفة وبغير معرفة لا يمكن للمرء أن يتقدم أو يصعد..

وهكذا بدأت أقرأ شعرا في البداية." ولماذا الشعر؟" تسألينني يا سميرا؟ سأجيبك "لا أدري.. حقا أنا لا أدري.. لعلها الموسيقى هي التي جذبتني في الشعر كما كانت تجذبني دائما.. أنا أحب الموسيقى.. والشعر موسيقى، أقرأه فيرتعش شغاف قلبي، أغنيه فأطرب، وقد كنت بحاجة إلى الطرب.. عدت إلى أسطورتك فقرأت فيها أشعارا كتبت على لسانك.. لا أدري ان كنت أنت التي كتبتها أم هو المؤرخ الإغريقي ديودروس الصقلي، وأطربتني أشعارك.. اسمعي مثلا ما قرأت على لسانك:

نولد مع ومضة برق

ويبقى وميض البرق مستمرا عندما نموت

ألا ما أقصر الحياة

المجد والحب اللذان نسعى إليهما

ان هما إلا شبحان

حلم نلاحقه

والصحو هو الموت:

فالينبوع الذي يتدفق منه اللطف

لا يمكن أن يغيض

ما دام فيه صفاء الدوام

وكيف يغيض من عرض نفسه للخلود

فاندمج فيه مذ بدأ الخلود نفسه؟

أجل، يا سميتي، أنت اندمجت مع الخلود فتماهيتما معا، صرتما كلا واحدا لا يتجزأ. لقد عبر شعرك عن ذلك، وكم أسعدني ذلك الشعر!! كم شعرت بالفرح وأنا أقرأه!! كم كنت على خطأ يا سميراميس، وكم كان عاصم على حق!! لقد فتحت لي القراءة بابا جديدا لمتعة كنت محرومة منها.. وهكذا مضيت، أشتري ديوانا من الشعر بعد ديوان ثم انتقلت إلى القصة لأشتري مجموعة من القصص بعد مجموعة إلى أن وصلت إلى الرواية.. ثم وجدتني أميل إلى روايات عبير.. تلك الروايات الصغيرة اللذيذة كحبات الشوكولا.. أضعها في فمي فتذوب تاركة طعما ولا أحلى، نكهة ولا ألذ..

ذات مساء كنت ذاهبة لزيارة رجاء، وكان بيتها قريبا من الجامعة. نظرت فلفتت نظري لوحة كبيرة: الجامعة كلية العلوم الإنسانية، ولمع في ذهني السؤال: لم لا أدرس في الجامعة؟ لم لا أستدرك ما فات؟ كانت المسألة تقض مضجعي من قبل، بل كنت كلما تذكرت رفيقاتي، أختي، أخي، أشعر بغصة وألعن الحظ الذي خذلني.. فقصرت علاماتي عن إيصالي إلى هناك.. اللمع يجر الرعد كما المطر الغزير يجر السيل.. لقد سيطرت علي الفكرة طوال أيام إلى أن تحولت إلى قرار جازم "يجب أن أدرس وأتخرج.." كنت أعلم أن ذلك شبه مستحيل، فالوقت أواخر الصيف ولكي أسجل في الجامعة، كان لابد من أن أحمل ثانوية تؤهلني علاماتها للتسجيل. مع ذلك كنت قد عزمت وقررت. "مؤنسي ومهجة روحي" قلت ونحن نتنزه في حديقة الفيلا والقمر بدر والجو شاعري ساحر. "نعم.." رد وهو يقضم شحمة أذني، حركة كان يقوم بها دائما وكنت أحبها منه دائما. "لك أم للذيب؟" "يخسا الذيب.. مري.." "حقا آمر؟" "طبعا أنت تأمرين فقط ونحن نلبي فماذا هناك؟" "الجامعة، أريد أن أكمل دراستي." "أكملي دراستك.. من يردك؟" "علاماتي.. في .. الثانوية،" قلت بتعثر وخجل وكأنني أعود إلى تلك الأيام وعينا أبي تجلدانني بسياطهما حين ظهرت نتائج الثانوية ونجحت.. تنبهت من شرودي إلى قهقهته تملأ أرجاء الحديقة ملؤها السخرية والهزء.. "تسخر؟ لماذا؟" "أنت معي وتفكرين

هكذا؟ يا حيف!!" "كيف تريدني أن أفكر إذن والقانون منعني من أن أسجل في الجامعة، النظام حرمني من.." "القانون!! النظام!!" قاطعني هازا رأسه سخرية وازدراء" هذا حين لم أكن معك أنا، لكن وأنا معك تحدثينني عنهما؟" "كيف لا وهما أس بلائي؟" ومن جديد قاطعني "فلقت رأسي بهما!! معي تنسين كل شيء عنهما.. أتسمعين؟ أنا القانون والنظام سميرة.. فما لك هكذا تتحدثين بسذاجة بدوية لم تعرف غير البيداء؟" "سامحني.. اغفر لي.." قلت بكثير من الدهشة وقد أعياني فهم الفكرة تماما "يعني.. يمكنك أنت أن تتجاوزهما" "طبعا" "لكنني أعرف أن القانون قانون.. الناس أمامه سواسية كأسنان المشط.. لا أحد فوقه ولا أحد.." لكنه قاطعني من جديد "لا.. لا.. إلا نحن.. نحن فوق القانون وفوق النظام.. أتعلمين لماذا؟" هززت رأسي بكلمة "لماذا" فتابع "لأننا نحن الذين نصنعهما.. نضعهما، نلغيهما، ذلك كله من صنع أيدينا، فكيف نبالي بهما؟" "تعلم مؤنسي لم يخطر لي هذا ببال" "لكن يجب أن يخطر ببالك النظام والقانون يضعهما الراعي ليطبقهما على الرعية.. أما الراعي نفسه فهو "فوق القانون ولا يطبق عليه نظام.." كان يتابع حديثه وكله حماسة واندفاع فيما كان اندهاشي يشتد ويشتد إلى حد خيل إلي أن فمي فاغر وعينّي جاحظتان.. كم هو رائع أن يكون المرء فوق القانون والنظام، أن يكون راعيا لا رعية، ما يطبق على القطيع لا يطبق عليه.. آ.. هو ذا إذن سبب اعتداده بنفسه، مؤنسي الرائع، سبب كبريائه وازدهائه، راع يفعل بقطيعه ما يشاء ولا يستطيع أحد أن يفعل شيئا..فكيف لا يملؤه الكبرياء والازدهاء؟ "هه!! أين شردت؟ بماذا تفكرين؟" "أفكر" بدأت بشيء من تردد "كيف يمكنني أن أخرج من القطيع؟" "بسيطة" قال ضاحكا "ظلي معي تخرجي من القطيع.. رفيقة الراعي أليست راعية مثله؟" "بلى.. بلى.. لكن.." بدأت ثم توقفت.. كانت الفكرة صحيحة، لكن فجأة خطرت ببالي مسألة الزمن، تقلبات الدهر، ماذا ان حدث لمؤنسي شيء؟ من سيتعرف إلي؟ من سيشيلني من أرضي؟ وبدا لي أن علي أن أكون قوية بذاتي لا بغيري، أن أضمن خروجي من القطيع بنفسي لا بسواي.. وأي شيء أعظم من أن يكون المرء نفسه راعيا لا رعية.. يخرج على النظام، يدوس القانون برجله كما يفعل مؤنس وأمثاله.. أمر ولا أبدع، فلماذا لا أصبح كذلك؟ ألم تصبحي أنت كذلك يا سميراميس.. صرت زوج القائد منونيس، تركبين معه عربة القيادة، تتدربين في ميادين القتال، فوق كل نظام، فوق كل قانون، تحسدك النساء جميعا فلماذا لا أجعلهن يحسدنني أيضا؟ وغدوت أشد تصميما، فيما كان هو يداعبني من وجنتي متضاحكا ونحن نجلس إلى طاولة تحت أيكة الأشجار متابعا مقلدا إياي: "بلى.. بلى.. لكن.. مالك الليلة؟ قولي ما تريدين يا عزيزتي؟" "أريد أن أسجل في الجامعة" "حسن تسجلين" قال بالسرعة نفسها التي أجبت بها

سؤاله.. "ماذا تعني؟ أعيد دراسة الثانوية؟" سألته من جديد وقد جاءت عبارته غامضة "تعيدين دراسة الثانوية؟ لماذا؟" "ثانويتي قديمة، علاماتي ضئيلة؟" وعاد يضحك من جديد هازا رأسه بشدة "ألم أقل لك.. أنت بسيطة.. ساذجة مثل أية راعية في البيداء.." وانتفضت محتدة "بسيطة.. ربما.. لكن كيف أسجل.." فقاطعني على عجل.. "ائتيني غدا بشهادتك الثانوية واتركي الباقي علي." لم أصدق أذني.. فسألته كي أتأكد "تعني شهادتي تلك بعلاماتها.. بقدمها.." "بأي شيء.. المهم فقط، أن يكون لديك ثانوية وغدا تكونين طالبة في الجامعة!!" "لا.. مؤنسي.. أنت تمزح؟ أنت تضحك علي؟" "ومتى كنت أمزح أو أضحك عليك؟ مع ذلك جربي.. هاتي غدا شهادتك وأوراقك.. وقولي فقط أي فرع تختارين.." ولم أشعر إلا وأنا أثب من مكاني متعلقة بعنقه، ممطرة خديه، جبينه، رأسه.. كل ما فيه بقبل الشكر والامتنان.." يا الهي!! أنت تحقق لي أروع أحلامي.. كم أشكرك مؤنسي!! كم أشكرك!!".

في اليوم الثالث جاءني السائق بظرف، فتحته فإذا بوثيقة تسجيلي في الجامعة طالبة في كلية الآداب، فرع التاريخ.. أجل سميراميس، اخترت فرع التاريخ، لماذا؟ لا أدري لعلك أنت السبب.. ألست أنت التاريخ؟ ألست متعلقة بكل ما يمت إليك؟ فقلت أقرأ عنك أكثر، أنقب عن أخبارك، آثارك.. أتعرف إلى الماضي.. آخذ منه العبر والعظات، والتاريخ كله عبر وعظات.. فلماذا لا أدرسه؟ طويلا تفحصت الوثيقة، طويلا أمعنت النظر في الوصل المالي الذي يقول إنني دفعت رسم التسجيل، طالبة نظامية لا غبار عليها.. ورحت أفكر كيف حدث ذلك؟ كيف يحدث أمر كهذا؟ ولمعت من جديد الفكرة.. الاستثناء.. هنا يستخدمون هذه الكلمة طبقا للقانون القائل"لكل قاعدة استثناء، والاستثناء يثبت القاعدة، لا يلغيها.." فهل كنتم تستخدمونها يا سميتي؟ نحن نستخدمها.. بل حتى مؤنس أشار إشارة سريعة إليها؟ "صانع الفخار يضع إذن الجرة حيث يشاء" قال حينذاك ثم أردف "لكل قاعدة استثناء ولكل قانون منفذ، يمكن للمرء أن ينفذ منه إلى ما يشاء".. اتضح لي المعنى فقط وأنا أتمعن في الوثيقة.. لقد كنت استثناء القاعدة، وكدت أطير فرحا.. آه!! ما أروع أن أكون الاستثناء يا جدتي العظيمة!! مثلك تماما أنت يا من كنت دائما استثناء.. في الولادة، التنشئة، الزواج.. فلماذا لا أكون أنا استثناء آخر؟ بيده حق، مؤنسي الرائع، على أمثالنا ألا يخضعوا للقانون.. أن يكونوا فوق النظام فيثبتوا بذلك قاعدة النظام.. يثبتوا للرعية كيف ينبغي عليها أن تطبق القانون والنظام.. وهكذا كانت الأرض لا تسعني حين ذهبت إلى الجامعة أول مرة، أمشي وكأنني أطير، رأسي يطاول مئذنة الجامع، صدري يندفع إلى الأمام والأعلى، قمتين من قمم هملايا، عيناي تشعان بريقا لا يفتأ يصرخ بالناس" انظروا إلي.. أنا الاستثناء هنا.. أنا الوحيدة الفريدة

التي جاءت رغم القانون والنظام.." لا أدري ان كان أحد قد تلقى تلك الرسالة أو فك شيفرتها، ما أدريه أنني كنت ألفت الأنظار.. وجنتاي تتوهجان جلنارا كعب حذائي يدق الأرض دقا.. حتى بدا أكثر من طالب وطالبة ينظرون إلى أسفل رجلي.. حيث الحذاء يعزف معزوفته.. "يا أرض اشتدي، ما أحد قدي" وهل كان أحد قدي حقا؟ أنا التي رفضتني الجامعة أيام زمان، أدخل إليها دخولك، يا جدتي، قلعة بكتريا.. هي التي أبت استقبالي تلك الأيام، تفتح ذراعيها لي صاغرة، بل ربما راكعة ساجدة.. ولم لا؟ ألست أنا الاستثناء؟ إذن لتركعي صاغرة ذليلة.. ولتسجدي عند قدمي وهما يعزفان معزوفتهما الخالدة "ترك.. ترك.. ترك.. ترك..".

لم أخبر أهلي بالحدث الجديد.. كنت على يقين أن ذلك سيثير لي المشاكل. هو نصر لي وكل نصر يثير في أنفسهم الحسد والغيرة، الحقد والضغينة، فلماذا أثير على نفسي ذلك؟ استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.. فلأستعن به، ولأبق كل شيء سرا، لا يدري أحد به إلا وأنا أحمل الشهادة الجامعية.. حينذاك فقط أخاطبهم وقد صار أمرا واقعا لا يناقشني فيه أحد ولا يشك أو يتساءل أحد...

صرت أذهب إلى الجامعة، أحضر المحاضرات دون أن أذكر ذلك لأحد.. آتي بالكتب، أقلب فيها، أبحث بين صفحاتها دون أن يشعر أحد، بل ما ان يقدم أحد حتى أخفيها في أحد أدراجي، مخرجة منه رواية أو ديوان شعر، وقد بات الجميع يعرفون أنني أقرأ الرواية والشعر.

لكن أيظل السر سرا إلى الأبد؟ في قصة الحلاق والملك ذي القرنين لم يستطع الحلاق كتم السر.. رأى في رأس الملك ما رآه فلم يستطع إلا أن يتكلم.. لكنه.. هو الذي يعلم أن في إفشاء السر هلاكه الأكيد، ذهب إلى البئر يبوح له بالسر، فنقله ماء البئر إلى القصب الذي يشرب منه، وحين قطع القصب وصنع منه ناي، عزف العازف على الناي، فردد الناي السر وانفضح الملك.. أسمعت بهذه القصة يا جدتي العظيمة؟ أيامك لم تكن قد ظهرت!؟ هكذا تقولين؟ حسن هذه الأيام القصة شائعة، بما يؤكد أنه لابد للسر من أن يظهر، والخافي من أن يبين.. ولقد بان الخافي ذات ليلة..

كنت مستغرقة في كتاب من التاريخ القديم.. أنت صرت من التاريخ القديم يا سميتي، وكان الكتاب يتحدث عنك.. أجل.. أسطورتك ملء الكتب.. وكانت الأسطورة تقول ان منونيس كان يحبك حبا شديدا جعله لا يذهب إلى مكان إلا ويأخذك معه، أحيانا بزي الفرسان وأحيانا بزي النساء والأميرات.. تلك المرة كان سيقوم بجولة على بلاد الفينيق، وكان قد بدأ بأوغاريت، المدينة التي اخترعت ثم أهدت العالم أعظم ما ابتكره العقل البشري خدمة

للمعرفة والعلم: الأبجدية. أنت كنت معه.. سرت بزي الفارس إلى جانبه.. حينا على ظهر الخيل وحينا في المركبة المذهبة وخيولها المطهمة.. سرتما الدروب الطويلة، قطعتما السهول والجبال، الأنهار والوديان، وأنت فرحة بزوجك وعاشقك، يسير إلى جانبك ويختزل النساء فيك.. كل النساء يراهن في سميراميس، هكذا تقول الأسطورة فكم كنت فرحة سعيدة!؟ كنت على استعداد لأن تقطعي معه الأرض كلها طالما هو إلى جانبك.. وماذا تريد المرأة أكثر من زوج يحبها ولا يطيق فراقها؟ أنت كنت هكذا، رحت تتجولين معه، بل تفتشين حاميات الجند ومواقع السلطة، وعند كل مدينة تستقبلكما الطبول والزمور.. فمنونيس هو ممثل ملك آشور نفسه وقائد جنده، يحل محله ان غاب، وفي يده أن يهب الحياة ويقطع الرقاب..

أوغاريت نفسها استقبلتكما بالأعراس والزينات، ذبحت الذبائح، أقيمت الموائد، رقص الرجال وزغردت النساء، لكن حدسك رأى شيئا لم يسره.. كانت عين الحاكم، قائد الحامية، حمراء.. أنت رأيتها، رغم أن منونيس نفسه لم ير فيها إلا البياض والسواد.. احمرار العين ذاك أخافك، أنت التي تعلمين أن الصدور تخفي الأحقاد، وأن الأحقاد تؤدي إلى الغدر والانتقام فقلت لنينونيس.. دعنا نخرج خارج أوغاريت. ألم تقولي له ذلك؟ بلى.. الأسطورة تؤكده، لكنه رفض ونمتما في قصر الحاكم.. حينذاك أصررت على أن تنامي وحدك وينام منونيس وحده.. كنت تبيتين أمرا، وكان منونيس لا يشاركك ذلك الأمر. كان قد شرب حتى السكر، وكان يستغرق في سبات عميق، فيما أنت ساهرة، لم تخلعي درعك ولا خوذتك.. سيفك ورمحك، قوسك ونبالك إلى جانبك وقد تحولت كلك إلى آذان صاغية. حين صاح أول ديك، سمعت وقع خطوات.. كانت الخطوات تصعد الدرج إلى الطابق الثاني، حيث افرد لكما الحاكم القصر.. تحرك حدسك، نظرت من النافذة المعتمة، رأيت مشاعل تتحرك ورجالا يتقدمون وكلهم شاكي السلاح. الحاكم على رأسهم والجند يشرعون سيوفهم.. فأسرعت.. لم يكن الأمر بحاجة لسؤال أو جواب، تفكير أوتريث.. لم تحملي سيفا ولا رمحا، بل خطفت القوس ومن النافذة سددت.. أول سهم اخترق عنق الحاكم نفسه فصرخ صرخة جعلت جنده أنفسهم يرتعدون.. يضطربون ويتبلبلون ناظرين كل مكان حولهم لا يدرون من أين جاء النبل.. انكبوا عليه يحملونه فانصبت عليهم النبال انصباب وابل المطر، ثم لم يسحبوه متراجعين منهزمين إلا وقد سقط منهم بعدد أصابع اليد وولى الآخرون الأدبار..

قصة جميلة كنت مستغرقة في قراءتها حين دخل أخي عاصم.. لم أكن قد سمعت له وقع أقدام ولم أكن قد شعرت بفتح باب أو اقتراب.. هكذا يفعل الاستغراق بالمرء، فيجعله بلا أذن ولا عين.. قصتك الجميلة جعلتني بلا أذن ولا عين، حتى إذا ما صار عاصم فوق رأسي. أذهلتني

المفاجأة "مساء الخير" بادرني مبتسما وليس في ذهنه شيء. "مـ.. مـ.. مساء النور" قلت متلعثمة وأنا أهب ملء طولي، ملء عيني الحيرة والخوف.. ثم ما ان انتبهت إلى نفسي حتى أسرعت إلى الكتب على الطاولة ألملمها وفي نيتي أن أخفيها.. الحركة ذاتها، الحيرة والخوف في عيني، كل ذلك نبهه إلى أن وراء الأكمة ما وراءها فنظر إلى يدي تسرعان إلى الكتب، تريدان إخفاءها في الدرج.. "ماذا تقرئين؟" سألني بكل حيادية وهدوء.. "آ!! كتب" أجبته محاولة أن أتماسك.. فضحك مادا يده إلى أحدها "أعلم أنها كتب.. لكن أية كتب؟" لم أجبه، إذ شعرت أن الأوان قد فات.. كان الكتاب قد صار بين يديه.. قرأ ما كتب على غلافه ففتح عينيه دهشة "كتاب تاريخ.. للسنة الأولى جامعة!؟" سأل وهو يدقق النظر، ثم بدأ يقلب صفحاته متابعا "لكن ما شأنك أنت بكتب الجامعة؟" وكأنني شعرت أن سؤاله تحد" وإهانة قلت دون تفكير حتى "أنا أدرس في الجامعة" "ماذا؟ كيف؟ متى؟" بدأت أسئلته رشا إلى درجة لم أستطع معها إجابته.. انتظر لحظات ثم تابع "هه.. ما بك لا تجيبين؟" "أسئلتك كثيرة فعلى أي منها أجيب؟" قلت وقد لمعت فكرة مباشرة في ذهني "كيف؟" عدت من جديد أجلس على كرسيي وقد هدأ بالي واطمأنت نفسي. "أوه!! أنا لم أقل لك؟ العام الماضي أعدت الثانوية ونجحت ليس بعلامات عالية كثيرا.. لكن بعلامات تخولني التسجيل في الجامعة.." كذبت دون أن أدري من أين جاءت تلك الكذبة.. صدقيني يا سميراميس أن الأمر كله كان مفاجئا.. لكن.. وقد سألني، بماذا أرد؟ أأقول له السر الحقيقي؟ أأكشف له عن صاحب الرفعة؟ دوره؟ تجاوزه للقانون والنظام؟ ذلك سيجر علي ويلات وويلات..

"معقول؟" سأل وهو ما يزال شبه فاغر فاه "تدرسين وتنجحين وتسجلين في الجامعة ونحن لا ندري؟" "لا تؤاخذني أخي.. أراكم أحيانا غير مبالين بي، فأبتعد كيلا أفرض نفسي عليكم." قلت وفي نيتي أن أهاجم و"الهجوم خير وسيلة للدفاع.."

بعد ذلك انتشر الخبر.. أختي ربى أسرعت إلى تهنئتي على هذه القفزة النوعية، كما سمتها. شكرتها وأنا أرى في عينيها لأول مرة إعجابا تاما.. لم لا؟ أليست قفزة نوعية يا سميتي أن أحقق ما لم أستطع تحقيقه من قبل؟ أن ألغي الفارق الذي يفصلني عن لداتي ممن دخلن الجامعة ويترك في نفسي ما يشبه العقدة؟ أبي، امرأة أبي، أخوتي كلهم بدوا مستغربين مندهشين، لكن أحدا منهم لم يسألني.. وهو ما كنت أخشاه كل الخشية، أن أريه الشهادة الجديدة أو يطلع على ما نلت فيها من علامات..

في الجامعة لم أضطر للكذب ولا لقول شيء، إذ أخفقت في صنع صداقات هناك.. الطالبات يرينني شيئا مختلفا.. أكبر سنا، أكثر بهرجة، بل ربما سيدة مجتمع أكثر مما أنا

طالبة، فيحاذرن الاقتراب مني.. أكثر من مرة حاولت مد جسور مع هذه الطالبة، مع تلك، إلا أنني كنت أخفق.. لعلها الغيرة، الحسد، الشك.. أو لعلها جميعا اتفقت علي لتتركني طالبة غير مرغوب فيها.. بيد أن الطلاب شيء آخر.. كان حسبي أن أشير ببناني الصغير ليسرعوا إلي سرب عصافير.. لكنني امتنعت.. لم أشر لأحد ولا حاولت الاقتراب من أحد. أهو الخوف من أن يكون ورائي عيون مؤنس؟ أم تراني كنت أشعر أنهم صغار، أغرار بالأمس فقط فقست البيضة عنهم، وأنا التي عرفت ما عرفت.. وعاشرت من عاشرت؟ كنت أنظر إليهم ثم أشيح بوجهي. كان يصعب علي أن أتجاوز حاجز الخوف وأنا أتلفت حولي من حين إلى حين، كما يصعب علي أن أرضى بما هو أقل مما لدي بكثير.. وهكذا ضربت صفحا عنهم.. كنت أنظر إليهم شزرا، أمر بهم وكعب حذائي يعزف معزوفته الخالدة "يا أرض اشتدي.." ولا يجرؤ على التحرش بي أحد..

ذات مرة، ولا أكتمك يا سميراميس، شعرت بضيق شديد.. كنت أمر بهم، بقوامي الممشوق وعيني الخضراوين وشعري الأشقر فلا يتحرش بي أحد.. "لو أسمع آهة فقط، مشاكسة، غزلا.. كم كان ذلك سيسرني!!" لكنهم كانوا يبدون خشبا مسندة، لا أحد يغازل، لا أحد "يلطش".. أهي حقيقتي كانت تسير بركابي يا ترى؟ أهو الخوف والحذر؟ الطلاب يخافون، لقد علمتهم التجارب أن تلطيش طالبة على صلة بجهة مسؤولة، قد تودي بهم إلى التهلكة.. بل ان قصة الطالب الذي وقع في خطأ كهذا ثم اختفى عشر سنين، كان يعرفها الجميع.. "المسكين".. كانوا يقولون. "كان طالبا متفوقا في اختصاصه، أعجبته طالبة فتقرب إليها ببيت من شعر، لكن لم تمض دقائق حتى جاء رجال كالجن الأزرق، ذهبوا به إلى حيث لا يصل إليه حتى الذباب الأزرق."

لم تكن تلك إلا قصة من قصص كثيرة يعرفها الطلاب ويحذرون من مغازلة فتاة لا يعرفونها.. طبقوا ذلك علي.. حز ذلك في نفسي وسبب لي الضيق الشديد، أنا التي كان يعتمل في داخلي رغبة خفية في أن أكون شيئا آخر في الجامعة.. أن أثير إعجاب كل ذكر وألفت انتباه كل ذي نظر.. لكن كان لذلك فائدة لم أكن أقصدها.. إذ ظللت مفردة وحيدة، لا طلاب ولا طالبات. أجيء إلى المحاضرة وحدي، أخرج وحدي ليصل ذلك كله إلى مؤنسي فيزداد ثقة بي وإعجابا. كنت أستمع إلى المحاضرات بانتباه واهتمام، أقرأ الكتب بمثل ذلك الانتباه والاهتمام، لكن لأكتشف أنني لا أستوعب.. إذ جاء الامتحان النصفي وقدمت المواد كلها وكل ظني أني ناجحة لا محالة.. غير أن حساب القرايا لم ينطبق على حساب السرايا. طلعت النتائج لأتبين أنني لم أنجح إلا بمادة واحدة، مادة تافهة بحد ذاتها، كانت علاماتي

فيها أيضا تافهة.. وتملكني الرعب "ماذا إن جاء الامتحان النهائي بنتائج كهذه؟ هل سأظل عشرين سنة ﮯ الجامعة كي أتخرج؟ أم تراني سأعجز عن الوصول إلى السنة النهائية؟" أسئلة راحت تدور ﮯ رأسي مالئة صدري بالهم والغم وأنا أفكر بمخرج.. كنت أدرس.. صدقيني، سميراميس، كنت أدرس بكل ما لدي من طاقة وجد، لكن ماذا افعل ان كنت لا أستوعب.. ذاكرتي كالصوان لا يخترقه الماء.. الهم والغم بدأا ينعكسان على وجهي، فالتحدي كبير، وان أخفقت هذه المرة لن أفلح مرة ثانية، فالفرصة لا تأتي مرتين.

رآني مؤنسي مطرقة أفكر.." عجبا ما يشغل صغيرتي؟" تساءل متحببا "هذه الجامعة!!" "ومالها الجامعة؟" "ﮯ الامتحان الأول رسبت، وها هو الامتحان الثاني على الأبواب وأخشى أن أرسب أيضا." قهقه ملء شدقيه. هو يحب الضحك.. بل أي شيء يثير قهقهته، لكأنه كان يقول يا للسخف!! يا للتفاهة!! هذا أمر يستحق الهم والغم؟ لكنني أجبته قبل أن يتكلم "الأمر مصيري مؤنس.. فلا تقهقه أرجوك".. هنا استوى على الفراش، وقد ضمّنا بدفئه وحميميته، ثم قال "لاشيء مصيري ﮯ هذا العالم سواي، أتسمعين؟" "صحيح.. لا أحد مصيري سواك" أجبته بنوع من الاعتذار.. "هذا لا خلاف عليه.. لكن.. علي أن أنجح، أنت تعلم.. يجب أن أنال الليسانس". "ستنالين الليسانس.. كوني على ثقة من ذلك." "كيف وأنا لم أنجح إلا ﮯ مادة واحدة؟" "ﮯ هذا الفحص ستنجحين ﮯ كل مادة.. ستطالعين المواد كلها." أكد بكل ثقة، فلم أملك إلا أن أنط على السرير صعودا ونزولا "كيف؟ قل لي وأنا لا أستوعب حتى أبسط المواد؟" "أنت تريدين سلة العنب أم قتل الناطور؟" "بل أريد السلة حتى ولو كانت بلا عنب.." "ستكون لك السلة، وهي ملأى بالعنب، اطمئني.. وللمرة الأخيرة أقول لك: لا تهتمي ولا تغتمي، بل لا تدرسي شيئا.. أتسمعين؟ هاتان العينان الجميلتان لا أريدهما أن تتعبا ﮯ درس، هذا الرأس الجميل لا أريده أن ينشغل بحفظ.. وقت الفحص فقط قولي لي.. أرسل معك أحدهم عند كل مادة وهو يرتب لك الأمور وتنجحين.." ولم أصدق أذني.. أصابني ذهول لم أنبس معه ببنت شفة.. لكن، كما قال، عند كل مادة كان أحدهم يأتي معي، يمضي إلى أستاذ المادة يوشوش ﮯ أذنه بشيء.. بعدئذ يمر بي أستاذ المادة على خوف، وعلى خوف يضع إشارة على ورقتي هامسا أحيانا "اكتبي أي شيء.. املئي الورقة بأي شيء" وأحيانا لا يهمس فقط يؤشر. وحين ظهرت النتائج كدت أطير فرحا. لقد نجحت، بعلامات عالية، ﮯ موادي الاثنتي عشرة.

ﮯ السنة الثانية تبين لي أشياء وأشياء: استثناءات يتخرجن بلا تعب، مظلومات لا يتخرجن إلا بالويل والثبور وعظائم الأمور.. إحداهن رسبت سنتين ﮯ صفها، تعرفت إليها فاشتكت وتذمرت، "لكن لماذا؟" سألتها فهمست ﮯ أذني وكأنها خائفة." أستاذ المادة ساومني على

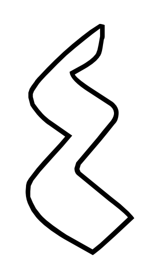
نفسي فرفضت" "ساومك هكذا دون خجل أو حياء؟" "وبكل وقاحة أيضا.. بل هددني ان لم ألب رغبته سيجعل الأساتذة الآخرين يرسبونني.. وهكذا حدث رسبت سنتين متتاليتين.. وان لم أنجح الدورة القادمة ربما يطردونني من الجامعة.." "شيء لا يصدق، بتول" قلت وأنا أتساءل في سري ان كان لاسمها "بتول" علاقة بموقفها من الأستاذ.. "بل صدقي.. هنا تجري أشياء تدخل في باب: صدق أو لا تصدق" "مثل ماذا؟" "أوه سميرة!! لكأنك غرّة لا تفقهين شيئا في الدنيا" وسرني ذلك، إذ كان يعني أنني بارعة كل البراعة في إخفاء حقيقتي.. ظاهري مناقض لباطني.. والكل ينخدع بي.. "هل تعلمين" تابعت تقول وقد رأتني لا أتكلم" بعض الطلاب يشترون النجاح شراء؟ ولكل مادة تسعيرة؟ هذه بألفين، تلك بثلاثة، هاتيك بخمسة؟" "معقول أنا أعرف معظم الأساتذة مثاليين شرفاء لا ينجح الطالب في مادتهم إلا إذا كان يستحق النجاح" أجبتها جاحظة العينين" هذا صحيح.. معظم الأساتذة هكذا... لكن بعض الأساتذة، وبحجة الدروس الخصوصية، لا ينجح لديهم إلا من يأخذ درسا خصوصيا ويدفع ثمنه المبلغ المرقوم؟" "لا، هذا جديد علي، لم أسمع به قط.." فتابعت وكأنها لم تكن تنتظر جوابي "كما أن بعض الطالبات يقدمن الفحوص بأجسادهن لا بأقلامهن؟" "هذا فهمته من قصتك.." "قصتي هي الرفض.. لكن ما أكثر الطالبات اللواتي يدفعن الثمن.. وينجحن.. بسهولة كبيرة ينجحن، بل ويحصلن على أعلى الدرجات.." وبدت بتول وكأنها ستتابع سرد قصص الفساد والانحلال لو لم أرتعد خوفا في داخلي وأنا أتصورها وقد وصلت إلى قصة مماثلة لقصتي، فاعتذرت على عجل ومضيت.. نتائج السنة الثانية جاءت كنتائج الأولى.. بلا جهد، بلا تعب.. نجحت فصرت على يقين أن الليسانس في جيبي لا يأتيها الشك من أمام ولا من خلف.. بيد أن السنة الثالثة جاءت بطارئ، إذ ظهر لي أحدهم عاشقا متيما لا يرضى بغير الوصال بديلا..

كنت كلما أراه أتذكر قصة بتول.. ها هو ذا أستاذ يراودني عن نفسي، بل يطلبني إلى مكتبه، وقد تحاشيته المرة تلو المرة، كي يهددني "أمامك خياران: الاستسلام أو الرسوب.." وكدت أستسلم.. هو بيني وبينك، سميراميس، شاب وسيم الوجه، عتل البنية، أحور العينين، في نظرته سحر لا تستطيع المرأة مقاومته، وشعرت بشيء في نفسي يقول: لم لا؟ استمتعي به كما يستمتع بك!؟ لكن خوفا شديد أحسست به يتملكني.. ماذا لو عرف مؤنس؟ ماذا لو بلغه أمر خيانتي؟.

وانكمشت على نفسي. كنت أعلم أن رجال مؤنس ورائي لا يتركونني أبدا.. أكثر من مرة رأيتهم يلحقون بي إلى حرم الجامعة وحتى داخل القاعة، بعضهم أعرفه وبعضهم لا أعرفه. سألته ذات مرة عن ذلك فأجاب" أنت غالية.. غالية جدا.. أخشى كثيرا عليك ولابد من

حمايتك.. فلا تخافي.. هم لحمايتك فقط.." لكن بحجة الحماية كنت أعلم أنهم يتجسسون علي، يحصون كل شاردة وواردة من تصرفاتي، حركاتي، فكيف أسلم نفسي لذلك الأستاذ؟ "نجوم السما اقرب لك" قلت وأنا أنتفض زاجرة إياه ثم انفتلت على عقبي داقة الأرض بهما "يا أرض اشتدي" لتلحق بي ضحكته وتهديده "إذن، سترسبين طالما أنا هنا" فلم يزدني تهديده إلا تصميما على أن أتغدى به قبل أن يتعشى بي..

نقلت لصاحب الرفعة ما حدث.. فكانت تلك آخر محاضرة في الجامعة لذلك الأستاذ. شعرت بزهو عظيم وأنا أسجل نصري الجديد :بتول ترسب سنتين وتطرد من الجامعة وأنا أمسح الأستاذ المبتز عن وجه الأرض، فأية عظمة؟ أي انتصار!! الانتصار الأعظم جاء آخر السنة.. لقد كان نجاحي تاما.. ربى كانت ترى نتائجي أحيانا فلا تصدق.. "أين كنت مختبئة؟ هذه الشطارة، هذه العبقرية. كيف كنت تخفينها؟" ولم أكن أجيب، الأفضل أن تتكلم الأفعال لا الأقوال. هي معجبة إلى درجة الانبهار، كل من حولي معجبون إلى درجة الانبهار.. لكن انبهارهم الأشد كان حين ظهرت نتائج السنة الرابعة وقد نجحت في المواد كلها بل بعضها بدرجة جيد..



(لقاء نظرة منك أهبك السماء

أما لقاء قبلة فلا أدري

ماذا أهبك لقاء قبلة

لاحت في عينيها دمعة

وعلى شفتي كلمة اعتذار

تكلمت الكبرياء فجففت دموعها

وماتت الجملة على شفتي

إنني أسير في طريق

وهي تسير في آخر

لكن حين نفكر في حبنا المتبادل

أقول أنا لماذا سكت في ذلك اليوم

وتقول هي لماذا لم أبك

كان على سميراميس أن تبكي فرحا وهي ترى منونيس، زوجها وعاشقها، يخرج من غرفته، بكامل عدته ولباسه. لقد أيقظته صرخات أولئك الذين أصابتهم النبال فأردتهم وجلبة البقية وهم يولون الأدبار.. رأى منونيس المشهد أمامه فتعجب: الحاكم وقادته الثلاثة وقد سقطوا مضرجين بدمائهم، بعضهم فارق الحياة وبعضهم الآخر مازال يتخبط.. "ما الذي حدث؟ ما الذي أراه؟" خرجت سميراميس إليه بلباس الفارس الكامل والقوس والنشاب في يديها.. "كانوا يريدون قتلك فقتلتهم.. مؤامرة يا سيدي القائد أفشلتها.. فاحمد الإله مردوخ أن أنقذك.. أنت يا حبيبي ومهجة روحي" وعانق منونيس سميراميس عناق الحب والعرفان.. كيف لا، وهو يرى الحاكم وقادته صرعى أرضا..؟ "لكن كيف عرفت بهم.. وأنت نائمة؟" "وكيف تنام لي عين وقد أخبرني حدسي أنهم يريدون بك شرا؟ لا يا سيدي.. تركتك تنام لأسهر ليلي في هذه الغرفة.. ولأرصد كل حركة وصوت.. وحين رأيتهم بعدتهم وعتادهم، أيقنت أنه الشر، آت بأقدام عدوك، فأمطرتهم نبالا جعلتهم يتساقطون كورق الخريف.." "أوه!! يا للربة عشتار، ما

أروعها وقد أرسلتك إلي كي تنقذيني المرة تلو المرة من الموت، فكم أنا مدين لك يا حبيبتي!! وكم علي أن أهبك.. لكن ماذا أهبك ولقاء قبلة أهبك السماء فلقاء إنقاذ حياتي ماذا أهبك؟"

"هبني حبك وإخلاصك فقط." ردت سميراميس وهي تتعلق بعنقه غارسة عينيها في عينيه." فلا تشاركني فيك امرأة أخرى أبدا".. "وهو لك" رد منونيس يكاد يذوب حبا وامتنانا "حبي وإخلاصي لك أبد الدهر فلا تشاركك في امرأة أخرى.." وبدت سميراميس فرحة، بل شعرت أن الدنيا لا تسعها.. وأنها ملكة العالم كله.. "والآن ماذا تأمرين؟" سألها منونيس وهو يشعر أنها باتت ملكته حقا، يمكنها أن تصنع به ما تشاء. "نرحل، فلم أعد أطيق رؤية هذا القصر." ولم يتردد منونيس.. عين حاكما جديدا وزود قائد الحامية بتعليماته، إذ عليه أن يتخذ أشد الاحتياطات والحذر من شعوب البحر، تلك التي تأتي راكبة أمواج البحر ملؤها الطمع والعدوان، فالخطر كل الخطر على أوغاريت من شعوب البحر، شعوب الطمع والعدوان.. ثم مضى بسميراميس جنوبا، يريها عظمة مملكة آشور وامتداداتها الواسعة، حيث تدين شواطئ البحر كلها لملك آشور بالولاء والطاعة.. فلا يصلون إلى مدينة إلا وتستقبلهم بذراعين مفتوحتين. بالزينات والبهارج: دفوف تدق، ومزامير تعزف وراقصات يرقصن وأحست سميراميس بشعور يراودها أول مرة "ملكة آشور.. لماذا لا أكون أنا ملكة آشور؟ ما الذي ينقصني، أنا سميراميس، صاحبة السمو والعظمة؟" لكنها لم تنبس ببنت شفة.. خشيت أن تبوح بما يعتمل في نفسها.. فيغضب منونيس.. القائد المخلص الذي لم يفكر يوما بتعدي حدوده والتطاول على مليكه، فكيف تفكر زوجه بأن تكون ملكة آشور؟ ألا يعني هذا أنها تحرضه على قتل مليكه والحلول محله؟ وكيف يفعل ذلك؟ أليست هي الخيانة العظمى؟ لا.. لا.. هو لا يحب أن يكون خائنا ولا غادرا.. قد أقسم يمين الولاء والطاعة ولسوف يحافظ على يمينه لا يحنث بها أبدا، سميراميس تعلم جيدا كيف يفكر منونيس.. لكن ذلك الشعور بدأ يراودها، بل بات يطغى عليها أكثر فأكثر.. في جبيل، ترسخ ذلك الشعور والمدينة كلها تحتفي بها.

في صيدون، في صور، ترسخ أكثر وهم يلبسونها أحلى الحلل الأرجوانية.. "ياه!! ما أبدع هذا الأرجوان!!" كانت سميراميس تقول وهي تنظر إلى نفسها في المرآة.. لم تكن قد لبسته من قبل فبهرها أيما إبهار.. "وحدهم أهل صور يصنعون صباغ الأرجوان هذا،" قال لها منونيس وهو يتأملها مبهورا بجمالها ولباسها. "لكأنهم صنعوه من أجل جمالك فقط ليخرج أرجوانا على أرجوان!! يا لمردوخ!! ما أعظمه إلها حين أبدع هذا الجمال!!" وكادت سميراميس تبكي، فقد أحست أنها بلغت الذروة.. وصلت إلى الكمال..).

مثل ذلك الشعور راودني يا سميتي وأنا استلم وثيقة الإجازة.. أنا خريجة جامعة يا سميراميس.. حاملة شهادة عالية يا جدتي العظيمة رغما عن أنف الجامعة رغما عن أنف النظم والقوانين.. الفرح نفسه الذي شعرت به وأنت تقطفين ثمار نصرك، شعرت به أنا.. حتى بت أسير في الطريق وكأنني أطير.. لا.. لا.. لم يكن فرحا وحسب، بل شعرت مثلك وكأنني ملكة البلاد كلها، ملكة العالم كله.. لم يعد باستطاعة أحد أن يشيل برأسه علي، متكبرا متفاخرا.. صرت مثل الصفوة من الناس، أحمل إجازة جامعية، الحلم الذي لم أستطع تحقيقه من قبل استطعت تحقيقه الآن فلماذا لا أطير فرحا!؟ آه ما أروع أن يحقق الإنسان كل ما يحلم به!! دون تعب، دون جهد، ما أروع أن تصلي إلى مبتغاك!! أن تأتيك أمانيك على طبق من ذهب، تقولين أريد لبن العصفور فيأتيك لبن العصفور، افتح يا سمسم فينفتح باب الكنز على مصراعيه وتغرفين منه ما تشائين من الذهب والماس. تعال يا بساط الريح فيسرع إليك بساط الريح، تمتطينه وتمخرين العالم، شرق العالم وغربه.. أي شيء أعظم من هذا يا سميراميس؟.

نحن نتماهى يا جدتي، رغم آلاف السنين التي تفصل بيننا أشعر أننا نتماهى.. نندمج في كينونة واحدة، مشاعرها واحدة، مطامحها واحدة، طريقها واحد ومصيرها واحد.. منونيس يحبك ويدللك.. مؤنس أيضا يحبني ويدللني.. المال أغرقني به، الهدايا بحر أغوص فيه، العز، الجاه، كل ما أحتاج يوفره لي بإشارة من إصبعي وبلا إشارة.. بمناسبة نجاحي، أتعلمين ما كانت هديتي؟ عقد من الماس مرصع بالزمرد والياقوت.. رأيته فلم أصدق عيني.. "أهذا لي؟" سألته "أجل، ومن أجدر بلبس الزمرد والياقوت من عيني الزمرد هاتين، ووجنتي الياقوت هاتين؟" وشعرت أنني بلغت وإياه الذروة، وصلنا درجة الكمال.. لكنني لم أكن أعلم مثلك أن الشيء إذا اكتمل بدأ بالنقصان.. لم يزودني مردوخ، كما زودك، بالحكمة، بل هي عشتار، أرادت مني أن أكون مثلها ربة للجمال والحب والخصب.. ونسيت أن تزودني ببعض الحكمة، فساقني جهلي إلى أن أمعن في غيي ولا أتخذ احتياطاتي لدهر لم يكن يوما إلا غادرا خؤونا.. تسألينني كيف؟ حسن سأجيبك.

كان مؤنس يريد أن يسافر إلى بلد من بلدان الواق واق، ولمعت في ذهني الفكرة. "تلك البلاد لا أعرفها.. وأتوق كثيرا لرؤيتها، فلماذا لا أسافر معه؟ أنت سافرت مع منونيس، بل لم يكن يذهب إلى مكان إلا ويأخذك معه، فلماذا لا يفعل مؤنس ذلك؟ ألست أنا وأنت كينونة واحدة؟ امرأة واحدة؟ إذن ينبغي أن يكون مؤنس ومنونيس واحدا.. يتصرفان تصرف الرجل الواحد، يحملان حبا واحدا، مشاعر واحدة.. وهمست له تلك الليلة بما في نفسي فارتد إلى الوراء مصدوما. "لكن كيف؟ أنت تعلمين.. مبدأنا السرية والكتمان.. وسفرنا معا يطيح بكل

سرية وكتمان!!" وتذكرت تعليماته المشددة لإبقاء علاقتنا طي السرية فلا يعلم بها أحد، لكن رغبتي بالسفر، توقي الشديد لأن أكون مثلك ويكون هو مثل منونيس جعلاني أنسى كل شيء وأصر "كيف؟ تسألني، أنت العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، تضع أذن الجرة حيث تشاء، وتخرج المسرحيات كيفما تشاء.." رددت عليه بنبرة من التفخيم والتبجيل جعلته يطرق خجلا من جهة وينفخ صدره وأوداجه من جهة أخرى.. "ألم أقل له أنت العالم بكل شيء، القادر على كل شيء؟ كيف إذن لا يعرف كيف يدبر الأمور؟ الإجازة الجامعية دبرها لي دون أن أتعب نفسي أو أسهر على درس، فكيف لا يدبر سفرة لي معه إلى بلاد الواق واق؟ ناقشني، حاول أن يثني عزمي لكن أنى له ذلك وقد صممت؟ أخيرا رفع الراية البيضاء قائلا "حسن.. هيئي نفسك.. لكن شريطة أن تتبعي تعليماتي بالحرف" وارتميت عليه أشبعه لثما.. "أنا أمتك السميعة الطيعة، أنا الجارية التي لا تتقن إلا تنفيذ التعليمات.."

وكانت هذه تقضي أن أذهب إلى المطار بمفردي، أن أظل في الطائرة بعيدة عنه.. لا أكلمه، لا أكلم أحدا من الوفد ولا أقاربهم، لكأنني لا أعرفهم ولا علاقة لي بهم.. وفي عاصمة الواق واق أحمل حقائبي وأمضي بمفردي أيضا، بعيدا عنه وعن الأضواء إلى فندق كان سينزل هو فيه.. هناك فقط نلتقي حيث الحجب والستائر، الأسوار والجدران.

السفر بالطائرة جميل.. أنت لم تجربيه يا سميتي.. بل أنا نفسي لم أكن قد جربته. بشيء من الحذر والخوف صعدت إلى الطائرة.. وحيدة، مفردة.. مقعدي في المنتصف.. آه لو كنت قريبة منه، لو كان إلى جانبي، إذن لوفر علي الكثير من مشاعر الخوف.. إنك يا سميراميس، تقذفين بنفسك إلى الفضاء دون أن تدري ان كنت ستعودين إلى الأرض أم تتناثرين أشلاء في السماء.. ذلك الشعور تملكني، لا أخفيك، وللحظة من الزمن ندمت أنني طلبت السفر معه.. أنت ومنونيس كنتما زوجين، تلتقيان في العلن، تسافران في العلن، لم يكن ثمة مانع.. لكن كيف أسافر أنا ومؤنس وما هو بالزوج؟ العلن محرم علينا والجهار ممنوع، لكن كان الأوان قد فات.. صرت في الطائرة، ثم هدرت الطائرة هديرا يصم الآذان، بعدئذ اندفعت بسرعة الصاروخ على الأرض لتأتي لحظة، تشلع فيها إقدامها من الأرض لينشلع معها القلب، تفرش جانحيها في السماء وتطير.. لينفرش لها قلبك ويطير.. آه!! كم خفت تلك اللحظة يا جدتي.. لو كنت مكاني لخفت أيضا.. لكنك لا تعرفين الطائرة ولا الطيران، أيامك لم يكونوا يحلمون حتى بالطيران.. كانت أقصى أحلامكم أن تركبوا عربة تجرها الخيل وتمضي مسرعة بكم فتفرحون.. سرعة المركبة كانت تفرحكم فكيف لو رأيت سرعة الطيران؟ لا.. يا جدتي.. لا طائر الرخ ولا الصقر ولا بساط الريح يمكنها أن تضاهي الطائرة، هذه العنقاء العملاقة التي

تشق الغيوم وتخترق الضباب والسحاب، لا يضاهيها بالسرعة حتى هدهد سليمان..

في المطار وجدت أحدهم يستقبلني ثم يقلني بسيارة فاخرة خاصة إلى فندق فاخر لم أحلم يوما بارتياده.. غرفة النوم فيه جناح كبير.. سرير عريض وأرائك وثيرة.. شرفة واسعة وصالون استقبال.. الحمام لوحة من فن.. زخارف ونقوش.. ومياه دافئة دافئة تحلل حتى عقد النفس..

لم أكن أدري ما أفعل.. فألقيت بنفسي في الحمام أرخي مفاصلي وأسترخي ثم اسلم نفسي للسرير.. مائدة عامرة بكل ما لذ وطاب جاءت إلي.. تصوري يا سميتي.. هذه الأيام لسنا من يذهب إلى الموائد.. بل الموائد هي التي تأتي إلينا: بشرابها، بطعامها، بكل ما نشتهي تأتي إلينا على دواليب من مطاط لا يسمع لها صوت ولا تضيق بها أذن. لكن هل كان باستطاعتي أن أتعشى وحدي؟ هل سافرت لأكون وحدي؟ لا، ليس ذلك ما أريد.. لكن ما عساي أفعل وصاحب الرفعة بين مضيفيه وأصحابه.. أيتركهم ويجيء إلي؟ أم يبعث إلي من يأخذني ولست بعضو في الوفد أو زوج؟ صبرت، وانتظرت.. وكلي أعين ترقب الباب عله يفتح ويطل علي.. آذان تترصد الهاتف عله يرن ويأتيني صوته، لكن لا الباب فتح ولا الهاتف رن. فقلت أشرب شيئا.. أتسلى على الأقل.. صببت كأسا من الويسكي.. شراب لذيذ لم تعرفوه أنتم يا سميتي.. فهو من صنع اسكتلندا.. بلد بعيد ربما لم يكن قد استوطنه الإنسان يوم كنتم أنتم وكانت حضارتكم.. شربت الكأس دفعتين أو ثلاثا فشعرت بمخالب الجوع تعمل في معدتي.. مددت يدي إلى الطعام.. كانت ثمة أصناف منه لا أعرفها.. لكنني أكلت.. الجوع كافر.. كما تعلمين، بين يديه لا تعودين تفكرين بشيء.. ملأت معدتي طعاما وشرابا ثم دون أن أشعر رحت في سبات عميق..

في الصباح فقط أفقت على رنين الهاتف.. تسألينني ما هو الهاتف؟ حسن هو أيضا اختراع عجيب يا جدتي.. لو رأيته لأخذك العجب.. تصوري أنت في نينوى وأبوك، راعي إبل الملك، في بابل، تدقين له رقما فيرفع السماعة، يكلمك وتكلمينه.. وكل منكما في مكانه، أليس ذلك من عجائب الزمان؟ بلى.. لقد نمت وأنا أشعر أن من عجائب الزمان أن أرى مؤنسي أو أسمع صوته.. برنامجه مليء ولا شك، والسرية والكتمان يمنعانه من أن يظهر معي أو ربما يكلمني.. هو حذر.. سمعته بالدنيا كلها.. وأنا لا استطيع أن أحتج.. سمعته سمعتي أيضا ومصيره مصيري ولا أريد شيئا في الدنيا يضر بهما.. كان اليأس قد ضرب أطنابه في نفسي حين نمت، وكانت أحلامي طوال ذلك الليل تنضح بذلك اليأس. ها هو مؤنس هناك، بعيد، على ضفة النهر الأخرى لكن لا زورق لدي ولا أعرف السباحة. بعدئذ ها أنذي في غابة وحيدة مفردة، تزعق القردة من حولي وتفح الأفاعي وأنا أصيح مؤنس.. مؤنس.. لكن ليس هناك

مؤنس ولا أنيس.. رنين الهاتف في الصباح جعلني أهب مجفلة، لكن صوته العذب كماء السلسبيل جعلني أدرك أنني كنت في حلم.. أوه.. مؤنسي.. صباح الخير.. ألف صباح خير.. آه!! أين أنت؟ أكاد أموت شوقا إليك" رددت على صباح خيره رشا لم يجد معه لحظة لرد.. لكن ضحكته التي أحب، أوقفتني لأسمع تعليماته الموجزة فهو لا يملك الوقت للأخذ والرد "اسمعي.. الرجل الذي جاءك بالأمس يأتيك اليوم، والسيارة ذاتها ستكون تحت تصرفك.. فاذهبي.. تجولي.. تسوقي.. أراك في العاشرة ليلا" وأغلق الهاتف دون أن يتيح لي أن أبوح له بأشواقي التي تراكمت أكداسا أكداسا كغيوم الركام ودون أن أستطيع الاستفسار منه عن أشياء كثيرة كان بودي الاستفسار عنها.. هو يخاف.. أنا أعلم أنه يخاف ربما هناك من يتنصت عليه.. من يسجل له، ثم يستغلها في فضيحة لا تبقي ولا تذر.. "حسن.. اقنعي يا بنت،" قلت في سري وأنا أنهض من سريري. "المهم أنه قريب منك، تشمين رائحته، تعرفين أخباره.. ثم هو معذور.. مهمة رسمية، مفاوضات، وربما اتفاقات ومعاهدات، فأين تجدين لك مكانا؟ احمدي ربك أنه رضي بمجيئك.. افعلي ما قال لك.. اذهبي إلى المدينة التي كثيرا ما حلمت بأن تجيئي إليها.. تجولي حيث شئت فهي فرصة من ذهب."

الفرصة من ذهب استغللتها على أفضل نحو.. ذهبت إلى النهر العظيم، زرت المتحف، تجولت بين الأوابد والآثار، وأدركت حينذاك لماذا كانت تلك الأوابد والآثار، وعلى مر خمسة آلاف من السنين، أولى عجائب الدنيا.. إنها الضخامة، العظمة، الجلال والمهابة.. وكم شعرت بالمهابة وأنا أتجول بينها!! كم تذكرتك وحزنت!! فما تركت أنت من أوابد وآثار، كانت هي الأخرى من عجائب الدنيا، لكن لم يبق منها شيء للأسف. كيف؟ لا أحد يدري.. لقد ذهبت وحسب.. أما هذه العجائب فقد بقيت. أشياء رائعة أنت نفسك رأيتها.. أسطورتك تقول انك ذهبت إلى تلك البلاد وبسطت سلطانك عليها، لفتت نظرك تلك الأوابد بل ربما هي نفسها ما حثك على أن تصنعي شيئا عظيما تخلدين به اسمك، فكانت الحدائق المعلقة.. قلت في نفسي وأنا أقف أمام أحد تلك الأوابد، لعل سميتي وقفت في هذا المكان ذاته، لعلها شعرت بالمشاعر ذاتها.. فقط هناك الزمان.. لكن ان ضغطنا الزمان، تلك الدائرة التي يلتقي طرفاها، ألا نلتقي أنا وأنت؟ أنت في طرف الدائرة وأنا في طرفها الآخر، نضم الطرفين واحدهما إلى الآخر فتلتقي سميراميس بسميرة ميس.. أرأيت؟ لعبة جميلة أليس كذلك؟ هكذا شعرت، وأنا في ذلك المكان العظيم، ألتقي بك، أضمك إلى صدري، أتماهى معك حقا فلا نعود اثنتين، بل كلا واحدا لا يتجزأ. حينذاك فقط امتلأت نفسي غبطة.. فذاك الشعور هو ما كنت أبحث عنه.. وهو الذي كان يقاربني ثم يبتعد عني إلى أن وجدته ذلك اليوم، تاما لا نقصان فيه..

عدت من جولتي متعبة لكنني سعيدة.. الغبطة ملء سريرتي، الفرح ملء فضائي، لقد كان هناك وعد بأن أراه تلك الليلة.. ملأت الحوض ماء، صابونا، عطرا ثم ألقيت بنفسي فيه.. ساعة.. ساعتين.. ظللت مستلقية.. موسيقى ناعمة.. ناعمة كأنامل المحب، تدغدغ أذني.. وضوء خافت يحيل الوجود إلى عالم من السحر ينبعث من زوايا غرفتي.. كنت أريد أن ألقاه أصفى من ماء العين وأدفأ من نار الموقد.. وكنت كلي تشوقا وتشوفا.. أنت تعرفين معنى التشوق والتشوف، حبك لنينونيس كان يجعلك أنثى متوهجة دائما.. أسطورتك تتحدث كثيرا عن أحضانك النارية وهي تصهر منونيس، عن شهواتك العاتية وهي تغرق منونيس، فكيف لا أكون مثلك وقد تماهينا قبل ساعات؟ كيف لا أتشوق له وأتشوف وأنا حبيبة غريبة قريبة بعيدة، كأنما تفصل بيننا البحار والمحيطات. في العاشرة لم يعد يفصلنا شيء. أمحت البحار والمحيطات لنجد أنفسنا وجها لوجه، عند الباب استقبلته، أنا التي كنت أعرف دقة مواعيده.. العاشرة، إذن سيأتي العاشرة، وأسرعت إلى الباب أفتحه قليلا وأنتظر.. لحظات ثم ظهر.. فشهقت.. آه!! يا الهي كم كنت مشوقة إليه!! كم كنت بحاجة إليه!! ولم أدر كيف ألقيت بنفسي بين ذراعيه.. متخفيا كان، متنكرا جاء لكنه كان مؤنسي.. من رائحته، من خطواته عرفته.. وغرقنا في عناق دافئ طويل.. حملني بعده إلى السرير ثم إلى ليلة حمراء ليس كمثلها ليالي هارون الرشيد.. شربنا، أكلنا، مارسنا الحب، ليس مرة بل مرتين.. تصوري سميراميس، هو الذي كان في الفترة الأخيرة قد وهنت فحولته، استعادها تلك الليلة.. "هه!! أنت تعود شابا.. ترى ما السر؟" سألته. "إنه رجوع الشيخ إلى صباه" همس في أذني ضاحكا وقد عادت إليه ثقته بنفسه بعد أن كاد يفقدها، وهو يعجز عن ممارسة الحب في منزلي أو في فيلته المرة تلو المرة.. كنت أراه عاجزا منهزما فأشفق عليه وأنا أعلم أن أصعب هزائم الرجل هزيمته في فراش المرأة. لكن ماله هذه الليلة؟ أهو الشوق؟ أهو الشراب؟ لكننا كنا دائما نلتقي بدافع الشوق وكنا دائما نشرب.. فلماذا هذا الاختلاف؟ "ماذا في هذه اللفافة؟ أهي سبب فحولتك الليلة؟" "وتفرس بي مبتسما".. كان ينفث دخان لفافته الأبيض لتنعقد دوائر فوق السرير تتداح في فضاء الغرفة برائحة ولا أذكى وأشعر برأسي ينتشي مع كل مجة أكثر وأكثر. "ماذا في هذه اللفافة؟" "سر السعادة.. اكسير النشوة، تأخذينه فيحملك عاليا على جناحين من متعة ولذة لم تعرفيها في حياتك.." وصدقته.. كان شعوري بالنشوة يحملني عاليا على جناحين من متع ولذائذ لم أعرفها قط.. وكنت سعيدة إلى درجة لم أرد أن أعرف المزيد.. حسبي ما أشعر به من نشوة.. لكن سر فحولته ظل يحيرني فألحفت عليه.. "ألم أقل لك.. هو رجوع الشيخ إلى صباه.. دواء جديد اخترعه الطب، يعيد الشيخ إلى صباه فحلا ليس كمثله الفحول." وكدت أطلق زغرودة فرح، هنهونة تمجيد

للطب الذي اخترع علاجا يعيد الشيخ إلى صباه.. لكنه كم فمي مطبقا عليه شفتيه، متمرغا فوقي وكلانا يهصر الآخر بين ذراعيه. لقد كنت في حالة من النيرفانا جعلتني أسلم نفسي حتى الثمالة، أغيب عن الدنيا حتى النهاية، أسكر بالنشوة حتى الرمق الأخير..

حين أفقت لم أعرف أين كنت.. تلمست الفراش، نظرت إلى الستائر.. "هذا ليس بيتي.. أين أنا إذن؟" كان رأسي فارغا كالطبل، ثقيلا كالرصاص، ولم يكن باستطاعتي أن أجد فيه شيئا.. تساءلت لكن دون جواب.. الغرفة بستائرها الثقيلة معتمة كجحر ثعلب. الفراش خاو، كل ما في داخلي خاو، فما الأمر؟ "تذكري" قلت لنفسي وأنا افتح الضوء.. اتساع الجناح، فخامته، تلفازه، بقايا الليلة الحمراء، كلها أعادت إلي شيئا من ذاكرة "أوه!! صحيح!! كان مؤنس معي!! أمضينا ليلة من ليالي العمر" وتلمست جسدي.. بدفئه، بعريه، باسترخائه، رحت أستعيد ذكريات الليل.. ذكرى بعد أخرى إلى أن عاد رأسي فامتلأ.. حينذاك وددت لو كان مؤنس إلى جانبي نعاود الكرة ونغرق من جديد في بحر اللذة والنشوة. لكنه لم يكن إلى جانبي، كانت الساعة قد تجاوزت الظهيرة.. فتحت عيني دهشة.. أي نوم هذا!؟ ليس نوم الضحى، بل نوم الظهر، أمر خارق للعادة.. لم أكن طوال عمري تلك النؤوم. كانت بضع ساعات تكفيني فكيف نمت حتى الظهيرة؟ وتذكرت.. لعلها تلك اللفافة، تبعث في تلافيف الدماغ خدرا عجيبا لا يجد شفاء إلا في النوم. لكن ما عساها كانت تحوي؟ حشيشة؟ هيروئين؟ كوكائين؟ لم أكن أعلم، ولم يكن قد قال. كان حسبي أن أكتفي بمجاراته، ينفث الدخان، أنفثه، يشرب الويسكي، أشربه أليست ليلة للسعادة؟ إذن لماذا يعكرها الإنسان؟.

رأسي ثقيل فماذا أفعل؟ لو كان إلى جانبي لسألته، لكنه كان قد ذهب.. لا شك أن جدول أعماله مليء.. هو الآن على طاولة مفاوضات، في قاعة استقبال، أو مؤتمر صحافة.. هو مهم.. وقته من ذهب فكيف يضيعه مثلي في النوم؟ من زاوية ما من زوايا دماغي جاءتني إشارة.. اشربي قهوة.. استحمي.. رفعت السماعة: هاتوا لي قهوة.. فنجان؟ لا ليس فنجانا بل دولة قهوة ومضيت إلى الحمام أغطس في حوضه الدافئ من جديد.

بعد دولة القهوة، أحسست بذهني يعمل كمحرك كان في حالة تعطل.. نظرت إلى الطاولة في الجانب الآخر من السرير رأيت ظرفا.. فتحته فإذا برزمة نقود، وورقة. قرأتها فإذا هي تعليمات توضح أنه لا يملك دقيقة واحدة طوال اليوم وأن علي أن أعاود تجوالي، أستكشف المدينة بنفسي، أتسوق، خاصة وأننا سنعود في الغداة.. وأسرعت أرتدي ثيابي..

كان ثمة الكثير مما ينبغي أن أراه.. أن أتسوقه.. خاصة وأن رزمة النقود كانت كبيرة يفتح لها قلب المرء وتغريه بالشراء.

أسواق المدينة كبيرة طويلة، تعج بالسياح والمشترين، تضج بالجديد والنفيس.. ووجدتني أغرق.. السائق برفقتي يحمل ما أشتريه وينقله إلى السيارة.. واشتريت الكثير.. حاجات لي، تحفا للمنزل، هدايا.. هدايا.. لقد سيطر علي حب الشراء إلى درجة شعرت في لحظة أن الود ودي أن أنقل ذلك السوق كله بنفائسه وغرائبه ثم أغرق الناس في بلدي بالتحف والهدايا.. لكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه.. رزمة النقود لم تنته، هوس الشراء لم يتوقف لكن همتي انتهت، نشاطي توقف وقد هدني التعب. حينذاك.. عدت وكلي شعور بأنني انتصرت على نفسي، هدرت المال الذي لم أكن أحب هدره ولم أعتده، أنا التي كنت أجمعه كأنني من بخلاء الجاحظ.. يدخل صرتهم الدرهم فلا ترى بعد ذلك عيناه النور.. متأخرا جاءني صاحب الرفعة تلك الليلة وكما كانت الليلة السابقة كانت هذه ليلة حمراء، جرعنا اللذائذ فيها جرعا وحين أفقت في الحادية عشرة صباحا وجدت تعليماته مكتوبة "نسافر الرابعة بعد الظهر.. استعدي" واستعددت.. كنت بشوق لأن أراه، أتلمسه، أشعر به إلى جانبي فيزول الشك في أنه كان معي الليلة والليلة التي سبقتها.. ينبوعا ثرا للعطاء، نهرا متدفقا من دفء وحنان.. في الرابعة ذهبنا إلى المطار حيث ودع بمثل الحفاوة التي استقبل بها، ثم رأيته في الطائرة لكن أيضا من بعيد.. مع ذلك كنت فرحة، أشعر به قريبا مني.. بل قريبا جدا إلى درجة أحسست به أنه داخل أحشائي، في أعمق أعماقي.. ألم يكن في جناحي بالأمس؟ ألم يلج أعمق أعماقي يا ترى؟ ألم يترك حشاشة روحه في داخلي؟ أنا ريا.. كل ما فيّ ريان.. روحي، جسدي.. بل أشعر وكأن الجمرة التي كانت تلتهب داخلي قد انطفأت.. أن الظمأ الشديد قد أخمد.. أتراها آثار النشوة؟ أنا لا أدري يا سميتي.. ما أدريه فقط أنني عدت من رحلتي وكأنني شيء آخر.. هل حدث ذلك معك؟ هل عدت من صيدون وصور شيئا آخر؟ ربما فالمرء لا يعلم متى أو كيف يتغير..

كان للهدايا كما توقعت وقع شديد على كل من حولي، أبي، أخوتي، امرأة أبي، ربى وأولادها.. كلهم رحت أغدق عليهم الهدايا وراحوا يتقبلونها برضى وسرور.. في المصلحة، تلقى الزملاء والزميلات هداياي بأكثر من الرضى والسرور أيضا، بل ان المدير انتشى بهداياه وطرب إلى درجة تحمس معها لخدمتي قائلا "أنت لم تعودي حاملة ثانوية، بل خريجة جامعة، أليس كذلك؟" "طبعا سيادة المدير.." أجبته راغبة في إشعاره بأهميته كمدير.. "إذن.. ارفعي طلبا لتسوية وضعك.." وكتب لي الطلب بنفسه رافعا إياه مؤكدا أنه سيلاحقه إلى أن يسووا وضعي..

وحده عاصم، أخي، تلقى هداياي دون رضى أو سرور.. بل لا أكتمك، حاول في البداية ردها.. "شكرا.. لدي الكثير.. لست بحاجة لشيء.." "لكنها هدية والرسول عليه السلام كان يقبل الهدايا.. بل هو نفسه قال: تهادوا تحابوا، أم تراك لا تريدنا أن نتحاب؟" وأطرق خجلا.. لقد وضعت يدي على الجرح، لكنه لا يستطيع أن يصرخ أو يقول لي هذا هو الجرح فسكت على مضض.. وعلى مضض أخذ ما جئته به.. ثلاثة قمصان، ثلاث ربطات عنق.. بذلة جوخ من أرقى دور الأزياء العالمية وأزرار قمصان من ذهب.. هدايا كثيرة ربما هي نفسها فاجأته ودفعت به إلى ردها.. لكنني كنت قد تقصدت ذلك.. كان عاصم أكثر ما يهمني من الأسرة كلها.. هو الأخ الأقرب وفي الوقت نفسه الأبعد.. الأكثر اهتماما والأكثر لامبالاة. انه الوحيد الذي أشعر به يترصدني، يحاول التغلغل إلى أعماقي، كشف ما وراء ستري فكيف لا أهتم به؟ وكيف لا أغدق عليه الهدايا عله يخفف وطأته عني؟.

لكن سهامي أخطأت مرماها.. عاصم لم يخفف وطأته عني.. كان في صدره ألف هم وفي رأسه ألف تساؤل، وكان يريد أجوبة.. "سميرا.. أنت الآن فتاة ناضجة.. تخرجت من الجامعة وتدرك الأمور جيدا، فأجيبيني.. لكن بصدق.. ان الشك يأكل قلبي.." "سأجيبك.. فقط اسأل.." وبدأت أسئلته تنصب علي انصباب مطر استوائي.. "من أين لك هذا المال كله؟ كيف سافرت؟ مع من؟ لم لم تخبرينا مجرد إخبار؟ بل لماذا يلفك الغموض في حركاتك وتصرفاتك؟...الخ" وبدأت الإجابة.. بهدوء وبرودة أعصاب رحت أجيبه، أنا التي كانت قد فكرت بكل شيء ورتبت الإجابة عن كل سؤال.. كان خيالي خصبا، معينه لا ينضب.. يلفق أشياء لا أصل لها، ويصنع أكاذيب لا حقيقة فيها.. هو قال أن أجيبه بصدق لكن أنى لي الصدق وقد طلقته منذ زمن بعيد؟ كان المبدأ الذي أعجبني هو مبدأ غوبلز "أكذب أكذب فلا بد أن يصدقك الناس.." وكان المتنبي قد قال "الصدق شر إذا ألقاك في الكرب العظام" وكنت أصدق المتنبي وأؤمن بأقوال غوبلز فكيف أقول الصدق؟.

لا، الكذب منجاة وبه الخلاص، فلأكذب.. وليثبت كذبي ان كان شاطرا.. حبل الكذب طويل لدي وليس باستطاعته أن يدحض ما أقول، خطتي دائما هي قولي شيئا من الحقيقة المغلفة كلها بالكذب." وكان ذلك يجدي فلم لا يجدي مع عاصم؟ وهكذا حين انتهيت من الرد على أسئلته صمت وهو يتأوه لكأنه يقول "ماذا بيدي أن أفعل وأنا لا أملك الدليل؟".

"أخي" بدأت وقد شعرت أن علي أن أبدأ هجوما معاكسا كي أحسن مواقعي "ما أريده منك هو أن تطمئن علي.. أجل.. لا تخف.. أنا أعرف دائما كيف أحافظ على نفسي.." "صحيح.. أنا واثق من ذلك.. لكن ماذا ان تعرضت لمكيدة، أحدهم تآمر عليك فزللت.. أنت أختي

شرفك شرفي.. وسمعتك سمعتي.. فأين أذهب بوجهي من الناس؟" ومضى يحدثني بذلك الكلام العتيق العتيق الذي أكل الدهر عليه وشرب: الشرف، الأخلاق، العفة، الطهر، القيم.. المثل العليا، وكأنه نسي أن ذلك كله يمت لعصر غير عصرنا، كنت أسمعه وأنا أفكر "مسكين!! كم أنت مثالي.. تتكلم لغة بطلت تماما.. اللغة اليوم يا أخي هي لغة المصالح، المنافع، الوصول، التسلق، فما هذا الذي تحدثني به؟" لكنني كنت أصغي.. وكنت أجيد الإصغاء لأنني أعلم علم اليقين أن لا فائدة من النقاش "لكم دينكم ولي دين" فلأسمعه على الأقل.. لكن ما ان سكت حتى قلت "مرة ثانية أقول لك اطمئن، أنا ابنة هذا العصر" "وهنا المشكلة" أجابني على الفور "هو ذا ما يخوفني.. أنك ابنة هذا العصر." وماله هذا العصر؟" سألته متغابية فأجاب زافرا "هذا عصر الفساد، الناس فيه يقلدون الغرب وهم أبعد ما يكونون عن الغرب. يأخذون القشور ويتركون اللب.. ينقلون المظاهر ويبعدون عن البواطن.." "يأتي يوم فيتغلغلون إلى الباطن ويصلون إلى اللب." قاطعته فتابع، لكن بحرقة وحسرة " لا، سميرا، لا نحن بعيدون جدا عن اللب، غرباء كثيرا عن العصر.. انه عصر التكنولوجيا، ونحن في عصر الكلاموجيا، عصر التجمعات الاقتصادية الكبرى ونحن في عصر التشرذمات القطرية.." وشردت فرحة كل الفرح بانتقاله إلى السياسة والعموميات. ثم لم أعد إلا وهو يقول "عصر حقوق الإنسان والديموقراطية ونحن في عصر حقوق الحكام وامتهان الرعية. "ماذا تعني عاصم؟" سألته وقد توقف شبه لاهث "أتعني أن علينا أن نيئس فننتبذ زاوية في البيت لا نبرحها بحجة أنه ليس هناك فائدة؟" "بل أعني أن علينا ألا نخدع أنفسنا.. نحن أناس متخلفون علينا أن نسعى لتطوير أنفسنا، لتقدم مجتمعنا قبل أن نزعم أن لنا علاقة بهذا العصر.." "لكننا نسعى.. الدولة تسعى.. المجتمع يتقدم.." "تسعى؟" رد هازا رأسه بكل سخرية واشمئزاز "انظري حولك سميرا.. أنت لا ترين ما يجري. حال الناس بالويل: لا عدالة، لا مساواة، لا قانون.." وشردت من جديد عائدة إلى مؤنس، وهو يقول "أنا فوق القانون.. أنا فوق النظام.. ثم لم أعد إلا وهو يقول: كل شيء فاسد سميرا، حتى لقد فسد الزمان نفسه فصار شر الأزمنة" "إلى هذا الحد أنت ناقم؟" "وأكثر.. ألم تسمعي ما قال ابن المقفع؟" "وما قال؟" تنهد عاصم هازا رأسه إلى الأعلى والأسفل ثم قال "الزمان هو الناس.. فخيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعي وصلاح الرعية، ثم ان الزمان الذي يليه هو صلاح الراعي وفساد الرعية، إذ لا قوة بالراعي مع خذلان الرعية ومخالفتهم وزهدهم في صلاح أنفسهم، والزمان الثالث صلاح الرعية وفساد الراعي، أما شر الزمان فهو ما اجتمع فيه فساد الراعي والرعية وهذا هو زماننا.." لم أعرف ما أقول فلذت بالصمت.. لقد كان عاصم نطاسيا بارعا يشخص مريضا أمامه مدركا جيدا ما هو عليه،

فما عساي أقول؟ أكابر؟ أشاكس؟ هنيهة أطرقت وأنا أستعيد في ذهني ما رأيت وما أراه لأوشك أن أقول صحيح، كل ما تقوله صحيح، لكنني تلعثمت.. كان علي أن أبقى على الطرف الآخر دائما، أو كان رفعا مني للراية البيضاء.. استغل عاصم صمتي من جديد ليستأنف "أعرفت لم أنا خائف عليك؟ لم أخشى انزلاقك؟ المهاوي كثيرة سميرا، مواطن الزلل أكثر، الذئاب أكثر وأكثر وكلها جاهزة للنهش.. فابعدي عن هذا كله، ابعدي عن الشر وغني له.. خير لك وأكثر أمانا.." "قلت لك.. لا تخف علي.. ضع يديك ورجليك في ماء بارد.. أنا قدها وقدود.. لكن قل لي.. لماذا تكرههم كل هذه الكراهية؟ لماذا تهاجمهم بهذا العنف كله؟" وأشرت بيدي إلى الأعلى.. لوح برأسه مرتين أو ثلاثا ثم غرس عينيه في عيني "ماذا إذن؟ تريدينني أن أرى الخطأ وأسكت.. عمر بن الخطاب قال: ان رأيتم في اعوجاجا فقوموني.. والحديث النبوي يقول: الساكت عن الحق شيطان أخرس وأنا لا أسكت عن حق، بل كيف يمكنني ذلك، وأنا أرى هؤلاء الفاسدين المفسدين يخربون كل شيء، ينهبون كل شيء؟ لقد وصل الفساد إلى مخنا نحن..." وانكمشت على نفسي في الحال. ماذا؟ عاصم يشك بالتأكيد، أنا التي ظلت ثلاث سنوات حتى نالت الثانوية تنجح في الجامعة كل سنة.. الليسانس نفسها تأخذها بأربع سنوات؟ أتراه عرف شيئا عني؟ يا الهي!! هو يقول الصدق فما عساي أقول له؟ وكان ما يزال يتكلم حين جعلني الخوف أقرر إنهاء الحديث، في الحال بدأت التثاؤب.. إشارة جعلته يتوقف في الحال "حديث مضجر.. دفعك إلى التثاؤب أليس كذلك؟" "بل هو النعاس يأخذ بتلابيبي فلا تؤاخذني أرجوك" "إذن تصبحين على خير.." قال وهو يغادر غرفتي، تاركا في نفسي خوفا أشد من خوفي السابق.. كنت أعلم من قبل أنه غير راض عن السلطة لكن في ذلك الحديث فقط أدركت مقدار ما يكن من كره لأولي الأمر.. وما أولو الأمر؟ أحدهم صاحبي وولي نعمتي، لحم كتفي من خيره، فكيف ترانا نتفق؟ هو يدينهم في كل ما يفعلون ويقولون، وأنا أباركهم في كل ما يقولون ويفعلون.. طرفا نقيض.. ترى ألا يكفي أننا ولدا ضرتين تحقد واحدتهما على الأخرى حقد الموت؟ ألا يكفي ما كان يكنه لي من حقد وكراهية لينضاف إليه هذا الحقد الجديد؟ وازددت قلقا على قلق.. هو قد يغفر لي أنني ابنة ميس، قد يسامحني على ما ارتكبت من قبل، لكنه لن يسامحني أبدا ان عرف أنني صنيعة أحدهم ومحظيته.. وللتو قررت أن أتخذ أشد احتياطات الكتمان، أن أزيد هامش الحيطة والحذر إلى أقصى حد..

لاحظ صاحب الرفعة ذلك فسألني ضاحكا "ماله القنفذ يتكوم على نفسه هذه الأيام؟" "أليست هي أوامرك.. السرية والكتمان؟ ثم إني أخشى أن نكون قد تمدمدنا قليلا فلنلملم

أنفسنا قليلا."قلت وفي نيتي ان أرد الكرة إلى مرماه "مرحى يا صغيرتي أنت أروع فتاة عرفتها.." "وهل عرفت الكثيرات؟" "أوه!! عدد شعر رأسك.." "إلى هذه الدرجة؟" "وما المانع؟ طوال عمري كنت الرجل الذي ترغب فيه النساء.. لدي كل ما يحلمن به: الشباب، السلطة، المال.. فأية امرأة لا تركع عند قدمي.. تعلمين سميرة؟ مررت في مرحلة كنت فيها كل يوم أجدد نسائي.. بل كانت تقدم لي لائحة، أختار منها كل يوم واحدة أو اثنتين.." "ماذا؟ شهريار إذن؟" قلت وقد داخلني مزيج من الغيرة والإعجاب." لم لا، والنساء كلهن ملك يدي.. أشير بإصبعي فتأتي واحدتهن.." "وفي الصباح تقتلها؟".

"لا.. بل أضع في جيبها ظرف نقود.. وأتخلص منها.." "وكلهن لوليتات؟" "بالطبع أنا أحب اللوليتات فقط، وإلا لماذا جئت بك؟" "لكنك لم تتخلص مني؟" "أنت شهرزاد.. فهل استطاع شهريار التخلص من شهرزاد؟" وأفحمني، مرضيا في داخلي غرورا كنت أشعر به يتنامى كل يوم. على مائدة العشاء قلت، ونحن ندق الكأس بالكأس إذ صار الشراب إحدى متعي التي لا تنفصل عن متعة الجنس، "المدير يريد تسوية وضعي.. فهل وصلك الطلب؟" "أنت لست بحاجة إلى طلب.. أعطيني وثيقة الشهادة يأتك القرار غدا." وأعطيته إياها.. وأنا أنكب عليه ضامة لاثمة عرفانا وامتنانا!! كم أحب الأريحية يا سميراميس!! كم أحب الكرم!! ومؤنس كله أريحية وكرم.. هو لا يعرف كلمة لا ولا يستخدمها معي أبدا.. بل ربما لا يستخدمها البتة، كما قال أحد الشعراء، إلا في الشهادة.. كل يوم كان يزداد إعجابي به، بصحبه من أولي الأمر فكيف يهاجمهم عاصم؟ هنا تذكرت فأردت أن أعرف رأي مؤنس "بعض الناس ينتقدونكم" قلت مداورة مناورة.. "يقولون هناك أخطاء، فلماذا لا تحاولون إصلاح تلك الأخطاء؟" نظر إلي مليا ثم لوح برأسه "أخطاء؟ نحن لا نخطئ.. بل كل ما نفعله صحيح، كل ما نقوله صحيح.. وهل يخطئ من بلغ ذروة الكمال؟ نحن بلغنا ذروة الكمال.. وإلا كيف كان لنا أن نستمر طوال هذا الزمان!؟ الناس راكعون ساجدون لا يرفعون رأسا ولا نسمع لهم صوتا، فأي دليل أشد من ذلك على رضاهم وخضوعهم؟" صمت لحظة وكأنما يسترد أنفاسه المقطوعة ثم استأنف "أما أولئك المنتقدون فليسوا سوى قلة ضئيلة لا تساوي قلامة ظفرك!! إنها الطفولة اليسارية تدفعهم لمثل ذلك الهراء.. فقط.. قولي من هم أقنعهم لك.. أعالجهم بالطريقة المناسبة.." وشعرت بخوف مفاجئ على أخي.. ان ذكرت له اسمه ذهب مع الريح.. ألم يذهب أستاذ الجامعة الذي سعى لوصالي؟ لا.. لا.. عاصم يظل أخي ولا ينبغي أن أفرط فيه. "لا.. لا أعرف أحدا محددا.. لكن همسات تدور بين الناس: لم زيد يرث وعمرو لا يرث والحديث الشريف يقول: الناس سواسية كأسنان المشط؟ لماذا كل هذا الصلف

والغطرسة من أولي الأمر وعمر قال: وليت عليكم ولست بخيركم؟ لماذا إهمال أولي الأمر لنا والحديث النبوي يقول: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته؟.." "حسبك.. حسبك.." قاطعني بكفه على فمي أكثر من لسانه وهو ينطق "هذه كلها فلفسة.." وضحكت.. منذ زمن طويل لم أكن قد سمعت تلك الكلمة. لكنه تابع "أجل هي فلفسة.. سفسطة.. فلا تعيريها أدنى اهتمام. ثمة موتورون يتحدثون بمثل هذا الهراء: حرية، مساواة، ديموقراطية، حقوق إنسان.. هئ..هئ.. ذلك كله هراء فلا تسمعي لهم.. الناس كلهم لا يسمعونهم.. هم يعرفون أنها فلسفة لا أكثر ولا أقل، والناس يكرهون الفلسفة.. يعرفون رأي أئتمهم بها.. ألم تسمعي ما قال الشهرزوري عن الفلسفة والمنطق؟" "لا، ماذا قال؟" "لا.. لا.. أنت ما زلت صغيرة على هذا الكلام فمالك به؟" "باللّه عليك قل" ألحفت وبودي أن أعرف رأيه هو، "يا عزيزتي" استجاب أخيرا لإلحاحي. "سئل الإمام الشهرزوري: هل الشارع قد أباح الاشتغال بالفلسفة والمنطق؟ فأجاب: الفلسفة أس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة، من تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة، ومن تلبس بها تعليما وتعلما قارنه الخذلان والحرمان واستحوذ عليه الشيطان..

أما المنطق فهو مدخل الفلسفة ومدخل الشرشر.. ليس الاشتغال به مما أباحه الشارع ولا استباحه أحد من الصحابة التابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالح، فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المباشيم ويخرجهم من المدارس ويبعدهم ويعاقب على الاشتغال بفنهم ويعرض من ظهر عنه اعتقاد بعقائد الفلسفة، على السيف أو الإسلام." بهت لحظة لا أنبس بحرف أنا التي خطر لي ذات يوم أن أدرس الفلسفة، فقال "أرأيت خطر الفلسفة؟ نحن كالإمام الشهرزوري نكره الفلسفة والمتفلسفين.. هذا واقعنا.. اقبلوه كما هو.. خذوا ما نعطيكم.. ارضوا بما نمن به عليكم.. لكن تتفلسفون؟ تتمردون؟ تخرجون على الطاعة؟ إذن ليس لكم إلا السيف.." "بيدكم حق.." قلت وقد وجدتني منبهتة مذهولة بكلام كبير لم أعتد سماع مثله. "وإلا صارت فوضى!!" "عليك نور.." رد شبه هاتف.. "الفوضى!! هي ذي المشكلة.. وهي ما تتجنبه الدولة.. فالدولة الحديثة هي:حكم قوي ونظام شديد وقبضة تمسك بزمام الأمور فلا يفلت منها شيء.. تعرف ما خفي وما ظهر، وإذا ما ظهرت بوادر تمرد ضربت بقبضة من حديد، ليعود الجميع متساوين في الخضوع والطاعة لنا، أحرارا في تنفيذ أوامرنا والانتهاء عن نواهينا. "فكرة رائعة!!" هتفت وقد أدهشني كلامه الجميل الجديد "هو ذا الصحيح.. من يريد أن يبني دولة ينبغي ألا تأخذه شفقة بأحد أو رحمة.. ألم يكن هذا أحد دروسك التي حفظتها؟" "بلى.. واحفظي عني أيضا: إرضاء الناس غاية لا يمكن بلوغها.. فلا تهتمي بمن يحتج ولا تبالي بمن ينتقد..

دوسي عليهم جميعا وتابعي سيرك.. المهم أن تسير القافلة مهما نبحت الكلاب.. والمهم أيضا توفير الاستقرار: استقرار الحكم، فلا يتغير الحاكم كل بضعة أشهر أو بضع سنين.. ان تغير الحاكم يعني البلبلة، الاضطراب، ونحن نريد لبلدنا الاستمرار والاستقرار، الهدوء والسكون، ففيها وحدها هناء الناس وصلاح حالهم".. "جواهر.. كلامك جواهر يا سيدي.. " "طبعا فكل ما نسعى إليه هو خير البلد وخير البلد في السكون والثبات.. التغير شيء خطير يا عزيزتي والتغيير أخطر.. فلماذا نسعى إلى الخطر بأنفسنا؟" فجأة توقفت عن متابعته وقد تذكرت قولا"التغير سنة الكون ومن يملك لسنة الكون تبديلا؟ شتاء وصيف، ربيع وخريف، ليل ونهار، طبيعة في حال دائم من التغير.. لكن مؤنسي يتكلم عن السكون والثبات فمن تراني أصدق؟ لا.. لا.. ما يقوله مؤنس هو الصحيح.. وما يفعله وحده هو الصحيح..

تأكدت من ذلك وأنا أستلم اليوم الثاني قرارا بتسوية وضعي لأصبح موظفة من الفئة الأولى براتب يزيد كثيرا عن راتبها السابق.. صحيح أنا لا أفكر بالراتب لكنه زيادة اعتبار أمام الآخرين، تكريس لارتفاع مقام وترسيخ مكانة.. كان راتبي الآخر يغنيني عن كل راتب، هدايا مؤنسي تجعلني فوق تلك الترهات كلها.. بل ما تبقى من العملة الصعبة التي أعطانيها في بلاد الواق واق يساوي عشرات ذلك الراتب.. الرجل كريم ينفق بلا حساب.. هو بحر وأنا أغرف منه.. صار لدي حساب كبير في المصرف.. أموال وودائع، فالحلي النفيسة لا أتركها في غرفتي.. من يدري؟ قد يأتي أبي أو أخي ذات يوم فيفتش تلك الغرفة.. صحيح أن لدي خزانة ولها قفل ومفتاح، لكن من يدري؟ قد يحطم أبي القفل، أو يأتي أخي بالمفتاح.. "لا.. لا تنامي بين القبور ولا تري منامات بشعة" قلت لنفسي منذ البداية ولجأت إلى المصرف.. أضع فيه كل ما لدي من ذهب وألماس، حلي ومصوغات.. فيما راح رصيدي يكبر وينتفخ كما تكبر بطن الحامل وتنتفخ..

لا، هذا التشبيه لا أحبه.. فكيف حدث ووقعت في شركه؟ لا أدري يا جدتي الكبرى.. أنا بالحقيقة أكره انتفاخ البطن وأحذره كل الحذر.. سنون عديدة مرت وأنا أتخذ احتياطاتي فلا تنتفخ بطني ولا تمتلئ أردافي.. الطب تقدم تقنيات منع الحمل تطورت وكلها لمساعدة المرأة.. أنت لم تكوني تعرفين تلك التقنيات؟ هي جديدة اخترعها علماء العصر الحديث.. لكنك كنت تعرفين أشياء أخرى.. المرأة مذ خلقت تعرف أشياء أخرى تمنع الحمل ان أرادت، وإلا كيف تفسرين عدم حملك من منونيس؟ عدم إنجابك منه رغم غرقك في بحر الشهوات معه؟

حظ المرأة اليوم أحسن، تستطيع أن تلبي رغباتها دون أن تضطر لأداء وظيفتها الأساسية، تلك التي خلقت لها بالأصل: الإنجاب.. بات باستطاعتها أن تفصل المتعة عن التناسل، اللذة عن

الألم وقد كانا عبر التاريخ لا ينفصلان.. تحصل المرأة على لذة الجنس لتلقى مقابل ذلك ألم الولادة.. كنت قد منعت الحمل.. بأساليب ووسائل لا أريد أن أشرحها لك، فلا فائدة من ذلك يا سميتي. لكن سنين طويلة ظللت أستخدم تلك الوسائل وسنين طويلة ظللت في مأمن، إلى أن انتبهت ذات يوم: شهران مرا ولم يأتني الطمث.. تعجبت.. لم يكن قد حدث لي ذلك من قبل ولم أكن قد فكرت به، فطمثي، بالحقيقة، لم يكن يوما منتظما.. أحيانا يأتيني كل نصف شهر وأحيانا كل شهر ونصف لماذا؟ لا أدري.. سألت طبيبا نسائيا ذات يوم فراح يتفلسف:لعله إفراط هرمون.. البروجسترون هو الذي يتحكم بالدورة الشهرية.. يدفع بالبويضة من الرحم أو يثبطها، وما الدورة؟ إنها فشل البويضة في الحصول على التلقيح فتموت ويبكيها الرحم دمعا هو ذلك الدم الذي يدعى الطمث؟ استغربت حينذاك ذلك القول، لكنني سلمت بالأمر، عدم انتظام دورتي حقيقة يجب التسليم بها، لذلك ربما، لم أعد أدقق.. تأتي بعد عشرين يوما، ثلاثين، خمسين لا يهم. كنت أعلم دائما أنها ستأتي ولم أعد أفكر، ولعل ذلك هو ما جعلني أغفل عنها إلى أن مر شهران ونيف. "ما الأمر؟" تساءلت وأنا أتلمس بطني في الحمام.. أتفحصها في المرآة فأراها ما تزال ضامرة، خصري ناحلا لم يتغير فيه شيء. لكن شيئا في نفسي تغير.. لم أعد أحس بالاطمئنان.. هاجس راح يعتمل في صدري فلا يغادره البتة." ماذا لو كنت حاملا؟" "وراح السؤال ينداح حولي دوائر دوائر: تبدأ لتنتهي وتنتهي لتبدأ.. كنت في حيرة من أمري.. أصدق أم لا أصدق؟ أقول لمؤنس أم لا أقول؟ لكنني كنت بحاجة لأن أتكلم. أهي حاجة الإنسان للآخر دائما يشاركه ضراءه، ويحمل معه سره؟ ربما.. "لا أدري مؤنس.." همست له ذات ليلة وقد مارسنا الحب.. "دورتي الشهرية تأخرت.. فماذا أفعل؟" "حللي.." رد ببساطة وكأن الأمر لا يعنيه. "لكنني خائفة.. أخشى أن أعرف الحقيقة.." "الكل يخشون معرفة الحقيقة.. لكن اعرفيها مبكرة خير من أن تعرفيها متأخرة.. فالحقيقة لابد من أن تظهر.." صحيح.. هو يقول الصحيح.. في الصباح التالي أسرعت إلى المختبر أحلل.. وكلي تساؤل "لماذا لم أحلل دون أن أسأله؟" لكن دون جواب، لكأن أمري أنا يعنيه هو أكثر مما يعنيني..

النتيجة إيجابية.. جاء تقرير المختبر.. "يا الهي!! ما يعني هذا؟" تساءلت وأنا لا أصدق عيني.." يعني أنك حبلى" جاء صوت التقرير وكأن له لسانا ينطق. "اللعنة!! حبلى!! وماذا أفعل؟" "النساء يحبلن ليلدن" جاء الصوت الآخر وفيه مسحة من سخرية.. "لكنني لا أريد.. ظروفي لا تسمح أن أحبل أو ألد." "تسمح لك إذن أن تفتحي ساقيك؟ أن تسرحي وتمرحي على هواك.. لا.. الطبيعة تمهل لكنها لا تهمل.. فتحملي عواقب لهوك على هواك، عبثك بسنن الطبيعة وناموسها!!" ونكست رأسي وأنا أسير على غير هدى في شارع ضيق تكاد الأشجار من كلا جانبيه تسد

منافذه وآفاقه. كنت أحاور نفسي طوال الطريق وقد بت على يقين من أن منعطفا خطيرا يواجهني، أن علي أن أفكر مليا قبل أن أقطع ذلك المنعطف.. خطأ بسيط يجعلني أنحرف عن الطريق وأسقط في الهاوية..

طوال تلك الليلة لم يرقد لي جفن.. كانت المشكلة كبيرة: "أكون أو لا أكون." أرأيت يا سميراميس، كم هي خطيرة مشكلة الحمل؟ سلبا كانت أم إيجابا هي خطيرة بالنسبة إلى المرأة. لكن، ما كان يشغلني أمران: الأول، كيف ومتى حملت، أنا التي كنت أدرك خطر الحمل وأحتاط منه كل الحيطة؟ فكرت، حاولت أن أستعيد المرات كلها تلك التي التقيت فيها بمؤنس.. كل مرة كان هناك احتياطات، أتراني نسيت إحدى المرات؟ وتذكرت.. كان في الفترة الأخيرة قد بدأ يضعف، وكان أحيانا يكتفي بالقبل، المداعبة، الملاعبة لكن دون أن يحصل لديه انتصاب، فيتذرع بهذه الذريعة أو تلك.." أجعلني ذلك أهمل اتخاذ الحيطة؟" تساءلت "لا.. لا.. مستحيل" رددت على نفسي وأنا أتذكر جيدا كم كنت حذرة حريصة. لقد كنت أحذر وكأنني ألتقي بشاب ابن عشرين، أتخذ احتياطاتي وكأنني سأمارس الجنس خمس مرات، فأين الخطأ إذن؟ متى وقع يا ترى؟ ومن جديد أعملت ذهني.. إلى أن جاءت لمعة البرق: أجل.. تلك الليلة في بلاد الواق واق.. حين شربنا حتى الثمالة وغرقنا في بحر متلاطم من النشوة والمتعة.. كنت قد أخذت احتياطاتي أول مرة.. لكن ثاني مرة ماذا فعلت؟ وبدا الجواب واضحا.. تلك اللحظة وقعت الواقعة، حدث ما حدث وأنا غائبة عن العالم.. فماذا تفعلين يا بنة ميس؟ هي ذي المسألة الثانية التي كانت تشغلني: ماذا أفعل؟ لكن هل كان باستطاعتي الإجابة وثمة شريك لابد من أخذ رأيه.. تلك الليلة حلمت بأنني في حديقة خضراء أشجارها وارفة ومياه فسقيتها رائعة، معي ابني الصغير أهزه في أرجوحة من ريش وحرير فيناغيني وأناغيه، يضحك لي وأضحك له ثم يأتي مؤنس فيضمنا كلينا بين ذراعيه، أسرة لحمتها السعادة وسداتها الهناءة..

أفقت في الصباح وكلي غبطة.. "الحلم بشير خير.. سيبارك حبلي ويبني بي زوجا" تأتيه بالبنات والبنين!! سيجعلني هذا الحمل أدخل الجنة من بابها العريض وقد انفتح على مصراعيه.. سأصبح زوج صاحب الرفعة.. بل صاحبة الرفعة ذاتها.." ورحت إلى المكتب أكاد أرقص فرحا.. كان الحلم قد طغى على ذهني، ملك علي أفكاري كلها وكأنه صار حقيقة واقعة.. لكن ما ان اتصلت به أهمس في أذنه بالخبر السعيد حتى زجرني "وهل هذا كلام يحكى على الهاتف؟" "قلت هو خبر عاجل ستفرح به" دون أن أعير زجرته اهتماما.. "أفرح!! خبر عاجل!! لا.. لا.. نتكلم حين نلتقي.." وأغلق السماعة دون أن يتيح لي حتى توديعه.. "يا الهي!! الخبر أزعجه..

هل كان ما رأيت إذن أضغاث أحلام؟" وبدأ كل شيء يتبلبل في ذهني، أمواج من الأفكار تختلط بأمواج أخرى فيتناثر الزبد ويتطاير الرذاذ وتتشوش الرؤية..

كانت ثمة أيام ثلاثة علي ان أنتظرها قبل أن ألتقي به.. موعد اللقاء بعيد لكن لابد من انتظاره.. والانتظار صعب.. هل جربته سميراميس؟ لا بد أنك جربته، النساء كلهن يجربنه.. النساء يعشن للانتظار بل يدمّن الانتظار.. رغم لهبه الذي يحرق وجليده الذي يصقع، تتحمله المرأة. كنت أتقلب على نار الجمر خروفا يتقلب على نار الشواء.. مخالب تنهش داخلي، أنياب تمزق أحشائي ولا أستطيع البوح بكلمة تخفف ما بي، لا أستطيع مجرد التأوه فتطفئ الآهة بعض ناري.. آه يا سميراميس، ما أصعب الانتظار..

انتظار.. انتظار..

وليس لديك لتفعل شيئا سوى الانتظار

فأنت تسير بلا قدمين وتزحف دربك دون يدين

وتقرأ، تكتب طول الليالي بلا مقلتين

تقاتل لكن.. طواحين ماء

وتحصد لكن.. حقول هواء

وتذهب، تأتي، مدى خطوتين

لتلقاه يطبع كل مكان تراه بعين..

لكن ما خلته لن ينتهي أبدا انتهى وجاء موعد اللقاء.. كنا هذه المرة سنلتقي في الفيلا.. هكذا النظام، مرتين في منزلي، مرة في الفيلا.. ودائما مرة واحدة كل أسبوع يحددها حسب عمله وانشغاله.. كانت الأمور قد سارت طويلا على ذلك المنوال.. وكنت راضية قانعة.. فقط هذه المرة لم أكن راضية قانعة.. كان ثمة طارئ خطير لكن بدا بالنسبة إليه وكأنه لا بالطارئ ولا بالخطير. ثم قبل أن يقبلني قبلته المعهودة بادرني "كيف حدث وحبلت؟ ألم تكوني تأخذين مانع حمل؟ هل أنت متأكدة أنه مني؟" وذهلت.. بل سؤاله الأخير نزل كالصاعقة على أم رأسي.. "منك!؟ وهل أعرف أحدا سواك؟" "وما أدراني؟ الله أعلم" قال وهو ينفض زيق قميصه، مشيحا بوجهه عني.. "لا.. مؤنس.. أرجوك لا تقل هذا.. أنا مخلصة لك.. أخذتني بكرا وما أزال بكرا بالنسبة إلى كل الرجال.. أقسم لك.." قلت وأنا أعلم أن استعطافه هو الوسيلة

الوحيدة لنيل تعاطفه.. "حسن.. ان كان مني فمتى حدث ذلك؟" "تلك الليلة هناك في بلاد الواق واق.. أول مرة انتشيت فيها إلى حد فقدت معه زمام أمري.. أتذكر؟ حين جعلتني أشرب حتى السكر وأمج دخان تلك اللفافة ذات السحائب البيضاء.. أتذكر؟ حينذاك حدث ذلك.. لقد كنت في ما يشبه الغيبوبة ولم يكن باستطاعتي اتخاذ أي احتياطات.." "اللعنة!! هو ذا ما كان ينبغي ألا يحدث.." "لكنه حدث.. فلماذا لا ننتهزها فرصة رائعة، يأتيك فيها طفل.." "ماذا؟" قاطعني زاجرا "تبا لك!! تريدين فضيحتي؟ إسقاطي عن عرشي!؟ لا.. لا.. لن يكون هذا أبدا.. لن يكون.." وتأكدت حينذاك أني كل ما حلمت به كان باطلا.. أن الواقع أكثر مرارة بكثير من أن يأتي كما نشتهي. "ما أفعل به إذن؟" قلت مسلمة بالأمر الواقع، مشيرة إلى الجنين في بطني. "أسقطيه" قال بلهجة الأمر الجازم الذي لا يقبل اعتراضا.. "فلذة كبدي أسقطها؟ هكذا وبهذه البساطة؟ لا، لا، مستحيل" رددت وقد تملكني رعب شديد من الإسقاط، إذ كثيرا ما سمعت عن امرأة أسقطت جنينها فنزفت حتى ماتت، امرأة أخرى أجهضت فلم تستعد عافيتها بعد ذلك قط.. أنا لا أريد أن افقد عافيتي أو أموت البتة.. أريد أن أحيا.. لدي مشاريع كثيرة.. أمامي مستقبل باهر، أراه بعيني يا سميتي، فلماذا أتشوه أو أموت؟ ومستحيل أيضا ما تفكرين به "نبهني من شرودي وهو يتكلم شبه صارخ، شبه واضع سبابته على رأسي "انزعيه من رأسك هذا.. نتزوج.. قال.. نتزوج!!" "لم لا.. مؤنس؟.. أرجوك.. نتزوج زواجا عرفيا. أنا لا أريد إعلان الزواج بل ندعه سرا لا يعرف به أحد.. فتحافظ بذلك على ابنك" "لا.. لا.. أنا لا أريد أبناء.. لدي منهم ما يكفيني.." وشعرت بالصدمة من جديد. صحيح لماذا يفكر بابن جديد ولديه ستة منهم صبيان وبنات؟ ما حاجته لابن وأبوته مشبعة، لكن ماذا عن أمومتي؟ ألا يفكر بي؟ أليس من حقي أن أكون أما ترعى وليدها، تشعر بتحقيق ذاتها؟" لكن عبثا.. طوال تلك السهرة ظللنا نناقش، لم نشرب، لم نأكل، لم نله كعادتنا.. فبالنا كلينا مشغول، واللهو بحاجة إلى صفاء بال.

كنت أحاول إقناعه بالحسنى وكان يحاول إقناعي بالحسنى، لكن الخلاف كان أشد من أن يحل بالحسنى.. في النهاية لجأ إلى تهديدي "اسمعي.. معك أسبوع. فكري بالأمر.. إذا وافقت أرسلتك إلى طبيب بارع. إجهاض المرأة لديه أيسر من شربة الماء." فرددت في الحال "اسمع.. هذا فلذة كبدي.. وهو منك.. أي أنه أغلى بألف مرة.. فلا تظن أني أوافق على إسقاطه أبدا.. مستحيل.. مستحيل." "إذن، عليك السلام." قال بنبرة تهديد أشد.. أدركت منها أنها طلقة رحمة يطلقها علي. "حسن.. أفكر.. كما قلت.." تراجعت وأنا أراه ينهض قاطعا كل أمل لي بنقاش.. ثم مضيت أجر ذيول الخيبة والخسران..

خمسة أيام ظللت طريحة الفراش، لا أخرج، لا أدخل، لا آكل، لا أشرب، لا أنام.. فما تراه يصنع الهم بالإنسان؟ ربى رأتني على حالي مصفرة الوجه، محمرة العينين، سقيمة النظرة فانكبت علي أسئلة واستفسارات.. أبي، أخي بل حتى امرأة أبي جاءت تسألني، فهل أجيبها؟ أأقول لها ما بي لتجرني بيدها إلى المذبح.. آه!! المذبح!! ذلك ما كنت أخشاه.. بل كثيرا ما كنت أتصور نفسي: ذكور أسرتي بسواطيرهم وعنقي على المذبح يهوون بها عليه فينفصل الرأس عن الجسد وأقفز من مكاني كالدجاجة المذبوحة أرقص من ألمي، أرفرف بجناحي مثلها، أطير بضع خطوات ثم أسقط مضرجة بالدماء.

"هو عرض عابر من أعراض النساء.." اكتفيت بالقول.. أرادوا أن يأتوني بطبيب، احتججت بأنني رأيت طبيبا وأنه طمأنني وطلب إلي الراحة.. حينذاك فقط تركوني لكن هل كان همي يتركني؟ همي الأثقل من الجبال هل ينزاح عن صدري؟ وكيف تراه ينزاح والجنين في بطني؟ ان تركته كارثة وان أجهضته كارثة فما تراك تفعلين، سميراميس؟ لو كنت مكاني ما تراك تفعلين؟ تبقينه؟ قلت تبقينه؟.. طبعا أنت متزوجة، منونيس سيطير فرحا ان جاءه ولد منك، بل حتى لو لم تكوني.. أيامكم.. لم يكن هناك ضير للمرأة أن تحبل دون زواج.. في معبد عشتار كانت تقدم الفتاة نفسها لأول عابر سبيل وكانت تحبل، كما لم يكن هناك ذلك التشدد المريع في العلاقة بين الرجل والمرأة.. كانا يلتقيان، يمارسان الحب، بزواج، بغير زواج، لا يهم، المهم أن يكون الطرفان راضيين. لا قسر ولا إكراه.. لكن اليوم كل شيء بالقسر والإكراه، ها أنذي أقسر على علاقة مع صاحب رفعة تثمر جنينا فأقسر على إجهاض ذلك الجنين.. ان رفضت سيتخلى عني.. وان تخلى عني ماذا أفعل؟ أأستطيع أن أواجهه؟ هل أجلبه إلى القضاء، أفقأ في عينيه الحصرم وأقول له: هذا ابنك فاعترف به.. ثم يجبره القضاء على الزواج والاعتراف بابنه!؟ مسخرة!! كلام مسخرة يا جدتي!! إذ ليس باستطاعتي أن أواجهه أو أجلبه للقضاء.. بل لا يجرؤ القضاء على مخاطبته، سيمرغ القضاء بالوحل، سيشنقه حتى الموت.. لا.. لا.. سيقول القضاء لا علاقة لنا، اذهبي أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.. وربي نفسه لن يقاتل معي، بل سيقول لي: أنت داعرة فاجرة.. لا شأن لي بك ولا شأن لك بي، فأظل وحدي. أأقاتل وحدي؟ ومن أقاتل؟ صاحب الرفعة بكل ما لديه من جاه وسلطان؟.

بائسة ذهبت إلى المكتب، يائسة جلست مع رجاء. حدثت المدير، لكن وحده رجل الفلسفة أمجد سألت. الكثير من الأسئلة سألت لأكتشف أن الفلسفة مفيدة لا كما قال الإمام الشهرزوري عنها: أس البلاء وأصل الشرور. لقد جعلني حديث الفلسفة أتذكر ان مشكلتي ليست هي المشكلة الوحيدة في العالم.. بل ثمة مشكلات بقدر ما في العالم من

بشر.. ولكل مشكلة حل.. فقط على المرء أن يفكر، يستخدم المنطق ولسوف يجد الحل.. "اليأس إحدى الراحتين فايئسي".. كان ذلك هو ما أوصلني إليه المنطق.. استسلمي لأمره تستريحي.. فاستسلمت واسترحت.. في اليوم السابع التقينا" موافقة.. اتصل بالطبيب" قلت فابتهج.. ربت كتفي ثم أخذني بين ذراعيه ضاما لاثما. "هكذا أعرفك.. ذكية، فهيمة تعرف جيدا كيف تتصرف.." ولشدة سروره، أكل فأكلت، شرب فشربت ثم مارس الحب فمارست، كأنما ليس هناك مشكلة.

في الموعد المحدد ذهبت إلى الطبيب وأنا أغني

Quel sera sera
What ever will be will be

أغنية كنت قد سمعتها من محطة أجنبية أعجبني لحنها قبل أن يعجبني معناها. لكن حين عرفت أنها تعني"ليكن ما يكون.. أنا لا أبالي بشيء" شعرت بكثير من الراحة، ثم أسلمت نفسي ليد الطبيب البارع بالراحة ذاتها.. فحصني فتجهم وجهه بطريقة انتزعت مني تلك الراحة. "آسف يا سيدتي.. فات أوان الإجهاض" "ماذا؟" "أنت في أواخر شهرك الثالث وخطر كبير عليك أن تجهضي الآن" "دكتور!! ما هذا الذي تقول؟ لابد من الإجهاض" "حتى ان كان ذلك على حساب حياتك؟" "حتى لومت" قلت وكأني مسلوبة الإرادة، أتكلم بلسان صاحب الرفعة لا بلساني.. "لا.. لا أستطيع.. أنا الذي سيقوم بالعملية.. وأنا الذي سيتحمل المسؤولية." ونهضت عن طاولة الكشف وقد غشيت عيناي، أكاد لا أرى أمامي..

عند ذاك فقط شعرت بخطورة المأزق الذي كنت فيه. أحسست بكفيه تطبقان على عنقي تريدان خنقي فانتابني خوف وسكنني حزن لم أستطع معهما أن أهش أو أبش.. في المكتب، في الشارع، في المنزل، صاحية، نائمة كان السؤال دائما يطرح نفسه: ما العمل؟ كنت قد أخبرته بمجرد خروجي من عيادة الطبيب.. ما قاله الطبيب. مع ذلك حدد لي موعدا بعد يومين.. حاولت أن أراه في التو واللحظة لكنه زجرني "لست فارغا إلا لك؟.. أنا مشغول" "لكن الأمر خطير.. فيه حياتي أو موتي".. "لا تشغليني بهرائك. بعد غد أراك." وتركني لأفكاري.. بحرا تتلاطم أمواجه صاخبات مزبدات.

رأت رجاء ما بي.. قرون استشعارها ربما جعلتها تدرك ما أنا فيه من خوف وحزن. "فضفضي سميرة".. بدأت حديثها "ثمة سحابات وغيوم تملأ آفاقك.. تكلمي تتبدد.. قولي ما بك تستريحي "لكن هل أقول لها ما بي فتمسك عنقي بقبضة يدها، تعصره ان شاءت؟ وترخيه ان شاءت؟ لا.. لا.. السر ان خرج من صدر صاحبه لم يعد سرا.. وكنت قد آليت أن أحتفظ بكل

سر.. فكيف بسر أسراري؟ أنكرت أن يكون هناك شيء، قائلة "الإنسان كالقمر" بدأت أتفلسف.. هو أطوار مختلفة، هلال، نصف، بدر، محاق.. فكيف تريدينني أن أظل بدرا دائما؟" "لأنك بدر دائم" ردت مندفعة متحمسة.. أنت بدر في طور التمام.. هكذا خلقك الله مشعة متألقة، فما الذي يعكرك الآن؟ هذه الغيوم والسحابات تحجب وجهك الجميل، تذهب بضيائك، أزيحيها عنك بالله عليك.. أنا صديقتك.. شاركيني همك علني أبدد معك تلك الغيوم.." كانت رجاء ملحة وكانت الصداقة بيننا قد توطدت إلى درجة تسمح لها أن تلح.. لكنني رغت.. إصراري على الاحتفاظ بأسراري، جعلني ألجأ إلى المراوغة والكذب. "الحقيقة لا شيء، فأنا كما تعلمين مثل البرلنت، جوهر صلب لا يخترقه شيء ولا يؤثر فيه شيء.." "هذا عهدي بك، فتاة مثلك تعيش في مثل عزك وتألقك، كيف للحزن أن يأتيها؟" "بيدك حق".. قلت وقد فردت محياي، متكلفة ابتسامة أخدعها بها ثم تابعت.. "لكن الحقيقة.. بالي مشغول على صديقة لي من أيام الجامعة حدثتني عن مشكلة وقعت فيها ولا تدري كيف تخرج منها".. ثم حدثتها عن المشكلة التي تواجه صديقتي.. فانتفضت في الحال "بالعكس.. صديقتك يجب أن تفرح.. هي ذي ورقة رابحة بعثها لها الله لكي تقتص من صاحبها وتضمن مستقبلها.." "كيف؟" سألتها "ها.. أقول لك.. ألا تقول صديقتك انه مكين ووجيه، لديه أموال طائلة؟" "أجل" "إذن، عليها أن تتزوجه.. بأي شكل عليها أن تتزوجه، تصبح شريكته في ذلك الجاه والأموال الطائلة" "لكنها تقول: هو يرفض الفكرة رفضا باتا" "بالطبع سيرفض.. في البداية يقول لا.. لكن هل يستطيع ذلك إذا ما أصرت صديقتك.. رأيي أنه سيخضع في النهاية ويركع.. قولي لها هي لعبة عض أصابع من يصرخ أولا ينهزم ومن يتحمل أكثر ينتصر.. فلتتحمل.. لا تصرخ لا تضعف، ستراه آتيا إليها رافعا الراية البيضاء.." وهززت رأسي بارمة شفتي "أنت تبسطين الأمور.. وأمر صديقتي أشد تعقيدا من ذلك بكثير".. "ربما.. لكن لا تنسي أننا بالإلحاح نصل إلى غاياتنا.. فلتلح ولتصمد ولتركب العناد مطية إلى غايتها، تصل إلى تلك الغاية.."

طوال تلك الليلة ظللت أفكر.. كان كلامها مقنعا، فيه الكثير من الحقيقة: لعبة عض أصابع، إلحاح، عناد.. هذه أسلحة كلها تجدي نفعا ان استخدمها المرء في ساحة المعركة فلأستخدمها في معركتي الفاصلة، ان انتصرت فيها صعدت إلى ذروة الذرى دفعة واحدة: زوجة صاحب الرفعة!! أم ابنه!! أية ذروة تضاهي تلك الذروة؟ إذن الأمر يستحق المغامرة، فلأغامر.. والحجة في يدي لا يستطيع لها ردا.

بثوب من مسكنة وتضرع واجهته يوم اللقاء، آملة أن يجدي معه التوسل والتضرع.. "مستحيل.." بدأت.. "قال الطبيب مستحيل إجراء العملية والجنين في شهره الثالث.. في ذلك خطر

على حياتي"ولماذا تركته حتى شهره الثالث؟" "لم أنتبه.. حتى اليوم الذي أخبرتك فيه." "امرأة لا تنتبه لدورتها الشهرية؟ لا.. لا.. هذه مؤامرة.. أنت تريدين أن تفرضي علي أمرا واقعا.. مكيدة تلجأ إليها النساء دائما" "لا.. حبيبي.. لا تظلمني.. ليس هناك مؤامرة ولا أنا من النساء اللواتي يلجأن للمكائد.. أقسم لك.." "تقسمين!؟ لكأنني سأصدقك..لا.. لا.. أنا أؤمن بذلك القول القديم:لا تصدقوا النساء فإنهن يحلفن وهن كاذبات ويشهدن وهن غائبات ويتمنعن وهن راغبات".. وأحسست بقبضة شديدة تمسك بقلبي وتعصره.. أيعقل؟ رجل في مثل مكانته ومعرفته يفكر بهذه الطريقة؟ ثم، سنون مرت وأنا معه أصفى من الماء الرقراق، لم أكذب عليه، لم أخدعه، فلماذا ينقلب الآن هذا الانقلاب؟ "هه.. ما بك.. خرست؟ أم أفحمت؟ عودي إليه وأجري العملية" قال بنبرته الجازمة لأشعر بكل ما في داخلي يتحفز. "لكنه رفض.. لا يتحمل مسؤولية موتي" "وفرحت أنت بذلك؟ قلت فرصة ذهبية أقتنصها؟" "بل احتججت، قلت له اعملها ولو مت" "كلام.. أنت تريدين الزواج بي؟ خططت لذلك.. لكن.. لا.. لا.. نجم سها أقرب إليك.. أتسمعين؟" "لماذا مؤنس وأنا السميعة المطيعة لك؟ العجينة بين يديك؟" "نعم.. نعم.. الآن.. تمسكني حتى تتمكني.. ثم تأتي لسعات العقرب".. "عقرب!؟ أنا أكون عقربا؟ لا.. لا.. مؤنسي.. حبيبي" "اسمعي.. هذا الكلام لا ينفعك.. أتزوجك؟ لا تحلمي بذلك أبدا ولا في أي حال من الأحوال.. أصفيك أنت وابنك معقول.. لكن أتزوجك لا وألف لا".. قال وشرر النار يقدح من عينيه.. فارتجفت، بل لم أشعر إلا ودموعي تنهمر وصوتي ينشج باكيا "لن تحتاج لتصفيتي.. هم سيفعلون ذلك.. فهل تدعهم يذبحونني؟" قلت من بين نشجات بكائي.. "من يذبحك؟" "أهلي.. أنت لا تعرفهم. لدي أخوة يأكلون رأس الحية.. ان عرفوا بي قتلوني.. صدقني.. أرجوك أتوسل إليك.." وكأنما استثرت شفقته، رأيته يطرق أرضا.. لحظات ثم اقترح "حسن.. هناك حل" "ما هو؟ قل لي.. أرجوك.." قفزت إليه وكلي أعين ترصد خروج ذلك الحل.. "تتزوجين" "من؟" "أي رجل يكون ستارة تغطي حملك" وانقبض كل ما في داخلي. "أي رجل؟" رددت وأنا أحاول فهم تلك العبارة التي استعصت على فهمي!! "ماذا تعني بأي رجل؟" "رجل بسيط فقير يرضى أن يكون زوجا صوريا لك.. أليس في مكان عملك أحد يصلح لهذا الدور؟" وغرقت في بحران التفكير.. فكرة مرعبة.. زوج.. صوري.. دور.. كلمات لم تكن قد دخلت قاموسي قط.. فلم أجد نفسي إلا وأنا أرد شبه صائحة "مستحيل.. أتزوج سواك مستحيل.. أدع رجلا غيرك يلمسني.. مستحيل" لكنه لم يناقشني، كانت الفكرة قد جعلته يستريح كما استراح ديوجينوس حين "وجدها." نهض ثم جلس إلى جانبي، مائلا علي بدفقة مفاجئة من حنان "هو ذا الحل.. قد وجدته.. فاضحكي في عبك" همس في أذني "أضحك في عبي؟" رددت كالببغاء وأنا

لا أفهم كيف يفكر.. لقد ضرب بهذا الحل، كل ما تصورته أنا ورجاء.. حسم المعركة.. وخرج منها منتصرا ، بلا ضربة سيف ولا طعنة رمح، فلماذا لا يستريح؟ ولماذا لا يفرح؟ "أجل.. بهذه الطريقة تحافظين على جنينك، تجدين الغطاء الشرعي لحملك وتحتفظين بي إلى جانبك.. ثلاثة عصافير بحجر واحد.. ألا يستحق أن تفرحي بها؟" "أحتفظ بك إلى جانبي؟ كيف إذا كان لي زوج" قلت وأنا لا أكاد أستوعب الفكرة.. زوج وعشيق معا؟! صورة لم تركب جيدا في ذهني.. "ألم أقل لك زوج صوري لا علاقة له بك البتة.. فقط يكون ستارة.. ويظل كل شيء كما هو.. زوج في الظاهر وعشيق في الباطن.. هه.. فكرة عبقرية، أليس كذلك؟" وبدت لي فعلا فكرة عبقرية لم تخطر ببالي قط.. هنيهات غرقت في التفكير، أقلب الفكرة العبقرية بطنا لظهر وظهرا لبطن، وهو يتأملني.. يذرع الغرفة جيئة وذهابا بكثير من التأني، بكثير من الحلم، وقد اطمأن أن المعركة حسمت. "هه.. أليس لديك في المصلحة.. موظف بسيط فقير بائس؟" قال وهو يعاود الجلوس بجانبي وللتو انتصب أمامي درويش، موظف الاستعلامات، "أجل.. درويش.." شارحة له وضعه وظروفه.. "حسن.. هو ذا الرجل المناسب في المكان المناسب.." "لكنه قميء بائس، بل أقمأ وأبأس من أن أتزوجه." "إذن، هو الأنسب بل بقدر ما يكون أقمأ يكون أنسب." وضحك.. لأول مرة في ذلك اللقاء أسمع ضحكته، "لـ.. لكن.." بدأت متلعثمة وأنا أطرد صورة فظيعة داهمتني أنا وإياه في فراش واحد.. "لا لكن ولا ساكن" رد على عجل "قلت هذا هو الرجل المناسب.. استعدي للزواج ودعي البقية علي".. ثم هب ملء طوله هاما بالخروج.. أسرعت أعترض طريقه حائلة بجسدي بينه وبين الباب.. كانت ثمة أسئلة كثيرة تشغل بالي وكان عليه هو أن يقدم أجوبتها. الأمر مصيري فكيف تراني أكتفي بقوله "دعي البقية علي؟" البقية تفاصيل كثيرة لابد لي من أن أفهمها، أعرف كل صغيرة وكبيرة عنها.. وهكذا انهمرت عليه بالأسئلة رشا ليجيبني على طريقة جميل: لكل سؤال يا بثين جواب.. ثم يغادرني وقد أفرغت من كل شحنة.

في الصباح التالي، جاء أحدهم بنظارة سوداء ومسدس. أخذ درويش المسكين من الباب، حيث استعلاماته ومملكته.. دون أن يسأل حتى مديره. هم يمونون.. دائما يتصرفون هكذا من باب "المونة" فيأخذون من يشاؤون ويتركون من يشاؤون.. لكن ليعيده بعد ساعة، ساعة فقط كانت كافية لأن يلقنه التعليمات التي كان عليه أن ينفذها بالحرف وبالسر.. هو قال لي ذلك.. إذ ما ان زرعته السيارة ذات الزجاج المعتم عند الباب حتى أسرع إلي "آنسة سميرة، أنا طالب القرب، فهل تقبلينني زوجا؟" مزيج من الاحتقار والاشمئزاز ملك علي نفسي. أية قذارة أغوص فيها؟ أية موحلة أخوض؟ لكن لم يكن بوسعي إلا أن أنكس رأسي. "أقبل" قلت وأنا

أعلم أن علي أن أنفذ التعليمات، كما كان عليه أن ينفذها.. دوران مرسومان علينا أن نلعبهما، والخيوط هناك في يد اللاعب الأكبر الذي يختفي وراء الستارة محركا دماه كما يشاء.. "إذن، اذهب إلى أهلك هذا المساء." "لا.. انتظرني حتى الغد.. أو بعد الغد.." وانتظر.. بعد ساعة فقط جاء هاتف إلى المدير انتقل إثره درويش من مكتب الاستعلامات إلى مكان في الداخل، فصاحب الرفعة حريص على المظاهر، بارع في ذر الرماد في العيون.. ليس من أجلي ولا من أجل زملائي الموظفين بل من أجل أهلي.. كان أهلي هم المعضلة".. إذ كيف سيوافقون على زيجة كهذه وأنا ابنة العائلة.. ذات الحسب والنسب.. خريجة الجامعة؟ الشروط غير متكافئة فكيف يقبلون بدرويش زوجا؟ لكن كان عليهم أن يقبلوا.. وكان علي أن أمهد للأمر، ممارسة لعبتي القديمة: الكذب.. كل شيء جاهز.. درويش موظف معي في الدائرة، من عائلة محترمة لكنها بعيدة في أقصى الشمال، أبوه وأمه متوفيان، يحمل مثلي شهادة جامعية.. أحببته، إذ كنا ندرس في الجامعة معا وكان يساعدني فدخل قلبي وها هو ذا يطلب يدي..

قصة حسنة الحبك، مسرحية جيدة الإخراج، فكيف لا يقبل بها أبي؟ لا نريد عرسا، لا نريد طنة ولا رنة.. كلانا يكره تلك التقاليد وكلانا متفقان أن نمضي إلى بيتنا دون أي احتفال أو شكليات.. ساعة وبضع الساعة تحدثت مع أبي، شارحة له كل شيء، فيما امرأة أبي تسمع، والفرحة في عينيها.. "أخيرا سأتخلص منك" خيل إلي أن عينيها تقولان، ثم ما ان انتهيت حتى بادرت شبه مهللة، "ألف مبروك سميرا!! ألف ألف مبروك.. هذا يوم السعد.. يوم المنى والهنا" قالت وهي تقبلني لأول مرة فيما أبي يفتح عينيه على سعتهما "لكن.." "لا تقل لكن يا حاج!!؟ قاطعته على عجل "ابنتك ليست صغيرة.. هي متعلمة.. تعرف مصلحتها.. وان لم تتزوج الآن فاتها قطار الزواج." ثم التفتت إلي "نحن موافقون سميرا.. قولي له.. يأتي غدا.." كانت الضرة فيها ما تزال حية لم يعتورها هرم أو شيخوخة.. رغم غياب أمي، رغم انقضاء السنين، كانت الضرة الحاقدة الكارهة ما تزال تعيش لتنفث بقية سمومها في الابنة. "ترى لو كانت أمي هنا أتقبل بمثل هذا الزوج؟" لكن أمي لم تكن هنا.. كانت قد غابت دون أن يخطر ببالها أن تبعث لي خبرا.. أن تتصل بهاتف.. أن ترسل رسالة.. أهو انعدام أمومة؟ لكنها كانت أما رؤوما.. أذكر حضنها الدافئ كلما لذت به.. أذكر سهرها الليالي علي ان مرضت، أذكر دموعها كلما رأت حيفا نزل بي، فكيف تكون عديمة الأمومة؟ إذن، هو الضياع.. أتراها ضاعت أمي؟ أتراها ماتت؟ ووجدتني فجأة أضع وجهي بين كفي وأبكي.. ترى أمررت بمثل هذه اللحظات، سميراميس؟ أفتقدت أمك هناك في بابل وأنت في نينوى؟ أتذكرتها بمثل تلك الحرقة واللوعة؟ لا.. لا.. ما أحسب ذلك.. لقد كانت هناك في بابل وكان باستطاعتك أن تريها

متى تشائين، تأتي بها إليك متى تشائين.. لم تكن قد ضاعت ولا اختفت.. بل لعلك وأنت في طريقك إلى ساحل فينيق قد مررت بها ، ولعلك حين عدت من بلاد كنعان مررت بها ، لكن أنا.. كيف أمر؟ أين أجدها هي التي غدت فص ملح وذاب؟.

حزينة باكية أمضيت تلك الليلة ، فقد بدا واضحا أن امرأة أبي ما تزال تواقة للتخلص مني، أبي غير مبال بي.. أخوتي لا يولونني أي اهتمام ولا يقحمون أنفسهم في أموري..وحده أخي عاصم أقحم نفسه.. انه استثناء القاعدة دائما.. جاء في آخر لحظة وقد جاء درويش في الموعد الذي حدده أبي. كان يلبس بذلة جديدة ، أتراه مؤنس اشتراها له؟ أنا لا أدري، لكنني طوال سنوات وظيفتي لم أر درويشا يلبس بذلة جديدة.. بل هو لا يعرف غير ملابس البالة.. يأتي منها بالرخيص بخس الثمن ويحمد ربه ، هو الذي لا يكفيه راتبه إلا قوت اللايموت.. شرع أبي يسأله.. تلك الأسئلة المعتادة التي يوجهها الأهل للخاطب، وأجاب درويش، دون تردد ، دون تلعثم، راح يردد الأكاذيب التي لقنوه إياها.. ينفذ التعليمات التي تلقيناها معا ، وبدا أبي مقتنعا ، فيما بدت امرأة أبي سعيدة تكاد تطير فرحا.. حين وصل أخي، كانت الموافقة قد تمت.. وكانت امرأة أبي قد زغردت زغرودة الفرح ليس من أجلي، بل من أجل خلاصها مني.. للتو بدا على وجه عاصم الامتعاض، لكن كان الأوان قد فات. لقد ألبسني درويش الخاتم كما ألبسته أنا الخاتم وتم بحث التفاصيل كما حدد يوم الزفاف دون زفاف ودون طبل أو زمر.. مصدر آخر للفرح كان بالنسبة إلى امرأة أبي، فها أنذي أخرج من منزلها إلى غير رجعة وكأنني أرملة تزف إلى أرمل.

لحق بي عاصم إلى غرفتي "ما هذا الذي تفعلين؟" "ما الذي أفعل؟" رددت متجاهلة في البدء، ثم مستأنفة بعتب "أتزوج.. أليس من حقي أن أتزوج" "لكن هذا الجربوع!! أنت بجمالك، بعلمك، بحسبك بنسبك تتزوجين هذا الدميم القبيح!؟" "حقا!؟ هو كذلك؟" قلت بشيء من خبث "عجبا.. ألا ترينه؟" "لا.. صدقني.. أراه أجمل الرجال.." "تعني أنك تحبينه؟" "كيف إذن أراه أجمل الرجال؟ ألا يقولون الحب أعمى؟ ها هو ذا الأمر ينطبق علي.. فلا تؤاخذني أخي أرجوك.." تفرس في وجهي هنيهة من الزمن، ذاهبا آتيا في الغرفة ثم بدأ يلوح برأسه "لا.. لا.. مسألة تثير الشك.. بل تصرفاتك كلها تثير الشك.." "لا..لا" قاطعته بنبرة من الدعابة خالطة بين الهزل والجد "جنبك الله الشك وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين الرقة نسبا وبين الصدق سببا ، وحبّب إليك التثبت وزين في عينك الإنصاف وأذاقك حلاوة التقوى وأشعر قلبك عز الحق وأودع صدرك برد اليقين وطرد عنك ذل اليأس وعرّفك ما في الباطل من مذلة وما في الجهل من القلة." "اللّه!! اللّه!!" قال وهو فاغر فاه.. "من أين لك هذا؟" "من الجاحظ، قرأته ذات مرة

فأعجبني.. هل أعجبك؟" "كثيرا.. لكن هذا لا يعفيك من أن تدفعي تلك الشكوك التي تعتمل في نفسي.." عاصم.. أنا فرحة الليلة فلا تعكر علي فرحي.. تعبة فلا تتعبني أكثر.. أرجوك، أنا بأمس الحاجة لأن أختلي بنفسي وأستريح.." هنيهة تفحصني عاصم من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى ثم مضى دون أن ينبس بحرف فقفزت أغلق الباب وأرقص.. لقد انتصرت.. بالضربة القاضية انتصرت.. لم الأخذ والرد!؟ الجدل والنقاش، وأنت تعلم أنك على خطأ قد ينكشف في أية لحظة؟ إذن خير ما تفعل: ضربة قاضية وكفى الله المؤمنين شر القتال.

بعدئذ خلت الساحة فلا معارض ولا مبارز.. الطريق ممهد، الأمور مرتبة وهكذا لم يأت يوم الخميس إلا والقاضي الشرعي يسجلنا زوجا وزوجة ثم نمضي بسيارة فاخرة من سيارات صاحب الرفعة إلى البيت الجديد، بلا زغاريد، بلا هناهين.. ولأول مرة ربما، تكون ليلة الدخلة بلا دخلة والعرس بلا عرس، السيارة التي أوصلتني إلى البيت عادت وأوصلته إلى غرفته في حي صغير يقع في أطراف المدينة. "أنا أنفذ التعليمات آنسة،" قال شبه معتذر فربت كتفه "أحسنت.. عليك أن تنفذها بدقة أو.." وأشرت بيدي إشارة تدل على قطع الرؤوس فارتعش "أعلم.. أعلم.." "وبماذا أوصيك؟" "لقد أوصوني.." قال وهو يشير إلى الوراء والأعلى "مع ذلك أؤكد الآن: عليك بالسرية والكتمان، فلا تعلم يدك اليسرى بما فعلته اليمنى ولا أذنك اليمنى ما سمعته اليسرى." "تأمرين." رد وفي عينيه توجس وخوف " كوني مطمئنة.. سرك في بئر عميق" "حسن.. ولا تنس نحن في شهر عسل.. غب شهرا عن العمل.." "أعلم.." قال بفرح "لن تراني عين طوال شهر.. سأمضي إلى أهلي في الشمال" "حسنا تفعل.. وحين تعود تأتي إلي قبل أن تذهب إلى المكتب".. ضرب قدمه بالأرض ورفع يده إلى رأسه جنديا يأخذ تحية لجنرال.. أخرجت من حقيبتي رزمة نقود وضعتها في يده "هيا.. اشتر لنفسك شيئا.. استمتع بوقتك لكن لا ترني وجهك.." ورأيت في عينيه بريق فرح وهو ينحني المرة تلو المرة حتى أوشك رأسه أن يلامس الأرض..

أرأيت يا سميتي شهر عسل لا ترى فيه العروس عريسها طواله؟ عجائب غرائب أليس كذلك؟ عصرنا هذا ليس كعصركم، سميراميس، انه عصر العجائب الغرائب.. أأحدثك عنها؟ الواق الواق تذهبين إليها وأنت في منزلك، الجن تحدثينهم ويحدثونك دون أن تريهم أو يروك.. الغيلان يأتون إلى خدمتك، بل حتى عفريت القمقم يحني رأسه لك، طائر الرخ يحملك على جناحيه.. لكن أنت أيضا عرفت العجائب الغرائب.. رحلتك إلى ساحل فينيق أرتك الغرائب العجائب.. ألم تري ذلك البحر الواسع بكل ما يشكل من مخاطر وتهديدات؟ صور، تلك الجزيرة النائية بحصونها القوية وقلاعها العالية ألم تفتنك؟ زجاجها الملون ألم يأخذ بلبك؟

صناعتها، سفنها، حللها الملكية، كلها ألم تبهرك؟ وكنت ستتابعين الرحلة بعيدا بعيدا في مملكة آشور، لكن ملك آشور نينوس العظيم أرسل في طلب قائده.. زوجك وعاشقك منونيس. بلاد فارس أعلنت عليه العصيان، وعلى القائد المقدام أن ينهي ذلك العصيان. قائدي المقدام مؤنس أنهى عصياني أنا التي أردت أن أستغل جنيني فأفرض عليه الأمر الواقع.. لكن زوبعة في فنجان كان عصياني، اذ لم أخض أول معركة حتى استسلمت. كيف لا وهي معركة غير متكافئة؟ هو يملك صنوف الأسلحة كافة وأنا عزلاء لا أملك أي سلاح، ما تراني أفعل غير أن أستسلم؟ لكن، للحق والتاريخ، كان مؤنسي شهما كريما، هو لم يستغل هزيمتي ولم ينتقم لعصياني، بل عاملني بنبل النبيل وفروسية الفارس، أجل أنا أعترف أنه كان أكثر من نبيل وفارس. لقد جاءني بهدية عرس.. طقم ألماس لا أدري كم يساوي: خاتم وعقد وأقراط كلها من ألماس.. يا الهي!! ما كان أجمله يا سميتي!! ما أروع لألاءه وهو يرسل أشعته هنا وهناك، في الظلمة، في النور، هو يشع فيبهر الناظرين.. بهرني مؤنسي بهديته بقدر ما فاجأني. لقد كنت أخشى في سريرتي أن يتغير ما ان يتم الزواج، لكن كيف يتغير والزواج، كما قال، صوري، الزوج فيه عبد مطيع، يؤمر فيأتمر، ينهى فينتهي!! لقد مضى شهر العسل دون أن يظهر من جديد ودون حتى أن يتكلم في الهاتف.. فيما أقمت في المنزل، لا أخرج، لا أدخل لا أرد على جرس، لا أرد على هاتف، فالمفترض لدى أهلي وزملاء مكتبي أنني ودرويش نقضي شهر العسل في مكان ما هناك في مدينة البحر.. اكذب.. اخدع.. ضلل.. موّه.. أليس هذا شعار العصر؟ شعار الكثير من الحكام!؟ الكثير من الدول؟ إذن لماذا لا نكون على دينهم، والناس دائما على دين ملوكهم؟ كان السائق يأتي إلي بكل ما أحتاج، برادي مليء حتى الحافتين: أطايب الطعام. مشربي مليء حتى الحافتين:أصناف شتى من مشروبات أعرفها ومشروبات لا أعرفها، وثمة تلفاز، فيديو.. أجل.. يا سميراميس.. جهاز فاجأني أنا نفسي.. الفيديو جديد.. العقل البشري العجيب اخترعه قبل أشهر أو ربما سنوات.. تضعين فيه شريطا فيريك فتيات يرقصن، بحيرات، أنهارا، غابات.. يريك كل ما تشتهي نفسك.. "هذا سيسليك" قال مؤنس وهو يعلمني طريقة استخدامه.. كنت سأعتزل في البيت، والاعتزال موحش ان لم يكن هناك ما يؤنس.. مؤنس يفكر دائما بما يؤنس خشية أن أشعر بالوحدة والوحشة.. وبسبب هذه الخشية كثف من حضوره هو.. لم نعد نلتقي مرة واحدة في الأسبوع والشكر لتقدم الطب وفحولة ما اخترع الطب، بل بتنا نلتقي مرتين وأحيانا ثلاثا.. صار الليل كله له.. أنا الوحيدة في البيت، الخالصة المخلصة له، إذن لم لا يمر بعد أن تنام العين ويغفل الساهر؟

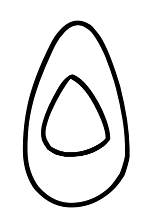
المفتاح في جيبه، متى وجد فراغا انسل إلي فاتحا الباب على مهل، ثم منقضا علي لثما وتقبيلا ان كنت مستيقظة أو منسلا إلى فراشي الدافئ ان كنت نائمة ليذيبني دفئا ويصهرني حبا..

ذلك كان شهر عسلنا الحقيقي، وتلك كانت أحلى أيامنا معا، لكن دوام الحال من المحال يا ملكة الشرق والسحر. اذ ما ان انتهى شهر العسل حتى صار علينا أن نعود إلى الدوام، أنا ودرويش.. صحيح، لم أكن ملزمة تماما بذلك الدوام، لكن الصحيح أيضا أن واجبات جديدة والتزامات جديدة بدأت.. الزملاء هنؤونا، جاؤوا لنا بالهدايا، بل طلبوا إلينا أن نقيم لهم حفلا وكانوا على حق.. بالحقيقة المدير هو الذي طلب ولم أدر ان كان ذلك عن خبث ولغاية في نفس يعقوب أم عن براءة وعفو خاطر؟ قلت لمؤنس فرحب بالفكرة ."يجب أن يبدو كل شيء طبيعيا، أنتما زوجان متحابان، بيتكما عش سعيد للزوجية." أفهمت درويش ذلك، مزودة إياه بكل ما يلزم من تعليمات، ثم أوصينا أحد المطاعم الراقية على كم هائل من الطعام والشراب يكفي ثلاثين فيما لم يكن ضيوفنا سوى اثني عشر.. الإبهار!! أجل، هذا ما أؤمن به يا سميتي، ابهري الآخرين تخرسي ألسنتهم.. جودي عليهم بسخاء تغطي كل الثغرات والعيوب فلا يراها أحد.. وكانت سهرة ممتعة.. لعب فيها درويش دوره على خير ما يرام.. زوجا محبا عطوفا، بل لم يفوت الفرصة فاحتضنني أكثر من مرة وقبلني على خدي أكثر من مرة!! آه يا سميتي!! كم كنت أشعر بالقرف من حضنه ومن قبله!! كم كنت أشعر بالغثيان!! بل ذات مرة شعرت بمعدتي تكاد تخرج من جوفي.. خشيت أن أتقيأ فأسرعت إلى الحمام أخفي قرفي وغثياني لكن دون أن يشعر أحد.. ألم أقل لك: المهم الإخفاء والتمويه، المهم الخداع والتضليل؟.

سارت اللعبة كما كان مخططا لها. لكن، ثمة شمس تشرق وتأفل حاملة معها متغيرات ومفاجآت.. خافيات وباطنات.. هذه المرة كانت الخافية مرضا أصيب به مؤنس. أتراه أنهك نفسه في الفترة الأخيرة؟ أتراني أنا كنت السبب؟ لا أدري، ما أدريه أن علة صحية خطرة ألمت به فنقل إلى بلاد الإفرنج للعلاج، صحته غالية وسلامته لا تقدر بثمن.. شهرا ونصف الشهر ظل مؤنس يعالج وظللت أنا وحيدة.. يتصل بي كلما سنحت له الفرصة.. السائق نفسه لا يفارقني، حاجاتي كلها تقضى.. فقط.. كان ثمة غيابه الطويل والشوق الممض ذات ليلة اتصل بي يبشرني بأنه على وشك العودة.. كدت أطلق زغرودة لكنه قاطعني سائلا "كيف أنت.. أحوالك.. لياليك؟" فبكيت ومن بين شهقات بكائي أجبت:

قال لي كيف أنت؟ قلت عليل ... سهر دائم وحزن طويل

"الحال واحد، لكن لا تحزني.. أنت في ميعة صباك والمستقبل أمامك.. ليس مثلنا.. بلغنا الشيخوخة ومستقبلنا صار وراءنا" وصدمتني نبرة اليأس والعجز في صوته، "لا.. لا تقل هذا" قلت وأنا أعلم أنني أكابر.. "أنت شيخ الشباب" "ها..ها أنت تقولينها.. شيخ الشباب.. لكن لا بأس.. انتبهي لنفسك.. واسمعي مني.. دعي درويش ينم في البيت.." وفوجئت. "اتفاقنا غير هذا؟" "لا بأس سميرة.. أنت حامل ولا أحد يعلم ما ينتظر الحامل.. اعتبريه خادما، مرافقا، يؤمن لك حاجاتك، ويظل بين يديك." وبدا لي أنه على حق.. كان غيابه طوال تلك الفترة علاوة على انتفاخ بطني وازدياد وزني، كل ذلك جعلني أشعر بالخوف أحيانا: أسقط في لحظة من اللحظات، أحتاج لغرض من الأغراض، يصيبني طارئ، فقلت "كما تريد.. سأتدبر الأمر" "أجل تدبري الأمر.. ولن أدعك تحتاجين شيئا.. لن أدع شيئا يتغير.. فقط.. دعيه يقم في البيت.. ليس من أجلك بل من أجل عيون أهلك.. عيون الناس.." وأحسست أن في نيته أمرا لا يريد الإفصاح عنه.. "ماذا هناك مؤنس؟" سألت بشيء من الفزع "قل لي ألن تعود؟" "بلى.. أنا عائد.." "إذن سأراك حين تعود.. وسنتحدث" "ربما لا أستطيع قبل حين من الزمن.. هذا المرض أعياني.. والأطباء ينصحونني بالراحة.. بل ربما سأحتاج للراحة فترة طويلة من الزمن.. "لا.. لا تخف.. لن أتعبك.. سأوفر لك عندي كل الراحة" "وهل بات باستطاعتك غير ذلك؟" قال مازحا "أم نسيت أنك حامل.. بطنك شبران أمامك؟" وشعرت ببطني ينخمص كأنما يحاول رد التهمة.. "تقصد لم أعد رشيقة هيفاء؟" "هذه حقيقة سميرة، حقيقة ينبغي الاعتراف بها.. الظروف تغيرت، أنا مرضت، أنت كبرت، لم تعودي تلك اللوليتا التي عشقت، صرت امرأة ككل النساء.." وأحسست بشيء كالخنجر ينغرز في صدري.. أحسست، وأنا أطبق الهاتف، كأن حكما صدر علي بالإعدام..



(ما إن سمع نينوس، ملك آشور" تتابع أسطورتك، "الحديث عن المرأة التي قادت الجند واقتحمت الحصن فسقطت بذلك بكتريا التي استعصت عليه طويلاً، حتى اشتعل حماسة لرؤية تلك المرأة، ثم اشتعل حماسة أكثر حين ختم قائد الجيش كلامه بأنها كانت تبدو على صهوة جوادها الأبيض، في ضوء الفجر كأنها إلهة فصاح آمراً: "سأراها الآن... اذهب أيها القائد وائت بها". وقام الملك نينوس يذرع أرض الخيمة نافد الصبر وعيناه ترقبان باب الخيمة في لهفة وشوق، بينما بقي الأمراء والقادة يتطلعون ويتهامسون، وكان بينهم منونيس نفسه قائد حامية نينوى، وقد وقف وحده بباب الخيمة يبدو عليه القلق الشديد. أقبل قائد الجيش بعد قليل وأنبأ الملك بقدوم الفارسة المنتظرة، فدخلت غادة بزي الفرسان ثم تقدمت نحو الملك بشجاعة يشوبها الحياء... وركعت أمامه ثم رفعت رأسها الجميل وقد أحاطت به غدائر شعرها الفاحم، وما كاد منونيس يرى وجهها حتى هتف، وقد تولته الدهشة: "سميراميس".

"أتعرفها أيها القائد منونيس؟" سأل الملك بدهشة شديدة "هي زوجتي يا ملكي المعظم". "زوجة وفارسة!؟" هتف الملك من جديد وهو يقترب من سميراميس، رافعاً إياها من ركوعها لتقف أمامه بقامتها الرشيقة الهيفاء ووجهها الذي فاق بجماله كل جمال فأخذت في الحال بمجامع قلبه ليقول وهو شبه مسحور" أيتها الخارقة الجمال، ما أعظم إكبارنا وما أشد امتناننا لك... إن ما فعلته اليوم لعظيم فانتظري منا المكافأة التي تليق بعملك العظيم يا.. سميراميس".

في تلك الليلة جلس نينوس ملك آشور وبابل يسمر مع أصحابه بعد أن تم له النصر على جيوش الفرس وكان قد دعا إليه منونيس وأجلسه إلى جواره وأمره بالشراب.. بعد لحظات قال منونيس بنبرة الاعتذار: أرجو ألا تكون حانقاً علي يا مولاي، لتأخري في الانضمام إلى الجيش، لكن صدقني ما إن وصلتني أوامركم وأنا في سواحل كنعان حتى أسرعت إلى الجيش الذاهب لإخضاع الفرس وفتح بكتريا، ولقد ألحت سميراميس زوجتي، أن اصطحبها لتشهد المعارك"... "لا عليك يا منونيس" قاطع الملك قائده" لا عليك.. فنحن مدينون لهذه البطلة بالنصر الأخير" ورفع الملك كأسه فشرب الجميع نخب سميراميس ثم قال يسأل صاحبه "لكن أخبرني.. من أي البلاد هي وابنة من تكون.. أخبرني كل شيء عنها" وهكذا بفرح بالغ وزهو شديد، حدث منونيس ملكه، نينوس، عن سميراميس، راوياً له كل شيء عنها مذ كانت ترعى الإبل والشياه في بادية الشام إلى أن التقى بها وهي تدافع عن ملكها، ملك بابل، وتضمد جراحه ثم كيف تزوجها ورافقها إلى أن أنقذته من الخونة المتآمرين في قصر الحاكم في أوغاريت، غير أن الملك أعجب بإنقاذها لنينونيس من براثن السبع فهتف يتأكد من جديد

"عظيمة هذه المرآة، مقاتلة وفارسة.. شجاعة.. بطعنة رمح واحدة قتلت سبعاً؟ "وأية طعنة يا مولاي؟ لقد قذفته من بعد سبعة أذرع فصرعته أرضاً مضرجاً بدمائه.. ولولاها لكان قد مزقني ذلك السبع إرباً إرباً يا مولاي" "امرأة تستحق أن نشرب نخبها" ورفع الملك كأسه من جديد ثم أوغل الليل والملك مازال يشرب ويتحدث مع تابعه منونيس والحديث كله يدور حول سميراميس. أخيراً شرب الملك كأسه دفعة واحدة ثم التفت فجأة إلى منونيس قائلاً "إنني أريد هذه المرأة لنفسي" بدا الذعر في عيني منونيس فابتسم الملك ثم قال له" اطمئن.. فإنني أريدها زوجة لي، لأن هذا الجبين جدير بتاج ملكة". "لكنها زوجتي يا مولاي" قال منونيس وصوته يرتعش خوفاً" سأعوضك عنها بما تشاء" رد الملاك بنبرة هادئة مطمئنة". إنني لا أعدل بها يا مولاي كنوز الأرض كلها" قال منونيس وهو لا يستطيع تصور الخسارة التي ستحيق به إن خسر سميراميس فرد الملك "لكنني سأعطيك كنزاً لا تقاس به كنوز الأرض جميعاً.. سأعطيك ابنتي" "مولاي"... حاول منونيس الاعتراض لكن الملك تابع بنبرة الملك الحازمة الجازمة التي لا مجال معها لاحتجاج أو اعتراض.. "أجل .. سأزوجك ابنتي.. أما سميراميس فستكون زوجة لي...).

تلك كانت مشيئته، وهل باستطاعة أحد أن يرد مشيئته؟

لا يا سميتي أسطورتك تقول لم تغب شمس اليوم التالي إلا وقد صرت زوجة نينوس، ملك بابل وآشور، سورية ومصر، فارس وخراسان..

لقد انتقلت ملكيتك من زوجك وعاشقك منونيس إلى الملك نينوس.. صرت في حيازة الملك بعد أن كنت في حيازة القائد فكم ارتقيت مكانة ومرتبة!!

الأمر عينه حدث لي يا سميراميس.. ألم أقل لك إن أسماءنا متشابهة، أحوالنا متشابهة، مصائرنا متشابهة؟ والمرأة، أيامنا، كما هي أيامك، ما تزال تعد ملكية للرجل.. تدخل في حيازة هذا لتنتقل إلى حيازة ذاك.. وقد حدث لي انتقال الحيازة هذا... كيف؟ سأعترف لك يا جدتي.. بكل صدق وأمانة سأحدثك..

لقد رأيته بعيني وهو يميل عليه يهمس في أذنه ناظراً بطرف عينه إلي.. "أريدها لي فدعها" ليرد عليه مؤنس .."وهي لك.. هدية غالية.. حلال.. زلال".. ثم لم أسمع ما قالا هما الاثنان بعد ذاك، لكنني رأيت آثار الكلام ترتسم بشاشة وهشاشة على وجه صديقه، صاحب النبالة يونس، ليعاود الجلوس في كرسيه، ناظراً إلي متمعناً متلمظاً.

كنت، ذلك المساء، قد جئت إلى مؤنس أطلب منه خدمة، بعد أن قنطت كل القنوط من أن يجيء إلي، هو الذي ابتعد عني مذ عاد من بلاد الفرنجة..

بهذه الحجة، بتلك كان يعتذر وكنت أنا نفسي لا أحمل الكثير من الحماسة لمجيئه. كانت بطني قد انتفخت إلى درجة لم أعد معها ذات القامة الممشوقة والخصر الأهيف، بل صرت أشبه ببرميل إن دفعته من أعلى التلة تدحرج حتى أسفلها. كنت أعلم أنه لا يحب مثل هذه البراميل ولم أكن أريده أن يراني إلا وأنا في أجمل هيئة، فصرت أدعوه لزيارتي وأنا أدعو الله ألا يستجيب.... كنت أريده أن يظل محتفظاً بصورتي الجميلة السابقة في ذاكرته فلا يشوهها حمل أو سمنة...

كنت أشعر كل يوم بافتقاده أكثر فأكثر، أشعر بحرماني أكثر فأكثر.. أتوق إليه.. إلى ذراعيه، وبدأت أشعر بالندم "لماذا أهملت نفسي؟" كنت أتساءل، "سنون مرت وأمورنا على خير ما يرام، لا حمل، لا منغصات، فلماذا تركت نفسي أحمل؟".

لكن ما ينفع الندم وقد فات ما فات؟

كان الجنين قد كبر حتى غدا الحمل يتعبني.. لم أعد أستطيع القيام بأعمال البيت، ولم أعد أستطيع حمل نفسي إلى المكتب أداوم فيه. قلت لمؤنس أن يعفيني من الدوام فاتصل بي المدير يطمئنني "لا حاجة لأن تتعبي نفسك وتجيئي إلى الدوام".. وهكذا صرت أقضي طوال الوقت في المنزل. كان أكره ما أكرهه أن يراني الناس "وبطني أمامي شبران". وحده درويش كان يراني....ولم يكن درويش في حسباني قط.... لكن كان لابد من وجوده... هو، كما قال مؤنس، يمكن أن يخدمني، يساهم في تمويه أمري، يأتي بحاجات البيت وكأنه زوج حقيقي لي... لكن داخل المنزل كان مجرد خادم وضيع لا قيمة له ولا وزن، هو في غرفته الأمامية من المنزل معتكف، أو في المطبخ يطبخ وينفخ وأنا في جناحي الداخلي آمره فيلبي، أنهاه فينتهي... صورة لزوج إطارها بلا مضمون، لكن قد تخططين لشيء ويخطط الآخرون لأشياء ثم تأتي الأقدار فتفسد كل ما وضعت ووضعوا من مخططات... إنها الظروف دائماً تأتي بما لم يكن في الحسبان.. ولقد جاءتني بما لم يكن في حسباني... كان الصيف في أشده، والصيف يخنقني عادة يتحول إلى صخرة تطبق على صدري فتمنع حتى أنفاسي، وكان الجبل يثقل علي أيضاً فأشعر بتعب يبلغ درجة الإرهاق. الحر على صدري والحمل في بطني، ثقلان لا يحتمل المرء واحدهما فكيف بكليهما، قلت أستحم لعل الماء يخفف منهما..... دخلت الحمام..

أفتح المرش، أستمتع بالماء الفاتر.. لكن ما إن بدأت أرغي الصابون على جسدي حتى شعرت بدوار يضرب رأسي ثم بساقي تهنان ومفاصلي تتفكك ولم أعد أشعر بشيء.

حين فتحت عيني من جديد وجدت نفسي على السرير ودرويش إلى جانبي... لم أفقه أول لحظة لماذا أنا على السرير ولماذا هو إلى جانبي.. "أين أنا؟ ماذا حدث؟" غمغمت فأجابني مطرق الرأس: سمعت خبطة في الحمام وصوت ارتطام شديد فأسرعت إليك لأجدك مغشياً عليك".

تنبهت وقد عادت ذاكراتي إلي، كنت ممددة على السرير عارية كما لو أنني في الحمام، "لماذا لم تسترني؟ لم تركتني عارية؟" انتفضت.. فتلعثم دون أن يجيب، وقد انشدت عيناه إلى جسدي كأنهما مربوطتان إليه بخيط سحري.

أسرعت إلى الملاءة أستر عريي، وأنا حائرة لا أدري أأشكره على إنقاذي أم أطرده لصفاقته؟ شيء ما بين فخذي جعلني أكثر حيرة وتوجساً. مددت يدي أتلمسه فإذا ببقايا سائل لزج.. "اللعنة!! فعلتها أيها السافل؟".. صرخت وقد أصبحت على يقين تام بما فعل... "سامحيني.. اغفري لي... "بدأ وقد خر راكعاً عند سريري، كله تضرع وتوسل.." لم أستطع كبح نفسي.. رأيتك عارية، رأيت جسدك المثير بين يدي فلم أستطع السيطرة على غريزتي... صرت كالحيوان الهائج لا يسمع سوى نداء غريزته"..

"وهل أشبعت غريزتك أيها الحيوان؟ وكأنما أحس بشيء من أمان قال شبه هامس "بل حققت حلمي... الحلم الرائع الذي طالما عشش في داخلي مذ رأيتك أول مرة.. فاغفري لي يا سيدتي. ما كل يوم تأتي الفرصة لتحقيق الأحلام." "اللعنة عليك!! "قلت وأنا أكثر ليناً في داخلي فقد كنت أعلم ما يعني أن يستطيع المرء تحقيق حلم رائع عشش في داخله زمناً طويلاً" هل تعلم عواقب فعلتك؟ ".."أعلم.. أعلم... السجن، التعذيب، قطع العنق، كل شيء ممكن... لكن.. قلت لك اعذريني.. اغفري لي.. أنا أعلم أنني أخطأت، نظرت إلى حيث لا يحق لي النظر، فعلت ما لا يحق لي أن أفعل.. لكن هكذا صار.. رغماً عني.. أقسم لك..

لم أكن أملك نفسي، كأنني مثلك كنت قد فقدت وعيي.. كأني جننت.. ففعلت ما فعلت، دون إرادة مني!" ووجدتني أشفق عليه... رغم المبدأ الذي علمني إياه مؤنس.. لا ترحمي ضعيفاً، لا تشفقي على مسكين، وجدتني أشفق عليه... لماذا؟ أعترف لك سميراميس، أنني لا أدري.. لقد كان أمامي خاضعاً راكعاً، ذليلاً مستسلماً وكان باستطاعتي أن أفعل ما أشاء.. كلمة واحدة أقولها لمؤنس تجعله يطير في الهواء، يصبح حطاماً أي شيء إلا درويش ذلك الذميم القميء الذي اشتهى جسدي فولغ فيه ولوغ الكلب في فريسة.

أهو ذلك الذل جعلني أشفق عليه؟ أم الامتنان والعرفان لإنقاذه حياتي؟ فلولاه ربما مت قبل أن يدري بي أحد.. صحيح أنه فعل ما فعل لكن الصحيح أيضاً أنه أسرع إلي بالبصل، الكحول، الليمون... لم يدع شيئاً إلا فعله كي أستعيد وعيي، وكان له في ذلك منة وفضل..

ترى أكان ذلك سبب إشفاقي عليه؟ أم تراها الغريزة التي شعرت بها مشبعة في داخلي؟ لقد كان هناك شيء ما في أحشائي راضياً رضى الشارب بعد ظمأ.. المستريح بعد تعب، فهل كنت بحاجة ماسة للرجل، حتى ظللت مستسلمة له، فاقدة الوعي بين يديه؟ لا أدري.. ما أدريه.. أنني كابرت، تصنعت الغضب الشديد صارخة به... "اغرب عن وجهي.. اغرب.. لا أريد أن أرى وجهك في هذا البيت ولسوف يأتي عقابك الشديد" "أرجوك... أتوسل إليك.. سأغرب عن وجهك.. لن تريني بعد ذلك أبداً.. لكن لا تخبريه بما فعلت بي تلك النزوة.. أرجوك.. أبوس يديك.. رجليك.. سامحيني.. اغفري لي..." وانكب على يدي كلتيهما يقبلهما ثم أسرع إلى قدمي يريد تقبيلهما.. فكدت أضحك في سري "اللعين.. يريد الاستمتاع بعري جسدي أكثر فأكثر.. إذ كنت ما أزال عارية في سريري، بقايا النشوة ما تزال ترخي مفاصلي.. "قلت لك اذهب.. سامحتك.. فقط.. اذهب.. اغرب عن وجهي "صرخت وأنا أبعده بشيء من وهن...

غرب عن وجهي كيلا يعود بعد ذلك البتة.. فيما ضغطت على مؤنس بكثير من الإلحاح، ليجيئني بمدبرة منزل علها تسد الثغرة التي خلفها غياب درويش... كانت إغماءتي في الحمام قد تركت آثاراً واضحة على نفسي إذ بات خوفي أشد من أن أقع مغشياً علي في أية لحظة أو أجهض ما في بطني أو يجيئني المخاض.. ترى من يسعفني في هذه الحالة؟ أنا وحيدة ومؤنس لم يعد يأتي إلي.... حبل السرة الوحيد بيننا هو ذلك السلك الهاتفي.. مع ذلك لم يكن في متناول اليد دائماً... الرجل كثير الأشغال كبير المسؤولية ومن يدري؟ قد أسقط أرضاً وهو في اجتماع، أو لقاء رسمي، أو جولة تفتيشية، فمن يهب لنجدتي؟ تلك المرة أنجدني درويش، صحيح أنه استغلها، لكن الصحيح أنه أنجدني... بل بت بعد أيام قليلة أشعر بشيء من الندم لطردي إياه.. ماذا لو تركته يسقي ما في رحمي من حين إلى حين؟ أليس كل جنين بحاجة لأن يُسقى؟ يظمأ فيسقيه الرجل ماء هو الحياة ذاتها؟ لكنه قميء... قبيح.. ذميم وهو سيستغل ذلك.. أنا على ثقة أنه سيستغل ذلك وربما سيبتزني شر ابتزاز "كان ثمة صوتان في داخلي يتحاوران، صوت الأنثى التي تشعر بالحاجة للذكر وصوت سميراميس، محظية صاحب الرفعة التي تتطلع للمجد، تريد أن تظل في العلياء.. كان الصوت الأول يعلو فيخطر لي أن أعيد زوجي" إلى البيت ثم يعلو الصوت الآخر فيصرخ بي: لا تتراجعي... لا تنظري إلى الوراء بل امضي قدماً... الطريق أمامك طويل..

شهر واحد كان قد ظل أمامي، إلا أنني كنت أشعر به أطول من دهر، الثانية فيه ساعة والساعة يوم كامل... إيه يا سميراميس ما أشقى المرأة وقد أنيطت بها مهمة حفظ النوع!! لماذا لم تنطها الطبيعة بالرجل؟ أما كانت ستحررها من عبء شديد الوطأة.. أنت لم تحملي من منونيس.

ظللت الفارسة الرشيقة التي تركب الخيل وتدخل ساح الحرب وتبارز الفرسان، إذن أنت لا تعرفين معنى الحمل؟ حملت بعدئذ...!؟ أجل .. أنا آسفة.. خيل إلي أنك لم تخوضي تلك التجربة المريرة.. أجل.. هي مريرة جداً.. كنت أشعر وأنا حامل، أنني أحمل جبلاً في بطني وكان ذلك الجبل يكبر حتى خشيت ذات يوم أن يبرز أمام عيني فتحجب عني الرؤية.. لم يكن ذلك الجبل يضغط على أسفل جسدي فحسب بل يضغط على أعلاه أيضاً فيتباطأ قلبي ويضيق صدري وتتباطأ أنفاسي حتى يخيل إلي أنها ستتوقف، فأجلس في مكاني إن كنت واقفة وأتمدد إن كنت جالسة وأعجب كيف كانت المرأة تعمل في الحقل وهي حامل، تحلب الشياه، تخبز، تعجن، تمخض اللبن وهي حامل؟ عجب.. أنا لا أتصور نفسي قادرة على حمل كأس ماء... باتت المدبرة تفعل كل شيء في البيت، كل شيء، تلبسني ثيابي، تدخل معي إلى الحمام، تغطيني إن نمت وبدا لي أن خير ما فكرت به هو تلك المدبرة التي صارت يدي ورجلي حتى في المستشفى حيث وضعت مولودي البكر: طفلة كفلقة القمر.

"مبارك عليك" رددت على مؤنس وهو يبارك لي بالهاتف "هي ابنتك أيضاً.. لكن ابنة ولا في الخيال.. تعال.. ألن تأتي لرؤيتها"؟ "ليتني أستطيع.. لكن الأرض مسكونة كما تعلمين..

لديك الآن مدبرة منزل وأخشى".."لا.. لا تخش شيئاً.. أطردها اللحظة إن تأتي"..."لا... لا فائدة من مجيئي.. أنا واثق أنها جميلة.. حسبها أنها ابنتك لتكون آية في الجمال. "إذن سأسميها آية.. اسم جميل بالتأكيد.. لكن لا تعلم كم أنا مشوقة إليك.. كم أود أن تجيء فتكتحل بمرآك عيناي وعينا ابنتك "لا... سميرة... مرحلة مضت وانقضت ونحن لا نتراجع إلى الوراء أبداً... أليس هذا ما علمتك إياه؟ "...بلى.. لا تنظري وراءك.. لا تتراجعي القهقرى.. امضي قدماً".. "أحسنت.. نمضي قدماً.. طريق بدأناه، إذن علينا أن نمضي قدماً فيه، ولا تخشي شيئاً سيظل كل شيء كما هو دون أي تغيير..

وكان الرجل صادقاً... راتبي يأتيني كل شهر، يتصل بي من حين إلى حين، أتصل به فيرد كما كان من قبل محباً وفياً لا يرد لي طلباً... بعد شهر واحد من ولادتي، طلبت إليه أن يطلقني من درويش، في الأسبوع التالي جاء درويش يحمل ورقة الطلاق، مكرراً اعتذاره متوسلاً أن أسامحه.. ضحكت وأنا أمد يدي له برزمة نقود أعلم أنه بأمس الحاجة إليها.. أدرك

أنني سامحته فانكب على يدي يقبلها.. لعل ذلك آخر حلم من أحلامه أراده أن يتحول إلى واقع... "اسمع.. تركت له يدي قائلة.. أنت لم تعرفني يوماً... فلا يأت اسمي على لسانك.. ولا تذكر شيئاً مما حدث في هذا البيت".. "معاذ الله يا سيدتي.. أنا معك هكذا".. وأشار بكلتا يديه إلى أنه أصم أبكم أعمى. ثم مضى لا أسمع عنه ولا أراه إلا موظفاً في مصلحة عدت للدوام فيها وقد انتهت إجازة أمومتي..

لكن هل تنتهي طلبات الإنسان يا سميراميس؟ ما أحسب ذلك، فطالما لديه أنفاس تتجدد ستتجدد في نفسه الرغبات، تتناسل الأماني.. أمنية إثر أمنية تجعله يلهث وراءها ويسعى لتحقيقها.. هذا ما حدث لي.. إذ ما إن تخففت من عبء الحمل ذاك الذي كرهت، حتى تخففت من خوفي من الموت، من كرهي أن يراني الناس، من حقدي على الرجال الذين يبلون المرأة ويولون الأدبار.. كنت أرغب في أن أعود إلى الحياة، أن تعود لجسدي رشاقته، وهكذا عدت إلى النادي الرياضي بذلت كل ما في وسعي، فلم تمض أشهر ستة حتى عدت قامة هيفاء وخصراً ناحلاً، كأن لم يملأه حتى الحافتين جنين سابق.. عجيب هذا الجسد يا سميتي!! لكأنه مطاط ينشد ويرتخي، يضيق ويتسع، إذن لماذا نخاف؟ الحياة حلوة ملأى باللذائذ والمتع فلماذا نتخلى عنها أو نهرب منها؟ وفهمت حينذاك لماذا تقسم المرأة أغلظ الأيمان وهي في المخاض بأنها لن تقارب رجلاً إن خلصت بالسلامة ثم تحنث بوعدها في أول فرصة تسنح لها بعد خلاصها بالسلامة؟

إنها الحياة المتجددة، الغريزة المتجددة... مثلما هي الأنفاس المتجددة...

آخر أمنية رحت أفكر بها حتى صارت هاجساً: أن أتابع دراستي.. الليسانس حصلت عليه.. لكن لم لا أتابع؟ لم لا أحصل على الدكتوراه؟ أليست أكثر وجاهة؟ ألا تشق لي طريقاً أوسع؟ توصلني إلى مراتب أعلى؟ كنت أتساءل ليل نهار وكان الجواب يأتيني دائماً: نعم.. فعزمت...

"أريد أن أراك" قلت لمؤنس بنبرة تصميم، اندهش لها على الفور" ماذا؟ أهناك طارئ؟ "أجل.. أموت شوقاً لرؤيتك.. فهل بعد ذلك من طارئ؟".. "لا.. لكن".. "لا تقل لكن مؤنسي وحبيبي.. أنا لا أريد أن أعيد الماضي، أو أطالب بأي حق من حقوقي أو حقوق ابنتك.. فقط أريد أن أراك في خدمة صغيرة فهل تستكثر علي ذلك؟ "لا.. لا.. لكن اسمحي لي.. أنا لا أستطيع الذهاب إليك فهلا جئت أنت." "أجيء .. ولا تخف.. سأبدو كأية مواطنة عادية تراك أول مرة". وكان موعداً ثم جاءت سيارة تنقلني إلى صاحب الرفعة، عظيم المكانة والشأن..

خطر لي وأنا في السيارة، أن أعود فآخذ معي ابنتي، لكي يراها.. أليست هي ابنته؟ ألا يشعر بأية عاطفة تجاهها؟ أي دافع لأن يراها على الأقل؟ لكنني أبعدت ذلك الخاطر. هو لا يريد رؤيتها.. لم يشر يوماً إلى ذلك، لم يسألني قط عنها وكأن لا علاقة تربطه بها البتة".. آه!! من الرجال!! ما أقسى قلوبهم يا سميراميس!! ما أسهل النكران عليهم!! ما أقل الوفاء لديهم!! بمثل ذلك الشعور وصلت إلى مكتبه لكن ما إن رآني حتى فتح لي ذراعيه ضاماً إياي بحنان أنساني على الفور كل ما فكرت به وشعرت. دافئاً حنوناً كان.. كأن الزمن لم يدق إسفينه بيننا ولم تمر شهور طويلة دون أن يراني أو أراه.. ها هو ذا الأليف الطيب الأنيس المؤنس الذي أعرفه يتحدث بذلك الود بتلك الأريحية، حتى كدت أقترح عليه أن نعود كما كنا.. لكن شيئاً ما حال بيني وبين ذلك.. هاتفه الخاص الذي رن.. كلمات هامسة جاءت وكلمات مهموسة ذهبت، ثم أقفل السماعة محمر الوجنتين كأنما هو خجل مني.. فأدركت أنها الأخرى التي حلت محلي.. اللوليتا الجديدة التي لم تحبل ولم تلد بعد.

كبست الملح على الجرح ومضيت أحدثه كأنني لم ألحظ شيئاً ولم أعرف شيئاً.. كنت أريد أن أتسلق درجة أخرى في السلم وكان وحده من يستطيع مساعدتي.. أليس هو وحده من جعلني أتسلق الدرجة السابقة؟

لولاه أكنت حصلت على الإجازة، أنا التي ظللت سنوات ثلاثاً في الثانوية؟ والآن كيف أحصل على الدكتوراه إن لم يكن هو السلم الذي أتسلقه؟ إذن، غضي النظر يا امرأة.. امضي قدماً ولا تعكري صفو اللقاء.

مضى اللقاء عذباً صافياً كليلة صيفية قمراء "حسن ها قد لبيت لك رغبتك ورأيتني، ما الخدمة التي أستطيع تقديمها لك؟" "الدكتوراه.. أريد الحصول على الدكتوراه" وفتح عينيه لحظة من الزمن ثم قال "وماذا تريدين من الدكتوراه؟ "الكثير"، قلت وأنا أقترب منه آملة أن يسهم جسمي في بث إشعاعاته الكهرطيسية علها تخترق أسواره وتسقط دفاعاته.. "الليسانس صارت شهادة عادية كلهم يحملون الليسانسات: أنا أريد التميز، أن أكون من أولئك الصفوة.. حملة الدكتوراه".

"حسن.. سجلي ماجستير.. هل هناك مانع؟" "أجل هناك شرط لا يتوفر بي: ليسانسي بدرجة مقبول كما تعلم". "هذا شرط من الصعب تذليله"، "وكل أولئك الذين يفقسون شهادات دكتوراه كل يوم، ماذا يفعلون يا ترى"؟ "هم ينالون الدكتوراه من الخارج.. يسافرون إلى الاتحاد السوفيتي.. بلغاريا.. رومانيا.. بمبلغ من المال يشترون تلك الدكتوراه.. فهل تفعلين

مثلهم؟" "أفعل ولم لا أفعل؟ المهم أن أحصل على الشهادة الكبيرة كي تنفتح لي الأبواب الكبيرة".. في تلك اللحظة.. انفتح باب المكتب، هكذا دون شور أو دستور، ودخل رجل عرفته من صورته في وسائل الإعلام وحسب فهو أيضاً من أصحاب الرفعة والنبالة. "أوه!! جلسة رومانسية أرى!! مؤنس!! أنا أسف إن كنت قد قطعت عليك خلوتك!! "قال الرجل وهو يسير بخطا واسعة واثقة إلى مؤنس، أخذ واحدهما الآخر بالأحضان، ضاماً مقبلاً، شأن الأصدقاء الحميمين والأنداد اللصيقين، فيما كان مؤنس يغمغم "أهلاً وسهلاً بك.... لا خلوة عليك ولا سر.. يا صديقي" "عظيم!! هكذا لا أشعر بالذنب" رد الرجل وهو يلتفت إلي مسلماً، متفحصاً إياي هازاً يدي شأن الأصحاب الذين يعرف بعضهم بعضاً منذ أزمان.

"إذن قطعت عليكم حديثاً هاماً..." عاد يتساءل وقد انتهى هو وصاحبه من أسئلة الصحة المعتادة ومن تعريف مؤنس بي وتعريفي به شأن الأناس الراقين في المجتمع، "لا.. لا... هي مجرد دردشة.." رد مؤنس.. "بل هو طلب يضع صاحب الرفعة في وجهي العقبات والعراقيل كيلا يلبيه على ما يبدو "بادرته مقاطعة وقد أدركت أنها فرصة علي أن أنتهزها في الحال، أو ضاعت إلى الأبد.. "لا.. لا.. سيدة بهذا الجمال، طلباتها أوامر، مؤنس، فكيف تضع في وجهها العقبات والعراقيل؟ "لا.. قسماً عظماً أنا لا أضع شيئاً من ذلك.. لكن هو أمر نناقشه. "رد مؤنس، فالتفت إلي الرجل "هه.. قولي.. ما هو الطلب؟ ربما أستطيع أنا تلبيته فأريح صديقي منه.." ربما؟ بل أنت ابن بجدتها "بادر مؤنس، كأنما أفرحته الفكرة ثم التفت إلي "قولي له.. أجل.. قولي له إنه ذو الباع الأطول في هذا الميدان" "أوه!! حقاً؟ كم أنا سعيدة الحظ إذن!!" "بل أنا سعيد الحظ يا جميلتي!! إنها المرة الأولى التي يجعلني أرى فيها سيدة لديه!! هذا البخيل الضنين، بل الأناني النرجسي يحتكر الجمال كله لنفسه ولا يسمح لنا حتى برؤيته.. قولي.. ما طلبك، ونحن في الخدمة." قال وهو يدق على صدره فكدت أطير فرحاً.. اللقاء الذي كنت قد عقدت عليه بعض الأمل بدا وكأنه يزهر بالآمال.. "المسألة بسيطة يا سيدي" بدأت وأنا أحاول تحميل نبرات صوتي كل ما أخبئه من كنوز الغنج والإغواء.. أنا أحمل الليسانس في التاريخ والآن أريد أن أكمل دراستي وأحصل على الدكتوراه." "رغبة مشروعة وأيم الله!! لكن ما المانع؟ لم لا تكملين دراستك؟" "ثمة شروط هنا لا تنطبق علي فاقترح صاحب الرفعة أن أفعل كما يفعل الكثيرون وأكمل دراستي في الخارج." "بل تكملينها هنا وكل الشروط سنجعلها تنطبق عليك... كل العقبات سنذللها"..

وكدت أقفز فرحاً، لولا بقية من كابح كبحت بها نفسي كيلا أبدو خفيفة بوزن الريشة "عظيم!" صاح مؤنس وكأنه فرح بخلاصه من طلباتي.. "يونس من أهم أولي الأمر،

مكين متين "قال مازحاً ثم تابع "وهو يفعل ما يقول.. اطمئني".. "حقاً يا سيدي!! أطمئن"؟ "ضعي يديك ورجليك في ماء بارد... فقط هاتي أوراقك ووثائقك" ثم مد لي يده متابعاً "هذه بطاقتي... اتصلي بي غداً أو اعتبري نفسك طالبة دكتوراه!!" "اللّه!! اللّه" هتف مؤنس سابقاً إياي خالطاً المزاج بالجد "جاء من البرية وسبقنا إلى الأولية". ثم ضحك ضحكته العالية ناظراً إلي بمزيج من العتاب والاستفهام. أردت أن أرد مبرئة ذمتي، لكن في تلك اللحظة مال عليه ضيفه موشوشاً بشيء في أذنه لم أستطع أن ألتقط منه سوى تلك الكلمات القليلة التي ذكرتها من قبل.. حينذاك أدركت أن مرحلة جديدة من حياتي قد بدأت وانتقال حيازة قد تمّ.

تلك الليلة لم أنم ظللت الساعات وأنا أقلب في ذهني ذلك اللقاء، أسئلة كثيرة راحت تدق في رأسي، وأسطورتك أمامي... لقاء صاحبّي يذكرني بلقاء صاحبيك يا جدتي الكبرى: نينوس ومنونيس، هذا الذي لم يرض بالتنازل عنك رغم الخطر الذي يمثله الملك عليه إلا وقد وعده بأن يزوجه ابنته: تبادل مصالح.. عبر التاريخ ظل الرجال يؤمنون بتبادل المصالح وظللنا نحن النساء جزءاً من تلك المصالح. سلعاً يتبادلونها إرضاء لرغباتهم ونزواتهم. لكن أعترف لك هنا كان لتلك الليلة أثر هام في حياتي إذ قررت أن ألعب مع الفارس الجديد لعبة سالومي... أنت لا تعرفين سالومي؟ آه حسن، لهذه المرأة قصة طويلة لا يسعني أن أخبرك بها الآن. سأفعل ذلك ذات يوم، لكن باختصار قررت أن ألعب معه لعبة المرأة التي تحصل على كل شيء قبل أن تقدم أي شيء... بهذه النية اتصلت، وبهذه النية، وقد دعاني، ذهبت. مكتبه، كمكتب مؤنس، فخم واسع شاسع تلعب به الخيل. أرائكه وثيرة، ستائره مخمل، وكل شيء هنا ككل شيء هناك.. وهكذا سرعان ما قفزت إلى ذهني تلك اللحظات يوم زرته أول مرة ترى هل يفعل هذا الأمر ذاته؟ أنا أعلم أنهم جميعاً من طينة واحدة، فكيف تختلف فخارة عن أخرى؟" الاختلاف فيك".. فكرت في سري وأنا أجلس على أقرب أريكة يغوص فيها الجسد كما يغوص في الماء "الآن أنت مزودة بالتجربة.. بالمعرفة.. فاستفيدي منها ما استطعت".

"هه لم لا تتكلم جميلتي؟ بم تفكر؟ "سألني وقد رآني شاردة ولاشك. تظاهرت بحياء أشد ساكبة كل ما تحمل أوردتي من دم في وجنتي ثم غمغمت شأن المراهقة الخائفة التي تخشى حتى أن يسمع صوتها الآخرون.. "لا.. لا شيء يا سيدي.. فقط هي رهبة المكان.. هيبتكم التي تكتم الصوت"... ودخل حاجب بدولة القهوة المرة مقدماً لي فنجاناً مذهباً الأطراف. لم أكن أحب القهوة المرة، لكنني شربت..

"منذ متى تعرفينه؟ "سألني مشيراً بيده إلى الوراء والأعلى وعيناه المعتمتان الصغيرتان تنغرزان في وجهي، فلم أفهم قصده أول وهلة، أحس بذلك فتابع.. أقصد صاحب الرفعة مؤنس..

"أوه.. ليس من زمن... ثم توقفت حائرة: أأنكر معرفتي به كلياً أم جزئياً؟ وإن أنكرت، ماذا يحدث إن كان مؤنس قد حدثه عني؟ لكن إن اعترفت ألن يكون الأمر أشد سوءاً؟ أخيراً قررت اتخاذ موقف وسط مبهم "أبي يعرفه.. وثمة صلات"... تابعت بعد لأي "فأشار علي أن ألجأ إليه عله يساعدني في الجامعة... "هو يساعد.. خاصة الفتيات الصغيرات" قال غامزاً ضاحكاً".

وانكمشت في داخلي. "مؤنس لا يحب إلا الصغيرات هم يعرفون ذلك بل أنت نفسك تعرفين، فلم الإنكار؟" "لكنك ما تزالين صغيرة" تابع وقد رآني ألوذ بصمتي" يا سيدي.. أنا أعلم أنني كبرت.. الزمن يتقدم".. "لا... لا تخطئي فهمي... أنت في ريعان الصبا.. كم عمرك؟ عشرون؟ اثنتان وعشرون؟ "قال وهو يتفحص سيمائي كأنما يريد اختراقها لمعرفة عمري فعلاً.. لم أدر بما أجيب.. أأعترف له بسني الحقيقي أم أكذب ككل النساء.. تلجلج لساني قليلاً ثم لا أدري كيف أسعفني ذهني بسؤاله: وهل تسأل امرأة عن عمرها يا سيدي؟" "أنت على حق.." شربنا القهوة وهو يعمد لتوجيه أسئلة لا علاقة لها بالدكتوراه التي جئته من أجلها، وكأنه يريد استكشافي بأسرع ما يستطيع: حياتي، علاقاتي، ماضي.. وكنت أجيبه بأقل قدر من المعلومات... أخيراً ولكي أتخلص من أسئلته بادرته بالسؤال.. "إي.. سيدي.. هل ستفي بوعدك وتساعدني؟.. "بالطبع... رد بقوة الواثق من نفسه.." بل أنا الوحيد الذي يستطيع مساعدتك في هذا المجال... انظري... العناية الإلهية وحدها هي التي أرسلتني إليك في تلك اللحظة "قال بفرح جلي بدا في كل قسمة من قسماته.. "أنا واثقة من ذلك يا سيدي.. العناية الإلهية... أجل.. لهذا أنا فرحة متفائلة.. فقل لي ماذا أفعل الآن؟ "أنت لا تفعلين شيئاً..." بدأ فصدمت لحظة من الزمن، خشية أن تكون أحلامي كلها سراباً في صحراء، لكنني تنفست الصعداء حين تابع... "فقط أعطيني أوراقك" وأسرعت أخرج الوثائق من حقيبتي بيدين راعشتين تكادان لا تصدقان ما تسمع أذناي... "هي ذي يا سيدي... جهزتها قبل أيام... ثم ذهبت أسجل لكنهم صدموني بذلك الشرط بل قالوا "مستحيل... النظام لا يسمح".. "مستحيل؟.. النظام لا يسمح!؟"... رد ناهضاً هازاً رأسه بكثير من السخرية.. وهل علينا مستحيل؟ أيطبق علينا نحن النظام؟ تساءل مشيراً بإصبعه إلى نفسه فوقفت مثله مقتربة منه متسائلة.. "حقاً يا سيدي!؟ ستسجلني؟ ستتجاوز ذلك الشرط والنظام؟" ... "بالتأكيد.. أم تريديننا أن نكون كالآخرين؟ مثل هذه الشروط تنطبق عليهم لا علينا.. نحن من يستثنى دائماً من القاعدة." وفرحت أن أغدو مثله الاستثناء.. "لكن من الاستثناء ومن القاعدة يا سيدي؟" سألت وبودي أن أعرف المزيد عن أفكاره" القاعدة هي الرعية.. القطيع الذي يساق بالعصا، تذهبين به هنا، هناك، تفعلين به ما تشائين ولا يستطيع أن يرد لك مشيئة، أما الاستثناء فهو الراعي ومن حوله.. الصفوة الحاكمة التي تجسد الإرادة

الإلهية على الأرض، ولا تفعل شيئاً إلا بمشيئة السماء تلك التي اختارتها والتي فوضتها بمصير الرعية، تحيي من تشاء وتميت من تشاء. "وتذكرت أقوال مؤنس أيام زمان.. المفاهيم ذاتها، الفكر ذاته.. إذن هي ذي الحقيقة التي علي أن أؤمن بها وأنطلق منها.. وهي ذي الغاية التي ينبغي أن أسعى من أجلها فأكون الاستثناء لا القاعدة، صفوة الراعي لا قطيع الرعية.

"هل من حاجة لوجودي أثناء التسجيل؟ "سألته رغبة في المزيد من الاطمئنان "لا..لا.. أنا أنهي لك كل شيء.."قال بكل هدوء وثقة! تعالي بعد غد تجدي وثيقتك جاهزة.. "وكدت أطير فرحاً "بعد الغد؟ أحقاً يا سيدي؟ "حقاً وصدقاً.. بعد غد، الساعة الواحدة والنصف تأتين هنا وترين بنفسك أن كل شيء قد انتهى".

وتعمدت أن أسرع إليه، أنكب على يده أقبلها بدل أن أصافحها وأنا ألهج بالشكر والامتنان لكنه سحب يده من يدي خجلاً "تقبلين يدي؟ لا.. لا علي أنا أن أقبل يدك إذ سمحت لي بتقديم هذه الخدمة." أفرحني ذلك ثم ودعته وأنا أتراقص مثل مهرة تحت شمس الربيع.

كنت من قبل قد حاولت أن أسجل نفسي بنفسي... لكن صورة ذلك الموظف الذي رمى أوراقي في وجهي رمياً لا تغادر ذهني أبداً "غير مستوفية للشروط" وحين حاولت الاستفسار رد بعنجهيته تلك "ناجحة بدرجة مقبول وتريدين الماجستير والدكتوراه؟.. هذه للمتفوقين فقط يا مرأة".. "يا مرأة!! هكذا ناداني... أنا أية امرأة؟ أهكذا تخاطب السيدات؟ بغضب وحنق ذهبت إلى رئيس القسم أشكوه. لكن هذا لم يكن رئيساً بل رئيسة. فرحت قائلة في سري "المرأة أخت المرأة ولسوف تساندني ضد ذلك الموظف"... بسطت لها الأمر فقطبت حاجبيها.. "ماذا في ذلك؟ هو يقول الحقيقة" لكن ليس بهذه الطريقة"، احتججت مبينة لها كم هو صلف متعجرف عديم اللباقة" ماذا؟ نحن هنا في بلاط ملكي أم وزارة خارجية؟ تريدين إتيكيتاً خاصاً؟ دبلوماسية وكياسة؟ اذهبي عنا.. لسنا فارغين لمثل هذه الترهات. "قالت ذلك وهي تكشر عن أسنان صفراء تكشيرة ذئبة جائعة.

طوال اليومين التاليين ظلت أفكر بذلك الموظف وتلك الرئيسة.. كيف سيتلقيان الأوراق ذاتها؟ هل يطردان حاملها؟ يكشران في وجهه؟ أسئلة كثيرة راحت تتوارد إلى ذهني فيما تملكني ما يشبه الهاجس.

"صباح الخير، صاحب النبالة" بادرته عبر السلك السحري استجابة لذلك الهاجس" بودي لو أذهب مع من ترسله لتسجيلي في الجامعة.. "لا.. لا حاجة.. لذلك أنا أربأ بك أن تزعجي نفسك بأمر تافه كهذا" .. "لكن".. بدأت وفي ذهني أن أقول له الأمر ليس تافهاً بالنسبة إلي يا

سيدي.. بل هو غاية في الخطورة ولسوف يحمل لي الكثير من السرور والسعادة. غير أنه قاطعني "أنت غير مؤمنة بقدراتنا"؟ فقلت ضاحكة "أنا مثل إبراهيم الخليل سأله ربه أولم تؤمن يا إبراهيم؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي" "قلت لك ليطمئن قلبك.. قبل قليل حدثت المسؤول هناك، بنفسي حدثته فهلل ورحب.. أنت تعلمين.. رغبتنا أمر وقد قلت له هذه رغبتنا فكيف يخالف؟ لا.. لا.. ثمة فقط بعض الإجراءات.. إجراءات شكلية لا غير، غداً تأتين كما قلت لك فتجدين كل شيء قد انتهى".

أغلقت السماعة وكلي شعور بخيبة الأمل. كان كل ما أوده أن أرى من طردني قبل أيام يركع صاغراً أمام حامل أوراقي.. كنت أريد أن أشفي غلي من رئيسة القسم التي سخرت مني وهزأتني.. لكنه حرمني من تلك المتعة.. لعله لم يفهم قصدي.. وما كان بإمكاني أن أشرح له ذلك القصد. كان علي أن أعطيه الصورة الأجمل عني، أن أترك في نفسه أحسن انطباع، الأمر لن ينتهي عند تسجيلي.. إنها مرحلة ماجستير.. تعقبها الدكتوراه فمن سيحملني طوال هاتين المرحلتين؟ أي قطار سيقلني إلى الضفة الأخرى؟ مؤنس انسحب.. هو لم يعد فارغاً لي.. الأمر واضح كعين الشمس.. منذ سنة أو يزيد لم تكن عيني قد رأته ولا قدمه وطأت منزلي، كياسته، دبلوماسيته وربما شفقته هي التي تجعله يرسل لي الراتب، يرد علي بالهاتف، لكن ماذا إن سئم فأقلع، ألا يودي بي ذلك إلى التهلكة؟ لا.. علي أن أجد البديل.. بأي شكل ينبغي أن أبحث عن الظهر.. أجل.. أنا التي لا ظهر لها كيف تشق طريقها؟ أبي تخلى عني، لا أراه إلا في المناسبات، أخوتي الآخرون لا أراهم ولا يرونني.. وحده عاصم يأتيني من حين إلى حين، مباحثياً يفتش عن مرتكب، حارساً يتفقد وديعة.. أنا وحيدة.. شعوري بالوحدة يزداد يوماً بعد يوم... لا أنيس ولا سند.. إذن لم لا يكون صاحب النبالة ذلك الأنيس والسند؟ هو على أتم الاستعداد.. رغبة شديدة رأيتها في عينيه الصغيرتين المعتمتين، شهوة موارة تنقط من شفتيه، فلم لا أستفيد من تلك الرغبة والشهوة؟ لم لا يحل صاحب النبالة محل صاحب الرفعة؟ هو أكبر منه مقاماً وأشد نفوذاً.. ألم يقل لي صاحب الرفعة إن تسجيلي في الجامعة صعب؟ ألم يقل كما قالوا هناك مستحيل.. فيما سخر صاحب النبالة من الأمر، اعتبره أسهل من تناول الحساء.. إذن كم هو واسع النفوذ!! كم في يده من مفاتيح أنا بأمس الحاجة إليها!! كم من درجات يمكنه أن يجعلني أصعدها على السلم!! ولم يفتأ سيل الأسئلة ينصب على ذهني حتى إذا جاء الموعد كان قرار حاسم قد اتخذ.

في الواحدة والنصف كنت في مكتب صاحب النبالة، وكل ما أرغب فيه التأكيد على دقة مواعيدي. استقبلني هامشاً باشاً فارداً لي ذراعيه، كأنما يريد احتضاني لكنني تلبثت

بعيداً مسافة ذراعي الممدودة لمصافحته.. لملم نفسه في الحال، كأنه لا يريد الاعتراف بفشل محاولته.. "مبارك عليك.. ها أنت الآن طالبة ماجستير في التاريخ".. تابع وهو يعود إلى طاولته رافعاً ظرفاً أصفر عنها "حقاً.. أرني" وأسرعت أختطف الظرف اختطافاً.. أمر عليه بعيني مرور الكرام ثم أتنفس الصعداء "الآن يطمئن قلبي.. فكم أنا شاكرة لك!! كم أنا ممتنة!! هتفت وأنا أسارع إلى يده أتصنع محاولة تقبيلها "معاذ الله.. سميرة!! ما هذا؟".

"أعبر لك فقط عن شكري".. "حسبتك ستعبرين بطريقة أخرى". "أي طريقة؟" تساءلت متجاهلة، بريئة براءة الأطفال".. يعني قبلة على الخدين.. قبلة على الشفتين.. "قال مبتسماً غامزاً فأطرقت خجلاً واستحياء وقد احمر خداي، حيلة كنت أتقنها جيداً، دون أن أجيب.

"أوه!! هذا الخجل"، قال وهو يشير إلي بالجلوس "كأنك لم تتزوجي يوماً ولم تعرفي الرجال". "وهو كذلك يا سيدي، صدقني.. الرجل الذي تزوجته لم يكن له شيء من صفات الرجال.. كان مجرد صورة.. شكل.. فظللت وكأنني بكر لم يمسها رجلٌ. "هذا ما يعجبني فيك.. أنت على حق سيماهم في وجوههم... بلى أنت هكذا والله.. مذ رأيتك أول مرة علمت أنك هكذا.. فتاة لم يسعدها الحظ فتلتقي بالرجل الذي تستحق".. وجاءت القهوة المرة... شربتها.. لكن على مضض أقل.. كنت فرحة.. أنظر إلى وثيقة تسجيلي في الجامعة ولا تشبع عيناي.. هي في يدي، لم أطوها، في ظرف.. كنت أرى فيها راية النصر التي سأرفعها عالياً حيثما أحل وحيثما أرحل.. أنا التي حرمت من التسجيل في الجامعة، أسجل الماجستير الآن ولسوف أنال الماجستير والدكتوراه فأي نصر أعظم!! ماذا ستقول علا؟ كيف سيكون رد عاصم؟ أبي؟ سأذهب إليهم أريهم انتصاري الجديد ليحنوا لي هاماتهم من جديد، لن أقبل بعد اليوم أن يشيل أحد منهم برأسه علي.. دبلوم طب!! دبلوم هندسة!! ما قيمة هذه إزاء الدكتوراه؟..

"هه.. مسرورة الآن؟.. "انتشلني من أفكار سرحت بي بعيداً وهو يرد على مكالمة هاتفية. "مسرورة وحسب أنا أطير فرحاً، وكله بفضلك... فضل لن أنساه لك مدى الحياة".. "هوني عليك.. هوني عليك.. هذه خدمة بسيطة.. أرجو أن تتيحي لي أن أقدم لك أمثالها دائماً.. بل ما هو أعظم منها بكثير".. "صحيح!؟ ألن تستثقلني إذن؟ ألن تصدني إن طلبت منك خدمة جديدة؟ "أنا أصدك، معاذ الله سميرة.. أنت فتاة، بريئة، طيبة، نقية فكيف لا أخدمك؟ بل قولي كيف لا أظل في خدمتك دائماً"؟ "بارك الله بك.. هو ذا أملي.. أن أجد فيك الرجل النبيل الشهم الذي يلبي حاجتي ويمنع عني ذل السؤال".. "أبداً.. لا تسألي أحداً في العالم سواي.. لا تذلي نفسك لأحد.. وثقي أنك ستجدينني السند دائماً".. وانطلقت من شفتي آهة ارتياح. إن كان هو ظهري،

لن أخاف أحداً، وإن كان هو سندي شققت طريقي حتى النهاية.. هو جاهز.. يكاد يذوب أمامي وأي شيء لا تحصل عليه امرأة من رجل يذوب بين يديها؟.

"ما رأيك، "قطع علي شرودي من جديد "احتفالاً بهذه المناسبة أدعوك إلى الغداء؟" هو ذا ما كنت أتوقعه بل هوذا ما فكرت به مذ حدد لي موعداً متأخراً، الواحدة والنصف. لكنني تلكأت قليلاً ثم قلت بشيء من تلعثم "هذا شرف لي يا سيدي.. لكن أيسمح وقتك بإعطائي مثل هذا الشرف؟ "لم لا؟ أم تحسبينني أعيش بلا طعام أو شراب؟ لا.. لا.. أنا أيضاً أتغدى.. أتعشى".. "لكن أين نتغدى.. في المطعم أم في".. قلت بتغابٍ شديد تعمدته ليقاطعني في الحال... "لا.. لا.. مطعم ماذا؟ أنا رجل مشهور. الكل يعرفني.. لا حاجة لأن نذهب إلى مطعم، يرانا الناس ويتحدثون.. قيل وقال وفضائح".. "ماذا إذن؟ أدعوك أنا إلى بيت أهلي.. وهي مناسبة.. "قلت بنوع من المناورة كي أقطع عليه الطريق، لكنه ارتد بشيء من صدمة.. "أهلك؟ لا.. لا.. ما أهلك هؤلاء؟ نتغدى هنا.. نوصي على ما تشتهي نفسك وتتمنى ونأكل هنا، تعالي انظري "وأمسكني بيدي شاداً إياي باتجاه العمق الخفي للمكتب.. حين وصل إلى باب في الجدار فتحه، أشعل الضوء ثم لف خصري بذراعه هكذا دون كلفة أو استئذان ومضى بي داخل جناح جديد، فيه سرير عريض، طاولة كبيرة وأرائك وثيرة تصلح لكل ما يشتهي المرء والمرأة. لم أبد مقاومة وهو يخاصرني داخلاً بي الجناح، بل تجاهلت تجاهلي لالتصاق جانبه بجانبي، إضمامته الدافئة التي راحت تشتد شيئاً فشيئاً، ثم إحاطته لخصري بكلتا ذراعيه وهو يوقفني وسط الغرفة ـ المخدع ـ "هنا.. لدينا كل شيء.. انظري.. شراب من كل الأنواع، طعام من أطايب المأكولات، وسائل الراحة التي ترغبين.. ولا أحد رأى أو سمع..

برفق تخلصت منه، مارة بالمشرب المليء بزجاجات من كل صنف ولون، بأرائك تصلح كل منها سريراً لعاشقين مغرمين، بسرير أعرض من كل سرير رأيته من قبل ولمع سؤال في ذهني.. أكان لدى مؤنس مثل هذا الجناح؟ هل يقضي كصديقه هذا وطره من النساء في مكتبه؟ وتذكرت يوم جرى ورائي حتى انقطعت أنفاسه.. فشعرت بشيء في داخلي ينقبض.. "كلهم هكذا!! الرجال سواسية.. لا أمان لهم ولا وفاء".. تابعت سيري وكأني أتفقد الجناح الفخم الذي أعده الرجل لنفسه مختلى يمارس فيه ما يشاء ولا أحد رأى أو سمع.. "هه.. ماذا قلت؟" سأل وهو يمضي إلى المشرب، ينتشل زجاجة لم أر مثيلاً لها حتى لدى صاحب الرفعة ثم يمضي إلى الكؤوس ينتقي منها كأسين.. كانت نيته قد غدت واضحة تماماً، علي أن أدفع الثمن.. وكنت أعلم أن علي ذلك، كما كنت على استعداد لدفعه لكن بطريقة سالومي كما قررت.

"إذن تظنني من إياهن"؟! قلت وقد تشنجت في مكاني البعيد مقطبة حاجبي" "أسفي عليك!! أنت الذي ظننتك فهمتني وعرفتني.. "أنا فهمتك وعرفتك" رد مدافعاً عن نفسه، "لا لو كنت كذلك، لما طلبت مني ما تطلب.. لا.. أنا لم أعد أريد الدراسة في الجامعة.. لم أعد أريد الدكتوراه.. اسحب تسجيلي أرجوك.. الغ خدمتك لي أرجوك "وانخرطت في نشيج عال راح معه ينعصر قلباً ويتلوى ألماً "لا.. لا تفعلي بنفسك ذلك أرجوك.. أنا لم أقصد.. سامحيني.. سامحيني أرجوك." قال وهو يلف ذراعه حول كتفي سانداً رأسي على صدره مربتاً ظهري، وأنا أشهق وأنشج، ممثلة بارعة في أجلى لحظات براعتها. كنت أنشج وأنا أضحك في داخلي.. سالومي تمثل على الملك هيرودس. ألم تعذبه؟ ألم تماطل وتسوف إلى أن حصلت على رأس عدوها اللدود، يوحنا المعمدان؟ إذن لم لا أمثل؟ لم لا أماطل وأسوف؟ ألا يفعل التجار الكبار ذلك؟ يكون عليهم مبلغ من المال يعلمون علم اليقين أنهم سيدفعونه لكنهم يماطلون ويسوفون.. إنها المماطلة.. لها الكثير من الفوائد، فلم لا أستخدمها لأجني تلك الفوائد؟.

"حسن، أنا آسف، أنا أعتذر، لا تبكي.. أرجوك" تابع متضرعاً وهو يقدم لي محارم ورقية أمسح بها دموعي.. أخذتها، مسحت دموعي التي لم تذرف، ثم رفعت رأسي مرة ثانية "أرجوك أن تسحب تلك الخدمة إن كنت تريد مني ثمنها.. أنا أعلم أنه لا شيء بلا ثمن عندكم، أنكم تأخذون ثمن كل شيء تقدمونه.. لكنني حسبت أنك أكثر شهامة من أن تفعل بي ذلك. لا أنا لست منهن يا سيدي.. أنا.. "لكنه لم يدعني أكمل، إذ احتضنني احتضان أب حنون... "أعلم.. أعلم ذلك "قال هامساً" اهدئي.. اهدئي.. أخطأنا ونطلب منك السماح، أرجوك اهدئي.. اقعدي... "لا أنا ذاهبة.. بل لن تراني عينك بعد الآن. وهممت بالاندفاع، لكنه من جديد أمسك بمرفقي بيد وبكتفي باليد الأخرى شبه محتو لي، قائلاً "سميرة، ما الذي دهاك؟ أنا طرحت فكرة.. مجرد فكرة.. بوسعك أن ترفضيها أو تقبليها، فما الضير في ذلك؟ "وشعرت بنفسي أفحم. حقاً ما الضير؟ "حسن" تخلصت من إمساكته ثم قلت "لا ضير.. لكنك فاجأتني.. صدمتني.. أنا التي لم تتعرض لأمر كهذا من قبل.. عائلتي.. حسبي.. نسبي".. "أعلم.. أعلم".. قاطعني لكنني تابعت" ائذن لي.. أريد الذهاب".. "ولا نتغدى؟" احتج بصوت كالصياح، "هنا!؟ لا.. لا.." "أين إذن؟" "لا أدري.. فندق، مطعم، بين الناس معقول.. لكن هنا.. مستحيل.. "ومضيت مسرعة ملوحة له بذراعي عابرة المخدع ـ المكتب وهو في إثري، حائر لا يدري ما يفعل.

ضربة صاعقة لصاحب النبالة كانت.. رحت أستعيدها في ذهني وأنا في طريقي إلى المنزل ليشتد فرحي لحظة بعد لحظة. سالومي منتصرة، امرأة تأخذ كل شيء ولا تعطي أي شيء، تسوف، تماطل ما شاءت وربما لا تدفع الثمن أبداً، فهل كنت كذلك سميراميس؟ هل فعلت

مثل ذلك مع الملك نينوس، ملك بابل وآشور؟ حين أخذك من عاشقك منونيس هل أسلمته نفسك في الحال أم ماطلته وسوفته؟ أعود إلى أسطورتك فأقرأ "كانت سميراميس قد بدأت تحب منونيس، كل الحب وقد حزنت لفراقه أيما حزن.. حملها الملك نينوس إلى خيمته وهو يحلم بذراعيها الدافئتين وشفتيها المكتنزتين، بليلة لا ككل الليالي، لكن سميراميس اعتذرت منه "سيدي ومولاي.. أنت ملك البر والبحر، قادر أن تفعل بي ما شئت، ما عدا أن أكون لك هذه الليلة ولا الليالي الثلاث بعدها.. فلدي عذري." وصدم الملك نينوس الذي لم يكن يقف في وجهه شيء، لا مشاة ولا فرسان، لا أسوار ولا حصون، لكن ها هو ذا عذر امرأة يقف في وجهه فيمضي إلى فراشه لينام منكباً على وجهه تلك الليلة وكذلك لياليه الثلاث التاليات..

أتراك ماطلت يا جدتي؟ هل كنت في العذر حقاً؟ أنا لا أصدق. هي خدعة من خدع النساء يلجأن إليها إن كن لا يرغبن.. أنا أعرفك كما أعرف نفسي، بل أنا واثقة أنها كانت مكيدة كي تفعلي بعد ذلك بالملك ما تشائين، تفهمينه أنك قادرة على قول لا حين تريدين ونعم حين تريدين، وإذا كان هو الملك فأنت الملكة أيضاً، صار على رأسك التاج مذ وضعه هناك أمام منونيس والقادة الآخرين جميعاً معلناً إياك زوجة وملكة لبابل وآشور..

أنا مثلك، كنت أشعر وأنا خارجة من لدن صاحب النبالة أنني ملكة وضع على رأسها التاج. صورته وهو فاغر الفم جاحظ العينين سائر في اثري لا تفتأ تعود إلى ذهني وأغدو على يقين أكثر أنه سيكون طوع بناني، ملك يدي أفعل به ما أشاء.. فرحة وصلت إلى البيت، فرحة لاعبت الطفلة الصغيرة، مازحت مدبرة المنزل نفحتها بعض المال، ثم أعملت المسجلة ورحت أرقص، فالرقص وحده كان قادراً على إفراغ ما في صدري من شحنات..

شحنة واحدة لم يكن باستطاعتي إفراغها، فمضيت في الصباح التالي إلى الجامعة.. كان بودي أن أتشفى، أنتقم ممن حاولوا إذلالي. اتجهت إلى الموظف الصلف المغرور "هه.. ما رأيك؟ ألم أسجل ماجستير رغماً عن أنفك؟ "قلت له بصلف أشد من صلفه وأنا ألوح له بوثيقة التسجيل. تأملني لحظة وقد اعتراه شيء من خوف "ما هذا؟ ما الذي تقولين؟ من أنت؟ "أنا سميرة دك السور التي رفضت طلبها".. "أوه.. سميرة.. سيدة سميرة!!" بدأ بنبرة مغايرة تماماً وحركات مختلفة تماماً تشي بمقدار ما ساوره من خوف ورهبة.. أنت.. عفواً.. لم تقولي إنك مدعومة هكذا.. وراءك هكذا رجال".. "اعرف إذن أيها المغفل.. ولا تقف في وجه أمثالي.. اللعنة عليك" قلت وكأنني أبصق في وجهه ثم مضيت إلى رئيسته تلك التي كانت أذكى بكثير. إذ تذكرتني في الحال، وفي الحال نهضت من وراء طاولتها لتستقبلني بالترحاب الذي يستقبل به أصحاب الرفعة والنبالة "أهلاً وسهلاً يا بنتي.. شرفت ونورت.. قولي لي. مسرورة أنت.. ها قد

سجلناك.. تهاني القلبية والحارة وألف مبروك".. شعرت بنفسي وقد أسقط في يدي.. هذه المرائية المنافقة.. من أين جاءت بكل هذا الرياء والنفاق؟ "هـه.. تفضلي.. اجلسي".. وجلست أنا التي أسقط في يدها وقطع عليها الطريق فلا تدري ماذا تقول أو تتصرف!! الحقيقة، أنا عاتبة عليك.. قولي لي إن صاحب النبالة وراءك، هو نفسه يريد تسجيلك.. بيدي.. برجلي.. كنت خدمتك.. فاعذريني... لم أكن أعرف... ومن لا يعرفك يجهلك يا بنتي"..

كاذبة.. مخادعة.. مساحة جوخ".. "كنت أقول في سري وأنا أسمعها تتحدث بحلاوة لسان لم أعرف مثلها قط، لكن شعوراً آخر داهمني أحسست معه أنني حصلت على حقي وشفيت غلي.. ذلك النفاق وتمسيح الجوخ، أليس هو نفسه الإذلال الذي كنت أريده لها؟ ذلك الرياء والكذب، أليسا تعويضاً تقدمه لي عما ألحقته بي من إهانة؟ إذن.. حسبك سميرة.. لا تعاتبيها.. بل امتطي ظهرها إلى غاياتك الأخرى. "دكتورة.. أنا لم آت لعتاب أو لوم "بدأت بكل هدوء ورصانة" بل فقط لنتفق على الأستاذ المشرف".. وبمثل لمح البرق بدأت.. لا تأكلي هماً.. أحسن أستاذ سأعينه لك.. من تريدين؟ هل في ذهنك أحد؟ مريني.. قولي فقط اسمه يكن أستاذك المشرف "وضحكت في سري، ها أنذي أختار الأستاذ المشرف.. آمرها فتسميه لي.. لقد وصلك حقك سميرة، فلا عليك.. استغلي خضوعها تشقي طريقك صعداً وبكل يسر. حددت لها الاسم كما أرادت فكتبته على ورقة ثم دفعت به إلى الديوان لإصدار القرار اللازم. بعدئذ سألتني إن كنت بحاجة لمراجع، وثائق، فهززت رأسي بالإيجاب. "مري إذن.. يومين.. ثلاثة.. تجدي كل ما تحتاجين".

وخرجت من الجامعة وأنا أشعر أن لي جناحين بدل الذراعين، أطير بدلاً من أن أسير.. إلى أن حططت في بيت أهلي.

كان وقت الغداء وكنت أتقصد ذلك. فكل ما فيَّ يضج فرحاً قدرت أنه سينعكس في مرآة كل منهم ليغيظ من يكرهني ويفرح من يحبني، وهو أقصى ما أبتغي. لكن مائدة الغداء كانت خالية إلا من أبي وامرأته... "إي.. زمان طويل وأنت لا تأتين؟ "سأل أبي الذي كنت أتعمد ألا أراه. كان تزمته القديم وتشدده المفرط قد حفرا عميقاً في نفسي مثلما حفرت معاملته القاسية لأمي وملاحقته الدائمة لي.. "أنت تعلم.. ابنتي تشغلني.. لا أستطيع لحظة مفارقتها" "ومدبرة المنزل؟ "قالت امرأته بكثير من اللؤم" ماذا تفعل إذن؟ لم جئت بها إن كنت ستنشغلين بابنتك؟" "سؤالك وجيه.. أنت على حق "رددت بلؤم أشد، "من الآن فصاعداً أنوي أن أشغلها بها، لأنشغل بغيرها.. لكن شيئاً فشيئاً.. بالتدريج." "ماذا؟ أليس لديك دوام؟" سأل أبي فقلت.. "بلى لكن ما هذا الذي أعنيه.. أعني أنني تسجلت في الجامعة أريد أن أكمل الدكتوراه".. "دكتوراه؟ أنت تصبحين دكتورة؟" احتجت امرأة أبي شبه هاتفة. "ولم لا؟ أليس من حقي ذلك؟ الذين

يأخذون الدكتوراه خير مني؟" "لا.. لا... يا بنتي "رد أبي قاطعاً الطريق على امرأته.. "هذا من حقك.. وهل تسجلت فعلاً؟" "طبعاً.. هذه وثيقة التسجيل".. قلت وأنا أقدم له الوثيقة تلمع عيناي فرحاً فيما أرى امرأته تنكمش على نفسها حقداً وتختفي في ثيابها غلاً. "مرحى سميرة "قال أبي وقد سره ما رأى. "أنت تفعلين ما لم أكن أتوقعه منك. "أعلم.. أنا أعلم يا أبي. "قلت في سري وأنا أرقبه يدقق الوثيقة كأنه غير مصدق.. "كنت تحسبني نسخة طبق الأصل عن أمي، مهددة كل يوم بالانزلاق إلى هاوية السقوط فلا أخرج منها أبداً.. أليس كذلك؟ لم تكن تحسب أني تلك الطموح صاحبة الأحلام والآمال التي تعرف جيداً كيف تتسلق وكيف تصل؟ كنت تحسبني غرة تسلم جسدها لأول عابر سبيل أو دافع نقود؟ كنت تموت خوفاً من أن ألحق بك العار.. لكن ها أنذي أتسلق الهرم.. وذات يوم ستجدني في رأس الهرم يا أبي.. الغاية سأصلها.. لكن لا تسلني يوماً عن الوسيلة، المهم أن أبلغ الغاية أياً كانت الوسيلة.."

تلك اللحظة توقفت عن التفكير وقد دخل أخي عاصم هاتفاً "معقول؟ سميرة عندنا.. يا مرحبا.. يا مرحبا "قال بمرح شديد وكأنه فرح حقاً برؤيته لي.. كان قد مر أكثر من شهرين لم أره فيهما، "مرحباً بك.. كيف حالك عاصم؟ "قلت وأنا أحاول النهوض للسلام عليه، لكنه أجلسني على كرسيي من جديد ثم جلس إلى جانبي وهو يقول مازحاً.. "لا.. لا سلام على الطعام.. "فقلت متابعة مزاحه "ولا كلام أيضاً." لكن أبي كان قد مد يده إلي معيداً الوثيقة وقد تفحصها جيداً. أخذتها منه فلفت ذلك نظر عاصم "ما هذه؟" "بارك لها" "أجاب أبي عني" أختك سجلت في الجامعة." "ماذا؟ تريدين أن تأخذي ليسانساً جديداً "سألني وهو يخطف الوثيقة من يدي. لم أجبه كانت الوثيقة كفيلة بإجابته.. لكن بطرف عيني رحت أنظر إليه وهو يقرأ الوثيقة المرة تلو المرة فاغر الفم جاحظ العينين ثم يغمغم "ما هذا؟ أأصدق عيني؟ "لكن امرأة أبي هي التي بادرت هذه المرة.. "لا.. صدق.. صدق.. أليس هذا زمن العجائب؟ "لكن هذا من المستحيلات وليس من العجائب فكيف ذلك سميرة؟ كيف؟ رد وهو أشد جحوظ عينين.. شعرت أن النقاش معه سيذهب بفرحتي وأن مواجهتي له مفرداً خير من مواجهتي له مع أمه التي ما فتئت تحمل لي من الحقد والضغينة ما يهد الجبال، فقلت.. "ألم تقل لا كلام على طعام!؟ كل.. كل.. بعدئذ نتحدث".

في الشقة العلوية حيث كانت غرفتي ما تزال كما هي، عدنا إلى حديثنا.. "سميرة أنت تفاجئينني كل مرة.. فما قصتك"؟ "لا قصة ولا ما يحزنون "رددت وفي نيتي أن آخذ الأمور بالمزاح أكثر من الجد "أنت لديك هدف تريد الوصول إليه.. ألا تبذل المستحيل من أجل ذلك؟" "بلى.. "قال بسرعة فتابعت "وأنا بذلت المستحيل لا أكثر ولا أقل.. لكن هناك قوانين، أنظمة

تحول دون.." "سيدي "قاطعته، ضاحكة." القوانين والأنظمة في بلد القانون والنظام لا في بلد الفوضى والاستثناءات." "تعنين حصلت على واحد من تلك الاستثناءات؟" "عليك نور.. هو ذاك: الاستثناء" "قلت مشددة على كل حرف، فرد بسرعة كأنما يريد الإمساك بتلابيبي" لكن لكل استثناء ثمن فأي ثمن دفعت؟" "لا يهم.. مهما دفعت من مال لا يهم.. المهم بلوغ الهدف.. وفي هذا البلد تصل إلى كل ما تريد بالمال." "هم يقولون شيئان تصل بهما إلى كل ما تريد: المال والمرأة وأخشى أن تكون المرأة فيك هي التي تدفع؟ "وتلجلجت.. حاولت أن أرد لكن لساني تعثر وقد انتصب أمام عيني صاحب النبالة وصاحب الرفعة قبله وهو يقبض الثمن من جسدي أكداساً مكدسة على مدى سنين، فيما الآخر ينتظر... فاغر الفم جاحظ العينين يلحق بي لكي يعيدني إلى جناحه الخفي في مكتبه الشاسع الواسع حيث المذبح.. يذبحني ويأكل من لحمي ثمناً لما قدمه لي من خدمات.. "هه.. لم تجيبيني؟ "سألني بحدة أشد وهو يغرس عينيه في عيني، كأنما يريد اختراقهما حتى الأعماق حيث الدماغ الذي يخزن في داخله حقائق وأسراراً لا أريد لهما إفشاء.. "عاصم.. أنا فرحة وقد جئت إليكم كي تشاركوني هذه الفرحة فلا تفسد علي فرحتي أرجوك." "أنا لا أريد إفساد شيء.. أريد فقط أن أعرف الحقيقة" قال بنبرة أقل حدة وكأنما أجدت نفعاً محاولة التفافي عليه.. الحقيقة!! هو يريد الحقيقة"، قلت في سري وأنا أطرق متفكرة.. "لكن الحقيقة مرة يا أخي.. ليس من صالح الإنسان أحياناً أن يعرفها.. فما لك وما لها؟ "ثم خلصت من أفكاري خشية أن يطول عليه سكوتي فيغضب.. "الحقيقة قلتها لك من قبل.. أتذكر يوم سجلت في الجامعة ما قلت لك. "قلت إنك دفعت مالاً؟" "حسن.. إن كنت قد دفعت من أجل الليسانس، ما المانع أن أدفع من أجل الدكتوراه؟ أهينوا فلوسكم ولا تهينوا نفوسكم.. وأنا أهين فلوسي، فلماذا تندهش؟.. أأنت غريب عن البلد؟ ألا تعرف ما يجري فيه؟" "أنا الذي يعرف.. رد وهو يصعد زفرة عميقة تكاد تحرق كل ما تلمسه.. "قد فسد كل شيء حتى الملح "فأكملت على الفور "وإذا فسد الملح بماذا نملح؟ "إنها عبارته التي لا ينفك يرددها. أطلق زفرة جديدة ثم تابع "المشكلة أن الفساد وصل إلينا.. صرنا نقبله وكأنه أمر عادي.. بل نشارك فيه.. نستغله لصالحنا وهنا الخطورة.. "ماذا إذن؟ تريد أن نعيش في برج عاجي لا علاقة لنا بشيء؟.. هذا أمر واقع، علينا أن نتعامل معه، وأن نسخره لصالحنا أحياناً". "هي ذي الجريمة.. تسخير الأمر الواقع لصالحنا.. وأولو الأمر لا يريدون غير ذلك.. أفسدوا.. أفسدوا حتى يغدو الفساد أمراً واقعاً، مستنقع وحل يغوص الجميع فيه." "ماذا نفعل إذن؟ "سألت وأنا أعرف جوابه جيداً "نكافح ذلك الفساد، نرفض ذلك الأمر الواقع.. نحاول التغيير.. الإصلاح فالله لا يغير ما في قوم حتى يغيروا ما في أنفسهم، "قال وقد بدا قلقه أكثر شدة دافعاً إياه لأن

يذرع الغرفة جيئة وذهاباً كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم تهن بل أو هي قرنه الوعل.. أنشدت وأنا لا أدري من أين أسعفتني ذاكرتي بذلك البيت.. "لا.. لا تقولي ذلك سميرة.. الشعب ليس وعلاً وهذا النظام ليس صخرة... بل العكس هو الصحيح.. هؤلاء من ورق، لو تحرك الناس لوجدتهم يتفتتون تحت أقدامهم مزقاً مزقاً".. "عاصم.. أنت تحلم.. شعبك مكبل بألف قيد وقيد. أأعدها لك: الجهل، التخلف، الفقر، المرض، الخوف، فكيف تريده أن يتحرك؟ ثم أنت نفسك تقول دون أن يتحرك الناس لا فائدة والناس لا يستطيعون الحركة إذن هي حلقة مفرغة.. فالج لا تعالج".

"يا إلهي!! من الذي زرع في رأسك هذه الأفكار"؟ "الحياة عاصم.. أنا امرأة واقعية، أعيش في الواقع لا في الخيال، إذن علي أن أتكيف مع هذا الواقع.. أتلون معه حسب اللون الذي يقتضيه". "حرباء إذن؟ "قاطعني ممتعضاً تماماً" لم لا إذا كانت الحرباء هي المثل الأعلى للقدرة على التكيف؟.. لكي تعيش تتبدل ألوان جلدها فتموه نفسها وتختفي عن أعدائها... أهذه نقيصة؟ لا يا سيدي علماء النفس يعدون التكيف اليوم قمة الذكاء، ذروة الفهم والعقل؟" "لا.. لا.. التلون غير التكيف.. ثم هذا كلام خطير.. أتدري من يقوله؟ الوصوليون الانتهازيون المتسلقون، فهل صرت منهم؟" "أنا لم أصر من أحد، أنا نفسي وحسب" "والانتماء؟ "قاطعني واقفاً فوق رأسي، "ألا تنتمين لهذا الوطن؟ لهذا الشعب؟ ألا يفرض عليك ذلك الانتماء أية مسؤولية تجاههما؟" "لا.. لا.. أنا أنتمي لنفسي، لست مسؤولة إلا عنها... ثم من أنا حتى أتحمل مسؤولية وطن وشعب؟ ..لا.. لا.. وطني هو نفسي وحسب.. انتمائي لنفسي وحسب". "أنت تتوهمين.. سميرة.. المرء بأهله، يخرج منهم وينتمي إليهم وهو مسؤول عما يصيبهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فلا تتكري. نحن ننتمي لهؤلاء الكادحين الفقراء الذين يكافحون من أجل لقمة العيش".. وتذكرت في الحال قول صاحب النبالة عن الراعي والرعية. "لا" صحت باشمئزاز "أنا أكره الفقراء، الكدح والكادحين ولا أريد الانتماء إليهم." "لمن تنتمين إذن؟ "للصفوة. حيث الراعي يرعى والرعية قطيع." "لكن ما شأنك والراعي؟ أنت من الرعية وينبغي أن تنتمي إليها.. "ربما كنت.. لكن لم لا أصير شيئاً آخر؟ لم لا أبدل موقعي؟ الناس يبدلون والفرصة مواتية.. لا.. لا عاصم.. لا أريد أن أبقى كما أنا.. أريد أن أصعد.. أصعد حتى أصير من تلك الصفوة الحاكمة".. "أجل.. أنا أعلم.. أنت تريدين أن تصعدي حتى ولو على خازوق." صدمتني الكلمة لكن سرعان ما كررتها".. أجل.. حتى ولو على خازوق" لكن كان ردي حاسماً إلى درجة دفعت بعاصم لأن يتفحصني قليلاً ثم يزم شفتيه متمتماً "إذن، عليه العوض ومنه العوض.. "ثم انفتل على عقبيه مغادراً الغرفة مكرراً "عليه العوض. ومنه العوض" إلى أن غاب صوتاً وصورة.

خرجت من المنزل وكلي شعور بزهو الانتصار ملاكماً ألحق بخصمه شر هزيمة.. كنت على الحلبة أسدد له اللكمة تلو اللكمة إلى أن أسقطته بالضربة القاضية، ذلك المثالي المجنون الذي يتكلم عن الشعب والوطن، الحق والمسؤولية، مالي ولهذا كله؟ آ.. سميتي!! أكنت تفكرين أنت بالشعب والوطن أم بمليكك المبجل، ملك آشور، وبنفسك ومطامحك يا ملكة بابل وآشور! حين آخذك نينوس إلى قصره ووضع على رأسك التاج الذهبي المرصع باللآلئ الذي تقول أسطورتك إنه كان يشع فوق رأسك كما تشع الشمس في السماء صانعاً هالة من ضوء تحيل الظلمة إلى ضياء والليل إلى نهار، أظللت تفكرين بالشعب؟ بأولئك الذين تركتهم في بابل وأور، بعد أن سحقهم منونيس من قبل؟ أنت صعدت يا سميراميس، صعدت بجسدك، بجمالك، بذكائك.. بلغت القمة وأية قمة أرفع من ملك آشور؟ ركبت الخيول المطهمة، المركبات السريعة، المذهبة، طأطأ لك الجند رؤوسهم، ركع الناس عند قدميك بل حتى كهنة عشتار أنشدوا لك الأناشيد ورتلوا الصلوات داعين لك بالخصب والعطاء، فهل كنت فارغة للتفكير بالفقراء والكادحين؟ هل ظل انتماؤك للرعية، ذلك القطيع من السائمة الذي يسمن ليذبح، أم إلى الراعي، ظل الإله على الأرض، رب العرش والصولجان، كلي القدرة والسلطان؟ لا تجيبيني سميراميس. أنا أعلم حقيقتك وجوهرك.. صحيح أن أسطورتك تقول: لم تنسي يوماً سيمو أباك ولا أمك بالتبني في بابل بل لم تنسي حتى الرعاة الذين كنت تسرحين معهم الإبل والشياه. كنت تزورينهم كلما أتيحت لك الفرصة وكنت تمدين لهم يد العون ما استطعت بل أكثر من مرة حميت مدينتك بابل، حين كانت تقوم بها الثورات ويتمرد أهلها الذين اعتادوا الحرية والاستقلال ويأتي نينوسك مقتحماً مجتاحاً، من عينيه يتطاير الشر يريد هدم أسوارها، حرق منازلها، إبادة شعبها كباره وصغاره فتسرعين تتشفعين لمدينتك، تدافعين عنها دفاع اللبوءة عن عرينها وتمنعين مصيراً أسود قد يحل بها.. لكن الصحيح أيضاً أنك ما كنت تفعلين ذلك انطلاقاً من شعور بالانتماء.. بل تلبية لرغبة، استجابة لطموح يعتمل في داخلك: أن تبقى بابل كي تتوجي ملكة بابل.. أما الانتماء فلنفسك فقط، للملك العظيم طالما هو في خدمتك لتكوني ملكة، ملكة العالم، سيدة البر والبحر..

اتصل بي ملك عالمي وسيد بري وبحري مستفزاً شبه غاضب "أين أنت؟ لم بعدك؟ "فضحكت في سري.. الخطة أجدت نفعاً إذن.. كنت قد انقطعت عنه أكثر من أسبوع.. لا أتصل به، لا أزوره، لا أرد على هواتفه.. "أوه!! سيدي وتاج راسي!! "بدأت بشيء من دعابة متجاهلة نبرة غضبه "عمرك أطول من عمري.. هذه اللحظة كنت سأتصل بك".. "ولماذا لم تتصلي من قبل؟" "سافرت بضعة أيام وانشغلت بضعة أيام".. "سافرت.. إلى أين؟ انشغلت بماذا؟

"وبدأت مسهبة في رد طويل ملفق كله، مخترع جله يحكي عن سفري الذي اضطررت فيه لزيارة خالتي المريضة وجدتي المقعدة ثم أعود لأنشغل بالجامعة: أبحث مع الأستاذ المشرف موضوع رسالتي وعناوين مراجعي تلك التي لابد منها لكتابة الرسالة. "مشرف، رسالة، مراجع.. ما هذه السخافات التي تشغلك عني؟ اسمعي.. أريد أن أراك.. أنا بغاية الشوق إليك" "تآمر.. أنت تأمر.. قلت له بكثير من الرقة والغنج".. "حقاً!! أنا آمر؟! "لانت نبرته للتو.. فبدأت أغني له بأرخم صوت كان باستطاعتي استخراجه:

يا حبيبي أنت تحيا لتنادي

يا حبيبي أنا أحيا لألبي

"الله!! الله!!" ارتفع صوته هاتفاً "وحبيبك أيضاً؟؟ أوه!! هو ذا الكلام الذي ينبغي أن أسمعه.. هيا.. أسرعي.. أنا بانتظارك.. "أين؟ في المكتب" "وماله المكتب؟ إنه أحلى عش للغرام".. "لا.. لا.. أنا أتشنج من المكاتب، أكره المكاتب.. بل لا أستطيع أن أتصور مكتباً للعمل يصلح عشاً للغرام.. لا أرجوك".. "لكنك تعلمين أنني لا أستطيع رؤيتك في مكان عام.. هكذا جهاراً نهاراً أمام الناس.. أم نسيت من أنا؟ نسيت أنني متزوج ولي أولاد كبار".. "لا .. لم أنس.. أنت على عيني وراسي.. مكانتك في القلب.. لكن اعذرني.. المكتب ضرة لي فهل تطيق المرأة ضرتها؟ "وكأنما خدعته الصورة، سمعته يضحك لا كضحكة مؤنس ذات الفرقعة العالية، بل ضحكة مكتومة متقطعة، كأنما كان طوال صباه لا يجرؤ على الضحك علناً. "والحل؟ أنا أريد أن أراك واليوم.. أتسمعين؟ اليوم." "حسن، تعال إلى بيتي".. "بيتك.. "أجل.. أنا هنا مع مدبرة المنزل فقط، وابنتي الصغيرة.. ستحبها.. هي الآن أول مشيتها.. أول لثغاتها".. "لا.. لا.. "قاطعني وكأن الأمر كله لا يعنيه "أنا عمري لم اذهب إلى بيت امرأة. أكره بيوت النساء" "لماذا؟" شردت مع أفكاري.. "أيخاف القط مكيدة من مكائد الفأرة؟ أيخشى الثعلب فخاخ الصيد فلا يقترب من الدجاجة؟" لكنني عدت من شرودي وقد طرقت مسامعي كلماته ملحاحة.. "اسمعي.. سميرة.. المكتب هو الآمن والأضمن لنا كلينا.. فلا نتعرض لخطر.. هيا... تعالي.. "ووجدتها فرصة مناسبة أهاجمه بها بدلاً من أن أدافع "لا أدري.. لم أر عمري رجلاً عديم الحيلة مثلك.. ترى أليس هناك شقق في المدينة؟ فيلات في الضواحي؟ أليس لديك أنت مزارع طويلة عريضة؟" "عندي مزارع.. وهناك شقق وفيلات.. لكن لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان.. لا أستطيع".. "لماذا؟" "حين نلتقي أقول لك لماذا؟ "واستغربت.. حتى رجل مثله.. صاحب نبالة رفيع الشأن لا يجرؤ على التكلم في الهاتف، هو يخشى الجواسيس إذن، مسترقي السمع ومتلصصي البصر؟

"حسن".. لمع في بالي خاطر كالبرق.. "أليس لديك سيارة؟" "مائة سيارة لدي".. "إذن.. نذهب مشوار".. "مشوار؟".. كرر كالببغاء.. ثم دون تفكير وافق.. "حسن.. عند الساحة الغربية الساعة الثامنة مساء".

ترقب إذا جن الظلام مجيئتي فإني رأيت الليل أكتم للسر أنشدته في الحال ثم أغلقت السماعة وأنا أشيل برأسي زهواً بانتصار أخير على ملك عالمي وسيد بري وبحري..

لكن سرعان ما رد الرجل بانتصار قطفه مني قطفاً وعلى وجه السرعة. إذ ما إن اجتزنا بسيارته الساحة الغربية حتى انقض على شفتي يقضمهما قضماً. حاولت التخلص لكنه كان قد حشرني في مقعدي مثبتاً إياي ملقياً علي ثقله كله بحيث لا أستطيع التزحزح أنملة واحدة. "لكن.. يونس.. انتبه سيرانا الناس "في تلك اللحظة فقط أزاح عني ثقله وأفلت شفتي وهو يتمتم "من هذه الناحية لا تخافي.. السيارة معتمة تماماً.. ترين فيها ولا تُرين" ونظرت فيما بدأ يسوق على مهل. كان الزجاج كما قال معتماً وكانت الستائر مسدلة في الخلف، الجانبين، وحده الزجاج الأمامي كان بلا ستائر، لكنه "الفيميه" الذي يسمح لك أن ترى الخارج دون أن يراك الخارج: "قد فاجأتني "قلت وأنا أسترد أنفاسي وقد أوشكت تنقطع تحت كلكله.. "المفاجأة نصف النصر وقد أردت أن أسجل ولو نصف نصر." وأدركت كم يشعر بالهزيمة هو الذي قدم لي تلك الخدمة الكبيرة دون أن يلقى جزاء صغيراً. "ما كنت أحسب أن ما بيننا معركة ينتصر واحدنا فيها أو ينهزم. "لا.. احسبي يا جميلتي.. الحياة كلها معركة أنت فيها طرف والآخر طرف.. خذيني مثلاً.. حين بدأت حياتي العامة كان لي الكثير من الخصوم من أبناء بلدي، أقربائي لا يكنون لي إلا العداوة والحقد فراحوا يكتبون بي التقارير.. يجرحون بي، يشرحونني.. وكان علي كي أشق طريقي أن أكتب بهم التقارير، أزيحهم من طريقي، أدوس عليهم ولقد فعلت".. "دست عليهم؟ "سألته بهدوء وأنا أعجب من سرعة اعترافه بأسرار لم أكن قد طلبت معرفتها.. "بالطبع.. مائة أم تبكي ولا أمي تنزل من عينها دمعة واحدة.. ذلك كان مبدئي منذ البدء، وذلك ما سرت عليه طوال حياتي." "مبدأ عظيم.. يعجبني كثيراً" "قلت فتابع "كنت أقول دائماً مصلحتك يا ولد أولاً وثانياً وثالثاً ثم أية مصلحة أخرى.. وإذا تعارضت المصالح مع المبادئ في لحظة من اللحظات أضحي بتلك المبادئ.. أضرب عرض الحائط بالقيم كلها من أجل مصالحي.. وشعرت أنه يريد أن يلقمني مبادئه، أن يلقنني أول درس من دروسه كطيب الذكر صاحب الرفعة ذاك.. "رائع!! هذا كلام جميل ربما لم أسمع أحداً يتجرأ على قوله "قلت بمزيج من المداهنة والاقتناع، إذ كان ذلك هو ما أؤمن به في صميم نفسي. "أنا أتجرأ".. رد وهو يسلك طريق غابة قريبة جعلتني أتوجس خيفة مما يدور في ذهنه. "بل لا أحسب

أن أحداً هنا لا يفكر هكذا.. لقد ولى عصر المثالية يا جميلتي.. صار الناس كلهم يؤمنون بالمادة، بالمنفعة فقط.. معك قرش تساوي قرشاً، أليس هذا ما يؤمن به كل الناس؟" "بلى.. ويؤمنون أيضاً بأن من أخذ أمي صار عمي، وامش الحائط الحائط وقل يا رب الستر، واليد التي لا تستطيع عضها قبلها وادع عليها بالكسر".. "الله!! الله!! أنت نبع أمثال لا ينضب.. من أين لك هذا؟" "ماذا؟ هل تحاسبون الناس على ما يحفظون من أمثال..؟ أم تراها أموال عامة مسروقة؟ "وضحكت.. "لا.. لا.. نحن لا نحاسب أحداً.. نكره حتى كلمة المحاسبة".. "لم ترددون ذلك الشعار إذن؟" "هذا للاستهلاك يا جميلتي.. أم تراك لم تسمعي بالاستهلاك؟" "سمعت به لكنني لا أفهمه كثيراً" "أنا أفهمك يا جميلتي .. كلام الاستهلاك شيء لا تعنين به شيئاً، تطرحينه للناس كي يتداولوه، يتسلوا به يتلهوا عنك فيما أنت تفعلين ما تشائين" "حسن.. جميل الآن فهمت.. لكنني لم أفهم سبب انزعاجك حين سمعت كلامي عن المشرف، الرسالة، المراجع.. فقلت سخافات.. أهذه كلها سخافات حقاً؟" "طبعاً، ولا أريدك أن تشغلي نفسك بمثل هذه السخافات".. "لكنها حياتي الآن.. مصيري متوقف على الماجستير، إن نجحت مهدت لي الطريق إلى الدكتوراه وإن لم".. "لا تقولي إن لم".. قاطعني ضاحكاً ضحكته المتقطعة المكتومة".. ليس هنالك شيء، من هذا القبيل.. ستنجحين.. ماجستيرك في جيبي "قال وهو يدق على جيبه.. "حقاً! أوه!! كم سأكون شاكرة لك، لكن كيف؟" "لا تسأليني كيف ولا كم.. نحن هنا نضع الكيف والكم... فلا تتعبي نفسك ولا تدرسي مراجع".. "وكيف أكتب الرسالة؟" "لن تكتبي رسالة.. غيرك سيكتبها لك اطمئني".. ووجدتني أتنفس الصعداء.. أية راحة!! أية مساعدة يوفرها لي إذن؟.. المراجع الخمسون التي زودتني بها رئيسة القسم لن أقرأ منها كلمة واحدة.. تعليمات المشرف وتوجيهاته كلها سألقيها في سلة المهملات وأظل حرة خالية المسؤولية لا تعب ولا إجهاد.. آه يا سميراميس!! ما أحلى أن تعيشي مثل هذا الشعور!! لكن أنت خبرته جيداً يا ملكة الشرق والسحر: الناس كلهم خدم لديك يبتغون مرضاتك وأنت هناك تتربعين على عرشك، بسبابتك تأمرين ببنصرك تنهين. كلهم جاهزون لأن يخرجوا لك الكستناء من النار ثم يقشروها ويقدموها على طبق من ذهب.. آه على الذهب!! السلطة! الجاه!! والناس يسجدون لك صاغرين. "أطمئن هذا وعد؟" سألته لأزداد تأكداً وثقة. "قلت لك اعتبري لا الماجستير فقط بل الدكتوراه أيضاً في جيبك." قال بتباهي من يعرف نفسه جيداً ويثق بما لديه من سلطة جيداً. ولم أتمالك نفسي بل دون أن أشعر ألقيت بنفسي عليه أقبله القبلة تلو الأخرى إلى أن صاح خائفاً "حذار.. السيارة انحرفت.. سنتدهور في الوادي "وانكفأت مسرعة عنه ليعيد السيارة بحركة مقود جعلتني أشعر بكثير من الخوف.

مـد يـده ربمـا لكـي يهـدئ خوفـه إلى زر قريـب مـن اللوحـة الأماميـة ضـغط عليـه بإصبعه فانفتح باب صغير عن مشرب أنيق مرتب مليء بزجاجات حمراء وصفراء وبيضاء، فيما بـرز مـن الأعلـى لـوح بمثابـة طاولـة يحمـل كـوبين نظيفين لامعـين وكـأنهمـا خرجـا لتوهمـا مـن جلايـة صحون. "مـاذا تـشربين؟ "سـألني فتذكـرت أن علـي أن أدعـي غير حقيقتي، أن أظهـر مـا لـست أبطـن. "أشـرب!؟ "قلـت بنـبرة اسـتنكار فاتحـة عـيني علـى سـعتهما، صـورة بلـهاء للدهـشة والاسـتغراب. "نعـم.. نعـم نـشرب.. هنـا لـدينا كـل شـيء.. شـراب.. طعـام، دخـان، فواكـه.. أنـت تعلمين.. الأمريكـان يفكـرون بكـل شيء. يحسبون لكـل حـال حسابها.. فلنـستفد مـن عبقريـة الأمريكـان".. وضحكـت.. صحيح.. مشرب في سيارة لا يخطـر ببـال.. صـاحب الرفعـة لم يكـن يأخذني بسيارته، لم نكن نخرج مشاوير، فكيف أعرف عبقرية الأمريكـان؟.. إنه أمامي فلم لا أنتفع به؟ لكن أين البراءة التي أدعي؟ أين العفة والطهر؟ كان علي أن ألبس ذلك اللبـوس أو أكلـني الـذئب ولم أكـن أريـده أن يـأكلني إلا عنـدما أريـد. "لا.. لا.. أنـا لا أشـرب.. أنـت تعلـم.. نحن من بيئة محافظة. بيتنـا لم يدخلـه شـراب قـط.. أبـي.. أخـوتي شـديدو التعـصب.. أعفـني مـن ذلك.. أرجوك".. "يا إلهي.. أنت زمِّيتة حقاً؟ أنت خريجة أزهـر؟ "قال ناظراً إلي نظرة العتب واللـوم. "أكـاد "قلت وقد أعجبتني اللعبـة.. "أبـي أشـد تعـصباً مـن رجـال الأزهـر؟ برنامجـه في الحيـاة، نظرته إلى المرأة، مفاهيمه، أفكاره كلها أشد تحجراً من مفاهيم وأفكار أولئك".. وسـكت وهو يرقبني بطرف عينه فيما عينه الباقية على الطريق الـذي كـان ينحـدر باتجـاه غابـة صـنوبر تطرز حواشي المدينة.. "تصور، لم يكن يدعني أذهب إلى المدرسة إلا برفقة حراس شخـصيين، أعود من المدرسـة إلى البيت لا خـروج أبداً.. لا زميلات، لا بنـات حـارة.. "غرفتـك وحسب، ذلـك كـان مبدأه، فأين لي أن أتناول الكحـول والـشراب"؟ قلت وأنـا أتحـدث عـن المرحلـة الأولى مـن عمري حين كان أبي كل شيء في حياتي، يلقي بظله علي أثناء الليل وأطـراف النهـار فكيـف لا أكـون صادقة؟

"آ.. هو ذا إذن ما يفسر خجلك واحمرار وجهك؟" "أجل.. لهذا سامحني إن رأيتني منكمشة على نفسي خوافة كـالأرنب".. "لكنك تزوجت.. عرفت الاستقلال.. الحرية؟" "تزوجت.. صحيح، "قاطعته على عجل "لكن دون أن أتعلم الاستقلال.. الحرية، كما تقول. لقد كـان أهلـي دائمـاً معي.. وإن غابوا ثمة مدبرة منزل تحل محلهم وتـأتمر بـأمرهم... سـكة حديـد وأنـا القطـار الـذي ينبغـي أن يـسير عليهـا، لا يمـين لا شمـال أو كـان في ذلـك هلاكـه.. فـلا تؤاخـذني.. أرجـوك".. "تعلمين؟.. مظهرك يخدع" "حقاً؟ "قلت باستغراب.. "أجل حين رأيتك هناك "وأشار باتجاه مكتب صاحب الرفعة ثم تابع.. "قلت إنك في قمة التحرر، بل حين علمت أنك تطمحين لنيـل الـدكتوراه

أيقنت أنك متجاوزة كل القيود والحدود".. "لا.. لا.. أنا أحترم القيود والحدود.. بل ألتزم بها كل الالتزام.. ولا أرى في ذلك تناقضاً مع تحرري وطموحي.. أجل أنا طموحة.. أرغب في أن أكون أحسن النساء، أرفعهن مقاماً، لكن دون أن أفعل ما تفعله تلك النساء".. "أنت درة.. جوهرة حقيقية لا يجد المرء مثلها هذه الأيام".. ومال علي سريعاً.. تظاهرت بأنني لا أدرك قصده فطبع قبلة على خدي فرحاً فرح من سرق ما يريد بأيسر مما كان يظن.

في الآن نفسه انحرف بالسيارة إلى درب ترابي يخترق الغابة.. حين وصل إلى أجمة من الأشجار، أوقف السيارة فتحفزت.. اقترب فابتعدت.. غنجاً أغراه بالاقتراب أكثر.. لكن لم يكن باستطاعتي الابتعاد كثيراً إلا إذا دفعت الباب وخرجت.. فأسرع يلقي بثقله، هو الشحيم اللحيم، الأكرش الأبرش علي. كنت أعلم أن علي أن أرخي الشعرة قليلاً فلا ينقطع ما بيننا أو بكلمة أخرى، أسدد بعض الدين الذي له في عنقي.. بقوة لف عنقي بذراعه وبقوة سحب رأسي باتجاهه لأجد نفسي قبالته وجهاً لوجه وفماً لفم.. قبلة طويلة قبلني.. احتضاناً شديداً احتضنني وكلتا ذراعيه صارتا حولي فكي كماشة تطبقان إطباقة اللافكاك.. لكن شيئاً في داخلي أعترف لك بكل أمانة وصدق لم يتحرك، شعوراً واحداً من مشاعري لم يثر، كأنني تحولت إلى قربة من جلد في ليلة صقيع.. كانت شفتاه رقيقتين حتى كدت لا أشعر بهما.. أسنانه حادة كادت تدمي شفتي، ذراعاه قويتين تعصرانني حبة زيتون حتى شعرت أنني أختنق.. أن ذراعيه، شفتيه، كل ما فيه أنشوطة تنعقد حول عنقي، تحول بيني وبين أنفاسي.. "أوه!! يونس"!! شهقت متملصة منه "أكاد أختنق!! أكاد أموت دعني أتنفس." وبدافع من خوف ربما رأيته يتراجع مفسحاً في المجال لأنفاسي تأتي وتذهب.. تنفست الصعداء وأنا أنفض رأسي وجذعي نفض دجاجة لريشها بعد أن يفعلها معها الديك. أكلهم ديوك؟ أهكذا هم يشعرون؟ يريدون أن يعتلوا الدجاجة بأي شكل.. يخضعوها.. يمرغوها.. أنا لا أدري يا سميراميس ما أدريه أن كل ما شعرت به تلك اللحظة لم يعد أنني مجرد دجاجة يريد أن يعتليها الديك.

جرع الديك جرعة كبيرة من معتق الويسكي الذي سكبه لنفسه دون أن يسكب لي شيئاً.. بعدئذ التفت إلي تقرباً مني متمتماً قرب أذني "أنت شهية.. شفتاك شهيتان فكيف ذاك الذي بين فخذيك؟ "وبكبسة زر وجدت نفسي أستلقي على ظهري وعيناي إلى السقف.. كان المقعد عريضاً وكان طويلاً. بكبسة الزر تحول إلى سرير وثير فيه أسباب الراحة كلها أرأيت؟." "قال وهو يتمدد إلى جانبي "هنا يمكن أن يكون لنا جناح خاص وسرير مريح." "لا.. لا.. "قلت وأنا أنتفض جالسة مبتعدة باتجاه الباب. ما هكذا يا سعد تورد الإبل!!" "لم لا؟ الليل يخفينا ونحن هنا وحيدون.. لا أحد يعكر صفونا.. سيارتنا لنا.. سريرها واسع فلم لا"؟ "لا..

أرجوك.. في السيارة نمارس الجنس؟ لا.. لا.. مستحيل.. الجنس في نظري شيء خاص جداً حساس جداً لا يجوز مقاربته إلا في جوه الخاص وشروطه الخاصة".. "لكن .. ما ينقصنا هنا والشروط كلها متوفرة؟" "ينقصنا الأمان.. الشعور بالطمأنينة.. بالحميمية.. وأين هذا كله؟ ما يدريك أن يخرج لنا بعد لحظة قاطع طريق؟ أن تدهمنا دورية أمن، حارس غابة؟ وشعرت به يرتجف وهو يبتعد عني ليتصلب وراء مقوده.

"الخصوصية، الحميمية، الأمان، "تابعت وفي نيتي أن أطرق الحديد وهو حام. "كل ذلك يضفي على الإنسان تميزه وفرادته وإلا كان حيواناً.. يمارس الجنس كأي حمار.. لا.. لا.. أنا لا أستطيع أن أمارس الجنس كيفما كان وأينما كان كأية أتان أو معزاة، أم تريدني أن أكون مثلهما وتكون أنت مثل ذكريهما"؟ ورأيته يتصلب ويتشنج أكثر "قلت لك نذهب إلى المكتب.. هناك الأمان، الاطمئنان، الحميمية بل نستطيع أيضاً أن نضفي جواً من الرومانس فنشعل الأضواء الخافتة ونحيل ليلتنا إلى ليلة حمراء لم يعرف لها مثيل".

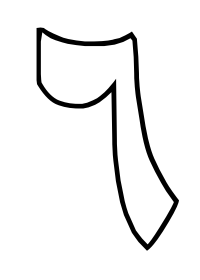
"المكتب!؟ قلت لك رأيي في المكتب ولا أريد أن أعيد.. لكنني أعيد وأكرر.. أريد شيئاً خاصاً جداً لا يغدو معه الجنس مجرد جنس.. بل حب.. صدقني أنا أريد الحب أطمح للحب.. للحضن الدافئ الحنون الذي أحتاج إليه أمس الحاجة".. "لكنني أحبك.. "قال وهو يدنو إلي من جديد "صدقيني أنا أحبك وهذا حضني ستجدين فيه كل الدفء والحنان". "لا.. لا.. أنت تشتهيني.. أنا أعلم.. الرجال كلهم هكذا يرون امرأة جميلة فيشتهونها.. يظنون أنه الحب.. لكن هو مجرد نزوة.. يقضي الرجل وطره من المرأة ثم يمضي.. وليس هذا ما أريد.. الشهوة.. الرغبة.. النزوة.. كلها اعتدت أن أكبحها، أن أكبت غرائزي كلها لأنني أريد شيئاً واحداً هو: الحب." "يا إلهي!! كيف أقنعك أن ما أكنه لك هو الحب؟" "شروط كثيرة.. معطيات كثيرة لابد من توفرها قبل أن تستطيع إقناعي".. "مثلاً" قال شبه مازح فقلت بنبرته ذاتها.. "تخرج بي الآن من هذه الغابة الموحشة." وللتو، اتخذ وضعية السائق، أدار مفتاح سيارته، زمجر المحرك، قام بحركة وراء در، ثم عاد إلى الطريق الذي كان يعج بالسيارات.

على أضوائها المتخاطفة رحت أرقب وجهه، فرحة في داخلي سعيدة. لقد انتصرت.. أنا التي كنت قد توجست خيفة من الذهاب إلى الغابة.. لكن ها أنذي أخرج سالمة مطمئنة كما خرج إبراهيم من النار.. فيما هو تمثال للصدمة وخيبة الأمل.. كظيم لا يكاد ينبس بحرف..

"ما بك؟" سألته وقد خشيت عليه القنوط.. كان ينبغي أن يظل لديه بعض الأمل، أو انقطعت الشعرة.. خطتي هي أن أماطل، أسوف وهو يلح ويلحف إلى أن أصل إلى ما أرجو.. وما

أرجوه كبير.. إنه السلم الذي سيوصلني إلى القمة.. فكيف أجعل ما بيني وبينه ينقطع؟ "لا.. لا شيء." قال وهو يزفر زفرة كادت حرارتها تلفحني.. "أوه!! إلى هذه الدرجة ضيقك"؟ "وأكثر.. أنت تريدين إهانتي، إذلالي"؟ "أنا!؟ سامحك اللّه.. أنا ما أردت إلا حبك "وأنا أحبك.. قلت لك.. أحبك.. صدقيني لم أحب امرأة قبلك.. فماذا أفعل كي تصدقيني؟" "ائتوا ببرهانكم إن كنتم صادقين". قلت بكثير من الجد فارتد إلى الوراء متفرساً بي. "أي برهان تريدين"؟ "لا أدري.. "قلت بشيء من الحيرة. "لكن إن تفكر قليلاً تعلم.. البرهان على الحب هو في توفير شروط الحب.. تلك التي حدثتك عنها".. "أنا على أتم استعداد لتوفيرها لك.. لفعل ما تشائين.. شبيك لبيك عبدك بين يديك." "أرى بعيني "قلت وقد اطمأننت أنني صرت سيدة القمقم" كيف؟ ماذا تريدين بالضبط؟" قال بانفعال وسرعة.. "نسافر خارج هذا البلد.. "رددت بالانفعال والسرعة ذاتهما. همد لحظة ثم تمعن بي النظر.. "أنت على حق "قال وهو ينظر بعيداً.. "أجل نسافر خارج هذا البلد.. اسمعي سميرة.. بعد ثلاثة أيام.. أنا ذاهب في وفد رسمي إلى مدينة البحر.. أتأتين معي"؟ "كيف لا؟ أنا مستعدة للذهاب معك إلى بلاد الواق واق.. "قلت وأنا أتذكر متلمظة الشفتين رحلة قمت بها إلى تلك البلاد.

"إذن.. هيئي نفسك.. تسافرين يوم أسافر، تنزلين الفندق الذي أنزل فيه.. أنهي المفاوضات ثم نلتقي".. وعلى الفور ملت عليه أضع قبلة على خده إمضاء على خاتم..



(كنتِ العاصفة

وكنتُ البرج العالي

الذي يتحدى قوتها

كان عليك أن تتحطمي أو تهدميني

لذلك كان حبنا مستحيلا

كنت المحيط وكنت الصخرة المنتصبة

التي تتحمل بثبات مده وجزره

كان عليك أن تتهشمي أو تقتلعيني

لذلك كان حبنا مستحيلاً

أنت جميلة وأنا متشامخ

وقد اعتدنا

أنت أن تقودي وأنا ألا أنحني

والدرب ضيق والصدام محتم

لذلك كان حبنا مستحيلا

رغم أن عالمي كان ينتهي في عينيك)

هكذا كان يخاطبك نينوس يا سميراميس وقد حوله حبك إلى شاعر ينظم القصائد ويسفح الأشعار عند قدميك كما تسفح موسيقى القيثارات تحت شرفات المعشوقات.. لكن هل أحببته أنت كما أحبك؟ أقرأ أسطورتك فأراها تقول:

"نقض نينوس وسميراميس كل القوانين وسخرا من تقاليد الآشوريين فكانا لا يفترقان حتى في الاحتفالات الدينية التي كانت تقتصر على الرجال دون النساء.. ففي معبد مردوخ أو عشتار أو سن، كانت سميراميس معه، يدها في يده وقدمها على قدمه. يحتج الكهان، يتهامس الناس، لا يهم.. كان ملك آشور وبابل لا يستطيع فراق سميراميس وكانت هي لا تستطيع فراقه:

في المهرجانات هما معاً، بل لا تتردد في مشاركة الناس احتفالاتهم، تبارز أبطال آشور وهي متنكرة بزي الفرسان فلا يعلم واحدهم أنه يبارز ملكة آشور. تدخل سباقات الخيول لتحرز قصب السبق دون أن يعلم أحد أن الفارس المنتصر هو سميراميس، ملكة آشور الحسناء، بل حتى الجري، القفز فوق الحواجز، المصارعة.. كلها كانت تشارك فيها ملكة آشور وهي بزي الرجال، لا يعرف بأمرها أحد سوى الملك نينوس الذي راح يزداد حباً وهياماً بها وهو يراها تجمع بين الجرأة والشجاعة، الذكاء وقوة الشخصية، فصار يبوح لها بكل ما في نفسه لا يخفي عنها أمراً ولا يكتم سراً. كان برجاً عالياً وكانت هي عاصفة لكن بدلاً من أن يصطدما، اتحدا وتماهيا حتى صارا كلاً واحداً، أحلامهما واحدة، أفكارهما واحدة، أمانيهما واحدة، وكان أكثر ما يحلمان به ويتمنيانه معاً هو أن يمدا رقعة حكمهما ويبسطا نفوذهما الآشوري أكثر فأكثر، يبوح لها نينوس بما في نفسه من أحلام فتمجد سميراميس أحلام نينوس وتشحذ عزيمته بقولها.. "أنت لا تقهر يا مليكي، يمكنك أن تذهب بجيوشك إلى نهاية العالم فأتبعك وأظل إلى جانبك.. ستبني قصوراً ومدناً عجيبة غريبة تخلد على مدى الدهر "ويبتسم نينوس ويقول "ستجعلين يا مليكتي الحدائق الغناء تنبت في الصحارى".

ذلك نفسه ما كان يقوله لي صاحب النبالة ونحن في شهر عسلنا. "تنمو المروج على يديك وتتحول الصحارى إلى حدائق غناء". أرأيت كيف يعيد التاريخ نفسه يا جدتي الرائعة!؟ أنت جعلت من نينوس عاشقاً متيماً لا يرى الدنيا إلا فيك وينتهي العالم كله عند عينيك وأنا حولت يونس إلى شيء كهذا.. يركع عند قدمي، يتعبد في محرابي كأني أنا نفسي عشتار.. تغدق عليه عواطف الحب، تلهمه كل صورة من صور الحب.. لنصنع شهر عسل لا ألذ ولا أشهى..

كنا قد التقينا في مدينة البحر وفق خطة وضعناها بإحكام وكان الفندق الذي اختاره بعيداً قليلاً عن المدينة، أحواض سباحة، حمامات ساونا، حمامات جاكوزي، ملاعب، متنزهات، تجعل منه حديقة غناء حقاً، كيف لا واسمه نفسه الحديقة؟ أما الجناح الذي أفرد لنا فكان كبيراً واسعاً، حميماً دافئاً، غرقنا في أحضانه أربعاً وعشرين ساعة كاملة لم نغادره قط.. بعد ذاك خرجنا، سبحنا، تنزهنا.. الدار دار أمان.. الناس فيها لا يعرفونني، أنا التي لم تخرج إلى الحياة العامة ولم تصبح شخصية عامة بعد. هو نفسه وصل متنكراً، أعرابياً من الصحراء يلبس الدشداشة والعقال.

"فكرة فذة أعجبتني... "كيف خطرت ببالك؟" سألته فأجاب بشيء من تلعثم.. "الحذر واجب والحيطة ضرورية.. أنت تعلمين... الفضائح تتربص بنا في كل مكان.. وأي قيل أو قال يوجع لنا رأسنا لهذا نتنكر، نتخذ مثل هذه الإجراءات. "وبدا لي وهو يتلعثم، أنه كثيراً ما

اتخذ مثل تلك الإجراءات.. لم يكن ذلك ما يهمني.. ما يهمني هو أن أؤجج نيران غرامه فلا تنطفئ أبداً، ولكي أحقق ذلك استعنت بكل ما في الدنيا من غنج الأنثى، حياء الأنثى كي ألبس لبوس العفاف والصدق فلا أبدو شهوانية متطلبة.. كنت بين يديه قريبة قرب حواء من آدم، لكنني في الوقت ذاته بعيدة كأية امرأة في جزيرة سرنديب.. كان يلاعبني ألاعيبه، يداعبني أداعبه حتى إذا ما هم بي رغت منه، يلاحقني فأفر منه هنا، هناك، ثم نحيل الأمر كله إلى دعابة ومزاح. الغنج!! آه ما أروع ذلك السلاح وما أمضاه!! تستخدمه الأنثى فتفتن الذكر أكثر، تضع في يديه ورجليه قيوداً أكثر تسحبه بها إلى حيث تشاء. أنت استخدمت ذلك السلاح يا سميراميس، أليس كذلك؟ أنا متيقنة من ذلك. إنه السلاح الذي يخلق مع الأنثى يوم تخلق، فكيف لا تستخدمه؟ اغنجي على الرجل يزدد ولعاً بك، تدللي يزدد توقاً إليك، بل احتراماً وتقديساً لك.. "حتى لو وصلت إلي أعلم أنني العفيفة الشريفة الطاهرة النقية التي لا يصل إليها أحد".. تلك هي الرسالة التي أردت إيصالها إليه، فازداد تعلقاً بي، اشتد لهفة للوصول إلي، وكنت دائماً أجد الطريقة الأذكى للفرار من بين أحضانه. الود ودي أن أسلمه نفسي أقل ما أستطيع، ولا أخفيك كنت أسلمه نفسي مكرهة لا بطلة، فصاحب النبالة لم يكن بالنموذج الذي أحب وهو لابس.. فكيف عارياً؟ كان كرشه المندلق يثير في نفسي نوعاً من الغثيان، شحومه ولحومه المتهدلة تبعث بي ما يشبه القشعريرة، والأنكى من ذلك أنه كان يحب العض. أسنانه حادة سرعان ما تركت في جسدي البض خدوشاً وجروحاً، ازرقاقات واحمرارات.. كنت أصرخ وأتوجع فيفرح أكثر فأكثر.. أتراه كان سادياً؟ لا أدري.. لكنني كلما ازددت صراخاً وتوجعاً ازداد لي عضاً وقضماً.. نهداي!! آه كم تلقى نهداي منه!! كم عضهما!! أتراه لم يرضع ثدي أمه كما ينبغي!! ضنت عليه بنهديها فأراد أن يعوضهما بنهدي؟ الله أعلم.. لكن ما أعلمه أن جل اهتمامه ومداعباته كانت تتركز على صدري ولم أكن أنجو منه إلا بالفرار.. فيضحك سعيداً وهو يلاحقني.. كأنما ذلك يرضي الفحولة فيه.. ألا تهرب أنثى الحيوان من ذكرها؟ ألا تجعله يلاحقها حتى النفس الأخير فتؤكد له أنوثتها، وتثير فيه فحولته إلى أقصى حد... صاحبي كان يكتفي بتأكيد أنوثتي.. إذ سرعان ما كانت فحولته ترضى بملاحقة الطريدة وتقنع بالفرار..

ثلاثة أيام ظللنا.. شهر عسل صنعنا، لكن مشاغله لا تسمح بالبقاء أكثر، مكانته لا تتيح له الاختفاء أكثر، فظل طوال الليلة الأخيرة يعتذر مني، وظللت طوالها أيضاً أنحو باللائمة عليه، أتصنع الحزن على فراقه الوشيك، فوعد أن يسقيني العسل دائماً، بل أن تظل حياتنا كلها شهر عسل..

على ذلك افترقنا عائدين إلى مدينة البر، أنا وحيدة مفردة، وهو مع وفد أنهى مفاوضات بالغة الأهمية والحسم. كانت خطتي قد أجدت نفعاً: المماطلة والتسويف أولاً ثم الغنج والدلال ثانياً، فلم نفترق إلا وهو العاشق المتيم الذي لا يستطيع لي فراقاً. ذلك كان الهدف.. تجربتي مع مؤنس علمتني أن لا أكررها ثانية، فقد كان أشد ما يؤذيني شعور دائم أن باستطاعته لفظي في أية لحظة كما تلفظ النواة.. شعور مخيف كنت أريد التخلص منه، فلا يستطيع الرجل الجديد الاستغناء عني أبداً.. أصبح بالنسبة إليه الملجأ والملاذ، الحبيبة والكينونة التي لا حياة له بغيرها، وكان ليونس مواصفات تجعله أقرب للعب هذا الدور... يونس صلب خارجاً هش داخلاً، ظاهره شيء وباطنه شيء أخر.. هو يتصنع القوة لكنه ليس بقوي، الجرأة وليس بجريء، الثقة بالنفس وهو ضعيف متردد.. لعله في طفولته تلقى الكثير من الإهانات والإذلال.. إذ عمل صانعاً لدى اسكافي ثم لحام ثم بائع خضراوات.. كان الفقر يجبره على العمل صيفاً لتوفير نفقات الدراسة شتاء، فجعله ذلك يشعر بالدونية تلك التي تركت بصماتها واضحة على النفس التي كانت تتبلور وتتشكل كما تركه جشعاً يحب المال، يريد أن يخزن أكبر قدر يستطيع الوصول إليه دون أن يخشى في ذلك لومة لائم.

"يجب أن نجمع الثروات، نكدس الأموال "قال ذات ليلة ونحن نرشف كؤوس الويسكي ونتحدث عن كل شيء: الماضي، الحاضر، المستقبل فاتحاً لي قلبه على مصراعيه. "هي فرصة علينا أن نستغلها أحسن استغلال أو ضاعت منا وعدنا فقراء." "وهل كنتم فقراء؟ "سألته وأنا أتذكر ما روى لي مؤنس عن فقره المدقع هو الآخر. "بالطبع.. كل من ترينهم حولك الآن، أموالهم لا تأكلها النيران، كانوا فقراء بل مدقعين... كلهم جاؤوا من تحت التحت، من قاع القاع ليقفزوا إلى فوق الفوق، إلى قمة الهرم. "لكن كيف؟ "سألته وكلي توق لأن أعرف علني أصبح منهم. "بسيطة.. البلاد غنية.. ثرواتها كثيرة.. بحر لا ينضب ومع البحر حسبك فقط أن تمدي يدك وتغرفي، وهكذا، من خلال البوح والاستجرار، علمت أنه حصل ثروة كبيرة: مزارع في الداخل، مشاريع هنا، مشاريع هناك، أرصدة كبيرة في المصارف العالمية، حيث لا حسيب ولا رقيب.. لكن ما لفت نظري أنه كان عكس مؤنس يتكلم عن الأخذ فقط لا العطاء، الجمع لا الإنفاق... كما بت على يقين أن القرش يدخل جيبه كي لا يخرج، لكأن خوفه من الفقر كان ما يزال يمسك بتلابيبه فلا يدعه يخرج من جلده القديم ذاك.

بيته القديم كان ما يزال هو نفسه، فأمثاله، كما شرح لي، يجب أن يظلوا متمسكين بقديمهم: بيوت، سلوك، قيم، مثل، مبادئ.. كي لا يشعر الناس أن شيئاً ما تغير فيهم.. حتى اللباس لم يكن يعتني كثيراً به، أحذيته، ربطات عنقه لم تكن كتلك التي يلبسها صاحب

الرفعة، وبدا لي أنني أمسكت بمفتاح فهمه: عقدة الفقر ما تزال متمكنة منه، خوفه من الفقر يجعله يعيش الفقر ذاته... ومن يقطع الأيام في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر.. وكان في ذلك تفسير كاف لأسئلتي: لماذا لم يقدم لي أية هدية أو يعرض علي أي مال؟.. كأنه لم يسمع يوماً بأن في العالم هدايا يتهاداها الناس وأن هناك نقوداً يعطيها من يملك لمن لا يملك، أو من يحب لمن يحب كيلا يحتاج أحداً.

كان صاحب الرفعة قد أوقف راتبي وكان على حق.. أنا لم أستطع لومه البتة، خدماتي له توقفت منذ زمن طويل وهو يدفع لقاء تلك الخدمات.. ألا يقول سبحانه "أعطوهن أجورهن؟" إذن لماذا يدفع الآن؟ هو من التقيت في مكتبه بصاحب النبالة، لاحظ شيئاً، تابعه فعرف التطورات، كان يتصل بي، يسألني.. وكنت بطبيعة الحال، أنكر، فما أنا من تجود بمعلومة عن رجل لرجل، لكنه طويل الباع واسع النفوذ، باستطاعته أن يعرف عني ما أريد وما لا أريد. وهكذا ما إن عدت من شهر عسلي، حتى رن الهاتف "حمداً على سلامتك يا سميراميس!! أعجبتك مدينة البحر!! استمتعت هناك؟ "لكنني لم أكن في مدينة البحر، "تلجلجت قليلاً ثم تماسكت. "أعلم.. أعلم".. قاطعني ضاحكاً ضحكته العالية تلك.. "كنت في بلدة قريبة منها.. عيوني كثيرة يا صغيرتي وهي ترى.. لكن.. لا بأس... أنا مسرور لسرورك.. سعيد لسعادتك.. فقط أريد أن أخبرك.. الآن أتحلل من مسؤوليتك.. وكما طرد الجديد القديم على الجديد أن يتحمل مسؤولية القديم." وأسقط في يدي.. نبرته نبرة العارف بكل شيء، حسمه حسم الواثق مما يقول فلماذا الإنكار؟ تلعثمت لحظات ثم قلت.. لكن نظل أصدقاء.. أنت تعلم مكانتك في قلبي".. "أعلم.. مثلما هي مكانتك أيضاً.. سنظل أصدقاء.. حميمين أيضاً، أعدك.. هواتفي عندك، مكتبي تعرفينه وأنا في خدمتك." "فقط لي رجاء،" "مري... كل ما تأمرين به ألبيه." "يونس، هل يعرف شيئاً عنا.. أقصد عن علاقتنا؟ "سألته كي أحسم الشك باليقين. "هو يشك "أجابني على الفور. "رآك عندي، وأنت تعلمين صوفتي حمراء." ثم ضحك دون أن يكمل. "إذن رجائي، مائة شك ولا يقين واحد.. إن سألك لا تخبره شيئاً".. "هذا وعد لا أخبره بشيء."

ذلك الشهر لم يأتِ المحاسب ولم أستلم شيكاً، فيما توقف سيل الهدايا الذي اعتاد إرسالها إلي.. إيه مؤنس!! كم أحببت فيك الكرم والبذخ!! كم أردتك أن تحبني كما تحب الكرم والبذخ فأهبك نفسي مدى الحياة!! لكنك لم تعرف حبي، بل لم تعرف الحب قط.. المرأة بالنسبة إليك وطر يقضى وشهوة تسفح، ثم يلقى بها بعيداً كما تلقى الخرقة البالية.. ذلك كان يخيفني مؤنس.. كان بالنسبة إلي سيفاً مسلطاً أخشى ما أخشاه أن يسقط على عنقي فيتدحرج رأسي بعيداً.. كنت أريد الرجل الذي لا أكون سحابة عابرة في حياته.. الرجل

الذي لا أمر به مرور الكرام.. بل أغدو له كل شيء، الماء، الغذاء، الهواء، ذلك الرجل وحده يوصلني إلى ما أطمح، يحقق لي كل ما أريد.. فاعذرني مؤنس، سامحني على أنني لم أندم عليك، أحمد ربي أنك تركتني لألتقي بصاحب النبالة الذي أكدت لي الأيام، وهي تكر يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، أنه ذلك الرجل..

كنا نلتقي. خفية في مكتبه نلتقي.. ولقد رضيت بعد أن يئست من إيجاده أي حل آخر.. راضية منه بالقليل القليل.. شعور آخر كان قد اعتراني.. حب لابنتي بدا يتملكني، حنين لأن أحضنها ألاعبها، أنيمها في حضني راح يملأ كياني بل اعترف لك يا سميراميس، أنني مذ كنت في فندق الحديقة، وبين ذراعيه أحياناً كنت أشرد إليها، أرى طيفها، أسمع لثغاتها فيتأجج بي الشوق ويضطرم الحنين.. أشعرت بمثل ذلك يا سميتي؟ ابنك الذي أنجبته من نينوس هل بت تحبينه؟ حبك له أطغى على كل شيء؟.

أطغى على حب المجد؟ أسطورتك تقول أن لا شيء في الدنيا طغى لديك على حب السلطة والمجد.. فلماذا تراني بت أشعر بذلك الحب العارم لابنتي؟ أقضي الساعات معها، أطعمها، أحممها، أجل.. لم أعد أدعها للمدبرة تتولى أمورها كلها.. صرت أتدخل بنفسي. كانت آية تكبر وكانت أمومتي تكبر حتى غدت في أوج ازدهارها، فغدوت لا أرى إلا آية، لا أفكر إلا بآية.. بل صرت أمكث في البيت.. يومين.. ثلاثة لا أخرج.. إلى أن جاءني اللوم ذات يوم. "سميرة!! أين أنت؟ أين وصلت في رسالتك؟ "كان ذلك هو أستاذي المشرف على الماجستير، وكانت قد مضت علي أشهر لم أره البتة.. "أ.. أ.. أنا أعمل أستاذ "كذبت عليه، أنا التي لم تفتح مرجعاً ولم تكتب كلمة.. "لا.. لا.. لم يعد أمامك سوى ثلاثة أشهر، عليك أن تعدي الرسالة بأسرع وقت، نناقشها معاً ثم نرفعها إلى اللجنة." "حاضر أستاذ.. سأمر.. غداً أو بعد غد ونتكلم معاً. أغلقت السماعة وأنا أضيف إلى لوم الأستاذ لومي الخاص. "كيف نسيت الرسالة؟ أنت في سنتك الثانية ولم تفعلي شيئاً؟ اعتمدت على صاحب النبالة يهيئ كل شيء ونسيت متابعته.. لعله هو نسي الأمر.. أم تظنين أن لا عمل له سوى رسالتك؟ لا هم سوى همك؟ "بعدئذ مضيت إلى غرفتي مطرقة خالصة للتفكير".. شغلتك ابنتك عن مطامحك "رحت أحدث نفسي ثم أنشد "أمامك فاختر أي نهجيك تنهج" وأنت اختاري: الأمومة أم الطموح؟ ودون أي تفكير قلت: الطموح.. لا شيء ينبغي أن يقف في وجه طموحي... وبالتالي: لا أطفال بعد آية أبداً ولا انشغال بآية بتاتاً.

تلك الليلة اتصلت بصاحب النبالة لكن أحداً لم يرد.. هو مع ضيوفه ولاشك. لديه وفد مهم من بلاد بعيدة تقع في أقصى الشرق.. انتظرت حتى الصباح وحين اتصلت اعتذر شبه هامس بأن الوفد ما يزال لديه. قلت إنني مضطرة لرؤيته، فقال "أرسل لك السيارة منتصف

الليل" ووافقت. لم يكن أمامي خيار آخر، هو مشغول، وأستاذي يطلب إلي الإسراع، فما تراني أفعل؟ ماذا أقول للأستاذ وأنا لا أعلم ما فعل يونس بوعده لي؟ هل الرسالة جاهزة أم هي قيد التجهيز؟ كان علي أن أعلم، ولم يكن بالإمكان السؤال عن أمر كهذا بالهاتف، هو نفسه يخشى الآذان التي تسترق السمع والعيون التي تتلصص.

الساعة الثانية عشرة والربع رن الهاتف.. رفعت السماعة فجاءني صوته.. "دقيقتان وتصلك السيارة".. أسرعت إلى المرآة أضع اللمسات الأخيرة لهندامي، أسرح شعري، أرش على عنقي العطر، فعلى المرأة أن تكون باقة زهر متحركة دائماً. نزلت. السيارة تقف في الجهة الأخرى.. الحذر واجب..

كانت هي ذاتها السيارة الأمريكية الفاخرة الني ذهبنا بها أول مرة إلى غابة الصنوبر، وكانت وثيرة إلى درجة دعتني على الفور لإطلاق زفرة راحة.. ثم لم أشعر إلا وهي تقف من جديد... كنا قد وصلنا رغم أن المسافة بين منزلي ومكتبه لم تكن رمية حجر.

هذه السيارات نوع من الصواريخ تنطلق فتصل إلى هدفها بلمح البرق، الطريق آخر الليل خاوٍ، والسائق وحش كاسر يختارونه خصيصاً لمثل هذه الحالات. البناء الذي يقع فيه مكتبه عالٍ مطل. بابه عريض واسع، صالته كبيرة، مصاعده كثيرة والزحام فيه على أشده نهاراً، لكن والوقت منتصف الليل، كان المبنى ساكناً.. خاوياً كقفر مجدب.. عند الباب الخارجي فقط كان ثمة حارس، رفع خشبة المدخل للسيارة الفارهة، ثم وقف بما يشبه الاستعداد تحية لمن فيها رغم أنه لم يكن يستطيع رؤية من فيها هي المعتمة الزجاج، المسدلة الستائر. أحد المصاعد كان بالانتظار، هو دائماً بالانتظار، لا أحد يصعد أو ينزل فيه سوى صاحب النبالة ...زحام، لا زحام.. المصعد له وحده.. أراد السائق أن يصعد معي فأشرت له أن: لا.. أنا أعرف الطريق جيداً.. مكتبه صار مكتبي... كلما شعرت بحاجة لرؤيته أو اشتد إلحاحه علي جئت إليه.

قبل شهر العسل، بعد شهر العسل، لم يكن لدينا من خيار سوى المكتب، هو يرفض الخروج إلى مكان عام، ولم يكن كمؤنس يؤثر الفيلات والشقق الخاصة، أما منزلي فكان يخشى الاقتراب منه وكأنه شرك سأوقعه فيه.

الأمر الوحيد المختلف هو أن الوقت كان متأخر جداً. كنت دائماً أجيء في النهار وقبيل موعد الغداء، هذه المرة أراد اللقاء منتصف الليل هو المشغول حتى شحمتي أذنيه. قبلت مضطرة.. وللضرورات أحكام.

أحكام الضرورات تقضي أيضاً أن أكون أكثر لطفاً وتجاوباً.

أخذني بالأحضان فأخذته، قبلني على خدي فقبلته، لكن قبل أن يطبق على شفتي، بادرته واضعة إصبعي بين فمي وفمه. "تعلم، أنا مشتاقة إليك كثيراً، لكن بالي مشغول".. "خير؟ ما يشغل بالك؟ "قاطعني في الحال. جلست على أقرب أريكة فغاصت بي "الرسالة".. بدأت، وبدا للوهلة الأولى كأنه لم يستوعب. "أية رسالة؟" تساءل وهو يجلس على ذراع الأريكة بجانبي... فيما عيناه الصغيرتان المعتمتان ازدادتا صغراً وعتمة.. أتراه نسي الأمر كله؟ "رسالة الماجستير.. ماذا فعلت بها؟" "أوه!! "تنهد وهو يميل علي بكل ثقله وكرشه.. "هذه تشغل بالك؟ لا.. لا.. أنا قلت لك.. لا تأكلي هماً".. "كيف لا آكل هماً والأستاذ يقول علي أن أقدمها قريباً؟" "تقدمينها." "متى؟ "متى شئت." "أريدها خلال شهر." "خلال شهر تكون عندك." "حقاً.. حبيبي؟ "قلت بغنج الأنثى التي تريد استدراج الذكر. "حقاً وصدقاً.. فقط دعينا الآن من الرسائل والماجستير والجامعة.. فكري بي فقط.. كوني لي فقط.. أنا أريدك صافية خالصة." وارتمى علي حاضناً إياي بذراعيه، مطبقاً على شفتي إلى درجة كادت تعود إلي حالة الاختناق تلك. حاولت أن أنهض لكنني لم أستطع، كان قد صار فوقي بكلكله كله وكانت الأريكة قد غاصت بي إلى درجة حسبتني فيها أغرق حتى القاع وبدا، وهو يمد يده إلى ثيابي يفك أزراري، يعري ما يستطيع تعريته أنه فاقد زمام أمره.. كان الوحش فيه هو الطاغي.. ولا جدال مع الطاغي أو نقاش.. "ماذا؟ هنا على الأريكة؟ "قلت فتوقف في الحال كأنما جاءته ضربة على جبهته. وقف، مشعث الثياب، مشعث الهيئة ثم أمسك بيدي." آسف حبيبتي.. أنا أموت شوقاً إليك.. لا تؤاخذيني أرجوك... أشهر مرت ولم نختل ببعضنا مرة واحدة".. "لا بأس.. لا بأس.. فقط كدت تميتني.. والرجاء رفقاً بالقوارير. "قلت ضاحكة، فضحك ضحكته المتقطعة المكتومة كأنما كنت أدغدغه..

بسرعة سحبني من يدي كأنما هو غير مصدق، بسرعة عراني، وبسرعة ألقاني على السرير لينهي بسرعة أيضاً كل شيء.. تاركاً إياي ملقاة مفرغة وخيبة أمل شديدة تمسك بخناقي. لقد أدركت أنني كنت بحاجة ماسة إليه بقدر ما كان هو بحاجة إلي، بل ربما أكثر. أشهر كانت قد مضت على آخر لقاء لنا. عدم وجود المكان المناسب كان يحول دائماً بيننا وبين ممارسة الجنس، وكان الفراغ الذي أعيشه في المنزل يتيح لي الاهتمام بجسدي أكثر فأتعرى أمام المرآة، أحدق إليه بتمعن، أتفحص كل عضو فيه وأنا أشعر به يزداد ضغطاً علي، إحساسي به يزداد شدة، كما كنت أفتقد مؤنساً، ذاك الذي عودني على نظام معين كان على ما يبدو يلبي رغباتي.. لكن ها هو مؤنس قد غاب.. وبديله حاضر غائب، موجود غير موجود، فما عساني أفعل بطاقات تعتمل في داخلي؟ أكثر من مرة عرضت على

يونس أن يأتي إلى منزلي، لكنه كل مرة كان يرفض "لا، لا أريد لأحد أن يراني.. حيك مليء بالناس الذين يعرفون سيارتي، فماذا إن رأوني؟" "تعال متنكراً كما فعلت هناك في فندق الحديقة." "لا.. مستحيل.. هنا مستحيل..!! كيف سأتنكر ؟؟ ثم حراسي ماذا أفعل بهم؟" "لا تأتِ بحراس.. أي خطر يتهددك في حي كحيي؟" "اللّه!! كم أنت بسيطة.. طيبة!! أول مرة ربما لا يتهددني خطر.. لكن ماذا إن رأوني أكثر من مرة؟ ماذا إن رصدوني ثم هجموا علي؟.. لا.. لا.. إما مكتبي أو لا. "ولعل ذلك الخيار هو الذي بات يجعلني أقبل من حين إلى حين، فأضرب عصفورين بحجر واحد: أخلص من إلحاحه وأطفئ ناراً تتأجج في داخلي.

شربنا بعد ذلك، أكلنا، وقد جاءنا بعشاء من أفخر مطاعم المدينة. محادثاته مع الوفد الضيف كانت ما تزال تشغله. وهكذا حدثني عن قضايا لم تكن تعنيني، سياسة لم تكن تدخل رأسي، وكنت أسمع. هو بارع في الحديث.. أسطوانة تردد ما سجل عليها بيسر وبراعة.. أسمعه في التلفاز أو المذياع أحياناً، فأعلم ما يريد قوله لكل وفد أو زائر. وهكذا، رحت أستمع إليه وأنا أشعر أنه يجلدني فأهرب إلى الكأس أعب منها الشراب وبودي لو أسكر.. لأول مرة في حياتي كنت أود أن أسكر فلا أسمع بعد ذلك ما يقول ولا أشعر بما يضغط علي من مشاعر وأحاسيس. لكنني لم أسكر.. كنت أشرب البيرة. لا أدري لماذا اخترت البيرة تلك الليلة، والبيرة لا تسكر.. فيما كان هو يشرب الفودكا.. كنا في حالة من الانسجام لم نبلغها من قبل، أو هو على الأقل كان في حالة انسجام، ملأ بطنه، أشبع غريزته، شرب الفودكا حتى بات يصعب عليه الكلام ففرحت.. كانت ثمة مسجلة وكانت هناك موسيقى، ومن أمكنة عدة، كانت تنبعث الأضواء الحمراء الخافتة التي حدثني عنها ذات يوم. كان الجو رومانسياً وكنت مثارة إلى أقصى حدود الإثارة لكنه كان قد انتهى.. أهو الشراب؟ أم التقدم في السن؟ الرجل في خمسيناته بل ربما في حيطان ستيناته تحول أمامي إلى خرقة بالية، فتحولت خيبة أملي الشديدة إلى حزن عميق.. بل أعترف لك يا سميتي، أنني وأنا أنظر إليه، كنت أحلم أن يتحول الرجل أمامي، ولو بعصا سحرية، إلى شاب في ريعان صباه يفترسني المرة تلوا المرة حتى الصباح.

لكن شباب رجلي كان قد ولى وإذا ولى الشباب ولى الرجل.. ألم يقل أحد أجدادنا إذا شاب شعر المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصيب؟ لكن لو كان ذلك الجد الشاعر منصفاً لقال إن المرأة على حق، فما تراها تفعل برجل أشيب لا يستطيع تلبية رغباتها؟ ماذا تفعل إن ظلت غير مشبعة وهو عاجز خامد إلى جانبها.. النار في داخلها تشتعل وهو لا يستطيع إطفاءها؟ الرجل يتحول إلى وحش إن اشتعلت فيه الرغبة فكيف لا تتحول هي إلى وحش وكلها رغبة

متأججة؟ أنت تعلمين، يا سميتي، المرأة كالرجل ترغب وتشتهي، فكيف يسعى الرجل لإطفاء شهوته ولا تسعى المرأة؟ لكن أنى كان لي ذلك ورجلي خامد تماماً كموقد من رماد؟.

بخيبة أمل لبست ثيابي، وبحزن شديد تركته غارقاً في سباته العميق، ثم أغلقت المكتب ورائي وهبطت. كان السائق وراء مقوده وكان قد طال انتظاره. تمنيت وهو يسوق إلى المنزل لو كان باستطاعتي أن أدعوه للدخول.. كنت بحاجة إلى رجل.. أي رجل.. لكن من أين آتي به والليل يكاد يلفظ أنفاسه، والسائق لا يجرؤ على النظر إلي؟ أسرعت إلى المنزل ولأول مرة في حياتي، أعترف لك، أمارس شيئاً اسمه العادة السرية.

لكن إن كانت تلك الممارسة قد حملت لي شيئاً من المتعة والنشوة حينذاك، فقد حملت لي في الأيام التالية الكثير من الندم والشعور بالذنب.

"أنت التي آليت على نفسك أن تكبحي جماح شهواتك تنحدرين هذا المنحدر؟" كنت أوبخ نفسي كلما تذكرت تلك الليلة." أنت التي تضعين التمائم كيلا تسيطر عليك الغريزة الحيوانية تصلين إلى هذا الدرك؟" رحت أجلد نفسي ليل نهار. "لا .. عيب عليك.. عيب وعار".. ولم أخلص من توبيخ الضمير ذاك إلا وقد قطعت عهداً على ألا أطيع نفسي في شهوة أو أنقاد لغريزة.

ولكي لا يحدث هذا رحت أشغل نفسي بأي شيء: ابنتي، أهلي، عاصم، الجامعة.. المهم أن أبعد الجنس عن ذهني، أبعد تقريع الضمير الذي راح يلاحقني.. صرت أذهب إلى غرفة آية، ألاعبها، أطعمها، فتفغر المربية فاها دهشة، هي التي رأتني أبتعد عن آية ولا أعطيها شيئاً من وقتي. كنت مذ اخترت الطموح على الأمومة، قد أهملتها تماماً بل كثيراً ما كنت أشعر بالحقد عليها مذ جاءت رغماً عن أنفي، أنا التي خططت لعدم الإنجاب إلى أن أبلغ الذروة وأصطاد من هناك الصقر الذي أريد.. لكنه الخطأ، الإهمال، أديا إلى أن تأتي على غير أهل وغير سهل.. أنا لا أنسى الهم الذي حملته لي يوم علمت بأنها تتكون في بطني، لا أنسى خوف الفضيحة، القتل، المعارك التي خضتها مع مؤنس وهزمت فيها، فلماذا أوليها رعايتي؟ لماذا أهتم بها أصلاً، أنا التي لم تهتم عمرها بالأطفال؟ أتراني لا أحب الأطفال؟ أكره الطفولة؟ ربما، ففي ذهني سؤال دائم: لماذا نتعب أنفسنا؟ نتحمل هموم الأطفال؟ ضنى الأطفال؟ من أجل حفظ النوع؟ لا، لا خوف على النوع البشري، ثمة المليارات منها تملأ الأرض حتى الحافتين، لو انفجرت ألف قنبلة نووية لظل العالم ينغل بالبشر ولظلت الأرض متخمة بالناس، فلماذا نهتم بحفظ النوع؟ أنت مثلي، سميراميس، لم تكوني تحبين الأطفال. رغم حبك لنينونيس لم تنجبي منه طفلاً. لكن مع نينوس الأمر مختلف. هو ملك والملك بحاجة إلى ولي عهد.. لهذا

ربما، لم تمض السنة حتى جئته بولي عهد.. سميته نيناس، وعدت إلى ديدنك الأول.. لا تحبلين ولا تلدين.. حسبك أنك جئت بصبي تقربه عين أبيه ويطمئن بالك أنت على ولاية العهد. صحيح أن هناك أخوة كثراً له.. جاء بهم نينوس من زوجاته الكثيرات الأخريات.. لكن الصحيح أن ابنك أنت شيء آخر.. مذ ولد عملت على أن تضمني ولاية العهد له، تضمني لنفسك أن تكوني أم الملك.. فاتخذ نينوس كل ما يلزم لضمان ذلك.. إعلان ذلك على الملأ... المرة تلو المرة.. تربيته الخاصة، تعليمه الخاص بعد ذلك، إحاطته الشديدة بالرعاية والاهتمام، لكن دون أن تعطيه أنت شيئاً من وقتك.. كان هناك مربيات، معلمون، مدربون، أما أنت فتشرفين من بعيد.. هكذا كنت وهكذا أنا يا سميتي.. آية.. تعرف المربية أكثر مني، تهفو لها، تطيع كلمتها أكثر مني.. لكن في تلك الأيام، رحت أهتم بها، أحملها، بل خرجت بها في نزهة إلى حديقة الأطفال مرتين أو ثلاثاً... كنت أريد أن أشغل نفسي حتى أنسى وكانت آية وسيلة من وسائل النسيان.

صرت أيضاً أتعمد الذهاب إلى بيت أهلي.. البيت نفسه الذي لم أر فيه سوى الضغينة والحقد، الذل والمهانة، البيت الذي لفظ أمي بعد أن جعلها تعاني مر المعاناة، مثلما جعلني أنا أذوق العلقم. مع ذلك صرت أكثر من زياراتي له: امرأة أبي هناك، لديها دائماً جديد تتكلم عنه، هموم تشغل، مشاكل تثار، ولعل هذا ما كنت أبحث عنه.. آخذ بيدي هدية وأمضي إليها. هي تحب الهدايا.. صفة كنت أعرفها فيها جيداً، فلماذا لا أستغلها؟ خاتم، زجاجة عطر، علبة حلويات أي شيء تأخذه لها يرضيها.. ما أرخص الإنسان!! بأبخس الأثمان تشتريه.. أبي لم يكن يأكل الحلويات.. لقد ظهر لديه مرض السكري إضافة إلى مرض آخر تهتز له يداه.. العامة تسميه "أبو هازوز" لكن العالم المتحضر يسميه "باركنسون"، أتعرفين هذا المرض يا جدتي العظيمة؟ هل كان الناس أيامكم يصابون بأبي الهازوز هذا؟ ربما لا. لا يصيب إلا كبار السن وأيامكم لم يكن الإنسان يكبر في السن.. متوسط العمر أيامكم ثلاثون سنة.. أو ربما خمس وعشرون.

الناس يولدون بسرعة، يحيون بسرعة ويموتون بسرعة.. هنيئاً لكم!! ما أجمل أن يعيش الإنسان حياته بسرعة ويمضي بسرعة!! أما أن يكبر ويشيخ إلى أن يسيل لعابه على ذقنه وتصطك ركبتاه تحته ويهتز من أعلى إلى أسفل ومن يمين إلى شمال، فما عساها تغدو الحياة؟

أبي لم يعد باستطاعته حمل الفنجان بيده.. وإن حمله اندلق الشاي يميناً وشمالاً من حافتيه قبل أن يصل إلى شفتيه.. أبي الذي كان يجسد الظلم والطغيان صار يثير الشفقة، ليس شفقتي أنا، فقد علمني مؤنس أن أطرد من قلبي كل رحمة أو شفقة، بل كان يثير شيئاً آخر

لعله هو نفسه أحد أهم الأسباب الخفية التي كانت تدفعني للذهاب إلى البيت. ما هو؟ لا أدري.. أهو التشفي؟ ربما ، سميراميس، فذلك العملاق الجبار الذي كان يضربني لأقل هفوة، يشتمني ويعيرني بأمي لأصغر خطأ ، صار عاجزاً عن ضربي، أضعف بكثير من أن يقف في وجهي يشتمني أو يعيرني. كنت انظر إليه وقد التهم مرض السكري كل ما كان لديه من لحم وشحم، ضرب "أبو هازوز" أركان التوازن لديه فصار يرتجف ويهتز، أقول كنت أنظر إليه فأشعر بشيء كأنامل الراحة تدغدغ أساريري.. شعور غريب كان يعتريني.. ها هو ذا الدولاب يدور.. من كان تحت صار فوق، ومن كان فوق صار تحت.. أبي، امرأة أبي لم يعودا قادرين على التحكم بي، لم يعودا قادرين على توجيه كلمة لوم إلي.. صرت أنا لا سيدة نفسي ومصيري فحسب، بل سيدتهم هم وسيدة مصيرهم أيضاً..

كان الغلاء يسرح ويمرح وقد أفلت له العنان، وكانت عائلة أخي كمال قد كبرت والأسواق قد ركدت.. فيما تقاعد أبي.. لم يعد يذهب إلى المحل الذي كانت عائداته لا تكفي أسرة كمال إلا بالكاد ، وهكذا غدت الحاجة تظهر في بيت أبي.. الطعام، الشراب، اللباس، كل شيء اكتسحته موجة الغلاء، صار أصعب منالاً ، ثم هناك مراجعة الأطباء وثمن الأدوية.. ولم يكن أبي قد ترك قرشاً أبيض ليوم أسود ، فظهر ذلك كله انحساراً في عنجهية امرأة أبي، نقصاً في الحاجات التي تلبى في ذلك البيت.. ولعل ذلك هو ما كان يفرح امرأة أبي إن جئتها بهدية ، يفرحني أنا وأنا أراها تتطامن أمامي مادة يدها لتصبح من تحت ويدي من فوق، واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن أعطيت... أجل.. سميراميس، كنت أشفي غلي وأنا أرى نفسي أتحول في ذلك البيت من طفلة مهيضة الجناح، مستضعفة إلى سيدة تشيل برأسها عالياً على من فيه، تمن بعطاياها عليهم من حين إلى حين.

أخي عاصم وحده لم يكن يأخذ مني شيئاً.. حتى زجاجة العطر لم يكن يقبلها.. ولم يكن يتيح لي أن أمن عليه بفضل.. حتى الفرصة الوحيدة التي أتيحت لي لفعل هذا حرمني منها.

كان عاصم يعمل في شركة، عملها ابتعد عن مدينة البر، فاضطر لأن يداوم عشرة أيام بلا انقطاع، يعمل ويأكل وينام في مخيم الشركة البعيد ثم يأتي للمدينة عشرة أيام، وكان ذلك قد أثقل كاهله.. عشرة أيام متواصلة من العمل الجاد المضني ثم عشرة أيام من الفراغ الشديد.. نظام لم يكن يريحه البتة ، فصار يشكو ويتذمر. سمعته فتحمست: "انتقل" قلت له "عمل الشركة هناك فماذا أعمل هنا؟ وكيف أنتقل؟" "ارفع طلب نقل".. "وماذا أعمل هنا؟" "لا تعمل شيئاً.. اجلس على كرسيك وضع رجلاً على رجل. "قلت ضاحكة واضعة رجلاً على رجل.. لكنه هز رأسه "لا ، هذا يزعجني أكثر.. أنا أحب العمل، بل العمل بالنسبة إلي هو

الحياة ذاتها، بغير العمل لا معنى للحياة، لا طعم، لا رائحة، بل لا حياة البتة، فكيف تريدينني أن أكون كأولئك البلهاء الذين لا يحلمون إلا بأن يقضوا حياتهم واضعين رجلاً على رجل، لا شغل ولا عمل." "هذه مشكلتك.. أنت دائماً تحمل السلم بالعرض.. "أوه!! يا إلهي!! من يقل الحق هذه الأيام يوصم بأبشع الصفات: غبي، أبله، يحمل السلم بالعرض".. لا.. لا سميرة.. لا تقعي في الخطأ نفسه ذاك الذي يقع فيه الناس.. المجتمع بحاجة إلى طاقة كل فرد.. الوطن لا يبنى إلا بالعمل. الصناعة، التكنولوجيا، الحضارة كلها بحاجة إلى أدمغة تعمل وأيد تشتغل وإلا ظللنا طوال الدهر متخلفين نستهلك ولا ننتج، نلبس مما لا نصنع ونأكل مما لا نزرع." "أوف.. أوف".. صحت متضاحكة.. "عملت من الحبة قبة.. نحن نتكلم عن حالة محددة فلماذا تكبرها إلى هذا الحد؟" "لأنها هي ذاتها كبيرة.. صدقيني.. تخلف أمتنا كله يبدأ من هنا.. الناس لا يحبون العمل.. لا أحد يعمل سميرة.. وهذه مشكلتنا الحقيقية.. فلا تستهيني بها.. إذ لا خلاص لهذه الأمة إلا بأن يعمل أفرادها جميعاً عن حب وبكل جد وإخلاص." "أعلم.. أعلم.. لكن أنت تقول.. وضعك سيء.. نظام عملك يزعجك. إذن اطلب نقلك".. "وجداني لا يرضى.. سيلقيني هذا في هوة الفراغ وأنا أكره الفراغ بل أخشاه أكثر مما أكره نظام عملي.. هذا أولاً.. "قال ثم توقف لحظة وكأنما شرد بعيداً.. "ثانياً؟" قلت أستحثه.. "ثانياً لو طلبت لن يستطيعوا التخلي عني.. هم بحاجة إلي، أنا أعلم ذلك لهذا لن يوافقوا على طلبي. "فجأة وجدتني أتحمس هاتفة داقة صدري "أنا أؤمن لك الموافقة." "أنت؟ "سأل وهو يرتد إلى الوراء متفرساً في وجهي، لكن لشدة حماستي لم أنتبه إلى نظرته بل تابعت "أجل أنا.. أخي بحاجة إلى مساعدة ألا أقدمها له؟" "لكن كيف؟ "عاد للتساؤل وفي عينيه قدر أكبر من الشك.. انتبهت إلى ما في عينيه هذه المرة، فعلمت أنني أخطأت لكن ما كان باستطاعتي أن أتراجع، كما لم يكن باستطاعتي أن أكشف له كيف، فقلت مازحة "تريد العنب أم قتل الناطور؟" "لا.. أريد العنب لكن يهمني أيضاً كيف ستأتين به، تشحذينه من الناطور؟ تشترينه؟ تسرقينه؟ على الوسيلة التي تجلبينه بها يتوقف قبولي به أو رفضي، فإذا كان سرقة مثلاً رفضته.. أجل.. أنا لا آكل عنباً حراماً، ذلك أن الوسيلة عندي لا تنفصل عن الغاية.. والغاية عندي لا تبرر الوسيلة أبداً.. "كنت أعلم موقف عاصم من هذه المسألة.. فكثيراً ما تناولتها النقاشات التي كانت تدور بيننا ، كما كنت أعلم أننا بالنسبة إليها، كما بالنسبة إلى مسائل كثيرة، على طرفي نقيض، كذلك لم أكن أطمع في إقناعه، فليس لدي القدرة على ذلك، لكنني كنت أطمح دائماً إلى إيجاد قواسم مشتركة بيننا، تجمعنا كأخ وأخت، أنا التي تحبه بقدر ما تخشاه، ترجو قربه بقدر ما تعمل على تأمين بعده.. حالة فريدة كانت

حالتنا أنا وعاصم، هو الذي اختط لنفسه طريقه الخاص: يطالع كثيراً رغم أن اختصاصه هندسة، يثقف نفسه دائماً، بل يخيّل إلي أنه كان ينتمي لتنظيم سري ما، فله أصحاب كثر يأتون إليه ويذهب إليهم، وله أفكار مثالية عجيبة، يريد أن يصنع جمهورية مثلى كجمهورية أفلاطون.. الكل فيها سواسية كأسنان المشط، تسودها العدالة ويهيمن فيها النظام والقانون.

"هه!! لم تقولي لي كيف ستأتين بالعنب؟" قطع شرودي إلى درجة شعرت معها وكأنه ينتشلني من بئر عميقة. "لا.. لا تسألني كيف، لكن إن أردت سعيت لنقلك.." "نقلي بحاجة إلى واسطة كبيرة، "قاطعني من جديد والشك إبر قنفذية تنطلق من عينيه "أو تستطيعين تسخير مثل هذه الواسطة؟ "ولأنني كنت قد أحرقت سفني مثلما فعل طارق بن زياد ولم يعد باستطاعتي الانسحاب أومأت برأسي.. "يعني.. ربما.." "أنت على صلة بهم إذن؟ "سأل بنبرة من يبحث عن اليقين.. فقلت وأنا أعلم أنني أخطأت وأن من الخير لي أن أستدرك ذلك الخطأ بالصدق والذكاء، لا بالمراوغة والكذب "بشكل ما... مديري على صلة طيبة بصاحب الرفعة.. أنت تعرفه.. صاحب الرفعة الذي أرسلني إليه أبي يوم توظفت.." "اسمعي.. أنا منذ زمن طويل أشك في أن لك صلات بصاحب الرفعة هذا.. فإن كان لك مثل هذه الصلات اقطعيها." "لكن.. لماذا؟ "ألا تعلمين لماذا؟ "سألني وهو يغرز عينيه في عيني، ثم دون انفعال تابع "هؤلاء أناس يأكلون لحوم أمهاتهم.. لا أخلاق لهم ولا وازع من ضمير. "وأثار استغرابي دقة معرفته بهم، كأنه يعاشرهم كل يوم أو يرى كل ما يفعلونه بأم عينه.. لكنني كابرت محتجة.. "أنت تظلمهم.. عاصم.. بل ربما لا تعرفهم فتتجنى عليهم؟" "أنا أتجنى عليهم؟ أنا أظلمهم؟ لا.. لا.. هذا غيض من فيض مما يستحقون.. قسماً لو أصل إليهم لآكل أكبادهم كما فعلت هند بنت عتبة بحمزة بن عبد المطلب". "إلى هذه الدرجة تكرههم؟ "سألته وأنا أريد أن يفضي بكل مكنوناته. "وأكثر.. أم تريدينني أن أحبهم هم الذين يرفعون شعارات ويعملون عكسها تماماً؟ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون. هم الذين داسوا على القيم، المبادئ، التي كانوا ينادون بها من أجل مصالحهم الخاصة، منافعهم المادية، هم الذين أفسدوا المجتمع حتى صار نهبة للانحلال والضياع العطالة والبطالة... انظري حولك.. ما هي نسبة البطالة بين الشبان؟ أنا أقول لك: تسعون بالمائة. ومن يعمل لا مطامح لديه ولا آمال سوى أن يأكل ويتناسل، أما من لا يعمل فيبحث عن مكان يهاجر إليه لنفقد خيرة أدمغتنا وأحسن رجالنا.. عدة المستقبل وعتاده ويبقى الوطن مفرغاً أجوف كشجرة عتيقة لم يبق منها الحدثان سوى القشر. "معقول عاصم؟ "قلت وقد توقف يلتقط أنفاسه.. "معقول، الواقع بهذا السواد؟ إنك تصوره نفقاً طويلاً مظلماً ليس في نهايته قبس من ضوء".

"وهو كذلك.. إنه الزمن المستحيل الذي تحدث عنه ذات مرة علي بن أبي طالب فقال: أيها الناس إنا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن كنود يعد فيه المحسن مسيئاً والمسيء محسناً، يزداد فيه الظالم عتواً والمظلوم خنوعاً، لا ننتفع بما علمنا ولا نسأل عما جهلنا ولا نتخوف قارعة قد تحل بنا.." "والحل؟ "سألته وقد خلخلت داخلي كلمات علي بن أبي طالب "الحل بالحرية.. الديمقراطية.." "الحرية لهذا القطيع.." قاطعته متضاحكة "الديمقراطية لهؤلاء العوام.. الهوام.." "لا.. لا تقولي عوام ولا تستهيني بهم." "كيف لا، وأجدادنا قالوا العوام هم الذين إذا جهلوا خافوا وإذا خافوا استسلموا وهم الذين متى علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا.." "ها" صاح بنبرة المنتصر.. "ها" أنت تقولينها بنفسك إذا علموا.. إذن.. مشكلتهم الجهل.. ذاك الجهل الذي يجعلهم يخافون فيستسلمون. زوديهم بالعلم والمعرفة تريهم قادرين فاعلين، فكيف إذا حصلوا مع العلم والمعرفة على الحرية والديمقراطية؟".

"يكفي.. يكفي لكن أقول لك.. هذا مستحيل: الحرية تعطيها للناس فيسيئون استغلالها، الديمقراطية تعمل على تحقيقها فيحرفونها عن مسارها.. هذه جواهر عاصم.. والمثل يقول لا تلق الجواهر تحت أقدام الخنازير.." "ها.. أنت ترددين أقوالهم كالببغاء.. لكن أنت وهم مخطئون.. شعبنا ليس قطيع خنازير، بل هو شعب حي واع يعرف جيداً ما هو خيره وما هو شره. لكنهم يجهّلونه، يحرمونه أبسط حقوقه فيخاف ويستكين.. وهنا الكارثة.. خوف الشعب واستكانته.. أتعلمين ما هي إشكالات هذه الأمة؟ لم لا تنهض كبقية الأمم؟" "لا.. قل لي؟ ".. "هي تفتقد لثلاث: العلمانية، الديمقراطية، الوحدة" "أوه!! هذه أشياء كبيرة عاصم.." "بالطبع ولأنها كبيرة تزداد حالة الأمة تردياً، إنها تدخل عصر ما بعد الحداثة بعقلية ما قبل القرون الوسطى، أرأيت المشكلة؟ هي خطيرة للغاية، فكل ما ترينه من حداثة وتحديث براني لا جواني، ولم أستطع متابعته بعد ذلك، إذ شعرت أنه توغل بعيداً في غابة شديدة الكثافة والظلمة، لا عيناي ولا قدماي بقادرة على اختراقها، لكنني سررت إذ وجدتها فرصة للاعتذار ثم المغادرة، دون أن تعود إلى عينيه إبر الشك القنفذية.

في الجامعة، بت أيضاً أجد الوسيلة لإشغال نفسي عن صاحب النبالة. هناك، كنت أرى أستاذي المشرف، نتحدث في موضوع الرسالة، أطرح عليه أسئلة لم تكن أجوبتها تعنيني بالحقيقة، بل كنت أتسلى، أتظاهر بالاهتمام، بالبحث في المراجع.. كان الموضوع الذي اخترته هو أنت "ملكة الشرق والسحر: سميراميس." عنوان جميل، يعجبك؟ أليس كذلك؟ كان ذلك هو الموضوع الوحيد الذي يهمني في التاريخ، ألم تلفتي انتباهي مذ كنت طفلة صغيرة يعيرونني باسم سميرة بنت ميس؟ ألم أزدد انتباهاً لك واهتماماً بك مذ قرأت عنك أول ما

قرأت في التاريخ: الإمبراطورية الآشورية والملكة الحسناء؟ ألم أبحث بعد ذلك عن المراجع والوثائق لأقرأ المزيد والمزيد عنك؟ إذن هي ذي فرصتي، أختار الموضوع الذي عناني ولسوف يعنيني طوال عمري، موضوعك أنت يا جدتي وملهمتي.. ولأنني كنت ملمة بكل ما يتعلق بك، أسطورة وتاريخاً، كنت أدهش أستاذي المشرف كلما تكلمنا حول أسطورتك ورأى مقدار ما أعرف عنك.. أي سؤال يطرحه أجيب عليه، أية نقطة غامضة أوضحها، فأيقن أنه أمام طالبة فذة تعرف كل ما في التاريخ.. وكان ذلك يعجبني كثيراً.. أنا التي ظلت ثلاث سنوات إلى أن حصلت على الثانوية تدهش أستاذ التاريخ وتثير إعجابه.. إلى درجة يصرح معها أنه يرى فيّ مشروع مؤرخة عظيمة ربما أضاهي أبا التاريخ نفسه: هيرودوت.. ماذا؟ أرى في عينيك إبر شك قنفذية أيضاً!! أتشكين في كلامي؟ تقولين أنه تخرص.. لا يمكن لأستاذ أن يقول عن طالبة مثلي هكذا لوجه الله؟ لا.. سميراميس.. لا تشكي.. هو لم يكن يقول ذلك لخضرة عيني أو شقرة شعري أو بياض بشرتي.. لا.. لا.. هو رجل عجوز لم يكن فيه نفع للنساء ولم يكن يهتم بالنساء.. أجل.. أنا اخترته لهذا السبب.. خفت أن أختاره شاباً فيقع في غرامي ويحل به ما حل بذلك الأستاذ الذي عشقني، فاختفى ثلاث سنين لا يعلم حتى الذبان الأزرق أراضيه.. إذن، كوني على ثقة أنه لم يكن معنياً بي كامرأة جميلة أم غير جميلة.. كان في حيطان السبعين وكان غاية في الوقار والرزانة، فكيف تشكين بمحاباته لي أو مجاملتي؟.

كذلك لم يكن يعرف شيئاً عني لتقولي إن كان يخاف مني أو يحذر جانبي.. ذلك أنني مذ سجلت الماجستير هذه المرة اتبعت سياسة مغايرة لسياستي القديمة. في هذه السياسة حظرت على نفسي أن أرتدي ملابس أنيقة أو لافتة للنظر: بلوزة وبنطال جينز وحسب. أجلس على درج السلم.. أنبطح على حشيش الحديقة.. آكل السندويش وأشرب الشاي شأني شأن أية طالبة جاءت من قلب العوز والحاجة..

ولأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، كنت حريصة على ألا آتي بسيارة فارهة، أو عربة مسؤول، فلا تذهب بمن يراني فيها الظنون. كنت قد قررت أن أبدو فتاة عادية لا أمامها ولا وراءها، أرتاد الأمكنة التي يرتادها الطلاب جميعاً، أذهب إلى أي مدرج تلقى فيه محاضرة في التاريخ أو الآداب أو الفلسفة. لم يكن لدي عمل: المكتب أمر به ساعة أو لا أمر، البيت لم أكن أطيق القعود فيه، حرمة من حريم السلطان عبد الحميد، فلماذا لا أذهب إلى الجامعة؟ أتسكع هناك، أرى شباناً ظرفاء لطفاء، شابات في آنق أشكالهن وأجمل ملابسهن، ثم أسمع.. أجل.. لم أكن بحاجة لأن أتعب عيني وأقرأ.. حسبي أن أدخل مدرج التاريخ لأسمع أشياء مهمة عن التاريخ.. القديم، الحديث.. وأختزن في تلك العلبة الفارغة التي هي رأسي معلومات

لابد ستفيدني ذات يوم. أدخل مدرج الأدب فأسمع أموراً كثيرة أجهلها عن تاريخ الأدب.. رجال الأدب، الرواية، الشعر.. وكان الشعر ما يزال يسحرني.. وحده يشدني أكثر فأكثر، كأن المغناطيس فيه أقوى من كل مغناطيس..

صرت أتتبع البرنامج في قسم الأدب، أرصد المحاضرات الخاصة بالشعر وذات مرة شعرت أنني فتنت.. كان الأستاذ يحلل قصيدة جاهلية:

ولقد دخلت إلى الفتاة الخدر في الليل المطير

فرأيتها حسناء ترفل بالدمقس وبالحرير

يا لله ما كان أرقه، ذلك الشعر!! أيصدق أحد أن هذا شعر لبدوي يعيش في مضارب الخيام!؟ أيصدق أحد أنه لرجل لم يعرف سوى شظف العيش وخشونته؟ تلك الموسيقى، ذلك الاتساق، التناغم الرائع بين الحروف والكلمات، المبنى والمعنى، كله فتنني، ثم فتنت أكثر وهو يتابع ذلك الوصف الحسي:

فلثمتها فتنفست كتنفس الظبي البهير

ودفعتها فتدافعت مشي القطاة إلى الغدير

يا هند يالمتيم!! يا هند للعاني الأسير!!

شيء ساحر الشعر.. وساحر أيضاً الأسلوب الذي كان يحلل به الأستاذ ذلك الشعر ويقدمه حساء بملعقة من ذهب.. انتهى الدرس وبدأ الطلاب يخرجون وأنا مسحورة.. أحلق في عالي السماء وأنا أتصور فارساً وسيماً يدفعني أنا الحسناء التي ترفل بالدمقس والحرير فأتدافع متقافزة مثل قطاة إلى ماء الغدير تنهله، ثم يلثمني مطبقاً على شفتي بقبلة طويلة تكتم أنفاسي فأشهق طالبة النفس غزالة بهرها الجري الشديد.. ولعل خيالي كان سيمضي بعيداً لولا أنني سمعت صوتاً وحركة بجانبي.. الصوت يقول .. "آنسة.. المعذرة.." والحركة اقتراب مني على المقعد حيث كنت أحتجز بين الحائط وبيني طالباً لاشك أن الانتظار كان قد طال به قبل أفسح له في الطريق.

"أوه!! عفواً "قلت وأنا أنهض خارجة من المقعد.. "أخرتك، أليس كذلك؟ "كان المدرج شبه فارغ، وكان الطلاب، إلا قلة منهم قد خرجوا، وكان علي أن أعتذر من الرجل الذي تلبث بكل بال طويل ينتظر عودتي من ذلك الشرود.. "لا.. لا بأس.. رأيتك مستغرقة في أفكارك

فربأت بنفسي أن أشوش عليك تلك الأفكار. "قال ونحن في الطريق إلى خارج المدرج.. "كلك ذوق.. الحقيقة كلك ذوق ولطف، لباقة وكياسة.." "لا.. لا تتخدعي بي.. أنا ربما لا أملك شيئاً من كل ما ذكرت.. بل هو الإلهام.. شيء ما ألهمني أن الصفو الذي أنت فيه لا يجوز تعكيره فتصبرت.. وانتظرت.." "ذلك الصبر والانتظار هو ما يستحق الشكر، بل الحقيقة أنا لا أدري كيف أشكرك.." "تشكرينني بقبولك دعوتي على فنجان قهوة.. "وابتسمت ابتسامة تتضح بأكثر من القبول.

لم كانت تلك الابتسامة؟ لم ذلك القبول السريع؟ أعترف لك يا سميتي بأنني لا أدري. أهو سحر الشعر الذي كنت أعيشه، والسحر يفقد المرء القدرة على التفكير؟ يسوقه بتياره إلى حيث لا يدري؟ أم هي الوحدة التي كنت أشعر بها في الجامعة؟ أرى الناس أزواجاً أزواجاً وأنا فريدة لا ثاني لي.. كل معه صاحبه أو حبيبه وأنا لا صاحب ولا حبيب. أم تراها حاجات أخرى كتلك التي قال عنها الشاعر "وفي النفس حاجات،" ربما لا يعرفها أو يعرفها ويكتمها خشية ما تجره من عواقب.. الحقيقة لا أدري يا سميراميس. ما أدريه أننا مضينا إلى ندوة الجامعة... حيث المشرب والمطعم.. وحيث الخدمة ذاتية.. بنفسك تحملين القهوة، تدفعين النقود دون أن يقدم لك أحد كأس ماء..

"اسمي غيث.." قدم نفسه ونحن نجلس إلى الطاولة "اسمي سميرة" بادلته التعارف بعد شيء من تردد، إذ خطر ببالي أن أعطيه اسماً مستعاراً، أي اسم فأوفر على نفسي مغبة ذلك التعارف.. لكن شيئاً ما جعلني أكبح نفسي فلا أكذب ولا أخادع.. شيئاً ما جعلني أشعر أنه يستحق أن يعرف اسمي.. بعدئذ كرت السبحة.. حكى لي عن نفسه لأعلم أنه طالب سنة رابعة أدب عربي.. رسب سنتين ولا يدري إن كان السنة سيتخرج.

شاب جاء من أعماق الريف، حيث يعمل صيفاً في الزراعة وشتاء في التعليم، حين تتاح له فرصة لتعليم، عله يستطيع متابعة تحصيله العلمي.. كنت أمعن فيه النظر وهو يحدثني ببساطة الريفي، عفوية ابن الطبيعة.. "منطقتنا ساحرة، جبال وغابات يطل منها المرء على السهل والبحر." وغبطته في سري على الطبيعة التي يستمتع بجمالها كلما عاد إلى مسقط رأسه. لكنني لم أغبطه حين أخبرني أنه يسكن في غرفة مع ثلاثة من زملائه "السكن غالٍ ولا طاقة لأي منا على تحمل نفقات الغرفة بمفرده." "لكن أربعة! كيف تدرسون؟ تأكلون؟ تنامون؟ "شرح لي فشعرت بالاستغراب.. أما يزال هناك أناس لا يجدون مكاناً يسكنون فيه!؟ ثم أحسست بصدري ينتفخ عالياً وأنا أتذكر.. مذ كنت طفلة كان لي غرفة خاصة وبيت ليس فيه سوى أمي وأحياناً أبي، إذن يحق لي أن أقول إنني من النخبة.. صفوة الراعي. وغيث، أمثاله.. هل هم الرعية، الرعاع

الذين كان مؤنس يتكلم عنهم!؟ "أجل.. هي ذي عينة من الرعاع سميرة" خاطبت نفسي. "فتفحصيه جيداً.. تعرفي إليه حسناً، أنت التي لم تعرف الرعاع من قبل."

كان الشاب طويلاً ناحلاً "لعله سوء التغذية.." خطر لي في الحال.

أسمر لوحته الشمس بحمرة داكنة كحمرة دم تخثر للتو، في عينيه بريق يتلامع كتلامع نجمة في سماء شبه غائمة. سألته، أجابني، سألني.. لم أجبه.. كان يريد أن يعرف عني مثلما أردت أن أعرف عنه، لكن عقلة ما عقلت لساني. كنت أبتسم أحياناً وأدعي الانشغال بشيء آخر أحياناً أخرى فلم أفصح إلا بالنزر اليسير.. هناك كان قد زال عني سحر الشعر وكان قد عاد إلي حذري السابق: ينبغي ألا يعرف أحد عنك شيئاً.. ولم استثنِ رفيق طاولتي. كنت أحتج .."ليس الآن.." "باكراً على مثل هذا السؤال.." إلى آخر ما هناك من طرق اعتذار.. لكنه، هو ابن الريف العفوي كان يجيبني، دون حيطة أو حذر. وهكذا علمت أنه ينظم الشعر وأنه نشر قصيدتين أو ثلاثاً في الجرائد والمجلات. "أنا أحب الشعر، لكنني أجهل كل شيء عن عروض الخليل وبحوره وأرغب في تعلمها.." "كيف تجهلين العروض وأنت آخر سنة أدب عربي؟" أبدى هو الآخر دهشته.. حينذاك فقط اضطررت لأن أعترف بأنني لا أدرس الأدب العربي بل التاريخ، لكن لشدة حبي للشعر.. أجيء إلى محاضرات الشعر. وأحسست ببريق في عينيه.. أتراه كان إكباراً أم إعجاباً؟ لا أدري. لكنه قال "كان عليك إذن أن تدرسي الأدب العربي، فكم من موهبة عظيمة ضاعت لأنها لم تجد من يصقلها، وكم من موهبة صغيرة نمت وكبرت لأنها وجدت من يصقلها!!".

"أنت على حق.. لكنني لم أكن قد اكتشفت نفسي بعد.." "يعني.. أنت لم تنظمي الشعر في سن المراهقة؟" "وهل تظهر الموهبة في مثل تلك السن؟" "غالباً.. هكذا" "لا.. لا.. أنا منذ سنتين فقط بدأت أشعر بالميل للشعر.. بدأت أفكر بأن أنظم الشعر.." "وهل نظمت؟" "أبيات.." "تذكرين شيئاً منها؟" "تهربت.. لم أكن واثقة من نفسي ولا من أبياتي الشعرية، فلوحت برأسي "لا.. هي أبيات تأتي ثم تمضي.. أنا لا أسجل ما أنظمه" "كان عليك أن تسجلي.. ثم اعلمي أن كل شاعر يبدأ متواضعاً، ينظم أبياتاً مضحكة أحياناً.. خذي الخليفة المأمون مثلاً.. أول بيت شعر قاله هو:

نحـــــن بنـــــو العبـــــاس نجلـــس علـــى الكراســـي

ولم أملك نفسي فضحكت ملء فمي.. "الخليفة المأمون قال هذا الشعر؟"

"أجل.. بل هناك شعراء كثر بدؤوا بأقل منه وأسخف ثم صقلوا موهبتهم وتمرسوا بالشعر إلى أن أمسكوا بعنانه خير إمساك".

"بودي أن أمسك بعنانه،" قلت دون أن تكون الفكرة قد خطرت ببالي من قبل.. كيف تخطر الأفكار هكذا دون سابق إنذار؟ لا أحد يدري.. لكن الفكرة أعجبتني على الفور قائلة في سري: إنها رائعة سأضرب بها عدة عصافير بحجر واحد.. هنيهة من الزمن ساد الصمت ثم سمعته يقول: "كي تنظمي الشعر لابد لك من أن تمتلكي أدوات الشعر." "وما هي أدواته؟" "اللغة.. هل تمسكين بزمام اللغة؟" "إلى حد ما، لكن كما قلت لك: المشكلة في بحور الخليل وعروضه" "أنا أعلمك إياها" قال داقاً على صدره وشعرت بنفسي أزفر في الحال زفرة الارتياح، كأنني كنت دون وعي، أسعى لتلك الغاية.. تحققت فتنفست الصعداء، ثم لم نفترق إلا وقد ضربنا موعداً لبدء دروس العروض.

الدرس الأول كان في الهواء الطلق، حيث جلسنا على أحد مقاعد الحديقة في زاوية بعيدة ما أمكن، وكل ما أبتغيه أن لا يراني أحد ولا نلفت أنظار أحد. كان الوقت باكراً وكان الطلاب قلة. بحماسة غير عادية شرع يحدثني عن الإيقاع في الشعر، الموسيقى الإلهية التي تجعل من البيان سحراً يدعى الشعر، وما قوام الموسيقى والإيقاع؟

سألته فقال: "التفعيلة.. واحدة أو اثنتان تأتيان في بيت الشعر على نحو متواتر متناغم يحقق الإيقاع ويولد الأنغام التي تشنّف آذاننا.. اسمعي هذا البيت:

وما كنت ممن يعرف العشق قلبه ولكن من يبصر عيونك يعشق

الموسيقى فيه نابعة من تفعيلتين اثنتين تتواتران وفق نظام معين فعولن.. مفاعيلن.. ولم أعد أسمع.. كان البيت جميلاً لا إيقاعاً وموسيقى فحسب بل معنى ودلالات.. ترى أية روعة أن تكون العيون جميلة ساحرة إلى درجة تجعل الناس يعشقون، تعلمهم الحب، تجرهم إلى الغرام رغماً عنهم؟ ثم رحت أتساءل ترى هل لعيني ذلك السحر؟ تلك القدرة على إخضاع الرجل وإغوائه؟ لم أكن أدري، فذلك سلاح لم أجربه قط.. كانت علاقتي بصاحب الرفعة سنين طويلة، إحاطته إياي بسور من حديد قد جعلتني أختط طريقاً محدداً لا أخرج عنه يمنة أو يسرة.. وكان يغنيني عن كل شيء: المال، الهدايا، الغزل، الجنس، إذ كان معطاء فيها كلها، لكن صاحب النبالة لم يكن كذلك.. بون شاسع كان بينهما حتى بت أشعر بالكثير من الفراغ.. هذا الرجل كثير الأشغال، كثير الارتباطات، ضئيل العطاء، لا مال، لا

هدايا، بل حتى الغزل كان ضنيناً فيه. وشيئاً فشيئاً بت أشعر بالحاجة لمن يملأ ذلك الفراغ. فهل كانت دروس العروض خدعة لجأ إليها اللاوعي لدي لسد ذلك الفراغ؟

الجواب جاءني تلويحة من كف غيث وعتاباً ظاهر النبرة "لا، إن كنت ستشردين وأنا أعطيك الدرس.. لا حاجة بنا للدرس ولا لتضييع الوقت." "المعذرة، غيث، "قلت وأنا أشعر بتأنيب الضمير. "لا أدري كيف شردت." "لكنك بحاجة إلى التركيز.. أرجوك ركزي قليلاً فقط.. اليوم سندرس البحر الطويل، هو بسيط وإيقاعه واضح.. انتبهي إلى تفعيلتيه الأساسيتين.." ومضى يشرح لي تينك التفعيلتين، التغيرات التي تطرأ عليهما، الزحاف، الإشباع وما إلى ذلك إلى أن بدالي أن البحر الطويل هو أهم بحور الشعر كلها، أكثرها استخداماً وأجملها موسيقى.. "تمام؟.." "تمام.." سألني فأجبت، وأنا أشعر أنني فهمت جيداً ذلك البحر الطويل الذي كتب امرؤ القيس على إيقاعه معلقته التي كان غيث يحبها كثيراً ويأتي بالأمثلة منها كثيراً. لكن حين طلب إلي أن آتي بمثال على البحر الطويل لم أستطع الإجابة. كان مخزوني من الشعر رغم قراءاتي السابقة له، صفراً أو يكاد.. اعتذرت منه دون ذكر تلك القراءات. كانت دراستي الثانوية هي الفرع العلمي، ولم يكونوا في الفرع العلمي يهتمون بالشعر أو حفظ القصائد. هنا قدم لي نصيحة: أن أحفظ ما استطعت من أبيات فذلك يساعد في صقل موهبتي ويمهد لي الطريق إلى نظم الشعر.. سألته "ماذا أقرأ؟ بأي الشعراء تنصحني فليس لدي فكرة عنهم". أجابني بأنه يفضل أن أقرأ ما تقع يدي عليه.. لا فرق بين شاعر وشاعر، وإذا لم يكن لدي كتب فهو سيأتيني بديوان، أي ديوان من عنده أقرأه ثم أعيده له.. وأعجبتني الفكرة.. ها هو ذا جسر آخر ينتصب بيننا.. واتفقنا.. نلتقي مرتين في الأسبوع في الزمان والمكان عينه. لكن قبل أن نفترق، أخرجت من حقيبتي بضع ورقات نقدية قدمتها له، فأبى واستكبر "ما هذا؟" "هذا حقك.. أنت تبذل جهداً معي وتضيع وقتك، إذن تستحق أجراً." "لا.. لا.." هتف شبه صائح وهو يردها بيده هاباً ملء طوله كأنما لسعته عقرب. "لا، أنا تبرعت بهذه الدروس، والتبرع لا يكون بأجر" "لكنك تعطي دروساً خصوصية وتأخذ أجراً، ثم إنك".. "بحاجة" تدخل حين ترددت شبه متلعثمة.. "فقير! أليس كذلك؟ نعم، أنا فقير، أهلي فقراء أشتغل لأدرس ولا أجد ما يعيبني في ذلك.. لكن تدفعين لي أجراً؟.. لا.. والمعذرة سيكون هذا أول وآخر درس". فجأة شعرت بالهلع.. وأنا أراه يخطو الخطوة الأولى مبتعداً .. "لا.. لا.. لا تزعل" أسرعت إليه أمسك بذراعه وأقف في وجهه." أنا لم أرد مضايقتك، صدقني.. نيتي طيبة وقصدي حسن: فلماذا هذا الانفعال؟" "تهينينني ولا أنفعل؟ كيف هذا؟ "أنا أهنتك؟" "قلت له باستغراب "أنا أعطيتك مالاً، الناس كلهم يسعون للحصول عليه بل يقتتلون من أجله،" "ربما.. لكن لست أنا من يقتتل مع الآخرين من أجل المال.. لست أنا

من يقبله بهذه الطريقة.. تشفقين علي؟ ترينني فقيراً بائساً فتحنين علي؟ لا.. يا سيدتي.. أنا فقير صحيح لكنني لست عديم الرجولة.. فقير صحيح، لكن لي كرامتي، شهامتي، التي لا أبيعها بكنوز الأرض كلها.." ولكي لا ينفعل أكثر قاطعته مهدئة، مقترحة أن نذهب إلى الندوة نشرب القهوة، لكنه رفض.. ليس بكثير من اللباقة بل بكثير من الجفاء والخشونة، كأنما أراد أن يذكرني بأصله هناك، حيث الجبال الوعرة والصخور الحادة وحيث لا يمضغ الناس الكلام ولا تصبغ النساء الحواجب.

الله كم أعجبني ذلك منه!! كرامة، رجولة، شهامة، أية مفردات غابت عن قاموس هذه المدينة!! هذا الزمان!؟ من تراه يتعامل مع الكرامة؟ يعرف الشهامة؟ يحرص على الرجولة؟ الشبان في الجامعة، في الشارع، في المصلحة التي أعمل فيها لا يعرفون شيئاً من هذا كله.. هم معنيون بالمنفعة.. المصلحة.. الكسب المادي.. واحدهم يلهث لهاثاً من أجل بعض المال.. الأخرى تبيع نفسها لقاء دريهمات.. بل أنا.. أنا نفسي لا تعنيني سوى المنفعة والمصلحة.. وضحكت في سري: الزمان هكذا، وعلى المرء أن يكون ابن زمانه.. "لكن ماله غيث وكأنه ليس من هذا الزمان؟".. "ذلك من حسن حظك، فسخريه لما ينفعك، استفيدي منه ما استطعت".. حينذاك فقط خطرت لي فكرة لكن سرعان ما كتمتها كيلا تظهر على السطح، إذ كانت بحاجة إلى تدقيق وتمحيص.. تنفيذها بحاجة إلى دراسة وتمهيد، ولقد بدأت ذلك للتو، مكررة اعتذاري المرة تلو المرة إلى أن سكنت مياه البحيرة.

الدرس الثاني كان حول بحر البسيط.. شرح لي تفعيلاته، حركاته، تغيراته، ضرب لي الأمثلة، وأنا أدقق فيه وأمحص. سيماؤه، أتدل على أنه قد يغدر أو يخون؟ نظرات عينيه هل توحي بأنه قد يستغل أو يبتز؟ نبرة صوته، هل تحمل استعداداً للانقلاب أو التمرد؟ كانت هناك أسئلة كثيرة علي أن أجيب عنها.. وكانت التفعيلات آخر ما يهمني.. لكنني فهمتها.. بين فكرة وفكرة كنت أوليه شيئاً من اهتمامي فتعلق في ذهني نتف من هنا ونتف من هناك بحيث أستطيع الإجابة حين يسألني عن ذلك البحر، مجزوئه وكاملة.. تحولاته وتبدلاته.

في نهاية أحد الدروس سألته، وأنا ما زلت أتفحصه "غيث، بماذا تحلم؟" "بأن أنجح هذا العام وأن أجد وظيفة توفر لي لقمة العيش. "قال وهو يتنهد، وكأنه يعلم مسبقاً أن ذلك مجرد حلم يصعب تحقيقه.. تمعنت في وجهه جيداً وأنا أفكر.. "المسكين.. مهموم كثيراً، يشك في إمكانية نجاحه رغم فهمه جيداً للغة العربية، إتقانه لها كل الإتقان، أما أنا فلست أعرف الهم ولا الغم وليس على بالي بال.. رغم أنني سأقدم الماجستير!! تلك الماجستير ستأتيني على طبق من فضة، لا تعب، لا عناء، فأية عظمة!! هنا يظهر الفارق بين الصفوة والرعاع؟ فلتزدادوا رعاعية

ولنزدد نخبوية!!" كنت أحدث نفسي وكان هو ينظر إلي ربما كي يعلم وقع كلامه علي. "النجاح!! وهل هو صعب في الأدب العربي إلى هذه الدرجة؟" "كأنك لست طالبة جامعة، "راح يلوح برأسه ضاحكاً ضحك المتضايق "الأساتذة هنا يصححون الأوراق بالشبر.. أتعرفين ما معنى أن يصححوا بالشبر؟ يعني "يا رب تيجي بعينه؟" كما يقول أخوتنا في بلد شقيق، صاحب الحظ ينجح وسيئ الحظ لا ينجح.. ثم هناك الرشوات، المحسوبيات، من تدفع عيناً، من يدفع نقداً، أنت تعرفين وهذا ما يخيفني.. في الصف الأول رسبت، في الصف الثالث رسبت، رغم أنني كنت أدرس بكل جد، فهل أنجح من أول سنة هذا العام؟ "تنجح.. تنجح.. "قلت أطمئنه "أنت شاطر ولا خوف عليك.. بل لدي شعور بأنك أيضاً ستجد الوظيفة. "وعاد يلوح برأسه، لكن هذه المرة بعنف أكثر. "الوظيفة؟ لا.. لا.. هذه لا تأتي إلا بالواسطة أو بالدفع وبعد الانتظار الطويل."

وشردت مع أفكاري.. كان يقول الحقيقة.. أنا نفسي لم أحصل على الوظيفة إلا بالواسطة.. وتذكرت صاحب الرفعة أول مرة ألقاه، وهو يجري ورائي في المكتب، يريد الدفع مباشرة.. الطاولة وحدها هي التي حمتني منه، توسلاتي فقط هي التي جعلته يؤجل الدفع إلى يوم آخر.. يا إلهي كم كنت خائفة حينذاك!! تشعر أختي بشيء، تنقل ذلك الشيء إلى أبي فتكون الطامة الكبرى.. لكنني نفضت رأسي متخلصة من أفكاري.. "الحقيقة أن مشكلة الوظائف معقدة.. كل الناس يريدون أن يتوظفوا.. هجروا الريف وانصبوا على المدينة حتى ضاقت المدينة وخلا الريف، فهل هذا لصالح المجتمع؟ لمصلحة الوطن؟" "ومن المسؤول؟ أليست الدولة؟" "كيف؟ ما علاقة الدولة؟" "علاقتها أنها تصب اهتمامها كله على المدينة وتهمل الريف.. تنفق كل شيء لتوفير المرافق، الخدمات، البنى التحتية للمدينة، فيما لا يصل إلى القرية إلا النزر اليسير. أهذا عدل؟ أمن الإنصاف أن تكون الكثير من القرى محرومة حتى الآن من الماء؟.. أقول لك.. أهل قريتنا حتى الآن يشربون من غدير ماء يبعد مسيرة نصف ساعة.. الفتيات يذهبن بالحمير، يملأن القرب بالماء ويعدن نازلات الجبل صاعدات إياه طوال النهار تماماً مثلما كانت أمهاتهن وجداتهن.." "معقول؟ "قلت وأنا غير مصدقة.. "مائة بالمائة".. أجابني بحماسة أشد ثم تابع.. "الحقيقة، الريف لدينا مظلوم، مازالت تنقصه أشياء كثيرة حتى يشد أبناءه إليه فلا يهجروه.. صدقيني.. ابن الريف يجد نفسه مضطهداً محروماً، حياته كلها بؤس وشقاء فيسعى نحو حياة أفضل، وأين هي الحياة الأفضل؟ في المدينة "سأل وأجاب نفسه فيما كنت أفكر.. "كم أنا محظوظة إذن.. أنني ابنة مدينة وجدت لديها كل أسباب الراحة. لكنني كابرت وأنا أقصد مشاكسته واستثارته "لكنك.. ذلك اليوم، حدثتني عن الغابات الخضراء، الطبيعة الساحرة.." إلا أنه لم يدعني أكمل.. "صحيح.. حدثتك.. لكن حين يكون

لديك أسرة وأطفال لا تفكرين بجمال الطبيعة وخضرة الغابات بل بلقمة العيش، والفلاح للأسف، يحاربونه حتى بلقمة العيش." "لا.. لا.. أنت تبالغ.. كيف؟ اشرح لي.." "ها... ها.. سأشرح لك.. الفلاح ينتج التبغ، القطن، الحبوب، الخضار.. لنقل أي شيء.. لكن كيف يبيعه؟ من يشتريه؟ الدولة ورغماً عن أنفه، بماذا؟ بأبخس الأثمان.. أجل بأبخس الأثمان ثم تعود الدولة فتبيعه بأبهظ الأثمان.. انظري إلى ما نشتريه من السوق.. نحن كمستهلكين نشتريه بسعر غالٍ جداً جداً يضاهي سعره في البلدان الأخرى، فيما الفلاح يبيعه، كما قلت لك بالسعر الزهيد الذي لا يعود عليه بكلفته ولا يقيم أوده، والفارق الكبير أين يذهب؟ إلى الدولة، التجار، السماسرة.. بل إن الدولة ذاتها دولة تجار وسماسرة.. هؤلاء هم المستفيدون الوحيدون.. الدولة في خدمتهم.. دون أن تهتم أدنى اهتمام بالمنتج أو المستهلك، فكل منتج مسحوق، وكل مستهلك مستغل مستنزف إلى أقصى درجات الاستنزاف.

وكان ذلك جديداً علي لم أعرفه ولم يحدثني به حتى عاصم.. لهذا أفدت منه، عرفت أفكار غيث، همومه، أحلامه.. حتى بدا لي، وأنا أدرسه أكثر فأكثر، أنه ضالتي التي أنشد.. وهكذا آخر درس شرح لي فيه بحر الوافر.. قلت له.. "اسمع الدروس هنا مزعجة.. صرنا نلفت النظر.. بل بعضهم يمر بنا ويلطش.. ما رأيك، نغير المكان؟" "كما ترين" قال، وهو يتذكر ولاشك كيف كان بعض الطلاب يمرون بنا وهم يغنون "لو يدري الهوى لو يدري.. يا ذات العيون الخضر" فقلت على الفور "حسناً.. تأتي إلي في المنزل".

وكأنه لم يصدق، هتف "المنزل!! ألديك منزل؟ "وضحكت ملء شدقي "طبعاً لدي منزل.. أم تظنني أنام في الشارع؟" "عفواً ما هذا قصدي.. قصدي هل تستطيعين استقبالي في المنزل؟ "أجل.. أستطيع.. اليوم أدلك عليه.. ثم تأتيني في اليوم المحدد من كل أسبوع.. لكن بدلاً من الصباح الباكر.. في المساء.. العاشرة تناسبك؟ "أنا يناسبني أي شيء... أنا خاتم في إصبعك.. فقط مريني.. تجديني شبيك لبيك غيث بين يديك"..

وكان ذلك كل ما أريد: خاتم في إصبعي أناديه فيلبي، لا يحشر نفسه في ما لا يعنيه، أصم، أبكم، أعمى، لكنه فحل أيضاً.. أجل الفحولة تعنيني.. بل أعترف لك يا سميراميس أنني حاولت أكثر من مرة التأكد من فحولته، وماذا يعنيني غير فحولته؟ أنت نفسك تعرفين ذلك، تجربة مررت بها وتعرفين ما تعني الفحولة للمرأة.. كنت في ريعان شبابك وكنت بحاجة للرجل.. بل كنت تبحثين عن الفحولة فيه، هكذا تتحدث أسطورتك.. أنا أيضاً بحثت.. بصمت.. بسرية شديدة بحثت.. احتككت به وكأنما عن غير عمد، لامسته وكأنما بالمصادفة، ورأيت الكتلة بين فخذيه تكبر، تتضخم، ترى ماذا أريد غير ذلك؟ وهكذا

حزمت أمري، آخذ الدرس في البيت، حين لا يكون هناك رقيب أو عزول. المدبرة تنام مع الصغيرة الساعة الثامنة وفي أسوأ الأحوال التاسعة، إذن لماذا لا نلتقي في المنزل؟ كنت بأمس الحاجة للرجل وكنت أكبح شهواتي، أكبت غرائزي، لكن إلى متى؟ صاحب النبالة غير فارغ. لا أستطيع لقاءه إلا مرة أو مرتين في الشهر. المكان الذي نلتقي فيه لا يريحني وهو مصر على ألا يستأجر بيتاً أو يأتي إلى بيتي. خوفه يقطع جوفه فماذا أفعل؟ أمارس العادة السرية؟ لا.. هذه لم تعجبني قط.. صحيح أنها منحتني شيئاً من متعة، لكن الصحيح أيضاً أن تأنيب ضميري بعد ذلك سلبني كل متعة فآليت على نفسي ألا أعود إليها أبداً.. إذن، هو ذا الخيار الوحيد ولا خيار سواه..

في العاشرة من يومنا الموعود جاء الرجل.. وجهه مشرق أكثر من العادة، وجنتاه محمرتان أكثر من العادة، أتراه أحس بشيء أم هو الخجل؟ الحقيقة، سميراميس، أنني لم أكن قد لمحت له بشيء، لم أقم بما يثير لديه الشكوك أو الظنون.. كنت أعامله بكل جد، ألبس بكل احتشام، أتحاشى الدخول في أية خصوصية من خصوصياته، كنت أدرسه وقد تكون النتيجة إيجابية أو سلبية، من يدري؟ إن كان حصاناً سهل القياد، لا مشاكس ولا حرون، لبى الغرض، أما إن كان يعض أو يرفس أو يجمح فما لي وماله؟ أثبت غيث بكثير من الأدلة القاطعة، أنه هو الحصان المطلوب: تأمرينه فيأتمر، تنهينه فينتهي، وقد جاء كما أمرته.. في الموعد المحدد بالدقيقة والثانية.. رحبت به، قدته إلى غرفة الاستقبال بعيداً عن جناح النوم حيث غرفة آية.. أراد أن يبدأ الدرس في الحال فاعتذرت بحجة تقديم الضيافة.. شربنا القهوة ثم بدأنا بحراً آخر من بحور الخليل.. هذا البحر لم أفهم شيئاً منه.. المنسرح.. وتفعيلات متراكبة معقدة غليظة الإيقاع.. لكن بعدئذ أدركت أن ذلك ليس هو السبب، السبب أن عقلي كان في مكان آخر. كان كل ما فيّ يتأجج شهوة، كنت أحس بشيء كالبخار يتصاعد من أسفل إلى أعلى.. حيث المخ فينطبق فوقه مغلفاً تلافيفه مثلما يغلف الأرض الضباب.. كانت أحشائي كلها قد تحولت إلى أفواه تصرخ، مناقير تنقف، مراجل تغلي فوارة على نار لاهبة.. فكيف أفهم شيئاً؟.

ما فهمته فقط هو سؤاله لي: فهمت المنسرح أم أعيد الشرح؟ "لا.. لا تعد الشرح.. بل أريدك أن تسمع.. غيث.. لقد نظمت بيتاً من الشعر.." "حقاً؟ ما هو؟ قولي".. وللتو رأيتني أنشد دون أن أكون متأكدة كثيراً مما أنشد:

يـــا أبـــا الغـــوث أغـــثني   إنـــــني في شــــــر حـــــال

وعلى الفور سمعته يرد:

أوه، لبيـــــــك، سمـــــــيرا   إنــــــني رهــــن الـــــسؤال

لم أشعر إلا وأنا أقفز من مكاني، منكبة عليه، آخذة إياه بين أحضاني، أشده إلي، ألثمه ألثمه، ثم أطبق شفتي على شفتيه، أقضمهما، ألتهمهما وكأنني أعاني من جوع قديم. مفاجأة كاملة كان انقضاضي عليه، مفاجأة كاملة كانت الحركة كلها إلى درجة جعلته في البداية يتسمر في مكانه حائراً لا يعلم ما يفعل، لكن شيئاً فشيئاً بدأ ينهض من مقعده لنصبح وجهاً لوجه وقامة لقامة وشفاهنا ما زالت متشابكة.لم أعد وحدي من يقضم ويلتهم، بل راح هو الآخر يبادلني القضم والالتهام بجوع أشد من جوعي القديم.. يقولون القبلة هي الشرارة التي تشعل نار الجسد، وقد أشعلت تلك الشرارة ناره على الفور إلى درجة شعرت معها بلهبه يخترق جسدي، بعنفه يشتد إلى درجة أحسست معها بأضلاع صدري تطقطق.. هو قوي.. لأول مرة أشعر بقوة الرجل، وذراعاه تضمانني فتكادان تسحقانني.. ولكي أتفادى اللهب من خارج والنار من داخل والانسحاق بين بين، تخلصت من إضمامته، ثم أمسكت بيده واتجهت إلى الداخل، ماشية على رؤوس أصابعي محذرة إياه بطرف سبابتي: لا نأمة، ثم مضينا إلى المخدع لنجده يضج عطراً وأريجاً، رومانساً ودفئاً. هناك، على السرير العريض خضنا معاً معركة حامية الوطيس لم أعرف مثل حماوتها من قبل.. ثم لم أخرج منها إلا وأنا مستنزفة القوى مرتخية المفاصل لا أقوى حتى على الحركة.. حية أكلت حتى التخمة فأصابها الخدر ولم يعد أمامها سوى النوم.

حين أفقت، شعرت أنني أقتلع اقتلاعاً من حلم جميل كنت فيه أسبح مع غيث في بحر دافئ مترع بالنشوة والفرح، بحر تحول فيه الهم والغم إلى زبد تلقي به الأمواج فوق الشاطئ.. كان الهاتف يرن.. بإلحاح يرن وكأنه يعاند حلمي وسعادتي. مددت يدي إلى السماعة ليخدش صوت أجش طبلة أذني "ما هذا؟ ساعة يرن الهاتف وأنت لا تردين؟ "كان صوت صاحب النبالة وكان منزعجاً شأن كل أولي الأمر الذين يريدون حاجة فلا تلبى على الفور.. "قل صباح الخير أولاً "رددت وأنا ما زلت غائصة في بحري ذاك، بحر الدفء والسعادة.. "أي صباح خير؟ الساعة الواحدة يا مهجة روحي "قال بين الساخر والجاد.. هو يناديني بحبيبتي، غاليتي، لكن مهجة روحي تلك كانت جديدة، فقلت "حقاً!. عجيب.. ليس من عادتي أن أنام حتى هذا الوقت.. أنت على حق.. يجب أن أنهض".. "وأن تأتي على الفور، "أكمل في الحال.. "خير؟ أهناك طارئ؟" "تأتين فتعلمين. "علمت أنه لن يقول ما لديه مهما حاولت، فانصعت وفي نفسي شيء من خوف.. "حاضر.. أنا آتية."

في مكتبه كان متجهماً، أخذني ين ذراعيه، لثمني على خدي كعادته كلما التقينا، إلا أنه ظل متجهماً، ذلك التجهم الذي زاد من خوفي. أكان يراقب بيتي؟ أرأى غيثاً وهو داخل أو خارج.؟ غيث جاء في العاشرة وذهب في الثالثة.. وقت ميت من الليل؟ فكيف يراه؟ لكن ما إن سألني سؤاله الأول حتى تنفست الصعداء. "ماذا؟ أنت هذه الأيام طالبة جامعة نظامية، تداوم كل يوم، هل إستطيع أن أعرف لماذا؟" "وهل لديك مانع؟ بارتياح شديد رددت" أم نسيت أنني طالبة على وشك أن تناقش رسالة الماجستير؟" "لا، لم أنس.. لكن نحن متفقان على أن لا تفكري بالأمر ولا تهتمي.. ماجستيرك، اعتبريه في جيبك، ألم أقل لك ذلك؟ فلماذا هذا الذهاب إلى الجامعة وحضور المحاضرات والجلوس ساعات مع الأستاذ المشرف؟" "الله!! أنت تراقبني إذن؟" "بل أرعاك فلا يصيبك سوء" "إذن أنا شاة في نظرك أو معزاة؟ "قلت مطرقة متظاهرة بالبكاء وكلي رغبة في أن أحول الحديث كله عن ذلك الاتجاه.. في الحال نهض من وراء مكتبه مقترباً مني "لا.. لم أقصد هذا".. "بل تقصده". قلت وأنا أنشج.. كلكم تفكرون هكذا. نحن مجرد معزى أو شياه، ترعوننا في أراضيكم، نسرح تحت إشرافكم، نأكل العشب ونسمن كي تأكلونا لحماً وترمونا عظماً.. "حبيبتي.. ما هذا الذي تقولين "قال وهو يركع على ركبتيه أمامي". "عن أي شيء تتكلمين.. أنت حبيبتي.. سميرة، أنا أحبك فكيف أنظر إليك نظرة كهذه؟" "لا أدري.. اسأل نفسك وكف عن لعب دور الراعي معي كيلا أكون مجرد عنزة لديك".. "عنزة!! أنت عنزة؟ ماذا تقولين سميرة؟ أنت مهجة روحي، أنت حبيبتي.. معشوقتي.. أجل أنت معشوقتي، فهل فوق ذلك من مرتبة؟"

"لو كنت كذلك لرأيت منك غير ما أرى؟ "فكرت وأنا أبتعد عنه أتمشى في المكتب الفسيح الذي يلعب فيه الخيل. "ترين؟ ماذا تريدين أن تري؟" "ألا تعلم؟ "سألته وقد قررت أن أرد عليه الهجوم.. "لا، ما الذي أعلمه؟" "تقول إني معشوقتك.. ترى أليس للمعشوقة على عشيقها حق؟ ألا يترتب عليه أي واجب؟ "حق!! واجب!! لا أدري.. صدقيني لا أدري ما تقصدين؟ "العشيقة يا سيدي بمثابة زوجة مضاعفة. إنها السكن الذي يسكن إليه الرجل والحب الذي يلقى بنفسه بين أحضانه، وإذا كان على الرجل الكثير من الواجبات تجاه الزوجة وأنت تعلمها جيدا كزوج فكيف إذن بالعشيقة، أنت يا من لم أر منه هدية واحدة حتى الآن.. أنت يا من لم يسألني كيف أعيش، من أين ألبس، آكل؟ أنفق؟ أم تظنه كافياً راتبي الحقير ذاك؟ أيكفيك أنت يوماً واحداً لو كان راتبك؟ "وكنت سأتابع سيلا متدفقاً يجرف معه كل شيء لو لم يسرع إلى مقاطعتي: "كفى.. كفى.. الآن فهمت.. الآن فهمت" قال وهو يقترب مني ممسكاً بيدي، مقبلاً إياها آثماً يطلب الغفران.

"الحمد لله أنك فهمت.. واسمح لي.. لقد تصبرت حتى لات مصطبر.. كما قال الشاعر.. لكن طفح الكيل وأنت غاض النظر لا تريد أن ترى أو تسمع".. "سأرى.. وسأسمع.. فقط اهدئي.. استريحي.. ثم لن تكوني إلا راضية، "قال وهو يقودني من يدي يجلسني على الكرسي من جديد ليجلس قبالتي.

أخرجت لفافة من علبتي الفاخرة فأسرع يشعلها لي.. "صحيح.. آسفة يا سميراميس، أنا لم أقل لك إنني صرت أدخن.. أنت لا تعرفين هذه الكلمة.. "الدخان". لم يكن الإنسان قد عرفه أيامك.. وباء كانت الدنيا خالية منه ثم جاء الأمريكان بفيروسه فسمموا النفوس، سمموا الصدور، خنقوا الأنفاس.. مع ذلك صرت أدخن تعلمته على مضض، أدمنت عليه وأنا أعرف مضاره يا سميتي." نفخت بضع نفخات وأنا أراقب خيوط الدخان تخرج بيضاء، رمادية تلتف فوق رأسي ثم تمضي نحو النافذة زوبعة في فنجان.

"هه.. طلباتك؟ "قطع الصمت أخيراً وهو يحاول التبسم، كأنما يريد إزالة كل ما بقي من آثار الإعصار الذي كنته قبل لحظات. "طلبات؟ أنا لي طلبات!" انتفضت من جديد.. "لا.. لا.. أنا لم أقل لك ذلك.. بل تموت الحرة جوعاً ولا تأكل بثدييها. "بدأت بكثير من الحزم والتوكيد فرحة في سري لاستخدامي ذلك المثل القديم رغم أنه كان يراودني الشك في انطباقه علي.. أنا حرة!؟

لم أكن واثقة كثيراً من ذلك فأرجأت التفكير به وقد اقترب بكرسيه مني "حسن.. لا تطلبي.. "بدأ الرد." أنا أعلم.. كرامتك لا تسمح لك، وهذا ما يعجبني فيك.. أجل.. أنت حرة كلها كرامة وإباء ولا يمكنها أن تطلب.. لكن اغفري لي.. كنت أحسبك غنية.. أبوك تاجر من كبار التجار فقلت لابد أنها محشوة مالاً".. "لو كنت كذلك لكان لدي سيارة على الأقل.. لما اضطررت لأن أحشر نفسي في الحافلة والرجال من قدامي ومن خلفي.. أترضى لعشيقتك مثل هذا المصير؟" "أنت تصعدين في الحافلات؟" "ماذا إذن؟ تحسب أن لدي ليموزين؟ أنا امرأة تعيش كما يعيش كل الناس، أبي ليس من كبار التجار ولست محشوة بالمال.. بل أصارحك الآن.. أنا أعيش الكفاف.. أحياناً لا أجد فلساً في جيبي".. "ولا تطلبين؟ يا إلهي!! كم أنا آسف!! كم هذا يحزنني!! ؟أنا قلت.. أنت مختلفة.. لست كبقية النساء.. غيرك من النساء كن يبتززنني.. يسلبنني كل ما أملك.. وأنت بهذا العفاف؟ بهذا الكبرياء؟ سامحيني.. أرجوك سامحيني.. سأشتري لك سيارة.. سأخصص لك راتباً تقبضينه كل شهر، راضية هكذا؟ مسرورة؟".

لم يكن باستطاعتي أن أتكلم عن الرضى أو السرور حتى أرى السيارة بأم عيني.. أرى الراتب.. كم تراه سيخصص، هذا البخيل الآتي من مرو؟ هل سيدفع كما كان صاحب

الرفعة يدفع؟ راح يلح علي بالسؤال تلو السؤال، يريد أن يعرف وحين تأكد من رضاي نهض ثم انحنى علي يقبل جبيني، "كل شيء إلا زعلك.. أرجوك حبيبتي.. أنا أحبك.. أحبك ولا أحتمل زعلك أو غضبك أبداً" "حسن.. لن أزعل إذا ما رأيتك تفيني بعض حقي" "بل سأفيك كل حقك.. ألم أعدك بالماجستير؟ حسن.. ها هي الرسالة جاهزة." ومد يده إلى طاولته يأخذ منها دفتراً بشريط، أنيقاً لامعاً، ثم يقدمه لي. فجأة شعرت بفرح غامر.. الرسالة بين يدي، إذن هو صادق.. "أوه!! كم أشكرك، فلماذا لم تحدثني عنها؟ "هي مفاجأة، أردتها مفاجأة سارة فكدت تقلبينها إلى فاجعة".. "المعذرة لم أكن أتصور ذلك.. حسبت أنك نسيت الأمر كله." "أنساه! كيف إذن عرفت أنك تذهبين إلى الجامعة وتجلسين مع الأستاذ؟".

"كيف؟ "زلمتي" ذهب إلى الأستاذ لاتخاذ الإجراءات النهائية فرآك هناك".. "صحيح، قلت في سري.. تلك المرة التي كنا فيها معاً نتكلم عنك أيتها الملكة الحسناء، دخل رجل ضخم الجثة جهم الوجه كحراس أصحاب الرفعة والنبالة، وكالملدوغ رأيت الأستاذ يهب مسرعاً إليه، منحنياً على سيماه الذعر، فلم أملك إلا أن اعتذر وأخرج.. هو ذاك إذن "زلمة" صاحب النبالة.. لقد خاف منه حتى الأستاذ، "آ.. فهمت الآن... وماذا فعل هناك؟ "أعطاه التعليمات اللازمة، فلا حاجة بك لأن تذهبي إليه أو تجالسيه. "أتغار علي؟" وجدتني أندفع آلياً لسؤاله. لم لا؟ الطير الطائر إن اقترب منك قتلته".

قال باندفاع مفاجئ جعلني أرتعش في داخلي.. ماذا إذن لو عرف بغيث؟ دروسه لي في حديقة الجامعة.. ليلتنا الحمراء قبل ساعات فقط.. هل سيقتله أيضاً؟ ربما سيمزق لحمه إرباً إرباً، ربما سيسحق عظامه." إذن عليك أن تكوني في غاية الحذر "أمرت نفسي. كانت عيناه معلقتين بشفتي وكأنما تنتظران بوحاً أو شكر فعل لا شكر قول، لكنني قلت "حسن.. لن أذهب إليه إلا قبل يوم واحد من المناقشة" "هكذا مسموح لك.. المناقشة حددناها يوم الأربعاء في العشرين من الشهر القادم.. اقرئي الرسالة وحضري نفسك لمناقشتها".. "ألم يكن بالإمكان الاستغناء عن ذلك؟" "قلت وأنا أبرم شفتي استهزاء"... من أجل هذا أرسلته".. قال بشيء من امتعاض.. "كان بودي أن أريحك حتى من هذه الشكليات.. لكن المشرف قال مستحيل.. ثمة لجنة يجب أن تحضر وتضع العلامات.. هذه شكليات ضرورية لا بد من الالتزام بها.. ما عدا ذلك.. كل شيء علي.. سأضع لها أعلى علامة وضعت في الجامعة".. "صحيح؟ "هتفت فرحة، وقد قفزت إلى ذهني الليسانس التي لم أنتبه لعلاماتها فجاءت متدنية لا تسمح لي بدراسة الماجستير أو الدكتوراه.

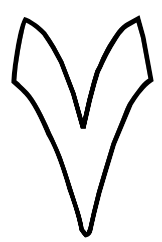
"صحيح.. لهذا استعدي.. أمامك شهر.. راجعي الرسالة حتى إذا سألك أحد أعضاء اللجنة عرفت كيف تجيبين." "على رأسي" قلت بكل ما لدي من غنج المرأة اللعوب.. "من أجل هذا جئت بك." "قال بعتب لتتحولي إلى لبوءة تزأر".. "لا تؤاخذني. مع سبع مثلك أأكون غير لبوءة؟" "لا بأس لا بأس "قال مربتاً كتفي فتابعت "مرة ثانية أعتذر، لم أكن أعرف لكن الآن عرفت.. "ماذا عرفت؟ "سألني وهو يقترب بفمه من فمي كأنما يريد الإطباق عليه. لم أبتعد عنه بل أردت تحديه فظللت ثابتة لا أتزحزح. "أن ورائي ظهراً "قلت فتهلل وجهه في الحال ثم تابع نافخاً صدره.. "ظهراً أقوى من الحديد.. أصلب من الصوان.. ولسوف تلمسين ذلك لمس اليد يوم مناقشة الماجستير" لكنني لمسته قبل ذلك اليوم.. حين ذهبت إلى الأستاذ المشرف أرتب معه جلسة المناقشة.. المسكين كاد يقبل يدي.. صرت أنا الأستاذة وهو الطالب الذليل.. لم يعرف كيف يستقبلني، كيف يجلسني، يشرح لي مقدار أسفه وحزنه لجهله بمن ورائي، ثم يؤكد لي أن لا خوف علي أبداً.. كل شيء على ما يرام.. أوامر صاحب النبالة لا تناقش ولا ترد أبداً فلأطمئن.

وكنت مطمئنة لكنني لم أرد للأستاذ المشرف أن يكون بهذا الجبن، بذلك الخنوع والخضوع. أشفقت عليه لحظة ثم تذكرت ما كان يقوله مؤنس "لا ترحمي ضعيفاً، لا تشفقي على مسكين"، فكففت عن الشفقة وشرعت أملي عليه ما أريد..

في اليوم التالي كان ما أريد.. القاعة مليئة بالحضور دلالة على أهمية الرسالة وموضوع المناقشة. كيف لا وأنت موضوعها يا سميراميس؟ المنصة ملأى بالزهور. وكلها ترجو النجاح لي والتوفيق.. من أرسل تلك الزهور؟.

لا أدري.. بيد أن وجودها كان يعني الكثير.. لقد بهرت أعضاء اللجنة.. أخي عاصم.. أختي ربى، الكل كانوا مبهورين.. خاصة حين بدأ الأستاذ المشرف يكيل لي المديح كأنه زخ المطر: أنا فريدة عصري علماً ومعرفة، جداً واجتهاداً، ذكاء وفهماً حتى وجدتني دون أن أشعر، أشيل برأسي عالياً ثم أرد على أسئلة الأعضاء، إذ على الرغم من أنني كنت أعلم أنني سأنجح حتى لو لم أجب بكلمة واحدة، إلا أنني كنت أرد.. بثقة وكبرياء، بمعرفة وفهم.. ألست أتحدث عنك؟ إذن أنا أعرف الكثير ولا خوف علي.

ثم هناك أناس يسمعون، أناس يهمني أن يقتنعوا أن سميرة بنت ميس طالبة مجدة تدرس الماجستير وتناقش، تأخذ وتعطي ولقد أخذت وأعطيت إلى درجة هب معها رئيس اللجنة مهنئاً مباركاً وهو يهز يدي عشرات الهزات، هاتفاً بصوت يسمعه كل من في القاعة: "ألف مبارك. لقد نلت الماجستير بدرجة شرف".



(لا تقل إن القيثارة قد صمتت
بعد أن جفت كنوزها
لأنها لم تعد تجد نغمة تعزفها
قد لا يوجد شعراء
ولكن الشعر سيوجد دائماً
مادامت موجات النور في القبلة تنبض ملتهبة
ومادامت الشمس تكسو الغيوم الممزقة بالنار والذهب
ومادامت الرياح تحمل في أحضانها العطور والأنغام
ومادام يوجد في العالم ربيع
فسيوجد الشعر
ومادام العالم يبحث دون أن يتوصل
لاكتشاف ينابيع الحياة
ومادامت الإنسانية تتقدم
دون أن تعرف إلى أين تسير
ومادام يوجد سر للإنسان.. فسيوجد الشعر
ومادامت توجد عيون
تعكس العيون التي تنظر إليها
ومادامت الشفاه تجيب بتأوه
على الشفاه التي تتأوه
ومادام بإمكان روحين أن تشعرا بأنهما اندمجتا في قبلة
ومادامت توجد على الأرض امرأة جميلة.. فسيوجد الشعر)

يا إلهي!! كم هو عبقري شاعرك هذا يا جدتي الكبرى!! إنه يتنبأ بأن الشعر باق ما بقي الإنسان، سيظل موجوداً ما وجد الإنسان.

وها هي ذي نبوءته تصح.. قبل ثلاثة آلاف سنة كتبوا فيك الشعر أيتها المرأة التي فاقت النساء كلهن بجمالها، نظموا القصائد فيك أيتها الملكة الحسناء، سميراميس، يا ملكة بابل وآشور، وهاهم اليوم يكتبون الشعر في المرأة الجميلة، في البحث عن ينابيع الحياة، وطوال الآلاف الثلاثة من السنين ظل الشعر يتربع على عرش الإبداع البشري، فكيف لا تغريني كتابة الشعر ونظم القصائد؟

ثمة رجال وسيمون يوحون لك بالشعر يا سميتي، هناك عواطف جياشة تفور في صدرك، تريد الخروج كلمات وأنغاماً، هناك أوطان يتكلم المرء عنها، طبيعة ساحرة يتغزل بها.. فكيف لا أكون شاعرة؟

هكذا، وجدتني أخربش كلمات هنا، أبياتاً هناك.. أنغمها فتتنغم.. إذ صرت أعرف عروض الشعر جيداً.. الدروس التي أخذتها ذات يوم أجدت نفعاً وهاهي ذي تظهر مقطوعات من الشعر تستغرقني حيناً من الزمن ثم أكتبها فتثير إعجابي غير أن إعجابي الأشد استثير حين كتبت قصيدة من اثنين وأربعين بيتاً.. "يا إلهي!! اثنان وأربعون بيتاً!؟ هي قصيدة عصماء".. قرأتها المرة تلو المرة ليزداد إعجابي المرة تلو المرة، بل لقد حفظت أبياتاً كثيرة منها فصرت أقف وراء طاولتي، ألقيها خطيبةً مفوهة وشاعرة مفلقة إلى درجة عزمت معها على أمر..

"صاحب النبالة، اسمع هذه القصيدة التي نظمتها. "قلت له ونحن في المكتب (العش) ذات ليلة. "أنت تنظمين الشعر؟ أية مفاجأة؟" "اسمع وستكون المفاجأة أكبر." "قلت ثم بدأت في الحال:

ويا وطني، أنت يا مهجتي وروحي يا من كنت دائماً بلسماً لجروحي

"الله!! الله!! "صاح مقاطعاً، فاتحاً عينيه على سعتهما "هذا شعر حقيقي!! وعن الوطن!؟ شيء نفيس بديع.. أريني إياه!!" وأخذ القصيدة يمسحها بنظرات سريعة مستغربة "هو شعر مموسق موزون؟ أليس كذلك؟ "سألني فهتفت في الحال "طبعاً، الشعر بدمي.. أوزانه أعرفها بالسليقة.. صحيح أنني درستها على أيدي جهابذة.. لكن الصحيح أنني أعرفها بالفطرة.. طويل له بين البحور فضائل فعولن مفاعلين فعولن مفاعلن.

جحظت عيناه أكثر، وانكب على القصيدة يقرأها بإمعان أكثر، إلى أن سمعته يهتف "أحييك.. أنت شاعرة حقيقية.. أنت العبقرية خالصة.. اسمعي.. هذا البيت رائع مدهش وبدأ ينشد:

ابعدي عنه يقول العالم كله لي ، مالك وماله

يا ويحهم ، كيف أبعد عنه وهو حشيشة روحي

"أعجبك؟" سألته والنشوة تنفخ صدري عالياً وتتبج بها أوداجي."ساحر ، قلت لك.. فاتن... شعرت معه أنك تحولين الوطن إلى رمز يجسدني أنا.. إذ رغم وشايات الناس ، دسهم وتقولاتهم ترفضين الابتعاد عني.. لماذا؟ لأنني أنا حشيشة روحك ، فأي معنى أبدع؟ أي رمز أروع؟" "يا إلهي!! أنت عبقري يا حبيبي ، كيف أدركت أن هذا ما قصدته تماماً؟" .. ولو.. لم إذن أنا ، كما تقولين ، عبقري؟ صحيح صدق المتنبي.. وشبه الشيء منجذب إليه.. الآن أدركت السر.. العبقرية فينا أنا وأنت هي التي جذبت واحدنا إلى الآخر وربطت ما بيننا برباط وثيق لا فكاك له." "حقاً لا فكاك له؟ "سألته وفي نيتي أن أدفعه أكثر على المنزلق سريع الانحدار. "بالتأكيد.. حبيبتي الجميلة.. معشوقتي الرائعة.. ألا ترين أنني كل يوم أزداد حباً لك وتعلقاً بك؟" "أجل.. أرى لكن.. السؤال إلى أين؟ إلى متى؟" "لا تسألي الآن.. أنا فرح بقصيدتك.. فلا تعكري فرحي.. ذلك أمر نبحثه قريباً.. لكن القصيدة.. ماذا تريدين أن تفعلي بها؟" ..أريد نشرها.. فهل ذلك ممكن؟" "ممكن ونصف وثلاثة أرباع،" رد ضاحكاً نافخاً صدره إذ لم يكن يسره كأن يبرهن لي أنه رجل واسع النفوذ ، عظيم الشأن. "دعيها لي.. غداً تجدينها في أهم صحيفة في البلد". ووجدتني أطير فرحاً إليه أشبعه لثماً وشماً ، تقبيلاً وضماً وهو يشهق بين يدي لا يكاد يستطيع التقاط أنفاسه.

كان جو العش رومانسياً. إذ أشعل المخدع كله أضواء خافتة حمراء ، فيما انسكب عليه من كل مكان ستائر مخملية حمراء زادته وهجاً على وهج.. كما انطلقت من كل ركن من أركانه أنغام من موسيقى موزارت هادئة ، ساحرة تدغدغ الأعصاب وتبعث في الجسم كله خدراً لذيذاً حتى صار كل ما أتوق إليه وأنا ألفه بذراعي لاثمة ضامة ، أن ألقيه على السرير مرة ثانية ، أمتطيه فارسة بارعة لا تضاهيها على السرج فارسة.. لكنه ظل بارداً بين يدي يحاول التملص من ذراعي فلا يستطيع.. كنا قد مارسنا الجنس من قبل ، أكلنا ، شربنا ، وكان ذلك أقصى ما يستطيع تقديمه.. للسن حقها ، ومن قال ابن الستين كابن العشرين مخطئ.. أنا أعرف ذلك.. صار بإمكاني أن أقارن.. مؤنس.. يونس.. مرة واحدة تكفي ، لكن ماذا لو كان شريكي في الفراش غيث؟ آه يا لغيث!! ذلك رجل يستنزف المرأة ، يجعلها حطاماً.. تحتاج بعده لأيام وأيام إلى أن تجمع ذلك الحطام.. تلك هي ذروة اللذة يا سميتي.. اللذة التي تجعل المرأة تشعر بأنوثتها حقاً.. تجعلها تشعر برجولة الرجل حقاً.. لكن يونس ، هل كان

باستطاعته أن يفعل ذلك؟ لا.. لا.. هذا أمر كنت على يقين منه.. السنون علمتني أن أكون قنوعة معه.. أكتفي بما يعطيني.. عله يعطيني أشياء أخرى كنت أريده من أجلها..

الماجستير!؟ ألم يقدمها لي على طبق من فضة؟ بلى.. كلمة واحدة لم أكتب من رسالة الماجستير، مرجع واحد لم أتعب نفسي في قراءته أو البحث فيه.. بل حتى جلسة المناقشة كانت سهلة ميسرة كما لم يشهد أحد جلسة من قبل.. وعلى نحو لم يستطع حتى أخي عاصم إخفاء شكه ودهشته "ما هذه اللجنة؟" سألني بعد أن خرجنا من الجلسة ورحنا نتمشى على الرصيف. "هل اشتريتهم كلهم حتى لا يسألوك سؤالاً مثل العالم والناس؟" "لكنهم سألوني "رددت متصنعة الاستغراب." "أجل، سألوك.. لكن على طريقة ثلث "الثلاثة كم؟"

"هكذا شعرت؟ "أجبته متسائلة وأنا أكتم ضحكة كادت تفلت مني، "طبعاً.. الكل شعروا هكذا.. الكل شعروا كأن كل شيء، مرتب مدوزن، مسرحية تدرب الجميع عليها، الغاية منها ذر الرماد في العيون.." ولم أكن حريصة على الرد.. كنت أعلم أن ما يقوله صحيح.. وأن وراء المسرحية كلها صاحب النبالة لكن أأقول له ذلك!؟ إذن، في ذلك الموت الزؤام. عاصم لا يتسامح في قضايا كهذه، هو الأخ الشرقي الذي يعتبر شرفه كله يتجسد بين فخذي أخته، بل هو ينتخي بها، كما ينتخي البدو الأعراب، أنا أخو وضحة.. "أنا أخو صبحة" فكيف يرضى أن تكون وضحته تحت الشبهة؟".

تلك الشبهة هي التي كان يسعى لكشف الستر عنها.. كانت شكوكه قد بدأت منذ زمن طويل، لكنه لم يكن يجد الدليل، وكان يبحث عن الدليل.. المرة تلو المرة كان يسألني، والمرة تلو المرة كنت أضلله..

"أنت تعيشين مسرحية حقيقية لا أدري من يخرجها؟ "سألني ذات مرة.. "لا مسرحية.. ولا مخرج.. صدقني عاصم.. أنا فقط عصامية أبني نفسي بنفسي، بعرق جبيني وكد يميني".. "معقول!؟ في بلد لا يستطيع المرء تأمين قوته إلا بالواسطة.. تحققين كل ما تحققين بكد يمينك وعرق جبينك ودون واسطة؟".. "أنت ترى.. بأم عينك رأيتني أناقش رسالة الماجستير، بأم أذنك سمعت ما سمعت.. فأين الواسطة؟" "لا أدري.. بل ذلك ما يكاد يجنني.. ثمة سر في حياتك سميرة.. لكنك لا تحكين.. أنت لديك واسطة وأنا على يقين من ذلك، بل واسطة كبيرة تمهد لك الطرق، تفرشها بالأزاهير لكن من تراها؟ هذا ما لا أعرفه.. أهو صاحب الرفعة مؤنس؟ "سألني على نحو مفاجئ فكدت أثب قافزة من مكاني.. هو يقترب بشكه من الحقيقة وعلي أن أبعده عنها، "أبداً "قلت شبه هاتفة.. "أقسم لك من سنين لم أره. "وكنت صادقة، بل كان

الصدق يفيض من عيني فاضطر لتصديقي.. لكنه لم يصدق أنني أشق طريقي هكذا "لكنك تعرفينه.. ذهبت إليه يوم الوظيفة".. قال فأكملت على الفور "وكان شهماً كريماً.. قابلته حينذاك أنا وربى... وظفني.. أوصى بي.. ثم انتهى كل شيء"

"اسمعي، سميرة،" تابع ممسكاً بذراعي ونحن نسير على مهل، أخوين ظاهرهما الوئام وباطنهما الخصام، "أنا خائف عليك منهم.. إنهم لا يوفرون أحداً ولا يخفرون عهداً.. الزمن نفسه فاسد.. إنه الزمن الذي قال عنه علي بن أبي طالب، "سيأتي عليكم بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل ولا أكثر من الكذب"، فلا تدعيهم يغرقونك في وحل هذا الزمان، سميرة" "لا.. لا تخف علي".. رددت بثقة كبيرة في النفس "أختك سباحة ماهرة.. لا يستطيع أن يغرقها أحد". "لكنه وحل.. حيثما ذهبت وحل.. فأين تسبحين؟ لا.. لا.. سميرة.. ابتعدي عن المستنقع كيلا تغوصي في وحله فلا تستطيعي الخروج".."لا.. اطمئن.. بل من قال لك إني أقترب من مستنقع أو وحل؟ أنا أحب القمم، أعيش في الأعالي ولا أحب الوهاد والمستنقعات.." "لكن ماذا تريدين؟ إلام تطمحين؟" "آه!! عاصم!! أنا أريد الكثير.. طموح موار في داخلي يجعلني أتوثب دائماً، يقول لي لا تنتظري سميرة أن تسنح لك الفرص الخارقة بل انتهزي الفرص العادية لتجعليها خارقة." "ها..ها.. "هتف عالياً شبه مقاطع إياي "طموحك يقول لك انتهزي.. وهذا وحده ما أخشاه عليك أختي.. الانتهازية هي مرض العصر.. الذرائعية سرطان هذا الزمان.. وهو ما أريدك أن تبتعدي عنه.. فلابد أنه جار عليك الويلات".. "ماذا تريدني إذن؟ حرمة تقعد في جناح الحريم محرومة حتى من النور؟" "لا.. لا.. سميرة أنا أيضاً لا أريدك هكذا.. الحرمة هي الشكل المهين الذي وصلت إليه المرأة عبر قرون استعباد الرجل لها.. أنا أعرف هذا ولا أريده لك.. لكن لا يكن همك الصعود والصعود فقط ولو على حساب شرفك وكرامتك".. "وهل كان نيل الماجستير على حساب شرفي وكرامتي؟" :لا.. لا.. ما هذا قصدي" قال بشيء من تلعثم وقد سددت له ضربة موجعة، فتابعت مربتة كتفه ممازحة "إذن ضع في بطنك (بطيخة صيفي) كما يقول إخواننا هناك. اطمئن كل الاطمئنان"

لكن اطمئنانه غدا هباء تماماً حين رأى سيارة اللكزس البيضاء.. التي أهداني إياها صاحب النبالة. لقد بر الرجل بوعده أخيراً. جاءت السيارة وخصص لي راتباً، لم يكن الراتب كراتبي السابق لكن قلت شعرة من جلد الخنزير مكسب، ثم إن الأعباء المالية كانت تتكاثر: بيت، بنت، مدبرة منزل وأنا أذهب هنا هناك أرتدي خير الملابس، أظهر بأحسن هندام ليكلفني ذلك كثيراً. حتى بدأت أشعر أن السنام الذي آكل منه سينتهي قريباً.. وإذا انتهى كانت الكارثة.. أأعود إلى صاحب الرفعة؟ أأمد له يدي من جديد؟ لا، ليس حسناً أن

أفعل ذلك.. هو لن يتأخر، أنا أعرفه جيداً. رجل شهم كريم لا يرد طلب طالب، فكيف إن كنت أنا ذلك الطالب؟

الأفضل أن يتحمل كل ذي مسؤولية مسؤوليته.. ولقد تحمل صاحب النبالة مسؤوليته. صحيح أنه ماطل، سوف، لكن الصحيح أيضاً أنني كنت أعرف السبب: هو، بطبعه، يكره أن يمد يده إلى جيبه، والطبع غلب التطبع.. فرغم الأموال الهائلة التي بات يكدسها هنا وهناك، رغم الأملاك والعقارات، الأراضي والمزارع، مازال يكره أن يمد يده إلى جيبه.

فرحت كثيراً حين وصلت السيارة. بل بدا لي أن شيئاً يعوض شيئاً. مؤنس لم يقدم لي سيارة، لكن هل طلبت منه؟

الحق يقال: لا.. لماذا؟ لا أدري.. ربما لم تكن خبرتي ونضجي قد وصلا إلى مرحلة امتلاك السيارة والتباهي بها. لكن بالتأكيد ما كان مؤنس ليرد لي طلبي.

إيه!! كم أحن إليه يا سميتي!! لماذا؟.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول، ولقد كان هو الحبيب الأول أو بالأحرى الرجل الأول، وهل تنسى المرأة رجلها الأول؟.

لا، لا، صدقيني سميراميس كنت أحياناً أقضي الساعات أفكر فيه.. أستعيد لحظاتي السعيدة معه.. دروس الحياة التي لقنني، فنون الحب التي علمني .. وكم كان معلماً بارعاً! لكن ما يذهب لا يعود أبداً سميراميس. أنا أعلم ذلك بل آمر نفسي دائماً بألا تلتفت إلى الوراء.. كان علي أن أشق طريقي صعداً، أن أمضي دائماً قدماً فلماذا ألتفت إلى الوراء؟ هو درجة في السلم الذي أصعده، وهو نفسه قد علمني أن أرفس من دوني لألعق قدم من فوقي.. فلأتابع طريقي مخلصة وفية لتعاليمه.. درجة السلم التالية كانت رائعة أيضاً.. أنجزت لي الكثير فلماذا أقارنها بالأولى؟ لا.. لا.. المقارنات مكروهة. لأفرح بما أنجزته لي وحسب، ولأتابع.. فالطريق أمامي ما يزال طويلاً..

حين جاء عاصم يسألني كيف جئت بالسيارة، ومن أين، تهربت منه. لم أكن جاهزة للنقاش، لم أكن أرغب في أن يعكر فرحي أحد.. فتملصت.. تحدث قليلاً، كعادته، عن الفساد الذي استشرى في الوطن كله، عن أولي لأمر الذين يبددون ثروة البلاد على مآربهم الخاصة وملذاتهم، بل أنشد لي أبياتاً من الشعر، جعلتني أرتعد في الداخل.

إن الذين على حساب شعوبهم حلبوا ملذات الحياة ضروعاً

رفعوا القصور على كواهل شعبهم وتجاهلوا حقاً له مشروعاً
ساسوا الرعية بالغرور سياسة لا يرتضيها من يسوس قطيعاً

لكنني لم أكن أريد الكلام في ذلك البتة. كتمت الرعدة وتابعت تهربي معتذرة له بأن لدي شغلاً ضرورياً علي أن أنجزه: مراجع يجب إحضارها من مكتبة الجامعة إذ بدأت أحضر للدكتوراه. يومذاك كانت رسالة الماجستير قد تحولت إلى كتاب.. صاحب النبالة تعهد أمرها كاملاً مكملاً.. فلم أتعرف على شيء.. أعطيته إياها رسالة فإذا هي خلال أقل من شهر كتاب من القطع الكبير بحوالي مائتي صفحة يرصع اسمي صفحته الأولى متلامعاً بأحرف من ذهب.. آه!! كم فرحت حينذاك يا جدتي الكبرى!! كم لعبت في رأسي النشوة وأنا أرى ذلك الاسم يتحدى العالم كله. هاهي ذي سميراميس الجديدة تشق طريقها بقوة وثبات.. ذلك الشعور هو ما ساعدني في مواجهة عاصم، وهو ما أخذ بيدي تماماً للتهرب منه. فحين دخل كان وجهه مصفراً، عيناه تقدحان شرراً لكن ما إن أعطيته الكتاب وتذرعت بحجة الجامعة حتى أفلت من عقاله.. لكن بشعور واحد" الصدام قادم لا محالة.. ما تهربي منه إلا تأجيل للصدام."

ولقد كان علي أن أتجنب الصدام، فكل صدام سيعكر علي صفو حياتي، سيحمل إلى سمائي غيوماً شديدة القتامة أنا التي تريدها صافية زرقاء كوجه البحر..

كنت فرحة بالراتب، بالسيارة، بالوليد الجديد.. وليدي الذي رأى النور لتوه، فكيف أسمح لشيء بتعكير فرحتي؟.. كنت أريد أن أقدمه للأصدقاء، الصديقات، لأبي، امرأة أبي، أخوتي، أخواتي فيرى الجميع من هي سميرة تلك التي كانوا يعيرونها بأنها بنت ميس. كنت أريد أن أقدمه للصحافة، النقاد، الكتاب فيكتبون عن الباحثة الجديدة التي ينتظرها مستقبل واعد بالعطاءات.. طوال تلك الفترة ظللت ولا هم لي سوى ذلك الكتاب.. أحمله هنا وهناك لأجد فرحة في وجوه بعضهم وأسئلة مستغربة في وجوه بعضهم الآخر، لكن ما أثلج صدري تلك المقالات التي راحت تظهر تباعاً في الصحف، بعضها بأقلام أناس أعرفهم لكن أكثرها بأقلام أناس لم أسمع بهم قط.

"من هذا؟ من ذاك؟ "كنت أسأل صاحب النبالة، فيرد بضحكته المتقطعة المكتومة.. "من جماعتنا، أريد أن أعمل لك دعاية لم تصر لأحد من قبل. هل أنت مبسوطة؟" "مبسوطة فقط؟ قل أكاد أجن فرحاً.. آه!! ما أمتع أن يرى المرء نفسه وقد صار شغل الناس الشاغل.. يفكرون به، يكتبون عنه.. "وتوقفت وأنا أراه ينظر إلي نظرة عتاب فاستدركت "طبعاً هذا كله بفضلك... أنت الأول والآخر، الظاهر والباطن، لك عرفاني الشديد وامتناني العظيم". "أنا أريد

عرفانك حباً وامتنانك عشقاً" "وهل تشك بحبي لك؟ "سألته وأنا أتهرب من عينيه اللتين كانتا تنغرسان في عيني.. كان الرجل قد وقع في غرامي حتى شحمتي أذنيه وكان يريدني أن أغرق مثله في الحب.. لكن أكان باستطاعتي ذلك؟.. أكان بوسعي أن أكاشفه بالحقيقة؟ الحب!! صدقيني يا سميتي، هو العاطفة الوحيدة التي لم أعرفها قط.. ولو عرفتها يوماً لكان مؤنس هو الأجدر بها، لكنني كنت عاجزة عن الحب.. أجل.. أنت نفسك كنت عاجزة عن الحب.. أسطورتك تقول إنك أحببت ملكك نينوس حب الوله وإن العاطفة التي كانت تجمع قلبك إلى قلبه قد تخطت الحدود البشرية حتى قلت له ذات يوم "إنني أحبك أكثر من حياتي" لكنني أشك في ذلك، يا سميتي، فالرجل الذي قلت إنك أحببته أكثر من حياتك كانت نهايته على يديك، تماماً كما تنبأ لك العراف من قبل.

إذن ذلك لم يكن حباً فمن يحب لا يقتل حبيبه أبداً يا سميراميس.. أنت لم تحبي وأنا لم أحب، إذن نحن سواء.. كانت كل منا تريد الصعود وحسب، وكان الرجال درجات في سلمنا.. أنت صعدت بشجاعتك وفروسيتك وأنا بأنوثتي وجمالي، لكن صدقيني.. لو كان زماني كزمانك لفعلت مثلك، لكنه زمن آخر يا سميراميس، زمن الحضارة والعلم، الشهادة والإعلام، فهل بوسعي إلا أن أسلك هذا الطريق؟ يكون المرء فارغاً أجوف.. الصقي على صدره شهادة دكتوراه يلمع كالذهب، رنينه يغري ومرآه يغوي.. شخص آخر يكون صفراً على الشمال في أي عدد أو حساب، سخري له وسائل الإعلام، يصبح بيرقاً في رأس جبل، عدداً ضخماً في صفحة حساب..

صاحب النبالة يعرف هذا.. ولأنه يريد إرضائي كان يحقق لي ذاك الذي في نفسي مما أبوح به أحياناً ولا أبوح أحياناً أخرى. هو يعرفني جيداً: امرأة تموت بالشهرة، تجن بالسلطة، فكيف لا يحقق لي مشتهاي؟ وهكذا، بترتيباته راح الكتبة يكتبون، الصحف تنشر مقالات مدبجة، المجلات تمدح الباحثة العظيمة التي ظهرت هكذا من غامض علم الله، وبرفقة المقالات صوري.. صور جميلة أعددتها خصيصاً للصحف.. صور لا يملك إزاءها الرجال إلا أن يتسمروا لحظات ويتلمظوا مرات.

عاصم كان يتابع الحملة تتبع المدقق الحريص، يكتفي بالاستغراب أحياناً ويلجأ للاحتجاج أحياناً أخرى. "معقول!؟ كل هذا النفاق والرياء، معقول؟ "هم لا يراؤون عاصم "كنت أدافع.. "بل يقولون الحقيقة" "لا، لا، ما كنت أحسب جو الأدب مسموماً إلى هذا الحد، بالله عليك كم تدفعين لكل كاتب منهم؟" "سامحك الله عاصم.. سامحك الله" أرد وأنا أهز رأسي متهربة من الحقيقة، تلك التي كنت أعرفها جيداً.. "أقسم لك إنني لا أعرف واحداً منهم ولم

أدفع فلساً لواحد منهم." وكنت صادقة في قسمي.. لكن كان هناك من يدفع لهم نقداً أو عيناً، وكنت أعرف ذلك، لكن أأقول له الحقيقة؟ إذن سيفضحني "للأسف" كان يتابع "حتى الأقلام صارت تباع وتشترى، حتى الضمائر صارت في سوق النخاسة.. إيه!! الآن أعلم سبب تردي حال هذه الأمة.. الآن أعلم لماذا لا يمكنها أن تنهض على قدميها؟" ثم تغرورق عيناه بالدموع. هو الذي كان يبني آمالاً عظاماً على الكاتب والأديب الذي ينبغي أن يكون شيئاً أخر: لا يركع لأحد، لا يخضع لإغراء، قادراً على التضحية، فكيف تراه ينافق ويرائي؟ يبيع ضميره ووجدانه؟ كان ذلك السؤال يحيره، وكان يريدني أن أشرح له ما وراء الكواليس عله يفهم، فقوقعته المثالية لم تكن تسمح له برؤية ما وراء تلك الكواليس، ولم يكن باستطاعتي أنا أن أريه إياها أو أشرحها له. تلك هي لعبتي والمرء لا يكشف لعبته، كان عاصم يظن أن عالم الأدب والكتابة مطهر من الإثم والخطيئة، معصوم عن الشر والرذيلة ناسياً عالم الإعلام.. هذا العالم الجديد الذي أوجدته الحضارة ملوثاً مشوهاً، تربى أجيال فيه على الغش والخداع، كما تربى الدواجن على الهرمونات وأسمدة الأزوت.. لم يكن يعلم أن أرباب الأموال والرساميل حولوا ذلك العالم إلى مسرح يسرحون فيه ويمرحون، يرفعون من يشاءون ويخفضون من يشاؤون. إنه الإعلام، وحش الحضارة الحديث وسيفها الفيصل.. فلماذا لا أستخدم هذا الفيصل؟.

الحقيقة، سميراميس، كان عاصم عصياً علي لم أستطع إقناعه بشيء من هذا، كما لم أستطع إقناعه بأن على المرء أن يسير مع التيار لا ضده، أن يسخر الوسائل المتاحة كلها لخدمة مصالحه لا عكس مصالحه، بل كان من المستحيل أن أناقشه فيها. لكن لحسن الحظ، كان ثمة رجل آخر في حياتي وكان شيئاً آخر.. إنه غيث المعجب كل الإعجاب بالدعاية الواسعة التي روجت لكتابي حتى نفدت الطبعة كلها، "هذا أمر نادر هذه الأيام.. "قال والإعجاب يلمع في عينيه.. "كتاب ينفد خلال بضعة أشهر!؟ هذا من غرائب الأحوال وعجائب الأزمان". وفي الحال نصحني أن أعيد طباعته. "لم لا؟ "قلت وقد أعجبتني الفكرة "إن كنت سأتواجد في الساحة الثقافية زمناً أطول؟ "لكنني لم أقل إنه سيدر علي مالاً أكثر، الأمر الذي يمتعني غاية الإمتاع: تأخذ دون أن تدفع، تربح دون أن تخسر.. وهكذا طلبت إلى صاحب النبالة إعادة طبعه، ليس ثلاثة آلاف نسخة، كما في المرة الأولى وحسب، بل خمسة آلاف.. "هكذا يظل عندك مخزون جيد للمستقبل "فكرت وأنا أجري حساباً بسيطاً لتلك الصفقة الرابحة التي أوحى بها غيث.. ولشعوري بالامتنان الشديد له، أقمت حفلاً خاصاً ليلة صدور الطبعة الثانية، شربنا فيها وأكلنا كما لم نشرب ولم نأكل من قبل، ثم مارسنا لعبة المتعة كما لم نمارسها أيضاً من قبل.

كانت علاقتي بغيث قد سارت وفق ما أشتهي: سرية لا يدري بها أحد، إذ امتنعت عن الظهور معه في أي مكان، خاصة بعد أن حدثني صاحب النبالة بما حدث كاشفاً عن عظيم غيرته، بل عن استعداده لتمزيق كل من يقترب مني إرباً إرباً.. إذن علي التشدد في احتياطاتي الأمنية، لهذا منعت على غيث الاتصال بالهاتف، منعته من ذكر اسمي على لسانه، أن يعرف ابن أنثى بما بيننا وإلا.. وأشرت له بيدي المرسومة كحد السيف إشارة قطع الرقبة. كنت أعلم أن الرجل يخاف وكنت أريد إخافته أكثر حتى لا يتمادى يوماً من الأيام، كذلك كنت قد بدأت أغدق عليه الهدايا والأعطيات، مالاً وغير مال.. تمنع في البداية، لكنه كان تمنع الراغب، فالفقر الذي ينيخ بكلكله عليه كان يجعل عينيه تبرقان حين يرى النقود وكنت أريده أن يأخذ النقود فأظل المسيطرة عليه، ألست أنا التي تعطيه؟ إذن سيظل يشعر بالدونية تجاهي، بأنه يأكل من خبزي وبالتالي يضرب بسيفي، يطيع تعليماتي، ولم أكن أريد غير طاعة التعليمات. التعليمات واضحة: لتبق علاقتنا ضمن إطارها المحدد لا تتجاوزه أبداً.. منذ البدء حددت العلاقة.. أراد أن يحدثني عن الحب والغرام، عن شدة الهيام الذي يشعر به تجاهي منادياً إياي "يا ذات العيون الخضر" مغنيا لي "لو يدري الهوى لو يدري" لكنني صددته دفعة واحدة "اسمع.. حب، غرام، هيام، هذه كلها لدي عملة باطلة لا تمشي في سوقي أبداً.. فلا تحدثني عنها.. نحن على علاقة جيدة، كل منا له مصلحة فيها، كل منا فيها بحاجة للآخر، فإذا أردت الحفاظ عليها، نفذ ما أقول لك بالحرف ولا تحدثني أبداً عن الحب".

وأحنى رأسه طاعة كما أقفل فمه حباً. كان غيث بالنسبة إلي آلة للمتعة لا أستطيع العيش بغيرها.. صاحب النبالة غير قادر على تلبية رغباتي تلك التي كثيراً ما كانت تتأجج نيراناً في أحشائي لا أجد من يطفئها.. غيث يطفئها، إذن ليكن هو آلة الإطفاء، أداة اللذة، أدفع له مقابلها. أنا القادرة على الدفع، ويمنحني ذلك شعوراً خاصاً، ربما لم تشعر به أمهاتنا أو جداتنا، حين كان الرجال قوامين على النساء.. لقد صرت أنا القوامة على الرجل. أنا مصدر رزقه، طعامه، لباسه، كل ما يحتاجه يأخذه مني.. في البداية لم يكن يطلب، لكن شيئاً فشيئاً صرت أدفعه لأن يطلب، فأشعر بلذة غامرة وهو يمد يده لي.. ها هو ذا رجل أذله، أجعله يركع عند قدمي متوسلاً العطاء، شاحذاً المال..

كنت أشعر أن ذلك كله سيرسخ عبوديته لي وكنت أريده عبداً حقيقياً أفعل به ما أشاء، تعال، يأتي، اذهب يذهب، نم، قم، افعل، اترك.. وهو يلبي، عبداً لا يعرف سوى الخضوع.

أحدد له ساعة المجيء، فيأتي بالدقيقة والثانية، أشبع منه فأصرفه بطرف يدي.. كنت قد نسيت مسألة العروض والبحور والشعر، صارت لقاءاتنا للمتعة فقط. مرتين في الأسبوع نلتقي، ومرة في الشهر أدفع له.. هو فقير مسكين يعمل لكي يعيل نفسه.

لكنني وفرت عليه العمل والتعب.. صار يتعب فقط حين يجيء إلي! أم تراه لم يكن يتعب؟ لا أدري، بالحقيقة، لكنني كنت أشعر أنه يلهث أحياناً مقطوع الأنفاس، يعصر نفسه عصراً لكي يروي رغبتي..

في تلك الليالي كانت تميمتي التي تكبح الشهوات تقف عن العمل، أنا نفسي كنت أوقفها عن العمل. لدي عبد رقيق يستطيع إرضاء تلك الشهوات فلم لا أطلق لها العنان؟ هو نفسه كنت أشعر به سعيداً مغتبطاً. لم لا، وهو يشرب عندي أرقى المشروبات؟ يأكل أطيب المأكولات ويضاجع ذات العيون الخضر أحلى السيدات؟

ذلك ربما جعله يتكاسل فرسب ذلك العام حاملاً خمس مواد.. لم يضايقه ذلك كما لم يضايقني.. في العام التالي نجح بأربع وبقيت لديه مادة.. ثلاثة أعوام قدمها ولم ينجح.. أزعجه ذلك.. فيما أنا نفسي كنت فرحة في سري، فنجاحه سيبعده عني.. لكنه غدا في موقف حرج، إشارات استفهام كثيرة صارت تنتصب أمام عينيه: الطالب النشيط، الشاطر يرسب ثلاث سنوات بسبب مادة واحدة.. وكاد يتأزم، غدا منطوياً على نفسه يأتي إلي ذاوياً متفكراً، فاضمحل فرحي. "اذهب فادفع له ..هاك المال. "قلت وأنا أضع في جيبه رزمة من نقود. لكن سرعان ما ندمت، فقد نجح ثم عين مدرساً في جزيرة نائية تاركاً وراءه أشد الفراغ.

ذات يوم جاءني صوته فاشتعلت رغبة فيه. "تعال إلي فوراً.. أنا بأشد الشوق إليك، "قلت فتنهد "آتي إليك؟ كيف وأنا بعيد؟ أكلمك من مكان عملي." "اللعنة!! لماذا إذن تكلمني؟ ألم أقل لك بلا هواتف، بلا فضائح؟" "لم أستطع منع نفسي.. قرأت قصيدتك أمس فلم أنم الليل". "فرحت لي؟ سررت بشعري؟ "سألته وأنا أعود إلى نشوتي البكر حين رأيت قصيدتي الثانية تتصدر صفحة كاملة من أهم صحيفة في مدينة البر ثم أسمع كلمات الإطراء من زملائي، رنين الهاتف والناس يهنئونني بالقصيدة.

غيث خالف الجميع، وهو يرد بنبرة كلها حسرة "أسفي على دروس العروض التي أعطيتك إياها.. على الساعات التي أضعناها في بحور الشعر وتفعيلاتها. "لماذا؟ أليس الشعر موزوناً؟" "موزون؟ أنى له الوزن وهو مكسر مهشم لا تفعيلة فيه ولا بحر؟" "تباً لك غيث!! ما الذي تقوله؟ الناس كلهم قرؤوه وما احتج أحد.. كلهم يهنئونني.. لم يذكر أحد مسألة الوزن.." "ناسك هؤلاء

كلهم منافقون، يريدون أن يمسحوا لك الجوخ ويغمطوا الحقيقة.. لكن، أنا أنبهك.. لا تنشري شعراً دون أن تعرضيه علي أو على خبير يصلح لك أخطاءه، يقوم اعوجاجه". "نعم.. نعم.. أخطاء!.. اعوجاج؟.. اخرس قطع لسانك.. أنا لا أرتكب أخطاء ولا اعوجاجاً.. شعري مضبوط، الناس كلهم شهدوا لي بذلك. أنت فقط تريد أن تعمل أستاذاً علي.. انصرف عني لا أريد أن أرى وجهك أو أسمع صوتك بعد اليوم." وأغلقت السماعة بقوة ما أحسبها إلا هتكت غشاءه الطبلي..

لكن طوال ثلاثة أيام ظل غيث شغلي الشاغل.. كلماته ترن في أذني فتتوتر أعصابي.. "اللعين!! كيف ينقدني ذلك النقد؟ شعري مكسر مهشم؟ لا تفعيلة، لا بحر؟ اللعنة عليه!! يتطاول علي!! أهو أكثر فهماً من الناس جميعاً.. من صاحب النبالة ذاته.. كلهم قرؤوا القصيدة ولم يفه واحدهم بحرف؟أهو الحقد؟ لاشك أنه الحقد والغيرة.. رآهم ينشرون لي شعراً.. قصيدة ملء صفحة كاملة في الجريدة وهو لا ينشرون له فغار، ركبه الحقد والحسد.. يريد أن ينتقم مني بتبخيس شعري.. لكن.. لا.. بعيد عليك.. لن أسمح لك أن تفرغ روث حقدك وغيرتك في وجهي، فاذهب عني.. اذهب إلى الأبد".

كنت أحدث نفسي وأشتعل ناراً في داخلي إلى أن التقيت صاحب النبالة، فكان أول سؤال أسأله "حقاً؟ شعري غير موزون؟" "من قال ذلك؟ "رد باستغراب فتلعثمت بعد أن بدأت باللاشعور مجيبة على سؤاله "غ.. غ.." لكنني كبحت نفسي خشية أن يجر علي اسمه السين والجيم وأعلق في شرك لا خلاص لي منه.. "غبي.. رجل غبي لدينا في المكتب. "تابعت وقد تماسكت." يزعم أنه يفهم في الشعر والعروض. "فضحك صارفاً الأمر بيده. "حقاً غبي.. لا تعيريه اهتماماً.. كل من قرأ القصيدة مدحها. ما هذا النفس الوطني؟ ما هذه الجزالة؟ ما هذا السهل الممتنع؟" ولم أفهم قصده من السهل الممتنع، لكنني لم أرد الاستفسار كيلا أبدو أمامه ضعيفة الثقافة ضئيلة الفهم.. "يعني.. أطمئن؟" "طبعاً.. اطمئني.. لو كان هناك أي خلل.. أو عيب عروضي لقال لي الناس، لتحرك النقاد ينقدونك.. لكن اليوم وأمس.. هناك تعليقان من ناقدين كبيرين يمدحان الشاعرة الجديدة الواعدة ويثنيان على القصيدة التي تبشر بميلاد شاعرة فذة".. وصفقت واثبة فرحاً.. "حقاً "يونس؟! أنا لم أقرأ أياً من هاتين المقالتين".. "إذن.. هاك إحداهما.. انظري.. نصف صفحة كاملة عن قصيدتك وبقلم ناقد مشهور. إنها شهادة.. تفقئين بها أعين الحساد والغيارى." وضحكنا مقهقهين وأنا ألقي نظرة سريعة على عنوان المقالة العريض.. ميلاد شاعرة واعدة، بعدئذ رحت أرقص وأرقص إلى أن ارتميت تعباً على السرير لتتلقاني بالحميمية والدفء أحضان صاحب النبالة.

كنت قد جئت إليه كالعادة بعد منتصف الليل، يقيني من عيون المتلصصين ليلان: ليل الكون وليل السيارة بزجاجها السميك المعتم حيث ترى ولا تُرى.

كان لدي سيارة أذهب بها حيث أشاء، إلا أن صاحب النبالة كان حريصاً أن أجيء بسيارته فقط. احتججت، حاولت اختراق قاعدته لكن عبثاً. كان علي أن أنفذ أوامره، لأدرك بعد حين أنه على حق. سيارتي ستكون المفتاح لكشف هويتي ومن ثم إثارة الفضيحة المغطاة بقشة: لماذا تأتي سيارة سميرة دك السور بعد منتصف الليل إلى المبنى؟ إلى أين تصعد صاحبتها؟ مع من تغيبها الجدران أربع ساعات؟.

هو يشكو لي: أعداء كثر يتربصون بي.. كلهم يحسدونني.. بل لا يسعدهم كأن يروني أسقط ليغرزوا سكاكينهم فيّ. لهذا أنا حريص حذر أخشى حتى أقرب المقربين إلي، أشعر أن ألصقهم بي يكتب التقارير ضدي، يبث الإشاعات، ينشر الفضائح.. سكرتيري أشك فيه.. أشعر أنه يتلصص علي، يسترق السمع، عله يسمع أو يرى أي شيء، يسلخ به جلدي". "غيره،" اقترحت عليه وأنا أحسب نفسي أشيل الزير من البير، فضحك.. "وما الفائدة؟ كل من يأتي سيكون مثله.. الناس كلهم صاروا هكذا.. تهمهم مصالحهم يريدون أن يتسلقوا.. وكيف يتسلقون؟ على كتفي وكتفك"..

منذئذ بت أشفق عليه، أنفذ أوامره بأدق التفاصيل، فخيره خيري وشره شري.

"تعلم؟ "قلت وقد خرجنا من معركة السرير لا غالب ولا مغلوب، لنجلس إلى الطاولة الملأى حتى الحافتين بأطايب الطعام والشراب.

"كلام ذلك الموظف شغلني بل أقلقني كثيراً." "تباً له!! أتريدين أن أسرحه لك؟" "يا ليت!!" "ما اسمه؟ سجليه لي واعتبريه مسرحاً." "وهو كذلك" قلت وأنا أشعر أنني وقعت في ورطة.

الموظف زميلي في الدائرة، هكذا قلت له. فأي موظف ألصق به الجريمة؟ درويش!؟ خالد!! أمجد؟ كنت ما أزال محتارة أفكر حين رفع نخبي عالياً. رفعت نخبه لأعب الويسكي عباً جعلني أشعر بأنامل الخدر تسري في مفاصلي فيما كان يقول "أو اسمعي مني.. لا تولي انتباهاً لأولئك الذين ينتقدون أو يتقولون.. هم.. رعاع.. وما يشعر الرعاع تجاه سادتهم من النخبة؟.

إنه الحسد والغيرة، إذن اضربي صفحاً عنهم وإذا ما تقولوا أو انتقدوا تابعي سيرك ثم قولي: الكلاب تنبح والقافلة تسير". "حكيم أنت يا معلمي "قلت وقد أثلجت صدري نصيحته.. "صحيح.. لماذا.. أفكر بغيث وبما يقوله غيث.. طالما القافلة تسير فلتنبح كلاب الأرض كلها".. رحت أحدث نفسي وأنا أتذكر صاحب الرفعة والدروس التي كان يعطيني إياها شارحاً مفسراً. "صحيح! تابعت

"لم لا تفيدني من علمك وتجربتك؟ أنت رجل عظيم عاش الحياة بطولها وعرضها، أنضجته الخبرات على نار هادئة، فلماذا لا تكون معلمي وتشركني في تلك المعارف والخبرات؟".

"يسرني ذلك حبيبتي.. الله كم يسرني أن أرد لك جميلك" "جميلي؟ "سألت بشيء من استغراب. "بالتأكيد.. هذا البحر من الحب والسعادة، هذه الحيوية، هذا الشباب، أكنت أعود إليه لولا صباك هذا وجمالك!! أجل.. أنت تبعثين في الشباب.

تملئينني حيوية ونشاطاً.. بعد أن أكون معها.. هناك.. بارداً كالرماد".. "حقاً؟ إلى هذه الدرجة؟" سألته وأنا أفتح عيني على سعتهما.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يحدثني فيها عن سر عائلي.. هنا أيضاً كان حذراً حريصاً، لا يأتي على ذكر زوجته أو أولاده إلا ما ندر.. لكن هاهو ذا أخيراً يتكلم، يعترف بأنه لا يستطيع معها شيئاً.. يقول إنه بعد خمس وثلاثين سنة زواجاً آخى اللحم اللحم.. هي قريبته.. وجارته. كانا معاً منذ الصغر.. الوجه للوجه.. يذهبان إلى العين معاً، يلعبان في الشارع، وحين كبرا وعرفا معنى الحب لم يجد واحدهما سوى الآخر فتزوجا ثم استمرا طوال تلك السنين واحدهما في وجه الآخر ليلاً نهاراً فقط، فكيف لا يؤاخي اللحم اللحم؟ لكن إن كان هو قد اقتنع واكتفى أنى لها هي أن تقتنع أو تكتفي؟.. في البداية استغربت.. لم يعد يقربها البتة، هي التي ما تزال بحاجة إليه.. أحشاؤها تفح فحيحاً أحياناً كتلة من أفاع فلا تجد من يسكتها، نيرانها تتأجج لكن لا تجد من يطفئها، فماذا تفعل؟ تطالب بحقها، تضغط عليه، تتحرش به، لكن لا حياة لمن تنادي.. كأنه انقلب عنيناً.. وتتعجب.. لم يكن الرجل بذلك الفحل المجلي يوماً من الأيام، لكنه كان يقضي الوطر دائماً، اللهم خبزنا كفاف يومنا.. وكانت قانعة، لكن أن يصل الأمر به إلى حد جفاف الصحراء، فتلك كارثة..

وهكذا، لكي تتفادى تلك الكارثة، راحت تشدد عليه، تسأله، تراقبه. لقد لعب الفأر في عبها.. "أهناك امرأة أخرى؟ "سألته ذات مرة فأنكر أشد النكران مشدداً بعد ذلك من احتياطاته الأمنية، بل مقللاً حتى من اللقاءات. اعترف أخيراً ونحن على الطاولة نأكل ونشرب "هكذا إذن؟ "قلت في سري بعد أن سمعت ما سمعت " تخيفك امرأتك؟ يا لها إذن من ورقة رابحة!!" لكن ما سميتك يا سميراميس من تستغلها في الحال. "الحقيقة، هي على حق "قلت بكل نبل مصطنع.. "يجب أن تؤدي واجبك تجاهها" "لكنك تستنزفينني.. حبيبتي.. أنت تتركينني كل مرة ونفسي زاهدة بالنساء كلهن" "لكن هذا حرام.. لامرأتك حق عليك.. وإن كنت أنا العائق أنسحب".. "تنسحبين؟ "قاطعني على عجل "كيف وأنا أحبك سميرة.. بل قولي

أعشقك عشق الوله." "لكن ألا ترى أن هذا يؤذيك؟ يصيبك بنوع من انفصام الشخصية؟ معي فحل عظيم ومعها عنين كبير؟ أليس هذا ضاراً بنفسيتك؟" وهز رأسه ملوحاً به ذات اليمين وذات الشمال "لا.. لا تخافي حجتي لها موجودة..أنا في الستينات.. على كاهلي أعباء كبيرة، مسؤوليات كثيرة.. لهذا أقول لها كل مرة: ذلك الزمن انتهى يا امرأة!! العمر لا يرحم والمسؤوليات لا ترحم، ترحمي على تلك الأيام وقولي عليه العوض ومنه العوض"

وضحك ضحكة عالية مدوية على غير عادته.. "لا.. لا.. أنا ضميري يؤنبني.. "قلت متظاهرة بالألم.. "أحرم امرأتك منك وأصيبك بفصام الشخصية." "لا عليك حبيبتي.. كلنا مصابون بفصام الشخصية. في الداخل شيء وفي الخارج شيء، نقول شيئاً ونفعل شيئاً آخر. هذه هي سنة الحياة، فهل تريدين تغييرها؟" "يعني يا معلمي.. هذا أمر مشروع؟" "مشروع ونصف وثلاثة أرباع.. إنه فصام شخصية عام، ضرورة لابد منها وإلا كيف يمكننا جميعاً العيش ونحن ممزقون بين ماض تليد وحاضر عفن؟ علم يقفز قفزات الكنغارو، وخرافات تعشش في اللب من عقولنا؟ تطور وحضارة يدفعاننا للتحرر وتقاليد وأعراف تقيدنا بألف قيد وقيد؟ إننا مصابون جميعاً بالفصام، علينا أن نعترف بذلك وأن نتعايش معه." "نتعايش معه أم نعالجه؟ "قاطعته بكثير من الاستغراب. "نعالجه؟ لا.. لا.. فالج لا تعالج.. لذا ترينا نتكلم عن التكنولوجيا، التقدم، الحضارة ونحن نعلم علم اليقين أننا نعمل على البقاء مكانك راوح، على تفريغ كل شيء من مضمونه.

مصلحتنا يا حبيبتي هي أن نظل حيث نحن، نحافظ على واقعنا، نقف في وجه أي تغيير، فأي تغيير سيكتسحنا في طريقه قبل كل شيء."

"أنت على حق.. التغيير خطر.. يجب الحفاظ على السكون التام، إبقاء كل شيء مكانه." "نحن نعلم ذلك.. لهذا ترينا نسير على مبدأ ربما أنت لا تعرفينه؟" "أي مبدأ؟ "الإقطاع" أجابني بزهو العارف بشيء لا يعرفه الآخر.. "البلد إقطاعات.. لكل إقطاعة صاحب هو حر التصرف فيها، له كل ما فيها من أرض وأملاك، حيوان وبشر، يظل فيها مادام على قيد الحياة. فما رأيك؟ أيعجبك نظام الإقطاع هذا؟" "يجنن، يجنن" قلت شبه هاتفة "إنه يحمل كل صاحب إقطاع مسؤولية إقطاعته، فيعمل على الحفاظ عليها، التمسك بها بأسنانه وأظفاره." "ها.. ها.. عليك نور.. بذلك يتحقق الثبات والسكون يعمل كل صاحب إقطاع على منع التغيير.. يقف في وجه أي تمرد نحن أعطيناهم صلاحيات مطلقة، لذلك هم يكمون الأفواه، يبطشون، المهم أن يظل الكل حانين ظهورهم مطأطئين رؤوسهم." "تعجبني سياستكم هذه،" قلت بكل تحفز وإعجاب. أجل سميراميس، أعترف لك هنا أنني في تلك اللحظة شعرت بإعجاب شديد. إنها فكرة عبقرية فكرة الإقطاع تلك تجند أمراء الإقطاع جميعاً لخدمة المركز وتوحدهم معاً

للوقوف في وجه الرعاع، فلا تظل المسؤولية على كاهل راع فرد.. بل على مجموعة كبيرة من الرعيان يرعاهم هم أنفسهم راع كبير مطلق الصلاحيات، مطلق السلطان.

"طبعاً.. يجب أن تعجبك" رد بعد أن رفع كأسه عاباً ملء فمه وسكياً عتقته سكوتلاندا ثلاثين عاماً لتبيعه بأغلى الأثمان.. "أليست هي التي تضمن انبطاح الناس، تحويلهم جميعاً إلى قطيع فلا يرتفع رأس ولا يسمع صوت؟".. "قطيع!! تعجبني هذه الكلمة؟" قلت وأنا أبتعد بعيني شبه ساهمة "لكن المهم ألا أكون أنا من هذا القطيع. "تابعت فأجاب في الحال "خسئوا!! أنت من الصفوة.. ولأجعلنك دائماً في رأس هذه الصفوة!!" "آه!! يا ليت.. حبيبي.. أنا أشعر أنني قد أسنت، ماء طال ركوده.. فكيف تجعلني أتحرك؟ أغير موقعي؟ أصعد درجة في السلم؟" "اطلبي وتمني.. أنا في خدمتك.. ليلاً نهاراً فقط. "وضحك ضحكة عالية من جديد وهو ينظر إلى فخذي العاريين نظرة تقطر اشتهاء فضحكت وأنا أميل عليه، مقبلة إياه وفي أعماقي توقد شديد لأن أثيره مرة ثانية لكنه العمر، والعمر، كما قال، لا يرحم. "اسمع، أليس هناك نادٍ للنسوان؟ "بلى.. نادي نسوان فخم يضم الآلاف منهن. له مقر وميزانية وفيه سفر وجولات" "عظيم.. عظيم".. هتفت فرحة، إذ كانت فكرة ذلك النادي قد راودتني منذ حين. "سلمني إياه، أصبح رئيسة كل النسوان" "والله فكرة!! "قال وهو يقلب النظر في وجهي. "كيف خطرت ببالك؟" "ولو أين عبقرية حبيبتك إذن؟ أنا الآن كاتبة شاعرة أدرس الدكتوراه فأية امرأة أحق مني برئاسة ذلك النادي؟" "رئاسة، مباشرة!؟ لا.. لا.. اصعدي السلم درجة درجة".

"حسن.. عضو في مجلس إدارته، ، بعدئذ الرئاسة.. أنا موافقة".. "وأنا موافق، فقط.. انتظريني بضعة أيام أخرِّج لك المسألة".

انتظرت بضعة أيام ثم أفقت ذات صباح على رنين الهاتف. رددت ليبادرني صوت أنثوي "صباح الخير سيدة سميرة.. هنا نادي النسوان يحييك ويبلغك أنه بعد غد سيعقد مؤتمره السنوي الذي ينتخب فيه مجلس إدارته ورئيسته.. وباعتبارك عضواً في النادي، نرجو منك المشاركة في المؤتمر." كدت أقول لها لكنني لست عضواً ولم أنتسب يوماً لنادي النسوان، إلا أنني تذكرت شيئاً. في الحال كتمت أنفاسي محولة أقوالي إلى اتجاه آخر" "حسن، يشرفني أن أشارك في مؤتمركن. بعد غد، قلت؟ أية ساعة؟ "الخامسة مساءً؟"

وقفزت من سريري أرقص فرحاً.. أجل.. رقصت يا سميتي.. لماذا؟ لا أدري.. لم يكن نادي النسوان مركز قوة قط، لكنني شعرت من حركة صاحب النبالة أن الرجل جاد في دعمي حتى النهاية وأنه جاهز حقاً لتلبية كل ما أطلب..

هاهو ذا خلال أيام فقط ينسبني إلى النادي لأصبح عضواً كاملة العضوية فيه، أحضر مؤتمراته، أترشح، أنتخب..

فأي سلم لا أرتقيه؟ وأية مناصب لن أتبوأها؟

في الخامسة كنت أحضر المؤتمر وأنا في أبهى زينتي: فستان من أرقى دور الأزياء ينشمر إلى ما فوق الركبتين، حذاء أحدث طراز جئت به من إيطاليا، عقد ألماس، أقراط ألماس، أساور ذهب وألماس.. يجب أن أبهرهن.. ذلك ما فكرت به يا جدتي العظيمة، وأنا أذهب أول مرة إلى ذلك النادي.. يجب أن أظهر بأحسن مظهر، فلا تستطيع واحدة منهن أن توجه نقداً أو تثير إشارة استفهام. المرأة تلبس للمرأة، هي التي لا يلفت نظرها كالملابس، الحلي، المصوغات، فابهريهن سميرة بما تلبسين وبما تتزينين..

وبهرتهن.. مذ دخلت بقامتي الممشوقة، شعري الأشقر، عينيّ الخضراوين، انبهرن.. صرن جميعاً أنظاراً تحدق وأفواهاً تفغر "من هذه؟" "هي وجه جديد" "نحن لم نرها من قبل.. متى انتسبت إلى النادي؟ "كنت أسمع الهمسات وأنا أعبر الممر باتجاه مكتب الإدارة لا ألتفت يمنة ولا يسرة.. هي ذي تعليمات صاحب النبالة واضحة محددة كعادته.. قولي كذا، افعلي كذا، احكي مع فلانة، قابلي علانة ثم غاب كأنما لا علاقة له بالأمر..

في مكتب الإدارة، كانت الرئيسة وراء طاولتها.. سيدة في الستين من عمرها، على وجهها مسحة من جمال ظلت من أيام الصبا.. مددت لها يدي وبودي أن أقدم نفسي، لكن هاهي ذي تنهض مصافحة محيية." سيدة سميرة أهلاً بك". "أهلاً بك سيدتي.. كيف عرفتني؟" "وهل يخفى القمر؟ "أجابتني ضاحكة وهي تدعوني للجلوس. "صورتك على طلب الانتساب لا تنسى.. بل كيف نسيان وجه بهذا الجمال.. سيدتي؟ أهلاً وسهلاً بك عضواً مشاركاً في المؤتمر!!.. ماذا تشربين؟" "لا داعي" "بل ثمة دواع كثيرة. أول مرة تدخلين فيها نادينا.. ثم هم أوصونا بك فهل نستطيع مخالفتهم؟" وتبسمت مشيرة إلى البعيد والأعلى لأشعر بصدري ينتفخ تلقائياً.. بعدئذ وريثما شربنا القهوة شرحت لي الرئيسة، نازك، أشياء كثيرة عن النادي، تاريخه، مهامه، أعماله، أبرز أعضائه.. بحيث لم أدخل المؤتمر إلا وقد صار لدي كم من المعرفة يجعلني قادرة على المشاركة فيه.

كانت القاعة تغص بالنساء، كبيرات السن وشابات، جميلات وقبيحات، متبرجات وغير متبرجات، اخترت مقعدي في الصف الثالث، هي ذي التعليمات أيضاً: اختبئي قليلاً ثم اظهري شيئاً فشيئاً.

الجو يعبق بالعطور من كل صنف ولون. لمعان الماس، رنين الذهب في كل مكان، وكأن القاعة معرض لحلي النساء وعطورهن.

كنت أنظر بطرف عيني، فالأنظار ما انفكت تحدق إلي.. جمال وشباب، ذهب وألماس فكيف لا يحدقن؟ هن جميعاً يعرفن بعضهن.. زميلات في وظيفة أو معلمات في مدرسة أو رفيقات في تنظيم.. وحدي أنا لم أكن أعرف أياً منهن.. وللحظة من الزمن شعرت بالوحشة لكنني تذكرت تعليمات صاحب النبالة فتماسكت: "لا تبالي بأحد.. ادخلي شامخة الرأس وابقي شامخة الرأس.. لا تنسي: أنت من الصفوة وهن من القطيع. "وساعدني ذلك.. شعرت للتو أنني أتماسك، فيما كانت مديرة النادي تفتتح الجلسة مرحبة بالزميلات الفاضلات صاحبات العفة والصون، وضحكت في سري: فاضلات!؟ صاحبات عفة وصون؟ آه يا للكلام!! كم هو مخادع!؟ ترى من يعلم ما تحت ملابس هاتيك الزميلات، صاحبات العفة والصون؟

كنت شاردة حين سمعت الرئيسة تقول شيئاً لفت انتباهي فركزت أصيخ السمع وأدقق النظر.. كانت تقول.. "مهما لففنا أو درنا، يظل الرجل قطب رحانا الذي ندور حوله.. إنه شغلنا الشاغل، وموضع اهتمامنا الأكيد، فهو الأب، الأخ، الابن، الزوج، الحبيب، لكن من منكن لا تشكو الرجل الشرقي وعقلية الرجل الشرقي؟.

اليوم دعونا نناقش هذه المسألة معاً، أنا أشعر أن قدراً كبيراً من المسؤولية في وجود الرجل الشرقي وعقليته المستبدة إنما يقع على كاهلنا نحن النساء.. بعضكن ستجيب "وما مسؤوليتنا؟ ما ذنبنا ونحن ضحايا هذه العقلية المستبدة الطاغية!؟" عذراً منكن.. واسمحن لي أسألكن: من يصنع هذا الرجل الشرقي؟ من يربيه؟ من ينشئه؟ أليست الأم؟ الأخت؟ معلمة المدرسة؟ أجل يا عزيزاتي إذن هن المسؤولات إضافة إلى الزوجة، الصديقة، الحبيبة، اللواتي يسهمن جميعاً بشكل أو بآخر في إيجاد هذا الرجل الشرقي والمحافظة على عقليته المستبدة. ذلك أن كلاً منا ما تزال في داخلها حرمة.. نشأت وترعرت في جناح الحريم فكيف يكون عقلها إذن؟ "هنا حدث هرج ومرج، احتجاجات واعتراضات: أنا نفسي استغربتها كل الاستغراب. المديرة تقول الحق.. هي تشخص الداء تشخيص نطاسي بارع، لكن أتقبل النسوة، وقد وخزتهن مسلات تحت آباطهن؟.

ردت المديرة على الاعتراضات، أجابت على أسئلة هنا وهناك، بمقدرة فريدة من نوعها زادت من إعجابي بها وشكري لله أن صاحب النبالة لم يوافق على تعييني رئيسة للنادي مباشرة.

إذ كيف لي أن أدير مؤتمراً كهذا؟ أن أواجه عاصفة كهذه من الأسئلة والاحتجاجات؟ فجأة كففت عن التساؤل وقد عادت المديرة إلى خطابها بكثير من التأني والتدقيق.. "أياً كان اعتراضكن أقول لكن رأيي: لكي نخلص الرجل من شرقيته، عقليته الاستبدادية هذه لابد من أن نتخلص نحن من جرعيّتنا وانغلاقنا، جهلنا وأميتنا ولابد أيضاً من أن نحل مسائل أساسية تواجه العقل العربي عامة، رجالاً ونساء على السواء.. مسائل أرجو من الجميع أن يساهمن في نقاشها وتحديدها، لأننا بتحديدها فقط وبالتعرف إليها فقط نستطيع معالجتها وحلها. "ما هي هذه المسائل؟" سألت إحداهن، فتابعت المديرة "أولاً: تربية أطفالنا تربية ديمقراطية بحيث نغرس في نفوسهم أحقية حكم الأكثرية للأقلية وخضوع هذه لها، سواء على الصعيد العام أو الصعيد الخاص، صعيد المجتمع أو صعيد الأسرة، كي يتحقق، وعلى أفضل نحو، الحكم الديمقراطي، أي حكم الناس لأنفسهم بأنفسهم وليس حكم الحاكم للمحكوم أو الراعي للرعية.

صفق الحضور فوجدتني أصفق أيضاً.. لا إعجاباً بل كيلا أبدو نشازاً.. لم تعجبني الفكرة بل بدت لي على طرفي نقيض مع أفكار أصحاب النبالة والرفعة والسيادة: هم الذين يقولون بالراعي والقطيع، السادة والعبيد، فكيف يسمحون لها بكلام كهذا؟.

"الديمقراطية من لا يريدها؟ من لا يكره حكم الفرد المطلق؟ حكم الأقلية المتسلطة؟ إذن، هو ذا الداء الذي نعاني جميعاً منه، وذلك هو الدواء: الديمقراطية، حكم الناس لأنفسهم بأنفسهم." "يالله!! ما أجرأ هذه المرأة!! تخالف أولي الأمر هكذا جهاراً نهاراً!؟ "قلت في سري وأنا أعطي أذني لها من جديد وقد عادت إلى الخطاب.

ثانياً: مسألة الحرية، وأعني بذلك الحرية الحقيقية لا المزيفة، المسؤولة لا المنفلشة بشقيها السياسي والنفسي، ففي الأول يتحرر الإنسان العربي رجلاً كان أم امرأة من القمع والاضطهاد، وفي الثاني يتحرر من الكبت، القمع الداخلي، الرقابة الصارمة بحيث يمكن للفكر العربي أن يتناول أية مسألة وأن يعالج أية قضية"..

صفق الحضور من جديد، فبدت الرئيسة أكثر ثقة وطمأنينة لسيرورة المؤتمر.. بعدئذ غيرت أسلوبها "الآن، أريدكن أنتن أن تطرحن بأنفسكن المسائل التي تواجهكن."

وللتو نهضت إحداهن من الصف الأول قائلة: " أرى أن هناك مسألة هامة هي مفهوم الفرد، إذ ينبغي أن يتغير هذا المفهوم، فلا يعود الفرد مجرد رقم في جماعة، لبنة في مدماك،

بل إنسان ذو كينونة قائمة بذاتها، لها حريتها واستقلاليتها، ولها أيضاً حقوقها، حقوق الإنسان المعترف بها عالمياً والتي ينبغي أن تحترم كل الاحترام..

"صحيح" "عظيم" رائع،" تعالت التعليقات من هنا وهناك فيما حنت الرئيسة رأسها بالموافقة" أحسنت، سهام، هذه نقطة هامة".. لكنها توقفت مشيرة إلى إحداهن في الخلف ليأتي صوتها حاداً كزقاء فأرة "ثمة مسألة بالغة الأهمية في رأيي: مسألة الولاء أهو للوطن وللوطن فحسب، أم للقبيلة، العشيرة أم العائلة؟ إن أكثر ما يرسخ العقلية الشرقية المستبدة لدى الرجل والحريمية لدى المرأة، إنما هو الانتماء لغير الوطن استمرار العقلية القبلية العشائرية التي تبقي الإنسان ضمن أطرها المحدودة المغلقة دون أن تسمح له بالخروج إلى الآفاق المفتوحة، آفاق الوطن، بكل ما فيها من محبة وتعاون وتسامح.

وصفقت الرئيسة ليصفق الحضور جميعاً، فيما رفعت امرأة تجلس إلى اليمين والوراء يدها. هذه المرة كان الصوت أجش كأنما خرش الدخان حبالها الصوتية أشد التخريش، "برأيي المسألة الأهم التي ينبغي حلها هي مسألة الخطاب الغيبي والخطاب العقلاني العلمي.. يعني هل نظل أسرى الغيبيات والماورائيات، الخرافات والشعوذات أم نتحرر منها فنؤمن بالعقل والعلم طريقاً وحيداً إلى التقدم والحضارة؟ نربي أطفالنا على الإيمان بالعلم والعقل، نجعلهم يحصلون منهما أكثر ما يستطيعون، يعملون يهديهما أكثر ما يستطيعون.. حينذاك، برأيي، سنكون قد قطعنا شوطاً طويلاً على طريق التخلص من شرقية الرجل وعقليته المستبدة، حريمية المرأة وخضوعها المطلق.

"أحسنت،" "مرحى" "هذا هو الكلام الجميل" إلخ..

تتالت التعليقات والتشجيعات لأجد نفسي باللاشعور، أرفع يدي.. أذنت لي الرئيسة .."تفضلي سيدة سميرة." منتهزة الفرصة في الحال لتعريف الحاضرات بي.. "زميلتنا دكتوراه في التاريخ." فرحت بل شعرت بثقة أكبر تترسخ في داخلي وأنا أبدأ.. "مسألة أخرى غاية في الأهمية بالنسبة إلينا نحن النساء وبالنسبة إلى هذا المؤتمر الذي يعقده نادينا.. إنها المساواة بين الرجل والمرأة: كيف تصير المرأة نداً للرجل، كياناً إنسانياً حراً له الحقوق ذاتها التي يتمتع بها الرجل وعليه الواجبات ذاتها التي يؤديها الرجل، لا مجرد ضلع قاصر أو كيان تابع.. جارية أو أمة."

صفق الحضور فازددت فرحاً، ثم بدأ النقاش: هذه تؤيد، تلك تعارض، هاتيك بين بين، لكن بدا وكأن الكل يردن الإدلاء بدلائهن فلم نشعر إلا والساعة تقارب العاشرة..

تدخلت الرئيسة موقفة النقاش بحجة أن وقت المؤتمر قد انتهى. "مع ذلك علينا أن ننتخب مجلساً جديداً لإدارة النادي، إلا أن عملية الانتخاب تستغرق ساعات، قالت الرئيسة، فهل أنتن على استعداد للبقاء ساعات؟".

ارتفعت الأصوات مرة ثانية بين نعم، لا، لا، نعم إلى حد اختلط معه الحابل بالنابل، لكن بدت الأكثرية في عجلة من أمرها، غير قادرة على البقاء. "إذن تفوضنني لتعيين الأعضاء؟" قالت الرئيسة. "ومن جديد ارتفعت الأيدي والأصوات: لا.. نعم.. نعم.. لا.. اعتبرت الرئيسة أن الأغلبية موافقة فقالت "حسن من ترشح نفسها؟ "ارتفعت بضع عشرة يد، وكانت يدي من بينهن. سجلت السكرتيرة الأسماء، فقالت الرئيسة: "حسن.. الأسماء تظهر غداً، شكراً لحضوركن وإلى اللقاء في مؤتمر قادم. "ضحكت في سري وأنا أستعيد كلامها عن تطبيق الديمقراطية، تربية المرأة لأطفالها ديمقراطياً وهاهي تختزل كل ما قالته بممارسة لا علاقة لها البتة بالديمقراطية.

كنت ما أزال ألوح برأسي سخرية حين مررت بها. "هذا كله من أجلك" قالت وهي تميل علي.. "تعالي إلي غداً" "وفهمت للتو لماذا تركت الرئيسة الحبل على الغارب لنقاش لا طائل وراءه. كانت تريد تفادي الانتخابات.. لم يكن أحد من الحضور يعرفني فكيف سينتخبني؟ تخريجة مسرحية فذة!! لا شك أن لصاحب النبالة دوراً فيها، لهذا لم أنم قبل أن أكلمه معبرة عن جميل عرفاني وعظيم امتناني.. "لا تشكريني أنا" "رد ضاحكاً." اشكري الرئيسة التي وجدت هي نفسها التخريجة".

ولم أخيب أمله. في اليوم التالي ذهبت.. جزيل الشكر قدمت لتفاجئني الرئيسة لا بتعييني عضواً في مجلس الإدارة وحسب، بل مسؤولة عن الثقافة فيه.

مرحلة جديدة بدأت مع تعييني ذاك لم أكن قد حسبت لها حساباً، فالحفاوة التي أحاطني بها مجلس الإدارة الجديد، المكتب الفخم الذي خصص لي، الموقع الثقافي الذي احتللته، كلها جعلتني أشعر بأنني قمت بقفزة نوعية في حياتي. إذ انتقلت وظيفياً إلى النادي، مفارقة المصلحة التي عرفتني برعماً لم يتفتح للحياة بعد.. وابتهاجاً بنجاحي، أقام لي المدير حفلاً كبيراً ألقيت فيه الخطب وقدم الطعام والشراب ثم جرى توديعي كما لم يخطر لي ببال: رجاء بكت علي، درويش ذرف الدموع، بل حتى مديري الذي حاول مرة مساومتي على جسدي، ألقى كلمة كلها أسى وحزن على الزميلة المجدة الدؤوب، الانضباطية النظامية التي خدمت المصلحة وأفنت نفسها في سبيلها!!.

لم أملك إلا أن أضحك في سري، "هكذا تقلب الحقائق!! هكذا تشوه الوقائع فيصير الأبيض أسود والأسود أبيض وتفقد الأسماء كل صلة بمسمياتها."

أهلي أنفسهم رأيتهم يعيدون النظر بي، أبي صار ينظر إلي بعين الاحترام.. "صحيح أنت فتاة طموح.. تعمل ولسوف تصل. "قال وهو يهنئني على ذلك النجاح الباهر "النسوان كلهن انتخبنني بالإجماع" قلت لهم متفاخرة".. "لكن متى انتسبت لذلك النادي؟" سألني أخي عاصم وشكه القديم يلتمع في عينيه.. "أوه!! منذ زمن طويل!! كل الأعضاء فيه يعرفنني." ومددت حبل الكذب طويلاً، أغزل عليه ما خطر ببالي، فلا أحد يستطيع تكذيبي.. كان همي أن أرسخ مكانتي لدى أهلي، أن أفرض أمراً واقعاً لا يستطيعون إنكاره.. امرأة أبي بدت وكأنها ألقت السلاح تماماً، بدأت تلاطفني، تخدمني، تعمل بكل شكل على إرضائي، لكن مرة ثانية ظل عاصم وحده الصخر الأصم الذي لا يلين. "من وراءك؟ "سألني وقد انفرد بي هكذا دون مواربة. "من واسطتك؟ قولي لي، أريحيني سميرة. "لكنني تضاحكت ملوحة برأسي "أريحك!؟ ولماذا لا ترتاح أصلاً؟ أختك تشق طريقها بكد يمينها وعرق جبينها، فلماذا لا تقنع؟ لماذا تسأل عن الواسطة؟ ومن ورائي؟" "لأنني ابن هذا البلد، أعرف كل ما يجري فيه وكيف يجري. "قال وهو ما يزال ضاغطاً على نفسه ضابطاً أعصابه. "سميرة، الفساد وصل مخ العظم، الإفساد على قدم وساق.. بلد لا شيء يصير فيه وكل شيء يصير إن كان وراءه مال أو امرأة.. الحق ضائع سميرة.. صاحب الحق لا يصل إلى حقه إلا بطلوع روحه، فكيف تقولين لي بكد يمينك وعرق جبينك؟

"هي ذي الحقيقة.. تصدق أو لا تصدق، "لكن في النادي سرعان ما بدأت الوشوشات.. أنت تعلمين سميراميس، النساء عبر التاريخ يملن للثرثرة، يدرن أذاناً صاغية للقيل والقال، ولكي يملأن فراغهن غالباً ما يصنعن، هن أنفسهن الشائعات..

لقد وجدنني تربة خصبة تنمو فيها بذور الشائعات وتترعرع، أنا الشقراء الساحرة ذات العيون الخضر، الفتاة المتحررة، فبدأن يتهامسن: فرضت من فوق، على صلة بأعلى المستويات، ظهرها قوي.. شهاب صاعد بسرعة لا يعلم أحد إلى أين ستصل.. ولم يكن ذلك من العدم، إذ لا دخان بلا نار.. وكان النار همسة خائفة همستها رئيسة النادي لإحدى صديقاتها الحميمات حين سألتها:

"كيف تعينين سميرة دك السور عضواً في مجلس الإدارة؟" "هم يريدون ذلك" كانت الهمسة الخائفة، ويدها تشير إلى الأعلى. "لكن من هم هؤلاء؟" "لا أستطيع القول.. يقطعون

لساني إن بحت بالسر." لكن بدت وكأنها باحت بالسر، إذ غدت الهمسات ملء النادي: فلان وراءها، علان سندها..

لم أول الأمر أي اهتمام، ليعرف الكل من هو ورائي. هذا سيخيفهم أكثر بل سيمهد لي الطريق أكثر، المهم ألا يعرف أهلي، ألا يصل الكلام إلى أخي، هو الذي كان أشد إلحاحاً لأن يعرف.. لكن أهلي بعيدون عن النادي، لا صلة لهم به. عاصم لا يأتي إلي في المكتب.. إذن أنى له أن يعرف!!؟.

القافلة تسير والكلاب تنبح، فلماذا أخاف؟ كانت ثقتي بنفسي قد بلغت أشدها، وكان الناس كلهم قد بدؤوا يصغرون.. يصغرون، كأنني في ذروة جبل وهم أسفل الوادي.. عقفاء تنظر من علٍ لا دودة تنظر من أسفل.. لا، يا سميتي، لم أعد دودة في قاع الأرض، صرت مثلك في الذروة، أنت يا ملكة آشور وبابل يامن دان لك العالم كله بالولاء والطاعة.. تذهبين إلى عيلام فتحتفي بك عيلام، تذهبين إلى ميديا فتفرش لك السجاد ميديا وتنشر الأزاهير عند قدميك.. أنت زوجة الملك العظيم، نينوس ملك العالم كله، وحبيبته التي يعشق حتى درجة العبادة.. نينوسي أيضاً يعشقني حتى درجة العبادة، بل صار يتفنن في إبداء ضروب العشق والغرام، مبيناً كم يعبدني ناسياً بعض الأحايين احتياطاته الأمنية المشددة، أهو شدة الهيام يا سميتي؟ أكان نينوس يفعل ذلك؟ أجل، أسطورتك تقول: كان يدخلك المجالس التي لم تدخلها امرأة، يحضر معك الاحتفالات التي لم تحضرها امرأة، بل ينيط بك اتخاذ قرارات لم تتخذها امرأة.. ولا أخفيك هكذا صار نينوسي، بل لشدة هيامه أرسل إلى مكتبي الجديد سبت ورد باسمه.. لعله نسي الاحتياطات الأمنية أم تراه تعمد ذلك؟ لا أدري، سميراميس، لكن ذلك السبت دعم همسة الرئيسة الخائفة موسعاً دائرة الهمسات والوشوشات التي كانت تتسع أصلاً، وكنت فرحة في سري، فقد كان ذلك سيفتح الباب على مصراعيه أمامي إلى عالم أرحب أطمح كل الطموح في الوصول إليه.

كانت الصحف قد نشرت أخبار "انتخابات" النادي وأسماء مجلس الإدارة الجديد مع صورهن، وكانت صورتي في الطليعة، صورة لفتت الأنظار بل جعلت الكثير من الصحفيين والصحفيات، الكتاب والكاتبات يأتون إلي، بغية التعرف وإقامة جسور التواصل، كما كان عملي الجديد يقضي إقامة الندوات، المحاضرات، الأمسيات، أنا المسؤولة عن النشاط الثقافي، إذن علي أن أتصل بالمثقفين والمثقفات العاملين في مجال الأدب والعاملات.

كان علي أن أتعرف إلى أناس جدد، أقيم علاقات جديدة، أتكيف مع الأجواء الجديدة، وكان ذلك قد استغرقني إلى درجة بهت فيها حين رن الهاتف ذات مساء وجاءني صوت رجل "مساء الخير.. أنا غيث" لحظات توقف دماغي متسائلاً "من غيث هذا؟ "بل كدت أوجه إليه السؤال لو لم يتابع على استحياء "أتصل لكي أبارك.. تهاني الحارة بالنجاح الجديد أم تراك نسيتني، سميرتي؟" "أوه!! "تأوهت وأنا أتذكر.. أيعقل أن يمحو الزمن بهذه السرعة نبرة صوت، تاريخاً كنت أحسبه لا ينسى أبداً؟" لكن سرعان ما تخلصت من شرودي لأبدأ هجومي "أنت!! ألم أقل لك لا ترني وجهك أبداً؟" "سيدتي.. أرجوك.. اسمعيني.. أعطيني خمس دقائق فقط من وقتك أدافع فيها عن نفسي.. أرجوك. أتوسل إليك" وللتو اندفعت في عروقي دماء حارة حاملة إلى دماغي ذكريات وصوراً كنت قد عشتها مع غيث فرأيتني أسترخي. "حسن.. تعال إلي الليلة.. كالعادة لكن خمس دقائق فقط." وأقفلت السماعة كيلا أتيح للآذان التي تسترق السمع أية فرصة ولنفسي أي تردد.. لقد جعلتني الدماء الحارة أشعر بالحاجة الماسة إليه، هو آلة المتعة التي افتقدتها منذ زمن..

في الموعد المحدد جاء فاستقبلته، غريباً لم أعرفه من قبل، كنت أريد أن أذله أكثر، أن أنتقم منه أكثر.

بكل وجه متجهم وحاجبين مقطبين فتحت الباب مشيرة له أن يدخل دون أن أمد يدي لمصافحته "سيدتي.. إلهتي.. كيف أناديك؟ لا أدري.. بماذا أتوسل إليك لا أدري، لا أدري" بدأ وهو ما يزال واقفاً فيما أسرعت أنا إلى أول أريكة أجلس عليها وأنا ما أزال على تجهمي وتقطيبي "ليس المهم بماذا تناديني أو تتوسل إلي؟ "قلت بنبرة جازمة، المهم ألا تتطاول علي".. "أنا أتطاول؟ أيعقل ذلك سيدتي؟ أنت ولية نعمتي، معبودتي، إلهتي" "ما معنى كلامك ذاك، إذن؟ تتهجم على شعر اعترف العالم كله به؟ تقول إنه ليس بالشعر وليس بالموزون وأهم جرائد البلد نشرته، أكبر النقاد مدحوه ودبجوا فيه أحسن المقالات؟" "أنا مخطئ يا سيدتي.. أنا مخطئ.. ولن أعيدها في حياتي.. فقط اغفري لي".. "هكذا وبهذه السهولة؟ كيف أغفر لك وقد أردت تثبيط همتي؟ وضع العصي في عجلاتي المنطلقة بأقصى سرعة؟ ومن يفعل ذلك؟ أستاذي الذي درسني العروض وعلمني البحور".. "لكنها مجرد دروس تعد على أصابع اليدين يا سيدتي.. وقبل زمن طويل ربما أنساك ما درسته!؟." "كيف وأنت نفسك من قال آخر درس: لا.. لا خوف عليك.. أنت الآن أستاذة في علم العروض؟" "صحيح.. صحيح.. أنا قلت ذلك.. وأنا مخطئ.. أعترف بخطئي يا سيدتي.. فسامحيني.. أرجوك سامحيني".

"قبل حذائي.." قلت دون أن أنظر إليه فانكب على أربع يقبل حذائي، الأيمن فالأيسر، الأيسر فالأيمن إلى أن شعرت بغلي يشفى. أمسكته من ياقة قميصه الخلفية منهضت إياه محذرة وسبابتي تكاد تدخل عينه "حذار أن تعيدها في حياتك.. أنا السيدة الآمرة الناهية، كل ما أفعله صحيح وكل ما أقوله جميل رائع، فلا تتطاول أيها العبد."

"هو ذاك يا سيدتي.. هو ذاك.. قسماً لن تريني إلا العبد الخنوع، السميع المطيع ما حييت" "حسن.. الآن تعال.." وفتحت الباب متجهة إلى غرفة الطعام، حيث كنت قد أعطيت أوامري لمدبرة المنزل أن تعد لنا عشاء كذاك الذي كانت تعده أيام زمان، لكن هذه المرة كانت تعرف أن لدي ضيفاً سيأتي آخر الليل. لقد نمت بيننا ثقة جعلتني أفتح لها قلبي، أبادلها الحديث أحياناً، وأكن الخوف منها معظم الأحيان.

أشرت لغيث أن يجلس قبالتي، لكنه كان أشد شوقاً ولهفة من أن يجلس حيث أشرت، فأسرع إلى يدي يقبلهما كلتيهما ثم يركع إلى جانبي، ينحدر إلى ركبتي يلثمهما صاعداً إلى الأعلى حيث انشمر الفستان القصير الذي تعمدت ارتداءه. مع قبلاته بدا الدم يفور في عروقي والأفاعي تفح في أحشائي إلى درجة بدأت أشعر بالخدر أكثر يسري في مفاصلي، وبجسدي يسترخي على الكرسي، ينزل إلى الأسفل أكثر وبساقي تنفتحان فيما كانت إحدى يديه تجد طريقها إلى رأس النبع والأخرى طريقها إلى الخصر تضمه ثم تشده بقوة جعلتني أستلقي أرضاً وكلي انتظار للمياه التي تطفئ الحريق.

تلك الليلة لم ننم، ظللنا نتطارح الغرام حتى مطلع الفجر. حينذاك فقط شعرت بنفسي منهكة مستنزفة وشعرت به يتشنج وهو يرى إلى الأفق الشرقي يبيض شيئاً فشيئاً، منذراً إياه بأن موعد الرحيل قد حان.

ارتدى ثيابه على عجل وانحنى علي يودع جسدي العاري متفحصاً متمعناً وكأنما يختزن صورة لا يريد أن يمحوها الزمان عله يستعيدها المرة تلو المرة فتكون عزاءه في غياب قد يطول..

مددت يدي إلى درج الطاولة المجاورة، أخرجت رزمة نقود، دسستها في جيبه وهو ينحني على شفتي يقبلهما قبلة الوداع ثم يتراجع القهقرى، دون أن يستطيع إدارة ظهره لي، رافعاً يديه إلى رأسه، منحنياً المرة تلو المرة إلى أن غاب عن عيني..

جميل أن يكون لديك خدم وحشم يا سميتي، لكن الأجمل أن يكون لديك عبيد يركعون عند قدميك، ينفذون أوامرك وهم يرددون السمع والطاعة يا مولاتي، السمع والطاعة يا إلهتي!! ولم لا، سميراميس؟ ألسن إلهتن أنا وأنت؟ عشتار، بماذا تفوقنا؟ هل كانت أكثر

جمالاً؟ أكثر إغراء وفتنة؟ لا ، لا ، أسطورتك تقول إنك فقت كل النساء إغراء وفتنة حتى سقط ملك العالم، نينوس العظيم، في بحر غرامك ولم ينهض قط.. يونسي أيضاً سقط في بحر غرامي ولم يكن يريد أن ينهض، فلماذا لا نشيل برؤوسنا ، إلهتين تتشابهان في كل شيء، ولا تختلفان إلا في الزمان؟

حين أفقت ذلك النهار، شعرت أن كثيراً من الأشياء تغيرت حولي، الدنيا أكثر بهجة، الطعام أشهى مذاقاً، القهوة أطيب نكهة، وفي المكتب وجدتني أضحك، أبتسم، أرحب بالجميع، وكأن جسدي كله استعاد توازنه، ذهني استعاد صفاءه، أتراه يفعل الجنس هذا كله؟ لا أدري.. ما أدريه أنني كنت بغاية المرح والفرح، لا أرد لأحد طلباً، لهذا لم أرد طلب أستاذي حين سألني: أين أطروحتك؟ تعالي نناقش ما ينبغي أن تفعلي، فأسرعت إليه وكلي شعور بأن أشياء كثيرة شغلتني عن الدكتوراه.

"ها ، أين أنت يا طالبة الدكتوراه؟" بادرني ما إن دخلت.

تبسمت تبسم الاعتذار قائلة "ليسامحني أستاذي، لقد شغلتني عنه شؤون وشجون." "لا ، ، كل شيء إلا الدكتوراه أم لا تهتمين بالحصول عليها؟" "بل هي حلمي.. يوم المنى يوم أحصل عليها."

"حسن، الفترة الزمنية توشك على الانتهاء، وأنت لم تحركي ساكناً! "اعتذرت من جديد.

ذلك صحيح.. كنا قد حددنا موضوع الأطروحة، اتفقنا على عنوانها، أبوابها، فصولها ثم غبت. أمر كل بضعة أشهر، نشرب القهوة، يستغل المناسبة، يغازلني قليلاً هو الذي يحب العيون الخضر، لكن دون أن آخذ الأمور على محمل الجد. الرجل مشهور بحبه للدعابة، كما هو مشهور بلطفه وكياسته خاصة مع الجنس اللطيف.. هو في الخمسين، ملؤه الحيوية والنشاط، لديه ورشة عمل من طلاب الماجستير والدكتوراه، يصدر كل بضعة أشهر كتاباً دون أن يدري أحد من أين يأتي بتلك الكتب، أو متى يجد الفراغ لكتابة تلك الكتب. هو يحاضر في أكثر من جامعة، يشرف على عشرات الطلاب والطالبات، مع ذلك هو نبع ثر لا ينفك يفيض عطاء وكتابة. بعضهم يغمز من قناته "يستغل الطلاب في ورشة العمل لديه." "هم يكتبون وهو يستولي على ما كتبوه." ولم يكن باستطاعة أحد التوصل إلى الحقيقة، فالرجل شديد الكتمان لا يدع ثغرة واحدة في عمله تكشف السر.

"هه.. متى تريدين مناقشة الأطروحة؟".

وارتبكت مضطربة: بودي لو يحدد الموعد غداً، لكن ماذا عن الأطروحة؟ صاحب النبالة كعادته من قبل تكفل بها، ثم نسيت الأمر. لم نكن في لقاءاتنا نذكرها.. أهي الطمأنينة؟

أجل هو لن يخيب ظني، لم يفعل ذلك من قبل، فلماذا يفعل الآن؟ لكن هاهو ذا الموعد قد حان، أتراها جاهزة أم لا؟ كنت بحاجة لأن أسأل صاحب النبالة "الحقيقة، أنا بحاجة لبعض الوقت أستاذ" "قلت متظاهرة بالتفكير.. "كم؟ شهر؟ شهران؟" "سأتصل بك غداً أحدد المدة.. لقد فاجأتني اليوم ولابد لي من مراجعة بعض الأشياء قبل أن أجيبك." "اسمعي "قال وهو يقترب من كرسيي هامساً "يجب أن لا تتأخري كثيراً، فلا أخفيك.. قد لا تجديني هنا بعد هذا الصيف" .. حقاً؟" "أجل، وأخشى إن لم تناقشي الأطروحة هذا العام أن تنتظري أعواماً.. أسرعي.. اسمعي مني، قبل نهاية هذا الفصل، أنهي كل شيء" "طبعاً.. سأفعل ذلك.. سأفعل.." "وإن كنت بحاجة لمساعدة.. أية مساعدة.. أنا جاهز.. أذهب إليك في البيت أساعدك.. تأتين إلى شقتي.. أنا جاهز وأضمن لك النجاح مائة بالمائة. "تابع همسه وهو يغمز بعينه. "تراودني عن نفسي أستاذ؟ "قلت وفي نيتي أن أرخي له الحبل قليلاً. "لم لا؟ أنا أعشق الجمال والنفس تشتهي ما تعشق؟" "لكنك لم تحدثني عن هذا العشق من قبل." "كنت متردداً خائفاً.. صدقيني.. لم أجرؤ على مفاتحتك بمشاعري يا ذات العيون الخضر، يا أجمل نساء الأرض!!" "أوه، أستاذ، أنت اليوم شاعر لا أستاذ تاريخ." قلت وأنا أبتعد بكرسيي عن طاولته قليلاً، خشية أن يدخل أحد فيرانا وتكون الفضيحة.. لكنه اقترب من جديد ثم قال وهو يغرس عينيه في عيني "ومن يرى عينيك هاتين ولا يصير شاعراً؟ اسمعي.. تعالي الليلة إلى شقتي.. زوجتي غائبة والبيت خال نتفق على كل شيء" "ماذا تريد مني أستاذ؟ "قلت بشيء من التغابي؟" "أريدك أنت.. وكل ما تحتاجين أنا في خدمتك.. الأطروحة ذاتها إن شئت أعدها لك." "بارك الله فيك يا أستاذ، بارك الله فيك. "قلت وخاطرة واحدة تملأ ذهني: ماذا أفعل بك؟.

"هه أفهم أنك موافقة؟" "لكن.. أنا لا أمارس الحرام يا أستاذ.. خذني حلالاً إن شئت." قلت بكثير من المناورة "حلال!؟ ماذا تقصدين؟ "نتزوج." "لكنني متزوج ولي أطفال." "فمثنى فثلاث فرباع." "لا.. لا.. أنا لا أتزوج مرة ثانية." "حسن.. وأنت لن تنال ظفري".. "إذن، أنت لن تنالي الدكتوراه" "حقاً؟" "حقاً وصدقا.. "بل سأنالها رغماً عن أنفك." "رغماً عن أنفي!! ويحك!! ماذا تقولين؟ اللعنة عليك.. اخرجي من مكتبي اخرجي.. واعتبري نفسك راسبة ما دمت في هذه الجامعة".. "سنرى أيها الطاووس المنتفخ الأوداج المفروش الذيل" وخرجت صافقة الباب ورائي صفقة ما أحسبها إلا هزت أركانه.

ما إن وصلت إلى المنزل حتى سارعت إلى الهاتف أتصل بصاحب النبالة لكن صاحب النبالة لا يرد.. هاتفه الخاص يرن على غير عادته دون أن ترفع سماعته.. برمت شفتي تعجباً وتشاؤماً "ما تلك عادته؟ هو في المكتب دائماً كأنه ملتصق به بلاصق.. حتى اجتماعاته

يعقدها في ذلك المكتب فأين تراه؟ صبيحة اليوم التالي اتصلت فارتفعت السماعة.. "الحمد لله وجدتك.. أين كنت ليلة أمس؟" "ليلة أمس كان عرس ابنتي.. عقبى لك".. قال بنبرة مرحة استغربتها، لكن سرعان ما خطرت ببالي فكرة فسألت: عقبى لي أنا عروساً تقصد؟" "أجل "أجابني بمرحه السابق.. "لكن من العريس؟" "أنا" رد دون حتى أن يفكر، كأنما فكر كثيراً من قبل "هذا يوم المنى.. يا حبيب القلب.. ومهجة الروح "قلت وأنا أسكب دفقاً من الحرارة على كلماتي علها تصل إليه حارة حارقة.. "لا عليك.. سنفكر بالأمر ثم نرتب كل شيء كما ينبغي." شعرت أنه يتكلم جاداً فتلعثمت "مـ.. متى أستطيع رؤيتك؟ "لا.. لا تستعجلي" قال وكل ظنه أنني أريد رؤيته لترتيب المسألة." الأمر بحاجة إلى أن يطبخ على نار هادئة." "صحيح.. لكن، هناك ما يحتاج إلى نار مشتعلة. دعنا نلتق الليلة." "اقترحت وأنا أعلم أنه لا يستطيع رد دعوة كهذه." لكنه ردها "لا.. الليلة مشغول.. وغداً أيضاً مشغول.. ما رأيك تأتين في النهار؟" "أجيء.. الساعة الواحدة أكون عندك." قلت وكلي استغراب.. صاحب النبالة مشغول في الليل.. لا يريد رؤيتي.. أمر يثير العجب..

"هه.. ما الأمر؟" بادرني إذ جلست، مراجعة عادية محتشمة لم تعرف المكان من قبل.

شرحت له الأمر، راوية لقائي بالأستاذ المشرف من الألف إلى الياء، متعمدة نقل كلمات الأخير حرفاً بحرف.

"سأمسحه لك عن وجه الأرض. "انتفض مرغياً مزبداً فتذكرت ذلك الأستاذ الذي مسحه صاحب الرفعة من قبل وارتعدت.." لا.. لا .. أريد الدكتوراه الآن.. لا أريد مسحه هو عن وجه الأرض." "يتطاول عليك.. الوغد الزنيم.. ألا يعلم أنك لي وحدي؟ "ومن جديد ارتعشت. كانت بصمات غيث ما تزال على جسدي، ماؤه ما يزال في رحمي.. لو عرف صاحب النبالة ذلك، ما تراه يفعل؟ "ط..ط.. طبعاً" "مرة أخرى تلعثمت.. "أنا لك وحدك.. لكن أنى له هو أن يعلم؟ وكيف؟.. لقد عرض علي الزواج.. تابعت كاذبة وأنا أنوي التخفيف من حميته، "خسئ.. "قال على الفور.."أنت لي ولن يتزوجك أحد سواي.. "حسن.. أنا معك.. لكن ماذا بالنسبة للدكتوراه؟ أهي جاهزة؟" "تعلمين؟ نسيت الأمر... بل الأستاذ الذي كلفته بها مات." "مات؟" هتفت بصوت عال "لكن يجب أن تكون الأطروحة جاهزة، أن تناقش خلال شهرين." "ولماذا خلال شهرين؟ أجليها للخريف".. "لا، الأستاذ المشرف ذاهب إعارة العام القادم.. وهذا سيؤخرني كثيراً أرجوك.. أنا أريد يوماً إلى الأمام لا أشهراً إلى الوراء." "حسن وجدت الحل".. قال بعد أن أطرق هنيهة مفكراً "ما هو؟ أسعفني ماذا وجدت؟" "هو نفسه يكتب لك الأطروحة" "هو نفسه؟ تعني

الأستاذ المشرف؟" "بالطبع.. رجل مثله يتطاول يجب أن يعاقب وخير عقاب ما كان من جنس العمل.. دعي الأمر لي.. واعتبريه منتهياً".

اعتبرت الأمر منتهياً وأنا على يقين من أنه سيعالجه كما ينبغي.. منتظرة أن يأتيني هاتف الأستاذ وهو يعتذر، ينبئني بالتطورات الجديدة، لكن الهاتف لم يأت.. لعب الفأر بعبي.. صرت أتحرق وأنا أنتظر.. أسبوعاً أسبوعين ثلاثة.. لم يأت الهاتف فغامرني الشك.. لكن كيف أشك وصاحب النبالة يؤكد في كل لقاء أن الأمور على خير ما يرام، أن الانتقام يجري على أفضل نحو. لم يعد باستطاعتي أن أنتظر، فحزمت أمري ومضيت. دون أن أقرع الباب فتحته ثم دخلت مرتفعة الهامة منتصبة القامة.. كان وراء طاولته، وحيداً يكتب شيئاً، أجفل للتو، هب ملء طوله وهو يراني أسير باتجاهه واثقة الخطا كملكة آشور وبابل.

"بنت حلال!! والله بنت حلال".. أسرع يستقبلني مرحباً معتذراً. "لو لم تأتي اليوم لاتصلت بك.. ها هي ذي الأطروحة على وشك الانتهاء..

أنا غارق فيها حتى شحمتي أذني. "تابع كلامه رشاً متجاهلاً كل ما دار بيننا من قبل، فتجاهلت مثله ما تجاهل. "عظيم!! أطروحتي جاهزة، إذن يمكننا أن نحدد موعد المناقشة؟" "بالتأكيد.. لكنني عاتب عليك سيدة سميرة... "قال بكل انحناء الطاعة والخضوع." لماذا عتبك أستاذي؟" سألته وقد شفى غلي انحناء ظهره، وإطراق عينيه وسحبه لي من يدي إلى الكرسي لأجلس عليه. "لو تكلمت، لمحت تلميحاً فقط، أكنا نتطاول سيدتي؟ أنت امرأة قوية.. مدعومة دعماً لا مثيل له.. إذن تنبهين.. نأخذ حذرنا!؟" "حصل خير على كل حال.. المهم.. أنت بنفسك كتبت الأطروحة لا طلابك وورشة عملك؟" "أبداً" رد متلهفاً خائفاً" هاهي ذي.. انظري.. أنا أكتبها بنفسي" فيما راحت أصابعه تقلب المخطوطة حتى أول صفحة ليطالعني العنوان بأحرف كبيرة "ما بين النهرين، تاريخاً وحضارة" أجل.. هوذا عنوان أطروحتي، قلبت بقية الصفحات فإذا بكم لا بأس منها.. "كم سيبلغ عدد صفحاتها؟" "ثلاثمائة".. أجاب في الحال وقد عرف مسبقاً الرقم. "أيعجبك ذلك؟" "عظيم.. ثلاثمائة.. رائع".. رددت وأنا أكمل في سري: ستكون كتاباً رائعاً ينوف على كتابي السابق.

"هه، ما المطلوب مني الآن؟ "سألت وقد انتهيت من تقليب الصفحات ثم تقليب نظراتي في وجهه تشفياً وانتقاماً..

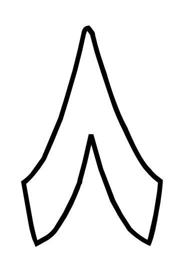
"فقط، تمرين بعد بضعة أيام، أعطيك الأطروحة والأسئلة التي ستسألها لك اللجنة تقرئينها وتحضرينها.." "لا.. لا.. قاطعته على عجل: أنا لست فارغة لسفاسف كهذه.. " "لكن

لابد من أن تقابلك اللجنة، تسألك بعض الأسئلة.. هي ستكون شكلية لكن لابد منها سيدتي "قال وفي شفتيه ارتعاشة خوف..

"إذن تأتيني بالأسئلة والأجوبة. أحفظها وأجيب دون أن أحضر لقراءة الأطروحة كلها." "حسن كما تشائين آتيك بالأسئلة والأجوبة. "قال بصغار شديد أكد لي أن أكداساً من المهانة والإذلال تلقاها من طرف ما، طرف خفي هناك، يرى ولا يُرى، قبل أن يتحول إزائي ذلك التحول الخطير.

أليست القوة جميلة يا سميتي؟ السلطة؟ السيطرة؟ أليست كلها مغرية، يرفرف لها قلب الإنسان كجناح طائر؟ أنت تعبدينها.. كذلك أنا فلا تؤاخذيني إن عدت إلى إذلال أستاذي المشرف ذاك الذي كان يريد جسدي ثمناً لشهادته الدكتوراه، لا تؤاخذيني إن كنت قد بالغت في امتهاني له يأتيني بالأطروحة إلى مكتبي، يأتي بالأسئلة والأجوبة، ثم يشرح لي قبل يوم واحد ماذا علي أن أفعل: أقول وأتصرف في كل موقف. لقد كان يدفع جزاء تطاوله.

في اليوم الموعود ذهبت وأنا بكامل زينتي وألقي، تحف بي باقة من زميلاتي في مجلس النادي، لتفاجئنا سيارات رسمية كثيرة تقف أمام المبنى حيث سيجري نقاش أطروحتي ثم ممرات ممتلئة حتى الحافتين بباقات الزهر وأسبات الورد، كلها تدعو لي بالتوفيق والنجاح، تبارك لي بالدكتوراه التي أستحق. حينذاك صرت على يقين تام أن المسرحية التي سأمثل دور البطلة فيها مرسومة أحسن رسم، ناجحة كل النجاح، ثم صرت على يقين أتم حين وجدت صفوفاً من كبار القوم يشرئبون بأعناقهم لرؤيتي، اللجنة كلها في انتظاري، والأستاذ المشرف يسارع لاستقبالي فيما تضج القاعة بالتصفيق وكأنما أعلنت نتيجة الدكتوراه للتو.



(كان نهداك على صدري

لما فتحت الأرواح قبورها

ورأيت خلال عينيك المطبقتين

الشمس تغرق فيك

لقد رأيت ما وراء الشمس من أعماق

ورأيت فضاء العالم الأول

احتفظت بألمي كما يحتفظ البخيل بكنوزه

وكنت أحب أن أثبت

أن هناك شيئاً أبدياً

يربطني بالتي أقسمت أن تحبني إلى الأبد

وها أنذا اليوم أطلب ألمي دون جدوى

وأسمع الزمن الذي أفناه

يقول أيها الطين البائس

ليس بإمكانك حتى أن تتألم إلى الأبد

كان نينوس، ملك آشور وبابل، بل ملك العالم كله، يشعر بأشد أنواع الحزن يملأ صدره، ببحار من الهم والغم تطغى عليه مكتسحة بأمواجها كل شيء على سواحله، فسميراميس الجميلة الشهية الفاتنة كانت تتوسد يمناه، نهداها على صدره، جلدها على جلده، وديعة كحمامة آمنة، بعد أن شبعا ضماً ولثماً، قبلاً وحباً، وهمست في أذنه أنها تحبه أكثر من حياتها. حينذاك أدرك نينوس أنه بلغ بسميراميس الذروة، وماذا بعد الذروة غير الانحدار؟ شعر أنه منحدر السفح لا محالة فحزن واكتأب، خاف الغد القادم وتألم لكن الزمان خاطبه ساخراً: مسكين أنت!! تحسب أنك ستظل إلى الأبد، تفرح، تترح إلى الأبد!! لا.. لا.. ما أنت إلا إنسان من طين.. طين بائس فأنى لك أن تبقى إلى الأبد الخلود للآلهة فقط. جلجامش قبلك بحث عن الخلود، ذهب إلى أرز لبنان، غابة الشجر المقدس، كي يأتي

باكسير الخلود.. لكنه لم يأت بشيء.. فعلى الطين البائس أن يفنى.. مهما ارتفع شأنه وعظم قدره مصيره الفناء..

رأت سميراميس ملكها المحبوب نينوس متألماً مكتئباً فارتعدت فرائص.. لم تكن تدري لماذا هو متألم مكتئب ولم يكن ينطق بكلمة فذهبت إلى العراف تراجعه عله يحل لها اللغز. تأملها العراف قليلاً ثم قال: إن سعادتك مهددة أيتها الملكة، استقرارك وطمأنينتك مهددان بالخطر يا ملكة آشور وبابل" "لماذا أيها العراف؟ "سألته فقال وهو يطلق زفرة "لأن الآلهة ستضربك ضربة مؤلمة" "وماذا فعلت للآلهة كي تضربني مثل تلك الضربة المؤلمة؟" "لأن العاطفة التي تجمع قلبك إلى قلب الملك نينوس قد تخطت الحدود البشرية، بلغت ذروة الكمال والتمام.. ولكل شيء، يا مليكتي، إذا ما تم نقصان"..

لكن سميراميس لم تشعر بالاكتئاب والحزن، بل بدا لها كلام العراف غريباً... فهي التي كانت تعيش عزاً لم تعرفه امرأة من قبل، سلطة وجاهاً لم تصل إليهما امرأة من قبل، لم تكن ترى كيف سيكون ذلك النقصان، هي في القمة ولسوف تظل في القمة تتربع على عرش السعادة والعنفوان..).

أنا نفسي، سميراميس، كنت أشعر أنني أتربع على عرش السعادة والعنفوان وأنني بلغت القمة، حين قال لي رئيس اللجنة "مبارك عليك، دكتوراه شرف مع امتياز." لشدة فرحي خيل إلي أنني لا أسمع جيداً. "أيعقل؟ دكتوراه شرف وامتياز أيضاً؟ "لكنني كبحت نفسي لائمة إياها "ولم لا؟ أليست الأطروحة بقلم الأستاذ نفسه؟ هل يكتب نفسه شقياً من بيده القلم؟ "ثم ضحكت من نفسي وأنا أستعيد المهزلة التي مثلتها مناقشة الدكتوراه حيث أنا بطلة رئيسية والأستاذ المشرف بطل رئيسي، فيما المخرج مختف خلف الستائر، والجمهور مغفل أحمق لا يدري ما يجري أمامه على المنصة.

لقد سارت المسرحية وفق الخطوط المرسومة لها حرفاً بحرف، لم يحاول أحد الاحتجاج، لم يحاول أحد حتى معرفة الحقيقة. الكل مستسلم خاضع، يقر ما تقره القوة وينكر ما تنكره.

ثم كان هناك حفل استقبال والكل يريدون أن يحضروا.. فالشخصيات الكبيرة التي حضرت تغري بالحضور.. إنها فرصة ينتهزونها لاقتناص غنم أو تفادي غرم، والكل نشؤوا على الانتهاز...

كل شيء تم ترتيبه على خير نحو، ولم أكن أنا التي رتبت، بل هي اليد الخفية التي كانت حريصة على حمل السرور إلى قلبي.. وكم سررت بالحفل!! كان ثمة صاحب النبالة

نفسه، صاحب الرفعة بذاته والكثر من صحبهما وأصدقائهما وكان ذلك قد أضفى على المناسبة شرفاً عظيماً قلما حظي به طالب دكتوراه.

لماذا فعل ذلك صاحب النبالة؟ لا أدري.. هو الذي كان يحرص على ألا يظهر معي في مكان، لا يزورني في بيت، لا يراني أحد في مكتبه، فجأة يقرر أن يحضر بنفسه مناقشة دكتوراهي، وإقامة حفل استقبال كي يتيح لي الفرصة لتلقي التهاني وتقبل التبريكات والهدايا.. لفتة بارعة منه لكنها خطرة. ترى ألا يثير هذا الشك في نفوس الآخرين؟ ألا يثير الأسئلة والظنون؟.

كنت أتساءل طوال الوقت وأنا أحدث هذا وأتلقى تهاني ذاك، محاولة ما أمكن الابتعاد عن أصحاب النبالة والرفعة جميعاً.. فمن يدري؟.

زلة صغيرة قد تكشف كل شيء، خطأ صغير قد يودي بنا جميعاً في داهية، لكن بدا صاحب النبالة وكأنه غير مبال.. هو حريص على أن يقف معي من حين إلى حين، يكلمني، يشعر الجميع بأنه مهتم بي.. وكأنما انقلبت خططه كلها رأساً على عقب.. ذهب خوفه كله ليصبح في شجاعة الأسد وإقدام النمر.. صاحب الرفعة أيضاً كان معنياً بي، عيناه دائماً علي، وكان يقتنص كل فرصة ليمازحني، ليغمز بشكل أو بآخر ممن ورائي، وكأنه على علم بكل شيء. "ها قد بلغت الذروة التي كنت تحلمين بها! فماذا بعد؟ "سألني ونحن وحيدان نحاول تجنب ذكر الماضي كيلا يخدش الحاضر. "أهي نقطة الكمال التي يأتي بعدها النقصان لا محالة؟ أهذا ما تقصد؟ "أطرقت مفكرة ثم فجأة رأيتني أنتفض "هناك الكثير يا صاحب الرفعة، الكثير مما ينبغي تحقيقه بعد." كان ذلك شعوري حقاً.. أنا التي لم تشعر لحظة أن ذروة الكمال تلك يعقبها الانحدار حكماً، بل هي ذروة تؤدي إلى ذروة أخرى، مازال علي أن أتسلق سفوحها، صعوداً إليها.. إلى أن أبلغ ذروة الذرى، وأين ذروة الذرى تلك؟ لا أحد يدري.. أنت نفسك، سميراميس، أشعرت ببلوغك ذروة الذرى، حتى وإن قال لك العراف ذلك، حتى ولو شعر نينوس بذلك، أشعرت أنت يا ترى؟ لا.. لا.. أنا واثقة، يا سميتي، أنك كنت ترين المستقبل ما يزال واعداً أمامك، ترين أمجاداً، سطوة وهيمنة لم تبلغيها بعد، فلماذا إذن الشعور بالاكتئاب والحزن؟.

لقد كنت فرحة، كما لم أكن من قبل.. أن تري الطرق تمهد أمامك، الناس جميعاً في خدمتك، كم يفرحك هذا؟ آه!! ما كان أشد فرحي وأنا أرى أبي، امرأة أبي، أختي الاثنتين ربى وعلا، يندفعون جميعاً نحوي، وقت استلمت شهادة الدكتوراه، يحيطون بي يقبلونني

واحداً واحداً مباركين مهنئين، آخذين معي الصور التذكارية وعدسة التلفاز تسجل كل شيء. ما لفت نظري أن أخي عاصم لم يأت معهم، لكنني لم أولِ الأمر كبير اهتمام، بل الحقيقة لم أكن أستطيع ذلك، فالكل اندفع يهنئني ولم يكن ثمة حيّز لعاصم يشغله أو يجعلني أفكر فيه.

لكن ما إن وصلت إلى المنزل حتى وجدتني مرغمة على التفكير فيه. كنت متعبة أنوي الخلود إلى الراحة. دخلت مخدعي أخلع ملابسي، فتوتر النهار الطويل، واستقبال الناس ووداعهم، وشد الأعصاب خلال السين والجيم كلها جعلت أعصابي متحفزة متوترة على حافة الانقطاع.. لم يكن في نيتي أن آكل أو أشرب شيئاً، بل أن أنام، فقط ألقي بنفسي على السرير وأنام.. لكن الجرس الذي رن أقلقني: من تراه يجيء هكذا دون موعد؟ فتحت مدبرة المنزل الباب فإذا به عاصم.. متجهم الوجه، محمر العينين، متشنج الأعصاب، أوتاراً شدها الصقيع.. "خير عاصم؟ "سألته باستغراب شديد وأنا أسير به إلى غرفة الضيوف "أين كنت؟ أنا لم أرك، لا في التهنئة ولا في الحفل." "وكيف ترينني، وأنا أختبئ من أنظار الناس، أشعر أنني أصغر من حبة سمسم؟" قال وهو يقف قبالتي رافضاً دعوتي للجلوس. "أصغر من حبة سمسم؟ لماذا؟" "لأن أختي وصمت جبيني بالعار.. "أختك!! أية أخت؟ "قلت وأنا أتعمد التجاهل. "أنت.. يا بنة ميس" "أنا التي نالت اليوم الدكتوراه التي لم يستطع واحد منكم الحصول عليها".. "وكيف نلتها؟ "قاطعني بحدة وعلى عجل "قولي لي.. والآن أريد فقط أن أعرف الطريقة التي نلتها بها.. بل نلت شهاداتك كلها.. ها.. قولي.. كيف؟" "عم تتكلم عاصم؟ ما الذي تقوله؟ اجلس اجلس.. "قلت محاولة تهدئته.. شادة به إلى الأسفل، لكنه لم يجلس، بل ظل واقفاً، يمشي خطوتين أو ثلاثاً أحياناً ثم يعود فيقف من جديد.. أنا أتكلم عن اللغز الذي كان يحيرني.. اللغز الذي عذبني كثيراً البحث عنه مذ تسجلت في الجامعة رغم أنف القانون والنظام. ثم حصلت على الليسانس فالماجستير.. اليوم فقط عرفت ذلك اللغز." "ماذا تقول يا رجل؟ ماذا عرفت عاصم؟" قلت وأنا أتوجس شراً، شاعرة أن علي أن أتخذ أشد احتياطاتي.

"بعت نفسك للشيطان.. أجل.. اليوم تأكدت.. أنت منذ تلك الأيام بعت نفسك للشيطان، فأيهم وراءك: يونس أم مؤنس أم إيناس؟ "وارتعدت فرائصي لحظة.. هاهو ذا يضع النقاط على الحروف تماماً... فحذار.. هو يعلم شيئاً لكنه ليس على يقين فدعيه في حيرته، مائة شك، سميرة، ولا يقين واحد..

"أنا لا أفهم قصدك، لا أدري ما الذي تريد قوله؟" "بل تدرين.. هناك من يقف وراءك في كل ما فعلت وتفعلين.. لكنني لم أستطع البت.. فأيهم هو؟ يونس أم مؤنس أم إيناس" ولكي

أستغل شكه ذاك هاجمت النقطة الأضعف في سلسلته علها تنقطع "من إيناس هذا؟ أنا لا أعرفه حتى."

"لكنه كان في الصف الأول.. وكان ثاني من هنأك.. عيناه لا تفارقانك أبداً.

"لا.. لا.. لقد شططت بأفكارك بعيداً.. إيناس هذا رجل يحب العلم.. هو نفسه درس في الجامعة وحصل على الدكتوراه لذلك يقدر كل من يدرس ويتابع، فتسيء الظن به؟ حرام عليك عاصم".. "حرام علي أنا الذي سمعتهم بإذني يتهامسون في القاعة "هذه المرأة مثيرة.. أولو الأمر كلهم وراءها.. ما تريده تصل إليه.. فمن وراءك؟ قولي." "قلت لك لا أحد.. ثم إني لا أسمح لك بأن تخاطبني بهذه الطريقة." "لا تسمحين لي؟ أنا الذي يتحمل وزرك ويوصم بعارك".. "عار!! وزر؟ عن أي وزر وعار تتكلم؟ أنا أرفع لكم رأسكم.. أحقق النجاح تلو النجاح، ولسوف أحقق ما لم يستطع أحد منكم تحقيقه. "قلت بشيء من حدة وأنا أشن هجوماً أردته أن يكون كاسحاً. "اسمعي.. هذا الكلام لا يطعم خبزاً.. أنا لا يهمني ما تحققين، يهمني كيف تحققين؟.. هل الوسيلة شريفة أم غير شريفة؟ فالوسيلة عندي لا تنفصل عن الغاية".

"وسيلة.. غاية.. شريفة.. غير شريفة.. ما هذا الذي تقوله عاصم؟ هذه أشياء أكل الدهر عليها وشرب؟ مفردات لم يعد أحد يتكلم بها أم تراك تعيش في العصر الحجري؟ ألا ترى كيف يتكالب الناس على المصالح؟ كيف يتسابقون سباق الأرانب إلى حقل خس؟ أم تريدني أن أقعد في زاوية معتمة نائية لا أعرف أحداً ولا أقارب أحداً؟" "لكن هؤلاء الآحاد مجرمون سفلة، نهابون سلابون.. ظالمون جائرون".

"هذا ليس من شأني.. أأنا وضعتهم في كراسيهم؟ أأنا سلمتهم مناصبهم؟ هم أمر واقع وأنا أتعامل مع هذا الأمر الواقع." "لكنهم أنجاس دنسون يلوثون كل يد تمتد إليهم.. هم مستنقع يلطخ بالوحل كل من يخوض فيه." "اسمع عاصم.. أفلاطون مات من زمان.. جمهوريته المثلى لم ولن تتحقق أبداً.. فدعني أعش.. بطريقتي لا بطريقتك أريد أن أعيش." "وتصبحين مضغة في أفواه الناس؟ سمعتك على كل شفة ولسان؟ أهذا ما تريدين" "أنا حرة وهذه حياتي." "حرة!؟ نعم!! نعم!! تحسبين نفسك في فرنسا، أميركا، النرويج، أين تحسبين نفسك؟ أنت يا بنة ميس في بلد شرقي.. العائلة فيه وحدة متماسكة ما يمس الأخت يمس الأخ.. وما يعيب البنت يعيب الأب.. ولن أسمح لك أبداً أن تفعلي ما يمسنا ويلطخ شرفنا." "أنا لا أفعل شيئاً من هذا.." "يكفي أن تكوني على صلة بهؤلاء الأوغاد حتى تلوثي شرفنا." "هؤلاء الأوغاد هم سادتك وتاج راسك." "خسئوا..

هؤلاء مجرد لصوص، داعرين، مرتشين.. فابتعدي عنهم.. أحذرك ابنة ميس ابتعدي عنهم أو قسماً عظماً ذبحتك من الوريد إلى الوريد.." فجر قنبلته ثم مضى مسرعاً لا يلوي على شيء.

دوي الانفجار في أذني، اصطكاك البرد في أسناني، رعدة الحمى في أوصالي، وأنا أتسمر مكاني أرقبه وهو يخرج ثم أفكر في ما قال هنيهة لا أدري مداها، ثم أمضي إلى مخدعي وقد انقلب كل الفرح الذي حمله لي الصباح ترحاً وبؤساً.

كان التهديد واضحاً، وكان الخطر محدقاً.. هكذا أحسست وأنا أستعيد في ذهني نظراته التي تقدح شرراً عينيه الحمراوين اللتين تكادان تتفجران دماً.. "الشرف!! رحت أتمتم وأنا أستلقي على فراشي. "كيف لا يتخذه عاصم مطية للانتقام مني؟ أنا أعلم حقده القديم علي.. بل حقد أمه وأخوته.. فلماذا لا يتستر بستار الشرف والكرامة ويذبحني، كما قال، من الوريد إلى الوريد..يا إلهي!! من الوريد إلى الوريد؟ "ووجدتني أنتفض خائفة متلمسة عنقي وعيناي تكادان تخرجان من محجريهما.. "لا.. لابد من التصرف.. والتصرف بسرعة" تمتمت للمرآة وأنا أعيد النظر بعنقي الأتلع الجميل، أبيض مشرباً بالحمرة لا يملك المرء وهو ينظر إليه إلا أن يتأسف أن يمسه سوء. كم من أعناق هكذا ذبحت!! كم من فتيات سقطن مضرجات بدمائهن بعد أن لوثن شرف أهلهن بالوحل!! للعار والشنار تاريخ طويل يبدأ بالمرأة وينتهي بالمرأة، دمها وحده يغسل العار.. هكذا كان الآباء والأجداد، وعاصم أيختلف عن الآباء والأجداد؟ الشرف عندهم فرج امرأة مصون وحسب.. فما الذي يمنعه من ذبحي من الوريد إلى الوريد؟.

طوال ذلك الليل، ظللت مؤرقة لا تفارق عيني صورة فتاة في الخامسة عشرة من عمرها سقطت مضرجة بدمائها وقد أغمد أخوها خنجره في ظهرها... كان قد جاءها من خلف وبأسرع من لمح البرق طعنها ثلاث طعنات جعلتها تخر صريعة والدماء تشخب شخباً صانعة بركة من نجيع أحمر.. يومذاك كنت في الرابعة أو الخامسة وكانت أمي معي. صرخت أمي وصرخت أنا ثم اشتد الصراخ حولنا والناس يسرعون لإنقاذ الفتاة.. لكن الفتاة كانت قد ماتت.. ربما من الطعنة الأولى ماتت، ربما من شدة الخوف، من هول الصدمة.

حينذاك سرت همهمات سمعتها لكنني لم أفهمها.. "الشرف".. "تستاهل" "ارتكبت الخطيئة فغسل أخوها خطيئتها بدمها." أمي بكت عليها.. أذكر يومذاك دموعها المنهمرة كمطر الصيف. منظر لم أره من قبل.. أمي تبكي تلك الدموع الغزار؟ ولماذا؟ لم أكن أعرف كيف أسأل. كنت أرى وأسمع وحسب بعد ذاك سمعت من أمي أن الفتاة لم تكن قد أثمت أو مس شرفها أذى.. أهلها كانوا قد اتهموها بذلك حين انتفخت بطنها وكبرت وبدأت الألسنة في

الحي تلوك سمعتها. "فعلتها الخائنة بنت الخائنة" "وأسرع الأخ يقطع الألسنة بقطع أنفاسها وهي تسقط معفرة بالتراب.

لكن ما إن شرحوا جثتها في المستشفى حتى وجدوها عذراء لم يقربها ابن أنثى، ذنبها الوحيد أنها أصيبت بمرض يدعى الليف جعل رحمها يكبر وبطنها تنتفخ دون سابق إنذار.. فلم لا يفعلها عاصم وذنبي أنا واضح مكشوف كعين الشمس؟

كان الخوف قد فكك مفاصلي وجفف فمي.. لساني يبحث عن قطرة من رضاب، لكن كل ما في فمي صار نشارة خشب.. "أيعقل؟ كل ما فعلته وأنجزته يذهب سدى؟ باسم الشرف أذبح من الوريد إلى الوريد؟ وهذه الشهادات الجامعية؟ هذا المجد الباهر؟ هذا المستقبل الواعد؟ أينتهي كله بحجة الشرف؟ تلك الفتاة قتلت وهي لم ترتكب إثماً، فما ترى يحل بي إن علموا بما ارتكبت؟" كان عاصم يشك في ثلاثة، اثنان منهم عشيقان لي، والثالث ربما مشروع عشيق؟ أجل، سميراميس، كنت قد تعرفت إلى الرجل من قبل وكان قد زارني أكثر من مرة، ليبدي شدة إعجابه المرة تلو المرة، لكن دون أن يحدث شيء.. كانت العلاقة مع صاحب النبالة تحول بيني وبين التفكير بأي علاقة أخرى.. هم يتكلمون مع بعضهم بعضاً، يعرفون أسرار بعضهم بعضاً ويتفاخرون.. أنا أعرفهم.. مؤنس نفسه كان قد حدثني كيف يتفاخرون بمغامراتهم بين النساء.. "أجمل النساء عشيقتي فلانة." "اليوم أخضعت تلك المرأة الجموح علانة." "أمس بلغ الرقم في قائمة نسائي المائة" هكذا يحدث بعضهم بعضاً، فماذا إن أفشى إيناس ليونس بما يمكن أن يحدث بيننا؟ لا.. لا.. أنا حريصة ألا أقارب أحداً منهم.

لكن لماذا كان يونس تلك المرة أقل حرصاً؟ ألهذا علاقة بتلميحاته عن فكرة الزواج؟ ربما كان الوضع يضايقه.. مرتين أو ثلاثاً نلتقي في الشهر، ثم لا يعرف عني شيئاً، لا يراني البتة هو الذي غدا متيماً بي.. كل مرة أشعر أنه يزداد تعلقاً بي.. وكنت أعمل على زيادة ذلك التعلق، أكنت أريد لذلك الحب أن يصل إلى مصيره المحتوم؟ أكنت أريده أن يتزوجني؟ لا.. يا سميتي.. أقسم لك لم أفكر بهذا البتة، المرة الوحيدة التي فكرت فيها بذلك كانت مع مؤنس ولغاية في نفس يعقوب. ما عدا ذلك أعترف لك أنني كنت دائماً ضد الزواج.. طوال عمري كنت أكره هذه المؤسسة التي تبدو فيها المرأة طرفاً خاسراً دائماً: حبل، ولادة، مسؤولية بيت وقيود شتى في يدي المرأة ورجليها.

ترى أية صفقة خاسرة تفقدها المرأة في الزواج؟ بعدئذ، جاء ذلك الزواج الصوري الذي أرغمني مؤنس على عقده.. ليزيدني كرهاً للزواج.. ألم يتح الفرصة لذلك الغبي الأشوه درويش

أن يغتصبني دون أن أستطيع التلفظ بكلمة؟ لماذا إذن أفكر بالزواج؟ تلميحات يونس عابرة، لم أعمل على توكيدها أو البحث فيها، متجاهلة الأمر كله. كانت الحرية عندي أثمن من الزواج.. بل أثمن بكثير.. كنت في وضعي ذاك اضرب عدة عصافير بحجر واحد: أؤمن الظهر والسند، أشق طريقي دون عراقيل وأظل حرة مستقلة لا يأمرني ولا ينهاني أحد، فماذا يعنيني من الزواج؟ بل لماذا أتزوج رجلاً يزيدني ثلاثين عاماً، ما أريده منه يتحقق دون زواج؟ كنت سعيدة بحريتي، سعيدة بإنجازاتي، باستقلاليتي، فماذا أريد أكثر من ذلك؟ إن شعرت بالحاجة دعوت آلة المتعة إلي فتقدم الآلة كل ما أشتهي وأتمنى ولا أحد سمع ولا أحد دري، لكن إن كنت زوجة، هل سيتاح لي ذلك؟ لا.. لا. زوجة يونس تعني زوجة صاحب نبالة، بكل ما في هذه النبالة من عيون تراقب وآذان تتلصص، خدم وحشم، حرس ومرافقين وأنا لا أبيع حريتي بكنوز الأرض كلها.

ذلك كان قبل التهديد، لكن ماذا عما بعد التهديد؟ عاصم جاد، الشرر يقدح من عينيه، ولابد من أخذ الأمر على محمل الجد. أفكار شتى تأخذني وتجلبني، تذهب بي وتقول "هو أمسك برأس الخيط، حصر شكه في ثلاثة إذن سيصل إلى الحقيقة".. "كيف؟" يردد الصوت الآخر "كل شيء مرتب على خير وجه. "لا يهم. هو حاقد عليهم، بل هو عدو لدود وسيعمل المستحيل للتأكد من الأمر. حينذاك يصير حقده حقدين وانتقامه انتقامين لهذا ينبغي الحذر يجب التصرف بأسرع وقت".. "لكن ما التصرف؟" "الزواج.. هو وحده المخرج.. إن تزوجت يونس لم يجرؤ ابن أنثى على الاقتراب منك." لكنني سأخسر حريتي".. "إن خسرت حريتك خير من أن تخسري حياتك" ولماذا تخافين منه؟ قولي لهم، هم يتكفلون أمره".. ماذا؟" أتقتلين أخاك بيدك؟" "أنت تدافعين عن نفسك؟" "لكنه أخوك.. لحمك ودمك.. فهل تفرطين به من أجل تهديد؟.

كان ذلك حواري الداخلي طيلة أيام، لا تفتأ أسطوانته تتكرر المرة تلو المرة، وأنا في سريري، أمام التلفاز أو على مائدة الطعام.. لا أستطيع إبعاده عن ذهني.. كنت بين نارين، فأية نار أختار؟ الحيرة تقتلني فماذا أفعل، أنا التي لا تكره كأن يراها الناس في حيرة؟.

كنت مثلك، سميراميس، أحب ألا يرى الناس مني إلا الشخصية القوية المتماسكة التي تعرف ما تريد وتتجه مباشرة إلى حيث تريد.. لهذا انفردت بنفسي. الهواتف تأتيني فلا أرد، البيت لا أغادره، الضيوف لا أستقبل، وظن صاحب النبالة بي الظنون.. "ما بك؟" سألني فقلت "مريضة! حالة اكتئاب!" "وهل يعقل ذلك؟ امرأة في أوج انتصارها تصاب بحالة اكتئاب؟" وشعرت أن علي أن أصارحه لعل المصارحة تؤتي أكلها، فقلت "أراك ونتكلم" "بل يجب أن

أراك، واليوم.. هناك إجراءات لابد من اتخاذها" "إجراءات؟ من أجل ماذا؟" "ألا تريدين أن تتعيني في الجامعة؟" وقفزت فرحاً ناسية عاصماً وكل ما يمت لعاصم" بلى والله!!"

"حسن، ائتيني بالشهادة والأوراق الثبوتية الأخرى ليصدروا لك قرار تعيينك" "أستاذة في الجامعة؟" "نعم، أستاذة التاريخ القديم في الجامعة، ألم تقولي إن هذا حلمك؟" "بلى.. حلمي والله!! فكم أشكرك حبيب قلبي!! كم سأكون ممتنة لك!!" "لا تشكري ولا تمتني.. هاتي الأوراق وتعالي" وطغى الفرح على كل شيء "أستاذة جامعة، أنا التي لم يقبلوها ذات يوم طالبة فيها!؟ أهناك أروع!! أهناك أعظم؟ حقاً.. مهما فعلت لن أفي صاحب النبالة ولا صاحب الرفعة بعض ما أدين لهما به!! الحلم المستحيل حققاه لي.. الأمنية الدفينة نبشاها من التراب ثم بعثاها إلى الحياة. حية ترزق.. أستاذة جامعة؟ ماذا ستقول امرأة أبي؟ ماذا سيكون رد فعل عاصم؟ هل سيفكر بعدئذ بمن ورائي؟ ألن تطغى هالة الأستاذة على كل شيء آخر؟ هل سيجتر من جديد كلامه ذاك عن الشرف، الأخلاق؟ وشغلني الأمر حيناً من الزمن، الأوراق، الإجراءات، التعيين، بدء المحاضرات، حتى بدا لي ذات يوم وكأنني طويت قضية الزواج ملقية إياها في زاوية النسيان.

لكن إن كنت أنا قد نسيتها أكان صاحب النبالة ينساها؟ "غريب أمرك" قال ذات مرة ونحن في مكتبه (المخدع)، نشرب نخب أحلى أستاذة في الجامعة، كما قال، وهو يرفع كأسه. "ولماذا أمري غريب يا صانع الأساتذة والأستاذات؟" سألته ضاحكة فتابع "والمدراء والمديرات، الوزراء والوزيرات" "إيه.. هنيئاً لك.. إنك لترفل بالمجد طيلساناً سابغاً." "ارفلي به معي "قال فاستغربت متسائلة.. "أكثر مما أرفل؟" "طبعاً.. وهذا ما يجعلني أقول لك غريب أمرك.. فكل امرأة تسعى لأصحاب المجد، تبحث عن ذوي السلطان، تتزوج من أحدهم لتشاركه مجده وسلطانه ما عداك أنت، كأنك لا تأبهين بذلك كله؟" "كيف لا آبه؟ بل حلمي أن أكون من ذوي المجد والسلطان" "إذن، لماذا لا نتزوج؟ مرات عدة طرحت عليك الفكرة ولم تعيري الأمر اهتماماً؟" السؤال مشروع، والكرة في مرماي، أنا التي كنت أتظاهر بعدم السماع أو اللامبالاة، لكن الآن وقد حصلت مستجدات، طرأت متغيرات أأظل لا أسمع ولا أبالي؟.

"نتزوج؟ "قلت أخيراً بنوع من التلعثم" حلمي ذلك، ومن لا تحلم أن تكون زوجة صاحب النبالة؟ لكن أنت متزوج".. "وماذا في ذلك؟ "قاطعني للتو وكأنه كان مستعداً له. "الشرع يقول ما طاب من النساء مثنى وثلاث ورباع وما ملكت أيمانكم." "لكن الشرع نفسه يقول وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة، ولن تعدلوا.. أسمعت؟ ولن تعدلوا يا سيدي.. قلت بتأكيد شديد فضحك "بل نعدل.. يا سيدتي.. أنت لك منزلك وهي لها منزلها.. هي يصلها كل ما تحتاج، وأنت

يصلك كل ما تحتاجين.. والنوم، ليلة هنا، ليلة هناك، فأي عدل أفضل من ذلك؟" "الله!! الله على عدل الحريم.. يونس، أتريدني حرمة من حريمك لا أكثر ولا أقل؟ ألا تعلم كم أكره أن أكون حرمة؟ "أعلم.. لكنني أريدك زوجة شأنك شأن أم أولادي".

"أم أولادك ماذا؟ أراك تتكلم وكأنك غير خائف من شيء، تتصرف وكأنك لم تعد تحسب حساباً؟" قلت وأنا أشير إشارة تعني الزوجة. "ترى هل كسرت الطوق؟ "وتجمد كل ما فيه.. لحظات من الزمن بهت فلم يرد.. "أنا آسفة.. أردت فقط أن أذكرك بأنك كنت تتخذ أشد الإجراءات الاحتياطية كيلا يصل إليها خبر أو إشاعة.. لكن مذ ناقشت أطروحتي في الجامعة رأيت كلامك، أسلوبك يختلف". "لا.. لا.. أنا مازلت حريصاً، وطوقها ما يزال قاسياً محكماً".. "إذن كيف تريد أن نتزوج؟ "قاطعته في الحال وأنا أستغرب تناقضه. "زواج عرفي" أجابني وهو يقترب مني.. "زوج بعقد وكل شيء.. فقط لا نعلنه.. لا نقيم احتفالاً.. لا نفشي سره لأحد." "نظل كما نحن.. تعني.. علاقة بالسر!؟.. "لكنه زواج.. والزواج شيء مختلف يصبح لك فيه حقوق أخرى، واجبات، مستقبل".

"مثلاً؟" "مثلاً، يمكنك أن تحبلي وتلدي، تشاركيني أموالي وثروتي، وإن أمت ترثي".. "بعيد الشر.. بعيد الشر.. ما هذا الذي تقوله؟" "على المرء أن يفكر بكل شيء.. وبصراحة.. هذه السنون التي قضيناها معاً جعلتني أشعر أن علي واجباً تجاهك، أنني ملزم بضمان مستقبلك.. فقط علينا أن نكتم الأمر ونظل على حذر..

وشردت بعيداً إلى عاصم الذي سيجعله زواجي من صاحب النبالة مقيد اليدين والرجلين لا يستطيع الإتيان بحركة واحدة، لكن كيف أرضى لنفسي زواجاً سرياً؟ ولماذا، رجل في مكانة صاحب النبالة يخشى امرأته؟ لنعلن الزواج.. ذلك وحده سيسكت عاصماً وأبا عاصم.. فما الذي يضمن لي إن كان سرياً أن يقنعا بالسكوت؟ ألن يعتبر عاصم ذلك نوعاً من الزنى؟ وصمة العار التي ستلحق بشرفه؟ كنت أفكر وأنا مطرقة فيما هو يحدق إلي متفرساً، كأنما يريد اختراق جمجمتي ليدخل إلى هناك، حيث تلافيفي الدماغية فيعلم ما يدور فيها.. "هه.. ماذا قلت؟ "سألني من جديد فقلت "أنت تحسب حساب زوجتك وعائلتك فقط.. لكن ماذا عن عائلتي أنا؟ أبي، أخوتي.. أيرضون بمثل هذا الزواج؟ أيسكتون إن رأوك تخرج وتدخل إلى منزلي؟" "لم لا؟ "إذن أنت لا تعرفهم "قلت ثم تابعت شارحة له كل شيء، راوية لقائي مع عاصم، ذاك الذي لم أستطع التحدث إليه عنه.. فتح عينيه على سعتهما ثم قال: "هددك؟" "بالذبح من الوريد إلى الوريد.. والحقيقة، أنا أمام مفترق طرق: الزواج أو قطع العلاقة". "قطع العلاقة؟ "صرخ كمن لدغته أفعى "كيف تفكرين بمثل هذا الأمر؟" "قالوا للمسمار كيف

تدخل في الحائط، فقال اسألوا المطرقة.. وأنت عليك أن تسأل أهلي، أخي عاصم؟؟ بصراحة أنا لا أستبعد أن أكون الآن قيد المراقبة.. البيت.. هاتفي، تحركاتي، كلها قيد المراقبة، بل لا أستبعد أن يمسكني عاصم ذات مرة وأنا أركب سيارتك بعد منتصف الليل".

"إلى هذا الحد، هو خطر؟" "وأكثر.. بل أنت لا تعرف كم هو متشدد، متمسك بالشرف والأخلاق، كاره لكم جملة وتفصيلاً".. "حسن.. أمره سهل إذن" "كيف؟"

"نحبسه ثم "وأشار بيده إشارة تعني نمسحه، نصفيه.. فقاطعته شبه صارخة "لا..لا"

"ألا تقولين إنه يكرهنا؟ ضدنا؟ "اكتفيت بإيماءة من رأسي فيما كانت غصة تصعد إلى حلقي تمنعني من النطق.. "حسن.. يكفي أن يكون كذلك كي نوقع به شر العقاب.. "تابع بهدوء.. "أنت تعلمين.. نحن لا نمزح في مجال كهذا، بل نعتبر كل من ليس معنا هو ضدنا ومن هو ضدنا عدو لدود يجب قطع رأسه، فلماذا لا نطبق ذلك عليه؟" "لكنه أخي" "أخوك.. غير أخيك.. لا يهم. المهم أن نزيح العراقيل من طريقنا معاً، المهم أن تظلي قوية، تتابعي شق طريقك، وكل من يعترضك ابطشي به دون شفقة أو رحمة." "أنا معك.. إن لم يكن هناك خيار آخر.. لكن طالما هنالك خيارات، لماذا نلجأ للبطش؟".

"أنت مخطئة، البطش أروع ما في الوجود، فضيلة الفضائل.. لولا البطش أكان العراق قد استكان للحجاج؟ أكان هولاكو ملك الشرق والغرب؟ البطش هو الأداة الفضلى للحاكم والوسيلة الأنجح في التعامل مع الرعاع.. "وعاد إلي صوت صاحب الرفعة يحدثني بأمر كهذا وأنا أعجب بحديثه.. "ابطشي بهم، اقمعيهم، كمي أفواههم." تابع صاحب النبالة بحماسة أشد "يصير والديك نعاجاً لا يرتفع لها صوت.. لكن بغير البطش يتحول حملان القطيع إلى ذئاب ذات مخالب وأنياب." كلامه صحيح.. هو لا ينطق عن هوى وأنا مقتنعة بما يقول.. "ألم تسمعي ما قال عبد الملك بن مروان حين قال له أحدهم اتق الله يا أمير المؤمنين؟" عاد صوته إلي عبر ضباب شرودي "لا. ما قال؟ "قال: ويحك لا تقل لي اتق الله أو قطعت رأسك، فأنا أبني دولة لا مسجداً." "مع ذلك.. لا يسعني إلا أن أقول لك اتق الله في أخي "قلت وقد ساورني خوف شديد أنا التي تعلم كم هم قساة القلوب إذا وقف شيء في طريقهم لم يتورعوا عن مسحه عن وجه الأرض. "هكذا المرأة دائماً.. تطغى عليها العاطفة لا المنطق، تسيّرها المشاعر لا العقل." بدأ لومه بمحاضرة طويلة انتهى ليلنا ذاك ولم تنته. كان السكر قد تسرب إلى تلافيفه الدماغية وقد شرب زجاجة ويسكي أو كاد ليذهب عنه تحفظه وتتكشف خبايا سريرته فتظهر قناعاته الحقيقية. "المرأة التي هي بربع عقل والنساء اللواتي لا يصدقن: إنهن يتمنعن وهن

راغبات ويشهدن وهن غائبات ويحلفن وهن كاذبات." كذلك المرأة التي هي شر وشر ما فيها أنه لابد منها" وإياك مشاورة النساء، فإن رأيهن إلى أفن" وما إلى ذلك من آراء تمت كلها لعصر الحريم الذي لم يكن لديه مانع من أن أدخل جناحاً من أجنحته ولا أخرج. كنت أستمع إليه دون أن أتكلم يدهشني أمر واحد: تناقضه مع كل ما يصرح به في وسائل الإعلام عن المرأة صنو الرجل، عن المساواة التامة بين الرجل والمرأة، حرية المرأة، تلك المعزوفة التي يتقنها أيما إتقان.. ترى، هل صاحب النبالة نفسه مصاب بالفصام شأنه شأن الناس جميعاً؟ هل وعيه شي ولاوعيه شيء أخر؟ حديثه وهو منتش يقارب السكر يؤكد ذلك، فكل ما قاله في محاضرته لم يكن يمت إلا إلى عصر الحرملك ـ السلملك ذاك المغرق في الظلمات.. مع ذلك لم أناقشه، طلع الفجر وكان علينا أن نفترق لكن دون أن نتفق كأننا كنا نتعمد الإرجاء..

هل حدث لك ذلك يا سميتي؟ أمر خطير ترجئين البت فيه؟ أنا هكذا أرجأت.. وقد ساعدني في ذلك شغلي الكثير. لم أعد كما كنت أيام مصلحة الفضيات فارغة الأشغال دون مسؤولية أو عمل.. آتي متى أشاء وأخرج متى أشاء.. أتسكع هنا وهناك في الطرقات.

لا، لا، يا جدتي العظيمة، تلك أيام مضت وانقضت.. صرت الآن مزدوجة المسؤولية، مضاعفة الأشغال.. في النادي، علي أن أتابع النشاط الثقافي، أضع برامجه، أتصل مع المحاضرين والمحاضرات، أتفق معهم على الموضوعات التي سيحاضرون بها، ثم أحضر بمحاضراتهم تلك.. صحيح أنني لم أكن أفهم بعضها كثيراً، فيما بعضها الآخر لم يكن يعجبني كثيراً، لكن كان علي في كل حال أن أحضر وأن أشارك في النقاش.. إذ من غير الجدير بدكتورة مثلي، مسؤولة عن النشاط الثقافي في النادي أن تظل صامتة لا من فمها ولا من كمها.. علي أن أثبت بشكل من الأشكال أن الدكتوراه التي أحملها ليست مجرد كرتونة أعلقها على صدري.. إطار داخله فارغ تماماً.. المسألة صعبة بالحقيقة لكن كان علي أن أحلها.. وكنت أفلح أحياناً لكن لا أفلح أكثر الأحيان.. بعض المحاضرين يتكلمون وكأنهم يتكلمون عن طلاسم، معلومات، معطيات، أرقام.. كلها لا أعرف عنها شيئاً. بل لا أدري من أين يأتون بها.. هي لم تمر معنا في مناهج الإعدادية أو الثانوية.. أما بعد الثانوية.. فلا علاقة لي.. لقد أغناني صاحبا الرفعة والنبالة عن قراءة كتب الجامعة.. وبالتالي الاطلاع على ما فيها من معلومات ومعطيات.. أحياناً ينتابني شعور بالندم: لو قرأت تلك الكتب إذن لكنت عرفت أكثر.. لو تابعت المناهج حرفاً بحرف لما وجدتني الآن صماً بكماً عمياً فهم لا يفقهون.. كان قد ثبت لدي أن الثقافة عملية تراكم طويلة وتحصيل متصل من المهد إلى اللحد ينبغي ألا ينقطع أبداً. عندي كان قد انقطع منذ زمن طويل.. وهو ما كان يحرجني كثيراً. في إحدى

المحاضرات حدث ذلك.. كانت المحاضرة شخصية بارزة من شخصيات الثقافة لم تكن تحمل دكتوراه مثلي لكنها ألقت محاضرة مدهشة عنوانها "خراب العلاقات في مجتمع اليوم" تحدثت فيها عن خراب العلاقات بين الفرد والفرد، الفرد/ المجتمع، الفرد/ الدولة والمجتمع/ الدولة، إلى حد جعل المجتمع كله في حالة حيرة واضطراب وبالتالي حالة عطالة. الفرد في حالة عطالة لا يستطيع معها أن ينجز شيئاً هاماً، أن يحقق ذاته كما ينبغي، بل هو يدور حول نفسه، كأنما يدور في حلقة مفرغة، هكذا المجتمع كله.كذلك الدولة التي تبدو عاجزة عن فعل شيء هام، التقدم خطوة إلى الأمام، رؤية حتى المستقبل القريب فتراوح حيث هي، حالة عطالة تامة وانعدام وزن كامل..

كلام كبير كانت تقوله تلك السيدة العلامة بنظارتيها السميكتين ووجهها المتجعد المتغضن، والتي أثارت الشفقة في نفسي أول ما رأيتها، لكن ما إن بدأت الكلام حتى أثارت في نفسي الدهشة.. لقد شخصت الداء ووصفت الدواء.

سبب ذلك الخراب والعطالة، حسب رأيها، هو طغيان الأنانية لدى الأفراد، غياب روح الجماعة لديهم، فكل منهم مشغول بذاته منغلق على أناه ساع وراء مصالحه وحسب دون أن يكون معنياً بالآخر، أو مهتماً بالمجتمع. علاوة على انحلال المجتمع الأخلاقي ،سيطرة النزعة الاستهلاكية، الاستغلال البشع للمرأة إضافة إلى استغلال الدين لأغراض انتهازية نفعية ومصالح أنانية فردية.. إلى آخر ذلك الكلام الكبير الذي شعرت أنه أكبر من أن أستوعبه.. كنت بحاجة إلى تفسير الكثير منه، لكن الوقت لم يكن يسمح. فالأسئلة التي انصبت عليها كثيرة والأجوبة عليها كثيرة إلى درجة لم يتح لي أن أتدخل البتة وبالتالي أحرج كثيراً..

بيد أن ما أحرجني أكثر هو عملي في الجامعة، ذاك الذي بدا بحاجة إلى ما كنت أفتقده تماماً، وفاقد الشيء لا يعطيه. ترى كيف أعطي دروساً في التاريخ القديم وليس لدي شيء عن التاريخ القديم؟.. كان المنهج يتناول الحضارات القديمة التي عرفتها المنطقة كلها بدءاً من الحضارة الفرعونية وحتى الرومانية مروراً بحضارات ما بين النهرين، سومر، فينيق، كنعان، الإغريق، لكن ما عساي أعرف عن تلك الحضارات؟ مشكلة حقيقية واجهتني يا جدتي العظيمة.. لو سألوني عنك.. عن حكمك، عن إمبراطورية آشور وبابل لربما أجبتهم فأنت ومملكتك كنتما الشيء الوحيد الذي اهتممت به وتتبعته.. لكن عداك ما يعنيني؟ ماذا أعرف عنه؟ مع ذلك أنا دكتورة التاريخ القديم وأستاذته، لدي صفان في الجامعة أدرسهما: الثالث والرابع، فماذا أفعل؟.

كيف أواجه الطلاب؟

أول درس كدت أسقط فيه أرضاً وقد فكك الخوف مفاصلي وأرخى الحرج ركبتي.. كان علي أن أتحدث عن أخناتون، استبدال عبادة آتون بآمون وحركة التوحيد في الحضارة الفرعونية، لكن أنى لي ذلك وليس لدي أية فكرة عنها؟ دخلت القاعة دون أن أكون قد فكرت في الأمر ربما معتمدة على ثقتي بنفسي واحتقاري للرعاع الذين جاء منهم الطلاب. "أتحدث بأي شيء "قلت في نفسي "أقول لهم أي كلام" "لكن ما إن أنهيت الكلام عن نفسي، إنجازاتي، ودخلت في صلب الموضوع حتى وجدتني أتأتىء وأتعثر.. أبلع ريقي وأغمغم، كأنما جف ينبوع الكلام.. ذلك ربما شجع الطلاب على أن يستوطئوا حائطي ويقفزوا من فوقه، كل على كيفه، سائلين أسئلة لم تخطر ببالي قط، أسئلة حاصرتني إلى درجة لم أجد بداً من الاعتذار لصداع شديد ألم بي..

يا إلهي!! كم كانت تلك التجربة مرة يا سميراميس!! كم شعرت بالخجل والحرج!! لا.. أنت لم تخوضي تجربة كتلك.. لم تقفي أمام طلاب كل منهم يريد تعريتك حتى العظم، يريد أن يشفي غلاً قديماً مازال يحكم العلاقة بين الطالب والأستاذ.. أنت ملكة يا سميتي، والملكة لا تسأل بل حتى لو سئلت يمكنها ألا تجيب. هي تنظر من علٍ إلى الرعية إشفاقاً أحياناً وشزراً أكثر الأحيان، فكيف تدخل محنة كتلك؟ كيف تجد نفسها عاجزة أمام طالب صغير ربما لم يبلغ العشرين؟.

أنا وجدت نفسي هكذا، فخرجت مسرعة أتعثر بأذيال تنورتي رغم أنها لا تبلغ الركبتين.. الدروس التالية لم أحضرها.. كنت أفكر بالاستقالة إذ من المستحيل الاستمرار.

بحت بما في نفسي لصاحب النبالة. "أنت ما تزالين غرة، "سخر مني، " بحاجة إلى الكثير من فت الخبز." "ماذا تعني؟ "سألته أنا التي استعصت عليها مغاليق الفهم. "أعني، العالم يقوم على المناورة والمراوغة. الغش والخداع. فلماذا تشذين عن كل ما في هذا العالم؟ ناوري.. راوغي.. لا تأخذي الأمور مأخذ الجد، أشغلي طلابك بأي شيء عدا العلم والتاريخ. لا تلتزمي بمنهج أو برنامج، قولي ما يحلو لك وما يخطر ببالك ولا تهتمي بما يحلو لهم أو يخطر ببالهم.. أتقني فن الشعوذة والدجل.. فن "الجلا جلا"، تنجحي أيما نجاح". وأعجبني ذلك فهتفت "يونس، أنت عبقري فذ.. الآن فقط علمت لماذا تتبوأ هذا المنصب الرفيع منذ زمن طويل؟ لماذا لا يستطيعون الاستغناء عنك؟" "وأنت أيضاً تستطيعين؟" "أنا.. بالطبع لا.. بل كيف أستغني عنك وأنت مهجة روحي.. أنت حياتي.. عمري".

"حقاً؟ أتقولين ذلك من قلبك؟ "طبعاً، أنت يا منقذي ومسعفي، يا ظهري وسندي!! "وغرقنا معاً في ضحك طويل..

الطريقة الجديدة أجدت نفعاً.. بل تبين لي أن هناك الكثير ممن يتقنون فن "الجلا جلا" ذاك.. لقد تعمدت أن أحضر بعض محاضرات يشتهر أصحابها بهذا الفن.. أضحت إلهم السمع جيداً وعرفت أساليبهم جيداً.. هم لاعبو الكشتبان الذين لا تستطيع الإمساك بهم أو ملاحقة أصابعهم وهي تتحرك بسرعة.

يدخلون من باب ليخرجوا من آخر، ويتوه الطلاب وراءهم في متاهات مظلمة لا يعرف أحد لها مخرجاً..

لكن، لكي أتقن فن "الجلاجلا" كان علي أن أتزود بشيء آخر، شيء يدعونه الأمالي يضعها الأساتذة ليدرسها الطلاب ولا يحتاجون بعدها لكتاب أو مرجع. ذهبت إلى أستاذي المشرف فارتبك واضطرب، متوجساً خيفة ربما من أن أكون راغبة في الانتقام منه أو حاملة حقداً عليه.. لكنني طمأنته، "أريد بعض الأمالي عن منهج الصفين الثالث والرابع." "أنت تأمرين. "رد الرجل وهو يتنفس الصعداء. "متى تكون جاهزة؟" "ثلاثة أيام وأعطيك ثلاث أمالٍ أو أربع لكل صف". "حسن.. بعدئذ تكمل البقية." "تأمرين دكتورة.. أنا في خدمتك." "ولن أنساك. "قلت وهدفي ترغيبه مشيرة بأصابعي الثلاث إشارة عد النقود." بل لك عندي مكافأة مجزية." "لا، معاذ الله.. أنا لا أريد غير الرضى." "رضى القيصر، أليس كذلك؟" قلت ممازحة مشيرة إلى الأعلى والأعلى "بلى.. بلى.. كلنا نريد رضى القيصر.."

القيصر يرضى حين ترضى حاشيته.. ولقد رضيت كل الرضى وأنا أتفحص الأمالي الثلاث الأولى التي جاء بها عن محضارات التي حددت. عندئذ ذهبت إلى طلابي شائلة برأسي عاليا. ناظرة يمنة ويسرة ثقة وطمأنينة.

كيف لا والمشعوذون لا يخرجون إلى المنصة إلا والثقة تحف بهم يمنة والطمأنينة يسرة؟ أيديهم تتحرك بسرعة، عيونهم تبرق، حركاتهم تخطف الأبصار فيدخلون الأبيض في الأسود ويخرجون الأسود من الأبيض دون أن يدري أحد كيف..

هكذا صرت أفعل.. "الجلاجلا".. خير طريقة لستر ما في المرء من عيوب.

الأمالي الثلاث لحقتها أمالٍ أربع وخمس، الأستاذ المشرف حريص على إرضاء القيصر.. وهذا لا يتم إلا بسد أفواه الطلاب بأمال تؤكد أنني أستاذة عريقة في علم التاريخ، علامة فهامة لا مجال معها للشك.

غير أن ما أكد لهم كل التوكيد صفتي تلك إنما هو كتابي الجديد، أطروحة الدكتوراه التي صدرت بطبعة أنيقة جميلة تضاهي كتب فن الطبخ "بلاد ما بين النهرين: تاريخاً وحضارةً،" عنوان ضخم فخم لا يدع مجالاً لسين أو جيم.

كان اسمي مكتوباً بحروف بارزة على الكتاب المجلد أفخر تجليد وكنت حريصة أن أحمله معي دائماً أقدم منه هدايا لهذا وذاك.. ثلاثة آلاف نسخة طبع منه صاحب النبالة.. هو مكثور الخير لا يضن علي بشيء.. لو أردت عشرة آلاف نسخة لطبع.. مطابع حديثة رائعة تحت تصرفه، بإشارة من إصبعه تصبح تلك المطابع تحت تصرفي أنا.. كنت فرحة بالكتاب، فرحة بتقديمه هدايا حتى لطلابي، فذلك جزء هام من لعبة "الجلاجلا" إذ ما إن ينظر الطالب إلى الكتاب حتى يبهره غلافه الجلدي الجميل، ورقه الصقيل، صفحاته الثلاثمائة.. وإذا انبهرت عيناه، ما تراها تقول شفتاه؟

سلاح آخر استخدمته يا سميتي لكي أفرض سيطرتي على الطلاب.. أتذكرين أنت ما كنت تستخدمين مع الجنود؟ ذلك السلاح الذي ما خذلك يوماً.. السهم الذي ما رميت به وأخطأ.. أتذكرين، سميراميس؟ إنه سلاح العيون.. سهام تطلقه الأنثى على الذكر فتشل مقاومته، تصرعه أرضاً؟ أعرفتها، سميراميس؟ تلك السهام التي كنت تطلقينها على جنودك فتسحرينهم؟ أكان باستطاعة أحد منهم أن يخالف لك أمراً؟ أكان باستطاعته إلا أن يضحي بنفسه من أجلك؟

إنه السحر العظيم الذي كنت تملكينه وتمارسينه على أتباعك، وهو السر نفسه الذي كنت تعرفينه حق المعرفة، أتذكرين حوارك مع وصيفتك حين طلبت إليك أن تفكري بالزواج وقد مات نينوس ملك آشور وبابل، ماذا قلت لها؟ أتذكرين سميراميس؟ أنا أذكرك يا سميتي: "لا يجوز أن تكون سميراميس لرجل "قلت لها. بل يجب أن تبقى خيالاً يراود أحلام الرجال، وحين قالت لك لست أفهم يا مولاتي ما تعنين، رددت قائلة: ولن تفهمي.. مادمت تفكرين كما تفكر سائر النساء.. أتعرفين ما الذي يربط بيني وبين شعبي؟ .. نوع فريد من الحب... إن كل رجل من رعيتي وكل جندي في جيشي يعدني مليكته وقائدته وحبيبته..

فقالت وصيفتك مؤكدة، هي التي تعرف نظرة جندك إليك: لاشك يا مولاتي في أنك معبودة الجنود، فقلت لها: أجل كأني أدفع إلى الحرب جيشاً من العشاق والمغرمين.. إن ظهوري بينهم على صهوة جوادي يثير حماستهم فيندفعون إلى القتال وهم يهتفون بين صليل السيوف وصهيل الخيول، ولقد حدث في حربنا الأخيرة مع الفرس أنني سرت بعد إحدى المعارك لأتفقد

ميدان القتال، فسمعت أنين جندي جريح يحتضر، ولما تقدمت نحوه لم يكد يراني حتى أضاءت أساريره وأمسك بيدي فوضعها على شفتيه. انحنيت عليه فقبلته. وهنا لمعت عيناه بوميض غريب، ربما هو وميض الفرح ثم أسلم الروح وهو يضع آخر أنفاسه بين شفتي، وكان على مقربة مني جريح آخر يشاهد ما أفعل فطعن قلبه بخنجره وهو يصيح إلي مطالباً بهذه القبلة التي يدفع حياته ثمناً لها..

هكذا صار طلابي.. سخرت كل ما لدي من أسلحة أنوثة لأطلقها صوبهم، فغدوا مسحورين بي.. تفتنهم طلتي، يخلب لبهم كلامي.. أي كلام تلفظه شفتاي جميل، كل إشارة من يدي مطاعة، كل لفتة من رأسي فاتنة.. فماذا أريد أكثر من ذلك؟.

لا.. لا. كان ثمة ما هو أكثر يا مليكتي الحسناء.. الدعاية، تسخير وسائل الإعلام.. تلك التي لم تكن أيامك إلا شاعراً يكتب قصيدة أو مغنياً يغني على ربابة.. لكنها اليوم كثيرة متعددة إلى درجة تذهل العقول.. شيئاً فشيئاً صرت أشعر أنني بحاجة إلى تلك الوسائل، إلى تسخيرها لتلميع صورتي أكثر فأكثر.. ذلك سيرسخ قدمي، سيزيد من شهرتي وسيدفعني قدماً وإلى الأعلى.. همست ذات ليلة بإذن صاحب النبالة "الإعلام لم يهتم بكتابي الأخر بل لا يهتم بي أنا نفسي كما ينبغي" .. فضحك "سيهتم".

وعلى الفور عادت الصحافة تهتم.. تنشر المقالات عن كتبي، أمالي التي تدرس في الجامعة، المنهج الحديث الذي كتبت به ما كتبت.. وبدأت الإذاعة تهتم هي الأخرى.. يتصلون بالهاتف يريدون كلمة للمستمعين. يأتي أناسها لإجراء مقابلات معي.. أنا مسؤولة الثقافة في نادي النسوان، وأستاذة التاريخ في الجامعة، فريدة الزمان وخريدة العصر والأوان..

بعدئذ جاء التلفاز يدلي بدلوه.

صار رجاله ونساؤه يأتون إلى المكتب أو الجامعة راجين مقابلة مني يفيد منها الجيل الطالع وينتفع الشباب الصايع.

أنا التي ضربت المثل الأعلى في الجد والاجتهاد، الدأب والطموح لأصنع نفسي بنفسي، عصامية مالها نظير في البراري والبحار.

في إحدى المقابلات، تعمدت أن أكون باهرة، يفغر الرجال أفواههم أمامها وتجحظ عيونهم، فيما تثور غيرة النساء وحسدهن. كنت قد نقعت نفسي ساعتين بالحليب الساخن.. أجل.. الاستحمام بالحليب، أعرفته، سميراميس؟ ربما. الملكات دائماً يعرفن ما لا تعرفه الأخريات.. فبدت بشرتي، حين خرجت، تشع بياضاً أنصع من بياض الحليب، وجنتاي

تتوهجان حمرة كحمرة الجمر.. لكن أيكفي هذا؟ لا.. لا.. كان ثمة مزين أيضاً وكان قد اعتاد المجيء إلي بدلاً من الذهاب إليه.. شعري، أظفار يدي، أصابع رجلي.. كل شيء هندمه كما لم يهندمه من قبل. كما ارتديت فستاناً من فستق أخضر مفتوحاً عن صدر واسع فسيح كملعب الخيل، يزينه عقد من ماس وزمرد، مثلما يزين الأذنين أقراط، اليدين أساور والصدر مشبك رائع الصنعة حتى بدوت وأنا أنظر في المرآة، لوحة رسمها أبرع الرسامين. ماذا؟ تعجبين كيف أتغزل بنفسي؟ لا تعجبي، كل امرأة بنفسها معجبة وكل امرأة بنفسها تتغزل.. أنت نفسك كنت كذلك، فحين قالت لك وصيفتك "ما أعجب ما تقولين يا مولاتي!! "قلت لها وبكل ثقة في النفس، أفهمت الآن سر قوتي وتأثيري في هؤلاء الجنود؟ "كنت تعرفين إذن أنك أنثى ساحرة ذات جاذبية آسرة وكنت معجبة بنفسك بل تربئين بها أن تكون لرجل فحسب فتريدين أن يكون طوع بنانك كل الرجال..

هكذا أردت في تلك المقابلة.. حيث يشاهدني الملايين.. إنه التلفاز يا سميتي.. هذه الآلة العجيبة الغريبة التي لم تكونوا تحلمون بها مجرد حلم.. تصوري نفسك وأنت جالسة في قصر شمشيداد، ملك آشور وبابل.. وسط العاصمة نينوى، تتكلمين فتنتقل صورتك وصوتك إلى بابل ليراك الراعي سيمو وأمك بالتبني وكأنك أمامهم.. أمر غريب أليس كذلك؟ هكذا كان حالي وأنا أدخل إلى استديو التصوير.. كان هنالك مقدم البرنامج وشريكي في المقابلة. كما كان هنالك فنيون، إداريون، مصورون وكلهم بانتظار قدومي، بانتظار الندوة عن كتابي العظيم "بلاد ما بين النهرين." كان شريكي في الندوة رجلاً في أواسط أربعيناته. شعر شاربيه سلق بلبن لكن شعر رأسه سلق خالص. عيناه كبيرتان واسعتان، يتلامع فيهما بريق عجيب لم أدركه أول الأمر.. هب الجميع لتحيتي، فتحوا أعينهم واسعة لطلتي البهية وزينتي السندسية.. فكل ما فيّ أخضر ممرع كعشب الربيع.. عيناي مرجتا ربيع، رآهما شريكي فتلمظ وتأوه.. ثم تنحنح وتأرجح.. أينظر إلي أم إلى عدسة التصوير؟ الأمر محير.. قوتا جاذبية تجذبانه، فإلى أيهما ينشد، هو برادة الحديد التي لا تملك إلا أن تنشد للمغناطيس؟

إنه كاتب ذائع الصيت، الخيل والليل والبيداء تعرفه، وكذلك السيف والرمح والقرطاس والقلم. منذ زمن كنت أرى اسمه في المجلات والجرائد، مقابلاته في الإذاعة والتلفاز، وبيني وبينك كنت أحلم أن ألتقي به ولو مصادفة عابرة، ثم هاهي ذي الظروف تضرب ضربتها فتجمعنا معاً في ندوة لمدة ساعة. غبطة لا توصف غمرتني. فالرجل مغر لا تملك المرأة حياله إلا أن تلقي أسلحتها، لكنني لم ألق أسلحتي..كنت بحاجة إليها كي أضمن

استسلامه، فرحت أسدد له السهم تلو السهم. يطرح مقدم البرنامج سؤالاً "فأجيبه بصوت لا أرق وأنوثة لا ألطف وغنج لا أشد..

كان هو هدفها كلها وليس جمهور المشاهدين. لقد نسيت لحظتها أن هناك أناساً في أرجاء الكون كله يروننا.. كان اهتمامي منصباً عليه وحده، وقد صار بالنسبة إلي العالم كله.. كبر، تضخم إلى أن ألغى كل من عداه، هو الواحد الأوحد، أول العصر وآخر الزمان. يبدأ الكلام فأتعلق بشفتيه ويا لشفتيه يا سميتي!! كانتا، وهو يتكلم، تقطران عسلاً.. وكنت أرشف ذلك العسل بتلذذ ما بعده تلذذ، فيما هو يتنقل بناظريه بين العدسة وبيني.. أنا مرجة الربيع السندسية، فلا يقر له قرار..

بدا وهو يتكلم أنه يعرف الكتاب أكثر مني.. "كم بذل من جهد إذن كي يقرأه؟" تساءلت في سري وأنا اسمعه يتكلم ثم ينتقل إلى مديح كاتبته.. "لو تعلم الحقيقة، أكنت تمدحها؟ "بعدئذ خطرت لي فكرة.. لو سألني مقدم البرنامج كما يسأله أكنت أعرف إجابته كما يجيبه؟: وكان جوابي بالنفي طبعاً. فكاتبة الكتاب ليست بكاتبته، بل لم تره إلا وهو جاهز تقدمه أطروحة؟.

كان مقدم البرنامج يسألني، يسأله، نجيبه، نتحاور.. وجهاً لوجه.. أنا أحاور ذلك الكاتب الناقد ذائع الصيت!! تصوري..ولم أدر كيف لجأت إلى المداورة، المناورة، لعب الكشتبان الذي اعتدت عليه في الجامعة لتسعفني تلافيفي الدماغية بإجابات بدت ذكية وحوارات رأيت الرضى في عينيه منها، فيما كنت أزداد لحظة بعد لحظة رغبة فيه واشتهاء له.. هو الذي كان في أوج تألقه، طاغي السحر.. حتى خيل إلي أن سحري كله لا يعدل ذرة واحدة من سحره.. بل خيل إلي أنني أفقد زمام أمري بين يديه، فلو أمرني بأي شيء للبيت أمره ضاربة عرض الحائط بكل المحظورات.

كنت أريد الوصول إليه، بأي شكل أريد الاستحواذ عليه.. هو الذي جسد لي فجأة رجال الأرض كلهم، لهفهم جميعاً بعقله، بجسده، آه يا لجسده ذاك الشهي وهو يصد سهامي ببراعة محارب عتيق راداً الصاع صاعين لتنهمر سهامه علي غزيرة فاتكة إلى درجة خيل إلي أنه لو لمس يدي لمساً لانطلقت شرارة كهربائية حرقتنا معاً، لو أخذني بين أحضانه لذبت شحماً على نار.. أجل أعترف لك يا سميتي.. أني وصلت إلى هذا الحد فاعتراني خوف.. لم يكن يصح أن أذوب أمام عدسة التلفاز.. ستكون فضيحة يطير لها عقل صاحب النبالة. "تماسكي يا بنت! اصمدي!! "هتفت في سري، ووجدتني أتماسك وأصمد.. ففي المعركة لا ينتصر إلا المتماسكون الصامدون.

شكرنا مقدم البرنامج على الندوة الجميلة المفيدة التي قدمناها ثم ودعنا إلى باب المبنى.. حيث الساحة تمتد واسعة وحيث سيارتي تقبع بانتظاري.. أراد أن يودعني هو الآخر فارتجفت عظامي. "سيفلت مني." "ألديك سيارة؟ أسرعت إلى سؤاله "سيارة؟ "رد ضاحكاً "من أين والكتابة لا تكاد تطعمنا خبزاً؟" "معقول؟ أنا أتصور الكتابة مهنة رابحة وبضاعة رائجة". "الكل يتصورون هكذا لكن الحقيقة شيء آخر.. الأدب والمال لا يلتقيان، كما قال أحد شعرائنا الظرفاء إلا عند ما يلتقي ضب الصحراء وحوت البحر، فهل تراهما يلتقيان؟ "لا.. صحيح.. لكن يحكون عن أدباء الفرنجة أنهم يكسبون الآلاف والملايين". أولئك أدباء الفرنجة.. أما نحن فمازالت مهنة الجزارة أو الحلاقة تدر مالاً أكثر بكثير من مهنة الأدب." "حسن، اسمح لي إذن أوصلك "قلت وأنا أمد يدي إلى مرفقه أمسكه بلا كلفة ثم أوجهه باتجاه السيارة. بطواعية سار، بطواعية فتح الباب، وبطواعية كاملة جلس إلى جانبي، أتراه كان مسحوراً بي أيضاً؟ فاقداً زمام أمره معي؟ لا أدري، ما أدريه أن قوة خارقة كقوة إعصار كاسح كانت تدفع بي لأن ألقي بنفسي بين أحضانه. لكنني كبحت نفسي "تماسكي يا بنت!! اصمدي." عدت آمر نفسي مرة ثانية لائذة بتميمة كبح الشهوات التي أمتلكها والتي لم تخذلني قط."

"لا تقدمي إلا بعد أن تتأكدي.. من غير اللائق بك أن ترتدي كسيرة حسيرة" وتماسكت من جديد وأنا أفكر بأفضل الطرق لفتح ذلك الصندوق المقفل الذي كان إلى جانبي.

"أعطاك الله العافية.. لقد بذلت جهداً كبيراً في دراسة الكتاب حتى خيل إلي أنك تعرفه أكثر مني. "قلت صادقة في قولي لا مدعية، لكنه أجاب معتذراً: "وهل معقل أن أعرفه أكثر منك أيتها الكاتبة العظيمة؟".

"كاتبة عظيمة؟ حقاً أستاذ مرهف؟" "لم لا؟ من يكتب مثل كتابك هذا، هو بالتأكيد كاتب عظيم." وبلعت ريقي عامدة إلى تغيير الموضوع. "المهم.. أريد أن أفيك بعض الدين الذي أدين لك به. هل تقبل دعوتي إلى العشاء؟" "أيصح؟ نحن من ندعوك لا أنت يا سيدتي؟" "سيدي، لا فرق.. هذا عصر المساواة، المرأة تدعو الرجل الرجل يدعو المرأة، المهم الدعوة ذاتها." "أين تريدين أن نذهب؟ "سأل فشددت همتي، استنفرت عزيمتي ثم قلت "في منزلي.. "وتوقفت لحظة أرصد رد فعله. ثم استأنفت ضاحكة "إنه أقرب وطعامه أطيب." "حسن "قال وهو ينظر إلي متفحصاً "نذهب إلى منزلك". في تلك اللحظة فقط، أعترف لك يا سميراميس، تنفست الصعداء، شعرت بجسدي كله يسترخي بعد توتر كان يشد كل ما فيه من أعصاب.. "صار في قبضة يدي" بدأت أفكاري تسرح "سألتهمه التهاماً... أفصفص عظامه فلا أبقي منه عظمة

واحدة." كان غيث قد قطعني منذ أشهر طويلة، إذ تزوج ثم شغله الزواج عني فلم يعد يأتي إلى مدينة البر كلها.. وكانت أحشائي تشتعل أواراً.. الأفاعي فيها تفح فحيحاً ولم يكن صاحب النبالة يسكت فحيحاً ولا يطفئ أواراً.

آسف دكتورة!! تأخذينني إلى حيث أجهل.. ليتك تخبرينني شيئاً عن نفسك". "أنا مطلّقة، "قلت وأنا أسوق السيارة بعين وأنظر إليه بالأخرى. تبسم في الحال ثم قال: مطلّقة؟ هذه أول مرة أسمع مثل هذه الكلمة، العادة تكون المرأة مطلَّقة." "ألم أقل لك؟ الآن عصر المساواة، لذا يمكن للمرأة أن تطلق زوجها كما يطلقها زوجها. الآن، أعيش مع بنتي ومدبرة منزلي.. بيتي هادئ يمكننا أن نتناول كأساً ونتحدث حديثاً هادئاً. "عظيم!! يسعدني أن في بلدنا امرأة بجرأتك، بفهمك، بثقافتك، .. قولي لي.. لماذا لست في جمعية الكتبة؟" "جمعية الكتبة؟ أوه!! الحقيقة لا أدري" "بل يجب أن تدري.. أنت كاتبة، والجمعية أشبه بنقابة تدافع عن أعضائها، تنظم عملهم، تقدم المساعدات لهم فانضمي إليها.. خير لك وأبقى".. "ربما هناك شروط لا تنطبق علي.. روتين لا أطيقه. "بدأت لكنه لم يدعني أكمل.. "لا.. لا شروط ولا روتين.. فقط أعطيني نسختين من كتابيك اللذين صدرا وعلي أنا البقية." "في المنزل أعطيك إياهما "وبدا وجهه أكثر إشراقاً، كأنما بعرضه ذاك وجد الجسر الذي يربط بيننا، والعذر الذي يبرر ذهابه إلى المنزل.

كنت أعلم أنه متزوج وأن له أولاداً، لكنني كنت أعلم أيضاً أنه ككل الرجال سهل القياد، سريع الانزلاق، كثيراً ما يحب الانفلات من طوق الزوجية وخناقها. "أنت سعيد في حياتك الزوجية؟ "سألته على حين غرة فتبسم "ما رأيك؟ "الرجال كلهم يقولون إنهم غير سعداء، يعانون مر المعاناة من زوجاتهم". "أتعلمين لماذا؟ "هززت رأسي نفياً وأنا أتمتم "لا"، "لكي يبرروا رغبتهم في امرأة أخرى أو عشقهم لفتاة صغيرة.." "وأنت؟ مثلهم؟" "لا.. أنا بالعكس أؤكد لك أنني سعيد في حياتي، أحب زوجتي ولا أرغب عنها بديلاً".

صدمني رده شر صدمة، أعترف ذلك يا سميراميس، فالرجال كما قال وكما عرفت، يعزفون دائماً على ذلك الوتر: امرأتي قبيحة، هي غبية، سمينة، كريهة.. إلى أخر الصفات التي يمكن أن تلصق بامرأة كي يسوغوا لأنفسهم أن يعشقوا الجميلة أو الذكية أو الرشيقة التي تكون عليها المرأة الأخرى. مع ذلك، ورغم صدمتي، أعجبت بصدقه وجرأته.. "أنت رجل مختلف.. حقاً أنت مختلف "وشعرت بأحشائي كلها تشتد توقاً للتوحد مع ذلك الرجل المختلف.

نزلنا من السيارة، صعدنا إلى منزلي والحي كله ساكن لا يعكر صفوه شيء. كنت في عجلة من أمري، يداي، رجلاي، قلبي يخفق خفقات أسرع، خيالي يقفز إلى الأمام قفزات كنغارو لأراه على السرير عارياً متألقاً كشمس متوهجة تحرق كل ما في داخلي من صقيع، تؤجج كل ما فيه من وقود..

لكن ما إن دخلت المنزل وأجلسته في غرفة الاستقبال حتى جاءت مدبرة المنزل تناديني على وجل "سيدتي.. سيدتي!" خرجت إليها وكلي استغراب. كانت الساعة العاشرة ونيف والمفروض أنها نائمة أو لا تريني وجهها إن كانت مستيقظة، فما الذي دهاها؟ "ماذا هناك؟" سألتها فاقتربت مني هامسة "صاحب النبالة اتصل!! يريدك أن تذهبي إليه في الحال!!" "حسن.. اذهبي أنت.. اذهبي.. الآن." قلت وأنا أنقبض شراً وخيفة.. "ما الذي يريده؟ ولماذا في الحال؟" رحت أتساءل وأنا متسمرة في مكاني.. "يريدني أن أذهب إليه؟ والآن؟ لكن كيف وحصاني الأصيل هذا، ماذا أفعل به؟ أعافه وأذهب إلى ذلك التيس العجوز؟ أنا أضج شهوة.. أحترق ناراً.. فكيف أترك النبع المتدفق الرقراق إلى "صنع" الصخرة المليء بالديدان؟ لا. اذهب عني يا صاحب النبالة. أنا الآن بحاجة لذراعين تهصرانني، لجسد قوي يدعكني يمعكني حتى الاستنزاف.. يسقيني حتى الارتواء.. فامض عني. بكنوز الأرض كلها لا أبيع هذه الليلة.."

وأسرعت إلى مدبرة المنزل آمرها بإعداد المائدة، إلى الهاتف أقطعه، ثم إلى الشراب أصب كأسين وأعود بهما إليه، نرفع معاً نخب ليلة بدا هو نفسه يريدها حمراء..

الواحدة ظهراً أفقت، تثاءبت، تمطيت وأنا أمد يدي إلى هذا الجانب ثم ذاك وكأنني أبحث عن شيء. لكن فجأة كففت عن البحث وأنا أتذكر أنه مع طلوع الفجر ذهب حين يذهب الرجال عادة إلى المساجد يصلون.. لن يشك فيه أحد. حركة الرجال تبدأ في ذلك الحين، وعين النهار لا تستطيع الإبصار بعد.. الحقيقة هو كان يرغب في النوم والاسترخاء بعد كل ما بذله من جهد طوال ليلتنا الحمراء تلك، بل أنا نفسي كنت أرغب في أن ينام إلى جانبي نغرق معاً في بحر سعادتنا الدفيء، لكن حرصي القديم لم يكن يسمح لي بمثل هذه النعمة. كنت مع غيث هكذا فلم لا أكون كذلك مع مرهف؟

كان كل ما في جسدي مرتوياً مسترخياً، يفكك الكسل مفاصله فلا يقوى على الحركة.. أهكذا الأفعى بعد أن تلتهم وجبة كبيرة؟ ربما، فجسدي، رغم كل ما أرسلته إليه من دوافع حث وتحريض، ظل متكاسلاً.. لا يريد النهوض.. رننت الجرس فجاءت المدبرة "صباح الخير، سيدتي "بادرتني متلهفة متعجلة. "سائق صاحب النبالة جاء يسأل عنك". وشعرت

بمناخس تنخسني دافعة بي إلى النهوض. "سائق صاحب النبالة؟ وماذا قلت له؟" "قلت له نائمة، لا أستطيع إيقاظها" "حسن.. أسرعي.. هاتي القهوة.. حالاً". "كنت أشعر أنني بحاجة ماسة لشيء ينبه دماغي، يدفعه إلى التحرك والعمل. "إذن.. لابد هناك من طارئ.. وإلا ما كان ليرسل سائقه.. لكن.. ما تراه.. ذلك الطارئ؟ ليلة الأمس ألح في طلبي.. اليوم يرسل سائقه.. إذن ليست المسألة مسألة رؤيتي، أو الرغبة في لقائي.. لابد أن وراء الأكمة ما وراءها." شربت القهوة وأنا أفكر.. ثم ما إن شعرت بها تصل إلى رأسي تنبها ويقظة حتى أسرعت إلى الحمام أستحم فإلى الهاتف أصله وأرفع السماعة.. قبل أن أدق الرقم كان هو على الخط "أين أنت، حبيبتي؟ "بادرني فأجفلت "كيف طلع لي وأنا لم أدق الرقم؟ "ثم جاءني جوابه دون أن يسمع سؤالي. "منذ الصباح وأنا أتصل، لم لا تردين؟" "كنت نائمة ولم أرد أن يزعجني الهاتف!." ألم تقل لك المدبرة إنني أريدك؟" ..بلى.. لكنني عدت مصابة بصداع شديد جعلني غير قادرة على رفع رأسي ولا أهلاً للقاء بك" "صداع. لم؟" "لا أدري.. تلك المقابلة التلفازية جعلتني أتوتر أعصاباً إلى حد الصداع.. لم أكن أعلم أن الأضواء والعدسات من حولك تحفز الأعصاب إلى هذه الدرجة.. تصيب المرء بالرهبة والخوف.. أنت تعلم، هذه أول مرة أظهر فيها على التلفاز.. فتوترت أعصابي وأصابني توتر شديد" "اللعنة على التلفاز وعلى المقابلات التلفازية!! "ضحكت وأنا أسمعه يلعن ظناً مني أن نقمته على التلفاز لأنه أصابني بالصداع، لكن ما إن تابع كلامه حتى دهشت. "مصيبة جرت علينا مقابلتك هذه!!" "ماذا تقول؟ أية مصيبة؟" "تعالي أشرح لك.. تعالي بسرعة.. لابد من أن أراك".

مضيت إليه وقد صرت على يقين أن وراء الأكمة شراً مستطيراً.

"هه.. قل لي، ماذا هناك؟ "سألته لاهثة ملهوفة وأنا أدخل مكتبه ليأخذني بين ذراعيه مقبلاً "زوجتي!!" مالها زوجتك؟" "رأتك في المقابلة واتصلت بي يهدر صوتها هدراً: هذه هي عشيقتك إذن؟ ذات عيون خضر.. شقراء بيضاء. رشيقة هيفاء.. قسماً عظماً لأفضحنك.. لأنشرن عرضك في كل مكان.. لأنتقمن منك بها.. لأحرقن وجهها بماء النار." وتلمست وجهي في الحال وأنا أرتعش من رأسي إلى أخمص قدمي. "تحرق وجهي بالنار؟ معقول؟" "هذه مجنونة.. كل شيء لديها معقول.. مرة سمعت أن لي علاقة مع سكرتيرتي فجاءت إلى هنا، صوتها يلعلع كقنابل عنقودية تتفجر.. أمسكت بها من شعرها وراحت تجرجرها على الأرض، ترفسها بكعب حذائها إلى أن أدمتها ولم يخلصوها منها إلا بشق النفس". "يا لطيف!! ما هذه؟ عفريتة؟ غولة؟" "أبشع.. وأفظع.. إذن لم أنا لا أطيقها؟ لم أريد الزواج منك؟ أعرفت السر؟ امرأة لا تطاق.. تصدقين؟ الغرفة التي تنام فيها لا أستطيع الاقتراب منها.. شخيرها كطبل مدو يصل

إلى أقصى مكان.. أنا أكرهها.. وأخشى عليك منها.. "كنت أعلم من قبل أنه يكرهها.. وأنها بعد ذلك الزمن الطويل من الزواج لم تعد تثير فيه أدنى رغبة.. لكن خشيته هذه جديدة، وهي التي جعلته يلح لرؤيتي" لا.. لا تخف.. "قلت وقد استيقظت في رغبة شديدة بالتحدي. "إن هي إلا جعجعة ما وراءها طحن." "لا.. مخطئة أنت لا تعرفينها.. امرأتي وأنا أعرفها.. هي تهدد وتنفذ في الحال.. مجنونة لا كابح لديها ولا عقل".

"لكن كيف عرفت بالأمر؟ ما الذي جعلها فجأة توجه اتهاماتها وتهديداتها؟"

"هي منذ زمن طويل تشك.. لكن لم يكن لديها أي يقين.. بالأمس وحين رأتك على التلفزيون صار لديها يقين.. لابد أنها كانت تسأل، تفتش خلال تلك الفترة الطويلة... لا أدري.. إن كانت إحداهن من النادي قد همست في أذنها شيئاً.. يا إلهي، هؤلاء النسوة كم يثرثرن!! "وأطرقت أستعرض شريطاً طويلاً بدت علاقتنا فيه سرية كتيمة تسير وفق قواعد من الحذر والضبط لا ثغرة ولا عيب.. لكن الحذر يتراخى.. شيئاً فشيئاً يبدأ بالضعف، فيغض المرء النظر عن هذا الأمر ثم ذاك، ليغدو ما لم يكن يقربه المرء في السابق يقربه في اللاحق، وما كان غير مسموح يصبح مسموحاً.. إلى حد جعلني أشعر أن يونس نفسه بدأ يخرق القواعد التي وضعها فيرسل باقات الزهر إلي ويحضر بنفسه مناقشتي للدكتوراه، يطبع كتابي.. فكيف لا يثير ذلك الشكوك والتساؤلات؟ لم لا يجعل الدخان يتصاعد وهناك نار؟.

في النادي، مذ صرت مسؤولة الثقافة، بدأت النسوة يتحدثن.. دائرة صغيرة بدأت ثم راحت تتسع دوائر كماء ألقي فيه حجر.. فما أدراني أن تلك الدوائر لم تصل إلى زوجته؟ بل الحقيقة، كانت الآذنة قد همست في أذني ذات يوم أن ابن صاحب نبالة كبير لا تعرف من هو جاء إلى النادي يسأل عني، يتسقط أخباري، ولم أعر كلام الآذنة اهتماماً.. يومذاك قلت، ربما هو معجب، ربما يريد علاقة، ثم نسيت الأمر.. خاصة وأنه لم يظهر بعد ذلك.. في الهاتف كانت تأتيني بعض المشاكسات.. شبان يغازلونني، يسألونني إن كنت فارغة أم ملآنة؟ ومن الذي يملؤني؟ ولم أكن أعيرها اهتماماً أيضاً. لكن هاهوذا الأمر يبدو جداً.. مؤكداً أنني كنت على خطأ، إذ كان علي أن أعيره اهتماماً وأن أكون أكثر حذراً..

"حسن.. ماذا تريدنا أن نفعل؟ يبتعد واحدنا عن الآخر؟ نقطع العلاقة؟" "نقطع العلاقة؟" رد منتفضاً في الحال "ما هذا الذي تقولين؟ طبعاً.. لا.. أنا لا أستطيع الاستغناء عنك.. لا أستطيع العيش بغيرك.. فقولي أنت ماذا تريدين؟ اطلبي أنت وتمني".. في تلك اللحظة، يا سميتي، تذكرت أسطورتك التي تقول: (وتهامس الناس بأن الملك نينوس، عشق سميراميس إلى درجة

الهيام.. بل بلغ به هيامه أنه لم يكن يذهب إلى مكان إلا ويأخذها معه.. لا يحضر احتفالاً إلا وهـي معـه، لا يـذهب إلى بلـد مـن البلـدان التابعـة لـه إلا وهـي إلى جانبـه، حتـى صـار الغـادي والصادي يقول إن الملك متيم بحبها لا يستطيع فراقها أبداً ولا يتحمل بعدها ليلة واحدة. في إحدى الليالي، وكي يثبت لها حبه الشديد وهيامه طلب إليها أن تتمنى عليه ما تشاء، فطلبت أن يتخلى لها عن سلطته خمسة أيام.. وبلا تردد لبى طلبها، مجلساً إياها على كرسي العرش، ملبساً إياها خاتم الملك.. فرحت سميراميس بذلك ودعت الأعيان والقادة في اليوم التالي كي يروها ملكة متوجة تأمر وتنهى، والملك نينوس بجانبها يأتمر بأمرها وينتهي بنهيها، تابعاً مطيعاً لها.. وهكذا اليوم الثاني والثالث، وكلاهما فرح بما صار عليه.. سميراميس ملكة آشور وبابل، ونينوس متيم عاشق لها لا يريد من الدنيا سوى رضاها وأن يظل العاشق المتيم بها.. لكن خامس يوم وقبل أن ينتهي الأمد المحدد لإعادة نينوس إلى مملكته بساعات، انتفضت سميراميس وقد مر بها طيف ما يسخر منها، من تاجها، عرشها، خاتمها، وكلها ستعود إلى الملك قريباً جداً لتنتهي أكذوبتها الخادعة، فأرغت سميراميس وأزبدت مقسمة أن تحول الأكذوبة إلى حقيقة. وفي الحال أرسلت الجند إلى نينوس يكبلونه بالحديد ثم يضعونه على النطع ويهوي الجلاد بالسيف على رأسه.. وتنادي بنفسها ملكة مكانه..).

"هه.. قولي أنت ماذا تريدين؟ "نبهني صوته وهو يسألني من جديد.. قلت في سري، " طالما أن هناك تماهياً بيني وبينك يا جدتي العظيمة، إذن لابد من أن أطلب منه أقصى ما يستطيع إعطاءه.. ألم تطلبي أنت العرش!؟ إذن لأطلب أنا العرش".. وعرش صاحب النبالة هو سدة الزوجية إن بلغتها كنت كأنني قد تربعت على العرش، فقلت وكلي تحدٍ للزوجة التي تهدد وتتوعد "نتزوج" "هذا حلمي!! بل هذا ما أردته منذ زمن طويل" "لا.. أنت أردته زواجاً عرفياً سرياً.. وأنا نكاية بتلك التي تشخر ليلاً وتزعجك نهاراً وليلاً أريده جهاراً نهاراً لا نخشى فيه أحداً ولا نبالي بأحد." "وهو كذلك. "قال بنبرة التحدي ذاتها، كأنما اجتاز حاجز الخوف وخلع إزار الحذر والكتمان.. "حقاً؟ نتزوج علناً؟ نقيم عرساً طناناً رناناً؟ "سألته وأنا أتصور نفسي مثلك على عرش مملكة آشور، عروساً على عرش عرسها في أرقى فنادق المدينة تتلألأ ذهباً وماساً وتحف بها الجواري والإماء!! آه!! ما أجمل أن تجلس المرأة على العرش، تغرق في بحار الذهب والماس، عيون الكل ينظرون إليها بأعين الإعجاب والغيرة!!.

"أجل، نتزوج، ، نعلن ذلك على رؤوس الأشهاد، فقط دعيني أرتب الأمور.." "حسن، رتب كما تشاء. فقط لنتزوج فتعلم تلك المرأة أنها أتفه من أن نعيرها اهتماماً."

"الله!! كم تعجبني شجاعتك!! حبك للتحدي!! بل قولي هذا ما يزيدني حباً لك وتعلقاً بك." "وأنا أزداد شجاعة بك، حباً للتحدي!! فليعلم الناس جميعاً أنك تحبني.. أنك تتوجني وحدي ملكة على قلبك ثم نطير معاً بأجنحة الحب سكارى كفراشتي ربيع إلى حيث لا يعكر صفونا أحد".. ووجدته فجأة يقفز من مكانه فرحاً" .. أجل.. وجدتها.. وجدتها.. "راح يهتف مثل ديوجينوس وهو خارج من الحمام، "ما هذه التي وجدتها؟" "فكرة رائعة ستطيرين فرحاً لها" "قل.. ما تلك الفكرة الرائعة؟" "اسمعي" اقترب مني مبتهجاً هامساً "بعد أسبوعين، لدي جولة في بلاد الاغتراب، جولة طويلة.. نذهب فيها معاً وهناك نعلن زواجنا ونمضي شهر عسلنا، فإذا عدنا.. صار ذلك أمراً واقعاً.."

"عظيم.. هي حقاً فكرة رائعة.." "إذن.. اتفقنا سأبدأ باتخاذ الإجراءات كي نسافر معاً".. "وأنا أبصم لك.. بأصابعي العشر أبصم لك".. لقد أغرتني فكرة الطيران بعيداً بأجنحة الحب سكارى كفراش الربيع نفرش الأرض تحتنا بالأزاهير ونشدو للدنيا كلها أعذب الأناشيد.. أجل.. بذلك وحده سأكون مثلك، الملكة المتوجة في إصبعها خاتم الملك وعلى رأسها التاج وبيدها الصولجان، فماذا هنالك أروع من ذلك؟ "حسن "قطع علي يونس شرودي متابعاً "فقط أريد خلال هذه الفترة أن تحدي من نشاطك ما أمكن، أن تبتعدي عن الأضواء، فهي ولاشك، ستحاول أن تفعل شيئاً، كوني على حذر شديد وابتعدي ما استطعت عن طريقها".. "أمرك مطاع وسيفك قطاع يا سيدي".

قلت وأنا أتخذ وضعية الاستعداد، جندياً صغيراً أمام ضابط كبير.

"أعطيني هويتك وثلاث صور وجواز سفرك" "هي ليست معي ..سأرسلها لك مع السائق غداً" "إلى اللقاء" "إلى اللقاء" قلنا ونحن نتبادل قبلة سريعة..

في اللحظة ذاتها فتح الباب لأجد نفسي وجهاً لوجه أمام شاب ربعة القامة نحيل، في وجهه نمش كثير.. ويشبه إلى حد كبير صاحب النبالة يونس.. تجمدت لحظة مكاني محملقة في الوجه الذي خيل إلي أنه صورة الفتى لهذا الكهل الذي تبادلت معه قبلة سريعة قبل لحظة.. أسرع يونس مشيراً إليه: ابني عاشور.. ادخل بني.. ادخل.. "تابع، كأنما ليس هناك شيء. فيما استأنف كلامه إلي.. اطمئني يا سيدتي.. حقك سنعيده إليك.. في بلدنا هنا لا نسمح بالظلم، بأن يتعدى أحد على أحد.. اطمئني.. سنقتص لك منه.. مع السلامة.. مع السلامة".. قال ويده تربت كتفي شبه دافعة إياي باتجاه الباب.

خرجت تلاحقني نظرات ذلك الفتى أنمش الوجه.. كانت نظرات غريبة فيها الدهشة والمفاجآة لكن خلف هاتين، كان ثمة مزيج قاتم اللون من الحقد، الكراهية، الانتقام، رحت أستعيدها واحدة واحدة، مفككة ذلك المزيج، محاولة التوصل إلى أسبابه ودواعيه..

إن كانت أمه تعرف بعلاقتي بأبيه، أيعرف هو؟ إن كانت هي تحقد علي وتريد الانتقام مني، أيكون مثلها هو؟ أسئلة كثيرة راحت تطرق بابي وأنا في الطريق، في المنزل، أمام التلفاز، على الهاتف، وكلها تريد جواباً..

الجواب لديه... وحده صاحب النبالة يمكنه إعطائي الجواب.. "هه.. ماذا كان تعليقه. ما الذي قاله عني؟ "سألته وقد سكن الليل وهدأ خفقان قلبي.. "لا.. لم يقل شيئاً.. لم يعلق.. "رد بشيء من تلعثم وارتباك جعلني أشك في صدقه.. "لكن لا أخفيك.. نظراته لم تعجبني.. جعلتني أتوجس منه شراً.. أتراه يعرف شيئاً.؟ "من جهة يعرف.. هو يعرف كل ما تعرفه أمه.. بل ربما أكثر، لأنه أداتها الطيعة للبحث عما تريد أن تعرف، للتجسس علي.. وفهمك كافٍ.. لكن لا تخافي.. هذا لن يغير شيئاً من مخططاتنا.. جواز سفرك سيكون جاهزاً غداً.. اطمئني.. بطاقتك ستصلك مع جواز السفر.. وهناك في أقصى الأرض سنمضي شهر عسل لن يستطيع أن يعكره علينا أحد.

"حسن.. ولأجعلنّه لك أحلى شهر عسل عرفه بشر." "فقط نفذي التعليمات هذه الفترة.." "لا عليك.. حبيبتك أخت رجال.. فلا تخف عليها.." "لن نرى بعضنا هذه الفترة.. نكتفي بالاتصال فقط.. لا تستقبلي زواراً في منزلك.. بل لا تفتحي الباب لأحد.. أقصى احتياطات الأمن اتخذي وأشد إجراءات الحذر.." راح يسكب علي تعليماته سكباً يوضح جيداً كم هو خائف في الصميم..

أنا نفسي كنت خائفة، أعترف لك سميراميس، فالانتقام وحش فاتك لا يدري أحد ماذا يفعل إن أفلت من عقاله.. وامرأته، كما قال هو نفسه وحش انتقام، شيطان شر، فما الذي لا يفعله شيطان الشر؟ نظرات الفتى، ذلك المزيج قاتم اللون في عينيه، هو ما زادني خوفاً، فأعطيت التعليمات لمدبرة المنزل أن لا تفتح الباب لأحد، ولا ترد على هاتف إن كنت غائبة. الجامعة، قررت ألا ألقي فيها محاضرات تلك الفترة، فمن يدري؟ قد يستغلون وجودي فوق المنصة ويلقون على وجهي ماء النار.. إذن، لابد من الحذر الشديد.. يا للهول!! ماء نار.. يحرقني؟ يشوه وجهي؟ أي شيء أفظع من ماء النار؟ في مكتبي أغلقت الباب آمرة الآذنة بأن لا تدخل إلي أحداً إلا بعد التأكد من هويته وإعلامي مسبقاً، فيما رحت أستعيد معها معلوماتها عن ابن صاحب النبالة الكبير ذاك الذي جاء يسأل عني طالباً معلومات تتعلق بي.. وصفت لي إياه

فأيقنت أنه هو.. عاشور بشحمه ولحمه جاء يسأل عني.. إذن.. هم منذ فترة يشكون ويسألون ويدققون.. "حذار سميرة!! ثمة خطر يتهددك فتيقظي".

ولأنني كنت متيقظة حذرة اعتذرت من مرهف، صديقي الجديد، حين اتصل يطلب رؤيتي لأمر هام.. "ما الأمر الهام؟ "سألت وكل ظني أنه اشتاق إلي فقط وأنه يريد أن نعاود سيرتنا الأولى في تلك الليلة الحمراء. "من أجل انتسابك إلى جمعية الكتبة. ثمة إجراءات لابد من أن تتخذيها." قال، فيما كنت أشهق تعجباً، أنا التي نسيت المسألة برمتها. "جمعية الكتبة!! عدت أهتف وراءه، "ألم تنه المسألة إذن!" "لم تنته.. الظاهر هناك صعوبات لابد من تذليلها." "لكنك تعهدت بتذليلها.. هل تراجعت عن تعهدك؟ "قلت ممازحة وكلي رغبة في تخفيف الشحنة التي بدت تطغى على جو مكالمتنا.. "لا.. معاذ الله.. أنا لا أتراجع.. لكن ثمة بعض العراقيل والعقبات لابد من تجاوزها أو استغرقت سنة أو سنتين، بعض الإجراءات التي لابد من أن تقومي بها بنفسك،" فقلت "مثلاً؟" قال "نلتقي أشرحها لك.. ثم أنا مشتاق إليك".. "وأنا.. لكن ظروفي هذه الأيام لا تسمح.. أنا مشغولة كثيراً.. التزامات وارتباطات.. اسمح لي الآن.. أما بالنسبة إلى الجمعية.. فلا عليك دع الأمر لي.. أنا أنهيه." "حسن الطلب والكتب عندهم." "شكراً لك، اترك الباقي علي. "قلت بنوع من الجفاء تعمدته لإبعاده تلك الفترة التي ينبغي فيها الحذر والحيطة.

في المساء اتصلت بصاحب النبالة.. أخبرته عن قضية الانتساب إلى الجمعية.. مع شيء من التحريف، إذ كنت أخشى أن أحدثه عن مرهف فتثور لديه الشكوك والظنون.. زعمت أنني أخذت الطلب بنفسي لكنهم وضعوا العراقيل في وجهي إلى حد الإحباط.. "فهل تستطيع مساعدتي؟" .. "طبعاً أنا الذي يستطيع".. قال ثم تابع بعتب "لكن كيف يخطر ببالك أمر كهذا ولا تخبرينني به؟ "قلت لا أريد إزعاجك..حسبك ما لديك من مشاغل وإزعاجات".. "سامحك الله!! هذه خطيئة.. أرجو ألا تتكرر مرة ثانية" "لن تتكرر "قلت مازحة "خاصة وقد علمت أنه ما من شأن لي يمشي لولاك أنت، دون تدخلك لا أستطيع أن أسير خطوة واحدة!!" "الحمد لله عرفت واعترفت، فارتاحي وأريحيني.. أي شيء تريدينه قولي لي فقط.. تجديني شبيك لبيك يونس بين يديك" "ليحفظك الله لي.. فهل أعتبر الأمر منتهياً!" "طبعاً.. الساعة أكلم لك رئيس الجمعية وغداً تكونين قد صرت عضواً مثل كل الأعضاء، لك حقوقهم كلها وعليك واجباتهم كافة." "لا أنا أريد حقوقاً بغير واجبات.. "قلت ضاحكة .. "ولك ما تريدين.. حقوق بلا واجبات "رد ضاحكاً ضحكته المكتومة المتقطعة "بعد غد فقط، مري على الجمعية وتأكدي بنفسك"..

بعد يومين انسللت من المنزل انسلالاً كي أتأكد بنفسي كما قال.. وكم كانت فرحتي عظيمة حين وجدت طلب انتسابي قد قبل وبطاقة باسمي قد أعدت تثبت أني كاتبة أباً عن جد.. لها ما للكتبة جميعاً من حقوق.. كدت أرقص فرحاً، لكن الاحترام الذي قابلتني به موظفة الجمعية، واللقب الطنان الرنان الذي كانت تناديني به بتفخيم لم أعهده من قبل، كبحا جماحي، جعلاني أعبس قليلاً ادعاء للمهابة والعظمة.. "إيه مرهف!! لو ترى ما حدث بعدك.. إجراءات، عراقيل.. عقبات.. أين هذا الذي تحدثت عنه كله؟ بهاتف واحد قضي الأمر مرهف.. فكم أنت مسكين!! الجمعية فتحت أبوابها كلها لي، الموظفون، الموظفات، بل حتى الرئيس حنى رأسه لي وقد دخلت إليه أسلم عليه وأتعرف إليه.. انظر إليه مرهف وهو ينحني أمامي المرة تلو المرة راجياً مني أن أجلس، فرحاً بي زميلة جديدة في جمعيته، وجهها سيكون يمناً وبركة على الجمعية؟؟ لم يقل شيئاً عن العراقيل، الإجراءات.. لم يأت على ذكر الهاتف الذي جاءه من صاحب النبالة.. هو فقط هلل ورحب مؤكداً أنه قرأ كتابي الاثنين وأنه معجب بما فيهما من معلومات عظيمة ومعطيات قيمة."

كان يحكي وأنا أفتح عيني استغراباً.. رئيس الجمعية يكذب؟ متى يا ترى قرأ الكتابين؟ بل متى رآهما مجرد رؤية.. وقد حفظا مع الطلب، كما قلت لي مرهف لدى الموظفة المسؤولة؟.

الناس كلهم يكذبون دون حياء.. يزعمون أنهم يطبقون القانون ويحترمون النظام. هم الذين لا يعرفون قانوناً ولا يحترمون نظاماً.

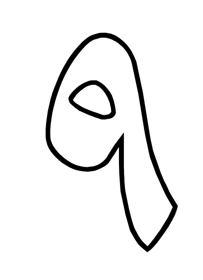
خطر ببالي، وأنا أعود إلى المنزل، أن أتصل بمرهف أخبره عن الإجراءات التي قد تستغرق سنتين قبل أن أنتسب إلى الجمعية، لكنني عزفت عن ذلك، فالاتصال سيفتح علي باباً أريده أن يظل مغلقاً.

كان زواجي القادم من صاحب النبالة يشغل بالي وكان الخوف من نشوب معركة مع عائلته هو أخشى ما أخشاه.. لم أعد مترددة كما كنت في السابق تتجاذبني قوتان: الإقدام - الإحجام. إغراءات الزواج من صاحب النبالة والخوف من القيود والحدود التي ستتبع ذلك الزواج. كانت مجمل الظروف قد جعلتني أقتنع أن خلاصي الوحيد هو بزواجي من يونس: سيسكت عاصم الذي بات أكثر عدائية لي وأكثر مشاكسة كلما التقينا، كما أسد أفواه النسوة اللواتي بتن يغمزن ويلمزن في النادي وأرسخ قدمي أكثر فأكثر في عالم السيطرة والجاه..

بطيئة مرت أيام تلك الأسبوعين.. إيقاف نشاطاتي، تجميد حركتي، عدم خروجي أو دخولي إلا لماماً، كل ذلك زاد من بطء إيقاع الزمن، بل ربما أوقف أحياناً عقارب الساعة،

جعلني كلي انتظاراً و ترقباً، ثم ما إن اتصل بي يعطيني التعليمات النهائية للتحرك، حتى رحت أرقص فرحاً في غرفتي وحيدة، أهزج وأغني.. العرش الذي أريد التربع عليه بات في متناول اليد، تفاحة على غصن أمام عينك لا تحتاج إلا أن تمدي يدك وتقطفيها..

مددت يدي كي أقطفها، يا جدتي العظيمة، لكن واأسفاه!! تمكرين ويمكر الآخرون، فيأتي مكرهم أشد وكيدهم أعظم!! أجل.. هذا ما حدث لي يا سميراميس: ذهب مكري هباء، إذ ما إن وصلت إلى المطار بمتاعي وحقائبي، حتى رأيته.. أوه يا للهول!! عاشور نفسه، بجسمه العتل ووجهه الأنمش يقترب مني، خلفه عتلان آخران، كلاهما يحمل زجاجة في يده، وفي عيونهم جميعاً شيء يقدح.. السائق الذي كان يسير خلفي خاف، ترك الحقائب وراح يتراجع. أنا وحيدة.. صاحب النبالة وصل إلى المطار ولا شك. ربما هو في قاعة الشرف حيث يذهب إلى الطائرة مباشرة. أما أنا، التي ينبغي ألا يشعر باصطحابه لي أحد، فعلي أن أعبر الطريق الذي يعبره المسافرون جميعاً.. الجمارك، الأمن، ثم الحافلة التي تقل إلى الطائرة.. السائق سيقوم بكل تلك الإجراءات، لكن ها هو السائق يرى ابن معلمه فيهرب.. وأظل وجهاً لوجه معه.. المرافقان خلفه بيديهما زجاجتان من ماء النار، وهو ربما يحمل مسدساً أو قنبلة.. هو حاقد ناقم، عيناه تقدحان شرراً فما تراني أفعل؟ "عاشور!! ماذا هناك؟ "قلت وأنا أشد آخر وتر من تماسك لدي.. "ماذا هناك؟ تتجاهلين؟" رد وهو يكز على أسنانه حتى سمعت صريفها.. "لكن لا.. لن أسمح لك بأن تلعبي بأبي.. لن أسمح لك أن تخطفيه منا.. ذاهبة معه لتقضيا شهر عسل هناك؟ لتتزوجا هناك؟ لا.. اللعبة انتهت وهذا لن يحدث أبداً.. فماذا ترين؟ تعودين أدراجك وتقطعين كل علاقة لك به أم تتلقين ما في هاتين الزجاجتين من سائل لطيف ظريف؟" سأل وهو يشير إلى الزجاجتين اللتين رأيتهما تفتحان ثم ترفعان عالياً "لا.. أعود.. أقطع علاقتي به" "قلت وأنا أرتعد، مصابة بالبرداء.. فالنار التي في الزجاجتين كانت تتراقص أمام عيني لهباً أصفر أزرق، ووجهي يتبدى لي حفراً وتشوهات.. "إذن عودي قبل أن أجعلك عبرة لنساء الأرض جميعاً. أولئك اللواتي يخطفن الرجال.. اختفي عن وجه الأرض.. لا أريد رؤية وجهك في أي مكان.. أتسمعين؟ هيا.. "صرخ ملء صوته فيما كان الناس يتجمعون حولنا وهم لا يعرفون ما يجري.. كانوا هم الثلاثة ما زالوا يتقدمون باتجاهي فلم أر نفسي إلا وأنا أتراجع القهقرى، عيناي على الزجاجتين وأنا أتراجع القهقرى.. أنفتل على عقبي ثم أطلق ساقي للريح..



(بعد أن أمرت سميراميس بحبس الملك نينوس ثم قتله وأعلنت نفسها ملكة لآشور وبابل، راحت تتوجس شراً وريبة من بكر أبنائه، آشور ناصر بال، الذي كان قد ولاه إدارة بعض الأقاليم النائية عن بابل. كانت تريد حصر ولاية العرش بابنها نيناس، ولكي تفعل ذلك كان لابد من التخلص من آشور ناصر بال، وبدهاء لم يسبق له مثيل أشاعت خبراً في الولايات كلها بأن الملك نينوس عزل ابنه البكر من ولاية العهد قبل موته لأن آشورناصربال يعيث فساداً في مقاطعاته، وأنه لولا موته كان ينوي تجهيز حملة لمقاتلته، ثم راحت سميراميس، وقد اتشحت بالسواد، تندب زوجها ملك آشور، وتجمع شتات الكلدانيين تذكرهم بأصلها، فهي منهم وإليهم.

فسجد لها كل نفر تجري في عروقه تلك الدماء مقسمين لها أن يتولوا هم مهمة التخلص من عدوها آشور ناصر بال، ولقد فعلوا ذلك إذ أطبقوا على ولي العهد يسلمونه لجلالتها أسيراً لتزج به في السجن حتى فنائه..).

هكذا تقول أسطورتك، يا جدتي الكبرى، وجدت الأناس الذين يخلصونك من آشور ناصر بال، الخطر الوحيد الذي كان يهددك، لكن من تراه يخلصني من آشوري أنا، ابن صاحب النبالة الذي جاء يهددني بالموت؟ زجاجتان من ماء النار كانتا في يدي تابعيه، وهو يتقدم نحوي يريدني أن أعود أدراجي فلا أسافر مع أبيه، بل أن أقطع علاقتي به، أختفي عن وجه الأرض، فماذا أفعل؟ أقف في وجهه؟ أقول لا، لن أتخلى عن أبيك؟ سأسافر معه رغماً عن أنفك؟ لا، المواجهة مستحيلة، التحدي يعني الموت. أنا عزلاء، سيفي ورمحي هناك في المطار، لن يعرف ما حل بي إلا وقد تشوه وجهي أو لفظت أنفاسي.. هما أمران أحلاهما مر: أفر بجلدي أم أموت؟ قلت: لا.. النجاة خير من الهلاك.. أجل يا سميتي.. هربت والهريبة كما تعلمين ثلثا المراجل وإن نجحت فهي كلها.. ولقد نجح هربي.. جعلني الخوف أغادر مدينة البر كلها..

كنت قد أعلمت مدبرة منزلي بأنني مسافرة وبأنني قد أغيب شهراً أو يزيد فلماذا أعود إلى المنزل؟ بحقائبي ذاتها مضيت إلى البحر.. كنت على يقين أن البحر وحده هو ما يحمل الراحة إلي.. يجعلني أفكر التفكير السليم الذي سينقذني من عاشور، ذلك الوحش الفاتك الذي كشر عن أنيابه يريد افتراسي.. أمه وراءه ولاشك، هي التي تغار على زوجها حتى الجنون، تلاحقه باستمرار فتحكم الطوق حوله، وإذا كان قد أفلت من طوقها حيناً من الزمن، فقد آن الأوان لأن تعيد إحكام الطوق حوله من جديد... تحرياتهم في نادي النسوان، ملاحقتهم، وربما مراقبتهم المباشرة لي هي التي جعلتهم يتيقنون من العلاقة.. ثم جاءت الضربة

القاضية وعاشور يرى بأم عينه سائق أبيه يحمل متاعي ويأخذني إلى المطار كي أسافر مع أبيه.. هو شهر عسل إذن؟ هكذا أدرك الأمر، وبلا لبس أو غموض.. فكيف أنكر؟ أو أواجه؟ لا، ما كان هناك خيار آخر سوى: التخلي عن المشروع كله. بل قطع علاقتي بأبيه وإنهائه من حياتي، كأن لم يغن بالأمس.

هذا ممكن أليس كذلك يا سميتي؟ أنت نفسك أنهيت نينوس من حياتك.. جعلته يمضي كأن لم يغن بالأمس، ونحن متشابهتان.. رجل يدخل حياتك، ترتقين عليه درجات السلم إلى نقطة معينة لا يعود بعدها صالحاً للارتقاء فترفسينه.

وأنا في منتجعي على البحر رحت أفكر: صاحب النبالة مرحلة علي أن أنتهي منها.. لقد أوصلني إلى درجة صار بإمكاني الاستغناء عنه، الاعتماد على قواي الذاتية، إذن لم لا أرفسه؟

نينوس، ألم يحبك حب العبادة؟ ألم يسلمك مقاليد السلطة ويجعلك على العرش؟ مع ذلك تخلصت منه كيلا يظل عقبة في وجهك. هكذا كان علي أنا.. إذ ما إن أعدت التفكير بما كنت سأفعل، حتى بدا لي عاشور وكأنه هبة بعثتها لي السماء كي أتخلص من مصير أسود ربما كان ينتظرني.

فلو صرت زوجة أبيه لذهبت أدراج الرياح طموحاتي كلها. وهكذا، عدت إلى خياري القديم: الحرية أم الزواج كما عدت إلى تساؤلي القديم: لماذا أتحول إلى حرمة في جناح حريم حتى ولو كان رجلي السلطان ذاته؟ لماذا أتخلى عن حريتي واستقلالي من أجل زواج لن يزيدني شيئاً على الإطلاق؟ زواجي منه سيكون القالب الذي توضع فيه قدم الفتاة الصينية. فيحول بينها وبين النمو.. إذن لماذا كنت سأخطئ هذا الخطأ؟

أنا أحيا من أجل طموحي.. طموحي هو حياتي ذاتها، فكيف أتخلى عن حياتي؟ وعدت أحمد ربي أن أحداً جاء قبل فوات الأوان ليعيدني إلى صوابي.. كانت سكرة وجاءت الفكرة.. صاحب النبالة مرحلة انتهت فلم لا أقطع علاقتي به؟ العذر معي، حججي مفحمة: ابنه حاول تشويه وجهي بماء النار فكيف أظل على علاقة به؟ عائلته تتآمر علي وعليه، فكيف آمن على نفسي معه؟ خطتنا في السفر معاً أفشلوها.. بكل بساطة وحزم أفشلوها فماذا استطاع أن يفعل؟ كان يجلس في قاعة الشرف غير عارف بشيء.. ثم صعد إلى الطائرة ينتظرني، تأخرت عن الموعد فاستغرب.. ربع ساعة نصف ساعة، ثم لم يعد يستطيع الانتظار.. أرسل سكرتيره مع رقم هاتفي يسأل عني.. مدبرة منزلي قالت له إنها ذهبت إلى المطار مسافرة.. انتظر نصف ساعة أخرى ثم عاد يسأل.. الجواب نفسه من مدبرة منزلي.. أرسل في المطار من يستقصي..

ساعة.. ساعتين تأخرت الطائرة.. كان ينتظر مجيئي لكنني لم أجئ.. أخيراً جاؤوا بالسائق الذي همس في أذنه حادث الهجوم. وللتو أدرك أن المخطط باء بالفشل، وأن العائلة كشفت أمره فنأى بنفسه، لا عين رأت ولا أذن سمعت.. وصدر الأمر بأن تقلع الطائرة.. بينما كنت أنا نفسي أوشك أن أصل إلى منتجعي البحري..

ما أروع صفوك ما أهنا يا موج البحر

تستلقي بسكون الدنيا في صيف ليلته بدر

كغدير ساج قد أصبحت ولا مداً أو جزر

رأيتني أترنم بالشعر ما إن سرت على رمل الشاطئ أغسل ساقي بماء البحر، وهو يدفع بموجه على الرمل تاركاً زبده الأبيض منسحباً إلى الوراء يصنع أمواجاً جديدة مزبدة تنطفئ على الرمل من جديد.

أياماً عديدة ظللت هناك ولا شأن لي سوى أنا ألقي بنفسي في الماء الدافئ أسبح وأسبح إلى أن تعيا يداي ورجلاي فأخرج إلى الرمل أستلقي عليه فراشاً وثيراً يغري بالنوم..

بعدئذ أمضي إلى "الشاليه" آكل، أسمع موسيقى وأنام. كنت بحاجة إلى الراحة المطلقة وقد توترت أعصابي وانشدت إلى درجة خشيت معها أن تنقطع. كنت بحاجة إلى الوحدة، بعد ذلك الضجيج الذي ملأ أذني دوياً. لم أعد أستطيع التفكير، وقد ضربت العطالة ذهني حتى أصبحت بلا تفكير، طفواً في سيل قوي يدفعه دون أن يملك من أمره شيئاً. كنت بحاجة لإعادة النظر في كل شيء وأنا أرى نفسي أمام مرحلة جديدة، مفترق طرق جديد على أن أحسن اختيار أحدها كي يوصلني إلى الهدف الذي أطمح إليه. كان موقف صاحب النبالة قد أزعجني وأنا أعلم أنه سافر دون أن يطمئن علي.. صحيح أنه أخر إقلاع الطائرة ساعتين، لكن الصحيح أيضاً أنه لم يكلف خاطره رؤيتي والاتصال بي.. كنا قد اتفقنا على كل شيء: السفر معاً، الزواج، قضاء شهر العسل، فهل يذهب ذلك كله فسوة نسر؟ لا، لا، الرجل لا يستاهل أن أفكر به.. يجب قطع العلاقة معه فعلاً.. الفارس الذي لا يدافع عن ظعينته ليس بفارس ولا هو بمن يستحق تلك الظعينة.

لكن الظعينة بحاجة إلى فارس أو تناهبها قطاع الطرق في الصحراء..

اغتصبها الغادي والصادي.. فمن تراه الفارس؟

أعترف لك يا سميتي أنني طوال إقامتي هناك، في المنتجع البحري الهادئ، كنت أفكر بالفارس الذي يمكنه أن يحميني، بالرجل الذي سيكون الدرجة التالية في سلمي إلى قمة الهرم.

كنت أتصل بالمنزل. كل يومين، ثلاثة، أتصل، أطمئن من المدبرة على آية أسأل عمن اتصل.. وكان هناك ثلاثة مافتئوا يسألون عني، يريدون بأي شكل أن يعرفوا مكاني، موعد عودتي.. لكن المدبرة لم تكن تعرف مكاني ولا موعد عودتي، فتردهم خائبين مخذولين: الأول هو عاصم الذي كان كما أخبرتني المدبرة يستشيط غضباً كلما قالت له مازالت مسافرة. "اللعنة!! أين هي هذه الـ...؟" ولم تكمل المدبرة فصدمت.. قلت لها "أكملي ماذا قال؟" فاستنكرت وأبت أن تنقل كلامه الذي يعافه السمع. ألححت فاضطرت للفظ "الساقطة" وغدت صدمتي أشد. يقول عن أخته ساقطة.. إذن لابد أنه سمع بفضيحة المطار؟ عرف شيئاً عن علاقتي بصاحب النبالة؟ الكلمة ذاتها برهان واضح على ذلك..

الثاني كان صاحب النبالة نفسه، فهو، من مكانه الثاني، كان يريد أن يكلمني، يعرف مني جلية الأمر، وكان يلح.. كل ليلة يتصل.. ثم يطلق التأففات والتأوهات.. "أليس لديك هاتفها؟ ألا تعلمين أين أجدها "كان يسأل المدبرة وكانت تجيب بالنفي صادقة، هي التي لم تكن تعلم شيئاً عني؟.

"في أي وقت يتصل،" أكدت عليها من جديد "أنا غير موجودة ولا تعرفين شيئاً عني".. لقد ألهمني البحر أفكاراً كثيرة جعلتني كلها أحزم أمري على إخراج صاحب النبالة من حياتي فلا يراني ولا أراه، لا يسمعني ولا أسمعه.

أما الثالث فكان إيناس.. هو الآخر كان يتصل كل يوم يريد الاطمئنان علي. باله، كما قال للمدبرة، مشغول علي.. أنا التي اختفيت دون سابق إنذار.. رغم أن هناك إشاعات وأقاويل تبلبل الفكر. "ترى أين ذهبت؟ داخل البلد أم خارجها؟" لكن المدبرة تعرف عبارة واحدة: لا أدري.. سأل مرة ثانية فثالثة ثم لم يعد يسأل.. كان فقط يتصل لكي يطمئن على آية.. على المنزل، "هل يزعجكم أحد؟ هل تحتاجون لشيء.. إلخ" وبدا لي ذلك يلفت النظر.. هذا الاهتمام الشديد.. هذه المواظبة لابد أن وراءها شيئاً. لكن ما تراه ذلك الشيء؟ كانت صلتي بإيناس حديثة العهد.. تعارفنا قبل وقت قصير، لكن قلما كنا نلتقي فهو لا يحضر حفلات رسمية ولا يقبل دعوات يعرف أنها انتهازية نفعية..

عمله يقتضي منه الكتمان، بل حتى العمل في الخفاء، وهو ذاته ما كان يضفي عليه صبغة المهابة والرهبة.. كلمة واحدة منه تلقي المرء في غياهب الجب.

يوسف آخر خانه أخوته وتآمروا عليه. كلمة واحدة منه ترفع، تخفض، تعز، تذل وكأن له بعض صفات الله الحسنى التي لا يضاهيه فيها أحد. لذلك كله، ربما، كانت دهشتي عظيمة حين رأيته يوم مناقشتي للدكتوراه. حسبت يومذاك أنه جاء بدعوة خاصة من صاحب النبالة بيد أن صاحب النبالة نفى أن يكون قد دعا أحداً، وهاهوذا اتصاله المتكرر بمنزلي يجعلني أفكر بشيء آخر يا سميتي؟.

كنت على يقين أنه يعلم كل شيء عني، هو الذي لا تخفى عليه خافية.. علاقتي بصاحب النبالة، سفرنا الذي خططنا له معاً.. الفضيحة التي حدثت في المطار.. كل ذلك هو يعرفه ولاشك، فهل اهتمامه المفاجئ بدافع عمله أم شخصه؟ أهو اهتمام بي أنا أم بمعرفة الحقيقة؟ أسئلة كثيرة كانت تتوارد على ذهني، أفكار كثيرة تذهب وتجيء.. يرافقها قلق راح يتزايد كلما تزايدت اتصالاته بالمنزل.

فجأة انقطعت تلك الاتصالات.. يومان ثلاثة، أربعة مرت ولم يتصل.. قالت المدبرة فاشتد قلقي. "لم انقطاعه ذاك؟" هل يئس مني؟ هل صرف النظر عن قضيتي؟ "لكن سرعان ما جاءني الجواب ذات ضحى وأنا أخرج من الماء لأجده أمامي على الشاطئ.. "صاحب السعادة!! "هتفت بشيء من انبهار ودهشة "ما الذي جاء بك هنا؟" "أنت "رد مبتسماً متفرساً في جسدي وقد لوحت الشمس بياضه بمزيج من سمرة وحمرة زاده فتنة وسحراً. "أنا!! كيف؟ لم أفهم؟ "قلت وقد ازداد خوفي.. إذن هو جاء يبحث عني.. لكن كيف عرف مكاني؟ كنت ما أزال أتساءل في سري حين مد يده إلى ذراعي يمسكني بمرفقي وكأننا "سانفاسون" لا كلفة ولا تصنع منذ زمن طويل... "سأقول لك كيف.. لكن ليس هنا "قال وهو يتلفت حوله.. كان ثمة سابحون وسابحات، وكانت بعض الأعين ترمقنا عمداً أو غير عمد. "أين إذن؟ في الحبس؟ "قلت بمزيج من المزاح والجد وكلي رغبة في أن أسبر غوره وأحسم أمره فلا تشرق بي الظنون ولا تغرب. "حبس؟ ما عاش من يحبسك" "رد وفي عينيه بريق عتب شديد "أنا فقط لا أريد أن يراني معك أحد.. أنت تعلمين.. الكثيرون يعرفونني هنا.. ولسوف يتقولون.. فلنبتعد... إلى مكان نكون فيه وحدنا: آدم وحواء".. "آدم وحواء؟ هكذا دفعة واحدة؟ "قلت وأنا أسير إلى جانبه حافية القدمين يدغدغ أخمصي الرمل، تدغدغ مرفقي أنامله، فيما تدغدغ نظراته فخذي العاريتين، بطني وصدري وقد انفسحا أمامه أملسين كصفحة البحر. "لم لا؟ أم تراك لم تملي الوحدة؟ "سأل بنبرة خاصة أراد منها أن أعود إلى سبب تلك الوحدة، إلى الحدث الذي دفعني مباشرة للهروب إلى البحر. كان قد مضى علي عشرون يوماً ونيف هناك لم أر فيها صديقاً، لم ألتق بأحد من معارفي.. لم أكلم سوى نادل أو نادلة.. صحيح أنني تعرضت لبعض المشاكسات من شبان يسبحون، أو رجال

يعبرون لكن الصحيح أيضاً أنني لم أكن أرد على أحد، بل أطرق برأسي وأمضي.. لماذا؟ لا أدري يا سميراميس. لعل التعويذة المعلقة بصدري تلك التي تحميني من شهواتي ورغباتي كانت تعمل بنشاط في تلك الفترة، تؤثر في كل التأثير، فلم أعد أفكر بجسدي ولا برغائبه وشهواته.. كان حسبي أن أسبح وأفكر، أجلس على الشرفة وأفكر، المنعطف خطر وعلي أن أحسن التفكير كيلا أنحرف عن الطريق وأسقط في الهاوية.

"هـه.. ماذا؟ لم تجيبي؟" "قبل أن أجيبك، لابد من أن أسألك سؤالاً واحداً، أتسمح يا صاحب السعادة؟ "سألت وأنا أرى هناك عند ركن "الشاليه" رجلين بنظارات سوداء وملابس سوداء توحي بأن كل ماوراءها قاتم أسود،

"أسمح.. تفضلي.. اسألي "قال وهو يعاود التبسم، كأنما يريد أن يضفي على نفسه مسحة من ود كنت أحسب أنه لا يملكه. "كيف عرفت أنني هنا؟" "ولو.. أنت أذكى من أن تسألي هذا السؤال؟" "حقاً، أنا أذكى!؟" "تساءلت في سري وأنا أعود سنين إلى الوراء يوم ظهرت نتائج الثانوية ولم يكن لي اسم بين الناجحين فيصرخ بي أبي موبخاً.. "أنت غبية.. غبية".. ترى أيعرفني هذا الرجل أكثر من أبي؟.

"عفواً، ما هذا قصدي.. قصدي أن أتعرف أكثر إلى عقلك، إلى الأساليب التي تلجأ إليها" وكأنما أقنعه كلامي.

قال: بسيطة!! الهاتف يمكن أن يكون دليلك.. وقد كنت تتكلمين بالهاتف مع منزلك." "آ!! فهمت" "هتفت، أنا التي لم يكن قد خطر ببالها أنه قام بمراقبة هاتفي كي يعرف من أين أتكلم.. "حسن.. الآن.. ادخلي، البسي ثيابك ودعينا نذهب." أمر جاءني فلم أستطع إلا الانصياع له.. يحدث هذا يا سميتي!! كلام لا تستطيعين إلا تصديقه، حجة لا يسعك إلا الاقتناع بها، أمر لا يمكنك أن ترفضيه.. وهكذا وجدتني أسرع إلى غرفتي.. أعمل (دوشاً) ثم أرتدي ثيابي وأمضي إلى حيث كانت سيارته الفارهة تنتظر على أحر من الجمر.. اقتربت منها لتتلقفني كما يتلقف اللاعب الماهر الكرة ثم تندفع صاروخاً أطلق إلى الفضاء.

كان هو نفسه يقود الصاروخ، وكنت إلى جانبه لا أملك إلا أن أنظر إليه بكثير من الدهشة والحزن، فالصاروخ كلما اقترب من زحمة سير أطلق صفارة إنذار كأنما هو سيارة إطفاء، تندفع السيارات إثرها هاربة إلى اليمين مفسحة في الطريق أو متوقفة، ويندفع هو أكثر فأكثر يلحق به صاروخ آخر حريص كل الحرص على أن يظل غطاء له لا يبتعد عنه ولا يدع شيئاً يفرق بينه وبينه. "لم أنت مستعجل هكذا؟ "سألته وكلي أمل أن يخفف من سرعته،

لكن أملي خاب، إذ ظل على حاله راشقاً إياي بنظرة سريعة من عينه. "الوقت من ذهب.. كما تعلمين.. كذلك هو كالسيف إن لم تقطعيه قطعك." "أخشى أن ننقطع نحن بدلاً من أن ينقطع هو. "قلت وقد ارتسمت على محياي معالم خوف واضحة وهو يجتاز منعطفاً اضطررت معه لأن أتدحرج أو أكاد إلى مقعده المجاور.. هدأ من سرعته قليلاً ثم قال متضاحكاً "لا.. لا تخافي.. أنا فقط أردت اختبارك وقد نجحت في الاختبار." "كيف؟ "سألته وأنا لا أدري أي اختبار أراد وأي نجاح نجحت.. "أثبت أنك أنثى تخاف وهو نجاح لك". تنفست الصعداء وهو يدخل أخيراً باباً حديدياً فتح أمامه على طريقة افتح يا سمسم لينفسح المشهد أمام ناظري عن "شاليه" قرب البحر عبارة عن فيلا من طابقين مسورة من جهاتها الأربع بسور لا تخترقه عين ولا تتسلقه يد..

"تعالي أرك "الشاليه"، قال وهو يسحبني من يدي، فيما تقف السيارة الأخرى وراء سيارته ويقف الرجال كلهم بنظاراتهم السوداء وبذلاتهم السوداء ينظرون إلينا باستعداد كامل لتلقي أي أمر..

(الشاليه) كبير.. غرف سبع في الأسفل، سبع في الأعلى، قاعة في الأسفل، أخرى في الأعلى.."لكن لم كل هذه الغرف؟" سألته.. "أليس هو مجرد شاليه؟" "صحيح.. لكن يأتي أحياناً بعض الأصدقاء.. لكل حاشيته، أتباعه.. وفهمك كافٍ. قال وهو يغمز بعينه.. "وهل تأتي إلى هنا دائماً؟" "أنت تعلمين.. عملنا متعب.. وكثيراً ما نحتاج إلى الراحة.. لكن لا أجيء هنا إلا قليلاً. لي (شاليهات) أخرى على امتداد البحر.. ومن أجل الأمن.. تعلمين.. أنا أغير دائماً.. كل مرة أذهب إلى شاليه." "الاحتياط واجب، علقت بحيادية باردة وأنا أعلم أن أمثاله لا يفكرون إلا بأمنهم، شغلهم الشاغل.

"غيري ملابسك. "قال بنبرته الآمرة إياها وهو يشير إلى باب غرفة قريبة فيما دخل هو إلى غرفة أخرى.. وكانت النبرة ذاتها التي لا يملك المرء حيالها إلا أن ينفذ.

حين خرجت من الغرفة كان هو "بمايوه" الاستحمام. يقف مفتول العضلات متنفخ الصدر، أبيض البشرة كأنما لم ير الشمس منذ أزمان. "أي قوام ممشوق!! أي جمال فاتن!!" قال وهو يطوق خصري سائراً بي إلى الباب العريض الذي انفتح في السور، كأنما بفعل ساحر، ليبدو البحر أمامنا منبسطاً كراحة اليد.. بلا ريح، بلا موج، كان البحر يستلقي على الشاطئ مسترخياً وكأنما تعب من المد والجزر.. مياهه تسطع تحت الشمس مرايا متوهجة وثريات متألقة، بدت تغرينا بأن نلقي بنفسينا فيها.. غذ الخطا مسرعاً بي فأسرعت وأنا أشعر أنني لا أدفع من يده فحسب بل تجذبني مياه البحر، جاذبية لا يملك المرء معها إلا أن ينشد..

الماء دافئ.. الرمل دافئ يده أيضاً دافئة وهي تطوق خصري لنلتقي بزبد البحر فقاعات متناثرة بيضاء. نتهادى على الرمل قليلاً ثم نخوض في الماء يدغدغ الفرح قلبينا وحيدين على شاطئ هادئ جميل.. آدم وحواء وقد نزلا على الأرض للتو..

"صحيح.. لا أحد هنا .. ترى ألا يوجد أناس في المحيط القريب؟" "يوجد.. لكن ممنوع عليهم الاقتراب مسافة كيلومتر ممنوع الاقتراب. "وتداركت في سري "حقاً!؟ من يجرؤ على الاقتراب من عرين السباع؟" ثم ضحكت "أي شيء أروع من أن يكون لك بحر بشاطئه وأمواجه ورماله؟ لا الأرض وحدها ملكك، بل البحر ذاته.. الله!! أي عز!! أية عظمة!!".

كان قد بدأ يسبح داخلاً إلى العمق وكل ظنه أنني سألحق به.. لكنني كنت قد سبحت من قبل.. جرعتي اليومية تناولتها فآثرت البقاء قريباً من الشاطئ.. قدماي على الرمل القريب، أعوم قليلاً ثم أعود فأقف.. كنت متعبة وكنت أريد التفكير. "ماذا يريد بالضبط؟ كيف أتصرف معه؟ أأكون إيجابية أم سلبية؟" وجاءني الجواب بعد لأي: ظلي ممسكة بزمام الأمور.. لا ترخي له العنان، قوديه أنت ولا تدعيه يقودك إلى أن تتأكدي من أنه صار خاتماً في إصبعك.. فارسك الذي يحمي الظعينة. "سررت بذلك القرار وتهلل وجهي، بعد حيرة وبلبال كانا ينعكسان عليه مسحة من التجهم والكمود.

"هه!! مالك بعيدة؟ لم لا تسبحين؟ "هتف من مكانه البعيد وفي نيته أن يتابع في العمق. "البحر ساكن هادئ يغري بالخوض في غماره حتى أعمق الأعماق." "أنا لا أحسن السباحة كثيراً.. أخشى الغرق" قلت بصوت عالٍ يمكنه الوصول إليه.. في الحال ارتفع بجسده عالياً عن سطح البحر ثم اندفع باتجاهي خابطاً الماء بذراعيه الطويلتين المفتولتين عضلاً كأبطال الملاكمة.. "من لا يأتي معك تعال معه" قال وهو يقف إلى جانبي نافثاً الماء نافضاً شعره فاتحاً عينيه وقد أغمضهما طويلاً في اندفاعته تلك. ضحكت وأنا أتفرس في جذعه الجميل الظاهر فوق سطح الماء. "لو كانت بشرتك برونزية لقلت إنك بطل سباحة بارع." "ولو لم تكوني شقراء ذات عينين خضراوين لقلت إنك حورية بحر." "كيف تكون حورية البحر إذن؟" "في بحارنا تكون سمراء أو فضية، ذات عينين زرقاوين كالبحر" "يؤسفني إذن أنني لست ذات عينين زرقاوين." "أنت هكذا أجمل.. بل أجمل من أية حورية بحر." "كنت تتصل بي إلى المنزل هذه الفترة.." قلت وأنا أطبق خطتي: أظل ممسكة بزمام الأمور فلا تفلت مني. ثم تابعت مبتعدة عن الغزل" أكان هناك داع؟" "طبعاً.. أم تريدينني أن أسمع ما سمعت ولا أسأل عنك؟" "وماذا سمعت؟" قلت بشيء من التجاهل علني أعرف طبيعة الخبر الذي انتشر.. "اسمعي.. سميرة.. "قال وهو يحيطني بكلتا ذراعيه، غارساً عينيه في عيني، والماء الدافئ يدغدغنا حتى الفخذين" لا

تتجاهلي ولا تتشاطري علي.. أنت بالنسبة إلي كتاب مفتوح.. أعرف كل شيء عنك.. ارتباطاتك، علاقاتك، تحركاتك.. كلها أعرفها.. ملفك عندي أسمك من كفين معاً فلنلعب على المكشوف.. لعب الأذكياء؟ "وماذا تريدنا أن نلعب؟" "لعبة الحب.. سميرة، أنا أشتهيك.. مذ رأيتك أول مرة اشتهيتك، تمنيت أن تكوني لي، لكن كان هناك صاحب النبالة ولم يكن باستطاعتي إلا أن أحترم علاقتكما فلا أقاربها.. لكن الآن وقد انكشف أمركما، أؤكد لك أنه لن يستطيع الاستمرار.. بل أنت نفسك لن تستطيعي الاستمرار.. زوجته.. أولاده مصممون على قتلك إن اقتربت منه.. فدعيه... كوني لي أوصلك إلى كل ما تشائين، أحقق لك كل ما تحلمين." "لـ.. ل.. لكن" بدأت الرد إلا أنه لم يدعني أكمل، فقد نزل بذراعيه اللتين تحيطانني إلى أسفل إليتي ثم رفعني إلى الأعلى، بطني على بطنه، صدري على صدره، وشفتاه تبحثان عن شفتين هربت بهما ليبقى زمام الأمور بيدي، ويعلم أنني لست تلك "الرخوة" سهلة المنال التي تسلم نفسها لدى أول عرض مهما كان مغرياً.. لكنه لم يأبه لشفتي، بل مضى بي مشدداً ضمته إلى الشاطئ، حيث تصل أطراف الماء، ثم انحنى بكل جسده ممدداً إياي على الأرض متمدداً فوقي. "لا.. لا.. أرجوك "صحت به هاتفة "ليس الآن، ليس هنا.. لا أريد".. لكنه لم يكن يعمل أذنيه بل يعمل يديه، شفتيه، رجليه، إلى أن أطبق بفمه على فمي مسكتاً إياي، نازعاً بيديه مايوهي مفرقاً بساقيه ساقي وأنا أخبط، أتحرك، أقاوم لكن لأثبت فقط أن من الصعب على المرأة أن تقاوم رجلاً صمم على اغتصابها. لقد كان اغتصاباً بكل ما في الكلمة من معنى، لكن ما إن صار في داخلي حتى تحول إلى متعة ما فوقها متعة رحت معها أتحرك مثارة متهيجة كما لم أثر وأتهيج من قبل.

لحظات.. دقائق.. لا أدري كم استمر. لقد كان زمناً من ذلك النوع الذي تحلق فيه عالياً في السماء، ترن في أذنيك أجراس الأبدية وتمتلئ الآفاق كلها شدواً وغناء..

كان تحتي الماء وفوقي السماء، الرمل ناعم والنسيم حنون وكنا قد همدنا مستلقيين على ظهرينا أتوسد ذراعه ويتوسد ذراعي كأنما نريد أن نؤكد أن العالم كله مجرد محبة وسلام.. هنيهة ثم انقلبت إلى جانبي ألتصق به جلداً لجلد. أغرس عيني في عينيه لائمة عتبى.. "هكذا يا رجل؟ تحت سمع الناس وبصرهم؟ واغتصاب؟" "قلت لك لا ناس هنا ولا سمع ولا بصر.. نحن في الجنة.. آدم وحواء.. وحواء لآدم فكيف يكون اغتصاباً؟" "أجابني وهو يمسد ظهري بكف حنون شعرت معها أن كل ما في من أعصاب يتمدد ويسترخي.. "لا أدري.. لكنه اغتصاب.. امتلكتني رغماً عني." "وكم أزعجك ذلك؟ يا حرام!! كم كنت رافضة إلى درجة كنت تفيضين معها رغبة وشهوة.. بل تحركت أكثر مما تتحرك عاشقة مولهة".. "أوه!! لم

أستطع!! كنت مغرياً لذيذاً شهياً" "لا عليك.. النساء كلهن يحببن أن يغتصبن، إحدى الدراسات تقول: ثمانون بالمائة من النساء يحلمن برجل يغتصبهن.. إنها رغبة مكبوتة.. فإذا تحققت كانت أشهى من أية ممارسة أخرى للحب".. وبدا لي أنه على حق.. فما بدأ اغتصاباً تحول إلى شيء آخر كله لذة ومتعة.. أهي متعة الاغتصاب؟ هل النساء كلهن يردن فعلاً أن يغتصبن؟ لا أدري.. ما أدريه أنني أنا نفسي حلمت أكثر من مرة برجل يغتصبني.. هو يتكلم عن تلك الدراسة التي قرأتها أنا الأخرى والتي تضيف أن تسعاً وتسعين بالمائة ممن يغتصبن يحققن المتعة ويصلن إلى ذروة اللذة.. أمر عجيب.. شيء بالإكراه يتحول إلى شيء بملء الرغبة.. هذه هي المرأة.. لغز لا يمكن حله أبداً..

"عصافير بطني تزقزق" قال وهو يهب مسرعاً ممسكاً بيدي، ساحباً إياي باتجاه الفيلا. "مهلاً دعني ألبس." قلت وأنا أحاول التقاط (المايوه) الذي كان قذفه بعيداً على الرمل.. لكنه لم يدع لي مهلاً ولا توقف عن اندفاعته.. "دعيك منه.. أسرعي نأكل" وأسرعت وكلي توجس من أن يراني أحد هناك عارية حتى من ورقة التوت.. لكن الفيلا خاوية على عروشها.. وسط القاعة انتصبت مائدة الطعام وقد صفت عليها أطايب المأكولات.. لم يتوقف عندها بل تابع إلى الحمام حيث كانت هناك مرشتان، وقف كل منا تحت واحدة ليذهب الماء بكل ما علق بأجسادنا من رمل وعرق، زبد وأشياء أخرى.

بعد الحمام أردت أن أذهب إلى الغرفة ألبس ثيابي، لكنه شدني بقوة إلى المائدة.. "آدم وحواء.. قلت لك سنكون آدم وحواء قبل أن يعرفا صناعة القماش." ولم أملك إلا أن أطيعه.. سائرة معه إلى المائدة مستسلمة له ضاربة عرض الحائط بكل القرارات التي اتخذتها من قبل لأغدو أنا الخاتم في إصبعه لا هو.. لكن أعترف لك يا سميراميس كنت مغتبطة فرحة، إذ كانت المرة الأولى التي أخوض فيها غمار تجربة مفتوحة هكذا.. علاقاتي السابقة كلها كانت تتم في الخفاء، طي الكتمان.. بعد منتصف الليل وفي حالة من الانضغاط والحذر لا تكاد تبين معها أية متعة.. لكن ها نحن الآن في وضح النهار لا نخشى أحداً ولا نحذر من شيء.. العالم كله ملك أيدينا.. نعيش حريتنا بأوسع أشكالها.. الخدم حولنا لكن لا أثر لهم، الحرس يحرسوننا لكن لا تراهم عين.. أليس هذا ضرباً من الحلم؟ بلى.. سميراميس.. هذا ضرب من الحلم لا أدري إن كنت قد عشته أنت.. أسطورتك تقول إنك (ذات يوم جلست إلى المرآة الكبيرة في غرفة زينتك، وعليك غلالة رقيقة لا تكاد تخفي شيئاً من مفاتن جسدك الجميل، فيما وقفت وصيفتك تمشط شعرك الفاحم، وترسله من خلفك فتتماوج جدائله الطويلة سوداء فاحمة حتى قدميك. قالت الوصيفة: ما أجمل هذا الشعر عندما ينتشر هكذا

فيضم هذا الجسد الجميل كأنما يلفه بعباءة نسجتها أنامل الليل.. حينذاك، تقول الأسطورة، ابتسمت، يا سميتي ونظرت إلى وجهها في المرآة ثم تنهدت وهمست قائلة: لقد بعد العهد فلم أسمع هذا الكلام منذ سنين.. فردت الوصيفة: يا مولاتي، لقد سعت إليك ملوك الأرض تتمنى أن تحظى بظفرك.. لا تكوني حمقاء، قالت سميراميس، مثل أولئك الملوك الذين غزوت بلادهم وفرضت عليهم الخضوع لسلطاني.. لا شأن لي بهم.. إنني ملك لشعبي الذي يحبني.. فقالت الوصيفة: إن بين القواد والأمراء من أبناء هذا الشعب من هو جدير بك..

ويحك، ردت سميراميس: أتريدين أن أتزوج واحداً منهم؟

ولم لا يا مولاتي؟ لا، لن أفعل، وإذا خفق قلبي يوماً بحب فيجب أن يظل ذلك الحب سراً لا يصل إليه ظن..).

لكن أظللت هكذا يا جدتي الكبرى؟ لا، ما أظنك إلا خضعت لقانون الطبيعة، التغير.. ألا يتغير الصيف إلى خريف والشتاء إلى ربيع والليل إلى نهار؟ هكذا كلنا نتغير.. بل وحده الحجر لا يتغير!! أنا نفسي تغيرت.. قبل ساعة فقط كنت أتخذ قرارات حاسمة جازمة أريد فيها أن أبرهن أنني قوية الشكيمة، صعبة المنال.. لكن ها أنذي أنقاد له أطوع من بنانه.. كلي.. آكل.. اشربي.. أشرب.. نامي.. أنام.. أليس ذلك من دواعي العجب أم أنه أمر عادي؟ شيء من قاموس الطبيعة.. الرجل يقود والمرأة تنقاد. لقد كان بودي أن أشرب البيرة.. هي باردة تطفئ لهب الصيف.. لكنه سقاني الويسكي.

"شيفاز ريغال عمره مائة عام".. قال وهو يصب لي من زجاجة بدت كأنها زيتونة لا شرقية ولا غربية، بل هي نور على نور، ولم أنه الكأس حتى شعرت برأسي يفتل قليلاً، ثم مع الكأس الثانية صار يفتل أكثر فأكثر لكن مع الكأس الثالثة صار مغزلاً يدور ويدور إلى حد دفعني لأن أستلقي على الأريكة كلي خدر ونعاس لا أبغي شيئاً سوى النوم. رآني ثم هب يحملني بين ذراعيه فلم أملك سوى أن أمسك بعنقه بكلتا ذراعي فيما حملني إلى السرير العريض الوثير حيث مارس معي الحب وأنا لا أدري أفي حلم أنا أم علم، أطير على بساط ريح تحمله لذة مجنحة من تلك اللذائذ التي قلما تجود بها الحياة..

ثلاثة أيام ظل هذا ديدننا، نمارس الحب، نسبح، نأكل، نشرب وننام. ولثاني مرة أعرف الرجل الذي ماؤه من نبع لا جمع. ثمة كان غيث، لكن ذاك كان في العشرين. إيناس فحل حقيقي من فحول الرجال لا يرتوي ولا يشبع.. وكأنما ذهبت تميمتي إلى الجحيم، وجدتني أنا نفسي لا أرتوي ولا أشبع، لكأن الحب ماء البحر كلما شربت منه ازددت عطشاً. هنا أعترف

لك يا سميراميس، مقسمة أغلظ الأيمان أنه ما مارس الحب معي مرة إلا وددت أن يمارسه ثاني مرة.. كان الرجل في أربعيناته، وكان ملؤه الحيوية والنشاط، يعاني من ظمأ قديم للمرأة، زوجته، كما حدثني، ابنة عمه تزوجها في وقت مبكر حين لم يكن يعرف معنى الزواج.. ثم كر الأولاد، ولو لا حلم ربك، لكانت قد جاءت له بدزينة منهم أو ربما دزينتين، لكنه، وقد ارتقى مناصب وصار صاحب سلطة، اضطر لأن يوقفها عند الولد الثامن، رغماً عنها، هي التي تحب الأولاد وترغب في أن تتمتع بأكبر عدد منهم.. إنها ابنة الطبيعة التي لم تحصل من العلم إلا على أقله، ولم تحمل من المطامح إلا أضألها: تكتفي بدور الأم تحبل وتلد لتتحول إلى بقرة هولندية لا إمتاع فيها ولا لذة.

ذلك الظمأ كان يظهر في كل حركة من حركاته، دغدغة من دغدغاته، وكنت أنا قد أسلمت قيادي له، يفعل بي ما يشاء.. ألم يفاجئني بمجيئه إلى (الشاليه)؟ أليست المفاجأة نصف النصر؟ ثم ألم يأت بي إلى شاليهه الفريد المفرد العجيب المعجب، فبهرني، والإبهار نصف النصر أيضاً.. بذلك اكتمل نصره، لأرفع أمامه راياتي البيضاء جميعاً.

لكن ما زاد انبهاري به، أنه لم ينم ليلتين في (شاليه) واحد، بل كنا كل صباح، نفيق لنشد الرحال إلى (شاليه) جديد يبعد ثلاثين أو أربعين كيلو متراً ويفوق سابقه فخامة وبذخاً.. في (الشاليه) الثاني، مثلاً، وجدن حمامات جاكوزي، لكن في الثالث وجدنا جاكوزي وساونا وحوضاً مدفأ تسبحين فيه حتى في عز الشتاء.. وسائل الراحة كلها وافرة، عناصر الخدمة وافرة وكلهم يخدمون من وراء ستار، يأتون بالطعام، الشراب، حاجاته كلها من وراء ستار.. لقد كانوا مدربين جيداً سميعين مطيعين جيداً فكيف يزعجون "المعلم؟"

"تعلم؟ مازلت حائرة كيف حدث لي ما حدث؟ "قلت ذات ليلة ونحن نأكل ونشرب عاريين، آدم وحواء.. "الأجدر أن تكوني حائرة، لو أنه لم يحدث معك ما حدث." رد ضاحكاً ثم تابع: "أم تراك نسيت من أنا؟ تجهلين كيف نقنص أهدافنا قنصاً؟" "لا، أنا لم أنس ولا أجهل، لكن يبدو كأنني أخذت على حين غرة، لم تتح لي حتى فرصة للتفكير." "ولماذا أتيح لك؟ لا.. لا.. أنا رجل أعرف ما أريد.. وقد أردتك مذ رأيتك أول مرة.. ثم حانت الفرصة".. فقاطعته في الحال "تقصد غاب القط.. العب يا فأر" "لا، ليس صاحبك بالقط" رد بشيء غير قليل من الامتعاض، " ولست أنا بالفأر.. فقط احتراماً لبعضنا بعضاً لا يقارب واحدنا "رزق" الآخر.. لكن الآن أنت تريدين تركه، أليس كذلك؟" "بلى.. ابنه هددني بتشويه وجهي.. عائلته مصممة على الانتقام مني، فلماذا أنام بين القبور؟" "هوذا عين العقل.. الأفضل أن تبعدي عن الشر.. أن تبحثي عن ملاذ حقيقي يحميك.. وعندي أنا فقط تجدين هذا الملاذ" "حقاً!؟ تمنع عني

كل خطر؟ تحميني من عاشور؟" "ومن أبي عاشور أيضاً" قال بنبرة حازمة جازمة ثم تابع "معي .. لا تخافي شيئاً أبدا..كل شيء بيدنا.. حياة الناس، موتهم، صعودهم، هبوطهم كله بيدنا.. نحن السلطة الحقيقية، نحن الأقوى هنا.. نحن الأمنع!!" "حقاً؟ حتى من صاحب النبالة؟" "ومن صاحب الرفعة أيضاً. "رد غامزاً لإشعاري بأنه يعرف كل شيء.

"حسن.. وأنا لا أريد إلا الأقوى والأمنع".. قلت وقد وصلتني الرسالة.. "فقط، تخلصين لي.. لا تدعي رجلاً يقربك." "ما كنت يوماً إلا مخلصة.." "لا.. لا.." قال مقاطعاً وفي عينيه بريق عتب." يجب ألا تؤاخذيني.. ماذا عن غيث؟ مرهف؟".

"يا إلهي!!" قلت في سري وأنا أشيح بنظري بعيداً، كلي ضيق وانزعاج. هم يعرفون أضأل الحركات، أخفى الصلات، ولا مجال للكذب عليهم أو الخداع، "لـ.. لـ.. كن.." "لا تقولي لكن أو داكن.. أنا لا تهمني علاقاتك السابقة، ما يهمني علاقاتك اللاحقة.. فانتبهي.. أريدك لي وحدي لا يشاركني فيك أحد... أتستطيعين ذلك؟" "لكن لماذا تريدني أنا؟" "لأنك النموذج الذي كنت أحلم به، وأنا أرعى الماعز هناك فتى لم يخط شارباه بعد.. هذا الشعر الأشقر، هاتان العينان الخضراوان، "راح يقول وهو يمسد شعري، يلملم بشفتيه أهداب عيني، ثم يتلمس بشرتي. "هذه البشرة الناعمة البيضاء كبتلات الياسمين.. هذا القوام الرشيق الأهيف، هذا الخصر الناحل.. يا إلهي.. أنت ربة الجمال ذاتها.. فكيف لا تكونين من أشتهي وأرغب؟ كيف لا أريدك أن تكوني لي وحدي؟" "وأنا لك وحدك.. فقط تنفذ لي كل ما أريد" "لو طلبت لبن العصفور لجئتك به.. اطمئني.. أنا لست بخيلاً كصاحب النبالة ولا مصاباً بعقدة اللوليتا كصاحب الرفعة.. بل لأغرقنك بالمال، بالهدايا.. ولأحتفظن بك احتفاظي بمقلتي عيني.." وانكببت عليه حاضنة إياه مطبقة شفتي على شفتيه، وكلي شعور أن الحلم الذي كان يراودني، مذ تعرفت إلى صاحب الرفعة، قد تحقق.. ها هي السلطة والشباب يجتمعان معاً في رجل واحد أعتمد عليه وأحتمي به مظلة تقيني الحر والقر.. "خلاص.. اتفقنا لكن بشرط آخر.. "ما هو؟ "سأل مستغرباً قليلاً "لا نساء أخريات أيضاً.. لا مغامرات.. "قلت وأنا أعلم أنه يسرح ويمرح بين نساء المدينة، لا يوفر واحدة منهن.. يغامر كلما سنحت له الفرصة دون وجل أو خجل. "وهو كذلك!! لا نساء، لا مغامرات" قال بنبرة هي بين المزاح والجد "لا.. لا.. أريدك جاداً، ولا تظن أنني لا أعرف بمغامراتك.. فكما تلاحقني سألاحقك.. ولسوف أعرف... وإن عرفت اعلم أنني سأعاملك العين بالعين والسن بالسن." "إذن أقتلك.. بهاتين اليدين أقتلك." قال خالطاً مرة أخرى المزاح بالجد، ممسكاً عنقي بأنامل يديه الاثنتين وكأنما يريد خنقي..

ضحكنا ونحن نلتصق واحدنا بالآخر، شفاهاً لشفاه.. وجلداً لجلد، فيما كان سيفه يخرج من غمده، كأن يداً خفية تسله، وللتو تراجعت مبتعدة إلى أريكتي.. "ماذا؟ ألا تريدين؟" "أنت تستنزفني.. ترى ألا تشبع؟" "ومن يشبع من نهر العسل الذائب هذا؟" "تعلم؟ أنت تذكرني بقول قرأته ذات مرة" "أي قول؟ "سأل وهو يحملق يّ فقلت" سئلت هند بنت الخُسّ ما أعظم الذكور؟ قالت: ذكر يكون سداه من قصب ولحمته من عصب لا يعرف الكلل ولا النصب وينكح من رجب إلى رجب." "يا إلهي!! "هتف ملء صوته "ما أفهم تلك المرأة!! لكن أأذكرك حقاً بقولها؟" "كيف لا.. وفيك تتوفر الشروط التي تكلمت عنها كلها؟" "إذن أرضى عن نفسي؟" "كل الرضى.. فقط قل لي.. أنا هل أرضيك؟" "قبل أن أجيبك حدثيني.. هل قالت تلك المرأة شيئاً عن النساء؟" "أجل، لقد سئلت بعد ذلك: ما أعظم الأحراء؟ فقالت: حرٍ يّ حر الحمام ومص الحجام." "هي ذي أنت!! "هتف من جديد وهو يقفز راقصاً دابكاً وكأنه وقع على ضالة ثمينة كان يبحث عنها، فلم أجد نفسي إلا وأنا أقفز إلى جانبه نرقص معاً متشابكين متضامين إلى أن ارتمينا على الأرض نشوة واستمتاعاً.

ثلاثة أيام من العمر.. أجل.. أعترف لك يا سميراميس، أنها كانت من العمر.. بل شعرت أنني لم أكن قبلها قد عشت.. إلا سرقة واختلاساً.. بعدها صار بإمكاني إن أكتب على قبري أنني عشت.. وأن عمري ثلاثة أيام.. لكن إيناس وعدني بأن يجعل حياتي كلها كتلك الأيام.. أن يأتي لي بلبن العصفور، فكيف لا أحلم بأن تصبح ثلاثين أو ثلاثمائة أو ثلاثة آلاف يوم؟

لكن ما إن عدنا إلى مدينة البر، حتى بدا أن تلك الأيام ستكون كبيضة الديك.. كان عاصم ما يزال يتصل بإلحاح، بل مرهف كان يتصل أيضاً، قالت لي المدبرة، وغيث اتصل أكثر من مرتين.. بيد أن المشكلة الكبرى كانت صاحب النبالة.. كان هو الآخر يتصل وكان يغضب ويصرخ ساباً المدبرة شاتماً، يريد أن يعرف هاتفي، فأدركت أن معركة لابد ستدور بيننا.. وأن علي أن أسخر كل ما لدي من قوى برية وجوية للخروج سالمة من تلك المعركة، ولأجعله هو أيضاً يخرج سالماً، فليس من مصلحتي أن أهزمه أو أصيبه بجروح.. هزيمته هي هزيمتي وجروحه جروحي.. إذن، يجب أن نخرج بصيغة تصالح ما: لا غالب ولا مغلوب.. ونسيت كل شيء، مركزة فقط على تلك المعركة: كيف سأخوضها؟ ما أقول؟ ما أفعل؟ حتى إذا ما اتصل تلك الليلة وجدت نفسي على أتم الاستعداد لخوض غمارها.

كانت الساعة الثانية عشرة ونيف وكنت يّ الانتظار.. هو يتصل كل ليلة يّ الموعد ذاته، كما قالت المدبرة، ليوقظها هي التي تنام باكراً." أهلاً وسهلاً!! يا مرحبا!! يا مرحبا!!" قلت ويّ نيتي أن أقطع عليه طريق اللوم والتقريع، صاحبين ليس بينهما شيء!! "الحمد لله

وجدتك!! أين كنت؟ أكنت تلبسين قبعة الإخفاء؟" "طبعاً أم تريدني أن أموت على يدي عاشورا؟" إذن صحيح؟ عاشور هددك؟" "هددني!؟ قل رأيت الموت بعيني.. زجاجتان من ماء النار كانتا قبالة وجهي.. حركة واحدة فقط وكنت سأحترق بالنار فكيف لا تريدني أن أختفي؟" "لكن طولت كثيراً؟" "طولت؟ إذن حياتي ليست غالية عليك؟" "حياتك أغلى مما تتصورين بكثير" "أشكرك!! لكن أريدك أن تدع حياتي وشأنها بعد اليوم.." "لماذا؟ "لأنهم لن يدعونا وشأننا. ثم لم يدعوني إلا وقد أخذوا علي عهداً." "أي عهد؟" "أن أقطع كل علاقة لي بك" "مجنونة؟" "لا.. بل جبانة أخاف الموت، صادقة في بعهدي" "وأنا وأنت؟ حبنا؟" "الحياة أولاً يا عزيزي.. ثم يأتي الحب.. فإذا كانت حياتك نفسها مهددة، أتفكر بالحب؟" "لا تخافي.. عندما أعود.. سأسوي كل شيء.. سأعاقب عاشور.. سأجلده كالكلب".. "وامرأتك؟ أتجلدها؟ أولادك، بناتك.. أتجلدهم كلهم؟ لا.. لا.. يونس.. ما فات قد مات... وليس أمامنا إلا أن نكون صديقين فحسب، لا يرى واحدنا الآخر.. لكن يكلمه.. يطمئن عليه".. "سميرة.. حبيبتي.. ما هذا الذي تقولين؟" "ما سمعت.. وأرجوك أن تبعدني عن ذهنك كلياً.. أنا لم أعد صالحة لك.. علاقتنا لم تعد قابلة للحياة.. فلنقتنع بما عشناه.. بذكرياتنا الجميلة. خير من أن تفقدني كلياً.. هم ناقمون مصممون يونس.. ولا تستطيع لتصميمهم رداً".. "بل أستطيع " "المشكلة ليست فيك، بل في أنا.. هم لن ينتقموا منك.. بل مني أنا.. لهذا أكرر رجائي.. دعنا صديقين وحسب.. صديقين حلما بأشياء جميلة ثم انكسر الحلم.. فبدا الواقع على حقيقته.. عارياً.. بشعاً لا يطيقه الناظران. "ساعة، ساعتين، لم أدر كم دامت المكالمة، هو الذي يتكلم من أقصى الغرب دون حساب لأجر يطلب أو مال يدفع، لكن حين انتهت، كانت نبرته قد جفت، وصوته قد اضمحل بعد أن اصطدم المرة تلو المرة بحجحي المفحمة.. كان أمامنا خيار وحيد هو الأمر الواقع، وكان علينا أن نقبل بذلك الأمر الواقع. أنا قبلت به، كما أفهمته، وعليه هو أن يقبل به أيضاً.. وكأنه يئس، ودعني قائلاً إنه سيؤجل كل شيء إلى أن يعود إلى الوطن.. ثم أقفل الخط، لأظل بعد ذلك ساعات أستعيد كلماته، كلمة كلمة علني أطمئن أن أمره انتهى فلا أزعج نفسي به.. لكن ما فاجأني في اليوم التالي تهنئة إيناس لي، إذ قال: "أحسنت، بالأمس كنت حازمة معه، قاطعة باتة، وما أظنه سيفكر بالاتصال بك مرة ثانية." "أسمعت المكالمة؟" "وماذا نفعل إذن؟" رد بسؤال جعلني أندم على سؤالي السابق، فمن البلاهة أن تسأل السقاء، بقربته وطاسته، ماذا يفعل.. الحداد، بكيره ومطرقته، ما مهنته.. صمت صمت القبور هنيهة من الزمن قائلة في نفسي.. "إذن، هنا، لا مزاح. عليك أن تحسبي حساب كل نأمة وكل حركة تقومين بها.. العيون تترصدك ولاشك والآذان تتنصت عليك".. "لا تؤاخذني "قلت

أخيراً وأنا أعلم أنه ينتظر ردي." كان علي أن أعلم ذلك.. إذن أعجبك كلامي معه؟" "جداً.. جداً.. وعلى نحو يؤكد لي أنك تلتزمين بقولك وتفين بعهدك" "حسن.. أراك اليوم؟" "لا.. لن تريني قبل ثلاثة أيام.. الدنيا هنا خربانة بعدي.. مشاكل كثيرة.. قضايا عديدة وكلها بحاجة إلى حل. حين أجد لحظة فراغ سأتصل بك" ومضى إلى أهله يتمطى.. أنا مضيت أيضاً أتمطى، مبتهجة في داخلي أني سأكون حرة ثلاثة أيام.

كان أمامي ولاشك عمل في النادي.. وكان المكتب ولاشك بانتظاري، ترى ما الذي حل به بعدي؟.

ما إن دخلت المكتب حتى أسرعت إلي الرئيسة "شغلت بالنا.. كيف تغيبين كل هذا الغياب دون علم أو خبر؟ سامحك الله أتظنين أنك رخيصة عندنا؟ لا نهتم بك؟ لا.. لا.. بعد المرة يجب ألا تتركينا للشائعات.." "شائعات!؟" وماذا تقول الشائعات؟" سألتها وبودي أن أسبر غورها قبل أن أنطق بأي شيء. "حادثة المطار؟؟ لا أدري.. يقولون.. إنهم هجموا عليك.. ضربوك بماء النار" "يا ساتر!! يا لطيف!! "هتفت ساخرة وقد صار بإمكاني أن أرد. "ضربوني بماء النار وها أنذي أمامك سالمة غانمة." "اللعنة على الشائعات!! كيف يلفقونها؟" "أنا أدري.. كل يغني على ليلاه.. فاضربي صفحاً.. كل ما سمعته كذب.. أنا كنت متعبة.. أعاني الإرهاق.. وقد أردت أن أستريح.. ألا يحق لي ذلك؟" "كيف لا؟" قالت وهي تتفحص وجهي، يدي، جسمي متنقلة بعينيها من رأسي إلى أسفل قدمي.. وحين تأكدت أنني سالمة لم يمسني ماء نار.. رأت ما لوحتني به الشمس فهتفت.. "إذن.. سبحت!! آثار الشمس على بشرتك!! هنيئاً لك يا أختي"... ومضى الحديث بعد ذلك إلى شؤون النادي وشجونه، تريدني أن أتابع نشاطي الثقافي، وقد انقطع زمناً لا يعرف أحد كيف يصله.

اتصلت بأهلي، كان يشغل بالي اتصالات عاصم، إلحاحه الشديد على أن يكلمني، لكن عاصماً لم يكن في المنزل.. كانت تلك ورديته في العمل، وكانت ستستمر خمسة أيام أخرى. "أتعلم ما يريده عاصم مني؟ "سألت أبي فأجاب" ربما هو مشتاق إليك، يريد رؤيتك.. نحن مشتاقون إليك.. تعالي نتغدّ معاً".. دعاني بنبرة هادئة لا شائبة فيها، فاطمأننت "اليوم مشغولة... آتيكم يوم الخميس".

كان الخميس موعد عودة عاصم.. فقلت أضرب عصفورين بحجر واحد: أرى أبي وأعلم ما يريده مني عاصم. لكن خلال تلك الأيام القليلة، عاودت نشاطي في النادي، قمت بزيارات لصديقات وأصدقاء هناك في الجامعة، في المصلحة، حيث شعرت أنني بشوق لرجاء، تلك

الزميلة القديمة، التي لا تفتأ تراودني ذكراها.. كما اهتممت قليلاً بآية، بالمنزل، بشؤون كثيرة كان غيابي قد كشف عن إهمالي لها. كذلك اتصل بي غيث يريد رؤيتي فحذرته. تعجب.. فقلت "لا تتعجب.. ما مضى لن يعود.. وخير لك أن تسمع بالمعيدي من أن تراه". أراد أن يفهم أكثر لكنني زجرته: "قلت لك ابتعد وكفى.. انس أنك عرفتني يوماً" وأغلقت السماعة بطريقة تقطع كل أمل له بالاتصال من جديد.

مرهف لم يتصل بل جاءني إلى مكتبي فسررت أكثر.. هواتفي كلها مراقبة! أنا متأكدة من ذلك.. لكن المكتب غير مراقب، أو على الأقل ليس بدقة المراقبة الهاتفية. ربما هناك آذنة مسخرة لرصد تحركاتي.. موظفة مجندة لكتابة التقارير بي، لكن هذه أو تلك لن تعرف عن بعد ما أقوله لمرهف وما يقوله لي.. "أهلاً مرهف.. حسن أنك جئت" "أنا لم أجيء، بل هو الشوق الذي جاء بي." مثل ذلك الكلام يدغدغ شغاف قلب المرأة فلا تملك إلا أن تلين.. نظرت إليه بعينين شبه مفعمتين حسرة وحزناً!!" لو كان باستطاعة المرأة أن تمتلك كل من تشتهي من رجال.. لكنت إذن في رأس القائمة يا مرهف!! "قلت في سري وأنا أنظر إليه. كان مرهف الكاتب الناقد يغري.. بل فيه الكثير من الإغراءات.. لكنه لا يملك مالاً ولا سلطة.. وأنا أريد المال والسلطة.. هما مبتغاي.. حلمي الذي ما فتئ يبهرني، يشدني شد العزيز المقتدر إلى كل من يملكهما، وهاهوذا صاحب السعادة الجديد يملكهما لكن يأبى أن يشاركه في أحد.. فماذا أفعل؟.

"مرهف" قلت له أخيراً "أنت عزيز علي.. غالٍ كثيراً.. ولا أريد أن يصيبك أذى بسببي، فابتعد عني".. "ماذا؟ أبتعد عنك؟" "أجل.. هو خير لك، صدقني.. أو أصابك ما لا تحب أنت وما لا أحب أنا.. اسمع مني.. أرجوك.. لا تقترب مني أبداً" "لكن لماذا؟ من يمكنه أن يؤذيني؟ وكيف؟".

"الأفضل ألا تسأل.. فقط من أجلك.. من أجل سلامتك ومستقبلك أريدك أن تبتعد عني.. ألا تأتي على ذكري البتة." وأرفقت كلامي بحركات بت وقطع من سبابتي، نظرات حذر وريبة من عيني وأنا ألتفت يمنة ويسرة، مما جعل الخوف يتسرب إلى قلبه، وكأنما فهم قصدي جيداً، لملم شتاته ثم مضى مسرعاً لا يلوي على شيء.

يوم الخميس ذهبت إلى أهلي. كنت أشعر أنني بحاجة لرؤية أبي. لقد مضت أشهر دون أن أراه. وبدا لي أنه قد تراجع أكثر، كل مرة أراه قد تراجع أكثر.. "أبو هازوز" بات ظاهراً تماماً في حركات يديه ورأسه.. ذاك الذي راح يرتج يمنة ويسرة دون أن يكون له قرار. كأس

الماء تهتز بين أنامله فلا يستطيع تثبيتها.."إيه!! أين جبروتك يا أبي؟ قوتك وعنفوانك يوم تجلدني لأدنى خطأ، أين وليا؟".

لم يكن حزني عليه خالصاً، أعترف لك يا سميتي، لقد خالط ذلك الحزن شيء من تشفٍ، ربما زاده تذكري لما كان يفعل بأمي، يمسكها من شعرها بيد ويضربها بحزامه باليد الأخرى وهي تصرخ وتتوسل حتى يبح صوتها ولا يعود باستطاعتها أن تصرخ أو تتوسل. أتذكر يا أبي؟ لا.. أنا واثقة أنه لا يذكر. كانت امرأته تنفث سمومها في رأسه لتتحول إلى مزيد من العسف والإذلال لنا، أنا وأمي..

لكنه الآن ضعيف، يرتجف، نحيل يهتز.. يستقبلني بترحاب الأب الحنون العطوف.. يا الله!! كم يتغير الإنسان!! ولا أملك إلا أن أنحني عليه، أقبله على وجنتيه، إذ كنت أكره كثيراً أن أقبل يديه.. امرأة أبي استقبلتني بترحاب لكن مشوب بشيء من الحذر. أهو كرهها القديم يأبى إلا أن يستيقظ، خاصة وقد أهملتها الأشهر الماضيات؟ لا زيارات، لا هدايا، لا أعطيات، أتظل كما كانت أم تتغير؟ السلامات المعتادة مرت، كذلك المجاملات، الأسئلة، الأجوبة.. وأنا أنتظر أن يظهر عاصم.. لكن عاصماً لم يظهر.. تغدينا، أكلنا الفواكه ولم يظهر عاصم.. "عاصم يتأخر هذه الأيام.. سيارتهم لا تصل إلا في الرابعة عصراً، "قالت الأم التي ما زالت تحمل هم ابنها الذي لم يتزوج.. هي تتمنى أن يتزوج فتنزاح مسؤولية عن كاهلها، لكنه يأبى.. أبوه، أمه، أخوته كلهم كلموه في الزواج. وكلهم ارتدوا خائبين "ولماذا أتزوج؟ لكي أحمل على منكبي الأعباء؟ "لكنك بحاجة إلى المرأة تخدمك. تقضي حاجاتك، تأتيك بذرية.." قالت أمه فرد بامتعاض "لا أريد امرأة تخدمني.. لا أريد ذرية أبتلى بها.. أنا مثل أبي العلاء أكره أن أجني على أحد".

وبدت الأم منزعجة كل الانزعاج.. "لا أدري لم صار يكره النساء؟ لا يريد سماع ذكرهن. "قالت فنقز شيء ما في داخلي.. أبي نفسه قال عاصم يزداد انطواء يوماً بعد يوم، يؤثر الانفراد بكتابه ولا يخرج إلا قليلاً.. هو يفكر كثيراً، بل إن أفكاره، كما قال، تبدو غريبة أحياناً كأفكار الفلاسفة، ولم يكن أبي يحب الفلسفة أو التفلسف.. الحياة بالنسبة إليه بسيطة فلماذا التعقيد؟ عاصم، كما شكا لي، بات يحب التعقيد، يتكلم بالمنطق والمحاكمات المنطقية، لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب. هو دائم الشكوى من كل شيء دائم التذمر من الحال التي وصلنا إليها.. السياسة لا تعجبه، الاقتصاد لا يعجبه، المجتمع لا يعجبه، فما الذي حل به؟ كان أبي يتساءل وكلي رغبة في أن يتكلم أكثر عن عاصم، هذا اللغز المحير دائماً.

الأخ الأكثر قرباً لي والأكثر بعداً عني.. كيف؟ لا أدري.

أخي الآخر كان لا في العير ولا في النفير، إن جاء أو ذهب لا يعنيني في شيء، كأنه غير موجود على ظهر الأرض.. هو لا يبالي بي، أنا لا أبالي به.. نلتقي فنتبادل سلاماً فاتراً ثم يمضي كل منا في سبيله وكأنه لم ير الآخر.

عاصم شيء آخر، لي معه شؤون وشجون، صلات وروابط فكيف أفكها كلها؟ في لحظة من اللحظات أجده قريباً حتى الالتصاق، محباً حتى الأخوة، وفي لحظة أخرى أراه وكله نقمة وحقد.. هو كتلة من المتناقضات، يسأل عني، يهتم بي، وفي الوقت نفسه يعرض عني ويجافيني.. يحبني حيناً ويكرهني أحياناً.. أنا نفسي أشعر بحاجة ماسة إليه، أكلمه يكلمني، أطمئن عليه، يطمئن علي وفي الآن ذاته أشعر بالخوف منه، بالشك والحذر تجاهه، وكأنما هو نمر خارج قفص لا تعلم متى ينقض عليك..

وصل النمر ونحن نشرب الشاي.. في غرفة الجلوس كنت وأبي نتحدث ونشرب الشاي، هو مازال يتكلم عن عاصم وأنا مازلت أفكر فيه حائرة في أمره.. امرأة أبي كانت في المطبخ تجلي الصحون، دخل فرآني، وللتو تسمر في مكانه محدقاً إلي تحديقة ذلك النمر الذي رأى فريسة فجأة.. أينقض عليها للتو؟ أم يناورها ويداورها؟ "أهلاً وسهلاً "قلت وأنا أقوم مرحبة به هاشة باشة، فقد طغت علي في تلك اللحظة عاطفة الأخوة دافعة إياي بكل شوق الأخت إلى الأخ الذي لم أره منذ زمن طويل..

اقتربت منه وفي نيتي أن أفتح ذراعي له مثلما تفعل الأخت المشوقة وأنا أردد من جديد "أهلاً وسهلاً.. اشتقت لك".

لكنه لم يرد، بل ظل متسمراً في مكانه، مقطب الحاجبين كاظماً.

على الفور جاءني إنذار خفي يقول "حذار" وعلى الفور توقفت في مكاني مرددة "ماذا؟ ألا تسلم؟ "مادة يدي في الوقت ذاته، كي أصافحه. لكن يده التي امتدت لم تكن بقصد المصافحة، شفتيه اللتين نطقتا لم تنطقا بالأهلا والسهلا، بل بالزجر.. "لا أهلاً ولا سهلا بك." فيما أمسكت يده بيدي شادة إياها لأجدني بعد لحظة واحدة أندفع باتجاهه ثم أكاد أهوي على الأرض لولا أن استندت باليد الأخرى إلى الجدار.. "ما بك عاصم؟ مالك؟" صرخت به وقد امتلأ صدري رعباً. "مالي؟ تعالي هنا.. تعالي.. أسرعي "راح يصيح وهو يجرني من يدي التي كان قد تشبث بها جيداً إلى الغرفة المجاورة. أطبق الباب وراءه ثم تابع.. "لا أريد أن يسمع

أبـوك.. لا أريـد للرجـل أن يتهـدم.. أن تـصرعه معرفتـه بحقيقتـك." "أيـة معرفـة؟ أيـة حقيقـة؟" "وتتجاهلين أنت يا وصمة العار.

يا لطخة الوحل في جبيننا!! تتجاهلين يا من سيرتك على كل شفة ولسان!! تعملين الفضائح في المطارات وتتجاهلين؟ أليس كذلك؟ لقد صبرت عليك طويلاً.. كنت أعلم أنك منحرفة ضالة بعت نفسك للشيطان.. لكنني كنت أكذب نفسي.. أما الآن وقد انكشفت على حقيقتك ساقطة بنت ساقطة، عاهرة سلطة من الطراز الأول فلا صبر.. سأؤدبك.. قسماً لأؤدبنك." وشعرت بكياني كله يرتج، رأسي يفتل إلى الجانب الآخر وقد وقعت على صفحة خدي صفعة قوية قاسية كضربة من ذيل تنين.. "تصفعني؟ "تمتمت وأنا أحاول الابتعاد عنه.. منكمشة على نفسي وقد نسيت أنني تدربت يوماً على الجيدو والكاراتيه.. لأغدو مجرد أخت مرتكبة آثمة أمام أخ يدافع عن شرفه.. بسرعة امتدت يده إلى شعري وعلى نحو لم أستطع التهرب منها.. أمسكت به ثم جذبت رأسي بقوة هائلة وجدت نفسي بعدها أرضاً وقد انبطحت على وجهي، فيما انهالت اللكمات والرفسات إلى درجة جعلتني آلامها أصرخ.. "أبي.. النجدة.. النجدة".

فيما كان يسب ويشتم بأبذأ ما لديه من كلمات.. عاهرة سلطة!! حقيرة!! كلبة!! منحطة!! وأنا أصرخ، أحاول حماية رأسي، الدفاع عن نفسي لكنه كان قوياً إلى حد جعلني أيئس... فلا فكاك.. سيقتلني هذا الوحش الهائج.. سيشوه وجهي.. وأشتد رعباً فأعاود الصراخ "أبي.. خالتي.. النجدة.. النجدة!!" أخيراً شعرت بأن صراخي أجدى نفعاً. لقد وصل أبي وخالتي "لا.. عاصم.. دع أختك." "هذه ليست أختي.. هذه عاهرة ابنة عاهرة.. قسماً لأذبحنها." وتركني فجأة مندفعاً إلى الخارج، فيما اندفعت أمه وراءه صارخة به "دعها عاصم.. مالك ومالها؟" "كيف أدعها وقد ألحقت بنا العار؟ سأذبحها بالسكين.. الدم وحده يغسل عارها هذه الساقطة ابنة الساقطة." لكن صوته كان يبتعد.

ربما ذهب إلى غرفته يأتي بمسدس، ربما ذهب إلى المطبخ يأتي بسكين يذبحني بها كما هدد، لا أدري. كنت أرتعد هلعاً وألماً وأنا أنتظر انتظار الشاة ذابحها، لكن سرعان ما انحنى أبي علي ثم بيديه المرتجفتين أنهضني عن الأرض ليدفعني خارج الغرفة فخارج المنزل قائلاً: اذهبي من هنا.. اذهبي.. لا تعودي إلى هنا.. لا ترينا وجهك أبداً..

كنت خائفة، أوصالي ترتعد، مفاصلي تصطك، عيناي تغبشهما الدموع. مع ذلك رحت أنزل الدرج مثنى وثلاث، والصرخات ورائي تلاحقني.. كانت ثمة معركة ولاشك.. هو يصرخ يريد اللحاق بي وأبوه وأمه يمنعانه. كنت أسمع أصواتهم جميعاً. "دعها وشأنها "كانت تقول له

أمه "أمها قبلها عاهرة.. فهل تكون إلا كأمها؟ "وكان هو يصيح "لن أدعها.. سأذبحها.. سأشرب من دمها "فيرد أبوه بصوته الراعش "قلت لك دعها.. لا تلطخ يدك بها.. لا تدمر حياتك بسببها،" ثم غابت الأصوات كلها وأنا أصل إلى الشارع. أركب سيارتي وبسرعة الصاروخ أنطلق غير مصدقة أنني نجوت.

"إيناس!! يا إلهي!! أين أنت؟ "رحت أكلم المهتاف وأنا أسمع من الطرف الآخر رنات جرس لا تجد من يرد. مرتين، ثلاث، أربع مرات، رننت الهاتف وعلى أكثر من رقم لكن دون أن يرد أحد.

لاشك أنه في منزله.. يمضي قيلولة بعد الظهر.. لياليه كلها سهر.. فكيف لا يحتاج إلى قيلولة بعد الظهر؟ لكنني بحاجة إليك" أرجوك إيناس" رحت أخاطبه وأنا أنظر إلى وجهي في المرآة.. كانت الأصابع الخمس قد انطبعت على صفحة خدي، محمرة مزرقة تحمل في طياتها آلام دهر طويل من القهر والذل.. "يصفعني؟ يريد ذبحي؟ إذن سأريه سأرد له الصاع صاعين".. لقد وصلت إلى المنزل وفي ذهني تصور كامل لما أريد أن أفعل.. آية نائمة، المدبرة تعمل في المطبخ ودون أن أدعها تراني أسرعت إلى مخدعي.. أرن الهاتف وانظر إلى نفسي في المرآة.. شعري مشعث كأنما هبت به عاصفة.. عنقي، وجنتاي، صدري كلها حمراء كمؤخرة سعدان.. على كتفي، أضلاعي، ذراعي، فخذي، وقد كشفت عنها كلها كدمات زرقاء مصفرة حمراء مخضرة، تركتها الرفسات واللكمات ..

يا "الله!! ماذا فعل بك عاصم؟ أي حقد؟ أية كراهية؟" كنت أخاطب نفسي وأنا أخلع ملابسي كلها فأحصي عشرين كدمة على جسدي أو تزيد.

إذن.. كان سيذبحك حقاً.. ذهب ليأتي بالسكين كي يذبحك فعلاً.

لابد إذن أنه سمع كل شيء.. عرف الحقيقة.. بل هو قال ذلك.. حتى أمه وأبوه باتا يعرفان الحقيقة.. فماذا تفعلين بعد الآن؟ "to be or not to be" تلك هي المسألة. أكون أو لا أكون.. لم يعد ثمة مجال للإخفاء أو التمويه.. الحقيقة انكشت واللعب صار على المشكوف.. ألم يقل ذلك إيناس؟ اللعب على المشكوف.. لعب الأذكياء.. إذن دافعي عن نفسك سميرة.. الحياة جميلة.. حلوة.. فدافعي عن حياتك.. تمسكي بحقك فيها واقضي على كل خطر يهددها."

وشعرت بصرخة تنطلق من شفتي دون أن أشعر.. كنت أتلمس خاصرتي حيث كدمة زرقاء كبيرة آلمتني أيما إيلام، فصرخت.. "يا إلهي!! ماذا أفعل بهذه الكدمات؟ هذا الوجع الذي بدأ ينطلق من جسمي كله لينتشر في جسمي كله؟ أآتي بطبيب؟ أأشتكي للشرطة؟ ووجدتني أوبخ نفسي "ويحك!! أتزيدين الطين بلة؟ تتعرضين للضرب والبهدلة"، ثم الفضيحة؟

لا.. ينبغي ألا يسمع أحد ، ألا يعرف أحد.. وحده إيناس يجب أن يعرف.. وحده يشور علي.. أليس هو حاميّ وراعي؟ درعي وسيفي؟ "واستلقيت على السرير.. مهدمة محطمة.. تنهمر الدموع من عيني.. يا إلهي!! لم خلقت المرأة ضعيفة لا تستطيع حتى الدفاع عن نفسها؟ لم خلقت الرجل أقوى فيبغي عليها ويطغى.. يتجبر ويستبد.. عضلاته لإهانتها.. قوته لاستعبادها.. لكن لا.. لن أسمح لعاصم يفعل بي ذلك.. نحن ندان متساويان، ليس له من حق علي يضربني ويشتمني.. نحن في عصر المساواة، لا عصر الرق والاستعباد..

المرأة أمعة خانعة والرجل سيد مطاع.. لأعلمنه كيف يقف أمامي كالعبد الذليل.. لأجعلنه عبرة لكل معتبر"... ودققت رقم الهاتف، فارتدت إلي روحي وهو يرد "الحقني.. إيناس.... أكاد أموت.. أرجوك.. هات معك طبيباً وأسرع إلي.. "نزلت به رشاً إلى درجة لم يستطع إلا بالكاد أن يسألني أين أنا.. قلت له ثم أغلقت السماعة وكأن الأمر منته لا يحتاج إلى نقاش..

لم أكد أسرح شعري وألبس غلالة نومي وإزاري حتى رن جرس الباب. دخل إيناس بقامته الفارعة وعضلاته البارزة وراءه الطبيب.. "خير!؟ ماذا حدث!" قال مقترباً مني متفحصاً إياي، وقد جذبته للتو آثار الأصابع على صفحة خدي. "سأحكي لك كل شيء.. سأحكي لك.. فقط دع الطبيب يفحصني.. أنا أتألم.. جسمي كله يوجعني".. وانكب الطبيب في الحال واضعاً سماعة على صدري، فاحصاً ضغطي، هازاً رأسه ثم بدأ يكشف على جسدي.. حيث الكدمات متناثرة. متفرقة متجمعة، كغيمات ربيعية.. "أنت تعرضت لضرب شديد.. هذه كدمات ورضوض.. ازرقاق جلد ونزف داخلي.. يجب أن نكتب لك تقرير طبياً" "لا.. لا.. دكتور.. فقط عالجني.. صف لي الدواء". وأشرت برأسي لإيناس "أرجوك .. قل له.. ماذا آخذ؟ كيف أسكن الألم.. ولا شيء، آخر". "لكن يجب أن تتكلمي.. قد تكون لهذا الضرب عواقب وخيمة، فمن يتحمل المسؤولية؟" رد إيناس هذه المرة وقد اشتعلت عيناه غضباً واحمرت وجنتاه احتقاناً." "أنا أتحمل المسؤولية." أجبت وأنا أطلق صرخة ألم إثر ضغطة من أنامل الطبيب على أضلاعي. "قلت لك سأحكي كل شيء.. فقط أريد دواء يخفف الألم، يزيل بأسرع وقت هذه الكدمات، تلك الآثار." "حسن، حكيم.. ماذا نعطيها؟ "قال مخاطباً الطبيب الذي بدا غير مقتنع. لقد كان يفحصني وهو يتمتم "مجرم.. مجنون.. وحش هذا الذي فعل بك ذلك" لكنه أخيراً كتب لي وصفة، فيها بضعة أدوية ثم بدأ يعطيني توجيهاته: "لا تتحركي من الفراش.. الزمي الهدوء.. سيتخشب جسدك كله بعد قليل.. لا تخافي.. فقط ارتاحي.. دعي الأخت "قال وهو يشير إلى المدبرة "تعمل لك كمادات الثلج، أتعرفين كيف؟" "لا.. لم أفعل ذلك من قبل "ردت المدبرة فاقترح إيناس.. "نأتي بممرضة تعرف الكمادات.. ما رأيك؟ "قال وهو يوجه سؤاله

الأخير إلي.. "كما تريد. "أجبت، فهمس بشيء في أذن الطبيب. عندئذ خرج الرجل وهو يتمنى لي الشفاء، ترافقه المدبرة ليبقى إيناس معي وقد تحول كل ما فيه إلى إشارات استفهام.

"إنه عاصم" أجبته على إشارات استفهامه قبل أن يسأل. "أخوك؟" سأل باستغراب واستهجان، هززت رأسي بالإيجاب وفي حلقي غصة منعتني من الكلام، فيما بدأت الدموع تسيل على خدي.. كأنها وحدها العلاج.. "لكن لماذا؟ كيف؟ أين؟ "راح يسأل رشاً.

بدأت، وهو يجلس على جانب السرير، أروي له القصة ناشجة باكية. كنت أحس أن علي أن أبالغ ما استطعت كي يكون التأثير أشد ما يمكن.. فبالغت إلى أقصى حد، لفقت واخترعت إلى درجة وثب معها على قدميه صائحاً، وقد احمرت عيناه وانتفخت أوداجه، "المجرم، يريد أن يذبحك؟ " ولولا ذهابه إلى المطبخ لما استطعت الفكاك منه. "قلت بين نشجاتي ودموعي. "بل ربما كنت ذبيحة الآن مضرجة بدمائي." "الحقير السافل!!" صاح ملء صوته وهو ينتفض جالساً واقفاً "ألا يعلم أنني وراءك.. ظهرك وسندك؟" "بل لأنه يعلم فعل بي ذلك.. لقد نعتني بأبشع النعوت.. ساقطة... عاهرة سلطة.. مومس".. "كفى.. كفى.. قسماً لألقننه درساً لن ينساه أبد الدهر" "أجل.. أريدك أن تلقنه هذا الدرس.. أريدك أن تمرغ أنفه في التراب".. "بل سأقطع لك رأسه "قاطعني بحماسة أشد.. سأغيبه إلى الأبد".. "لا.. هذا لا.. فقط أريدك أن تذله.. تهينه.. أريده أن يظل على قيد الحياة كي أدوس على رقبته دائماً، أرد له بعض الإذلال الذي مارسه علي." "حسن.. لك ما تريدين" "لكن ماذا ستفعل به؟ "قلت بفضول ولهفة فرد كاظماً "لا.. هذا شغلنا نحن.. ونحن نعرف شغلنا جيداً.. أنت ارتاحي الآن.. سأتأكد من إرسال الممرضة والأدوية لك.. اتصلي بي إن احتجت إلى أي شيء.. "ثم مال علي قبلني قبلة خاطفة وخرج كهبة الريح.

لم يكد يخرج حتى دخلت الممرضة، معها الأدوية والكمادات. تعجبت وأنا أرد عليها التحية، كيف وصلت بهذه السرعة؟.. أهي هدهد سليمان ارتد إليه بأسرع من إغماضة جفنه. لكنني تذكرت.. إنه الطبيب الذي تلقى الأوامر همساً، وكان قد مضى على ذهاب الطبيب زهاء الساعة. أسرعت الممرضة إلي تسقيني حبات الدواء وتضع كمادات الثلج على الكدمات مبدية لي كل تعاطف وتحسر. "حرام هذا الجسم يضرب!! واأسفاه على هذا الصدر يزرق ويحمر!! حسرتي على بشرتك الجميلة تتورم وتتكدم!! "ولم أعرها كثير انتباه.. كنت أتوجع وكانت الكمادات تخفف الوجع، وكان كل ما يشغل بالي أن أمر من هذه المحنة فلا تترك آثاراً في جسدي.. كان أكره ما أكره أن أصاب بتشوه، أن أفقد أنوثتي وجاذبيتي.. وكنت

أخاف الوجع أيضاً، الوجع الذي لم أعرفه من قبل، فأسلمت جسدي لها، وكلي أمل أن أنام فلا أفيق إلا وقد ذهب كل وجع.

نمت، لكن حين أفقت لم يكن الوجع قد ذهب، بل أصبح ظهري كالخشبة اليابسة، لا ينقلب ولا ينطوي.. ازددت خوفاً وبدأت أسئلتي تنصب انصباباً على رأس الممرضة.. "هذا أمر لابد منه" شرعت تطمئنني. يومين أو ثلاثة ويعود جسدك طرياً كغصن الرمان.. استرخي.. انقلبي على بطنك.. واسترخي.. يعود كل شيء على خير ما يرام." بدأت الممرضة، وقد عرت ظهري، تدلكني بمرهم واخز الرائحة، ثم تسقيني حبات من جديد..

سبعة أيام ظللت بين يدي الممرضة، تسقيني الدواء، تطعمني، تدلك ظهري، تضع الكمادات على جسدي، وبكل رقة وحنو، حتى تعجبت "أيعقل أن تقوم ممرضة بوظيفتها بمثل هذه الرقة والحنو؟ لكن في الليلة السابعة، وجدتها تقترب من مواضع حساسة في جسدي حيث لم يكن هناك كدمات ولا رضوض، وقفز إلى ذهني فجأة سؤال مقلق: أتراها سحاقية هذه المرأة؟ كنت قد أرخيت نفسي مسلمة جسدي لها تفعل به ما تشاء، لكن في تلك اللحظة، وهي تعاود الاقتراب من مواضعي الحساسة، تشنجت ثم ابتعدت "نبيهة.. ما بك؟ هل أنت.. "لكنني لم أستطع إكمال السؤال، فيما انبرت هي وراحتاها على جسدي تتحسسانه وتفركانه. "جسدك جميل يا سيدتي!! بل لم أر جسد امرأة بهذا الجمال.. فلا تؤاخذيني.. رغماً عني.. أود مداعبته". "تحبين النساء إذن لا الرجال؟ "بققت البحصة أخيراً وأنا أراها تشدد من مداعبتي. "الرجال؟ "قالت وهي تلوح برأسها يمنة ويسرة "لا.. لا.. أنا لا أحبهم.. ليس من ورائهم إلا وجع الرأس وتعب القلب.. علاقة مع رجل قد تجر الحبل والفضيحة.. الهموم والمشاكل، لكن العلاقة مع المرأة تظل سليمة آمنة.. لا فضائح ولا مشاكل." "ومنذ متى؟ "سألتها وأنا أتفرس في وجهها ثم أنتقل إلى جسدها كله. كانت امرأة ممتلئة الجسم حتى التفزر.. نهداها، فخذاها وجهها، بل يخيل إليك أنك إذا ما نقرت بإصبعك على وجنتها لتفزرت دماً.. هي صحيحة الجسم، قوية البنية ملؤها الصحة والعافية، فلماذا لا تكون سوية كنساء الأرض جميعاً؟" "مذ كنا في مدرسة القبالة، "بدأت ردها شاردة النظرات إلى البعيد.. "مراهقات لم نبلغ سن الرشد.. لكن الغرائز كانت تفور في أجسادنا، وكنا نظل أياماً بطولها لا نرى إلا بعضنا بعضاً ندرس معاً، نأكل معاً نستحم معاً.. وكان من الطبيعي أن تبحث واحدتنا عن اللذة لدى الأخرى.. "وتوقفت لحظة ثم استأنفت وعيناها تتفرسان في عيني. "لكن أنت ألا تحبين النساء؟" "لا.. أنا أحب الرجال.. أكره الشذوذ والانحراف، بل أتساءل لماذا النساء إن كان هناك رجال؟" "لكن هناك رجال يحبون الرجال، فاسأليهم لماذا الرجال إن كان هناك

نساء؟" "هؤلاء أيضاً على خطأ.. شاذون.. منبوذون من المجتمع فلماذا نقلد الشاذين المنبوذين؟ لماذا لا نكون أسوياء.. نعيش كما أرادت لنا الطبيعة؟" "لكنها متعة.. لذة فائقة أن نتعرى الآن وتداعب واحدتنا الأخرى..تعالي نجرب".

وبدأت تخلع فستانها كاشفة عن جسد أبيض محمر، فارتعد شيء في داخلي... صدقيني يا سميتي لا أدري ما الذي ارتعد في داخلي.. لكنني خفت. شيء ما جعلني أرتجف.. "لا.. البسي فستانك وغادري.. هيا.. اخرجي.. لا أريدك هنا".. انقبض وجه الممرضة وهي تسمع صراخي. في الحال عادت ترتدي فستانها وتسرع إلى الدواء "خذي هذه الحبة.. ستهدئين.. ستهدئين" ثم لم أشعر إلا وأنا أستغرق في سبات عميق..

في اليوم التالي أفقت على صوت يلعلع عند الباب." أين هذه الحقيرة السافلة؟ أين ابنة ميس، المومس الساقطة؟" وللتو عرفت به صوتها، امرأة أبي.. انتفضت في فراشي بل كدت أقفز هرباً منها، وحده ظهري أوقفني وقد أطلق رسالة إنذار.لم يكن تخشبه قد زال بعد.. ورأيتني أرتد إلى الفراش، فيما الممرضة تسرع إلي من زاويتها البعيدة. "لا تتحركي.. أنا هنا لا تخافي." وعاد الصوت يلعلع من جديد متقدماً أقرب فأقرب. "هيا.. خذيني إليها. أسرعي.. هيا" ثم رأيتها تدخل يرغي الزبد في شدقيها.. "ماذا تريدين يا مرأة؟ اخرجي من هنا.. اخرجي. "تصدت لها الممرضة وهي تشمر عن زنديها استعداداً لمعركة ضروس.. "لا.. نبيهة.. دعيها.. واخرجي أنت. "حطت كلماتي كالصاعقة على كلتا المرأتين: امرأة أبي التي هدأت، والممرضة التي استكانت قالبة شفتها ثم خرجت..

"خير.. ماذا هناك؟ "بادرتها وأنا أسند ظهري على رأسية السرير، ممسكة بزمام الأمور. "ابني عاصم.. أين هو؟ ماذا فعلت به؟" "وما ِشأني أنا؟ ألا ترينني؟ منذ ذلك اليوم المشئوم وأنا ملقاة هنا، لا أستطيع الحراك." "أين ذهب إذن؟ عاصم من ثاني يوم فص ملح وذاب.. وتريدينني أن أصدقك؟" "تصدقين أو لا تصدقين، هذا ليس من شأني.. أنا لا علاقة لي.. هو أراد قتلي.. مع ذلك هو أخي.. فما تحسبين أنني أفعل بأخي؟" "اسألي نفسك.. أسبوع كامل الآن ولم يبن له أثر.. لا صوت.. لا صورة.. فماذا جرى له؟ قولي أين هو؟ من أسأل عنه؟ فقط أريد أن أطمئن. عاصم حي أو ميت، أريد أن أعرف." "وكيف لي أنا أن أعرف؟ ربما عاد إلى عمله.. ربما مع أصحابه.." "لا.. لا.. سألنا عنه في مكان عمله.. سألنا أصحابه جميعاً.. لم يره أحد.. لم يسمع صوته أحد. خرج في ذلك الصباح ولم يعد" "إذن.. اسألوا عنه المستشفيات، مخافر الشرطة" "سألنا.. قلت لك سألنا.. لكن لا جواب.. ابني ضاع.. عاصم فقدته.. فما الذي فعلت به؟ ما الذي فعلت به؟" كررت السؤال وصوتها يزداد حدة إلى أن تحول إلى صراخ. "اسمعي،" قلت بنبرة

التهديد وكلي خشية أن تتجاسر أكثر وتنقض علي منشبة أظفارها في وجهي، مشوهة إياه، فاقئة عيني: هي الحاقدة المبغضة، من تراه يعلم ما تفعل؟ "تكلمي بأدب ولا ترفعي صوتك أو تركتهم يجرونك جراً من شعرك؟" "يجرونني من شعري؟ تقتلين ابني وتجرينني من شعري.. أي قلب أسود تحملين في صدرك؟ أية ذئبة غادرة أنت؟" "اخرجي من هنا.. هيا.. اخرجي من هنا." صرخت بصوت تقصدت أن يكون عالياً.. سمعته الممرضة والمدبرة فأسرعتا إليها، تمسكانها من ذراعيها ثم تشدانها إلى الوراء خارجتين بها، فيما هي تصيح، "لا.. لن أسامحك على ذلك.. لن أدعك تقتلين ابني.. قسماً لأجعلنهم يذبحونك... بالسكين يذبحونك".. وخفت الصوت شيئاً فشيئاً إلى أن غاب وقد أطبق وراءها الباب..

حينذاك فقط رحت أفكر: حقاً أين عاصم؟ ماذا فعل به إيناس؟ لكن الصوت الآخر أجابني "وأين يكون إلا في السجن؟ هم بارعون في سجن الناس، معتادون ذلك حتى دون سؤال أو استفسار.. يغيب أحدهم، إذن هو في السجن، وكم هناك أناس يغيبون.. يجيء رجال بعد منتصف الليل إلى الرجل فيسوقونه مكبل اليدين، أو يعترضه عناصر متجهمو الوجوه في الطريق ثم يدفعونه إلى سيارتهم ومن ثم يلقونه في السجن.. أمر عادي. لهذا ربما لم يخطر ببالي أن أسأل صاحب السعادة "ماذا فعلت بعاصم؟" هو قال ذلك شغلهم، وشغلهم حبس الناس فلماذا أسأله من جديد؟.

لكن وقد جاءت تهددني، وجدت لزاماً علي أن أسأله، أن أروي له ما حدث.. لكنه مرة ثانية زاغ وراغ من الجواب، كما خاف علي وشدد تعليماته آمراً بأن لا أسمح لهم بفتح الباب لأحد.. "من يعلم؟ قد ينفذون تهديداتهم ويؤذونك.. "قال، مؤكداً أن أتمسك بالممرضة، فهي تنفع في الملمات.. تدافع عني إن لزم الأمر وتحميني مثل الرجال، هي الأشبه بالرجال.. واستغربت. أتراه يعلم أنها كالرجال تحب النساء وتبحث عنهن؟ هو يعرفها جيداً، إذن هو يعرف أنها سحاقية، فهل بعثها إلي لاختباري؟ يريد أن يعرف إن كنت شاذة أو سوية؟ كان ذلك الحدث مزعجاً كل الإزعاج لكنه عاد علي بفائدتين: الأولى أنه جعلني أتراجع فلا أطرد الممرضة التي تعرف جيداً كيف تمسد وتدلك، ترعى وتمرض والثانية أنه أرسل إلي حارسين شخصيين صارا يقفان بالتناوب أمام باب المنزل فلا يجرؤ على الاقتراب منه أحد.

بعد أيام جاء أبي فكادوا يطردونه، لو لم أسارع لاستدراك الأمر. بعدئذ جاءت أختي ربى فراحا يحققان معها..يريدان أن يعرفا كل شاردة وواردة عنها.. وهكذا الأمر حين جاء أبي برفقة امرأته من جديد.. كانوا جميعاً يريدون الاطمئنان على عاصم، واثقين من أنني أنا وراء اختفائه، راجين أن أتدخل لدى أولي الأمر لإظهاره من جديد. لكنني كنت أقسم لهم "لا

أعرف مكانه.. لا أعلم شيئاً عنه." وكنت صادقة بشكل من الأشكال، فإيناس مصر على ألا يحدثني بالأمر، أن يجعلني بعيدة عنه ما استطاع، ولقد رأيت في ذلك كل النفع، حين اشتد ضغط أهلي علي.. ازدادت توسلاتهم واستعطافاتهم لي.. ربى حلفتني بالأخوة، بالمحبة، بكل ذكريات الصبا التي تربطنا معاً أن أمد يد المساعدة لأخي، أن أنقذه من أنياب الوحوش الذين لا يعرفون شفقة ولا رحمة. أبي، بأبي هازوزه، راح يتضرع إلي، يترجى أن لا أكون قاسية القلب إلى درجة أنتقم فيها من أخي. صحيح هو أخطأ، لكن العفو عند المقدرة، والمسامح كريم، خاصة أنه سمع الناس تحكي قصتي في المطار والألسنة تلوك سمعتي راوية قصصاً وقصصاً عني.. وشعرت بنفسي أشفق عليه... أهذا أبي، الذي كان يبدو لي وأنا طفلة صغيرة، عملاقاً جباراً يجسد القوة كلها، إلهاً على الأرض؟ إيه!! كم يغير الزمان الإنسان؟ كم يدور الدولاب فيصير من في أعلاه أسفله ومن في أسفله أعلاه؟.

غير أن إشفاقي لم يجد صدى لدى إيناس" يجب أن نربيه".. قال، ونحن نجلس إلى طاولة في مطعم منعزل موحش علق بين السماء والأرض." والتربية لا تكون بتربيت الكتف، أو المداعبة البسيطة.. لا.. حبيبتي.. التربية تكون بقدر ما توجع، ألم تسمعي المثل يقول: إذا ضربت فأوجع. والآن نحن نضرب فلنوجع" "لكن لا تشوهوه.. لا تتركوا فيه عاهة أرجوك".. "لا.. لا تخافي" "هو عندك في السجن؟ "لا.. هو في مكان أكثر راحة وهدوءاً".. "أين؟ "ألححت عليه فراغ من جديد "أتريدين أن نمضي السهرة عليه؟ نحن هنا لكي نشم الهواء.. نستريح قليلاً.. فلا تذكري ما يعكر صفونا الليلة.. "ولم يكن علي إلا أن أسمع وأطيع.. كانت تلك هي المرة الأولى التي أخرج فيها من البيت.. وكان قد عرض علي أن أذهب إلى شقة فاخرة له في أحد أحياء المدينة، لكنني كنت أشعر بحاجتي الماسة للخروج خارج المدينة.. إلى غابة.. برية.. مكان أطل منه على العالم.. حدثته برغبتي تلك فهلل ورحب." وماذا في ذلك؟ نذهب إلى مطعم معلق على حافة جبل عالٍ، جديد لم يعرفه الناس بعد".. كان قعودي الطويل في السرير قد جعلني أحلم بكسر الطوق، بالابتعاد عن البيوت والمنازل.. وكان تخشب ظهري، ازرقاق جلدي، وجع أوصالي، كلها تدفع بي لأن أنطلق كنسمة الهواء حرة لا تقف عند حد..

دخلنا المطعم فلم نجد سوى طاولتين أو ثلاث.. رآه الندل فأسرعوا إليه "صاحب السعادة... شرفتنا." كانوا يعرفونه، يأتي مع هذه المرأة، مع تلك، ماذا في ذلك؟ الكل يخافون منه أما هو فقد تجاوز حاجز الخوف.. وكم أعجبني ذلك.. مع صاحب السعادة يمكننا أن نذهب إلى أي مطعم، فندق، منتجع.. هو ليس كصاحب النبالة يخاف من خياله، وليس كصاحب

الرفعة يحسب لكل شيء ألف حساب.. هوذا إذن الرجل الذي كنت أبحث عنه.. فلأتمسك به ما استطعت. "تعلم؟ "قلت وقد شربنا نخب شفائي نوعاً من الويسكي لم أذق مثله من قبل.

"أشعر وكأنني أبعث للحياة من جديد.. كأنني كنت في قبر". "لا سمح الله.. لم تكوني في قبر ولا ما يحزنون." "ماذا إذن، هذه الحاجة الماسة للهواء أستنشقه.. للفضاء أطير فيه.. للحرية؟". "هذا ما ينقصك، والمرء دائماً يبحث عما ينقصه." "معك حق." قلت وأنا أشرد عائدة إلى الماضي لحظات ثم أتابع.. "لقد كنت دائماً أبحث عن القوة.. أسعى للوصول إليها، ألأنها كانت تنقصني؟" "أجل.. وكلنا كذلك" أكد بصورة مباشرة شعرت معها أنه هو أيضاً يعود إلى الماضي "كنا ضعفاء مهمشين دون طبقات المجتمع كافة، وينقصنا كل شيء.. فماذا فعلنا؟ سعينا بكل الوسائل للقوة، للسلطة، للمال.. علنا نعوض ما ينقصنا.. أجل، الآن أعترف لك سميرة أن أكثر ما كان يمضني في صباي الباكر: الشعور بالحرمان، بالدونية، بالفقر حتى تحول إلى عقدة نقص،" "عقدة نقص؟" سألت مستغربة اعترافه." "أجل لهذا عملت.. بكل ما أستطيع، لكي أفك تلك العقدة، ولم أكن أستطيع ذلك إلا بالوصول إلى السلطة، بدوس كل من كان فوقي ثم صار تحتي، بل أعترف لك بشيء آخر: ثمة ثلاثة مبادئ سرت عليها مذ وعيت الدنيا".. "ما هي؟ قل لي علني أتعلم منك، أسير على خطاك يا معلمي. "همست وأنا أتذكر معلمين آخرين لي استفدت كثيراً من دروسهما." "أولها نفسك ثم نفسك ثم نفسك بعدئذ يأتي الآخرون. وإذا استطعت ألا توليهم أي اهتمام فلا تولهم، فما من أحد يستحق الاهتمام." "تعني أن تكون أنانياً..." "لا أنانياً فحسب،" قاطعني بحماس أشد بل نرجسي يحب ذاته حتى درجة العبادة." "والغيرية؟ الإيثار؟" "هذا كلام هراء.. مثالي يصلح لأولئك الفلاسفة المجانين" "يا إلهي!! كم تعجبني أفكارك يا معلمي!! زدني منها أرجوك".

هتفت فرحة وقد وجدت قاسماً مشتركاً عظيماً بيننا، أنا التي حسمت الأمر منذ زمن طويل واتبعت تعاليم صاحب الرفعة والنبالة في الأنانية والنرجسية.

"الثاني هو: السلطة.. حصِّل ما استطعت من السلطة ، ولا تهتم بأي شيء آخر." "حتى ولو كانت بوسائل لا تبررها القيم. "سألته وأنا أتذكر درساً قديماً من معلمي القديم".. "الغاية تبرر الوسيلة دائماً.." أجاب مبتسماً." فلا يهمنك.. أياً كانت الوسيلة يجب أن تصلي إلى السلطة." "يا الله!! كم بيننا من قواسم مشتركة يا حبيبي!! "قلت وأنا أميل عليه ألامس بشفتي صفحة خده.. ففي ركننا البعيد الخالي من ذلك المطعم كان باستطاعتنا أن نتبادل القبل، أن نفعل أي شيء طالما نحن وحيدان والندل يأتوننا بالطعام والشراب ثم يغيبون.. لعلهم يعرفون عادته فلا يقتربون.. "أما المبدأ الثالث، "تابع إيناس بحزم وقسوة أكثر، "فهو اضرب.. ابطش.. دون شفقة

أو رحمة، فكلما بطشت أكثر برهنت أنك تملك قوة أكبر وازداد خوف الناس منك أكثر." "هذا مبدأ عظيم، قلت شبه هاتفة "لكنني لم أستطع تطبيقه يوماً، فأنا لم أكن في موقع سلطة ثم أنا امرأة.. "ومالها المرأة؟ "أجابني بسؤال جديد" ألم تسمعي بتاتشر؟ كانوا في أوروبا يسمونها المرأة الحديدية، زنوبيا كانت أعظم ملكة في الشرق، سميراميس كانت تقود بنفسها الجيوش وتقطع بسيفها أعناق أعدائها، حتى زوجها الملك نينوس قطعت عنقه ودحرجت رأسه على الأرض.." وشردت.. يا إلهي!! هو يعرف قصتك يا سميتي.. يعلم كم كنت قوية شديدة المراس كم من الأمراء والقواد ذبحت حين وقفوا في طريقك، كم من بلدان غزوتها وجندلت ملوكها تمرغينهم بالتراب!! لكن حمداً لله.. هو لا يعلم كم بيننا من تماه وتوحد وكأن آلاف السنين لا تفصل بيننا، لا يعلم أنني أسير على خطاك خطوة خطوة وكلي أمل أن أصبح مثلك ملكة الشرق الحسناء، المرأة الأقوى والأكثر سلطاناً في التاريخ.

"هه.. أراك شاردة.. أين يا ترى؟" "تعلم؟ "بدأت وقد خطرت ببالي فكرة جهنمية: أستفزه علني أعرف سريرة نفسه ومكنونات صدره." تشغلني بعض الأفكار: العدالة الاجتماعية، تكافؤ الفرص، التفاوت الطبقي".. لكن سرعان ما قاطعني قرفاً واشمئزازاً.. "أية أفكار هذه؟ لا.. لا من السخف التفكير بهذه الطريقة.. عدالة اجتماعية؟ كيف يمكن تحقيق العدالة؟ هذا كلام يتحدث به أفلاطون، ابن رشد، الفارابي.. مثل أولئك الفلاسفة المثاليين الحالمين.. أما نحن فعلينا أن نفكر بشيء آخر: تحقيق العدالة لأنفسنا فقط نحن الذين حرمنا طويلاً، الاهتمام بمصالحنا فقط، وليذهب الضعفاء إلى الجحيم.. نيتشه ألم يقل بقتل الضعفاء، المرضى، المساكين، الأغبياء من الناس فلا يبقى إلا الأقوياء الأصحاء؟" "أجل." أجبت وقد أعجبني استشهاده بنيتشه. "هوذا القول الحق.. الضعيف لا يستحق الحياة.. الحياة للأقوياء فقط. لذلك، الفرص لهم فقط.. ولا فرصة لمن لا يفرض وجوده بالقوة".

"معك حق يا معلمي.. كلامك جميل يا معلمي. "قلت شبه هاتفة فرحة بأنه يدق على الوتر ذاته الذي كان يطيب لي أن أدق عليه.

"أما التفاوت الطبقي، "تابع وكأنني لم أقاطعه.. "فلابد من بقاء التفاوت الطبقي، بل وترسيخه أيضاً.. ليزداد الفقير فقراً والغني غنى، الضعيف ضعفاً والقوي قوة. ألم يقل الإنجيل من معه يعطى ويزاد ومن ليس معه يؤخذ منه؟" .. "بلى يا معلمي" "إذن هي ذي سنة الطبيعة كي تكون الهوة بين الصفوة والعبيد كبيرة واسعة لا يحلمون أبداً بجسرها، فيظلون هم تحت ونحن فوق إلى أبد الآبدين." "فكرة رائعة!!" هتفت وأنا أشعر كأنه يضع بكلامه بلسماً على جرحي.. أجل.. هوذا الوضع الصحيح: طبقتان: سادة وعبيد تفصلهما هوة فاغرة فاها بطريقة لا

يستطيع سدها أحد.. إذن سأظل، أنا السيدة هناك في الأعلى... والآخرون العبيد هناك في الأسفل.. لكن فجأة خطرت ببالي فكرة أخرى فاستأنفت بنبرة الاستفزاز ذاتها: "المشكلة أنهم هم الكثرة.. ونحن القلة. وماذا يضمن ألا يتحرك أولئك الكثرة فيقلبوا المجتمع عاليه سافله، وثمة أمثلة كثيرة في التاريخ..؟" "لا .. لا تخافي.. ما نطبقه من سياسة يضمن خضوع هؤلاء العبيد إلى الأبد فلا يرفع واحدهم رأسه." "أية سياسة؟" سألت وأنا أشعر أننا نقترب من بيت القصيد.. "أقول لك: جوّع كلبك يتبعك، ألا نطبقها خير تطبيق؟" "بلى.. ورب الكعبة.. الناس جائعون." "عظيم وهل تظنين هذا بالمصادفة؟" "لا أدري.. صدقني لا أدري." بل ينبغي أن تدري.. كذلك الناس أحرار في أن يفعلوا أو يقولوا، لكن ما نريد نحن لا ما يريدون هم.. ذلك أنك إن تركت لهم شيئاً من حرية فلتوا، تماماً كبغال الإسطبل، بل راحوا يرفسونك ويضربونك.. لذلك وضعنا مبدأنا هذا: "اضبط واربط".. "بيدك حق.. هذا مبدأ صحيح: الناس فلا يفكرون بمعارضة.." "كذلك التجويع، الإفقار، التهريب: هربي الناس، "تطفشيهم.." ثم لا تنسي.. ثمة مبدأ آخر مهم أيضاً يكمل ذلك كله: الترغيب.. فلا ترهيب بلا ترغيب، هما كفتا ميزان ولا يصح ميزان بغير كفتين." "ماذا تعني؟ الفكرة غير واضحة." "أعني، هناك أناس لابد من أن تلوحي لهم بجزرة، ترغبيهم بمنفعة، فيجروا وراءك يلعقون قدميك. لذلك نغري واحداً بمنصب، آخر بمال، ثالثاً بامرأة. "أجل، هي فكرة رائعة" "طبعاً، فإفساد المرء أيسر الطرق للسيطرة عليه.. ارشي صاحب منصب، أفسدي صاحب ضمير، تخلصي منه ومن ضميره.. بل كلما أمعنت في إفساد الناس صار أيسر عليك قيادهم.. "فكرة مهمة.. بل فكرة بالغة الأهمية.. لم أنتبه إليها من قبل".

"ثمة أفكار كثيرة، مبادئ مهمة سأنبهك إليها، فسليني قبل أن تفقديني" قال مازحاً، في إشارة إلى قول رجل حق عظيم كان يعرف الكثير وكان يخشى أن تضيع معرفته قبل أن يستفيد منها الناس..

لكنني لم أسأله.. كنت بحاجة إلى أن آكل، أشرب، أغير الجو، أسمع كلمة غزل يطرى لها القلب وتندى النفس.. رفعت كأسي "نخب حبنا." قلت، فرد هامساً "نخب تجانسنا، انسجامنا. "رافعاً كأسه عالياً، ملمحاً إلى أنه لم يؤمن يوماً بالحب بل بالجنس. "لكن على الصافي." "على الصافي. "تحمست ثم بدأت أجرع.. كانت الكأس شبه ملأى، سائلاً أصفر ممزوجاً بالثلج وكانت كأسه ملأى تماماً.. مع ذلك جرعناهما معاً حتى الثمالة.. ثم ملت عليه فمال علي ونحن نضحك عالياً كأنما يضحك في داخلنا الشيطان..

لم يسكت الشيطان بعد ذلك، بل سرعان ما تحرك خدراً شديداً أحسست به يسري في عروقي، تماماً كما كانت يد إيناس تسري إلى فخذي تتلمسهما، تتحسسهما، تلاعب، تداعب.. فجأة رأيتني أحترق.. نار في أوردتي تشتعل ولهب في أحشائي يشب. "دعنا نذهب، لم أعد أستطيع الاحتمال. "همست في أذنه همس سكرى والهة.. "صرنا اثنين." قال وهو يقهقه قهقهة الشيطان العالية، ثم نهض ساحباً إياي من مرفقي وكأنه يخشى ألا أستطيع الوقوف.. استندت إليه وأنا أمسك بذراعه ثم مضينا. ظهر صاحب المطعم مودعاً منحنياً انحناءة عبد خانع، فلوح له بيده.. لم يلتفت إلى نادل، لم يمر بمحاسب وكأنما اعتادوا منه ذلك، لنخرج وقد التصق واحدنا بالآخر، لا تمر بيننا نسمة الهواء. على المنحدر راحت السيارة تكرج ككرة قدم قذفت من أعلى ليفاجئني بتوقفه أمام قصر منيف في طرف البلدة سرعان ما فتح أبوابه له. هناك، كان حراس ومرافقون لم يعرهم انتباهاً لم يرد حتى على تحياتهم، بل أسرع بي وقد اشتعل ناراً كما اشتعلت، لنمضي في طابقه العلوي، حيث المخدع الشاسع الواسع، ليلة كليالي ألف ليلة أو تزيد.

في الصباح، كان الإفطار جاهزاً، دخلت غرفة السفرة فإذا بالمائدة ملأى: عسل، بيض، زبدة، كافيار.. وأشياء وأشياء.. لكن قبل أن نبدأ الإفطار كان علينا أن نشرب القهوة، حيث كان على طاولة الأرائك صينية عليها دولة وفنجانان مذهبان منقوشان نقوشاً صينية رائعة. لفت نظره، ونحن نرشف القهوة، الصحف إلى جانبه. رفع إحداها يتصفحها على عجل.. بلا مبالاة، بل باستخفاف شديد كان يتصفحها. "لا خبر، لا شيء يثير الاهتمام" قال فيما كنت أميل عليها أتصفحها معه "لكن.. ما هذا الخبر عن مجلس الأعيان؟ "سألته وقد لفت نظري عنوان الصحيفة: "بدء الترشيح لمجلس الأعيان." "هذا المجلس هو الذي يفترض أن تناط به مسؤولية التشريع وسن القوانين." "وهل لأعضائه سلطة، امتيازات، مكاسب؟ "سألت رغم أنني أعرف الكثير عن أعضاء ذلك المجلس وما لهم من مكاسب وامتيازات. "طبعاً.. راتب كبير.. مكانة رفيعة في المجتمع، حصانة.. فلا يطال العين منهم قانون." "شيء جميل إذن." قلت وأنا ألاحق فكرة خطرت ببالي للتو. "شيء جميل بالتأكيد." عقّب ثم توقف مطرقاً لحظة مردفاً "ترغبين في أن تكوني عضواً فيه؟" "أأستطيع؟" تساءلت وأنا لا أصدق الفكرة التي خطرت ببالي من قبل. "لم لا؟ وهل الأعضاء الذين فيه خير منك؟ دكتورة.. أستاذة جامعة.. جمال.. مال.. حسب .. نسب".. "أعني.. الناس لا يعرفونني فكيف ينتخبونني؟ "ورأيته يرتد إلى الوراء ضاحكاً مقهقهاً "ومن تكلم عن الناس والانتخاب؟" "أليس المجلس بالانتخاب؟" "انتخاب!! انتخاب!! كم أنت غرة يا حبيبتي!!" "غرة؟! وهذا الكلام في الجريدة.. اقرأ.. ترشيح..

انتخاب؟؟ "وقهقه مرة ثانية "هذا كلام جرائد، أما الحقيقة فشيء آخر.." "شيء آخر؟ كيف؟ قل لي" "نحن نعينهم" "والأصوات التي يعلنون أنهم حصلوا عليها؟" "نحن نحددها.. هذا مائة ألف صوت.. ذاك مئتا ألف.. حسبما يكون.. "وأشار بيده إشارات معينة تدل على الركوب والانبطاح وما شابه..

"لا.. لا.. أنا لا أصدق.. مستحيل." "مستحيل.. طيب.. تريدين أن تكوني في هذا المجلس؟" "أجل.. أريد" "إذن.. اعتبري نفسك عيناً من أعيانه منذ اللحظة.. فقط اذهبي اليوم وقدمي طلباً." "أنا، تريدني أن أذهب؟".. آسف.. لا.. لا تذهبي أنت، سأبعثهم يقدمون لك طلباً"..

وظللت شاكة لا أصدق.. تناولنا الإفطار، عدنا بالسيارة إلى المدينة وأنا شاكة لا أصدق... "أصحيح؟ أأنت جاد؟" ليؤكد لي أنه جاد لكن وهو يضحك، فهل أصدق كلامه أم ضحكه؟.

في اليوم التالي أخبرني أن الطلب قدم، وأن رقمه كذا وكذا والدائرة التي رشحت عنها كيت وكيت، فعدت من جديد للتساؤل "صحيح! أأنت جاد؟ "إذ كنت ما أزال شاكة لا أصدق.

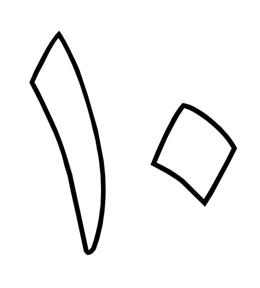
لكن الصور التي راحت تملأ الشوارع مع دعاية انتخابية بارعة الانتقاء، جعلتني أصدق.. إنها صوري.. فاجأتني أنا نفسي. لقد أخذوا الأصل يوم صرت في نادي النسوان.. كانت صورة كبيرة جميلة فيها إيحاء وإغراء، ألبس أفخر الثياب، أسدل شعري الأشقر على كتفي لأبدو بعيني الخضراوين وجمالي الأخاذ إلهة من إلهات الجمال.. رأيت أول صورة فتسمرت قريباً منها. الناس يمرون فلا يملكون إلا أن يتوقفوا، يبدوا إعجابهم أو يعلقوا تعليقاً، بل إن بعضهم يتلمظون.. ألفان، ثلاثة، خمسة آلاف صورة، لا أدري كم كانوا قد نصبوا في الشوارع، على أعمدة الكهرباء، أسيجة الأبنية، لوحات الدعاية.. ليملأ ذلك صدري بهجة وغبطة.. في النادي فوجئوا، في الجامعة فوجئوا، الكل ينظر إلي بدهشة واستغراب. لكن الحارسين اللذين كانا يسيران ورائي والسيارة الجديدة الفارهة التي بت أركبها كانت تخفف الكثير من آثار تلك الدهشة والاستغراب..

بعدئذ جاءت الحملة الانتخابية: بيوت شعر، ضيافات قهوة، شاي، دخان، احتفالات من حين إلى حين أثبت فيها أنني خطيبة مفوهة، بل صار "زلمي" يقدمون للناس موائد طعام فاخرة: غداء، عشاء.. بل حتى إفطار.

كان صاحب السعادة قد وضع أمامي حقيبة كبيرة من النقود "انفقي.. ادفعي.. قدمي هدايا.. اعطي مساعدات." "لكن لماذا؟ "سألته باستغراب شديد." ألم تقل إن الأمر منته؟" "صحيح.. منته مثلما أنت أمامي.. لكن لابد من التمويه.. التمويه أحد أركان استراتيجيتنا يا

حبيبتي، وكيف تموهين إن لم تضللي، تلفقي؟" وبدا على حق.. الحقيقة العارية تؤذي العين، إذن لابد من سترها، تذهيبها كي تبدو مقبولة، جميلة.. كلمته تلك زادتني حماسة لأن أخطب في الجماهير، أقيم ندوات في التلفاز، أحاديث في الإذاعة، فيبدو نجاحي تحصيل حاصل تعلنه وسائل الإعلام فلا يستنكره أحد.

بل لا أستنكره أنا نفسي. ألم يقل غوبلز اكذب اكذب فلابد أن يصدقك الناس؟ ها أنذي أصدق نفسي بل أرقص فرحاً وأهتف "الشعب يحبني.. الشعب ينتخبني" حين أعلنت النتائج وقد حصلت على أعلى الأصوات.



(لم تكد سميراميس تجلس على عرش بابل حتى امتلأت نفسها بالطموح ورغبت في أن تبني لنفسها مجداً يفوق أمجاد من سبقوها من ملوك الآشوريين. "أريد أن أجعل من بابل أعظم مدينة في الشرق." كانت سميراميس تردد حينما دخل وزيرها فقال لها الوزير:

- وكيف ذلك يا مولاتي؟

- سأبني الهياكل الضخمة وأنشئ الحدائق، بل سأشيد أثراً ضخماً لم ير الناس له مثيلاً ليحمل اسمي على مر العصور

- ومن أين لنا المال يا مولاتي؟ إن إعداد الجيش يذهب بمعظم مواردنا..

- سيتدفق الذهب سيولاً على بابل بفضل هذا الجيش..

- أنعود إلى الحرب يا مولاتي؟

- لقد تمردت بلاد كثيرة بعد وفاة زوجي، الملك نينوس، وأبت أن تدفع الجزية. ولن أكون جديرة بهذا التاج إن لم أخضع لسلطانه كل شبر كانت تضمه إمبراطورية نينوس.. لقد طمعوا في بابل حين وجدوا على عرشها امرأة، لكن هذه المرأة ستطأ بجيوشها أرض أرمينية وفارس، مصر وأثيوبيا، وستمد حدود سلطانها إلى مدى لم يحلم به أشجع الرجال..)

أنا أيضاً، يا جدتي العظيمة سميراميس، وجدت نفسي تفيض بالطموح، ترغب في أن تبني مجداً يفوق أمجاد كل من سبقها من نساء ورجال. وجدت نفسي أحلم بمد سلطاني إلى مدى لم يحلم به أشجع الرجال، ولم لا؟ لقد انفتحت لي، وأنا أدخل مجلس الأعيان، أبواب المجد على مصاريعها.. صرت "عيناً،" أتعرفين يا سميتي ما معنى العين؟ أنت تعلمين أنها نافذة الدماغ إلى الفضاء الخارجي، الكوة التي يطل منها على العالم الفسيح فيرى ويبصر، لكنك لا تعلمين أن "العين" في زماننا هو الجسر الذي يصل بين رأس الهرم وقاعدته، العكاز الذي تتكئ عليه الدولة، والستارة التي تستتر وراءها.

ذلك كان واضحاً مذ عقدت الجلسة الأولى لمجلسنا وجاء صاحب الجلالة، الذات العليا، الصدر الأعظم، الباب العالي وكل أصحاب الرفعة، النبالة، السعادة ليتحدث عن أهميتنا كأعيان، عن الدور العظيم المناط بنا فأتأكد أنني أدخل مرحلة جديدة من حياتي، تماماً كما دخلت أنت مرحلة جديدة، وأنت تجلسين على عرش آشور وبابل على رأسك التاج وبيدك الصولجان.

أنا نفسي شعرت الشعور ذاته وصاحب الجلالة، الذات العليا، يقف معي، يصافحني، يحدثني، بل يثني على جمالي، ذكائي، عصاميتي التي شققت بها طريقي صعداً إلى السؤود والمجد. كدت أطير، ياسميتي، صدقيني... في تلك اللحظات من عمر الزمن، شعرت أنني أطير، جانحاي قويان كجناحي عقفاء.. الذات العليا نفسها تطري جمالي، إنجازاتي، تشد على يدي، تفتح لي أبوابها، والأعيان كلهم ينظرون إلي بأعين كلها حسد وغيرة، تهيب ورهبة، آه!! يا إلهي كم كنت سعيدة تلك اللحظات!! كم تمنيت أن تمتد الزمن كله فلا تغيب شمس ولا يطلع قمر، بل نظل كما كنا، نقف وجهاً لوجه يحدثني صاحب الجلالة وأنا أصغي، أحدثه وهو يصغي.. يلامس يدي، يربت كتفي، هو الذي لم يكن يستطيع رؤيته أحد، مقاربته أحد. كيف لا وهو في عرينه، قلما يخرج، قلما يدخل؟ حلم الناس أن يطل عليهم لحظة، أن يعطيهم دقيقة من وقته، لكن هاهوذا يعطيني خمس دقائق.. تصوري، سميراميس، خمس دقائق من وقته الثمين نعمة ليس كمثلها نعمة، هبة سماوية كهبة النيل لمصر، ثم، وهو ما يدهش أكثر يا سميتي، تمتم قبل أن يودعني، وقريباً من أذني.. "أنت فاتنة الجمال تعالي إلي.. في أية خدمة." "حينذاك طرت فرحاً.. أجل، سميراميس، لم تعد تسعني الدنيا. خرجت وراءه بحجة وداعه إلى سيارته، ثم أسرعت إلى حديقة المجلس أجري بين أشجارها، أتراقص على مرجتها وكلي شعور بأنني عرفت كلمة السر التي استطاع بها علاء الدين أن يفتح المغارة.. "افتح يا سمسم".. وقررت: "سأستخدم كلمة السر هذه، كما استخدمها علاء الدين."

أنا أتسلق سلم المجد، وكل ما يسهل لي ذلك التسلق سأفعله.. كل سلاح، كل أداة مفيدة سأستخدمها.. المهم أن أصعد وأصعد" كنت أشعر أنني بت قريبة من الذروة.. ذروة الهرم ذاتها، إذن علي أن أكمل، أن أتربع على الذروة، مثلك يا سميتي، لا يعلوني أحد، آمر، أنهى والكل يسمع ويطيع..

بحت بما في صدري لصاحب السعادة ونحن في المكتب نناقش وضعي الجديد. "لا.. كل شيء إلا الذات العليا. "انتفض قائلاً.. هذه منطقة محرمة فلا تقربيها.. "لكن لماذا؟ "قلت وعيناي تجحظان استغراباً "لماذا؟ ألم تقسمي يميناً أن تخلصي لي؟ أن تكوني لي وحدي؟" "بلى".. "إذن، حذار الاقتراب من المنطقة المحرمة.. أنا أحذرك سميرة.. أريد أن نستمر معاً، وكما وعدتك.. اطلبي لبن العصفور آتيك به.. تريدين أي شيء أنفذه لك، لكن شريطة ألا يدخل أحد على خطنا، أن تبقي كما أنت لي لا يشاركني فيك أحد." "لكنها فرصة ذهبية إيناس" قلت وأنا في آخر رمق من المقاومة "فرصة سأستغلها لصالحي وصالحك، لدعمي

ودعمك" "لا.. لا.. أنا لست بحاجة لدعم.. أنا أدعم الناس، أرفعهم، أخفضهم، أميتهم، أحييهم، فأي دعم أحتاج؟ أما أنت فحسبك أني سيفك وترسك.. ظهرك وسندك.. اذهبي إلى أي صاحب أمر ونهي، لا تطرقي بابه، بل ادفعيه بقدمك وادخلي.. مريه أن يفعل ما تشائين، اطلبي ما تريدين، وإن لم ينفذ، قولي لي فقط أدس على رقبته، أمرغه بالوحل.. أنت، سميرة، قوية جداً الآن، تضربين بسيفين لا سيف واحد: سيف المجلس الذي صرت فيه وسيفي أنا.. وكلاهما سيف عنترة يجندل الفرسان ذات اليمين وذات الشمال، فما حاجتك إلى سيف آخر؟ "وأفحمت.. كانت حججه كثيرة، وكانت كلها مقنعة، لكن كان الخيار صعباً يا ملكة الشرق والسحر، بيدك عصفور وأمامك على الشجرة عشرة عصافير، فأيها تختارين؟ ما في يدك أم ما على الشجرة؟ هنا المغامرة والشك، وهناك التأكد واليقين.

فكرت طويلاً، ثم اخترت العصفور الذي في اليد، وأنا أكتم حسرات في النفس ظلت زمناً طويلاً تتصاعد آهات حرى.. فالعصافير العشرة كانت أيضاً شديدة الإغراء.

أمر آخر ترك في نفسي الكثير من الحسرات أيضاً. في حملتي الانتخابية، كنت ألتقي بالناس، أخطب فيهم وأغدق الوعود.. وعوداً كثيرة أغدقت بالحقيقة. إذ كنت أنسى نفسي وأنا أخطب، فأتصور أنني سأكون قادرة في مجلس الأعيان على فعل أي شيء، تنفيذ أي وعد، ألا يقولون إن هذا المجلس هو السلطة العليا التي تسن القوانين، تحاسب، تعاقب؟ إذن لم لا أغدق الوعود؟ لم لا أخطب فيهم وكأنني أميرة مؤمنين؟ "لقد وليت عليكم ولست بخيركم".. "كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته".. "إن رأيتم فيّ اعوجاجاً فقوموه".. "قد أصابت امرأة وأخطأ عمر".. "هي كلمة حق، لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها". وكانوا يفرحون بذلك الكلام، يصفقون له طويلاً وكأنما بعد بهم عهد سماعهم بمثله.. فإذا صفقوا كثيراً وازدادت حماستي كثيراً كنت أبدأ بالوعود: سأحل لكم أزماتكم كلها: أزمة الرغيف، النقل، السكن، البطالة.. وكانوا يصفقون أكثر فأكثر فأشتد إيغالاً في الوعود: سنوفر الحرية للجميع، سنحفظ الكرامة للجميع، فلا سجون بعد اليوم ولا اعتقالات، لا إذلال ولا إهانات.. الروتين سنقضي عليه فلا يستهلك وقت المواطن وجهده من أجل شأن صغير.. الضمان الصحي سنؤمنه للجميع، فلا يموت مواطن دون أن يجد علاجاً.. سنبني مستشفيات تتسع للجميع، سنوفر الدواء، التعليم، وقبل كل شيء سنعمل على رفع مستوى معيشة المواطن فلا يجوع أحد ولا يعيش القلة والضنك أحد، بل رفاه للجميع. ثروات الوطن وخيره للجميع، وليس لفرد واحد أو بضعة أفراد..

لم أكن أدري يومذاك كيف كانت تتدفق مني الوعود تدفقاً ولم أكن أحسب أن الناس يسجلونها ويطالبونك فيما بعد بإيفائها.. ربما كنت أحسب أنه كما قال بخيل الجاحظ: كلام بكلام أما كلام بفعال فلا.. لكن تبين بعد ذلك أنني على خطأ.. صار الناس يطالبونني بوعودي.. يأتون إلي في المجلس، يذكرونني بما كنت أخطب فيهم.. بل تصل الوقاحة ببعضهم إلى درجة المطالبة بجدولة مواعيدي، أنفذها وأفي بما وعدت.. بل، لا أكتمك سميراميس، أن الناس بدؤوا يحاصرونني.. في المجلس، في الجامعة حين أذهب لإلقاء محاضرة، في نادي النسوان، حيث للمرأة مطالب وحقوق تريد الوصول إليها، وكنت قد وعدتهن بتغيير قوانين وسن تشريعات جديدة تنصف المرأة، تحقق لها المساواة، فكيف أتنصل منها؟ بل حتى في جمعية الكتبة كانوا يحاصرونني: أنت تمثليننا في مجلس الأعيان، إذن يجب أن تدافعي عن حقوقنا، تحلي مشاكلنا.. يا إلهي!! الأمر جد إذن، وعدت، إذن علي الوفاء بوعدي...

شعوري بالواجب ذاك جعلني أتحدث مع زملائي الأعيان، أطرح في الجلسات، ومن حين إلى آخر، مشكلة بحاجة إلى حل، أزمة من الأزمات الكثيرة التي وعدت بالقضاء عليها، فتقابلني أفواه فاغرة وأعين جاحظة وكأنها كلها تقول: أنت تطرحين أمراً كهذا؟ لكنني لم أكن أعير انتباهاً لأفواههم ولا لأعينهم، فأقول إن الأزمة خانقة، ومواطنينا يعانون فمن يمد يده لمساعدتهم إن لم نفعل نحن؟ بل صرت أخطب في المجلس بكل البلاغة التي كنت أخطب بها في حملتي الانتخابية، إلى أن رأيته ذات ليلة عابس الوجه، مقطب الجبين، تقدح عيناه شرراً. "ما هذا الذي تفعلين؟ "سألني بغضب لم أره في عينيه من قبل. صدمت وارتددت خائفة، بعد أن كنت أقترب منه لكي أقبله.. كان ذلك لقاءنا الأسبوعي في شقته الفخمة التي تلطأ متخفية في أحد أرقى شوارع المدينة.. وكنا في مثل تلك اللقاءات ننسى همومنا كلها، عملنا ذاته، لنسترخي قليلاً، نشرب، نأكل، نمارس الجنس. لكن على غير عادته تلك، قابلني بتجهمه وسؤاله الصادم ذاك. "وما الذي أفعله؟" "نركبك وراءنا تمدين يدك إلى الخرج؟" "لم أفهم، إيناس، ما الذي تقصده؟" "أقصد هذا الذي تطرحينه في المجلس؟" بدأ متمهلاً ثم بنبرة مقلدة لنبرتي استأنف "هموم وطن، مشاكل مواطنين، أزمات بحاجة إلى حل.. ماذا؟ أنت معنا أم ضدنا؟" "لا.. أنا معكم طبعاً" "إذن كيف تثيرين هذه المشاكل؟ هذا شغب.. بل أنت تتحولين إلى شوكة في الخاصرة، حسكة في الحلق".. "أوف.. أوف.. "قاطعته على عجل وأنا اقترب بجسدي منه، معلقة ذراعي حول عنقه، علي بذلك أخفف من غلواء سورته. "أنا هكذا؟" "طبعاً، وإلا ما معنى ألا تطرحي إلا ما يزعجنا؟" "لكن هذه مشاكل مواطنين، أزمات يعاني منها الناس وقد وعدتهم بحلها".. "نعم!! نعم!! وعدتهم بحلها؟ ومن أنت؟ مع المواطنين أم مع

الوطن؟ مع الراعي أم مع الرعية؟ "كان يسأل وقد خلص عنقه من ذراعي ذارعاً الغرفة جيئة وذهاباً.. شعرت بشيء ما يرتعد في داخلي.. الأمر جد إذن؟ هو غاضب حقاً؟ يذكرني من جديد بأن هناك وطناً ومواطنين، راعياً ورعية وأن علي أن اختار. آ.. فهمت.. المواطنون شيء والوطن شيء آخر..الوطن هو الصفوة، النخبة الحاكمة. هم يجسدون الوطن، يختزلون مصالح الوطن، فكيف لم أنتبه لذلك من قبل؟ "هه.. انطقي".. "الحقيقة.. أنا كنت فقط أريد الوفاء بوعودي أيام الانتخابات." "لا، يا حلوتي.. وعود.. عهود.. هذا كلام ليل مدهون بزبدة، إذا طلعت عليه الشمس ذابا".. "لكنه لدي لم يذب.. أنا مازلت أذكره." "غبية.. حمقاء.. انسي.. امحي بالمحاة ذلك كله.. أتفهمين؟"

وأجفلت. كانت تلك هي المرة الأولى التي يوجه إلي كلاماً كهذا: غبية حمقاء.. فاصطكت مفاصلي من جديد "لكن ما الأمر؟ لماذا هذا التوبيخ؟" "لماذا؟ لأنك سودت وجهي!! التقارير وصلت إلى الباب العالي، كلها تتحدث عما تفعلين، وما تقولين.. فانهال علي أنا التقريع واللوم: هذه التي زكيتها لنا؟ هذه التي قلت إنها معنا قلباً وقالباً، فإذا هي تشاغب، تتكلم باسم المواطنين والرعية.. إنها ضدنا..." "أنا ضدكم؟ "صرخت محتجة وأنا أعلم جيداً ما يعني أن أصنف ضدهم.. "ماذا إذن؟ تعارضين سياستنا وتكونين معنا؟" "أنا معكم حتى آخر قطرة من دمي". "إذن، تخرسين، لا شأن لك بالأزمات والمشاكل.. لا شأن لك بشؤون الحكم والسياسة.. هناك باب عال مسؤول عنها، ذات عليا تتولاها، فلماذا تحشرين نفسك في مالا يعنيك؟" "أنا.. فقط.. قلت: "لا.. لا تقولي.." قاطعني على عجل وهو يقف قبالتي ويغرس عينيه في عيني" أم تظنين أننا لا نرى تلك الأزمات والمشاكل؟ لا يا حلوتي أنت مخطئة.. كله بيّن واضح.. نراه جميعاً لكننا نريد بقاءه، فبماذا نشغل الرعية إن لم يكن بالأزمات؟ إن حللنا لهم مشاكلهم تلك بماذا يفكرون يا ترى؟" "بماذا؟ "بنا نحن.. مشكلتهم الأساسية، فيسعون إلى حلها، وحلها ماذا يعني؟ إسقاطنا، الخلاص منا.. إذن دعيهم غارقين في أزماتهم، مشاكلهم، همومهم، لا يجدون الوقت للتفكير بنا." "والغاية؟ "سألت وأنا أشعر أنني على وشك أن أتوه. "الغاية هي الحفاظ على الحكم، البقاء على كراسينا، فهل مصلحتك في بقائنا أم ذهابنا؟ "بل مصلحتي مصلحتكم." "إذن.. لا تكوني غبية، افهمي ما ينبغي أن تفعلي وما ينبغي ألا تفعلي." قال بنبرة حاسمة وهو يدق بيده على طاولة كانت تمتلئ طعاماً وشراباً لم نجلس إليه ولم نقاربه." "والناس الذين يأتون إلي يراجعونني؟ "سألته والخوف مازال يعتمل في نفسي. لقد رأيت السيف مسلطاً فوق رقبتي ويده تكاد تهوي به "ناس؟ أي ناس؟ اقطعي كل علاقة لك بهم." "لكنهم هم الذين انتخبوني".. وكشر تكشيرة صفراء أوقفتني عن الكلام للتو. "انتخبوك؟ تكذبين الكذبة وتصدقينها؟ كأنك أشعب..

ويحك من حمقاء!! كم من الناس يعرفونك هنا؟" "ألف، "أجبت على الفور دون أن أفكر في أبعاد سؤاله." لا، أعطيك ألفاً أخرى وألفاً ثالثة يعرفونك في المدينة.. فكم ينتخبك منهم؟ مائة؟ مائتان؟ ثلاثمائة؟ إذن من أين ربع المليون صوت التي حصلت عليها؟ "وشعرت بنظراته أثقالاً مثقلة تنزل على كاهلي لتجعلني أطأطئ رأسي. حقا! الأمر كله خدعة بخدعة.. لم يكن هناك انتخابات ولا ديمقراطية.. هو قال ذلك لكن أتراني لم أصدقه؟ هم يصنعون كل شيء، يرتبون كل شيء.. وإن كنت قد نجحت لأنني محظية صاحب السعادة، فقد كان هناك آخرون دفعوا: هذا عشرة ملايين، ذاك خمسة عشر، الثالث شراكة في مصنع، الرابع أبنية أو مزارع.. هم أنفسهم حدثوني بذلك، حديث الزميل للزميل وقد صرنا في المجلس، إذن لماذا نخدع أنفسنا؟ هو على حق.. أجل.. ليس لأحد علي جميل أو معروف سواه، فلأسمع أقواله ولأطع تعليماته.. "أنا مخطئة.. أعتذر منك.. بل ألف أعتذر منك" قلت وأنا أتلمس عنقه كلي رغبة في أن أتعلق به ثم أرتفع على كعبي إلى أن أصل إلى شفتيه.. أقبلهما لأجعل أعصابه تسترخي.. لكنه ابتعد من جديد. "بعد اليوم لا تحدثيني عن الناس أو الانتخابات أبداً. "قال بنبرة الآمر الناهي الذي لا يرد له أمر.. "من يأتك منهم لا تستقبليه.. اطرديه دون شفقة.. بل ابصقي في وجهه إن اضطررت.. امرأة في مكانك لا تسمح للغادي والصادي بزيارتها.. عبئي مركزك.. دعي هامشاً كبيراً يفصل بينك وبين الناس.. لا تعطيهم وجهاً فهم لا يستحقون ذلك أبداً.. وفي المجلس لا تثيري مشاكل مزعجة.. لا تقدمي اقتراحات محرجة.. أنا أريدك كذلك السعدان: لا يرى، لا يسمع، لا يتكلم.. زملاؤك هكذا فلماذا لا تكونين مثلهم؟ صنائع تعلم أنها صنائع تبصم بأصابعها وتوافق بلسانها على ما نريد، ثم ترفض ما لا نريد.. أفهمت؟" "أجل.. فهمت.. فهمت".. "ولا تنسي نفسك.. بدلاً من الاهتمام بمسائل لا طائل وراءها.. اهتمي بما هو مفيد.. "قال وهو يشير بأصابعه إشارة تدل على النقود "كيف؟ "سألت وأنا أحسب أن فوائد مجلس الأعيان تقتصر على الامتيازات والمكاسب التي حصلت عليها وحسب.. "يا ذكية، هذه فرصتك النادرة لكي تبني لنفسك مجداً، تجمعي مالاً، تشتدي نفوذاً، فانتهزي هذه الفرصة، خاصة أن في كل يد من يديك سيفاً كسيف عنترة كما قلت لك." "سؤالي كيف أنتهز؟ صدقني أنا أريد لكني لا أعرف.. علمني أرجوك، أنا تلميذتك المبتدئة يا معلمي".. "حسن.. أعلمك" قال وهو يجلس على أقرب أريكة فأسرعت أجلس على الأريكة المجاورة وكلي سيقان متعبة وآذان مجهدة. "للناس مصالح، اقضي لهم هذه المصالح واقبضي." قال وهو يشير مرة ثانية إشارة المال. "فكرة والله!! "قلت بإعجاب شديد بالفكرة التي لم تكن قد خطرت لي ببال. "لكن زدني علماً، أرجوك." "ها .. ها.. المشاكل العالقة، القضايا المعقدة، كلها لا تحل إلا بالواسطة، وأنت خير واسطة.. يمكنك طرق كل باب، دخول كل

دائرة، التحدث إلى كل ذي حل وربط، تحلين المشكلة لقاء تعرفة محددة تقدرينها أنت: ربع مليون، مليون، خمسة ملايين.. هناك قضايا كثيرة، في كل مكان من البلد.. وكلها تحل إذا ما كنت أنت الواسطة". "هذا رأيك؟" "طبعاً.. وبكل ثقة.. مع ذلك، إذا صعب عليك أمر.. أخبريني.. أنا بنفسي أتدخل وأحلها لك، لكن فيفتي فيفتي." "فيفتي فيفتي وحبة مسك." قلت ضاحكة "إذن، خلال سنوات قليلة تجدين لديك بيادر من المال.. "وزغللت عيناي فرحاً.. المال.. أجل.. إنه الطريق إلى المجد، فلماذا لا أجمع أكبر قدر منه؟ إيناس على حق، أنا لا أعرف مصلحتي.. كل ما تعلمت من مبادئ وتلقنت من أفكار على يدي صاحب الرفعة والنبالة، بدا وكأنه ذهب أدراج الرياح.. أهتم بالناس؟ لم لا أهتم بنفسي؟ ألم يكن أول مبدأ علماني إياه.. نفسك ثم نفسك ثم نفسك، فلماذا غاب عن ذهني ذلك؟ وفي الحال انكببت على يدي إيناس أقبلهما ندماً على ما فاتني من وقت، واعدة إياه بأن أكون أنجب تلميذة لأبرع معلم..

صحيح، فوق كل ذي علم عليم، أليس كذلك يا جدتي العظيمة؟ تلك الأشياء كانت قد غابت عني، أنا التي تريد أن تبني أمجاداً لا تضاهيها أمجاد الرجال.. لكن أنت، من كان يعلمك يا ترى؟ تقولين: مستشارون ووزراء ؟ أجل.. صحيح.. أنت كان لديك بطانة وحاشية فيها الكثير من الحكماء والعرافين، الفلاسفة والعلماء وكنت تأخذين برأيهم، بل تقول أسطورتك: لم تكوني تقومين بحركة إلا بعد استشارة ذوي الاختصاص: قادة عسكريين، رجال سياسة، علماء فلك.. أجل حتى علماء الفلك كنت تأخذين برأيهم، فإذا قالوا نجمك في نحوس أقلعت، وإذا قالوا نجمك في سعود أقدمت.. المرء إذن بحاجة لمشورة، وقد اعتبرت تعليمات صاحب السعادة مشورة ذات شأن عظيم/ رحت بعد ذلك أطبقها حرفاً بحرف فلا أحيد عنها قيد أنملة.

بدأت الأمور تسير على خير ما يرام: المال يتكدس، الباب العالي راض وإيناس شاكر ممتن.. بيد أن مشكلة جديدة ظهرت في وجهي فحيرتني، مشكلة لم تكن تنطبق عليها أي من المعايير التي وضعها لي صاحب السعادة.. إنهم أهلي.

لديهم مشكلة ويطلبون حلها، فماذا أفعل؟ أأقبض منهم؟ أأجعلهم يدفعون الثمن؟ أم أغض الطرف ولا أتدخل؟ لكنها مشكلة أنا نفسي طرف فيها.. مشكلة عاصم ذاك الذي خرج ولم يعد.. أأقول لهم اذهبوا عني، لا شأن لي..؟

كان قد مضى على غيابه ثمانية عشر شهراً وكانوا يتقلبون على نار الجمر حرقة عليه ولوعة... هو الذي لا أثر له ولا خبر.. سألوا عنه، فتشوا، راجعوا.. لكن دون جدوى.. أنا نفسي حاولوا معي لكنني أنكرت وأصررت "لا علاقة لي .. لا أتدخل في شأنه".

أبي جاء، امرأة أبي، أختي ربى.. وكلهم يرجونني فك أسره. لكنني ظللت أذناً من طين وأذناً من عجين.. يئسوا فانقطعوا عني، لا يرونني ولا أراهم، لا يكلمونني ولا أكلمهم. بل حتى أيام الانتخابات وصورتي ملء الشوارع لم أر واحداً منهم، لم أسمع صوته.. أخباري في الصحف، مقابلاتي في التلفاز، أحاديثي في الإذاعة كلها لم تثر لديهم فضولاً لاتصال، أو حب استطلاع لما يدور حولي.. فقط حين ظهرت النتائج، جاءت إلي ربى وكأنما تريد أن تتأكد لا غير. حينذاك لم تفاتحني بشأن عاصم، لم تثر أية شؤون أو شجون. فقط شربت فنجان قهوة، أكلت قطعة شوكولا.. مهنئة ككل المهنئين ثم مضت.. لتعود القطيعة من جديد..

لكن الزمن طال، والزمن كالمسن يبرد الإرادات، ليلين منها ما قسي ويمحي منها ما اشتد.. ثمانية عشر شهراً، ربما لم يحس بها كمال، لم تحس بها علا، لكن الأم أحست بها والأم قلب خفاق لا غير.. هو لا يفتأ يخفق بالدم ممزوجاً بالحسرات على ابن مرض أو ولد غاب، ولا يستريح أبداً إلا إن شفي ذلك المريض أو عاد ذلك الغائب، فما تراها تفعل أم عاصم وقد طال غياب عاصم؟ هي تبكي، تنوح، حتى صار نهارها ليلاً وليلها ألف ليل. "أريد ابني أريد أن أعلم فقط: عاصم حي أم ميت؟ "ولم يكن باستطاعة زوجها أن يجيبها فترسله هنا ترسله هناك، يسأل، يتوسل أن يعطوه معلومة واحدة لكن عبثاً.. العالم كله جدران مصمتة، لا فم له ولا آذان.. أخيراً انهارت.. لم تعد رجلاها تقويان على حملها. ذهبوا بها إلى الطبيب.. الطبيب لم يجد نفعاً فمضوا بها إلى المستشفى..

وكان العلاج الطويل وحده قادراً على إعادة مياهها إلى مجاريها.

غير أن انهيارها جعل شيئاً آخر فيها ينهار: عنادها وحقدها.. لقد غدت لينة العريكة طرية العود.. ذابلة واهية كبيت عنكبوت.. "أنت وحدك تستطيعين مساعدتنا، "قالت وقد جاءت مع أبي مسرعة إلى معانقتي مقبلة وكأنما لم يعرف الحقد قلبها قط.. تفرست في وجهها فتنفست الصعداء، كأن يداً تمسد علي، تربت كل ما في قلبي من حقد وضعينة. "بماذا أساعدك؟ "سألت بكثير من الارتياح، متجاهلة حتى الذل الذي جاءتني به هي وأبي، قائلة في نفسي: انتقمي سميرة!! انتقمي لذلك، لذل أمك، لكل ذلك الزمن الطويل من الهوان والصغار".. عاصم.. أخوك.. هل نسيته؟" أجابت متسائلة "أنساه؟ كيف أنساه وأصابع كفه

الخمس ما تزال منطبعة على صفحة خدي؟ جدائل شعري ما تزال تئن من وطأة يديه، أَضلاعي، ظهري، بطني كلها تحمل آثار رفساته.

آه!! ما أسعدني بمحنته!!" ما أروع انتقامي منه!!" لاحظ أبي شرودي وربما لا مبالاتي، فتدخل ويداه تهتزان كما لم تكونا تهتزان من قبل.. "بنتي.. سميرة.. أنت اليوم شخصية كبيرة، امرأة ذات شأن والناس يلومونك.. أخوك غائب لا يعرف أحد عنه شيئاً وأنت لا تحركين ساكناً، ماذا سيقول الناس؟" "لا يهمني الناس.. هذا الرعاع ماذا يعنيني؟ "قلت بشيء من غضب وقد تذكرت تعليمات صاحب السعادة.. "حسن.. حسن.. لا يهمك الناس.. لكن.. أبوك.. أمك... هذه بمثابة أمك.. أخوتك.. أخواتك.. هم أيضاً لا يهمونك؟" "لا.. أبداً.. "رددت بنبرة الجزم القاطع. "أنا لا يهمني أحد.. أنا أكره الكل. أحتقر الكل.. فدعوني وشأني.. عاصم لا علاقة لي به ولا أريد أن يكون لي علاقة به".

"كما تريدين.. كما تريدين "قال وهو يريدني ألا أغضب، ثم دق على وتر آخر "أنت تحلين مشاكل. أنا أسمع أنك تحلين مشاكل الناس وقضاياهم.. اعتبريها قضية من هذه القضايا وحليها.. وما تكلف نحن جاهزون.. "قال مشيراً بأصابعه إشارة عد النقود. للتو وقع مني ذلك موقعاً حسناً، صحيح.. لماذا لا اعتبرها قضية من تلك القضايا التي أتدخل فيها وآخذ لقاءها مبلغاً من المال؟ الفكرة أعجبتني على الفور، لكن ما كان بإمكاني أن أعلن جهاراً نهاراً ذلك الإعجاب، فقلت "معقول! أنا أحل قضايا، صحيح، لكن تعرفون.. الآخرون هم الذين يأخذون." "نحن نعلم.. نعلم" انبرت هذه المرة امرأة أبي وقد شجعتها بارقة أمل. "نحن نقصد الآخرين.. فكوني واسطة خير.. انظري ماذا يريدون ونحن على أهبة الاستعداد.. فقط طمئنيني الآن: أهو حي أم ميت؟"

"لا.. هو حي... اطمئني" قلت دون كبير تفكير، فارتسم ذلك على وجه أبي إجفالاً، وعلى وجه امرأته دهشة وذهولاً، لكنهما كليهما لم يعلقا، بل تابعت المرأة وهي تتنفس الصعداء.. "حمداً لله!! حمداً لله!! هذا هو كل ما أريده الآن".. وارتددت إلى نفسي أوجه لها سياط اللوم والتقريع." كيف تزلين مثل هذه الزلة؟ لن يصدقوا بعد الآن أنه لا علاقة لك بعاصم.. أنا أعرف شيئاً عنه ولا أقول لهم..إذن أنا شريكة في جريمة اختفائه!؟ اللعنة!! اللعنة!!" فيما كانت امرأة أبي تحمد ربها وتشكره على أن ابنها ما يزال على قيد الحياة، هي التي مرت عليها شهور وأيام جعلتها تقنط كل القنوط. "إذن.. ابنتي.. لا تزعجي نفسك.. فقط تدخلي.. توسطي لإخراج أخيك.. ليس من أجله، بل من أجل أبيك، الشيخ الفاني وهو قدم في القبر وقدم على حافة القبر. من أجل أمه التي كاد الحزن يقتلها.. أرجوك ابنتي.. وما يطلبون على الرأس والعين.. "قال وهو

يمسك بيدي طامعاً، ربما، في أن تسري كهرباء أبوته إلى جسدي فتثار شفقتي، لكن شيئاً آخر أثير في داخلي.. "سأستغل هذه القضية، سأضرب عصفورين بحجر واحد: أتابع انتقامي منهم وإذلالي لهم وأجني أرباحاً وفوائد".. "هه.. ماذا قلت؟ "ألحت الأم وهي تراني شاردة، فقلت "سأسأل لكم عنه.. سأرى إن كان باستطاعتي أن أخدمكم." "بل باستطاعتك.. "سارعت امرأة أبي إلى القول وكلها تضرع وتوسل أين منه ذلك الشموخ الذي كانت تعاملني به؟ تلك الغطرسة التي أرتني ذات يوم الويلات؟ "أنت الوحيدة التي تستطيع.. الناس كلهم يقولون هذا.. فلا تخيبي ظننا.. أرجوك.. أتوسل إليك... أقبل يديك" وانكبت على يدي تقبلهما فعلاً. بالمنعكس الشرطي هممت بسحبهما، لكن ما إن أصرت على تقبيلهما حتى تركتهما لها، وقد انطلقت شرارة من تفكير في رأسي: "هوذا خير انتقام... فلتنتقمي سميرة.. دعيها تقبلهما.. دعيها تقبل رجليك إن أرادت، ولا تشفقي عليها.. بالعكس.. دوسي عليها بقدميك.. أهينيها أكثر.. أذليها أكثر.. هي ذي فرصتك فاستغليها على أفضل نحو.. "مع ذلك وجدتني مضطرة لأن أطمئنها، أن أبعدها عني "خلاص.. اطمئني.. سأبذل جهدي.. وأطلق لك سراحه. "غلطة أخرى ارتكبتها، وعدتها بإطلاق سراحه، أنا التي تدعي عدم معرفة شيء عنه. "في أي سجن هو؟ هل نستطيع أن نراه؟ "سألتني على الفور، فانكمشت.. "لا، يجب ألا تتمادي في الغلط يا مرأة!! يجب ألا تعطيها أية معلومات كيلا تستغلها ضدك. "لا.. لا أدري.. بل لا أدري إن كان في السجن أم في غيره. "قلت وأنا أنكمش على نفسي أكثر، مقطبة جبيني، مستعيدة إلى ذهني ما قاله لي صاحب السعادة وأنا أسأله عنه للمرة العاشرة.. "لا.. هو ليس في السجن.. السجن موضة قديمة بالية. لقد وضعته لك في مكان آخر لا يخطر ببال أحد: مصح للمجانين". أجفلت حينذاك، إذ لم يخطر ببالي لحظة واحدة أن يقذف به إلى مصح للمجانين.. كنت أحسبه سيودعه قبواً من أقبيته، حيث العث والظلام والطحلب، أسابيع أو أشهراً ثم يخرجه.. لكن مخه، الذي يتفتق دائماً عن أفكار جهنمية، كان قد تفتق عن مصح المجانين حيث ينتقم لي منه شر انتقام، هو يحيله إلى مريض دائم أو عاجز دائم لا أمل في شفائه. "حسن يا بنتي.. لن أسألك المزيد عنه.. المهم حلي القضية وخذي ما تشائين" "لا، أبي "قلت متظاهرة بالحرد. "لا، أنا لا آخذ شيئاً.. لكنهم هم، كما تعلم، لا يفعلون شيئاً دون مقابل" "نعلم.. نعلم".. قالا كلاهما وكأنما لهما لسان واحد ثم غادرا على وعد مني باتصال قريب.

"إيناس!! هتفت في هجعة الليل وكل شيء حولي ساكن. "أريد أن أراه" "ترين من؟" رد باستغراب فضحكت من نفسي وقد كلمته، كأنه كان معي وأنا أحدث أبي وامرأته، أو كأنه كان في ذهني وأنا أفكر بعد ذهابهما. "أخي عاصم" "أوه!! أخيراً تذكرته!! "لست أنا

الذي تذكرته، بل أبوه وأمه.. المسكينة صارت بعده جلداً على عظم." "فأثارت شفقتك؟" "بل أسالت لعابي" "ماذا، أهناك صفقة؟" "أجل.. صفقة رابحة فما رأيك؟ كم نطلب منهم؟" "مرحى!! "هتف بحماسة وصلت حرارتها إلي رغم الأسلاك الطويلة التي تفصلني عنه. "ها أنت ذي تلميذة نجيبة حقاً، تستغل حتى أهلها، تساوم حتى أباها." "بعض ما عندكم، أليس كذلك يا معلمي؟" "كذلك.. لكن لماذا تريدين أن تريه؟" "كي أشفي غلي.. أراه في مهانته فأشمت وأفرح.. هذا أيضاً جزء من الصفقة.. "كما تشائين.. أنت تأمرين فقط" "يعني نستطيع إخراجه متى شئنا؟ "وضحك ضحكته العالية من جديد.. ثم تابع "وهل هو نزيل المصح بأمر قضائي؟ هل صدر بحقه حكم من محكمة؟ طبعاً.. من يطلع الحمار فوق الشجرة يستطع إنزاله متى شاء" "يعني.. هو.. رهن إشارتي؟ "قلت بشيء من تلعثم فضحك من جديد" رهن إشارة من إذن؟ ألست أنت التي طلبت، كالمجنونة، معاقبته؟" "بلى.. لكن ظننت أنكم لفقتم له تهمة، ألصقتم به جريمة".. "لا.. لا حاجة لتلفيق أو إلصاق.. نحن نأمر بحبسه أو زجه في مصح أمراض عقلية، فمن يجرؤ على قول لا؟ الناس ينفذون وحسب.. ثم هو معزول لا يرى أحداً و لا يراه أحد.. منقطع عن العالم، عن النزلاء الآخرين، فلا يعرف بمكانه أحد ولا يتسرب عنه خبر لأحد.. أهلك، هل يعلمون عنه شيئاً؟" "أبداً بل هم لا يعلمون إن كان حياً أو ميتاً." "كي تتيقني أننا نضبط الأمور جيداً، فلا تفلت منا قلامة ظفر".. "حياكم اللّه!! أنتم أناس أكفياء حقاً.. تتقنون مهنتكم وتحكمون الأنشوطة حول الأعناق، فتتكتم حتى الأنفاس".. "هذه شهادة نعتز بها، متى تريدين أن تريه؟" "غداً صباحاً" "لا.. غداً مساء.." "لماذا؟" "كيلا يكون هناك موظفون ولا زوار فلا يراك أحد." "فكرة وجيهة.. أنت رائع تفكر في كل شيء". "بل يجب أن تفكري في كل شيء.. حين تريدين أن تسوسي الناس، تحكميهم بقبضة من حديد".. وبدا على حق.. بل هو على حق. أفكاره دائماً فذة، تصرفاته تثير الإعجاب، لا أجد فيها نقطة ضعف.. أنا نفسي يجب أن أكون هكذا.. لكن هل أستطيع؟ إن لم أستطع لأستشره، فمن لديه مستشار كإيناس لا يخطئ أبداً..

مساء اليوم التالي، كنت في موكب من السيارات أصل إلى باب المصح... ثلاث سيارات سوداء فخمة كانت تقف الواحدة تلو الأخرى. فيما يطلق سائقي بوق السيارة للحارس الذي أسرع إلى فتح الباب.. هو يعلم لمن الموكب.. صاحب السعادة أخبر المدير، والمدير أخبر الحارس ولاشك. هو لم يأت إلينا، لم يطلب أوراقاً، بل فتح الباب لندخل إلى حيث الإدارة.. هناك كان المدير يقف عند أسفل الدرج... أسرع السائق يفتح الباب، شأنه مع أصحاب الرفعة والنبالة. نزلت على مهل وبكل أناة التفت يمنة ويسرة، فيما كان عناصر المرافقة في السيارتين

الأخريين ينتشرون من حولي... منظر أشاع الراحة في نفسي والخوف في نفس المدير. فأسرع إلي، منحنياً المرة تلو المرة مقدماً الولاء والطاعة.. وكأنني ملكة البرين وخانقانة البحرين.. مثلك أنت يا سميراميس، يوم كنت تصلين إلى أية بلدة أو دسكرة.. فينحنون لك، ويركعون عند قدميك.. هكذا تصورت نفسي.. نسخة أخرى منك وأنا أشيل برأسي فيما المدير يتصاغر بين يدي، والأذنة يتقزمون لأغدو وحدي العملاقة تسير منتصبة القامة مرفوعة الهامة.. تجسيداً كاملاً للمجد والسؤدد.

"أهلاً وسهلاً.. نورت يا سيدتي.. شرفت يا صاحبة السعادة".

كان المدير يرحب بي ونحن نصعد الدرج، فيما عيناه على مواكب السيارات والمرافقين الكثر الذين انتشروا في كل مكان. "نشرب قهوة في مكتبي.. أليس كذلك يا سيدتي؟ "استأنف المدير مستفسراً، وقد صرنا في بهو الإدارة. "بل أراه مباشرة.. أنا في عجلة من أمري.. أين هو؟ "سألته وأنا أعلم أنه على علم بكل شيء، جاهز لكل شيء. "تفضلي .. تفضلي.. "قال وهو يفتح أحد الأبواب، لحظة واحدة ويأتي".

دخلت.. لأجد غرفة معدة لمثل تلك الزيارات، على ما يبدو.

في الصدر طاولة عادية وراءها كرسي من خشب، وفي العجز، قفص من حديد وقضبان، ولا شيء آخر.. لم يكن هناك أرائك، سجاد، لوحات.. لا.. شيء، البتة. "آسف يا سيدتي" رد المدير وقد أشرت، مستغربة، إلى القفص". إجراءات احتياطية لابد منها.. من أجل أمنك وسلامتك.. النزيل خطر. "وشعرت بشيء أشرت، داخلي يرتجف. "خطر!؟ هل صار عاصم خطراً حقاً؟ هل جن حقاً؟ " ولم أعد واثقة من شيء.. المثل يقول عاشر القوم أربعين يوماً تصير منهم"

"هل أخي مجنون حقاً؟" لم أشعر إلا وأنا أعود من شرودي أسأله. "هو أخوك يا سيدتي؟ "رد المدير بمزيد من الخجل والانحناء. "لا تؤاخذينا.. لم نكن ندري.. كنا أحسنا معاملته.. غيرنا.. بدلنا.. " "لا.. لا عليك.. "قاطعته وأنا ألوم نفسي على زلة لساني. كان علي أن أنتبه أكثر، فلا أبين له صلتي بعاصم.

"ائتوني به".. استأنفت مسرعة.. "حالاً.. ليس لدي وقت."

وخرج المدير لأجد نفسي وحيدة في غرفة عارية خاوية إلا من كرسي وقفص.. يا إلهي!! شيء رهيب.. أسرعت إلى الباب.. كان مرافقاي هناك، يقفان على أهبة الاستعداد، فشاع في نفسي قدر من الطمأنينة.. لكن لم تخافين؟.. هو سيكون في القفص.. وكيف يخرج؟ لا.. أنت في أمان.. يده لن تستطيع الامتداد إليك.. أصابعه الخمس لن تعلّم على صفحة خدك.. بل ربما

هو أوهى من أن يستطيع رفع يده.. ترى كيف صار؟ ما حل به؟ مرض؟ ضعف؟ انهار واستسلم؟ الاحتمالات كلها واردة.. بل واردة حتى أن ينكب على يديك ورجليك متضرعاً متوسلاً أن تعفي عنه، فاطمئني..

صلصلة ما أجفلتني فانقطعت سلسلة أفكاري.. نظرت إلى الباب المغلق فإذا به ما يزال مغلقاً.. الصلصلة تشتد، أنحرف بناظري عن الباب، فإذا بعاصم نفسه يدخل القفص.. أدقق النظر.. أبحث عن القرقعة والصلصلة.. أوه!! أجل.. إنها جنازير من حديد في قدميه، في يديه، حول عنقه.. جنازير كتلك التي توضع في قوائم الدواب كي تمنعها من الحركة أو العدوان..

وانتقلت بناظري إلى وجهه.. كنت متلهفة لأن أرى ما حل بذلك الوجه.. نظرت فلم أروجها".. كانت هناك بقعة من طين يحيط بها حقل من أشواك سوداء يسمونها شعراً.. الأشواك تصعد من أسفل، تنحدر من أعلى، تتشابك ليمحي الوجه إلا قليلاً..

في أعلاه تبرز العينان.. كابيتين خامدتين كموقدي رماد.. لم يكن هناك شرر يقدح، بريق يلمع بل حتى سواد العينين بهت، اضمحل حتى غدا رمادياً، بياضهما نفسه اصفر وكلح حتى غدا لوناً آخر.. الكتفان هزلتا، الجسم كله نحل، والظهر انحنى.. أجل.. كان هناك انحناء ما وإن كان الرجل يحاول أن يبقي رأسه مرفوعاً. "هه!! كيف ترى نفسك الآن؟ "سألته وأنا أقترب من القفص متفحصة ملامحه أكثر لأتشفى أكثر.. كان الحقد في داخلي مازال يشتعل، حب الانتقام مازال يستعر.. وكنت أحسب أن رؤيته وحدها كفيلة بأن تطفئ ذلك الحقد والانتقام.. "خيراً مما تأملين." رد بصوت هادئ ورباطة جأش لا تتلاءم البتة مع ثيابه المهلهلة الوسخة، مظهره الرث وعينيه الكابيتين." وما تحسبني آمل؟" "ما يأمله الحقد والضغينة" "أنت تطاولت علي، آذيتني".. "أنا أردت أن أقوم اعوجاجاً، أمنع انحرافاً" "هوذا خطأك.. تدخلت في ما لا يعنيك".. "كيف لا يعنيني، وأنت أختي.. سمعتك سمعتي وشرفك شرفي". "شرف.. سمعة.. "رددت ساخرة متضاحكة، "مازلت تتداول هذه العملة الباطلة؟" "أنت تظنين ذلك.. لكن الشرف، الأخلاق، المبادئ، عمرها لن تكون عملة باطلة.. أنتم فقط، الوصوليين النفعيين الانتهازيين، تعتبرونها كذلك كي تبرروا سقوطكم، حقاراتكم.. أما هي فباقية إلى الأبد كما كانت منذ الأزل". "أراك ما تزال واثقاً من نفسك، أفكارك". فهز رأسه محاولاً أن يبتسم، لكن دون أن تظهر شفتاه من تحت الأشواك الملتفة التي كانت تصنعها لحيته. "ماذا؟ ظننت أنك ستجدينني خرقة بالية تمسحين بها حذاءك!؟.. أنت مخطئة إذن، البغي لا يغير حقيقة أبداً.. الاضطهاد، لا يبدل جوهراً أبداً... قد يبدل العرض لكنه لا يبدل الجوهر".. "ومن تراه يهتم بالجوهر؟ المهم العرض.. هذا المظهر القميء الذي أراك عليه..

هذه الهيئة الرثة التي صرت إليها.. ألا تؤكد لك أنني انتصرت عليك؟ ألا ينبغي أن تتعلم منها شيئاً؟" "بلى.. بلى.. ولقد تعلمت. "قال بهدوئه ورباطة جأشه ذاتها. "ماذا؟ قل.. ماذا تعلمت؟ "سألته وأنا أقف غير بعيد عن القفص، ممعنة النظر فيه. "تعلمت الكثير.. لكن في رأس ما تعلمت أن القوة قد تمنح الباطل حماية بعض الوقت لكنها لا تمنحه الشرعية في أي وقت" "هذه فلسفة" "أنت أردتني أن أفقد عقلي فاكتسبت فلسفة.." "كيف؟" "هذه العزلة الموحشة وأنت تجدين نفسك الأيام والشهور وحيدة في زنزانة لا ترى النور، لا ترى البشر.. ألا تدفعك إلى التأمل؟ التفكير؟ والتأمل والتفكير أقرب الطرق إلى الفلسفة".. "وماذا علمتك الفلسفة أيضاً؟" "كل حال إلى زوال.. أليس هذا ما كتبته ابنة الوزير على منديلها فصدم هارون الرشيد؟" "لا أدري" "طبعاً أنت لا تدرين سوى أمر واحد: كيف تتسلقين؟ من أين تؤكل الكتف؟ مائة أم تبكي ولا أمي.." "كفى.. كفى.. أنا لم آت هنا لكي أسمع ترهاتك"..

"ماذا تريدين أن تسمعي إذن؟" "ما ينطق به لسان هذبه الزمان وعلمه الدهر." "بيدك حق.. أجل" قال بكثير من السخرية، "فاللسان أداة يظهر بها حسن البيان، وظاهر يخبر عن ضمير وشاهد ينبئ عن غائب وحاكم يفصل به الخطاب، وواعظ ينهى عن القبيح، ومزين يدعو إلى الحسن وزارع يحرث المودة، وحاصد يحصد الضغينة وملهٍ يونق الأسماع.." "حسبك.. حسبك" صرخت به وقد نفد صبري "ما هذا الهراء الذي تجلدني به؟ أجننت؟" "هذا ما كنت تأملينه أنت وصاحبك.. لكن خاب فألكما.. ها أنذا ما أزال بكامل قواي العقلية.. رغم صراخ المجانين من حولي، زعيقهم، معاركهم المجنونة.. رغم القهر والشقاء والعناء.. ما يزال عقلي كما هو، سليماً معافى.. أتعلمين لماذا؟" "لماذا؟ "أجبته وأنا أزداد حيرة تجاه رجل يأبى أن يؤثر فيه الحدثان".. لأنني أؤمن بالعقل.. ديني وحده العقل.. هاديّ ومرشدي العقل، فكيف يتخلى عني أو أتخلى عنه؟ لا.. لا كل ما تفعلينه أنت وطغمتك لن يخلخل ذرة واحدة منه.. إنه جزء لا يتجزأ من ذلك العقل الكبير الذي يحتوي الكون، يحرك الكون... أأنت معي؟ أتفهمين ما أقول؟" "وهل تحسبني جاهلة؟ أنا دكتورة، أستاذة جامعة بل عضو مجلس أعيان أيضاً".. "عضو مجلس أعيان!؟ هذا جديد علي.. إذن مازلت تنجزين؟ "قال بمسحة من تهكم غضضت عنها الطرف للتو، "ولسوف أنجز أكثر." "بالتأكيد طالما هناك مستنقع سيكون المرتع للوحل، وسيسرح البعوض ويمرح." "عاصم!! احفظ لسانك. "قلت بصوت عالٍ قليلاً رأيته ينكفئ إثره ليدمدم بصوت لم أسمعه إلا بالكاد:

"يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا".. "مـ.. ماذا تقول؟ "سألت وقد فاتني نصف الشطر الأخير.. فأكمل: وما فسد الزمان.. "ثم تابع وهو يلوح برأسه زافراً زفرات القنوط. "طالما الفساد

مستشر.. على المرء أن يتوقع كل ما هو أسوأ. إنه السرطان الذي يتفاقم يوماً بعد يوم.. فماذا يمنع أن تصيري أكبر؟ ماذا يمنع أن تتجزي أكثر؟ دكتوره؟ أستاذة جامعة.. وكل ما تشائين.. بالزور، بالبهتان، بالكذب، يستطيعون أن يصنعوا منك أي شيء.. لكن هل يتغير شيء في جوهرك؟ هل تصبحين أكثر علماً، فهماً، ذكاء، طهراً نبلاً، أخلاقاً؟ لا.. لا.. أنت بعت نفسك للشيطان، فاوست آخر، والبضاعة التي يشتريها الشيطان لا ترد ولا تبدل أبداً.. فكيف تكونين غير مطية للشيطان؟ "شيطان.. شيطان.. تباً لك وللشيطان!! ألا تحسن قول شيء آخر؟ "قلت وأنا أبتعد عن القضبان خشية حركة مفاجئة منه. "وأي قول تريدين؟ أركع عند قدميك؟ أقبل يديك ورجليك؟" "أجل.. قبل.. اركع.. اعتذر".. "خسئت".. صرخ بي مقاطعاً "ما عاصم من يركع أو يعتذر.. بل كيف أفعل ذلك ولم أخطئ؟ أم تريدون أن تخطئوا أنتم ونحن نعتذر لكم؟ تريدون أن تدمروا وتخربوا.. تفسدوا وتفسدوا ونحن نباركك ونعتذر لكم؟ لا.. أنت التي يجب أن تعتذر.. أنت التي يجب أن تدفع الثمن لقاء ما فعلت بي.. انظري إلي.. أهذا هو عاصم، المهندس المتعلم المثقف ابن الناس الذي تعب على نفسه كثيراً وصقل نفسه كثيراً؟ أنا أعلم.. أنني لم أعد إلا بضعة منه.. لكنني، مع ذلك، لن أتزعزع ولن أهن أبداً.. سأظل كما كنت سيفاً للحق، درعاً في وجه الباطل، وكلي يقين أنه ما من شيء يدوم، أن الحق لابد أن ينتصر، الصحيح لابد أن يصح.." "ابق إذن حيث أنت، "قلت بنبرة تهديد فيها تلويح بما هو أسوأ. "مهما طال الليل لابد من أن يطلع الفجر".. "سيطلع، لكن بعد أن تكون قد جننت.. سأجعلهم يضعونك بين المجانين حتى تجن فعلاً.." "لا.. "صرخ ملء فمه وقد امتلأت عيناه خوفاً. "لا.. كل شيء إلا المجانين.. دعيني في زنزانتي.. دعيني لوحدتي.. لكن بين المجانين لا.. لا.. لا.. "وراح يرددها حتى خيل إلي أنه جن فعلاً.. خيط من الشفقة تسرب إلى نفسي، فقلت وأنا أقترب من جديد. "هكذا يتكلم الناس، خاصة حين يكونون في موقف الضعيف حيث لا حول لهم ولا طول.. خاصة حين يكونون مع ناس كبار ذوي شأن.. "ومن جديد صاح، وقد حل محل الخوف قرف واشمئزاز "ذوي شأن!! كبار!! يا للمهزلة!! أنتم.. ما أنتم؟ أنتم جيف نتنة تنشر الروائح الكريهة أينما حلت؟! صراصير حقيرة لا تحمل معها إلا الأمراض والجراثيم.." "اللعنة!! "صرخت به حانقة مغيظة.. "أنت لا تستحق إلا الشنق." "لماذا؟ لأنني أعرفك على حقيقتك، أقول لك الحقيقة.. الآخرون ينافقون، يدجلون فتصدقينهم.. لكن عليك أن تعري في حقيقتك، علك ترجعين إلى صوابك.. تمتنعين عن بيع شرفك وكرامتك لكل من يشتري".. "تباً لك!! تباً!" بدأت أصرخ وأنا أتجه إلى الباب، أفتحه ثم أمضي لا ألوي على شيء.

طوال الطريق ظللت مستشيطة غيظاً، أسب، ألعن، أقسم أغلظ الأيمان إنني سأجعل صاحب السعادة يذيقه مر العذاب، يضعه بين أخطر المجانين، بل ويصفيه أيضاً..

"أجل.. يجب تصفيته "رحت أقول لنفسي "هذا معتوه شديد الخطورة.. يجب التخلص منه." لكن ما إن فتحت الباب حتى وجدت أبي وامرأته في وجهي..

كانا قد جاءا ليعرفا ردي حسب وعدي لهما.. وكنت من احمرار الوجه واتقاد النار في عيني إلى درجة لم أستطع معها إخفاء الحقيقة. اعترفت لهما أنني آتية من عنده، فانقضت علي أمه رشاشاً من الأسئلة تريد كلها أن تعرف ما حل بابنها، كيف صحته؟ أين هو؟ ولم أستطع إلا أن أكظم غيظي وأطمئنها: هو بخير، صحته جيدة، عقله سليم، وضعه لا بأس.. إلى آخر ما يمكنني أن أموه به الحقيقة وأمتنع عن قول ما لا يقال.

"إي ابنتي.. متى يخرجونه؟ "سألني أبي بنبرة كلها رجاء وتوسل.. "آ.. يخرجونه؟ "أعدت السؤال كأنني ببغاء. لقد أحسست بزجاجي يتصدع وكأنه انتقل من درجة حرارة الغليان إلى درجة حرارة التجمد.. كنت أفكر بتصفيته.. فكيف أدعه يخرج؟ لكن ماذا أفعل؟ ها هما يلحان.. أبي وامرأته يلحان، طفلين حرما من حليب الأم وأمضهما الجوع.. لم يكن ينقصهما سوى أن يبكيا ويزعقا ليكونا ذينك الطفلين.. "نرجوك.. نتوسل إليك نبوس يديك".. كانا يتضرعان إلي.. بل مرة ثانية انكبت امرأة أبي على يدي تقبلهما باكية ناشجة.. "أريد وعداً.. لن أخرج من هنا إلا بوعد.. "ولمعت في رأسي فكرة: تصفيته الآن مستحيلة، وقد علموا أنه حي يرزق.. إذن لأطلب غالياً.. لأعجزهم حتى لا يستطيعوا الدفع فأكمل انتقامي.. "حسن.. "قلت بكل تؤدة ورزانة "لا أدري أبي.. هم طلبوا غالياً هو لا أدري إن كنت تستطيع الدفع." "ندفع حتى لو بعنا بيتنا، ما تحتنا وما فوقنا سندفع.. فقط ليخرج عاصم "قالت امرأته قاطعة الطريق على أبي. "يريدون "قلت وأنا أحرك يدي على اليد الأخرى بما يعني النصف. "نصف ماذا؟ "سأل أبي فيما تابعت امرأته "نصف المائة ألف؟ "بل نصف المليون".. قلت وقد ترسخت في تلافيفي الدماغية فكرة الانتقام.. هو يزداد يباس رأس، أزداد أنا حب انتقام.. لو لان أو اعتذر ربما كنت خفضت الثمن.. لكن وهو حطب جبل هكذا، سأعذبه أكثر وأدفّعه ثمناً أكبر.. "نصف مليون؟ "تساءل أبي.. "لكن هذا كثير سميرة.. أنت تعلمين.. أنا لا أملك عشره، فمن أين آتي ببقية التسعة أعشار؟" "ما شأني؟ هم يريدون ذلك ولا يتنازلون عن فلس واحد منه.. يعجبكم أقول لهم.. ترفضون أقول لهم أيضاً، وما أنا إلا وساطة خير".. "ندفع.. ندفع" أسرعت أمه إلى القول وهي تهب مشيرة إلى زوجها أن ينهض مثلها.. "هيا سندبر رأسنا.. أجل سندبر رأسنا.. فقط أعطينا مهلة يومين أو ثلاثة لا أكثر".

ورأيتني، وأنا أودعهما، أفرح فرح الشماتة.. هل تعرفين فرح الشماتة يا سميتي؟ إنه شعور عجيب.. يجعل شيئاً في داخلك يضحك فيما الآخر يبكي، يرقص فيما الآخر يتكوم على نفسه هماً وغماً.. شعور يرخي أعصابك كلها، يبرئك من غلك وحقدك كله، كأنما يذروه للريح.

نعم.. يا سميراميس، شمت بأبي وامرأته.. هما اللذان سيدفعان نصف مليون دون أن يكون لديهما عشر ذلك المبلغ.. إذن، أنا أغنى منهما.. لو طلب مني ذلك المبلغ لدفعته دون أن يرف لي جفن.. أموالي تتنامى، أرصدتي تتزايد.. كيف لا، وأصحاب القضايا في تزايد وذوو المشاكل في تكاثر؟ كلهم يعرفون مالي من صولة وجولة.. يأتون إلي باكين ضارعين.. أحدد لهم التعرفة فيدفعون، وأكنز من ذلك كله ذهباً.. هو نفسه سيكون المجد الذي أتبوأ عرشه..

اتصلت بصاحب السعادة، أخبرته بالتطورات، لكن دون أن أقول له شيئاً عن ذلك الحوار الذي دار بيني وبين عاصم، ولا القرار الذي كنت قد اتخذته قبل أن أرى أبي.. شيء ما، أعترف لك يا سميراميس، حال بيني وبين ذلك.

إتمام الصفقة وحده هو ما بقي أمام ناظري.. لقد وعدت أبي وامرأته.. وليس باستطاعتي التراجع. لنتم الصفقة أربح أنا وصاحب السعادة.. ثم ليخرج عاصم، لكن ليس قبل أن آخذ تعهداً عليه بألا يقاربني أو يهددني بخطر.. في اليوم الثالث اتصل أبي "المبلغ جاهز." "حسن.. هناك شرط آخر لابد من توفره." "أي شرط؟ "تأخذون تعهداً عليه بألا يقاربني." "نأخذه.. فقط دعينا نره." ورتبت له ولامرأته زيارة لعاصم.. عاد بعدها بتعهد مكتوب بخط يده بعدم التعرض لي البتة ووعد من أبي وامرأته بأن يقطعوا جميعاً كل صلة لهم بي.. لا أنا ابنتهم ولا هم أهلي.. احتججت.. وقد شعرت فجأة أنني ألقى من شاهق فلا تتلقفني أرض. "لا.. أنا لا أريد ذلك.. أريد أن نظل كما نحن.. أهلي ولستم بأهلي.. جذوري ولا علاقة لكم بي.. حرة مستقلة ولستم مسؤولين عني.. مسؤولة عن نفسي" "وهو كذلك" رد أبي وهو يرى نفسه محشوراً في الزاوية لا يستطيع إلا أن يوافق على شرطي.. "إذن، غداً تأتي لي بالمبلغ، ثم بعد غد يكون عاصم بينكم."

"المبلغ صار لدي" اتصلت بصاحب السعادة وقد غادر أبي." فكم تريد؟" "كالعادة، فيفتي فيفتي." "النصف وحبة مسك. أنت تستحق والله. "قلت وأنا أنوي أن أرسل له مبلغاً إضافياً، لكنه احتج "لا.. البزنس بزنس "فلماذا حبة المسك؟" "هكذا، حباً وكرامة،" قلت ضاحكة." لا، الاتفاق بيننا هكذا.. عقد مختوم والعقد شريعة المتعاقدين.. يحترم كلانا التزاماته نظل مرتاحين.

أنت تعلمين.. كلانا يكمل الآخر.. أنت المفتاح وأنا القفل والقفل لا يعمل بغير المفتاح، كما إن المفتاح لا فائدة منه بغير القفل". وضحكنا كلانا.. هو ربما، لأنه جاء بفكرة جديدة فذة، وأنا لأنني تصورت الأمر معكوساً: هو المفتاح وأنا القفل.. أم ترانا كنا نتبادل الأدوار؟

في الليلة التالية ذهبت سيارة إلى المصح، فك أصحابها القيود عن عاصم، أركبوه السيارة، ثم عادوا به إلى قرب منزله.. ألقوه على الرصيف ثم انطلقوا مسرعين.. فيما كنت في سيارتي على الرصيف المقابل أرقب المشهد.. كنت، لا أخفيك يا جدتي الكبرى، أريد أن أشفي البقية الباقية من غلي، فأراه آخر مرة، وهو في ثيابه المهلهلة، هيئته الزرية، شعره الذي كالشوك، محني الظهر يجرجر قدميه منهكاً على حافة الانهيار... لعلهم كانوا قد أغمضوا عينيه بشريط أو وضعوا رأسه في قناع، إذ ما إن وجد نفسه على الرصيف حتى رأيته ينفض رأسه يمنة ويسرة فيتداعى، يكاد يسقط أرضاً لولا أن استند إلى الجدار القريب.. آه!! ما كان أسعدني في تلك اللحظة يا سميراميس!! لم يكن باستطاعته أن يدعي التماسك والصلابة.. كان في أوهى حالاته، مفرداً ضائعاً، لا يدري ربما أين هو.. بأم عيني رأيته يفرك عينيه المرة تلو المرة، والمرة تلو المرة يتلفت ذات اليمين وذات الشمال، تحت، فوق، ثم يجر قدميه قليلاً متلمساً طريقه بحيرة وارتباك.. ثواني، دقائق، لا أدري كم ظل حائراً مرتبكاً لا يعرف أين يتجه.. إلى أن مر به حسان.. ابن البقال الذي نتبضع منه.. رآه فأمعن فيه النظر، مال عليه يتفحصه أكثر ثم هتف بشيء لم أسمعه.. رد عليه عاصم بشيء لم أسمعه أيضاً ثم عانق واحدهما الآخر ومضى به حسان إلى المنزل، كأنما يحمله حملاً..

بعدئذ غاب عاصم عن عيني لكنه لم يغب عن ذهني.. ذهني الذي كان يعج بالوساوس والهواجس.. ماذا لو كمن لي ذات ليلة أمام بيتي وأنزل بي العقاب الذي يرغب فيه من كل قلبه؟ ماذا لو أرسل بي من يرشق وجهي بماء النار كما حاول عاشور أن يفعل؟ كنت في أعماقي خائفة، لقد صار الرجل حراً وهو حاقد ناقم فكيف لا يفكر بالانتقام؟ هو لا يغفر خطأً صغيراً فكيف، وخطئي بل أخطائي في نظره جرائم كبيرة؟ بل وجودي ذاته بالنسبة إليه جريمة كبيرة. هو عنيد، صلب، إن وضع في ذهنه شيئاً نفذه دون ريب. أنا أعرفه جيداً، فكيف لا يعمل على رد الصاع لي صاعين.. بعثته إلى مصح المجانين.. لتحويله إلى مجنون فكيف يغفر لي؟ التعهد كتبه لي، صحيح، لكن وهو سجين بالسلاسل فمن يضمن يا ترى، وقد تنسم أنسام الحرية وعادت إليه روحه وكبرياؤه أن لا يقول لي: انقعي ذلك التعهد واشربي ماءه، أما أنا فسأعيد الحق إلى نصابه وأعاقب المجرم بما يستحق؟ بل ذات ليلة رأيت كابوساً أرعبني.كان عاصم فيه يطاردني وفي يده سكين يريد ذبحي.. وحين وضع السكين فوق عنقي

انتفضت وأنا أصرخ مرعوبة.. نقلت هواجسي لصاحب السعادة فضحك ضحكة السخرية. "مسكين، هو لا يقوى على السير، فكيف بالانتقام؟ أربعون يوماً مضت على خروجه، مع ذلك لم يداوم ولم يخرج خارج منزله إلا مرتين. "واطمأننت قليلاً. هو تحت المجهر إذن، المجهر يرصد كل حركة ونأمة له. مع ذلك طلبت زيادة عناصر حراستي فزادها صاحب السعادة.. الرجل لا يرفض لي طلباً، بل هو خاتم في إصبعي أحركه كيف أشاء.. لولاه.. ما تراه حدث لي؟ هو يمهد لي الطرق.. يذلل الصعاب.. يعرفني بهذه الشخصية، بتلك، حاشاً إياي بكل ما يستطيع على أن أصبح شخصية مرموقة في المجتمع، وجهاً هاماً من وجوه المجتمع.. "الحياة علاقات "كان كثيراً ما يردد لي "والنجاح في المجتمع معارف.. بقدر ما يكون لك علاقات في الحياة ومعارف في المجتمع تنجحين، تصعدين إلى الأعلى دون أن يقف في وجهك شيء".. وكان على حق.. المعارف هم لحمة العلاقات وسداتها، والعلاقات الشخصية كل شيء في مجتمع كمجتمعنا.. لكن انتبهي يا سميراميس، المجتمع الذي يقصده هو مجتمع النخبة، السادة الذين يحكمون، لا مجتمع الرعاع. على تلك العلاقات تتوقف أمورك كلها، فتحل أية قضية بالعلاقة الشخصية الجيدة، تغير قرارات، تبدل أحكام قضائية، يفك الحبل عن عنق المشنوق.. إلخ.. صاحب السعادة يعرف ذلك بل يدفعني لتوسيع دائرة معارفي وعلاقاتي بأي شكل.. لم يكن يخشى علي ولم يكن يغار أو يرتاب في سلوكي.. كان يعلم أن ما يهمني هو مصالحي ومنافعي فقط.. وكانت مصالح ومنافع مشتركة.. كل ما آخذه لقاء القضايا التي أحلها نتقاسمه قسمة الأخوة.. وكان كلانا راضياً. مشاكل الناس كثيرة، وكلها تحتاج إلى مفتاح يفتح قفلاً ما بيده الحل..

وهكذا بات في دائرة علاقاتي الكثير من أصحاب الرفعة والنبالة، السعادة والنيافة ممن يمسكون مفاصل الأمور.. لقد بات بوسعي، كعضو في مجلس الأعيان، أن أدفع بقدمي كما قال إيناس، أي باب لأي ذي شأن وأدخل. أنا أمثل الشعب، انتخبني الشعب لكي أدافع عن مصالحه وقضاياه، فمن يقول لي لا؟ خاصة وهو يرى عيني الخضراوين وشعري الأشقر وبشرتي الطرية الندية كزهر الياسمين؟

بل كلما كنت أذهب إلى مكان جديد، أتعرف إلى شخصية جديدة، كنت أتذكر يا سميراميس، كم كنت تثيرين إعجاب جندك وقادتك؟ كيف كنت تلفينهم حول خنصرك وبنصرك؟ تجعلينهم يركعون عند قدميك؟ أتراهم هكذا الرجال دائماً؟ ضعفاء أمام المرأة، بالغو الهشاشة سهلو الانكسار.. كانوا أيامك هكذا.. وما زالوا أيامي أنا هكذا.. بل

صدقيني لم أر رجلاً لم يكن هشاً، ضعيفاً سهل الانكسار.. كلهم ينتظرون إشارة من إصبعي.. ألم يكونوا هكذا معك، سميراميس؟ أجل هكذا تقول أسطورتك:

(بعد الانتهاء من بناء الحدائق المعلقة ـ أعجوبة ذلك الزمان ـ في بابل، انطلقت سميراميس في زيارة لإمبراطوريتها تاركة في كل مكان تمر فيه أعمالاً ستخلد اسمها. فبدأت زيارة ميديا، وهي الجزء الغربي الجبلي من بلاد فارس وبنت في باجيستان منتزهاً سمته "الفردوس" وحفرت نقشاً "بحروف سورية" في أعلى الصخرة العمودية العظيمة المشرفة على المدينة. وفي خاؤون بنت منتزهاً آخر حوى أحد قصور المتعة كانت تنزل فيه لمدة طويلة تقضيها في اللهو والمجون، (ألم أكن هكذا أنا وصاحب السعادة؟ إذ لم تكن تريد الزواج بشكل شرعي، "كما علق على ذلك ديودورس،" خشية أن تحرم من الملك (ألم تكن حالي أنا أيضاً هكذا يا سميتي؟) فكانت تنتقي أجمل الرجال في جيشها وبعد أن يقدموا لها المتعة المطلوبة، كانت آثارهم تختفي (ألم تختف آثار غيث ومرهف يا جدتي؟).

بعد ذلك توجهت إلى أكباتان، فوصلت إلى سفح جبل عظيم هو جبل زاغروس الذي يمتلئ بالهاويات والجروف، مما تطلب منها القيام بحركة التفافية طويلة وأمرت بكشط الصخور وردم الجروف وأنشأت طريقاً جميلة مستقيمة لأنها كانت تتعجل الوصول. أما في أكباتان فقد بنت منزلاً ملكياً وزودت تلك المدينة بالماء بأن حفرت قناة أسفل جبل أورونت الذي يفصلها عن بحيرة كبيرة.

ومن ميديا انتقلت الملكة إلى بلاد فارس الشرقية وجابت كل الأقاليم الأخرى التي تقع تحت سيطرتها في آسيا. وفي كل مكان كانت تمر به كانت تشق الطرق الجبلية وتقيم المعسكرات فوق تلال اصطناعية وتنثر في السهول تلالاً كانت إما أطلالاً لمدن بنتها وإما مدافن لضباطها القتلى.

رجعت بعد ذلك على أعقابها وتوجهت نحو الغرب. وها هي الآن في مصر تزور معبد آمون في واحة سيوه لكي تسأل العراف عن ساعة موتها، وأخضعت ليبيا كلها كما وصلت إلى الحبشة كي تعاين فيها نوادرها وتبسط عليها سلطانها ترافقها دائماً هالة من السحر جعلت الرجال يتبعونها كالمسحورين، أمواج من الجاذبية جعلت القادة يركعون عند قدمها والجند ينبطحون لدى رؤيتها.. أجل.. كنت ساحرة فتانة يا سميراميس. وكم استغللت تلك الصفة فلم لا أستغلها أنا؟ أذهب إلى واحدهم فيبهت لحظات فاغراً فمه جاحظاً عينيه، وهو لا يصدق أن امرأة بهذا الجمال في مكتبه.. كلهم، يا سميتي، يعانون من الكبت والحرمان، تسيطر

عليهم الشهوة والرغبة حتى لتستطيعي أن تجرجريهم أنى شئت وأينما شئت.. عقدة الكبت مخيفة، ترينها في عيون الرجال، وكأنهم لم يروا امرأة من قبل، يستقبلك واحدهم وكأنه يريد أن يأكلك بعينيه، يلتهمك بفكيه.. وحسبك أن تلوحي بالجزرة حتى يجري الحمار بالسرعة التي تريدين وإلى النقطة التي تريدين.

لم يعد يصعب علي شيء.. الحواجز العالية أقفزها، الأسلاك الشائكة، حقول الألغام كلها كنت اجتازها بأمان وسلام.. لم أعد أخاف الأقاويل، لم تعد تهمني نظرات الناس أو وشوشاتهم.. كنت قد أصبحت شخصية عامة، تتكلم باسم الشعب وتدافع عن مصالح الشعب.. وهكذا لم أقم علاقات جديدة وأكسب معارف جدداً وحسب، بل استعدت علاقاتي القديمة: صاحب الرفعة مؤنس، صاحب النبالة يونس، رزق الله مديري القديم.. كلهم أعدت معهم وصل ما انقطع. ولكم سررت حين ذهبت في زيارة إلى صاحب الرفعة.. كان مكتبه الفخم هو نفسه، ذاك الذي تلعب به الخيل، والذي حاول فيه أول مرة أن يغتصبني فهربت منه، طاردني فلم يلحق بي... كان الرجل قد كبر تماماً، التجاعيد في وجهه، شعره أبيض كله، في ظهره شيء من انحناء، وبالتأكيد لم يعد قادراً على مطاردة الفتيات في مكتبه. "إيه!! زمان يا سميرة!! كم مضى على لقائي بك أول مرة؟ سألني وهو يجلس إلى جانبي ممسكاً بيدي متحسساً ذراعي متلمساً فخذي وكأنما ظل ذلك منفذه الوحيد إلى المتعة. "خمسة وعشرون عاماً" أجبت وأنا أتأمله مستعيدة في ذهني ذلك الرجل المترع حيوية ونشاطاً والذي فض بكارتي قبل ربع قرن.. "لكنك مازلت كما أنت.. أتراه قطار الزمن لا يمر بك؟" "أوه!! مازلت جنتلماناً، تحسن المجاملة يا صاحب الرفعة.. لكن أمازلت تحب اللوليتات؟" "مازلت تذكرين؟" "وكيف أنسى وقد تخليت عني يوم كبرت قليلاً ولم أعد لوليتا؟" "إيه!! يا لتلك الأيام!! كانت جميلة.. لكن اليوم بماذا أواجه اللوليتا وقد صرت أعزل بغير سلاح..؟" وضحك، غامزاً بعينه، ناظراً إلى أسفل جذعه.. ضحكت معه، رغم أنني شعرت في ثنايا ضحكته بقهر شديد وغيظ لا مثيل له.

لقائي بصاحب النبالة كان شيئاً آخر. لقد تخلى الرجل عن حذره تماماً، صار أكثر حرية في استقبال من يشاء ووداع من يشاء، إذ كانت امرأته قد توفيت فاكة عنه قيود الأسر، لكن حل محلها مرض ما أذاب شحومه كلها ليبقيه جلداً على عظم وليبدو جذع شجرة خاوياً ينخره الدود.

كان كلاهما قد بقيا في مكانهما ثابتين راسخي الأركان كأمراء الإقطاع في القرون الوسطى، حيث تكتب الاقطاعة باسمه فلا يغادرها إلا بالموت..

وكانـا كلاهمـا قـويين، نفوذهمـا مـايزال علـى أشـده، بإمكانهمـا أن يحلالـي أعقـد المشاكل، فلماذا لا أعيد معهما وصل ما انقطع؟ صاحب السعادة ليس لديه مانع.. هو يعلم علاقتي السابقة بهما، لكنه يعلم أن الزمن تجاوز تلك العلاقة، يؤمن أن عقارب الساعة لا تعود القهقرى فأعطاني "كرت بلانش". لكنه كان على خطأ، إذ لم يكد صاحب النبالة يراني حتى بدا وكأنه يعود سنين إلى الوراء. يستعيد حبه، ذكرياته، شغفه.. هو الذي كان قد خطط لشهر عسل نقضيه معاً ولزواج يفرضه أمراً واقعاً لكنه وجد نفسه فجأة معلقاً في فراغ.. لا أنا استطعت اللحاق به ولا هو يملك القدرة على عدم السفر.. بعدئذ جاءته الأخبار المحبطة المثبطة، والاتصالات عن بعد تلك التي أحرقت سفنه كلها مانعة إياه من العودة إلى حيث كان. "ما رأيك نعمل بيرسترويكا؟ إعادة بناء؟ "قال بمزيج من المزاح والجد "لكن بيرسترويكا غورباتشوف أخفقت بل دمرت الاتحاد السوفيتي كله".. أجبته دون مزاح. "نحن سنستفيد من أخطائه ونفلح في تجربتنا، "قال وهو على ثقة من أنه يستطيع فعل ذلك. كانت المرأة التي تقف حاجزاً بيننا قد ذهبت، بعدوانيتها، بسفاهتها، بكل شراستها ذهبت إلى غير رجعة لكن هل ظلت المرأة التي كان يريد الزواج بها يومذاك كما كانت؟.. حجراً في مكانه لم يتزحزح!؟ لا.. هي الأخرى ذهبت.. لم تمت لكنها تغيرت والتغير سنة الحياة.. بون شاسع واسع كان يفصل هذه المرأة عن تلك، متغيرات كثيرة حدثت، مستجدات ظهرت، فكيف تعود كما كانت أو تتم ما بدأت؟ "إيه يا صاحب النبالة!! ليتنا نستطيع ذلك، لكن أيعود التاريخ إلى الوراء؟" "نعيده إن شئنا.. ألسنا قادرين على فعل كل شيء؟" "ما عدا هذه يا صاحب النبالة: أم تستطيع إعادة الميت إلى الحياة!" وأمضينا ثلاث ساعات نتذكر ونتحسر، أو بالأحرى هو الذي كان يتحسر، وأنا أجامله. كان الرجل ما يزال في مكانه أما أنا فكنت قد أنجزت الكثير، قفزت من قفزات الكنغارو الكثير.

كنت من الانشغال بحيث لم يعد باستطاعتي النظر إلى الوراء.. ما يفوت يموت.. وأنا مندفعة إلى الأمام.. صاروخ عابر للقارات انطلق فكيف يتوقف، أو ينظر إلى الوراء؟

كنت أذهب إلى مكتبي في نادي النسوان، أقضي أعمالي، أوقع بريدي، ألتقي بهذه، بتلك، ممن أعرف أنهن يفدنني، ثم أمضي إلى مجلس الأعيان أحضر الجلسة إن كان هناك جلسة أو أمر "بالعين" الأكبر، أتبادل معه أطراف الحديث، أعلم أخبار البلد، السياسة، وهو يغدو أمامي كتاباً مفتوحاً أقرأ ما فيه من سطور وأيضاً ما وراء السطور.

كما ألتقي هناك بزملاء آخرين، بزوار لهم حاجات يقصدونني بقضائها فأقضيها لهم وفق المعلوم ولا ينزعج سائل ولا محروم.. كذلك لم أكن أنسى جمعية الكتبة فأشملها

بنشاطي، أزور مقرها من حين إلى حين، ألتقي بكتبتها نتناقش، نتحاور. لقد كان يهمني كثيراً تثبيت صفتي ككاتبة، لانتزاع الاعتراف بي كمبدعة ومثقفة، ولا ينتزع مثل ذلك الاعتراف إلا من الكتبة أنفسهم.. رحت أوطد علاقاتي بالكثيرين منهم، أحضر ندواتهم، أذهب إلى مؤتمراتهم، بل حتى الأمسيات الشعرية كنت أحرص على التواجد فيها، حيث ألتقي بأناس قد لا ألتقي بهم في مكان آخر، أناس يعنونني.. وكان في رأس من يعنونني مرهف، ذلك الكاتب الناقد الذي نسيته حيناً من الزمن وندمت: مرهف يكتب في الصحف، اسمه في كل مجلة في الداخل، في الخارج فلم لا أعيد الجسور معه؟ وهلل مرهف.. زرته في مكتبه فرحب وهلل دون أن ينسى التلميح إلى بيضة الديك تلك التي بضناها معاً ذات يوم، غامزاً إلى أنه يتمنى لو كنا دجاجتين من ذلك الدجاج البياض. "لكن الديك لا يصير دجاجة يا عزيزي" ضحكت رادة مشيرة إليه "وإن باض فمرة واحدة لا غير." وكان مرهف أذكى من أن يقف عند تلك النقطة.. هو الذي يتذكر جيداً كيف حذرته من الاقتراب...

شجعني على الانتشار.. "اكتبي في الصحف.. تواجدي في الساحة الأدبية.. رسخي قدميك.. هي مهمة أيضاً من أجل الساحة السياسية.. لكنني كنت متخمة.. ما عساي أكتب؟ الكتابة صعبة.. لابد من موضوعات قيمة، لغة جزلة، أسلوب مثير.. لكنه ضحك ساخراً.. "في الصحافة لا شيء من هذا.. اكتبي أي شيء.. أسخف شيء.. ينشروه لك.. المهم أن تنشر صورتك، ألا تغيب أخبارك عن الصحف.. سيفيدك ذلك كثيراً". "المشكلة أنني لا أجد وقتاً" "أنا أجد الوقت.. أعطيني الفكرة وأنا أكتب لك" "رائع!! عظيم!! "هتفت بفرح شديد فقد كان ذلك ما أريد.. منذ ذلك اليوم تم الاتفاق بيننا: يكتب لي وأدفع له لتظهر لي كل أسبوع زاوية صغيرة في صحيفة، مقالة سريعة في مجلة.. موضوعات ألتقطها من المجلس.. من نادي النسوان، من الشارع، وأجد صوري على صفحات الجرائد والمجلات.. كان يكفي أن أذهب إلى رئيس التحرير ليستقبلني بكل حفاوة وترحيب، يكيل لي المديح والثناء، يرحب بما جئته به ثم ينشره في اليوم التالي مع صورة لي ربما عمرها عشرون سنة.

كنت أريد أن أظل في ريعان الصبا، فقررت ألا أنشر صوراً إلا وأنا في ذلك العمر.. وكنت أنتشر يوماً بعد يوم.. أنتشر إلى درجة صارت وسائل الإعلام تلاحقني.. لم أعد أنا التي تذهب إلى رئيس تحرير أو مدير إذاعة أو مدير تلفاز.. بل هم الذين يأتون إلي، يتصلون بي، يريدون حديثاً، مقابلة.. ألست عضواً في مجلس الأعيان؟ ألا أشغل مواقع أخرى ذات أهمية؟ إذن، ليبرزوني في التلفاز.. ليسألوني في كل مناسبة، ليأخذوا حديثاً عند كل طارئ.. ولم أكن

أعلم أن لصاحب السعادة دوراً أساسياً في ذلك، هو الذي يريدني أن أكون شخصية اجتماعية بارزة يعرفها الجميع ويقر بتفوقها الجميع..

"ما رأيك تلقين قصيدة في المناسبة الوطنية القادمة؟ "سألني ذات يوم ونحن نتغدى في عشنا الدافئ، حيث نلتقي من حين إلى حين.. "حقاً؟ تريد ذلك؟ "هتفت وقد فوجئت.. "لم لا؟ قد سبق لك ونشرت قصيدة أو قصيدتين ذات مرة؟" "أجل نشرت.. لكنهما ظلتا فريدَتي العصر ويتيمتي الدهر." "لا هم.. الهم هل تستطيعين أن تكتبي قصيدة أم لا؟" "أستطيع "قلت حتى دون تفكير "إذن استعدي أم أولئك الذين يلقون قصائد خير منك؟" "خسئوا." هتفت من جديد وأنا أكاد أطير فرحاً. كنت أعلم جيداً ما تعني تلك المناسبة الوطنية وما يعني أن ألقي قصيدة فيها.... شيوخ القبائل، أعيان المناطق، قادة الجند، أمراء الإقطاع كلهم يحضرونها، وكلهم يبجل من يشارك فيها باعتباره من الصفوة العليا التي لا يبلغها إلا القلة.

"حسن.. إذن.. لا تضيعي وقتك." ولم أنم تلك الليلة.. كنت فرحة وخائفة في الوقت نفسه. عهدي بالشعر بعد كثيراً، بل كنت قد نسيت كل شيء عن العروض والبحور.. ولم يكن يخطر ببالي أن أقول كلمة شعر، فكيف أكتب قصيدة الآن؟.. حاولت تلك الليلة لكن ذهني خواء. ربة الشعر لا ترمقني بنظرة واحدة وعلي أن أكتب شيئاً متميزاً. إنها مناسبة لعلية القوم وعلى قصيدتي أن تكون على مستوى المناسبة أو سقطت إلى الأبد.. إنه امتحان صعب.. إن نجحت فيه قفزت درجة أخرى وربما درجات على سلم المجد.. لكن إن سقطت ما الذي يرفعني من جديد؟.

على الفور عاد إلى ذهني غيث.. كانت قد مضت سنون لم أره فيها ولم أكن أعلم أين أراضيه.. لكنه كان منقذي الوحيد.. ما كان بيننا يسمح لي أن أثق به بل أن أوكل إليه تلك المهمة.. أعطيت اسمه لصاحب السعادة مع عبارة موجزة.. "أريده موجوداً".. لم يسألني صاحب السعادة لماذا، لكن بعد ثلاثة أيام كان بين يدي وهو يرتعد خوفاً تكاد ساقاه لا تحملانه.. "غيث.. ما بك؟ لم ترتجف؟" سألته وهو يقف أمامي في مكتب نادي النسوان حيث آثرت أن أراه "ما بي؟ آه يا سيدتي لو تعلمين كيف ألقوا القبض علي؟ كيف حملوني موجوداً إليك؟" "ألقوا القبض عليك؟ حملوك موجوداً؟ "سألته وقد نسيت أن تلك كانت أوامري. "بل تعرضت للضرب والإهانة وكأنني مجرم.. فماذا فعلت لك يا سيدتي؟" "هون عليك.. هون عليك.." رحت أهدئه وألاطفه معتذرة مترجية.. فيما جاءت له الآذنة بالقهوة والشاي، ثم العصير والمثلجات حتى هدأت نفسه واطمأن. حينذاك طلبت معونته "أنت أستاذي ويدي اليمنى في كل ما أكتب من شعر، فهل تستطيع أن تساعدني في ضبط وكتابة هذه القصيدة؟ "قلت وأنا أمد له يدي

بورقة كتبت عليها ثلاثة أو أربعة أبيات هي كل ما خرجت به بعد عصري الشديد لتلافيفي الدماغية طوال تلك الأيام.

قرأ غيث الأبيات ثم التفت حوله كالخائف، "أستطيع أن أقول رأيي يا سيدتي؟" "همس بخوف أشد "لهذا جئت بك أريد رأيك بصراحة.. المناسبة التي سألقيها فيها مهمة للغاية، لذا يجب أن تكون القصيدة صحيحة سليمة لا تشوبها شائبة".. "إذن للأسف يا سيدتي.. هذه الأبيات ليست شعراً ولا تصلح لأن تلقى.. "ماذا تقول؟" سألته بانزعاج وتجهم فخاف وانكمش. "أنت قلت تريدين رأيي بصراحة.. والصراحة هي أن الأبيات مكسرة مخلعة لا علاقة لها بوزن أو عروض البتة." "حسن.. مهمتك إذن أن تصلحها ثم تكملها حتى تصبح قصيدة طويلة لا تقل عن ستين بيتاً.." "على رأسي وعيني.. لكن هذا يحتاج لبعض الوقت" "معك عشرة أيام.. أنزلك في الفندق الذي تشاء، تأكل ما تشاء، تشرب ما تشاء، وحين تنجز العمل لك المكافأة التي تشاء." "حقاً؟ حتى لو طلبت أن نعود سيرتنا الأولى؟ "قال وهو يبتسم غامزاً بعينه إشارة إلى الأيام الخوالي "لا "قلت دون أن أرد له ابتسامته أو غمزته "أنا أقصد المكافأة المالية التي تشاء." "وأحسست به ينقبض ثم ينكمش على نفسه من جديد.. هل بت أخيفه؟ ذلك أكيد، كان مجيئه إلي بالطريقة التي جيء بها يكسر الظهر، لا يخيف وحسب.. المسكين كان آمناً مطمئناً في منزله مع زوجه وأولاده في منطقته النائية تلك. مع صياح الديك، قرع الباب.. بغلاظة شديدة قرع ثم ما إن فتحه حتى تلقفه رجلان، واحد من هنا وواحد من هناك جروه إلى السيارة جراً وهو يرجوهم أن يدعوه فقط يرتدي ثيابه، لكنهم لم يدعوه بل امرأته هي التي أنقذته. لحقته بملابسه وحذائه ملهوفة، تسأل الرجال عما فعل زوجها وأين يأخذونه. لكن أحداً لم يجبها، بل ألقوه في السيارة كيس بطاطا لتندفع به إلى حيث لا يدري، هو الذي عصبوا عينيه حتى لا يرى شيئاً، وحين طلب إليهم أن يعرف لماذا يلقون القبض عليه، عاجلته اللكمات والرفسات إلى أن اقتنع بمثل كان يعرفه منذ الصغر: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. لم يفتح فمه بعد ذاك رغم أنهم ألقوه ساعات من الزمن في زنزانة مفردة لا ترى فيها العين ولا يطعم الفم، ثم نقلوه المرة تلو المرة إلى أن وصلوا به إلى مكتبي.. "شيء مخيف "غمغمت في سري وأنا أسمع قصته، "لكن ربما كان لابد من ذلك.. فالرعاع لا يساقون إلا بالعصا "فكرت وأنا أعود لطمأنته مغمغة بأن هناك سوء تفاهم ولاشك، وأنني ما كنت أريدهم أن يزعجه البتة، هو صديقي القديم وشاعري العظيم.

في اليوم السابع جاءني بالمطلوب، قصيدة عصماء تزيد عن الثمانين بيتاً، قرأها أول مرة فأعجبتني. "اقرأها من جديد. وقرأها ثاني مرة وأنا أحاول التركيز على طريقة لفظه، أسلوب

إلقائه، حركات يديه وعينيه علني أقلده.. كان غيث ينظم الشعر بالسليقة ويعرف الإيقاع بالفطرة، فتساءلت "لم لم تنشر ديوان شعر لك؟ أليس لديك ما يشكل ديواناً؟" "بلى.. لدي ديوان وديوانان، لكن أين النقود؟ "قال وهو يزفر حرقة وحسرة. بعدئذ استأنف "النشر بحاجة إلى مال وأنا براتبي لا أكاد أشبع خبزاً." "كانت امرأته المعطاء قد أنجبت له خمسة أولاد ولم يكن هناك سوى راتبه، ذلك الضئيل الضئيل إلى حد لا يقيم الأود إلا بشق النفس.. "أعطني ديواناً، أنا أنشره "خطرت لي الفكرة فصرحت بها في الحال" "حقاً؟ تتبرعين لي بكلفته؟" "لا.. لا.. أتبرع لك بمبلغ مجزٍ لقاء تنازلك عنه وأنا أنشره باسمي،" أكملت له الفكرة وقد صارت واضحة تماماً في ذهني. فجأة اكتست سيماؤه بالخيبة والصدمة. غمغم بشيء لم أفهمه وهو ينظر إلي كأنما هو غير مصدق.. أشحت بنظري عنه وقد صرت كلي تصميماً، ثم شيئاً فشيئاً راح يحل محل الصدمة شيء آخر، ليس بالفرح ولا البهجة بل نوع من الاستسلام.. "هه.. ماذا؟ ألم تعجبك الفكرة؟ "لا.. لا تؤاخذيني.. الفكرة فاجأتني وحسب." "حسن هناك غيرك "لا.. موافق.." قاطعني وقد خشي انزعاجي.. بعدئذ عقدنا صفقة، كنت فيها ولأول مرة أدفع بدلاً من أن أقبض.. لكنني كنت فرحة... لقد عرفت تلك اللحظة أن الفرح لا يتوقف على القبض فقط.. بل يمكنك أن تفرح وأنت تدفع، خاصة حين تعلم أن الصفقة التي عقدت ستعود عليك بكثير من الأرباح.

خلال اثنتين وسبعين ساعة جاءني بالديوان: مائة وعشرين صفحة كان.. اثنتين وثلاثين قصيدة.. بعضها من الشعر العمودي والآخر من شعر التفعيلة.. قلبت صفحاته.. خط غيث جميل.. كأنه خطاط محترف.. كلمته واضحة، حرفه كبير.. بإمكانك أن تقرأه وأنت مغمض العينين ثم هناك شكل كامل.. نهايات الكلمات، الحروف – المشكلة، كلها عليها شكل فلا خوف إذن من خطأ.. كان المسكين قد أعده جيداً بانتظار الفرج الذي يفتح له أبواب النشر.. وهاهي ذي أبواب النشر تفتح له، فلماذا هو غير فرح؟ كان قد وضع الديوان بين يدي فيما عيناه عالقتان بصفحاته وأنا أقلبها.. شيء غير الفرح كان على وجهه، شيء كالحزن، كالغم كان قد جعل عينيه كامدتين، حاجبيه مزمومين فخيل إلي أني أرى فيه أباً يبيع ولده.. ها هو ولده يتسرب من بين يديه حبات رمل بين أصابع.. لكنه يكظم.. يشيح بناظريه أخيراً وكأنه لا يريد أن يرى ابنه بعد.. رؤيته تعذبه فليوفر على نفسه ذلك العذاب.. أسرعت أنقده مالاً.. رزمة ليست بالكبيرة، لكنها بدت بالنسبة إليه مدعاة سرور كبير. لقد هش وبش شاكراً إياي متعهداً لي أن يظل خادماً بين يدي.. يلبي كل ما آمره به.. "لكن حذار أن تأتي على ذكر هذا بكلمة واحدة"، قلت مهددة ملوحة بسبابتي فارتجف. "معاذ الله!! هذا

سر بيني وبينك لا يعرف به أحداً." "حتى ولا امرأتك." "ولا كائن في الوجود.. أبداً أبداً." أكد لي فاطمأننت وأنا أرى رعشة في شفتيه لا تبين إلا عن خوف شديد.

"اسمع.. "قلت لصاحب السعادة ما إن غادر غيث. "لدي ديوان شعر جاهز، ما رأيك نطبعه قبل المناسبة؟" "نطبعه، "رد هكذا دونما تفكير "أريده أن يصدر سريعاً فنوزع نسخاً منه في المناسبة وقبل أن ألقي القصيدة." "يصدر سريعاً"، رد بعبارة موجزة كعهده أول مرة، فقلت بكثير من الشك "يعني كم؟ عشرة أيام؟ خمسة عشر يوماً." "بل خمسة أيام.. أرسلي لي الديوان.. وقبل نهاية الأسبوع يكون بين يديك" "حقاً!! يا إلهي!! كم أنت رائع إذن!! "هتفت وأنا غير مصدقة.. فالطباعة والنشر مسألة معقدة تحتاج إلى معاملات ومراجعات.. أخذ ورد، تصحيح وإعادة تصحيح.. لكن صاحب السعادة شيء آخر.. كل شيء عنده ممكن ولا شيء مستحيل.. يصير عنده ما لا يصير أبداً.. ولا يصير أبداً عنده ما يصير عند كل الناس.. هكذا هو.. نسيج وحده، إن قال فعل وإن أمر يوماً: كن.. كان..

لم تكن فرحتي توصف يا جدتي العظيمة حين وصلتني النسخة الأولى من الديوان. "ها أنذي شاعرة.. سأجعل الناس كلهم يطبلون لي ويزمرون.. سأملأ الصحف والمجلات.. سأصبح شغل الناس الشاغل.. إذاعة.. تلفاز.. إنترنت.. سوف أنتشر إلى كل مكان وفي كل ركن وزاوية.. شاعرة كليلى الأخيليه، كولادة بنت المستكفي.. "رحت أخاطب نفسي وأنا أقلب صفحات الديوان المطبوع على أفخر ورق.. أجمل غلاف.. وصورتي ذاتها ملء ذلك الغلاف.. "أوه!! كم أشكرك يا صاحب السعادة؟ من أشرف على الطباعة؟ من صحح؟ من دقق من فعل ذلك كله؟" "لا تسألي.. أنت فقط تأمرين" "أرسله للتوزيع.. أريده في كل مكتبة، كشك، كوة بيع." "اطمئني.. ستجدينه في كل مكان".

ولشد ما اطمأننت.. حين جاءت المناسبة الوطنية المرتقبة وذهبت بقصيدتي لأجد الكل يسرعون إلي، يسلمون مهنئين بديوان الشعر الجديد، المفاجأة التي ليس مثلها مفاجأة.. كانت الصالة كبيرة واسعة وكانت الحشود مزدحمة في الداخل كما في الخارج، حين صعدت المنبر لألقى القصيدة التي تدربت عليها أياماً وليالي، أعيد قراءتها المرة تلو المرة كيلا أخطئ في لفظة ولا تفوتني شكلة.. إنها مسألة خطرة.. إلقاء الشعر فن وعلى الشاعر أن يتقن هذا الفن.. كان غيث قد حثني على حفظها عن ظهر قلب. فخير الشعر ما يلقى عن ظهر قلب، لكن كيف وذلك من رابع المستحيلات؟ لقد ظل مخي رغم محاولاتي المتكررة، كأنه الصخر الأصم لا ينفذ إليه الماء فكيف ينفذ الشعر؟ عند ذاك اكتفى الرجل بجعلي أتقن قراءتها

جيداً، أحسن إلقاءها تماماً وقد استغرق ذلك منه ستة أيام من التدريب المستمر، نال عليها هي الأخرى رزمة من النقود..

كيـف لا أصـنع الخلـود وزنـدي؟ يعربـــي وخـــافقي لـــصميدع؟

بدأت الإلقاء فضجت القاعة كلها بالتصفيق والهتاف. أعيدي.. أعيدي.. أعدت بفرح وثقة أكبر، ثم رحت أعيد كل بيت ألقيه فقد كانت هناك فئة من الرجال تقتعد آخر القاعة تبالغ في التصفيق والهتاف ذاته: أعيدي.. أعيدي.. إلى درجة تلفت النظر. أتراهم رجال صاحب السعادة؟ رحت أتساءل لكنني لم أنته حتى صرت على يقين من ذلك.. لقد وقفوا جميعاً يصفقون ويصفقون إلى درجة أحسست معها أن صدري ينتفخ ورأسي يعلو ويعلو حتى ليكاد يرتطم بالسقف..

يوماً عظيماً كان ذلك اليوم، بل أعترف لك يا سميتي أنني شعرت أنه أعظم يوم في حياتي.. كان التصفيق مدوياً والكل وقوفاً إجلالاً وإكباراً للشاعرة العظيمة المبدعة. بعدئذ جاء أصحاب الرفعة والنبالة، النيافة والسعادة.. وكلهم يهنئ خنساء الشعر الجديدة التي ستملأ الدنيا وتشغل الناس.. اليوم التالي جاء بانتصار جديد أكثر إبهاجاً وقصيدتي ملء الصفحة الأولى من كل جريدة.. آه!! سميراميس!! ما أعذب مذاق المجد!! هذا المذاق الذي طالما ذقته أنت وأنت تصرعين الفرسان، تكسبين المعارك، تفتحين القلاع والحصون.. لكن أنا.. ماذا أصرع أو أفتح؟ الصحف، المجلات، الإذاعة، التلفاز.. آذان المستمعين وأبصار المتفرجين.. ليبدو كل شيء وقد غدا طوع بناني. لأبدو أنا نفسي كأنني صرت مثلك، سميراميس ملكة آشور وبابل.

بإشارة من بناني صرت أحرك نادي النسوان، الجامعة، جمعية الكتبة، مجلس الأعيان.. من تراه يقف في وجهي؟.

من يخالفني وهو يعلم ما أنا عليه من حول وطول.. كلمتي لا تصير اثنتين عند علية القوم، الكل يرهب جانبي، يحسب حسابي.. حتى صاحب السعادة صار يوليني اهتماماً أكبر، يرغب في لقائي أكثر، نمضي معاً سهرات أطول.. وكنت سعيدة إلى حد لم أستطع كتمان شعوري فبحت به في إحدى ليالينا الحمراء. "الحمد لله أنك سعيدة.. يعني أنا وفيت بوعدي؟" "وهل يشك في وفائك بوعدك؟ الشكرلك كل ما تمنيت وصلت إليه، لبن العصفور جئتني به،" "إذن لا ينقصك الآن شيء؟" فجأة كظمت.. شيء ما انبثق في رأسي فجعلني أكظم "هه.. ما بك؟ أينقصك شيء؟ "سألني فأجبت "أجل.. إيناس.. ينقصني شيء" "ما هو؟" "المشكلة أنني لا أدري ما

هو.. لكنني أشعر به.. ثمة شيء أنا بحاجة إليه، مكانة أتبوأها فأبلغ ذروة الهرم". "ذروة الهرم؟ "راح يردد المرة تلو المرة وهو مطرق، بعدئذ رفع رأسه، كأنما لمعت في تلافيفه فكرة.. "بيدك حق.. يجب أن تصلي إلى سدرة المنتهى.. إلى ذروة الهرم ولسوف تصلين.. عرش المجد ذاته سأجعلك ترتقين" "ماذا تقصد؟ تجعلني صاحبة رفعة؟" "بل أجعلك أميرة إقطاع".. "أميرة إقطاع؟ "هتفت وأنا لا أصدق ما أسمع "أنا أصير أميرة إقطاع؟ أو تستطيع ذلك؟" "أنا الذي يستطيع.. أم من تراه عيّن أمراء الإقطاع الذين تعرفين؟ "ونمت تلك الليلة على حلم جميل قلما رأيت مثله. أميرة إقطاع تركب على حصانها الأبيض، فيما تسير وراءها حاشية من الخدم والأتباع والكلاب..



(.. لكن ما هذه الضوضاء التي تقترب من القصر؟ اذهبي واسألي قائد الحرس وعودي سريعاً، فإنني أريد أن أنتهي من زينتي. وعادت الوصيفة فأبلغت الملكة أن حشداً كبيراً من الناس قد تجمع أمام القصر وأن المتجمهرين قد جاؤوا يعلنون احتجاجهم على فقد منازلهم التي أمرت الملكة بهدمها لتقيم على أنقاضها المعبد الجديد. وأقبل رئيس الحرس مهرولاً ينبئ الملكة بأن الثائرين يحاولون اقتحام أبواب القصر ويستأذنها في أن يطلق عليهم السهام لردهم عن الأبواب، فصاحت سميراميس تأمره بأن يفتح لهم أبواب القصر، واندفعت إليهم فواجهتهم وهي محلولة الشعر نصف عارية، فما إن وقعت عليها أبصارهم حتى انطفأت ثورتهم وأخذتهم روعة المفاجأة فسجدوا لها مبهورين..).

هكذا أيضاً ظهرت الاحتجاجات وبدأ اللغط والشغب، وقد صدر أمر تسميتي، كما وعدني صاحب السعادة، أميرة إقطاع.. لم يكن الناس في الاقطاعة قد ألفوا أمراً كهذا.. "امرأة تصبح أميرة إقطاع؟ لا، أمر نأباه.. لن نقبل بأنثى تتحكم بنا" كأنهم لم يقرؤوا التاريخ، كأنهم لم يسمعوا بك يا سميراميس، يا من كنت ملكة آشور وبابل.. كأنهم لم يعرفوا أن قدرنا واحد يا سميتي، فماذا أفعل كي أوقف احتجاجاتهم وشغبهم؟ ماذا أفعل كي أجعلهم يسجدون لي مبهورين؟ المسألة مسألة حياة أو موت فهل أستسلم أم أقاوم؟ أخضع لثورة الاقطاعة أم أمحقها محقاً؟ الخيار صعب لكن كان لابد من التصرف.. تعييني أميرة إقطاع أمر لا سابقة له البتة وعلي أن أثبت أن حسن ظن أولي الأمر بي في محله، وأن بإمكان المرأة أن تكون أكثر رهبة وأشد قبضة من الرجل.. بل إن صاحب السعادة إيناس، زودني بتعليمات صارمة ومحددة قبل أن يسمح لي بالذهاب إلى اقطاعتي: الإقطاعة لك بكل ما فيها ومن فيها.. أنت فيها حرة التصرف، تفعلين ما تشائين لا حسيب ولا رقيب فكوني قاطعة كحد السيف.. اضربي بقبضة من حديد.. بثي الرهبة في قلوبهم يخنعوا لك ويخضعوا.. إياك والشفقة فما أضر بأميرة إقطاع كالشفقة والرحمة.. مصلحتك كأميرة اقطاع أولاً ثم ثانياً ثم ثالثاً.. بعدئذ تجيء أية مصلحة أخرى.. المهم أن تتجحي كأميرة إقطاع حتى ولو على تلال من الجماجم".. وأعجبتني تعليماته.. هو خبير.. صار له عقود من الزمن في مكانه، شأنه شأن صاحبيه الآخرين، ومع الزمن تتراكم الخبرات وتنضج التجربة ويعرف السيد كيف يتعامل مع عبيده.. أجل.. هم عبيدي.. كل من في الاقطاعة عبيد وإماء لي، هكذا جاء في تعليمات إيناس، أمير الإقطاع هو رب الإقطاع، لا راد لمشيئة ولا اعتراض على إرادته وعلي، كامرأة، أن أبذل

المستحيل كـي أثبت أنني صنو الرجل إن لم أكـن أشـد مضاء وأكثر قسوة وبالتالي أكثر جدارة.. ألم تثبت ذلـك مارغريت تاتشر فسموها المرأة الفولاذية؟ أنـديرا غانـدي ألم تحكـم أكبر ديموقراطيات العـالم، الهنـد، بيـد مـن حديـد؟ إذن علـي أن أبـذهن جميعـاً، أمـيرات وملكات فأبرهن أن التاريخ يعيد نفسه، وكما جعل من سميراميس ملكة آشور وبابل، سائر المشرق وإفريقيا، قادر أن يجعل سميراميس الحديثة أميرة اقطاعة لا يضاهيها أحد..

ولكي يعيد التاريخ نفسه حقاً، جعل الرجال في اقطاعتي يغضبون ويزمجرون." كيف يكون أميرنا امرأة؟" يصرخ أحدهم. "ألم يسمعوا المثل القديم: والله ما أفلح قوم على رأسهم امرأة؟" فيما يصرخ آخر "من علائم اقتراب الساعة طاعة النساء. "ويصرخ ثالث.. ذل من أسند أمره لامرأة".. ويقول رابع وخامس حتى بدا أن في الاقطاعة ثورة حقيقية تكاتف فيها الرجال جميعاً ضد الأميرة الجديدة فماذا تحسبينني فعلت يا سميراميس؟ أعترف لك أنه خطر ببالي أن أفعل كما فعلت أنت، أنا التي أحفظ أسطورتك حرفاً بحرف فأذهب إلى مقر الاقطاعة محلولة الشعر نصف عارية لأجعلهم يخرون لي ساجدين.. استشرت صاحب السعادة فزجرني "وتحسبين أن ما يصلح لزمان سميراميس يصلح لزمانك هذا؟ لا.. لا.. لكل زمان دولة ورجال، سلوك وأخلاق.. وزماننا هو زمان القمع.. فاقمعي بشدة واضربي بقوة.. إن القوة المطلقة هي المجد المطلق".. ولكي يزودني بالقوة المطلقة بغية الوصول إلى المجد المطلق أرسل قبلي رجالاً اندسوا بين العاملين هناك يرقبون أفعالهم، يرصدون تحركاتهم، يهيئون لي الجو، ناشرين إشاعات، ناقلين عن لساني أقوالاً تعد وأخرى تتوعد، حتى إذا ما ذهبت إلى المقر، كان الناس قد تخلخلوا موقفاً وتزعزعوا تصميماً. لكن وجوههم ظلت متجهمة وجبهاتهم مقطبة.. يشكلون في جمهرتهم ثورة قد يشعل فتيلها عود ثقاب.. بدأت خطبتي العصماء تلك التي حضرتها مع صاحب السعادة بصوت كله شدة وقسوة "والله إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لقاطفتها، فحذار حذار.. الوعي عندي بغي والتفكير سبة، الهمس جرم والكلام حرام.. أريد أفواهاً بلا ألسن ورؤوساً بلا آذان ولا أعين، ظهوراً تخضع وركباً تركع ومن قال أفٍ ألقيته في نار جهنم فلا تلقوا بأنفسكم إلى جهنم، اسمعوا وعوا، نفذوا وأطيعوا تنجوا بأنفسكم من التهلكة، واعلموا أنني أعطيكم ملء الحرية في أن تتصرفوا كما أريد أنا، ملء الحرية في أن تفعلوا ما أريد أنا.. وأطيعوني عبادي المتقين تدخلوا جنتي أبد الآبدين.."

تصفيق حاد انطلق، وأنا أنهي خطبتي العصماء من القاعة كلها، لكن كان على أشده في ركن قصي تجمع فيه رجال عرفت في بعضهم رجال صاحب السعادة. الآخرون كانوا

يصفقون.. لكن على خوف ولم أجد في ذلك أي ضير.. لقد أفشلت ثورتهم على كل حال.. هاهم يطاطئون رؤوسهم، يحنون ظهورهم وينصرفون، كل إلى عمله، دون تذمر أو شكوى...

أليس هذا خضوعاً لي؟ أما ترينه أشبه بسجودهم لك راكعين؟ ذلك أن الزمان تغير يا سميتي، لم يعد الناس يركعون أو يسجدون للملوك والأمراء، سميراميس. اليوم الكل ينادون بالمساواة بين البشر، بحقوق الإنسان، بعدم سجود الإنسان إلا لربه عزوجل، فكيف أطلب منهم ركوعاً أو سجوداً؟ لا.. لا.. حسبي أن أفواههم كمت، ظهورهم انحنت، ورؤوسهم أطرقت.. فعلى المرء أن يأخذ الزمان، بكل ما فيه من معطيات ومتغيرات، بالحسبان..

بعدئذ بدأت وفود المهنئين.. سيولاً تتدفق دون أن أدري كيف جاءت أو من أين.. سبعة أيام وأنا أستقبل المهنئين، بكل ما يحملون من ورود وأزهار، هدايا وحكايا، حتى خيل إلي أن البلاد كلها جاءت تهنئني.. كأنما ذلك بإيعاز.. وكانت مفاجأة فوجئ بها حتى العاملون في الاقطاعة، إذ لم يشهدوا مثيلاً لذلك من قبل مما جعلهم يحنون ظهورهم أكثر ويطأطئون رؤوسهم أكثر.. لكن من لم يطأطئ عاجله رجال صاحب السعادة باستضافة يحسن فيها الرجال ضيافة الآخرين فلا يخرجون إلا وقد انكتمت أنفاسهم تماماً.. كنت بحاجة لجو رائق حولي لا يعكره أحد، ولكي أحقق بغيتي كان علي، كما اقترح صاحب السعادة، أن أغير وأبدل بما يتلاءم مع مزاجي، فلا يظل حاقد أو حاسد.. ولا يبقى ما لا يحمل لي الراحة والسكينة..

في البدء كان مكتبي وقد أردته أن يكون كمكاتب العظماء من أمراء الإقطاع، كبيراً واسعاً تلعب فيه الخيل، فخماً فاخراً تنبهر له الأبصار، ألم يحدث لي هذا حين دخلت مكتب صاحب الرفعة وأنا صبية في العشرين؟ إذن، هذا ما ينبغي أن يكون عليه مكتبي فينبهر لرؤيته الصبايا والصبيان، الشيب والشبان." وسّعوا، زينوا، زخرفوا،" صدرت الأوامر "أغلى الأثاث اشتروا.. أرقى اللوحات والزخارف هاتوا".. حتى إذا ما انتهوا، بدا لي المكتب آية في الروعة والأبهة.. والأبهة يا سميراميس، طريقك الوحيد إلى الإبهار. أنت تعرفين ذلك ولطالما لجأت إليه أسلوباً تخضعين به الرجال. هكذا أنا يا جدتي لم أكن بحاجة إلى شيء كالإبهار.. هو هدفي.. فليكن الكثير من البذخ والبهرجة تلته العين بالشكل عن المضمون، بل ربما لا تفطن للمضمون على الإطلاق.

"مليونان ونصف كلفة المكتب يا صاحبة الرفعة، يا ذات العفة والصون، "قال المحاسب وهو يقدم لي فواتير التكلفة فتبسمت "ها قد أصبحت أنا نفسي صاحبة رفعة، ذات عفة وصون، فأية عظمة؟ أي مجد؟ "لكن نظراته ألحت علي تريد جواباً. "مبلغ ضئيل.. ظننت أنه

سيكلف أكثر. "بدأت وأنا أوقع الفواتير. "لكن ليس له رصيد في ميزانيتنا يا صاحبة العفة، فمن أين أصرفه؟" "وهل هذا شأني؟ دبر رأسك.. المهم أن تصرفه." ورأيته يتلجلج، يهم بالكلام ثم يحجم "ماذا؟ "نهرته بحدة "أنت تحتج؟ تعترض؟" "لا.. لا.. يا صاحبة الصون.. أنا لا أحتج ولا أعترض سأدبر رأسي.. سأعمل مناقلة من بند إلى بند." "هكذا تكلم.. أم تراني لا أعرف أساليبكم، أنتم المحاسبين؟ هيا.. انصرف.. وإن تلكأت بعد المرة أو احتججت رأيت الويل والثبور وعظائم الأمور." ودون أن ينبس بحرف تراجع القهقرى حانياً ظهره المرة تلو المرة إلى أن أغلق وراءه الباب.

بعدئذ بدأت بمدير المكتب وأعوانه.. كان المدير كهلاً أشيب، ناحلاً ضعيفاً يوحي شكله كأنه مصاب بالسل فهل أبقي وجهاً مسلولاً يطالعني صباح مساء؟ لا، لا.. يجب أن أضع رجلاً يريحني وجهه، يسرني شكله بل لا بأس أن أنتقيه فحل الفحول فأقضي به وطري عند الحاجة. لكن سرعان ما جاءت تعليمات صاحب السعادة "أبعدي عنك الرجال فلا تلوكك الألسن".. ولم يكن بوسعي إلا أن أنفذ.. كنت أعلم أن الرجل داهية يحسب لكل شيء حساباً، غيور لا يطيق رؤية رجل بقربي وفوق هذا وذاك إن كنت ريحاً فإنه هو الإعصار ثم هو صاحب خبرة ليست لي. ونتيجة خبرته تلك قال أية ثغرة تتركينها تهب عليك منها الريح فلماذا لا تسدها صاحبة العفة وتستريح؟ وأطعت صاحب السعادة والخبرة. عملت برأيه، ورأيه أن يكون كل من يحيط بي من النساء فالمرأة لا تشكل خطراً على المرأة ولا تثير حولها الشائعات.. إذن، لأجئ بطاقم من نساء أمازونيات يحرسنني ويقمن بأعمال المكتب..

بعدئذ أعجبتني الفكرة وقد أطلت بها التفكير.. نساء أمازونيات يحللن محل الرجال، وأحيل جناحي إلى جناح حريم لا تطأه قدم رجل.. هذا سيبعد عني الشبهة، سيجعل سمعتي نقية صافية لا شائبة فيها.. واتصلت برجاء: زميلتي هناك في المصلحة، حيث أمضيت سنين طوالاً، وحيث عرفت فيها الإعجاب بي والإخلاص لي.. قلت لها "دعي كل شيء من يدك وتعالي.. سأجعلك مديرة مكتبي "ولم تصدق أذنيها... تركت كل شيء وجاءت إلي عداءة ماراثون في أول انطلاقتها.. لكنها صدقت أذنيها وأنا أعطيها التعليمات الصارمة القاسية عما تفعل وعما لا تفعل، وعلى نحو تأكدت معه أنها ستكون سميعة مطيعة لا تخالف أمري البتة.. جئت ببتول، طالبة الجامعة المسكينة التي لم تستطع التخرج لأنها لم تدفع الثمن لأستاذها صاحب الضمير.. كما جئت بسبع نساء أخريات كنت أعرفهن من النادي الرياضي حيث عملن دورات جيدو وكاراتيه وتهيأن منذ أزمان للدفاع عن أنفسهن وعن غيرهن، شأنهن شأن الرجال. بذلك تشكل لدي جناح حريم كما يشتهي قلب صاحب السعادة.. هو لا يريدني أن أحتك بالرجال..

فربما آلف أحدهم أو أخلو به، والحديث الشريف يقول: ما اجتمع ذكر بأنثى إلا وكان ثالثهما الشيطان؟ إذن فليبتعد عني الشيطان.. ولأبتعد عنه.. أنا أريد ما يريده صاحب السعادة.. هو ولي نعمتي، وصانع عظمتي وباني مجدي فكيف أخالفه؟

لا، أنا لا أخالف له رغبة.. لهذا غيرت حتى الرجال القريبين مني الذين يقتضي العمل احتكاكهم بي. رؤوساً كبيرة نقلت إلى أماكن أخرى أو سرحت لأضع بدلاً منهم نساء.. تسألين، سميراميس، لماذا سرحتهم؟ حسناً.. أحدهم، مثلاً، كان ذا مكانة مرموقة في الاقطاعة، له باع طويل بل تاريخ طويل في إدارة أعمالها أيام أمراء الاقطاعة السابقين. نتيجة ذلك كان له دالة ومهابة، بل يعتقد أنه ما من أمير إقطاع يمكنه الاستغناء عنه. جاء إلي، سلم مصافحاً وكأنه ند لي، شيء ما انقبض في داخلي لكنني صافحته، ثم لم أره إلا وهو يمضي إلى أقرب كرسي يجلس عليه وكأنه في بيته. "ما هذا؟" صرخت به "كيف تجلس دون أن أدعوك للجلوس؟ انهض على قدميك وقف باستعداد." وصدم الرجل أيما صدمة.. هنيهة ظل حائراً لا يدري ما يقول أو يفعل.. فقلت في سري "لأستغل الفرصة أوسعه إهانة وإذلالاً،" فمضيت أقرعه كطفل صغير ارتكب حزمة من الأخطاء، لكنه أخيراً نطق "ماذا؟ كفرنا؟ أنا أفعل ما كنت أفعله عادة؟" "عادة؟ "رددت وأنا أنظر إليه شزراً "لا، يا هذا ما حزرت.. أنت الآن تتصرف كما آمرك لا كما كنت تتصرف عادة"..

"إذن اسمحي لي.. لن أدخل مكتبك." "إلى جهنم." قلت وقد احمرت عيناي تماماً. "بل اعتبر نفسك مسرحاً." فهل كنت مخطئة، سميتي؟ رجل قليل الأدب يجلس في حضرتي، أنا أميرة الاقطاعة، ألا يستحق التسريح؟ أنت لن تجيبيني، لكن صاحب السعادة أجابني بتربيت كتفي وعشر كلمات مرحى ثم.. "هكذا أريدك.. حازمة باترة كالسيف.." ولقد فعلت بآخرين أكثر مما فعلت بذلك الرجل قليل الأدب.. كل من ألاحظ أنه يرى نفسه، أو يرفع رأسه أو يناقش حتى.. كنت أنقله إلى مكان ناءٍ أو أعاقبه أشد العقوبات. أستبدله بامرأة أو أسرحه. لقد بات أكثر ما يثلج صدري أن أنتقم من الرجل، أشفي غلي منه، وقد عادت إلى صدري أكداس أكداس من الغل ربما دفنت هناك منذ صباي. لقد سبق وحدثتك عن ذلك يا سميراميس أو لا تذكرين؟ كم كنت أكره الرجال، أحقد عليهم وأرغب في الانتقام منهم.. أنا لا أنسى أبي وهو يسومني سوء العذاب، يسوم أمي سوء العذاب.. لا أنسى أخوتي كلهم وهم يضربونني لأقل هفوة، يهينونني لأتفه غلطة بل لا أنسى عاصماً وهو يجرني من شعري على الأرض، يكيل لي الضربات بيديه، الرفسات برجليه.. درويش، زوجي الصوري، وهو يغتصبني.. يا إلهي!! ما الذي لا يجعلني حاقدة على الرجل؟ لم لا أثأر لنفسي منه هو الذي كان ينظر إلي دائماً من علٍ وأنا

من سافل، لم لا أنتقم منه وقد بات الآن تحت قدمي أمرغه بالتراب، أفعل به ما أشاء، هو الذي حرمني من أمي وأنا طفلة صغيرة بذريعة أنها خريجة مبغى وربيبة دعارة؟.. لكن من جعلها بغياً وداعرة؟ أليس هو الرجل؟ ألم يكن هو نفسه من دفعها إلى الخطيئة؟ أمي نفسها كانت تشكو من الرجل؟ تنهال عليه باللوم وقد حولها من فتاة ريف عفيفة نظيفة جاء بها أبوها كي تخدم في أحد بيوت مدينة البحر إلى ملهاة يلهو بها الأب وأبناؤه معاً ثم يقذفون بها إلى الشارع بحجة الوساخة والعهر لتمسي بائعة هوى هناك؟ إنه الرجل، كالبرد، سبب كل علة وعلي أن أنتقم منه كما لم ينتقم منه أحد.. سآخذ بثأر النساء جميعاً أولئك اللواتي عهرهن الرجل، سأنتقم لكل من مرغها بالوحل الرجل.. أجل.. أعترف لك يا سميراميس.. كنت أعمل على شفاء غلي، فلا أفوت فرصة إلا وأستغلها.. ذات مرة جاء أحد المراجعين. قال لرجاء إنه يريد رؤيتي لأمر هام.. رجاء طلبت إليه أن يقول لها ما ذاك الأمر الهام؟ هكذا تعليمات صاحبة العفة، أفهمته رجاء. لكنه أبى، مصراً أن يراني بنفسه.. جاءت إلي تنقل الأمر، فأرغيت وأزبدت ثم رننت الجرس رنات كانت حارساتي يعرفن معناها فأسرعن إلى الرجل.. ثم هات يا ضرب، يا رفس، يا ركل إلى أن أدمين وجهه، عفرن ثيابه، جعلن صراخه ملء المقر كله وأنا أرقبه من غرفتي. آه!! كم تشفيت وشمت يومذاك يا سميتي!! ثم كم أعدت ذلك العقاب بكل رجل حاول مخالفة أوامري أو رفع رأسه في وجهي. ذات مرة رفع أحدهم صوته في وجهي، فماذا تحسبينني فعلت؟ زججت به في السجن.. أجل يا سميتي.. الحزم مطلوب والقمع مطلوب أكثر لكي يرهبك الناس ويحسبوا لك ألف حساب.

أنا لا أريد أن أعلمك. أنت تعلمين ذلك ولاشك.. كنت تعاقبين، تسجنين، تقتلين.. مثلي مثلك.. أنا النسخة طبق الأصل عنك.. الفارق الوحيد أنك كنت تجردين سيفك، تقطعين رأس من يتمرد عليك، أو يزعجك.. لكن، أنا ما كان باستطاعتي ذلك. نحن، هذه الأيام يا سميتي، لا نحمل سيوفاً ولا نجردها لنقطع رأساً أو نجدع أنفاً.

لكن كما كنت تنفردين برأيك، تستبدين بقولك كذلك كنت. لا أحتمل أن يخالف أحد ما قلت.. ما أقوله كلام منزل لا يحتمل نقاشاً ولا جدلاً. ما آمر به يجب أن ينفذ دون تردد أو تذمر، وعلم الكل كم أنا متصلبة الرأي، لا أغير ولا أبدل.. فباتوا لا يترددون لحظة في الموافقة على كل ما أريد. وإن استشرت أحدهم بأمر، لا يبدي رأياً خشية أن يأتي مخالفاً لرأيي.. أحياناً كنت أشعر بالحاجة لأرائهم.. ثمة مشاكل كثيرة في الاقطاعة لم أكن أعرف لها حلاً، قضايا لا أستطيع البت بها دون رأي، لكن من يقدم لي ذلك الرأي؟ هم يوافقونني على آرائي.. يبصمون على اقتراحاتي.. لكن لأتبين بعد حين أن جل القرارات التي كنت

أتخذها خاطئة، وأضطر نتيجة ضغوط خارجية أو داخلية، تعليقات أمراء إقطاع أو انتقادات أصحاب رفعة ونبالة، لأن أتراجع عنها..

لم يكن ذلك التراجع سهلاً، أعترف لك يا سميراميس، لكن ماذا أفعل وأنا أرى نفسي كل يوم أمام مشاكل جديدة أجهل عنها كل شيء؟ سأضرب لك مثلاً، إحدى المصالح في اقطاعتي تواجه مشكلة مع جهة عالمية، ترفع لي المشكلة بمذكرة طويلة عريضة حسبت أوراقها فإذا هي ست وخمسون ورقة. قرأتها فلم أفهم منها شيئاً. كان فيها مواد قانون دولي، قانون محلي، تشريعات قديمة تعود لعهد الرومان وحديثة ابنة عامها، فكيف أفهمها؟ قرأتها مرة ثانية فلم أفهمها أيضاً.. يا إلهي، ماذا أفعل؟ اختصاصي تاريخ فما أدراني بشؤون الحقوق والقانون والقضايا الدولية؟ خمس مرات قرأتها ولم أزدد فهماً لها قيد أنملة، فكرت أن أجيء بأحدهم يشرحها لي لكنني وجدت ذلك معيباً.. ربما أفشى الرجل السر لصاحبه وصاحبه أفشاه لصاحبه.. ألن يفضح أمري وأظهر على حقيقتي: غبية لا تفهم؟ لا.. لا.. أنا أوحي لهم أنني أفقه كل شيء فكيف أعترف لهم بأنني لا أفقه شيئاً؟ وأخفيت المذكرة في الدرج.. شيء يزعجني لماذا يظهر على وجه الأرض؟ لكن المصلحة لاحقتني.. "المذكرة يا صاحبة العفة.. الجهات العالمية تطالبنا بالجواب يا صاحبة الصون.. "كان المدير يطالبني ولكي أوقف المطالبة، نقلته إلى مكان ناء من أطراف البلاد، ثم جئت بامرأة لا تعرف شيئاً عن المذكرة التي ألقيتها في سلة المهملات.

المشكلة أنه كان هناك كل يوم مذكرات، مشاريع قرارات، قضايا حياة وموت، كلها بحاجة إلى قرار، وأنا لا أستطيع اتخاذ قرار.. إذ من الصعب، يا سميتي، أن تتخذي قراراً في أمر تجهلينه، قضية فيها مسؤولية قانونية أو مالية، وأنت لا تفقهين شيئاً في القانون ولا المال.. في مثل تلك اللحظات كنت أتعذب، أجل.. أعترف لك، كنت أتعذب، فإدارة الاقطاعة ليست لعباً ولهواً بل أمر يحتاج إلى علم ومعرفة، ثقافة وخبرة وقد كنت أفتقدها كلها.. نتيجة ذلك صرت آمر مرؤوساتي المباشرات أن يضعن آراءهن بالتفصيل وبدقة. لكن معظمهن، بكثير من كيد النساء ولكي يتخلصن من المسؤولية، كن يضعن أمامي خيارين أو ثلاثة، تاركات لي حرية الرأي.. لكن أنى لي الرأي أو حريته وأنا جاهلة عديمة الخبرة؟ صرت ألجأ إلى طريقة مبتكرة لا أحسب أن أحداً من أمراء الإقطاع لجأ إليها قبلي: القرعة.. أجل صرت أضرب القرعة بطريقة الطرة والنقش.. أتعرفين ما هي الطرة والنقش يا ملكة آشور وبابل؟ سأشرح لك. لكل قطعة نقدية وجهان: صورة ورقم فأقول هذا الخيار هو الصورة أو الطرة وهذا الخيار هو الرقم أو النقش ثم أقذف القطعة في الهواء، الوجه الذي يظهر يكون

هو الخيار، طرة كان أم نقشاً.. لكن لسوء الحظ تبين لي أن الحظ كان يعاكسني كل مرة، فلا يطلع لي في القرعة إلا الخيار الأسوأ، لتبدو القرارات التي أتخذها كلها خاطئة، ولأضطر في معظم الأحيان للتراجع عنها.

سأضرب لك مثالاً يا سميتي: ذات يوم شغر لدي منصب في الاقطاعة أحيل شاغله إلى لجنة دفن الموتى. فكرت من يا ترى أعين بديلاً له؟ كان هناك اثنان لا أدري أيهما يناسبني أكثر.. فالسؤال لم يكن من هو الأكفأ بل من هو الأنسب؟ ضربت بينهما القرعة فجاءني الجواب: أضعفهما شخصية وأضألهما ثقافة ومعرفة، فرحت إذ رأيت فيه الرجل الذي يمكنني أن أذله أكثر ما أستطيع وأنتقم من الرجال أكثر ما أستطيع. وهكذا أصدرت قراراً بتسميته لتقوم الدنيا في الحال ولا تقعد.. صاحب نبالة يتصل محتجاً، صاحب رفعة يأتي معترضاً، والحجج ضده كثيرة، أنا التي لم تكن تعلم عنها شيئاً، بل حتى صاحب السعادة إيناس اتصل بي يحتج.. "ما الذي فعلته؟ هذا الرجل الذي عينته لا يستحق إلا قطع الرأس: إضبارته عندي حامل في شهرها التاسع. فيها عجائب غرائب، ارتكابات ومخالفات. حتى الباب العالي، الذات العليا يعرفان بها، يريدان محاكمته عليها.. الغي قرارك في الحال.. "الباب العالي؟! الذات العليا!!" لا.. لا.. كل شيء إلا.. ولم أجرؤ على الإكمال. في اليوم التالي أصدرت قراراً جديداً بالاسم الذي حدده لي صاحب السعادة. وهذا غيض من فيض.. فكم خذلني الحظ، يا سميراميس وكم اضطررت لإلغاء قرارات واستبدال قرارات!!.

كنت أتخبط، أعترف لك يا سميتي أنني كنت أتخبط.. بل لا أستطيع في كثير من الأحيان تمييز الغث من السمين ولا الصالح من الطالح، أرى الأشياء أمامي فأقف حائرة مترددة، عاجزة حتى عن الفهم.. أجيء برجاء. "رجاء، أعطيني رأيك بهذا الأمر،" فترتجف خائفة، "العفو يا صاحبة العفة والصون.. وهل لي رأي بوجودك؟" فإذا ألححت عليها، قرأت مشروع القرار ثم نفضت رأسها "أرجوك يا صاحبة العفة والصون، أنا لا أفهم شيئاً البتة." وكان من الطبيعي أن لا تفهم شيئاً، هي التي لم تحصل على الشهادة الثانوية، رغم أنها قدمتها مثلي ثلاث مرات، كما كانت مثلي، لا تحب القراءة أو المطالعة، وإن قرأت تقرأ مجلات الفن والإشاعات، القيل والقال. لهذا السبب كثيراً ما كنت أحتد وأغضب سابة إياها شاتمة، فتقول لي "استعيني بمستشارين يا صاحبة العفة.. عودي إلى أصحاب الخبرة والمعرفة يا صاحبة الصون"، لكن الاستعانة بمستشارين مشكلة والعودة إلى أصحاب الخبرة والمعرفة مشكلة أكبر: ألن ينكشف لهم كم أنا عاجزة، جاهلة؟ ألن يتحدثوا للناس بما يرونني عليه من قلة معرفة وخبرة؟ لا.. لا.. كان علي أن أحافظ على المظهر الخارجي، أن أبين لهم قوة

شخصيتي بأكبر قدر من الانفراد بالرأي، برفض أي نقد أو توجيه من الآخرين.. ثم إنني مثلك يا سميتي، أكره النقد والنقد الذاتي، أكره أن أسمح لأحد بتوجيه حتى ملاحظة صغيرة لما أفعل.. إلهة معصومة عن الخطأ. كنت أريدهم أن يصفقوا لي ويهللوا.. أن يعترفوا بأن كل ما أفعله صحيح، لا يأتيه الباطل من أمام ولا من خلف فكيف أتيح لهم أن يتناهشوا لحمي؟

أحد المساعدين، وكان الرجل الوحيد الذي بقي بقربي، جاء إلي ذات مرة بملاحظة صغيرة على قرار كنت قد اتخذته. "يا صاحبة العفة لو تعدلين القرار رقم.. تاريخ.. إنه يكلفنا كثيراً من الأموال دون طائل." وجن جنوني "تنقدني.. الويل لك.. سأدعسك بحذائي.. سأسحقك كأحقر دودة" وبدأت معه برنامج انتقام لا أدري يا سميتي، كيف تفتق عنه ذهني.. لكنه كان برنامجاً طويل الأمد محكم الإتقان..

بادئ ذي بدء حرمته من أمينة سره، بنقلها إلى زاوية أخرى من الاقطاعة لا يستطيع أن يراها ولا تراه، هو الذي لم يكن يستطيع الاستغناء عنها لحظة واحدة، يشربان القهوة معاً، يفطران معاً، يخرجان معاً ويتطارحان الغرام معاً في كل زمان ومكان (هكذا كانت تقول التقارير التي ترفع إلي كل يوم).

أبسط الصلاحيات التي كانت بيده حرمته منها، حولتها إلى مساعداتي الأخريات اللواتي لم يكن يعرفن كلمة "لا" أبداً.. ثم منعت عنه الصحف والمجلات، منعت عنه الناس، فلا أحد يراجعه في شيء ولا يُطلب منه شيء.. بعدئذ أوقفت عنه الدعوات فلم يعد يدعى إلى مأدبة غداء أو عشاء مما تقيمه الاقطاعة، هو الجشع كأشعب الذي يحب بطنه حتى الجنون، كذلك قطعت عنه التعويضات، بل حتى الوفود إلى الخارج حرمته منها لأحرمه بذلك من عملة صعبة كان مولعاً بها كثيراً ولقاءات في الخارج كان يفيد منها كثيراً.. حتى قيل لي ذات مرة، وقد ألغيت عضويته في وفد كهذا، أنه راح يبكي النساء.. آه يا سميتي، ما أجمل أن تجعلي الرجال يبكون كالنساء!! هو بكى أيضاً حين قطعت عنه الهاتف، ذاك الذي كان يتسلى به وقد صار عاطلاً باطلاً لا شغل ولا مشغلة، يلجأ للهاتف يشكو للناس وضعه ويملأ فراغه به.. بلغني ذلك فأمرت بسحب الهاتف من مكتبه، بل نكاية به أعطيته لأحد موظفيه الصغار ثم أمرت الحرس بأن يمنعوه من إيقاف سيارته قرب المقر.. فيضطر للذهاب مائة أو مائتي متر قبل أن يجد مكاناً يوقف فيه سيارته.. لقد جعلته عبرة لمن يعتبر، فلا أحد يدخل مكتبه ولا أحد يخرج، حتى العاملون في الاقطاعة يتجنبونه منبوذاً كمنبوذي الهند، أصلبه على كرسيه ست ساعات كل يوم لا أسمح له بإجازة، لا أدع له كوة للتنفس، ثم أستدعيه من حين إلى آخر، أغسله غسلاً إذلالاً وإهانات.

كنت أنتقم وكنت أتلذذ بذلك الانتقام كما كنت أحرص على نشر فصول ذلك الانتقام على الملأ.. أقول لرجاء ما فعلت به فتتكفل هي بنشره، أقول لحارساتي الأمازونيات شيئاً من قصصه فيعملن هن على نشره.. وكانت أمازونياتي لا يفارقنني سياجاً يحول بيني وبين المتلصصين والمتطفلين، سيما وقد أكد لي صاحب السعادة منذ البدء أن الأعين كلها ترصدني لإمساك أية خطيئة علي فتثار حولي الشائعات والأقاويل. "عليك بالحذر الشديد، باتخاذ أقصى الاحتياطات، خاصة في ما يتعلق بسمعتك كامرأة." وزاد ذلك من خوفي.. كان لدي عقدة قديمة ما انفكت تعمل في نفسي حفراً وتشويهاً، ألم يكن أخوتي يعيرونني بأنني ابنة ميس؟ ألم تكن امرأة أبي تسبني بأمي.. المومس البغي؟.

صاحب السعادة يعرف القصة ويعرف العقدة فيضرب على الوتر لكي يزيدني خوفاً وحرصاً، ربما لكي يضمن ألا يشاركه فيّ أحد.. هو أناني، أنا أعرفه، يفكر بنفسه فقط، يريدني ملكاً له وحده، فلماذا لا يشدد علي النكير؟ "ابعدي عنك الرجال.. اصنعي من جناحك جناح حريم، أعوانك كلهم من الحريم" وتحقق له ذلك، لم يعد بين أعواني أي رجل.. حتى المحاسب الذي كان كريه الشكل قميء الهيئة بدلته بامرأة..

مع ذلك، ولا أخفيك يا جدتي العظيمة، كنت في كل ما أفعل أرغب في الاقتداء بك.. دائماً أنت نصب عيني، أعود إلى أسطورتك أقرأ ما كنت تفعلين وتقولين فأعمل على محاكاتك.

ذات مرة قرأت تلك الفقرة من أسطورتك التي تقول: (.. كانت سميراميس تريد أن تشيد أثراً يخلد ذكراها فأقامت ذلك المعبد العظيم ووضعت في هيكله ثلاثة تماثيل من الذهب وأقامت في ساحته برج بابل المشهور وأمرت بأن ينقش على قاعدة البرج هذه الكلمات:

لقد صورتني الطبيعة امرأة، لكن أعمالي فاقت أعمال الرجال فحكمت إمبراطورية نينوس ولم ير البحر الكبير قبلي آشوري، ولكني أبصر بعيني أربعة بحار تعترف شواطئها بسلطاني وأجبر الأنهار العظيمة على أن تجري طبقاً لمشيئتي..) حينذاك ثارت ثائرتي على نفسي لائمة موبخة: لماذا لا تفعلين مثل سميراميس؟ لماذا لا تعملين على تخليد ذكراك.. أقيمي النصب، ابني الصروح التي يمكنك أن تكتبي في قاعدة كل تمثال من تماثيلها ما كتبته سميراميس لأثبت للرجال جميعاً في اقطاعتي وغير اقطاعتي أنني امرأة بالصورة فقط لكن أعمالي تفوق أعمال الرجال.. يجب أن أقوم بأعمال خالدة، أصدر قرارات فريدة تميزني من كل من سبقني ومن لحقني فأجعل الجميع يعترفون بسلطاني وأجبر حتى الأنهار العظيمة على تغيير مجراها حسب مشيئتي.. ولكي أفعل ذلك، بدأت بمقر الاقطاعة.. كان ذلك المقر بناء

قديماً كالحاً ضئيل الحجم لا يفي غرضاً ولا يرضي أحداً، فأصدرت أوامري برصد أكداس من الذهب لبناء صرح كبير كمعبد سميراميس العظيم يخلد اسمي من بعدي، وكلفت لجنة طويلة عريضة بالبحث عن مكان مناسب لإقامة ذلك الصرح، فيما بدأت باستدراج عروض من شركات محلية وعالمية لتقديم تصاميم لذلك الصرح الذي أردته غريباً عجيباً، وحيداً فريداً لم تر البلاد مثله.. كما مضيت إلى مدرج كبير كان قيد البناء من قبل وكان يتعثر سنة بعد سنة، فأمرت بإدخال تعديلات وتغييرات عليه بحيث يصبح شيئاً آخر عليه بصمتي وحدها وينطبع بطابعي وحده. كان مدرجاً متواضعاً لرقص الباليه وعزف الموسيقى وعقد المؤتمرات عند الضرورة، فغيرت فيه وبدلت بحيث يصبح صرحاً عظيماً يحتضن فنون العالم السبعة ويعج بالدارسين والباحثين، الطلاب والمدرسين، ويغدو أثراً خالداً لا تخطئه عين، ثم صممت، حين انتهائه أن لا أضع فيه ثلاثة تماثيل من الذهب وحسب بل تماثيل بعدد أشهر السنة، كلها تحمل تلك العبارة التي نقشتها على تماثيلك يا سميتي: لقد صورتني الطبيعة امرأة.. إلخ. كنت أريد أن أبدو فريدة نوعي وكنت أسعى إلى الخلود، فلا أعمل عملاً سبقني إليه غيري ولا أصدر قراراً كتلك القرارات التي عرفوها قبلي.. بل العكس.. كنت ألغي كل قرار سابق لأصدر بديلاً له عليه خاتمي وتوقيعي.. ناسخ ومنسوخ، هكذا كنت أريد من إمارتي للإقطاعة، تجعل كل ما قبلي منسوخاً وعهدي وحده هو الناسخ.

العاملون في الاقطاعة تعودوا قبلي على الفوضى، يأتون إلى العمل في الصباح على هواهم، يخرجون أثناء النهار على هواهم، بإجازة أو بغير إجازة، يشربون القهوة، الشاي على هواهم.. ويتبادلون فيما بينهم الزيارات وكأنما ليس الوقت وقت جد وعمل.. رأيت ذلك فأصدرت قرارات صارمة تمنع ذلك كله، الكل ينبغي أن يكون في مكان عمله مع طلوع الشمس وكل من يتأخر تقع عليه أقسى العقوبات.. ولتنفيذ ذلك وضعت ثلاثة عيون على الباب، لا يجرؤ أحدهم على التغاضي عن أحد أو محاباة أحد، ورحت أفرض العقوبات.. فالذين اعتادوا الفوضى لا يمثلون للنظام إلا بالإرغام.. أجل.. سبعين.. ثمانين عقوبة فرضت، وكانت كافية لأن تجعل العاملين كلهم كالألف استقامة وانضباطاً.. ثم ما إن يبدأ نهار العمل حتى يمنع الخروج أياً كانت الأسباب..

هذه تأتي بطلب: ابنها مريض تريد إجازة لتظل إلى جانبه فأعيد الطلب مع عدم الموافقة، هذا يقول: لديه فحص في الجامعة، فأرده على أعقابه: لا فحوص ولا لصوص. ذلك يقول أبوه مات يريد الذهاب إلى دفنه فأقول له: بعد العمل.. هذا الوقت ليس ملكك بل هو ملك الاقطاعة ولا يجوز التفريط بدقيقة منه.

كما أصدرت أوامري بإغلاق ندوة الاقطاعة، حيث تقدم الشاي والقهوة، ووضعت من يرصد المكان كله فلا يسمح لأحد من العاملين بإحضار سخانة أو غاز ليصنع لنفسه الشاي والقهوة.. كنت أريد إحكام قبضتي على الاقطاعة.. فلا يتحرك أحد إلا بمشيئتي ولا يتنفس أحد إلا بإذني.. وقد أحكمت القبضة حتى بدت الاقطاعة بعد أشهر من تنفيذ الخطة قمقماً محكم السد أتلاعب به كيفما أشاء، بل صرت أفخر بين أمراء الإقطاع الآخرين بالقول: تعالوا.. انظروا كيف يكون الضبط والربط.. ولقد جاء بعضهم لتجحظ عيناه ويفغر فاه وهو يرى الذعر الشديد في أعين العاملين في اقطاعتي وهم يرونني، ارتجاف ركبهم، تأتأة ألسنتهم وهم يتكلمون معي.. كنت قد أرعبتهم، فلا يجرؤ أحد على مناقشتي ولا يقترب أحد من بابي أو يفكر أحد بالشكوى من شيء.. كيف لا، وقد منعت الجميع من دخول مكتبي..؟ من لديه طلب فليقدمه إلى رجاء، ولقد تكشفت رجاء عن امرأة فذة: لا يضحك وجهها للرغيف الساخن، لا تميز بين صغير وكبير، الكل لديها سواء في الاحتقار والامتهان.. ذات مرة جاء أحدهم إليها يريد رؤيتي فطردته "لكنني أنا الشاعر الكبير، الكاتب العظيم.. فلان بن علان، "احتج لديها فقلبت شفتها ساخرة "هنا لا شاعر كبير ولا كاتب عظيم.. بل أنا لم أسمع باسمك قط.. اذهب عنا يا رجل.." وذهب الشاعر الكبير والكاتب العظيم وهو يسب ويشتم، لكن ليكم فوه بعد لحظة واحدة فقط، وقد أرسلت رجاء خلفه ثلاثاً من أمازونياتي اللواتي يعرفن جيداً كيف تكم الأفواه.

في مرة أخرى، جاءت إلي رجاء، وعيناها تقدحان شرراً، بصحيفة الصباح مشيرة بإصبعها إلى موضع محدد من الصفحة الأولى. "انظري يا صاحبة العفة والصون.. ماذا كتبوا هنا!" وقرأت فاستشطت غيظاً "السفلة الكلاب.. يتطاولون علينا.. يجب أن نؤدبهم.. اطلبيهم لي." وأسرعت إلى الهاتف. رد رئيس التحرير فبادرته في الحال "ألا تستحيي على نفسك؟ ألا تخجل؟ كيف تبيح لجريدتك أن تكتب عن صاحبة العفة والصون، أميرة الإقطاع ما كتبت؟ "وقبل أن يفيق من الصدمة أعطتني المهتاف وللتو انهلت عليه بوابل من السباب والشتائم.. "أيها الصغير الحقير، السافل المنحط.. أنت تتطاول علي؟ تنتقد قراراتي وتصرفاتي؟ قسماً لأهشمنك.. لأمحقنك.." ولا أذكر ما قلت بعد ذاك.. إذ أطلقت العنان لكل ما في نفسي من سفاهة وبذاءة، اختبأت ربما هناك منذ ابتكرت حواء السفاهة والبذاءة. ما أذكره فقط أنه كان يتلعثم ويتأتئ، العرق يتصبب منه ولاشك، ركبتاه ترتجفان تحته ولا شك، محاولاً أن يعتذر وقد توقفت عن الكلام "أ.. أ.. أرجوك يا صاحبة العفة والصون.. أ.. أتـ.. تـ.. توسل إليك يا صاحبة العفة والصون.. نحن فقط أردنا أن نلفت نظرك.. ننبهك.. "لكنني سرعان ما قاطعته "أنتم

تلفتون نظري؟ أنا عمياء إذن؟ تنبهونني؟ أنا غافلة إذن؟ لا يا رئيس التحرير الحقير.. أنا أعرف كل شيء وأنتبه إلى كل شيء.. لا أفعل إلا الصحيح ولا أقول إلا الصحيح.. أم تراني أنطق عن هوى؟ لا ، مثلي لا تنطق عن هوى أبداً.. أتفهم أيها الغبي الأحمق الجاهل.. مثلي معصومة عن الخطأ.. وإلا كيف أصبح أميرة اقطاع؟" "كما تشائين.. كما تريدين.. هذا صحيح أنت على حق.. "رد وهو يتأتئ ويتلعثم، متصبباً عرقاً ولاشك، مرتجف الفرائص ولاشك. "المعذرة يا صاحبة العفة. المغفرة يا صاحبة الصون" كان صوته يرتعش وهو يتابع "لا معذرة ولا مغفرة" أجبت وأنا أصرخ ملء صوتي حتى ارتد دويه إلي من جدار المكتب الآخر "أغفر لك فقط إن تكتب عكس ما كتبت في صحيفتك وفي المكان نفسه، بقلم ذلك الكاتب الحقير نفسه وبتأكيد منك.. أتسمع؟" "لكن ها أنذا أعتذر منك بنفسي.. أستغفر.. ألا يكفي يا صاحبة الصون؟" "بل تفعل ما قلت لك وتأتيني هنا تركع عند قدمي." "أمرك يا صاحبة العفة، تأمرين يا صاحبة الصون". في اليوم التالي ظهر مقال معاكس في الموضع نفسه من الصفحة ذاتها يفند كل ما ورد في المقال السابق ويكذبه مؤكداً بالأرقام والوثائق (التي لا أعلم بالحقيقة من أين جاء بها) أن الأمور في اقطاعة صاحبة العفة عكس ما كتب من قبل وأنها على خير ما يرام، ثم جاء بنفسه يعتذر ويستغفر راكعاً ساجداً..

ضربة معلم ضربتها للصحافة برئيس التحرير ذاك.. تماماً كما كان يفعل عنترة في المعارك، يضرب الضعيف ضربة يرتج لها قلب القوي فيولي أمامه الأدبار.. هكذا صارت بقية الصحف تولي الأدبار، لا تتكلم عن إقطاعتي البتة، بل تغفلها إغفالاً تاماً وكأنها غير موجودة: قد خلا الجو فبيضي واصفري.

وهكذا، دون خوف من حساب أو عقاب صرت أتصرف، أصدر قرارات، أحدد نشاطات، ألغي مكافآت، أوقف تعويضات. أنا حريصة على المال العام فلماذا نهدره على الغادي والصادي؟ جن أصحاب الشأن المتضررون، ضجوا وصرخوا لكن الصحافة لم تلتفت إليهم ولم تجرؤ صحيفة واحدة على انتقاد القرارات العظيمة التي وفرت على اقطاعتي المبالغ الكبيرة من المال بل حتى المبايعات ربطتها بي، فلا يشتري أحد شيئاً إلا بأمري ولا يبيع إلا بأمري.. تقارير كثيرة وصلتني عن أعضاء اللجنة المسؤولة عن المبايعات: في كل ما يشترون لهم نسبة مئوية، في كل صفقة لهم هامش ربح، إذن لماذا أدعها هي الأخرى؟ ألغيت اللجنة القديمة ثم شكلت لجنة جديدة أشرف عليها بنفسي، وبدلاً من استدراج عروض أو إجراء مناقصات صرت ألجأ لأسلوب التراضي.. يأتي التاجر أو البائع يعرض علي بضاعته وسعره، فإن أعجبني عقدت الصفقة وإن لم يعجبني جئت ببائع آخر.. حتى يأتيني السعر المناسب.. كثيراً من الأموال

وفرت. النسبة المئوية ألغيت، على الرشوة قضيت حتى أن مسؤولة المحاسبة أثنت على فكرتي عظيم الثناء مؤكدة أنها فكرة عبقرية يجب نشرها في طول البلاد وعرضها علّ أمراء الإقطاع جميعاً يقلدونها.

كذلك قمت بإلغاء عادة امتعضت منها مذ حدثوني عنها كل الامتعاض. لقد جرت العادة قبلي، أن يقوم أمير الاقطاعة في نهاية كل عام بتوزيع الفائض المتبقي من الميزانية على العاملين في الاقطاعة، ووفق جدول محدد يهيئه المشرف على شؤون العاملين فيعطى هذا عشرة آلاف، ذاك ثمانية.. ذلك ثلاثة.. كل بما يستحق على ما بذل من جهد خلال العام.

"لكن المبلغ الفائض هذا العام كبير يا صاحبة الصون، "قالت مسؤولة المحاسبة وقد بلغت نهاية العام. "طبعاً.. يجب أن يكون كبيراً.. ألم نوقف الهدر؟ ألم نوفر الكثير من المال الذي كان يذهب إلى جيب هذا وجيب ذاك؟" "بلى يا صاحبة الصون.. بلى.. فماذا تريدين أن نفعل به؟" "وكم هو؟" "أحد عشر مليوناً وستمائة وسبعون ألف دينار" "عظيم.. عظيم.. إذن يجب أن يتعلم الناس كيف يحاربون الفساد ويوفرون الأموال العامة!!" "سيتعلمون يا صاحبة العفة.. سيتعلمون.. حين نعيده إلى الخزينة العامة سيعجب الكل بسياستك وسيحذون حذوك.." "ماذا؟ تعيدينه إلى الخزينة العامة؟" "بماذا تأمرين إذن يا صاحبة الصون؟" "تأتين به إلي وأنا أتصرف." "تأمرين يا صاحبة العفة". عند الظهيرة كانت الملايين الأحد عشر بين يدي، وكم أعجبني منظرها يا سميراميس!!.. "ضربة معلم!! "قلت مخاطبة الملايين "لولا براعتي من أين كنت ستآتين؟ هكذا يجب أن نكون أذكياء حازمين نعلم جيداً كيف نوفر المال.. مرحى سميرة!! مرحى!!" هتفت بصوت عال حسبت معه أن كل من في جناحي الأميري قد سمعن صوتي.. كنت فرحة.. تخطف الملايين ناظري، أتلمسها، أشمها، أحدق إليها ولا أشبع.. "ما العمل الآن؟ "بدأت أتساءل وقد أوشك الدوام على الانتهاء؟ "أعيدها إلى الخزينة العامة فيفرح بذلك الباب العالي وترتفع أسهمي عنده؟ "قال صوت في داخلي بدا للتو نشازاً وقد جاء صوت آخر يرد عليه "تعيدينه للخزينة؟ أمجنونة أنت؟ هذا المبلغ وفرته أنت... بكد يمينك وعرق جبينك.. إذن هو من حقك فكيف تعيدينه إلى الخزينة؟ لا.. لا.. هي ذي فرصتك.. مبلغ كبير كهذا سيضمن مستقبلك، يجعلك أكثر قوة ومنعة.. لا تخافين من شيء ولا تحسبين حساب شيء ."وعاد الصوت الأول موبخاً مقرعاً لينقض الآخر مفنداً مدافعاً. ساعة أو تزيد ظللت بين أخذ ورد، حائرة لا أدري ما أفعل، ثم جاء الحسم على يد رجاء، وهي تدخل إلي مترجية: "صاحبة العفة والصون.. أنا بحاجة لبعض المال.. هل أستطيع الاستلاف من الصندوق؟" "ولم الاستلاف من الصندوق؟" سألتها وقد حسمت أمري "ما هي حاجتك؟" "عشرة آلاف" "خذي.. هذه عشرون ألفاً

مكافأة.. "قلت وأنا أقدم لها المبلغ فتوشك أن تطير فرحاً. بعد ذاك خطر ببالي أن أوسع الدائرة، فأعطيها مائة ألف توزعها على بتول والأمازونيات السبع ثم أربعين ألفاً لمسؤولة المحاسبة التي قفزت فرحاً وأنا أوحي لها أن المبلغ كله سأوزعه مكافآت على العاملين في الاقطاعة من قاصيهم إلى دانيهم.. فيما أخذت أحد عشر مليوناً ونصفاً بالتمام والكمال إلى صندوقي الحديدي بانتظار فرصة لنقله إلى حسابي في الخارج..

تتساءلين، ولماذا الحساب في الخارج؟ آه يا سميتي.. هذه أمور لم تكن في زمانك.. المصارف.. الحسابات.. الداخل.. الخارج... كلها مستجدات جاء بها الزمان، وكم من مستجدات يأتي بها الزمان!! "الخارج أكثر أماناً وأفضل" قال صاحب السعادة، مذ بدأنا نعقد صفقات معاً ونتلقى مبالغ كبيرة معاً. قبله كنت أودع أموالي في مصارف الداخل وكان قد صار لدي رصيد جيد. "ولماذا أفضل؟" "الحسابات سرية. لا يستطيع أحد أن يكشفها هناك ولا أحد يعرف رصيدك فيها،" "هنا، أيضاً الحسابات سرية". رددت فضحك حتى انقلب على قفاه. "طبعاً سرية إلى حد أعلم معه رصيدك في مصرف "فوق الشبهات." إنه أربعة ملايين وثمانمائة ألف ومائة وأربعة وعشرون ديناراً". وفتحت عيني ذاهلة. لقد كان ذلك هو حسابي المصرفي فعلاً". "إلى هذه الدرجة أنت تعرف عني؟" "وعن سواك.. نحن نعرف كل شيء، بل يجب أن نعرف كل شيء، وإلا كيف يمكننا أن نحكم قبضتنا على الناس؟ "منذئذ قررت أن أعمل بنصيحته.. ذهبت إلى مدينة البحر، فتحت حساباً في أحد المصارف صرت أضع فيه كل ما أحصل عليه من نقود..

لكن فرحتي ذلك النهار طارت في الليل، إذ ما إن عدت من مكتبي مساء حتى رن الهاتف. "أنا آت إليك.." جاءني صوته وفي نبرته شيء من حدة. "هيئي لنا شراباً وطعاماً" وأصدرت أوامري للخدم والحشم الذين صاروا كثراً بعد أن أصبحت أميرة إقطاع. "ماذا؟ نحن شريكان أم ألغيت الشراكة؟" سألني وقد دخل مسرعاً كأنما هو خائف من أن أهرب منه.. بل نحن شريكان، شراكة أبدية لا فكاك لها. "قلت وقد أدركت أن شيئاً ما بلغه عني.. إذن، لماذا تريدين أن تأكلي الإوزة بمفردك؟ "سأل فأيقنت بأن خبر الفائض الذي وضعت يدي عليه قد وصل إليه. "معاذ الله، أنا آكل إوزة بمفردي؟ كيف وأنا لا أستطيع أن آكل جناحها؟" "إذن لماذا لم تخبريني؟" "كنت سأخبرك، لكن عمرك أطول من عمري.. قلت وقد تأكد يقيني من أن كل شيء يصله أولاً بأول. "ظننت غير هذا!!" "وهل يعقل؟ لكنه الشغل الكثير.. فقلت أكلمك في الليل.. لكن يبدو أن التقارير تأتيك أسرع." "بسرعة البرق" قال ضاحكاً ناظراً بطرف عينه إلى الهاتف.. لم يفاجئني ذلك بالطبع، فقد كنت أعلم أن عيونه مبثوثة في كل

مكـان، تنقـل لـه كـل شـاردة وواردة عـني، عـن العـاملين في الاقطـاعـة، عـن الاقطـاعـة ذاتهـا: موارد، نفقات، عائدات.. فكيف غاب عني ذلك لحظة واحدة؟ كيف فكرت بأن أستولي على المبلغ بمفردي؟ خطأ فادح كنت سترتكبينه يا سميرة، لذا عليك أن تصلحيه في الحال.. فصاحب السعادة لا يرحم، بل كلهم عند المكاسب لا يرحمون. يصبحون ذئاباً جائعة تأكل حتى أخوتها.. "المبلغ.. هذا هو "قلت وأنا أخرج النقود من الصندوق. "خذ منه ما تشاء" "لا.. آخذ منه حصتي.. فيفتي فيفتي" وفي غرفتنا المغلقة حيث كنا نشرب الويسكي ونتناول العشاء عد الرزم المالية، أخذ نصفها وأبقى لي النصف، ولأول مرة في تاريخ شراكتنا أشعر بالغبن.. "هذا المبلغ حقي وحدي خالص مخلص فكيف يأخذ نصفه؟" "لكنه هو الذي عينك أميرة اقطاع.. يعني هو الذي جعلك تكسبين هذا المبلغ.. لولاه من أين كنت ستحصلين عليه؟" "هذا كلام باطل.. أنا أميرة الإقطاع.. كيف وصلت لا يهم، المهم أنني أنا صاحبة الإقطاع الآن، وأن كل ما يأتيني منه هو حق لي وحدي. فكيف يقاسمني إياه؟" كان الجدل يدور في رأسي والغيظ يفور في صدري، وهو يعد الرزم ثم يضع النقود في حقيبة يدوية أحضرها خصيصاً، ولا شك، لهذه الغاية. "لكنه مبلغ تافه" قال وهو يعود إلى الطاولة، قالباً شفته "كنت أحسبك تلميذة أنجب." "كيف يا معلمي؟ "قلت وقد فاجأني عدم رضاه عن مبلغ كاد يطير له عقلي. "في موقع كموقعك.. من يرضى بمثل هذا المبلغ؟ عشرة أضعاف يجب أن تكون عائداتك من الاقطاعة على الأقل.. أنت الآمرة الناهية، فلماذا لا توظفين أوامرك ونواهيك لتجعلي المال يتدفق عليك كالسيل؟" "يتدفق كالسيل.. لكن كيف؟ من أين؟ "ها.. اسمعي أشرح لك.." وشرع يشرح، أستاذاً بارعاً في فن البلع والامتصاص لم أملك إلا أن أعجب به وأن أصغي له أحسن إصغاء. لقد كشف لي عن أساليب ووسائل لم تخطر لي ببال.. حقاً فوق كل ذي علم عليم!! حقاً يظل المرء بحاجة للتعلم..

شكرته بكل عرفان وامتنان واعدة إياه أن أنفذ قوله بحذافيره، ثم استأنفت "هذا عن المال.. لكن ماذا عن الأمور الأخرى، أأنت راض عني؟" "كل الرضى." "الحمد لله.. لكن قل لي أي شيء فيَّ يعجبك أكثر؟" "انفرادك في الرأي، تعنتك.. استبدادك.. هذه كلها ميزات للقائد الناجح، لصاحب القرار العظيم الذي يعتمد على نفسه في اتخاذ القرارات.. تصوري.. قائد معركة، كلما أراد أن يتخذ قراراً يرسل وراء القادة التابعين له، يعقد مجلساً عسكرياً ثم يناقش ما يجب أن يفعل، ألا يجعله هذا يخسر المعركة؟" "بالتأكيد" أجبته وقد أعجبني المثال الذي جاء به، فاستأنف: "لهذا، القائد المتفرد ضروري للمجتمع.. صاحب القرار السريع والرأي المستبد هو الذي يناسبنا في هذه المرحلة.. ولقد أثبت أنك هذا كله وأكثر.. "يعني لم أخيب

ظنك؟" "بل فقت حسن الظن... هذه الميوعة التي كانت في إقطاعتك قضيت عليها.. قبضتك الحديدية تعجبني فلا أحد في اقطاعتك يتحرك إلا بأمرك، لا أحد يتنفس إلا بأمرك.. ثم هذه المشاريع التي تطرحينها أشياء جديدة لم يفكر بها أحد قبلك.. أشياء رائعة ستدر علينا الكثير من المال "قال فعقبت "الحقيقة، حين طرحت تلك المشاريع من صروح عظيمة خالدة، لم يكن يخطر ببالي إلا شيء واحد: أن أخلد نفسي، لكن بعد كل ما شرحته، علمت أن هناك فوائد كثيرة أخرى يمكن أن نجنيها منها.. المشروع وسيلة للكسب، صدقني هذا لم أكن أعرفه." "اعرفيه جيداً وانتهزي الفرصة كما قلت لك... إنها الفرصة التي قد لا تعود أبداً".. "بيدك حق.. قديماً قال الشاعر إذا هبت رياحك فاغتنمها.. ورياحنا الآن هابة".. "بسرعة مائة عقدة، فافردي شراعك وانطلقي. "قال وهو يضع ذراعه على كتفي ثم يميل على شفتي مقبلاً، فأبعدت وجهي عنه ناظرة إلى الباب.. "ماذا؟ صاحبة الصون خائفة؟" "البيت ملآن.. ابنتي صارت كبيرة تلاحظ"، وقهقه عالياً "ملآن؟ ابنة كبيرة.. ما هذا الذي تهرفين به؟ أنت صاحبة عفة وصون.. الكل عبيد لديك.. فلماذا تهتمين بهم؟ لا.. لا.. أنت فوق الجميع تفعلين ما تشائين وقت ما تشائين وفي أي مكان تشائين. "وأتبع ذلك بحركة سريعة وجدت نفسي إثرها على السجادة ممددة على ظهري ثم معراة من ثيابي وهو فوقي مجرد بهيمة تحركها غريزة مجنونة طاغية..

مضت تلك الليلة لكن آثارها لم تمض. كان خوفي من أن أحداً أحس بما فعلنا ما يزال يسيطر علي.. أختلس النظر إلى وجوه من حولي، أسترق السمع لما يقولون، علي أجد دليلاً واحداً على شكهم بشيء، لكن عبثاً.. صحيح أنه قال هم مجرد عبيد وأنا فوق الجميع.. لكن الصحيح أيضاً أنه حتى للعبيد ألسن تتكلم، وأنا لا أريد أن أصبح مضغة في الأفواه تلوكها الألسن. هو نفسه قال ذلك، بل كان متشدداً في كل ما يتعلق بسمعتي كامرأة فلم هذا التناقض؟ ثم هناك ابنتي التي تشعرني من نظراتها بأنها لا تثق كثيراً بي ولا تعاملني بكثير من الاحترام.. ابنة السابعة عشرة تبدو وكأنها تعرف عني كل شيء، فماذا لو فتحت الباب ورأته فوقي مجرد بهيمة تحركها غريزة مجنونة طاغية؟ أياماً كثيرة ظللت أتحرى، أستقصي لكن دون جدوى. الكل خشب مسندة في حضوري، وجوههم جدران صماء لا أبواب لها ولا نوافذ.. حتى آية لم يبد عليها أثر من اتهام.. وبدأ خوفي يتلاشى إلى أن زال، لكن شعوري بالغبن لم يتلاش ولم يزل. منظره وهو يضع الرزم المالية في حقيبته لا يفارق خيالي. كنت قبل لحظات قد عددت الرزم، مسدتها بكل رقة وحنان وأنا أفكر كيف سآخذها في أقرب فرصة إلى مدينة البحر، أجمع وأطرح لأعلم كم سيصبح رصيدي هناك، ثم فجأة تنقض الصاعقة فتشطر المبلغ شطرين، صاعقة سقطت على شجرة فشطرتها شطرين.. أما

كان الأفضل أن يظل المبلغ كله لي؟ وضع يده على نصفه، أليس نوعاً من السلب والنهب الذي يقوم به قطاع الطرق؟ وشعرت بشيء كالنفور يتكون في داخلي.. نفور من رجل لا يشبع.. رغم كل ما يسلب وينهب كل يوم لا يشبع، لكأنه الجحيم تقول دائماً هل من مزيد.. مع النفور كان ثمة شعور آخر يتبلور أيضاً: التملص من قبضته بغية الإفلات.. لكن كيف؟ مسألة شغلتني أياماً وأسابيع. لقد راح شعور بالاستقلالية يطغى علي.. يجب أن أخرج من تحت مظلته.. ولم لا؟ أنا صاحبة العفة والصون التي قالها هو نفسه إنني فوق الجميع، فلماذا لا يكون هو نفسه من هذا الجميع؟ لماذا لا أكسر طوقه وأتحرر من ربقته، هو الذي لم يعد باستطاعته إعطائي شيئاً؟ لقد بلغت الذروة، فماذا أريد أكثر من ذلك؟ أصبح ملكة تجلس على العرش مثلك؟ أمر مستحيل.. البلاد، يا سميتي، ليست ملكية ولا يوجد فيها ملك وعرش.. إذن أي مكان أرتقي؟ أي عظيم أتقي؟ وبدا لي أن المتنبي كان على حق. لقد تسنمت سدة رفيعة لم يعد لأحد أن يؤثر علي فيها.. أنا العظيمة التي يشار إليها بالبنان وتنحني لها الهامات، لماذا أهتم بأحد؟ هو نفسه، العالم كله يقول ذلك.. ألا تلاحق الصحف أخباري؟ ألا تتابع أفعالي، أقوالي؟ صوري ملء المجلات والجرائد، أحاديثي في الإذاعة والتلفاز.. حتى وكالات الأنباء العالمية تتسقط أخبار المرأة الحديدية التي تمسك اقطاعتها بقبضة من فولاذ، بل إحداها وصفتني بأنني أميرة الإقطاع الواعدة بأن أكون في المستقبل إنديرا غاندي أو مارغريت تاتشر، فيما شطت إحداها أكثر ولقبتني بسميراميس العصر الحديث.. أجل يا سميتي.. اكتشفت تلك المجلة سري الحقيقي، حبل السرة الذي يربطني بك فنشرت صوراً لي تجسدني ملكة على رأسها التاج وفي يدها الصولجان لتقول ها هوذا التاريخ يعيد نفسه، ها هي ذي سميرة دك السور، أميرة الإقطاع العظيمة، تعيد سيرة سميراميس ملكة الشرق والسحر.. فامتلأت غبطة وفرحاً.. ها هوذا حلمي يتحقق إذ يدرك الناس أنني نسخة طبق الأصل عنك.. ملكة آشور وبابل تعود من جديد أميرة إقطاع عظيمة الحول والطول، كلمتها لا ترد، حاضرها واعد ومستقبلها أكثر وعداً..

بتلك المقابلة شعرت أنني أكبر وأكبر، قامتي تمتد وتمتد حتى أغدو عملاقة ساحقة الطول نخلة من نخيل الرافدين، بل أعترف لك، سميراميس، بت أشعر أن كل من حولي أقزام، أنظر إليهم من علٍ فأراهم كالنمل، قميئين كالصراصير.. بل حتى صاحب السعادة نفسه صرت أراه كذلك فقررت: الابتعاد عنه.. لكن بقية من خوف قديم منه جعلتني أضيف على القرار: بالتدريج وشيئاً فشيئاً، فلا يشعر إلا وقد وقعت الفأس في الرأس..

لكن كي أفعل ذلك كان علي أن أفعل أموراً كثيرة، في رأسها معرفة أولئك الذين زرعهم في اقطاعتي ينقلون له أخباري.. فإن أنس لا أنس أبداً، يا جدتي العظيمة، تلك اللحظة التي صدمني فيها بأنه يعرف كل شيء عن المال.. وقد زاد الطين بلة أنه اعترف ضاحكاً بأن التقارير تصله بسرعة البرق.. إذن هناك من يتصل به هاتفياً لينقل له تصرفاتي وتحركاتي حرفاً بحرف.. ولمعت في رأسي الفكرة: لماذا لا أجرده من سلاحه ذاك؟ شككت أول ما شككت برجاء، أمينة سري وأقرب المقربين إلي.. "تعالي ويلك!! أنت تنقلين أخباري للآخرين!!" "أنا!؟ "ردت مذعورة تكاد عيناها تخرجان من محجريهما "لأعدم صحتي!! لتعمَ عيناي إن فهت يوماً بكلمة واحدة.. لا يا مولاتي.. لا يا صاحبة الصون.. ما أنا من تخونك.. أو تغدر بك.. "وراحت تقسم أغلظ الأيمان أنها لا ترى لا تسمع لا تتكلم، بل انكبت في النهاية على يدي، ثم قدمي تقبلهما المرة تلو المرة ذارفة الدموع مقسمة إنها الوفية المخلصة لمولاتها، ولية نعمتها.. أمرتها بالنهوض وقد تبين لي أنه أسلوب ساذج في كشف الحقيقة.. أي متهم يستطيع أن ينكر ولا إثبات إلا بالاعتراف.. ربما هي بريئة حقاً، بل بت بعد أن رأيت دموعها وسمعت إيمانها، واثقة من اخلاصها لي.. لكن ثمة سواها.. بتول.. حارساتي الأمازونيات، مسؤولة المحاسبة، فكيف أحقق معهن؟ كيف أكشف خيانتهن؟ ولمعت فكرة من جديد: لم لا أحاربه بسلاحه؟ لم لا أكشف من خلال ذلك السلاح صنائعه وعملاءه، بل ربما صنائع غيره وعملاءه، أكشف من يكرهني.. يحبني.. من هو بين بين فأتصرف مع كل منهم بما يستحق، أرفع وأضع طبقاً لما يستحق؟..

"أريد مراقبة الهواتف.. كل مكالمة صادرة أو واردة أريدها أن تصل إلي." قلت لصاحب الاتصالات في اقطاعتي، مهندس فطين فهيم سبق أن جربته في عمله أكثر من مرة وأثبت جدارته كل مرة. "سمعاً وطاعة يا صاحبة السمو.. فقط نريد جهازاً خاصاً" "كم ثمنه؟" "لا أدري.. هو غير موجود هنا.. علينا أن نأتي به من الخارج." "هيئ نفسك.. خذ ما تحتاجه من مال واذهب غداً، لكن بالسر لا يعرف بك أحد.. أريده جاهزاً هنا بأسرع وقت".

في اليوم السابع جاء يبشرني، وهو يمدد سلكاً خاصاً إلى طاولتي، "الآن يمكنك الاستماع إلى كل ما تريدين.. فقط.. ضعي هذه السماعة." واستمعت. كانت السماعة صغيرة من ذلك النوع الذي يوضع داخل صحن الأذن. "أوه!! يا إلهي!! ما أعظم التكنولوجيا!! ها هي ذي إحدى مساعداتي ترد على عشيقها الذي يطلب إليها أن تترك العمل وتجيء إليه، فامرأته ستغيب طوال قبل الظهر والبيت فارغ". سألت المهندس إن كان أحد قد عرف بالأمر. أجاب بالنفي. أمرت له بمكافأة عالية هش لها وبش، ثم طلبت إليه أن يسجل كل مكالمة لكل

اسم في قائمة أعطيته إياها فانحنى ثم خرج. لحظات ثم جاءت تلك المساعدة تطلب إذناً: "أبي مريض، لا أحد يرعاه أو يعطيه الدواء." هززت رأسي وأنا أقلب فيها النظر صعوداً ونزولاً.. ها أنت ذي تكذبين.. أيتها المرأة المتغطرسة داعية الفضيلة والعفة.. أأفضحك أم أسخر منك؟ لا.. لا سأفعل بك ما يفعل القط بالفأر وقد اصطاده.. يلاعبه.. يفلته.. يمسكه إلى أن يقطع أنفاسه وييئس فيرقد مستسلماً لمخالبه.. سأجعلك تيئسين.. تستسلمين.. "سيدتي.. مولاتي.. ماذا قلت؟" سألت متعجبة "حسن.. أعطيك الإذن.. لكن أنهي لي هذه أولاً. "قلت وأنا أعطيها مذكرة كانت قد قدمتها إلي ولم تعجبني، "عدّلي هذه المذكرة.. صلحي حيث وضعت لك إشارات.. ثم أعيديها إلي" قلت فاحتجت بقلق وخوف "لكن ابني.. يا صاحبة العفة والصون".. "وتكذبين أيضاً؟ ابنك أم عشيقك؟ اللعنة عليك وعلى كذبك.. اذهبي ونفذي ما أمرتك به." تراجعت المرأة إلى الوراء خائفة وقد أدركت أنني أعرف سرها.. ثم خرجت تتعثر بدموعها وهي لا تدري كيف عرفت السر. انتصاراً عظيماً سجلت.. فتلك المساعدة هي الوحيدة ربما التي لم أستطع كسر أنفها.. كان وراءها دعم وكان دعمها قد اتصل بي يوصيني بها ولم أستطع إلا أن أستجيب له.. اليوم بات باستطاعتي أن أمرغها بالتراب دون أن تجرؤ على رفع رأسها، هي التي تخون داعمها نفسه مع عشيق آخر..

تلك الليلة قضيتها مع تسجيلات المكالمات. لقد جاءني بها المهندس آخر الدوام لكنني لم أستطع التفرغ لها إلا ليلاً.. وكانت متعة.. أجل، سميراميس، لو جربت ما جربت لعرفت ما فيه من متعة.. تصوري.. الناس، تلك الصناديق المقفلة أمامك، تنفتح فجأة على مصاريعها، تفرغ أمامك ما في أحشائها، تبسط بين يديك ما في تلافيفها الدماغية، وأنت تقرئين فتعرفين دقائق ما يفعله فلان وما يخطط له علان.. تتداح أمامك الأسرار عارية حتى من ورقة التوت، تلك الأسرار التي تدفعين مكاييل الذهب والفضة كي تطلعي عليها فلا تستطيعين، لكن هاهي ذي تطرح أمامك دون ستر، دون مواربة فتمتعي بها ما شئت أن تتمتعي.. يا إلهي!! ما أكثر ما في الدنيا من أسرار وما أروع أن تطلعي على تلك الأسرار!! ساعات ظللت أقرأ.. عادل يدبر مقلباً لرئيسه كي يطيره ويحل محله.. واعداً صاحبته بأفخر الملابس وأغلى الهدايا إن تبوأ ذلك المكان ذا الفوائد الكثيرة كاشفاً لصاحبته إياها أن تقاريره عندي لم تجد نفعاً فتحول إلى جهة أخرى يرفع لها تقاريره التي ستجدي نفعاً بالتأكيد.. إذن، هوذا أحدهم.. قلت في سري وأنا أتابع القراءة ثم أسجل اسمه في دفتر أفردته لهذه الغاية.. كل من يتعامل معهم أسجل اسمه فيه.. اسم الجهة التي يعمل معها، مدى خطورة المعلومات التي يمكنه الحصول عليها..إلخ.

سميحة تحدث صديقتها عني.. أجل عني أنا.. إنها تكرهني أشد الكراهية.. بل تقول: أنا أحتقرها.. عاهرة السلطة هذه.. ماذا تظن نفسها؟ أنا أعرف عنها كل شيء.. هي ابنة حارتي.. أهلها متبرئون منها، لا أحد منهم يكلمها.. وتوقفت عن المتابعة، لقد أزعجني ذلك.. ذكرني بأهلي الذين أحكموا مقاطعتي تماماً.. لا يأتون لزيارتي.. لا يكلمونني.. لا يطلبون مني شيئاً.. فأريهم ما أنا عليه من مجد وسلطان، أنتزع اعترافهم بأنني كنت، في كل ما فعلت، على حق وهم على باطل.. لكنهم لم يأتوا.. لم يتصلوا وكأنهم مسحوني من ذاكراتهم، لم أعد قيد الوجود. وشعرت بوخزة ألم: أهلي يلغونني من الوجود؟ لا يقيمون وزناً لكل ما حققت من عز وجاه؟ يزدرونني إلى درجة النسيان؟ عاصم ينساني، معقول، فقد أخذت تعهداً منه بأن يبتعد عني، أن يعتبرني وكأنني لا أمت له بصلة، لكن ماذا عن أبي؟ ربى؟ علا؟ امرأة أبي؟ أتراه الحق علي؟ أأنا التي أهملتهم في غمرة انشغالي وغرقي في بحر المسؤوليات والسلطة؟ ربما... إذ لم أكن اتصل بالبيت، لم أفطن لامرأة أبي بهدية، لم أزر مرة ربى أو أدعها لزيارتي.. "هذا تقصير،" قلت مخاطبة نفسي وأنا أتذكر أنني لم أقصر مع أهلي وحسب.. بل قصرت في كل مجال من مجالاتي الأخرى تلك التي كانت درجات في سلم صعودي إلى أن بلغت القمة: نادي النسوان، جمعية الكتبة، الجامعة.. كلها صارت لدي طي النسيان. كان النادي قد صار أصغر بكثير من أن أذهب إليه.. أنا صاحب عفة وصون فكيف أذهب إلى نادي نسوان، مكتبي فيه ثلاثة بأربعة؟ لا.. لا.. صرت أكبر بكثير من أن أهتم بعمل كعملي في النادي... سألتني الرئيسة حينذاك إن كنت سأستمر أم تعمل على انتخاب بديلة لي فضحكت "طبعاً، وقتي لا يسمح لي بالاستمرار،" وانقطعت علاقتي بالنادي.. جمعية الكتبة صرت أراها تافهة لا تستحق مني حتى التفكير.. وما علاقتي بها؟ تلك الكتب التي كتبها سواي.. رسالة ماجستير، دكتوراه.. ثم ديوان شعر، أتعبت في نظم قصائده؟ هل دفعت لإصداره من جيبي؟ إنها مجرد درجة في السلم.. جمعية الكتبة تلك، ولقد تجاوزت تلك الدرجة بكثير، فلماذا أعيرها اهتماماً؟ حتى الكتبة، أعضاؤها، الذين كنت أحضر اجتماعاتهم في السابق، لم أعد أستقبلهم.. يأتون لحاجة أو شأن فأردهم خاسئين خاسرين.. ولماذا أضيع عليهم وقتي؟ ما الفائدة منهم وكلهم فقراء بائسون لا يساوي واحدهم شروى نقير.. أنا الآن غنية أملك الملايين، لكن ماذا هم؟ أيستطيع واحدهم أن يأكل؟ يلبس مثل الخلق والناس؟ يملك سيارة؟ أنا لدي عشر سيارات، بعضها ملكي الخاص وبعضها ملك الاقطاعة التي هي بدورها ملكي، فلماذا أفكر بفقراء بائسين؟ قابلت أحدهم ذات مرة فراح يتوسل لتشغيل ابنه الذي لا يجد عملاً..

كنت أرقبه من علٍ وهو يتوسل إلى أن أثار اشمئزازي فطردته.. بطرف حذائي أشرت له أن يخرج فبهت لحظة ثم خرج.. مالي ومالهم؟ لا يهمني أحدهم بشيء.

كذلك حال الجامعة، تلك التي كانت دروسها تزعجني.. درجة كانت في السلم، علي أن أثبت قدمي عليها كي أصعد إلى الدرجة الأعلى... ولم يكن بإمكاني أن أثبت قدمي دون أن ألقي محاضرات وأعبئ مركزي كأستاذة. لقد بذلت كل ما في وسعي لبلوغ تلك الغاية.. كنت ألجأ للحيلة، لسرقة أمالي سواي من الأساتذة لاقتباس ما أستطيع اقتباسه من هنا وهناك فأغطي جهلي بالتاريخ، عجزي الكامل عن استيعاب حتى محاضرتي.. فأقرأها قراءة دون كبير فهم.. تلك المحاضرات جاءت إمارة الاقطاع كي تخلصني من بلواها، فكيف أتردد لحظة واحدة في قطع علاقتي بها؟ العذر موجود قدمته لإدارة الجامعة فقبلته لأصبح: أستاذة قيد الاستيداع.

ذلك كله كنت قد نسيته.. لكن مراقبتي لهواتف الاقطاعة عادت وذكرتني به.. هاهوذا وجدان يحدث زميلاً له في الجامعة، شاكراً الله أن الأستاذة التي صارت صاحبة إقطاع تركت تدريس المادة التي لم تكن تفقه منها شيئاً، بل هو يتطاول علي ناعتاً إياي بالغبية والحمارة.. تصوري يا سميتي.. عامل عندي، كان طالباً في قسمي ينعتني بأبشع النعوت.. ماذا أفعل به؟ ألا ينبغي أن أذبحه؟ وسجلت اسمه للتو في قائمة الأعداء.

معتز، صاحب الإعلام في الاقطاعة، يتحدث عني ببراعة. هو ينتقد لكن انتقاده مشوب بالإعجاب. هو يرى أنني شاطرة استطعت أن أدبر رأسي وأن أتسلق السلم بأسرع ما يستطيع إنسان.. مؤكداً لصديقته أنه يعلم الكثير من أسراري، خاصة تلك التي تتعلق بالكتب التي أصدرتها في التاريخ وفي الشعر، ضاحكاً حالفاً برأس جده أنني لم أكتب كلمة واحدة منها لا نثراً ولا شعراً..

"اللعين.. كيف يفتري علي مثل هذا الافتراء؟ "كان رد فعلي الفوري، لكنني عدت وتراجعت.. "يا إلهي!! معلوماته صحيحة، لكن من أين جاء بها؟ كيف عرف؟ أتراها الأخبار تتسرب حتى من أجهزة كتم الصوت؟ أتراه غيث باح بالسر لأحد؟ كل شيء جائز لكن هذا يشكل خطراً حقيقياً علي ولا يزول ذلك الخطر إلا بقطع لسانه".

وسجلت اسمه في القائمة. لكن أجمل ما كان في ليلة المراقبة تلك، مكالمات الغزل ونكات الجنس والبذاءة المتبادلة بين نساء ونساء، رجال ورجال، رجال ونساء.. هذه خديجة، فتاة تلبس الجلباب الشرعي بكفين في اليدين وحجاب على الرأس وكاحل رجل لا يبين: تروي

النكتة تلو النكتة لصديقتها وكلها تفوح برائحة الجنس والبذاءة.. نكات.. صدقيني يا سميتي، أنا نفسي أخجل من روايتها، لكنها هي الآنسة التي يفترض أنها عذراء لم تعرف الحب ولم تمارس الجنس لا تروي إلا نكات الجنس.. صحيح.. "تحت السواهي دواهي"..

وهذه سمية تتحدث مع حبيبها ساعة كاملة عن حبها وغرامها، شوقها وانتظارها ذلك اليوم الذي ستقدم له نفسها فيه دراقة مقشرة، شهية لذيذة تذوب بين يديه..

عجائب غرائب كشفت تلك المكالمات. أقضي معها الساعات كل ليلة فأكشف أسراراً وأطلع على مكنونات..

ثلاثة أشهر ظللت أتابع تلك الأسرار والمكنونات، إلى أن تيقنت من معرفة كل صغيرة وكبيرة عن العاملين في اقطاعتي، مسجلة كلاً منهم في القائمة التي يستحق.. بعدئذ بدأت بالمحاسبة: هذا ينقل إلى أقصى الاقطاعة، ذاك خارج الاقطاعة، آخر إلى مكان هامشي، واحدة تسرح، ثانية تعاقب بحسم راتب.. وهلم جراً.. عقوبات راحت تنصب عليهم انصباب مطر صيفي حار.. والسبب؟ دائماً مختلف.. لكل منهم أجد السبب المناسب، وكلاً منهم أرد مدحوراً مذموماً إذا ما أراد الاحتجاج أو الاستئناف.. ليبدو كل من في الاقطاعة مذهولاً لضربات "المعلم" التي رحت أكيلها للعاملين ذوي المواقف السلبية والألسن الطويلة..

صاحب السعادة نفسه بدا مذهولاً بعد أن نقلت له خمسة من صنائعه.. تلك التي زرعها حتى بين أمازونياتي.. واحدة واحدة نقلت، وواحداً واحداً عاقبت.. جاء إلي باستغرابه وذهوله يسأل "ما سبب تلك العقوبات؟ ما الداعي لتلك التغييرات الواسعة التي أجريتها في اقطاعتك؟" "الخيانة.." أجبت، وكان جواباً صاعقاً أحسست معه أنه ارتد إلى الوراء مصدوماً.. أن وجهه اربد أكثر وأكثر بل بدأت أسنانه تكز على شفته السفلى.. علامات أعرفها فيه غيظاً وحنقاً. ولكي لا ينفجر، أنا التي كنت حريصة على إبقاء شعرة معاوية بيننا، أسرعت إلى صندوقي الحديدي أجيئه بمبلغ كبير من المال انبسطت له أساريره في الحال.. "هذه حصتك.. خبأتها لك إلى أن نلتقي." "أوه!! أنت شريكة مخلصة حقاً!!" وسررت.. كان الشرح الذي قدمه لي ذات مرة قد أفادني فائدة جلى، الأموال غدت تتدفق علي كالسيل.. مشاريع، صفقات، مشتريات، مبيعات، لي منها كلها حصة.. ندوات، مؤتمرات، احتفالات، مهرجانات نقيمها في الاقطاعة: وكلها تدر أموالاً مستورة أحياناً وغير مستورة أحياناً أخرى، فأدفع نسبة من تلك الأموال "خوّة" لمعلمي وصاحبي الذي كنت أنسحب بعيداً عنه شيئاً فشيئاً، وكلي أمل أن يأتي اليوم الذي لا أدفع فيه "خوّة" لأحد.

كنت أعلم أن تلك هي فرصتي لجمع أكبر قدر من المال، وكان لعابي يسيل كلما لاحت مناسبة تتيح لي جمع قدر من ذلك المال.. جشع هائل سيطر علي، أعترف لك يا سميراميس، جشع للنقود، للذهب، للفضة، للهدايا، جعلني أبذل كل ما في وسعي وبأية وسيلة، لأكنز الذهب والفضة.. الذهب هو القوة، وكل ما أريد هو القوة.. بل القوة المطلقة.. إذن لأكن قارون.. فأغدو أعظم سلطاناً من أي سلطان. أنت نفسك، يا جدتي الكبرى، كنت كذلك.. ألم تفعلي المستحيل كي تكنزي الذهب والفضة؟ خزائنك، أكنت ترضين أن تريها فارغة؟ كنت ترسلين جباتك إلى بلاد عيلام وميديا، بابل ومدين، سورية ومصر، ليبيا وإثيوبيا.. وإلى كل مكان من إمبراطوريتك الشاسعة الواسعة كي يأتوا لك بقوافل الذهب والفضة.. كنت تعلمين أنك بالذهب وحده تحافظين على مجدك وبالذهب وحده تبسطين سلطانك، فالجيوش تزحف على بطونها.. وبطونها لا تملأ إلا بالذهب والفضة..

(وتابعت سميراميس ما نقشته على قاعدة البرج قائلة: وقد أقمت الأبراج الشامخة تنطح السحاب ومهدت طرقاً لم يكن يرتادها من قبل إلا وحوش الغاب، ورغم كل هذه الأعمال العظيمة وجدت نفسي أبحث عن إمتاع نفسي وأسعى في كل مجال من أجل سروري ولهوي..)

أما أنا، أعترف لك يا سميتي، فقد مضى علي حين من الزمن نسيت فيه سروري ولهوي.. شؤون الاقطاعة كثيرة، همومها كثيرة وعلي أنا أن أعالجها كلها، اجتماعات، لجان، اتصالات، أوراق.. أوراق وأخيراً مراقبة الهواتف... كلها كانت تأخذ جزءاً كبيراً من وقتي، فلا أنام أحياناً حتى الفجر وأفيق صباحاً منهكة لم تشبع عيناي النوم، فأين اللهو والسرور؟

صاحب السعادة، كان هو الآخر مشغولاً. بل لم تعد علاقتنا علاقة حب وغرام، بل علاقة "بيزنس"، مصالح متبادلة.... وهكذا تباعدت لقاءاتنا.. كل شهر أو شهرين نلتقي، وغالباً ما يكون اللقاء سريعاً أو غير حميمي كما كانت العادة.. كانت ثمة شوائب قد وقعت في الكأس. لم يعد الماء عذباً فراتاً كما كان من قبل، كذلك، كان في داخلي نفور منه، تكوّن ذات يوم على حين غفلة، ثم راح ينمو ويكبر إلى حد بت معه أختلق الأعذار كي لا أراه.. كنت أعطيه المال وأنا أعلم أنه لابد مماليس منه بد، وكان قد صار لدي الكثير منه، فماذا إن أخذ بعض ذلك الكثير؟ المهم بت أترك لنفسي حصة الأسد، لا فيفتي فيفتي كما كان شأنه من قبل، ولم يعد باستطاعته أن يعرف ما أجمع من مال، فقد أزحت جماعته ولم تعد تصله الأخبار.. المال كثير هاهي حقيبة ملابس كبيرة ملأى حتى الحافتين.. رزم النقود صففتها رزمة رزمة.. بيدي الاثنتين وضعتها طبقة فوق طبقة حتى امتلأت الحقيبة.. على المرء ألا يثق إلا بنفسه، وفي أمور كثيرة عليه أن يعمل بنفسه دون أن يطلب عوناً، السر إذا ما بلغ اثنين

شـاع.. إذن ليبـق سـرك في صـدرك سميرة.. صـدرك وحـده.. الـذهب يخطـف الأبـصار، يحـرك الألـسنة فتـأتي بمـا لا تحمـد عقبـاه.. مالـك سـرك وحـدك، لا يعـرف بـه أحـد غـيرك فامـضي بـه بعيداً.. امضي إلى حيث المصارف في الخارج تلك التي ليس لها لسان.

"هيئي نفسك رجاء.. سنسافر في الصباح." أمرتها عبر الهاتف وقد انتهيت من حقيبة النقود. "إلى أين يا صاحبة العفة والصون؟" "غبيـة!!" صـحت بهـا زاجـرة. "إلى أيـن؟ متـى كـنـت تـسألينني إلى أين؟ أعدي نفسك وحسب". وفي الصباح كانت سيارتي الفاخرة تسير الهويني باتجـاه مدينـة البحـر. في صـندوقها الخلفـي تقبـع الحقيبـة المـلأى بالمـال.. وفي إثرهـا ثـلاث سـيارات لأمازونيـات شديدات البأس..

صاحبة العفة والصون تلتقي بدوريات الجمارك فتقف لها الدوريات باستعداد، تعبر الحدود فيقف لها حراس الحدود باستعداد.. لم لا، والسيارات الثلاث من أمام وخلف؟ إنـه العـز، ألـيس كذلك يا سميتي؟ عز أن يقف ذلك الجند باستعداد، أن تري شوارب الرجال ترتجـف لرؤيتـك، رؤوس الرجـال تتطأطـأ أمامـك.. وكـم شـعرت بـالعز في ذلـك المـشوار!! كـم انـتفخ صـدري وانتبجت أوداجي!! آه يا سميراميس!! ما أروع العز، ما أجمل السلطان!!.

في مدينة البحـر اخترت أفخم فندق يطل على البحـر.. اتـصلت بمـدير مـصرفي فهلـل ورحـب.. ثم استقبلني مع الحقيبة بالتهليل والترحاب مودعاً في أحشاء مـصرفه مـا فيهـا مـن نقـود.. الأمـور تسير على خير ما يرام، فلمـاذا لا أبحـث عـن شـيء مـن اللهو؟ صـرفت الأمازونيـات. لا حاجـة في مدينة البحر لأمازونيات.. هناك، الدنيا أمـان، والنـاس لاهـون عـن بعـضهم بعـضاً، لا أحـد يهـتم بأحـد ولا أحـد يفكـر بأحـد.. "أنـا بحاجـة لإجـازة.. إجـازة مـن كـل شـيء، فهـل تـبقين معـي أم تعودين؟" قلت لرجاء قبـل أن أصـرف الأمازونيـات فقالـت "صـحيح.. منـذ زمـن طويـل أنـت بحاجـة لإجازة وأنا رهن أمرك.. إن قلت لي ارمـي نفـسك في البحـر رميتهـا في البحـر." وأبقيتهـا.. كانـت رجاء خالصة الولاء وكنت لا أخشاها، هـي كاتمـة أسـراري حقـاً، تخـافني حقـاً، سـيما وقـد رأت رأس الذئب المقطوع.

الشاطئ مغرٍ مغوٍ يلوح لي بيده أن تعالي.. هو قريب تكاد يدي تصل إليه من شرفة جناحي الفخم في فندقي الفخم، أومئ لرجاء هلمي.. وكلي توق للبحر.. شوق للحرية، فرح بأنني أخرج من شرنقة انغلقت علي ذات يوم حتى كـادت تقطـع أنفاسـي.. "لقـد تحطمـت الأغـلال يـا رجـاء، فلنطر حمامتين تحلقـان عاليـاً في الـسماء.. لنفـرح.. لنمـرح.. لنبحـث عـن لهونـا وسـرورنا، فلطالمـا بعد بنا زمن اللهو والسرور".

في أحضان الموج الدافئ رمينا أنفسنا.. البحر دافئ ساكن، وماذا هناك أمتع من سباحة في بحر دافئ ساكن؟ ثلاث ساعات ظللت أسبح دون كلل أو ملل. السابحون كثر حولي والسابحات أكثر.. لكن لا أحد منهم يعرفني.. شيء ممتع أيضاً.. لو كنت في مدينة البر، لعرفني جلهم.. ألم يروا صوري الكبيرة مذ حملة مجلس الأعيان؟ ألا يرون صوري في الجرائد، المجلات، التلفاز كل يوم؟ لكن هنا لا أحد يعرفك فتعودين إلى نفسك حرة طليقة كشعاع الشمس.. هناك بين الأمواج عدت إلى نفسي وكلي شعور بأنني أضعتها منذ زمن طويل.. إلى حريتي، فطرتي تلك التي غابت عني مذ غرقت في بحر الجاه والسلطان.. آه يا سميراميس، ما أعذب أن يجد المرء نفسه بعد ضياع!! ما أجمل أن يلقى حريته بعد الرق والاستعباد.. "أنا رقيقة" قلت لنفسي وأنا أستسلم لعناق البحر.. كم هو لذيذ عناق البحر!! كم يمنح جسدك من ملامس حريرية ودفء نيساني!! أتعرفين ذلك سميراميس؟ هل جربته ذات مرة؟ أسطورتك تقول إنك كنت تحبين السباحة وإنك من حين إلى آخر كنت تؤمين البحر، فلماذا؟ أليس لكي تسبحي؟ التوق الذي شعرت به للبحر لابد آت منك.. بالوراثة. أنا أحذو حذوك.. أنت قدوتي ومثالي.. فكيف لا نكون متماثلتين في حب البحر؟

في الليل مضينا إلى أفخم كازينو يقدم أروع العروض الفنية.. وكانت متعة أن تري راقصات عاريات، راقصين عراة، مشعوذين بارعين، مشعوذات بارعات. عالم من الخيال عالم الكازينو. كل شيء فيه ساحر، باهر يخطف الأبصار، فكيف لا أستغرق فيه حتى مطلع الفجر؟ وكيف لا أنتقي أجمل رجل، كما كنت تفعلين بجندك، أمضي معه بقية الليل؟

في اليوم الثاني، السوق زرنا، كل ما خطر ببالنا تسوقنا، أفخم المطاعم ارتدنا، وإلى الشاطئ عدنا. ثم ليلاً جلنا في أكثر النوادي الليلية شهرة وامتاعاً حيث مارست حريتي كما أريد يا سميتي. الرجال حولي فلماذا لا أنتقي أيضاً يا سميراميس؟ أنا حرة.. أتحرك كما أشاء، أفعل ما أشاء، وأي شيء أشهى على امرأة حرة من ممارسة الجنس، حيث لا ضريبة شهرة ولا جزية مسؤولية..؟.

في اليوم الثالث جاءت من تعرفني.. يا إلهي!! هاهي ذي تقترب مني، أحاول الهرب منها فأغوص في الماء، لكن الماء ضحل، أغوص فيه برأسي ثم لا أرفعه إلا وهي أمامي.. ألست صاحبة العفة والصون، أميرة الإقطاع في مدينة البر؟" "بلى.. أنا هي" وانقضت علي تعانقني مشبعة إياي لثماً وتقبيلاً "ألا تذكرينني؟ ..أنا جانيت صاحبة أعمال هنا.. زرتك مرة هناك وأعجبتني كثيراً." "أهلاً وسهلاً بك.. جانيت.. أجل.. تذكرتك".. وخرجنا من الماء نتحدث ونحن نذرع الشاطئ جيئة وذهاباً..

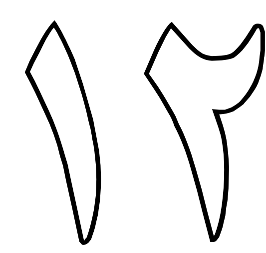
كانت المرأة في أواخر أربعيناتها سمينة مترهلة بعض الشيء، لكنها نشطة، ملؤها الحيوية حتى ليحسبها المرء في عشريناتها.. كل حركة من حركاتها تدل على الترف والنعيم.. روت لي الكثير عن نفسها، عملها، الملايين التي تنعم بها ثم دعتني.. "أنت ضيفتي اليوم.. فما رأيك نذهب إلى قصري؟" أغرتني كلمة "قصري" فوافقت صارفة رجاء إلى الفندق.

الحقيقة كان قصراً منيفاً يا سميراميس!! ربما لا يقل عظمة عن قصورك في بابل وآشور.. قمنا بجولة فيه وأنا مبهورة.. أرتني أجنحته، صالاته، مخادعه، وأنا مبهورة.. أكلنا، شربنا، أخذنا قيلولتنا وأنا مبهورة.. كانت المرأة قد ورثت مليونيراً كبيراً ترك لها كل ما تشتهي وتتمنى.. هي أرملة حرة ثرية إلى حد التخمة فلم لا تعيش كما تشتهي وتتمنى؟. مكتب البيزنس لديها يعمل، مصانعها تعمل، مزارعها تنتج وهي تقطف ثمار ذلك كله.. مخططون، موظفون، مشرفون كلهم يعملون وهي تقطف الثمار.. شيء كالأحلام.. جانيت تتحدث وأنا أصغي إليها مبهورة.. أشعر اللحظة تلو اللحظة أنني ما كنت يوماً إلا فقيرة مدقعة لا تعرف العيش، وأنني رغم ملاييني التي حصلت عليها ما أزال فقيرة مدقعة لا تعرف العيش.. ثم تفاقم ذلك الشعور حين قالت جانيت.. "بعد القيلولة، أنا عادة أعمل تدليكاً وأستحم.. ما رأيك؟" "لم لا؟" قلت دون أن أفكر: ماذا يعني التدليك ومن يقوم به.

الحمام جناح قائم بذاته: أحواض، مرشات، مقاعد راحة، مفارش تدليك.. وعبق الياسمين يضوع منها جميعاً، بخار الماء نفسه بدا وكأنه يختلط بعبق الياسمين.. ألقت عنها الإزار فبدا عريها مترهلاً بعض الشيء.. بدأت أخلع ثيابي على تردد فضحكت وهي تسرع لمساعدتي.. "اخلعي ثيابك.. تحرري من هذه القيود اللعينة.. وطربت لكلمة تحرري.. أجل.. الثياب قيود يا سميراميس، بل هي قيود لعينة، وأسرعت أخلعها حتى صرت عارية مثلها لكن دون ترهل. "أوه!! جسمك غاية في الجمال يا ذات العيون الخضر". قالت وهي تمد راحة كفها تتحسس بطني ثم خصري.. هذا الخصر رشيق ناحل كأنه لم يعرف الإنجاب." "بل عرفه مرة واحدة.. لدي بنت" "رائع.. وحافظت طوال هذه المدة على رشاقتك وجمالك.. بشرتك أنعم من زهر الياسمين." وارتعش شيء في داخلي. لعل المرأة سحاقية كتلك الممرضة طيبة الذكر، ربما تريد أن أشاركها حفلة جنس.. لكن سرعان ما جعلتني أنسى أفكاري وهي تسحبني إلى حوض كله زهر وعطر.. صابون بماء وماء بصابون ثم غرقنا كلتانا في الحوض وقد علت قهقهاتنا ابتهاجاً بدفء الماء..

لحظات دلكتني فاركة كتفي، ظهري، إليتي، لكن قبل أن تصل راحتاها إلى صدري وثديي دخل رجلان فشهقت جاحظة العينين "لا عليك.. هذان هما المدلكان.. يد واحدهما

تشفي السقيم.. انظري" ومضت إلى أحد مفارش التدليك حيث تمددت منبطحة، تاركة جسدها كله ليدي المدلك الذي راح يمارس عمله بكل برود واتزان. "اخرجي من الماء. دعي الآخر يدلكك.. لن تندمي أبداً." وأغرتني الدعوة.. إن كنت لن أندم، فلم لا أخرج؟ ومضيت إلى المفرش أسلم الآخر جسدي يضع راحتيه عليه فأرتعش كلي.. كنت بحاجة إلى الرجل وكانت الشهوة تتأكلني من داخل، وقد أججت الليلتان الماضيتان من سعيرها.. كان كل شيء يرخي الأعصاب، يفك العقد، فلم أشعر إلا وأنا أستسلم كلياً ليديه.. خدر لذيذ يجتاح جسدي كله، نشوة كتلك التي تعرفها الآلهة فقط تسري في كياني.. تجعلني أنقلب على ظهري، أفتح ساقي ثم أشده إلي لنرقص معاً رقصة الذكر والأنثى، تلك التي كانت جانيت قربي ترقصها هي الأخرى. يا إلهي كم منحني من المتع، كم جرعت من أكؤس اللذائذ إلى درجة لم أستطع معها، وأنا أصل إلى فندقي، أن أخلع ثيابي. لقد كنت مسنزخية القوى مستنفدة الطاقة إلى درجة ألقيت معها نفسي على السرير ثم غرقت في سبات عميق، لم يوقظني منه إلا رنين الهاتف ظهيرة اليوم التالي، وصوت فتاة الاستقبال تقول "عفواً، سيدتي.. امرأة هنا تريدك" "امرأة؟ من هي؟" وجاءني صوت أنثى يبدو أنها خطفت المهتاف من فتاة الاستقبال، وهو يصيح بحرقة.. "سميرة.. أنا أمك".



(ولم تقف أطماع الملكة الساحرة عند حد، فبعد أن وصلت إلى ليبيا والحبشة، عادت إلى بكتريا لتجعل منها قاعدة لحملتها الكبيرة القادمة. لقد عزمت على غزو الهند وهي البلاد التي لم يكن أحد قد تمكن من فتحها حتى تلك الساعة.

كانت تعرف أن الصراع سيكون قاسياً وأن عليها أن تعبر نهر الهندوس لتواجه فرقاً لا تحصى وأفيالاً مخيفة يقودها خصمها ستابروباتيس ملك الهنود. لذلك أعدت لتلك الحملة بعناية شديدة ولمدة ثلاث سنوات، فجمعت ثلاثة ملايين من المشاة وخمسمائة ألف فارس ومائة ألف عربة ومثلها من الحمالين، واستقدمت الفينيقيين والسوريين والقبارصة من أجل بناء أسطول من السفن القابلة للتفكيك، وإضافة إلى ذلك أمرت سراً بصناعة أفيال مزيفة من جلود ٣٠٠,٠٠٠ ثور أسود حشيت بالقش لإخفاء الجمال التي ستحركها، وأعدت ألفي قارب لتشق بها أنهار الهند، وفككت أجزاءها وأمرت بحملها على ظهور الإبل وسارت بهذا الجيش الكبير متقدمة إلى الهند.

خرج ملك الهند لملاقاتها في جيش عظيم وبعث إليها برسول يسألها عن سبب إعلانها الحرب عليه، وعمن تكون هي حتى تجترئ على غزو مملكته؟ استمعت سميراميس إلى الرسول ثم أجابته في هدوء:

اذهب إلى مولاك وقل له إنني سأخبره بنفسي عمن أكون ولماذا جئت إلى هنا.

والتقى الجمعان.. وكانت الجولة الأولى في صالح ملكة آشور وبابل، فقد ذعر الهنود عندما شاهدوا ذلك العدد الضخم من الفيلة الكاذبة، فتقهقر ملك الهند بجيشه وتبعه جيش سميراميس.

لكن جاء إلى ستابروباتيس من يكشف له خدعة الأفيال الزائفة من عيونه، فكر عليها بأفياله الحقيقية فكانت تخطف الرجال من فوق خيولهم وتدوسهم بأقدامها..

وهكذا فر رجال سميراميس يطلبون النجاة من ذلك البلاء وأصيبت هي نفسها بجرح بليغ من أحد السهام فأسرعت بالعودة مع فلول جيشها المقهور. أراد ملك الهند أن يلاحقها، لكن الكهان والسحرة حذروه عاقبة ذلك فتركها تعود إلى بلادها كسيرة حسيرة تجرجر أذيال الخيبة والهزيمة).

أنا كذلك عدت إلى مدينة البر كسيرة حسيرة أجرجر أذيال الخيبة والهزيمة.. أجل يا سميراميس، بعد تلك الانتصارات التي حققتها في مدينة البحر، المتعة التي اقتنصتها واللهو الذي عشته وجدتني أصطدم بحائط وأنا أجري بسرعة صاروخ.. كيف؟ لماذا في تلك اللحظة؟ لا أدري

يا سميتي.. أنا في ذروة الغبطة والسعادة، الفرح والمرح، فجأة تظهر أمي عجوزاً شمطاء عجفاء محنية الظهر، مغارية الفم، جلداً على عظم ولا تستطيع المشي إلا بالكاد.. أجل.. هي ذي أمي.. أراها قد انكمشت وتقلصت حتى صارت قفة من هم تشغل زاوية صغيرة من إحدى أرائك الصالون الفخم ولا أصدق.. يالله!! كم أزرى بها الدهر!! يالله!! كم يفعل بالإنسان الحدثان!!.

كنت قد عرفتها معرفة اليقين، لكن شيطاناً ما وسوس في صدري فجعلني أستغرب وأستنكر. "من أنت يا مرأة؟" قلت وأنا أجلس قبالتها دون أن أقترب أو أمد يدي. "ألم تعرفيني؟" ردت ودموعها تنهمر على خديها" بيدك حق يا بنتي.. هذا الزمن الطويل ينسي.. لقد تركتك صغيرة.. كنت في العاشرة أو الحادية عشرة.. فكيف تذكرين؟" "ما الذي تخرفين به يا امرأة؟ ما الذي أذكره أو أنساه؟" رددت وقد رسخ عزمي على إنكارها مهما فعلت. "تنسين أمك التي ذاقت الويلات من أبيك وامرأة أبيك وأولاده وهم يضربوننا، يسبوننا، يحاصروننا، بل يحبسوننا في قمقم حتى صار الخلاص حلماً، الهروب أمنية الأماني فهربت.. أجل يا بنتي.. هربت بجلدي وقد صارت حياتي جحيماً لا يطاق.. عدت إلى هنا.. وأنا لا أملك غير جسدي، عدت أبيعه كما كنت أفعل من قبل.. إلى أن جاء يوم عافني فيه الرجال ولم يعد لي من ملاذ سوى التسول ولا مكان سوى الأرصفة.." "يالله!! أية مصيبة أبتلى بها!؟ لا.. لا.. أنا لا أعرفك.. لا أعرفك، فمن حذفك علي؟ من بلاني بك هذا الصباح؟" "الصحف يا بنتي.. انظري إلى هذه الصحيفة" "قالت وهي تفرد صفحة من جريدة عليها صورتي أنا وجانيت.. إذن جانيت هي السبب.. تريد دعاية لنفسها وأعمالها. وسمعتها تتابع "هذه صورتك واسمك الكامل.. فكيف لا أعرفك؟ أنت ابنتي التي حملت وأرضعت، ربيت وأنشأت، فهل نسيتني؟ هل نسيت أمك ميس التي كانوا يعيرونك بها؟" "أمي ماتت.. لا.. لا.. لست أمي.. لست ابنتك".. "كيف يا بنتي؟ سميرة، أنسيت كم كنت أحبك!! كم كنت أحتضنك.. أقبلك." "لا.. لا.. إن كنت تريدين مالاً.. هاك المال." قلت، وأنا أخرج رزمة نقود من حقيبتي، ألقيها في حضنها، ثم أسرع إلى مدينة البر كسيرة حسيرة مولية الأدبار..

طوال الطريق ظللت صامتة متجهمة لم تنفتح شفتاي عن كلمة.. حاولت رجاء أن تخرجني من صمتي لكنني زجرتها.. لم تكن قد عرفت بقصة أمي ولم أكن أريدها أن تعرف. كانت نظرة واحدة من عيني كافية لزجرها.. فأعود إلى تجهمي وصمتي.. لم يكن شبح أمي يفارقني لحظة واحدة.. مسكينة أمي.. لقد أزرى بها الزمان أيما إزراء.. يا إلهي!! تلك المرأة الجميلة الساحرة تتحول إلى هذه العجوز الشمطاء!! تلك التي كانت تخلب ألباب الرجال حتى خلبت لب أبي فجعلته يواجه أهله جميعاً، يتصدى للتقاليد كلها، يتحدى العادات كلها ويتزوجها تؤول

إلى هذا المآل؟ لا.. حرام على الدهر أن يفعل هكذا بالإنسان؟ حرام علي أن أعترف بما فعله بها.. صورة أمي في ذاكرتي براقة جميلة فاتنة فكيف أبدلها بهذه الصورة التعيسة البئيسة؟ لا.. لا.. حسن فعلت أنني أنكرتها وإلا لجرت علي الويلات.. لكانت ينبوعاً متدفقاً للإشاعات والأقاويل، تلك التي ستلقي بي إلى الحضيض.. ستعود سيرة أمي إلى الصحف، ستصبح على كل شفة ولسان، وتكون الفضيحة وأكون أنا مجرد سميرة بنت ميس كما كان يعيرني أخوتي وامرأة أبي.. لا.. لا.. الفرار ولا العار.. صحيح أنهما أمران أحلاهما مر، لكن الصحيح أيضاً أن الفرار وحده هو المنقذ.. في الفضيحة السقوط، والموت الزؤام أهون علي من السقوط فلماذا أسلم نفسي للموت الزؤام؟ أنت نفسك فررت من الموت، أليس كذلك يا سميراميس؟ حين انهزم جيشك وأصابك سهم ستابروباتيس أطلقت ساقيك للريح فلا تلوميني إذن.. أنا مثلك، أطلقت ساقي للريح وفي صدري جرح مثل جرحك، جرح ينزف دماً وأنا أرى أمي عجوزاً عجفاء شمطاء لا ملاذ لها سوى التسول ولا مكان لها سوى الأرصفة.. كان الشبح يطاردني وكنت أحاول الهرب منه.. لكن عبثاً.. صراع في داخلي يدور وجدل يثور "كيف تنكرين أمك؟ أنت ابنة عاقة.. مصيرك جهنم.. اللعنة عليك!! اللعنة عليك!!" "لا.. حرام عليك.. أنا أدافع عن نفسي.. عن مجدي وسلطاني.. سمعتي وعزتي؟ ماذا لو عرف أعدائي بهذه القصة؟ ألا ينهار هذا الصرح الشامخ الذي بنيت؟ ألا أسقط من عليائي تفاحة مهترئة؟ ثم إنني أعطيتها مالاً.. لتدبر نفسها به.. هي التي تخلت عني ذات يوم، لماذا أتمسك بها أنا؟ هي التي أنكرتني بالأمس لماذا أعترف بها اليوم؟ لم تكلف نفسها يوماً فتطمئن علي، تطمئنني عليها.. لا..لا.. هي لا تستحق مني غير ذلك.. لا تستحق غير ذلك.. "مع ذلك ظل الشبح يطاردني إلى أن جاء شبح آخر فطرده كما يطرد الجديد القديم دائماً. ذلك الشبح كان ابنتي آية التي وجدتها تقف في وجهي ما إن دخلت المنزل آخر الليل.. كنت منهكة أجرجر قدمي جرجرة.. لقد مضيت من مدينة البحر إلى اقطاعتي مباشرة.. كان فكري مشغولاً عليها.. فأمضيت ساعات عشراً أرى الأعمال، أسأل عن التطورات، أوقع الأوراق ثم أعود بتسجيلات الهواتف تلك التي كنت أعول عليها كثيراً.. كان حلمي أن أصل إلى المنزل، آخذ حماماً ساخناً ليس بالتأكيد كحمام جانيت بمدلكيه الفحول، ثم أستلقي على سريري عارية متحررة من كل شيء، أقرأ التسجيلات، أتسقط الأخبار، إلى أن يغلبني النعاس وأنام.. لكن آية ضربت عرض الحائط بكل أحلامي..

"أنا أنتظرك على أحر من الجمر فأين كنت؟ لم تأخرت؟ ما هذا الغياب الطويل؟ "بدأت أسئلتها وهي تلاحقني إلى غرفة نومي.. "خير!! ماذا هناك؟ ولم تسألين كل هذه الأسئلة؟" "لأنني في ورطة، وأنت وحدك من يخرجني من هذه الورطة.." "ورطة؟" كررت كالببغاء، وأنا

ألقي بنفسي على طرف السرير لكأن ساقي لم تعودا قادرتين على حملي.. "ماذا تقولين؟" "الحقيقة التي لم يعد باستطاعتي إخفاؤها.. أنا حامل وهذا هو الشهر الثاني الذي يفوتني فيه الطمث"، قالت دون أن يرف لها جفن فأصابني ما يشبه الذهول، ثم رحت أتمتم "حامل.. طمث" وأنا أعود بذاكرتي إلى الوراء.. يوم فاتني الطمث أيضاً.. وعلمت أنني حامل.. فطرت إلى صاحب الرفعة وحلم جميل يدغدغني لكنه كسر الحلم في الحال.. وكانت بداية النهاية معه.. "ماما.. ماما.. هل سمعت ما قلت؟" استأنفت وهي تجلس إلى جانبي على السرير منتهزة فرصة شرودي المشوب بالذهول، لكن سرعان ما انتفضت "حامل.. أنت يا من لم تفقس عنك البيضة بعد، تحملين؟" "لم تفقس عني البيضة؟ هكذا أنا في عينك؟ نسيت إذن أنني بلغت الثامنة عشرة منذ أشهر وأن الطمث جاءني منذ الثانية عشرة؟ "صحيح.. أنا أذكر يوم جاءها الطمث أول مرة، مبكراً جاءها.. أبكر مما جاءني بكثير.. أمي جاءها الطمث مبكراً، هي حكت لي ذات مرة.. أترى الحفيدة ورثت كل ما في الجدة من جينات؟ أجل، الموروثات تنتقل أجيالاً عدة وهذه هي أمي تعود في ابنتي.. مشكلتان أواجههما في يوم واحد.. الأصل والفرع فماذا أفعل؟ إن كنت قد هربت من الأصل، فهل باستطاعتي الهرب من الفرع؟ لا.. هنا فضيحة بجلاجل ستثيرها على الصحافة، عاشقة الفضائح، والأعداء الحاقدون.. إذن لتواجهيها سميرة... هذه المشكلة لا تحل بالهرب بل بالمواجهة، وصرخت غاضبة.. "لكن كيف؟ فقط أريد أن أعرف كيف؟" "ماما.. اخفضي صوتك أوسمعك كل من في المنزل.." وكانت على حق.. ثمة أمازونيات، خدم وحشم، ومن يدري أين تمتد خيوطهم؟ ربما تصل إلى صاحب السعادة، إلى أجهزة وأشخاص آخرين. الله أعلم، "أنت تفاجئينني قلت بصوت أوطأ.. "أنت تصدمينني آية.. فكيف حدث هذا، كيف؟" "كما يحدث لكل امرأة تعاشر رجلاً.. أمي.. "لكن منذ متى تعرفين الرجال؟ كيف؟ من؟" "سأقول لك أمي.. فقط اهدئي واسمعيني.. أنا أريد حل المشكلة لا تعقيدها. "انطقي.. تكلمي.. هيا.. بسرعة "قلت ثم تحولت إلى آذان صاغية أسمع إلى قصة البنت التي لم أكن أعيرها أدنى اهتمام. "قصتي بدأت مذ كنت في الرابعة عشرة، وكان ابن الجيران.. كميل.. أنت تعرفينه.. أحبني وأحببته ثم صرنا نلتقي، نتسكع في الشوارع نذهب إلى الحدائق، ثم ننتهز أية فرصة.. في بيتنا.. في بيتهم لنلتقي، نتبادل القبل، العناق، وذات مرة عرض أمامي فيلم فيديو، حفلة جنس جماعية... ولم نجد أنفسنا إلا ونحن نمارس ما يمارسونه." "والحمل؟ ألم تخافي منه؟ ألم تفكري به؟" سألتها وأنا أستعيد في ذاكرتي تلك الليلة الحمراء التي قضيتها مع صاحب الرفعة في بلاد الواق الواق نشرب ونسكر حتى أضعنا أنفسنا ونسينا كل شيء.. "بلى.. بالطبع.. فكرت به لكن الأمر محلول.

الصيدليات ملأى بموانع الحمل كما تعلمين وكنا نتخذ احتياطاتنا".. "كيف إذن وقع هذا الغلط؟ ألم ينبهك ذلك اللعين، ابن الجيران؟" "لكنه ليس ابن الجيران".. "ماذا تعنين؟" قلت وقد فوجئت من جديد" "هل أقمت علاقة مع غيره؟" "أوه!! بالطبع!! أم تريدينني أن أظل عليه وحده؟" وشردت إلى أمي، جدتها، التي كانت هي الأخرى قد اختارت مهنة تبدل فيها الرجال كما تبدل أنفاس الهواء.. أهي الجينات مرة أخرى يا ترى؟ مورثات لعينة تعمل في المرأة حفزاً وتحريضاً لتلقي بنفسها على الطريق، تصطاد الرجال وتمارس الجنس علها تشبع شبقاً في داخلها لا يشبع؟ إن كان الأمر كذلك، كيف ألومها يا ترى وهي مسيرة لا مخيرة؟ لا.. لا.. المورثات هي التي تستحق اللوم.. لكن هل الكائن مورثات وحسب؟ فجأة توقفت عن تساؤلي وشرودي كي أسأل "من هو الفاعل إذن؟ ربما لا تعرفينه؟" "بلى أعرفه.. نبيه.. ابن شهبندر الصناعيين.. أنت تعرفين شهبندر الصناعيين؟" "أجل.. أعرفه.. لكن أين التقيت به؟" "في الديسكو.. كنا نذهب كل يوم إلى الديسكو.. زميلاتي كلهن يذهبن إلى الديسكو.. قبل الظهر، بعد الظهر، مساء، وكنا هناك نشرب، نرقص ونتعرف إلى الشبان.. سبعة شبان عرفتهم خلال تلك السنوات الأربع.. الشاب أتعرف إليه، أمضي معه خمسة.. سبعة أشهر ثم أمل منه.. فأتعرف إلى آخر.. وهكذا تعرفت إلى نبيه.. شاب وسيم ماما.. لطيف.. سميع.. مطيع.. هو كالخاتم في إصبعي.. وهو يريد أن يتزوجني.. أو بالأحرى.. أنا أريد أن أتزوجه".. "إي.. وماذا يعني هذا؟" "يعني أنني خططت ودبرت.. أحبل فأضعه أمام الأمر الواقع.. أليست فكرة عبقرية ماما؟" "فكرة غبية.. نسيت فيها أنك مازلت في الصف الحادي عشر.. لم تكملي دراستك بعد".. "أكمل دراستي؟ ولماذا؟ لا.. لا.. أنا لا أحب الدراسة.. سنة رسبت في الكفاءة، سنة في الصف العاشر.." "طبعاً.. ترسبين"، قاطعتها محتدة، "بل كيف تنجحين وأنت مشغولة بالديسكو واللهو والشبان؟ لكن لا.. بعيد عليك أن أسمح لك بالزواج الآن.. يجب أن تأخذي شهادة وشهادة عالية أيضاً فتكوني مثلي.. مثل أمك" "لا.. ماما.. أنا لا أريد أن أكون مثلك.." "مثل من إذن؟" "مثل نفسي.. بل أريد أن أكون أنا نفسي لا غير.. أعيش على هواي، أعمل ما في رأسي، لا أبالي بأحد، لا أهتم بشيء.. نفسي وحسب.. سعادتي وحسب". الفتاة على حق، وجدتني أشرد محدثة نفسي من جديد، ما تقوله هو ما كنت أقوله "نفسي وحسب، سعادتي وحسب" فقط طريقانا مختلفان.. لكن ربما اختلاف الطرق لاختلاف الظروف.. هي مثلي.. بالتأكيد.. إذ رغم كل ما كنت ألقاه من ضغوط من أبي وملاحقة من أخوتي، لم أنجح في الكفاءة إلا بالكاد ولم أنل الثانوية إلا في السنة الثالثة.. هي تعيش على هواها لا ضغوط ولا ملاحقة.. لا أب، لا أخوة.. وأنا نفسي غير موجودة في حياتها، بل أعترف لك يا سميتي، كنت

كثيراً ما أنسى أن لي ابنة بحاجة إلى رعايتي، مراقبة. أظل يومين أو ثلاثة لا أراها ثم أسبوعين أو ثلاثة لأجلس معها مرة أو أسألها شيئاً، إذن كيف تنجح في الكفاءة؟ وإن نجحت في هذه كيف تنجح في الثانوية؟ لا.. الفتاة على حق، ظروفها مختلفة.. إذن لابد أن يكون طريقها مختلفاً.. فمن يكفل أن تحظى بصاحب رفعة يوفر لها شهادة جامعية دون تعب أو نصب؟ من يكفل لها أن تلتقي بصاحب نبالة يؤمن لها شهادة دكتوراه؟ لا.. لا.. الظروف مختلفة.. حسبها أن حظها يفلق الصخر.. فها هو مؤنسها يعترف بفعلته ويرضى بالزواج بها.. مؤنسي أبى ذلك.. مركزه لم يسمح بمثل تلك الشهامة والمروءة.. فنصب لي خيمة اسمها درويش خبأت فيها فعلته وأخفيتها عن الأنظار.. الفتاة حسنة الحظ وينبغي أن توافقي أو انطبق عليك قول أبي العلاء:

لا تنــــه عـــن عمـــل وتـــأتي مثلـــه   عـــار عليـــك إذا فعلـــت عظـــيم

رغم ذلك كابرت. "لا.. لا زواج الآن أبداً.. يجب أن تكملي دراستك" قلت وأنا أشعر أن موافقتي على خطتها العبقرية تلك يعني استسلامي، أنا التي لم تكن تستسلم قط.. كنت أكابر.. في كل أمر.. صغيراً أم كبيراً كنت أكابر. المكابرة سمتي، كما باتوا يقولون في الاقطاعة، ومكابرة يجب أن أظل، لكنها سرعان ما حطمت مكابرتي. "إذن سأذهب معه دون موافقتك.. سأتزوج في المحكمة الشرعية دون إذنك." وشعرت بقلبي يهوي إلى ركبتي.. وأنا أتصور الفضائح تنطلق والإشاعات كغبار ذري.. أجل.. سميراميس بالحرف أقول لك شعرت بقلبي يترك مكانه في صدري ويسقط أسفل.. أسفل.. كأنما يسقط من شاهق إلى واد سحيق "لا.. لا.. "أمسكت بها من كتفيها صائحة "أوافق.. بلا فضائح.. أوافق".

بعدئذ جرى كل شيء وفق خط مرسوم قطاراً يسير على سكة حديد.. الأب فائق الغنى لديه مصانع وتجارة، مشاريع ومعامل، والابن الوحيد مدلل، لا يرد له طلب أبداً.. قال لهم أريد ابنة أميرة الإقطاع فهللوا وكبروا. أي حسب ونسب؟ ابنة أميرة إقطاع؟ شيء يرفع الرأس، وأسرعوا جميعاً يلبسون آية الخاتم، يشبكونها بشباك الذهب والماس ثم يقيمون لها عرساً في أرقى الفنادق حيث القاعات المخصصة لأعراس الطبقة المخملية، وحيث الهدايا لا تقل عن خمائل الماس والجوهر، الزمرد والياقوت..

ودعت العروس وأنا أهمس في أذنها "مبارك عليك.. كنت على حق.. خطتك عبقرية.. وقد أحسنت التنفيذ." فضحكت رادة الوشوشة "من شابهت أمها ما ظلمت" وضحكنا معاً.. لكن طوال العرس أعترف لك سميراميس، كنت أفكر بتلك الفتاة الصغيرة التي لم تبلغ سن الرشد إلا بالكاد. والتي أرادت ونفذت ما أرادت كنت أتساءل أهي أيضاً المورثات التي جعلتني قبلها

أخطط دائماً وأنفذ وحيدة لا شريكة لي؟ كنت أنظر إليها بإغباط.. بل.. أعترف لك.. بحسد أحياناً، فذلك العرس لم أشهد أنا نفسي مثيلاً له وذلك الزوج لم أحظ بمثيل له في عمري.. كل ما حظيت به من أزواج كان درويش المسكين البائس الذي لم ينله من البيضة إلا قشرتها.. أترين؟ حظها أحسن من حظي إذن.. عريسها وسيم في مثل عمرها أو يزيد قليلاً، ليس كأولئك الكهول الذين ابتليت بهم في حياتي، سيشبعها جنساً بل ربما سيشبعها حباً فلماذا لا أغبطها.. بل وأحسدها أيضاً؟ من لم يذق طعم الحرمان لا يدرِ أبداً معنى الوفرة، نعمة الحصول على ما يشاء.. وعاد شريط حياتي يكر وأنا أقود السيارة بمفردي خارجة من الفندق.. كان العروسان قد حجزا جناحاً فيه، وكانا قد صعدا إلى جناحهما وكان منظره وهو يحملها بين يديه ليدخلا معاً المصعد ويغيبا عن أنظارنا جميعاً قد أثار في موجاً دافقاً من الأحاسيس لم أتحمل معه المزيد من البقاء، فغادرت مسرعة بلا سائق ولا أمازونيات.. في شريط حياتي لم أعرف الشبان إلا في السر.. بل حياتي كلها كانت في السر.. وكان حظي دائماً يحمل إلي الكبار المترهلين.. أين هم من صهري هذا، ابن العشرين؟ في شريط حياتي، كانت لقاءاتي بالرجل تتم اختلاساً بعيداً عن الأنظار.. لم يقم لي أحد عرساً ولم يخرج معي إلى مطعم مشهور أو فندق فاخر، بل غالباً ما كنا نلتقي في عش خفي أو ركن مزوي، نسرق متعتنا سرقة.. أين منها ما تفعله العروس والعريس الآن؟ هل خلع لها ثيابها الآن؟ وهي.. هل خلعت له ثيابه؟ ذهبا إلى الحمام أم إلى السرير؟.. هما في عناق حميم ولاشك.. لا يخشيان فيه فض بكارة ولا انطلاق شرارة.. البكارة فضت منذ زمن طويل، هو يعلم ذلك، بل يعلم أنها حامل، لكنه راض.. يكاد عقله يطير بها، فلماذا لا يجرعان الآن أكؤس المتع واللذائذ؟

وأحسست بنفسي مثارة إلى درجة الهيجان.. في أحشائي فحيح وفي أعماقي لهب يستعر.. أنا بحاجة إلى رجل.. لكن أين الرجل؟ لو كنت في مدينة البحر لذهبت إلى جانيت.. مدلكوها الأشاوس سيطفئون كل لهيب.. لكنني في مدينة البر.. أأتصل بصاحب السعادة؟ لكن الساعة الثالثة والنصف.. لابد أنه نائم في فراشه الزوجي.. سأوقظه.. حالة طارئة تستدعي مجيئه.. أنا حقاً في حالة طوارئ، وعلى سيارة الإطفاء أن تأتي.. لكن ماذا لو ردت زوجته؟ لا.. لا.. سألتقط أي رجل من الشارع.. لكن أين الرجال في وقت كهذا؟ الشارع خالٍ إلا من قطة ضالة أو كلب شارد.. لا.. لابد من رجل.. المنزل خاوٍ ليس فيه إلا الأمازونيات والحريم.. "إذن لأذهب إلى الاقطاعة.. أول رجل ألقاه.. أي رجل سيفي بالغرض" قلت في سري وأنا أتذكر حين كنت أذهب إلى صاحب النبالة، كيف كان يرمقني حارس المبنى. أمام مقر الاقطاعة أوقفت السيارة ثم صعدت الدرج.. يا إلهي!! ها هوذا أمامي.. حارس المبنى. رجل عتل في ريعان شبابه..

إنه الحارس الليلي الذي عينته قبل أيام.. "تعال ورائي"، قلت مشيرة له بيدي، دون أن أنظر إليه.. كنت كتلة من الشهوة المتقدة تسير على قدمين، وكانت في رأسي شحنة هائلة توشك على الانفجار.. داخل جمجمتي رغبة واحدة، ذات شحنة سالبة من كهرباء بحاجة إلى شحنة موجبة كي يشتعل الجسد كله.. تعالي أيتها الشحنة الموجبة.. هيا.. ولحقت بي الشحنة الموجبة إلى المكتب.. المقر كله خال.. لا عاملون ولا عاملات.. الساعة توشك على الرابعة صباحاً إذن لتسرح النعامة وتمرح.. "نعم، صاحبة العفة والصون "قال الحارس وهو يرتجف، ظناً منه أنني أقوم بكبسة من كبساتي ولسوف أعاقبه إذ وجدته في المحرس، جالساً غير واقف، نائماً أو شبه نائم. "اخلع ثيابك" قلت له والشحنة داخلي تمور وتفور، الأفاعي في أحشائي تفح وتفح.. "لماذا يا سيدتي؟ أنا لم أخطئ يا صاحبة الصون.. لم أكن نائماً.. أرجوك أتوسل إليك" "ولا كلمة.. قلت لك اخلع ثيابك.. هيا.. أسرع" وبدأ كل ما فيه يصطك ويرتجف وهو يخلع ثيابه ناظراً يمينه وشماله، كأنما يبحث عن السوط الذي سأجلده به.. "اخلع هذه الخرقة اللعينة أيضاً." قلت وقد خلع كل شيء إلا سرواله الداخلي، بادئة أنا نفسي بخلع ثيابي.. وبيدين ترتجفان كأنما أصابه "أبو هازوز"، خلع تلك الخرقة ليبدو عنقوده مثلث الأضلاع وهو يرفع رأسه شيئاً فشيئاً، "استلق على هذه الأريكة" قلت وأنا أشير إلى الأريكة العريضة التي تتسع لثلاثة.. مكان واسع إلى حد ما.. مريح إلى حد ما سيما، وأنا أنوي أن أكون الفارسة التي تعتلي صهوة الجواد. ثم لا تتصورين، يا سميتي، كم سررت واغتبطت.. كان اغتصاباً حقيقياً.. وكنت أنا المغتصبة.. الآية انعكست يا سميتي.. بدلاً من أن يغتصب الرجل المرأة اغتصبت المرأة الرجل.. أجل سميراميس.. اغتصبته.. هو الجواد الجموح الذي لم يسلس قياده لي بسهولة.. كان خائفاً مرتجفاً راعشاً.. وكان كل ما فيه انكماشاً وانكفاء.. لكن وكأنني خبيرة متمرسة في ترويض الخيول، روضته.. ركبته.. طاردت عليه إلى أن تعب فأسلس لي قياده وصار طوع بناني يفعل كل ما أريد.. فكيف لا أسر وأغتبط؟ ترى ألم تكوني أنت تسرين وتغتبطين حين تنتقين جندياً من جنودك يعجبك شكله لتقضي معه ليلتك وتقضي وطرك؟ أسطورتك تقول إن ذلك كان ديدنك. تنتقين أشد الرجال فحولة وأكثرهم وسامة لتتخذيه عشيقاً لك ليلة أو بضع ليالٍ، إلى أن استقر أمرك وأنت في حملة الهند على رجل كاد يأخذ بلبك.. لم تعودي معه شهريار يبدل نساءه كل ليلة ثم يقتلهن بل صرت شهريار وقد ظهرت له شهرزاد تحكي حكاية من حكاياتها وتلهيه عن قتلها كل ليلة.. لكنه قتل في المعارك الطاحنة ويا للأسف، مما زادك التياعاً وجعل هزيمتك في الهند قاصمة للظهر..

"انهض" قلت وقد انتهيت منه، فيما كانت طلائع الفجر ترتسم على الأفق.. نهض، لبس ملابسه، فيما كنت أرتدي ملابسي أيضاً وأعود أميرة الإقطاع صاحبة العفة والصون.. "ماذا فعلنا الآن؟" احتار الشاب وكأنما السؤال أصعب بكثير من أن يستوعبه دماغه. "لا.. لا.." بدأ يتلعثم فأكملت عنه. "لا شيء البتة" وأنا أشير بيدي إشارة مسح قاطع.. "أنا لم أجئ هنا.. أنت لم تر شيئاً.. لم تفعل شيئاً.. مفهوم؟" "مفهوم يا صاحبة الصون" "كلمة واحدة وأقطع" قلت وأنا أمر بحد كفي، كأنه حد سيف، على عنقه، فارتجف من جديد "حاضر يا صاحبة العفة.. سمعاً وطاعة يا صاحبة الصون" وأخرجت من حقيبتي رزمة نقود "خذ هذه.. ولا تنطق بحرف واحد أيضاً.. حياتك مقابل سرك." "أنا أخرس. عمري لم أنطق بكلمة واحدة يا صاحبة الصون.. محرم علي الكلام يا صاحبة العفة." "أنت متزوج؟ "وكأنما فاجأه سؤالي، تلجلج محتاراً من جديد ثم غمغم "خا.. خاطب يا صاحبة الصون" "حسن.. بهذا المال يمكنك أن تتزوج الآن.. اذهب أرك قريباً." ثم أسرعت إلى المنزل لأنام ذلك الصباح كما لم أنم من قبل.

لكن الأيام التالية حملت إلي ما حرمني النوم.. كانت الاقطاعة تعج بالقلق والاضطراب.. بل بدت في حالة تامة من الفوضى، قطيع خيول برية لا زمام لها ولا راع.. اللعنة!! غياب بضعة أيام يفعل هذا.. أين الضبط والربط؟ أين القبضة الحديدية إذن؟ لكنني تذكرت مركزيتي، فرديتي المطلقة، فقلت: كيف لا تكون الاقطاعة أرضاً مشاعاً ومالاً سائباً وليس هناك سواي.. أنا وحدي الراعي والآخرون القطيع؟ أيرعى القطيع نفسه؟ أيخرج من القطيع راع؟ وأقسمت وأنا أرغي وأزبد، أن أريهم نجوم الظهر فلا تفلت الاقطاعة أبداً حتى لو غبت عنها أشهراً.. عدت إلى الشد.. عقوبات صارمة، إدارة حازمة، مراقبة دائمة حتى وقفت الاقطاعة كالألف.. لكن دون أن يفارقني القلق أو الأرق.. كانت الصحف، محلية وخارجية، قد تحدثت طويلاً عن عرس آية: عرس من أعراس ألف ليلة وليلة.. قال عنوان إحداها، فيما قال عنوان آخر "ولا عرس زبيدة وهارون الرشيد." وعلى هذا المنوال كان ثالث ورابع وخامس.. فيما كانت الصور الملونة تبهر الأنظار: هاهما العروسان يهبطان من سقف الصالة على كرسي كالعرش.. هاهو قالب الكاتو يرتفع في القاعة قامتين أو أكثر.. السيف المذهب يمسك به العروسان وهما يقفان معاً على منصة عالية ليقطعا قالب الكاتو.. هذا أمير الاقطاع الفلاني يقدم طقماً كاملاً من الماس هدية للعروس.. ذلك صاحب الرفعة العلاني، صاحب النبالة، صاحب السعادة، شهبندر الصناع، شهبندر التجار.. والكل يقدم أغلى الهدايا حتى لم تعد أم العروس، أميرة الاقطاع العظيمة، تعرف أين تضع العلب المخملية وكلها تعج باللؤلؤ والجواهر.

كلاماً جميلاً كان كلام الصحف والمجلات، لا غبار عليه ولا تأرق له عين.. لكن ما أرق عيني هو الكلام الذي صرت أسمعه في التسجيلات.. كنت كعادتي، آتي بها ليلاً أسهر عليها، وكانت عادة تستغرق ساعتين أو ثلاثاً.. لكن بعد العرس اختلف الأمر.. صارت الأقاويل كثيرة والشائعات أكثر وما يتناولني منها شخصياً أكثر فأكثر.. هاهوذا منصور يكلم صديقاً لم ينطق باسمه: أسمعت بعرس ابنة السلطانة؟" "أية سلطانة؟" جاءه الجواب، "سلطانتنا نحن يا عبقري.. صاحبة العفة والصون.. يقولون إنه كلف الملايين." "على حسابها؟" "طبعاً يا عبقري.. يقولون إنها لم ترض إلا أن يكون على حسابها.. وأين؟ في أغلى فنادق المدينة على الإطلاق.. الملايين دفعت من أجل ماذا؟ من أجل ليلة واحدة، بل من أجل سويعات قليلة.. ومن أين لها الملايين؟ هوذا السؤال.. ها هم أهلها في الشارع المجاور لشارعنا.. أبوها معه أبو هازوز، كلهم على البركة.. فيما هي تلعب بالملايين.. آه لو يطبقون عليها قانون المحاسبة: من أين لك هذا؟ وأكون أنا من يحقق معها.." في الحال توقفت عن المتابعة وشيء ما يرتعش في داخلي.. "حقاً؟ ماذا لو فتشوا ونقبوا، تحرروا واستقصوا، ألا يطالني القانون؟" "كيف يطالني ولا أدلة ضدي؟" قال صوت آخر في داخلي.. ثم تابع مؤكداً.. "لا.. لا.. لا تخافي.. أعمالك كلها مغطاة قانونياً جيداً، أموالك كلها جاءت بطريقة لا يمكن كشفها على الاطلاق، فلم الخوف؟

وتابعت أستمع.. ها هي ذي عبير تتحدث مع صاحبها في مكان آخر من الاقطاعة: وكيف أستطيع المجيء؟ الطرطبة.. (ونقزت فوراً.. إنها تدعوني الطرطبة، الصفة نفسها التي استخدمها المتنبي في هجاء أم ضبة، لكن ما معنى الطرطبة؟ حقيقة أنا لا أدري لكنني أتابع وقد فار في صدري حنق شديد) الحقيرة السافلة تشدد قبضتها الفولاذية علينا حتى لنكاد نختنق.. لا إذن، لا إجازة، لا خروج، والكل تحول إلى كلاب حراسة تنبح ما أن تأتي بحركة.. لا.. لا.. هذه الطاغية تزداد طغياناً.. حياتنا في الاقطاعة صارت جحيماً لا أمل بالخروج منه.. هي تقفله علينا بأقفال من فولاذ.. فيقول صاحبها: "اللعنة!! لماذا لا تدبرون لها مقلباً؟ تمسكون عليها ممسكاً يودي بها في داهية؟" "نحن نحاول"، تقول عبير، "لكنها لعينة سرانية لا تسمح لأحد أن يدخل مكتبها أو يعرف شيئاً عنها.. "لا لا.. يجب أن تعرفوا ما تفعل، ما تخبّص.. لابد أن هناك نقاط ضعف فيها، اعرفوها ثم اضربوها كما فعلوا بأخيل حين عرفوا أن نقطة ضعفه هي عقبه".. "أنت عبقري، لو ترسم لي خطة".. "حسن.. نلتقي ظهراً.. نتغدى ونرسم خطة".. "فقط؟ "تسأله عبير فيضحك: "لا.. لا.. طبعاً وأشياء أخر"..

اللعينة!! تريد أن ترسم خطة للإيقاع بي.. سأريك أيتها الكلبة ابنة الكلبة.. ثم أتابع قراءة التسجيلات، هه.. ها هو ذا سمير يكلم حساناً.. من حسان هذا؟ أنا لا أدري لكنه يبدو ذا

شأن ما فهو يخاطبه باحترام شديد "يا سيدي.. هي تتصرف بالاقطاعة وكأنها ملكية خاصة بها ورثتها أباً عن جد.. لا رأي لأحد، لا مشورة لأحد، هي المالكة مطلقة السلطان والكل لديها عبيد أرقاء.. بل عائدات الاقطاعة كلها باتت تأخذها لنفسها، الصفقات، المشاريع، الاحتفالات، المهرجانات، المؤتمرات، كلها "تجيّرها" لنفسها.. هذه لصة يا سيدي.. لصة محترفة أقول لك، فلماذا تدعون أمثالها من اللصوص يسرحون ويمرحون؟".

"اللعنة!! أنا لصة!! تهاجمني يا سمير.. إذن لأمسحن بك الأرض".. رحت أقول وأنا أذرع مخدعي مسهدة مؤرقة يفور دمي فوران الماء على النار.. ثم لم يبرد دمي حتى طلع الصباح فأسرعت إلى مكتبي أصدر أمراً بنقل كل من سمعته يهاجمني إلى منطقة نائية لا تبعد كثيراً عن جزر الواق الواق.

لكن فقط لينعكس ذلك على رأسي، أزمة انفجرت كقنبلة موقوتة. لقد رفض المنقولون الانصياع للأمر.. "هذا ظلم.. هذا تعسف.. ولن نقبل بالظلم والتعسف.." وصلتني أقوالهم.. فاستهزأت بهم.. "سينتقلون رغماً عن أنوفهم، "رددت مهددة متوعدة، لكنهم لم يحركوا ساكناً.. قعدوا في بيوتهم فأصدرت قراراً بتسريحهم جميعاً لتنصب علي في الحال نيران كأنها من فوهة الجحيم: صحف، مجلات، إنترنت، بل حتى بعض المحطات الفضائية راحت تتناولني بتسميتي الدكتاتورة الصغيرة.. وجن جنوني.. أنا دكتاتورة صغيرة؟ سأضرب.. سأطرح.. لكن وقد عدت إلى نفسي، وجدت أنني لا أستطيع فعل شيء، بل صرت أتلقى وحسب.

لقد رفع علي المسرحون دعاوى أمام القضاء بتهمة التسريح التعسفي. جئت بمحامي الاقطاعة "ما هذا؟ دعاوى ترفع علي؟ أنا أمثل أمام القضاء؟" لكن المحامي أكد أن ذلك من حقهم يحفظه لهم القانون حيث لا أحد فوق القانون. "ما الذي تقوله؟ "صرخت به وأنا أتذكر كلام أصحاب الرفعة والنبالة والسعادة. أتذكر كيف كنت دائماً فوق القانون، أأصير الآن تحت القانون؟ المحامي يؤكد من جديد أن العامل إذا لحقه حيف يمكنه أن يلجأ للقضاء وأن القضاء سلطة مستقلة لا يملك أحد عليها سلطاناً.. "يعني يمكن أن يحكموني؟" "طبعاً يا صاحبة الصون. إذا أخذ العدل مجراه ستحكمين، لأن التسريح تعسفي فعلاً.. لا مبرر له ولا مسوغ." "كيف لا مبرر ولا مسوغ؟" انفجرت في وجهه وأنا أتذكر ما سمعته على ألسنتهم في التسجيلات.. لكن سرعان ما كبحت نفسي: إن هي إلا تسجيلات سرية لا أستطيع البوح بشيء عنها.. بل إن عرف الناس بها كانت فضيحة كبيرة أخرى. مع ذلك كان علي أن أجد حلاً.. يجب أن أوقف هذه المهزلة. الصحف تشن علي حملة شديدة.. في كل يوم مقالان أو ثلاثة عن الدكتاتورة الصغيرة. لقب راح يغيظني. لو قالوا دكتاتورة كبيرة ما كنت لأغتاظ، لكن صغيرة؟ آه منهم..

ما أغاظني أيضاً أنها كلها كانت صحفاً خارجية.. لا أملك عليها سلطاناً.. لو كانت محلية لفعلت برؤساء تحريرها ما فعلته برئيس التحرير ذاك، وأنا جديدة في إمارة الإقطاع.. لكنها خارجية تمولها أحزاب، بل ربما دول فكيف أوقف حملتها؟ المحامي لا يستطيع فعل شيء فلألجأ إلى سواه. "صاحب السعادة.. أرجوك.. أنا في ورطة أنقذني.." اتصلت به ملهوفة وأنفاسي شبه مقطوعة، لكنه أجابني بكل برودة أعصاب "تعالي إلي في المكتب". كانت لهجة جديدة لم أعتدها منه، فاستغربت. لكن سرعان ما حزمت أمري.. "لأذهب إليه.. لعل لديه أسباباً تدعو لذهابي إلى مكتبه.." ذلك أنني مذ صرت أميرة إقطاع، كان هو الذي يجيء إلي عادة، وإذا أردنا أن نلتقي لقاء حميمياً كانت هناك شقق كثيرة يمكننا ارتياد أي منها.. لكن تلك اللقاءات تباعدت، كما أن حميميتها فترت، أتراه الشغل الكثير؟ الظروف الجديدة؟ أم تراه قرار التملص والانسحاب، ذاك الذي اتخذته قبل زمن؟ رحت أتساءل وأنا أركب سيارتي وأمضي إليه.. ليأتيني جواب واحد: لعلها كلها قد اجتمعت لتجعلنا نلتقي فقط من أجل "البيزنس"، والبيزنس يحيل العواطف إلى رماد. اقتسام الحصص يجعلك أكثر أنانية، لا تفكرين إلا في نفسك.. ولقد جعلني اقتسام الحصص كذلك. لم تعد الحصص فيفتي فيفتي، بل صرت حريصة أن أفوت عليه الكثير من الحصص.. أن أخفي بعض الصفقات، أتحايل على بعض المشاريع، لكي تكون لي أنا حصة الأسد وله هو حصة الثعلب أو لا حصة على الإطلاق.

"إيناس، الكلاب حولي تكاثرت كثيراً، كلها تريد عضي.. وأنت واقف تتفرج، لماذا؟ قل لي" بادرته وقد تبادلنا قبلة سريعة لم تكن تعني شيئاً. "ماذا بيدي وأنت تنفصلين عني، تبتعدين، تريدين أن تظهري وكأنما لا علاقة لك بي." "معقول؟ أنا أريد هكذا؟ أنا أفعل هذا؟ لا.. لا.. أنا صنع يدك.. أعترف لكل الناس بفضلك.. أبدي امتناني لأياديك البيضاء علي"، قلت وأنا أشعر أنني أدخل المدخل الصحيح.. بعد أن جعلته يشعر فعلاً أنني أنسحب بعيداً عنه، أنني أريد أن أكون مستقلة لا سلطان لأحد علي.. "لو كان هذا صحيحاً لما تصرفت كما تصرفت" "وما الذي تصرفت؟" "أوه الكثير الكثير.. وإلا ما معنى نقلك للناس وتسريحك لهم هكذا خبط عشواء وبلا أي سبب؟" "لكن هناك أسبابي الخاصة". "في العمل لا توجد أسباب خاصة.. هناك معايير ونواظم يحاسب العاملون طبقاً لها، فهل كانت محاسبتهم كذلك؟" "لا.. إي.. لا.. "بدأت مترددة متلعثمة، فقال بشيء من حدة "أنا أقول لك لا، بل الكل يقولون لا.. أنا أعلم أسبابك الخاصة تلك لكن الناس لا يعرفونها، لهذا لا يرون مبرراً لتصرفاتك" "أنت تعرف أسبابي الخاصة؟" "طبعاً، أم تظنيننا غارقين في سبات عميق؟ مراقبتك للهواتف، تسجيلاتك كلها نعرف بها.. نحن أيضاً نريد أن نعرف ما يقوله الناس، العاملون لديك.. والنسخة التي

تصل إليك، تصلنا واحدة مثلها." وشعرت بصدمة.. سيارة تسير بسرعة مائة ميل تصطدم بحائط.. اللعنة!! ذلك المهندس أمرته أن يظل الأمر سراً بيننا، فكيف يفشيه؟ لأذبحنه من الوريد إلى الوريد!! لكن سرعان ما كبحت زمام خيالي.. لا.. أنت الآن بحاجة إلى صاحب السعادة فهل تعاقبين رجاله أنفسهم؟ "هذا من حقكم"، قلت وأنا أتماسك بأسرع ما أستطيع "أجل أنا أعرف أن ذلك من حقكم تريدون أن تعرفوا.. تبحثوا عن الخفايا.. الأسرار"... "إذن لم بدأت تخبصين؟" قاطعني متعجلاً فتعجبت "أنا أخبّص؟" "ماذا تسمي إذن نقلك لرجالي أنفسهم.. لعاملين آخرين تقف وراءهم أحزاب قوية وحلفاء لنا".. وفطنت.. إذن ذلك ما جعل مثل تلك الضجة تثور.. مقالات الصحف والمجلات تظهر.. "رجالك؟ رجال الأحزاب؟ أوه! الحقيقة أنا أخطأت. لم أكن أعلم أنهم رجالك، لم آخذ ذلك في الحسبان" "إذن.. على نفسها جنت براقش".. أنت تقول هذا إيناس؟" "وماذا تريدينني أن أقول؟ ترتكبين ما ترتكبين".. "أنا أرتكب؟ "قاطعته مسرعة "ما الذي فعلته إذن عند جانيت؟" "جانيت؟" "سميرة لا تتشاطري علي. منذ البداية، اتفقنا أن الأذكياء يلعبون على المكشوف، فلا تنكري، تخونينني وتغدرين بي وتريدينني أن أقف إلى جانبك، أحمل السيف وأدافع عنك؟" "أخونك.." بدأت مدعية الاستغراب، لكنه لم يدعني أكمل. "قلت لك لا تتشاطري وتتنكري. بل لا تورطي نفسك أكثر.. أنت في موحلة من طين، كل خطوة تخطينها ستجعلك تغوصين في الطين أكثر فلا تتظاهري بالاستغراب ولا تكذبي.. سأسمعك كلامك نفسه" "كلامي مع جانيت؟" رد "لا، مع حارسك الليلي.." وفتح درجاً في طاولته، أخرج منه شريط تسجيل وضعه في مسجلة إلى جانبه ليأتي الصوت مشوشاً في البداية ثم صوتي واضحاً تماماً؟ "اخلع ثيابك." وارتجفت.. كل ما فيّ بدأ يرتجف.. اللعنة يسجلون كل شيء.. هم عيون وآذان حتى في مكتبي، فكيف غاب عني ذلك؟ "لماذا يا سيدتي؟ أنا لم أخطئ يا صاحبة العفة والصون، أنا لم أكن نائماً.. أرجوك أتوسل إليك.." جاء صوت الحارس ليقاطعه صوتي زاجراً "ولا كلمة. قلت لك.. اخلع ثيابك.. هيا.. أسرع "وأسرعت إلى المسجلة أسكتها "أنا أعترف.. قد أخطأت ومنك السماح.." "وتسمين ما فعلت خطيئة؟ هذه خيانة يا صاحبة العفة والصون.. خيانة عظمى.. وأنت تعلمين ما عقوبة الخيانة العظمى؟!" "لا .. أرجوك. سامحني." "تخونينني وأسامحك؟ ومع من؟ مع حارس ليلي؟ كم أنت خسيسة!! كم أنت دنيئة النفس!!" راح يوبخني دون أن أستطيع رفع رأسي.. وما عساي أقول؟ هو على حق.. الاتفاق بيننا واضح، لا يشاركه بي أحد.. أكون مخلصة له وحده.. فكيف نسيت ذلك الاتفاق؟ "مع ذلك لا تستسلمي.." قلت في سري." دافعي عن نفسك سميرة.. استدري عطفه.. استعيدي رضاه. "هي غلطة لم ولن تتكرر.. أرجوك، إيناس.. سامحني.. اغفر

لي." وانكببت على يده أريد لثمها لكن سرعان ما سحبها مبتعداً. نظرت إلى وجهه فإذا هو مقطب الحاجبين مربد المحيا "لا.. لست أنا من يسامح.. أو يغفر.. أنا أعاقب.. من يخطئ بحقي يعاقب فكيف من يخون؟" "لا.. أرجوك.. يجب أن تقف معي هذه المرة. فقط هذه المرة، أرجوك، أتوسل إليك.. هم ينتقدونني.. يسبونني.." "ارفعي عليهم دعوى." "هم أنفسهم رفعوا علي دعوى." "سيكسبونها." "ماذا؟" "القانون معهم ولسوف يكسبون الدعوى." "إن تدخلت أنت خسروها." "أعلم. لكنني لن أتدخل.. الناس كلهم ينتقدونك.. أخطاؤك كثيرة بل قولي لا تعد ولا تحصى.. رشاشها وصل إلي أنا نفسي.. الناس باتوا ينحون باللائمة علي.. أسمع مسبتي بأذني وهم يقولون.. أنا أحميك.. أنت تسيرين تحت مظلتي.. لهذا أرفع مظلتي عنك الآن.." "لا.. أتوسل إليك.. أتضرع" "لا تتوسلي ولا تتضرعي.. كل اتفاق بيننا نكثت به.. طاعتي خرجت عنها، الصفقات، الأموال تأخذينها لنفسك، بل ربما وصل بك جنون العظمة إلى أن تحسبي نفسك أرفع مني، فوقي قوة ونفوذاً حسن تفضلي الآن.. أنا أرفع يدي عنك.. بل أقول لك صراحة كما رفعتك سأخفضك بل سأنزلك إلى أسفل السافلين.. ولا تناقشيني.. هذا قرار قاطع لا استئناف فيه ولا نقض.."

وخرجت من لدنه لا أرى أمامي.. عيناي ملؤهما الدموع، رأسي ضباب، جسدي رعشة وارتجاف.. اللعنة!! ضاع كل شيء.... خسرت كل شيء.. ولم أشعر وأنا أنزل آخر درجة في مدخل البناء إلا وأنا أتعثر. بماذا؟ كيف؟ لا أدري. ما أدريه، أنني وجدت نفسي على الأرض أتدحرج ككرة القدم.. "آخ!! آخ!! "رحت أصرخ وقد توقفت عن التدحرج فيما أسرع إلي مارة، سائقون.. حملوني إلى سيارتي وأنا أصرخ ألماً، ثم إلى المستشفى وأنا أشعر أنني غير قادرة على تحريك يدي اليمنى ولا كتفي.. اللعنة!! ماذا جرى لهما؟

في المستشفى أسرعوا بي إلى غرفة الإسعاف: كسر في العضد، خلع في الكتف.. "تباً لك!! الآن تسقطين لتزيدي الطين بلة؟.. في خضم المعركة واشتدادها تخرجين من الساحة؟" كنت أوبخ نفسي وهم يحملونني على نقالة إلى غرفة العمليات.. هناك قاموا بأشياء لم أشعر بها البتة. لقد ازداد الألم إلى درجة اضطروا لتخديري فتحول العالم كله إلى أجنحة وأثير.

سبعة أيام ظللت في المستشفى محملة بجبيرة جبس كبيرة ثقيلة، تمتد من مرفقي حتى عنقي، مغطية الثلث الأعلى من صدري وظهري، جاعلة إياي رهينة الخوف والضيق، زاد منهما كليهما الزوار الكثر الذين كانوا يتوافدون لزيارتي، حاملين الأزهار والهدايا. الكل يريد أن يطمئن على أميرة الإقطاع التي عثر بها الحظ فوقعت، دون أن يدروا أن عثر الحظ كان أعمق

وأبعد من ذلك. لقد زارني الجميع عدا أهلي وإيناس، الأمر الذي جعلني أقلق أكثر ويتعبني الناس أكثر فقلت لرجاء "خذوني إلى البيت.."

هناك منعت الزيارات. أجل، لماذا الزيارات يا سميراميس؟ أنا أعلم أنها كلها نفاق ورياء.. معظم من يأتون إلي كانوا يودون لو دق عنقي وتخلصوا مني.. لكنهم لا يستطيعون المجاهرة فيحملون إلي الزهور ويتفوهون بكلمات جوفاء لا هم صادقون فيها ولا أنا مصدقة كلمة منها.. إذن لتوقف الزيارات.. "صاحبة العفة والصون مرهقة.. هي لا تستطيع استقبال أحد". صارت رجاء تقول للطارقين" أميرة الإقطاع نائمة.. الدواء يخدرها فلا تكاد تفيق حتى تنام." وهكذا توقف سيل النفاق عن إزعاجي، لكن لأجد نفسي رهن فراغ شديد.. "ماذا تراني أفعل؟ أقرأ؟ طوال عمري لم أحب القراءة، لم أقبل يوماً على الكتاب إلا مكرهة.. أتفرج على التلفزيون؟ حسن.. أتفرج ساعة، ساعتين، ثلاثاً ثم ماذا بعد؟ لا.. لا.. الملل أشد فتكاً من التعب، والفراغ كالسيف إن لم تقطعه قطعك.".. ولمعت في ذهني فكرة، لماذا لا تصل تمديدات المراقبة إلي في البيت.. فأسمع ما يقول الناس مباشرة دونما تسجيل؟ أتسلى بالإنصات إلى هذا أو هذه فأملأ فراغي.

أصدرت أوامري، وخلال أربع وعشرين ساعة كنت أستمع للمكالمات الهاتفية وأنا في سريري!! الله!! ما أعظم ما توصل إليه العلم وأبدعته التكنولوجيا يا سميراميس. لقد بت أقضي ساعات الدوام كلها وأنا أتنصت.. أي شيء جميل ذاك؟ دون تعب، دون خطر، تصغين للناس وهم يبثون لواعجهم، يبوحون بمكنونات صدروهم!! إيه سميراميس!! كم من أسرار كشفت وكم من أخبار سمعت وأنا أصغي، أعرف نبرة الصوت، حرارة البوح، شفافية الهمس، وكم فوجئت!! أجل يا سميتي، بكثير من الناس فوجئت.. نساء كنت أحسبهن محصنات فإذا بهن أشد شبقاً من عاهرات، فتيات تحسبينهن عذراوات فإذا بهن خبيرات مجربات، بل ثمة نساء يغازلن نساء، رجال يغازلون رجالاً!! إذن أين القيم والمبادئ؟ ثمة قناع فقط لا يخفي وراءه إلا البشاعة والقبح.

أمي لم تكن وحدها التي ضلت سواء السبيل، أنا نفسي لم أعد الوحيدة المنحرفة عن الصراط المستقيم.. كلهن مثلي.. مثل أمي.. بل ربما أسوأ بكثير!!" وسرى ارتياح شديد في نفسي.." بلا عقدة، بلا تأنيب ضمير.. الآن يمكنك العيش على راحتك" رحت أردد لنفسي. ما أزعجني فقط أنني لم أعد أسمع في تلك المكالمات نقداً ولا ذكراً لاسمي، كأن الناس جميعاً باتوا يتحاشونني، أتراهم أشفقوا علي وقد أصابني ما أصابني؟ أتراني قطعت ألسنتهم بعد أن

نقلت من نقلت وسرحت من سرحت؟ أم تراهم عرفوا بأمر المراقبة فكفوا عن إلقاء أنفسهم في التهلكة؟ الأسئلة محيرة ولم يكن باستطاعتي أن أحسم الجواب.

"رجاء، ما القصة؟" سألتها، وقد اشتد استغرابي إلى درجة لم أستطع معها تحمل المزيد. "أنا لا أسمع شكوى علي، لا أشم رائحة تذمر مني.. هل الناس راضون قانعون؟" "وما أدراني يا صاحبة الصون؟ الناس لا يتكلمون.. كلهم يخافون مني، يتحاشون الحديث أمامي". "وهل تحسبينهم عرفوا شيئاً عن المراقبة؟" "أعتقد يا صاحبة العفة.. فالكل رأوا الفنيين يمددون الأسلاك إلى هنا." "هوذا السر إذن.. اللعنة على ذلك المهندس!! لم فعل ذلك في وضح النهار؟ لم فضح السر؟ "وشعرت بغضب شديد يفور في صدري وأنا أتذكر ارتباطه بصاحب السعادة، نقله كل شيء له، زرع اللاقطات اللاسلكية في مكتبي، "إذن ليكن ما يكون" قلت في سري ثم عزمت أمري "أعدي أمراً بنقله.. سألحقه بأصحابه.. لألقينه في جهنم." ولأول مرة أشعر بها تتردد.. لسانها يتلجلج، شفتاها ترتعشان، لكن دون أن تنبس ببنت شفة.. عادت إلى المقر، أعدت الأمر وفي اليوم التالي.. كان المهندس يتلقى الصفعة التي جعلته يخرج من الاقطاعة ياكباه!! يا تعساه!!.

لم تمض أيام حتى طالعتني إحدى الصحف الخارجية بعنوان عريض مثير: "أميرة إقطاع تتجسس على العاملين لديها، تمديدات المراقبة وحدها تكلف مئات الآلاف من الدنانير.." وانتفضت.. "اللعنة!! الآن فضيحة بجلاجل.. تباً لك أيها المهندس القذر!! لماذا فعلت ذلك؟ ما الذي سيحدث بعد الآن؟ أية جلبة ستثور؟ من سيحميني؟".

كان صاحب السعادة قد قطع كل ما بيني وبينه.. لم يعدني في مرضي، لم يتصل بي، لكأنه ألغاني من الوجود.. علامة تقلق.. ظللت أفكر فيها ليل نهار وشعور غريب يخاطبني: أنا وحدي الآن لا ظهر.. لا سند.. ضربة واحدة تقصم ظهري.. فلماذا لا أتصرف؟ لم لا أبحث عن حماية؟.

كان قد مضى علي خمسة وأربعون يوماً في المنزل لا أخرج، لا أدخل. الجبيرة أثقل بكثير من الصليب الذي حمله يسوع إلى الجلجلة، فكيف أحملها وأمشي؟ لكن ما إن انقضت تلك الفترة حتى أخذوني إلى المستشفى.. شق الطبيب الجبيرة بمنشار ثم أخرج كتفي وذراعي.. لم يكن الشفاء قد تم فاستبدل بالجبيرة جبيرة أخف وزناً وأغلى ثمناً، صار باستطاعتي بعدها أن أحملها وأمضي لا إلى الجلجلة وحسب بل إلى أي مكان، وفرحت.. كنت بشوق للعودة إلى قلعتي الحصينة.. مقر امارتي العتيد، أجلس فيه على عرشي وأمسك بصولجاني آمرة ناهية

يركع عند قدمي الناس ويسجدون.. أنا ما أزال قوية لا يرتفع في وجهي رأس ولا يعلو صوت. إيناس غاب، تهديده بدا وكأنه فقاعة صابون. مع ذلك ظل الأمر يشغلني. لابد من ظهر.. ظهري فارغ.. أشعر به كل لحظة وبظهر فارغ لا يسعك مواجهة أحد.. لا يسعك الاستمرار.."

دفعة واحدة خطر ببالي الحاميان القديمان: صاحب الرفعة وصاحب النبالة. أجل لديهما سأجد الحل.. أحدهما سيكون الظهر.." غمغمت وأنا أجلس في مكتبي وحيدة إلا من أضابير، كتب وبريد.. "صاحب النبالة.. كيف أنت؟" قلت وقد جاءني صوته متعباً مرهقاً قليلاً." أنا بخير. متعب قليلاً لكنني بخير." هو متعب قليلاً، هل السبب امرأته الجديدة؟ هي مريضة كما سمعت ولا أمل بشفائها.. فهل هذه نقطة لصالحي؟ "امرأتك مريضة.. أليس كذلك؟" "بلى.. وقد أتعبتنا جميعاً، كل يومين غسل كلى.. إرباك وأي إرباك" "لماذا لم تزرع لها كلية؟ هي ميؤوس منها؟" "لا، بالعكس.. ثمة أمل، لكنها ترفضه.. هي تخاف العمليات والجراحة، الأسبوع القادم سآخذها إلى الخارج رغماً عنها.." "مسافر إذن؟" "أجل.. لا بد من العملية ولابد من أخذها بنفسي." إذن.. ظرفه غير مناسب، هاهو ذا يشكو، غارقاً حتى أذنيه في مشاكل المرض والبيت، فهل أشكو له همي؟ هل أقحم نفسي؟ لا.. من الواضح أنه لا مكان لي وليس باستطاعتي اقتحام عالمه من جديد..

"خير؟ هناك شيء سميرة؟" سأل بنوع من رفع العتب ونوع من ملء الفراغ الذي ضرب أطنابه بيننا صمتاً كأننا لا نجد ما نقول، فانكفأت.. شعرت بآمالي كلها تتكفئ.. "لا ما هذا بالظهر الذي تبحثين عنه سميرة" بعدئذ أوضحت "لا..فقط.. أردت الاطمئنان عليك" "شكراً.. حين أعود من السفر نتكلم". وأغلقت السماعة وأنا أكثر حزناً وهماً من ذي قبل.

أتصل بصاحب الرفعة؟ سألت نفسي ثم أجبت: لا.. لا.. ضربتان على الرأس توجعان.. لقد كان أخشى ما أخشاه أن يصدمني الرجل فتكون الطامة الكبرى.. لكنني كنت بحاجة له.. لأحد يقف معي.. يخرجني من شعوري بأنني وحيدة موحشة.. أهلي كانوا قد قطعوني قطعاً تاماً، لا ربى، لا أبي، لا علا، وعاصم حاقد ناقم لن يغفر لي أبداً. أنا أعلم ذلك. بسببه قاطعوني جميعاً.. شعرة معاوية التي كانت بيننا انقطعت، لأبقى كأنني مقطوعة من شجرة لا جذور ولا فروع.. أجل يا سميتي، حتى ابنتي كانت قد ابتعدت عني.. أو قولي لا تجد فراغاً لي مثلما كنت من قبل لا أجد فراغاً لها.. فنلتقي كل شهرين أو ثلاثة.. دقائق أو بضع ساعة ثم تمضي كل منا إلى غايتها وكأننا لا أم ولا بنت.

صاحب السعادة ذاته، ظهري وسندي، أصدر حكمه القطعي علي، أأعاود استرضاءه يا ترى؟ أفيرضى إن حاولت؟ أياماً وليالي ظللت أفكر ثم قلت أحاول.. اتصلت فلم يرد أحد.. كان قد غير هواتفه كلها.. طلبت مكالمته عن طريق المقسم فقيل لي: آسفون.. غير موجود.. وصارت تلك لازمة سمعتها ثلاث أو أربع مرات ثم أقلعت. لقد صرت على يقين أنه كان يعني ما يقول: قرار قطعي لا استئناف فيه ولا نقض.

اتصلت بصاحب الرفعة، وكعادته، كان ذلك الجنتلمان اللطيف لكن العجوز الذي بدت السنون وقد أخذت من همته وحيويته كل شيء.." هو عود على بدء" قلت بعد التحيات والسلام، "فهل ترضى بذلك؟" "إيه لوليتاي!! ألا ليت الشباب يعود يوماً.. لكنه لن يعود" "ماذا؟ أتعاني من شيء؟" "لا.. لا.. فقط الشيخوخة" قال وهو يضحك ضحكته المجلجلة تلك "أم تراها لا تكفي للمعاناة؟" وشردت بي الأفكار.. إنها المرة الأولى التي يأتي فيها على ذكر الشيخوخة.. أشاخ إلى هذه الدرجة؟ وتذكرت آخر مرة رأيته فيها.. كانت ثمة احتفالية كبيرة وكنا نحضرها معاً. رأيت ظهره قد تقوس وركبتيه تصطكان، فيما اشتعل رأسه كله شيباً وجبينه أخاديد.. "ما الذي تقوله يا صاحب الرفعة.. أنت زين الشباب مهما حتت منك الأيام تظل الطود الراسخ." "هذا مجرد كلام سميرة.. الأيام تحتُّ حتى الجبال.. وما يمضي لا يعود يا عزيزتي.. إيه!! أتذكرين يوم جئت إلي أول مرة؟" "المرأة لا تنسى رجلها الأول.." "لهذا قال الشاعر: ما الحب إلا للحبيب الأول؟" "أجل، ولهذا قلت نعود إلى نقطة البداية.." "العودة إلى نقطة البداية تعني اكتمال الدائرة"، قاطعني على عجل. "واكتمال الدائرة يعني النهاية." فجأة شعرت بكل ما في صدري ينقبض.. أهو فأل سوء؟ نذير شر؟ لكنني توقفت عن التساؤل وأنا أسمعه يسأل "احكي سميرة.. لديك كلام.. احكي.. تريدين شيئاً؟" "بصراحة.. أجل.." ثم شرحت له كل شيء وبكل صدق.. لقد كنت أشعر أنه آخر سهم في جعبتي، الوحيد الذي يمكنه مد يد العون لي، منحي الطوق الذي ينقذ الغريق.. "للأسف سميرة" قال الرجل وقد انتهيت من شرحي." لم يعد باستطاعتي فعل شيء لك." "لماذا يا صاحب الرفعة؟" "لأنك أخطأت كثيراً.. ارتكبت كثيراً، هذا كله صنع تراكماً كمياً وكما تعلمين التراكم الكمي يصنع التغيير النوعي." "ماذا تعني يا صاحب الرفعة؟" "أعني أن أخطاءك على كل شفة ولسان، سمعتك مضغة في الأفواه، ارتكاباتك تتداولها الصحف والمجلات، فظاظتك جعلت الكل ينفضون من حولك.. أأعدد لك أيضاً؟" "سأصلح كل شيء.. أعدك بأن أصلح كل شيء، فقط افرد علي مظلتك، أعطني هذه الفرصة وقم بحمايتي." "لا، فات الأوان سميرة. لقد حرقت أوراقك كلها وما عاد باستطاعة أحد أن يظلك بمظلته أو يكون حامياً لك." "لم لا وأنت القوي

المتين؟" " لم لا؟ الباب العالي، الصدر الأعظم، الذات العليا كلهم عارفون بارتكاباتك، ناقمون على تصرفاتك". وشعرت بشيء كالضربة القاضية تقع على أم رأسي.. لم أستطع بعدها أن أفتح فمي.. الجهات العليا كلها ناقمة علي.. غاضبة مني.. إذن السماء نفسها غاضبة ناقمة ولا منجاة لي أو خلاص.. أجل يا سميتي، شعرت أن كل ما لدي من جند تسحقهم الفيلة، والأرض تزلزل تحت قدمي، تماماً كما شعرت أنت، وأنت تولين الأدبار من الهند..

لكن الغريق يتعلق بجبال الشمس، خاصة حين يكون مكابراً مثلي.. ولقد كنت غريقة، أنا التي بت أشعر يوماً بعد يوم بأنني أغوص أكثر فأكثر في مستنقع الأخطاء والارتكابات، فجأة تدلى لي حبل من تلك الجبال فتعلقت.. كانت مديرة نادي النسوان تزورني وهي لا تعلم شيئاً عما بي، مستشيرة إياي في أمر النادي، مجلس الإدارة الذي سيتم انتخابه قريباً.. تلك اللحظة لمعت في ذهني الفكرة: لم لا أعود إلى قواعدي: النادي، الجمعية، الجامعة، علني أستمد منها قوة وسنداً؟ وللتو أعجبتني الفكرة.. "لأبدأ بالنادي،" قلت لنفسي، وأنا أذهب إلى المؤتمر العام الذي يعقد كل سنتين، ينتخب، يغير، يبدل.. عازمة أن أرشح نفسي من جديد... هناك صرت أوزع الابتسامات في وجه هذه، تلك، أحدث هذه، أعد تلك، وكل همي أن أكسب ما أستطيع من أصوات.." سأفقأ في عيونهم حصرماً، أعدائي أولئك، سأثبت لهم أنني ما زلت قوية. ورائي قاعدة شعبية عريضة تكفل بقائي واستمراري.." لكن سرعان ما خذلتني النتيجة: ثلاثة أصوات فقط. "كيف؟ في المرة الأولى، ولم يكن يعرفني أحد، حصلت على مائة وخمسة وسبعين من مائة وثمانين صوتاً، فكيف لا أنال الآن إلا ثلاثة أصوات؟ كيف، وقد وعدتني أكثر من خمسين عضواً من أعضاء المؤتمر بإعطائي أصواتهن؟ لا.. لا.. مستحيل.. أنا لي صديقات منهن، زميلات.. نساء كن يترددن علي وأنا في الاقطاعة يبدين لي كل مظاهر المحبة والود! ثلاثة أصوات!؟" وخرجت وأنا أسب وأشتم، ألعن وأتوعد وقد جننتني الخيبة وأعماني الخذلان.

(كانت الشمس تنحدر للمغيب عندما وقفت سميراميس في شرفة قصرها تطل على المعبد الكبير وقد انعكست عليه أشعة الشمس الغاربة، وكانت تتابع بنظرها سرباً من الحمام يحوم حول البرج ثم يهوي إلى بيته قبل أن يدهمه الظلام. أطلقت سميراميس زفرة كلها حسرة وهي تتذكر هزيمتها في الهند وهروبها وما تعرضت له من مخاطر في الطريق لم تنج منها إلا بأعجوبة. ثم بدأت تخاطب نفسها: ليت لي حرية هذا الحمام. وددت لو كنت واحدة من هذا السرب المنطلق في الفضاء.. طافت بذهن سميراميس صور حياتها العجيبة الماضية، ثم بدا لها الحاضر بكل ما فيه من هموم ومتاعب. فابنها نيناس قد كبر واشتد عوده وقد ترامى إليها

أنه يتطلع إلى عرش أبيه، وإنها لتشعر بأن نفوذها على الجند قد بدأ يتراخى، فلم تعد تثير فيهم شيئاً من الحماسة الماضية..)

هذا ما صرت إليه يا سميراميس، كما تقول أسطورتك، فإلى ماذا صرت أنا؟ أحوالك، أنت ملكة آشور وبابل، قد تبدلت إلى درجة صرت تهزمين وتجرحين، ابنك يطالبك بالعرش، والجند لا تثيرين فيهم أية حماسة فكيف لا تكون أحوالي كذلك أنا؟ كان هناك الكثير من الطامعين بعرشك، فكيف لا يكون هناك طامعون بإمارة اقطاعي؟ الجند انفضوا من حولك فكيف لا ينفض الناس من حولي؟ أواه يا سميتي.. أنا مثلك، حالي كحالك، الكلاب هنا وهناك تنبح علي، تهجم كي تعضني وأنا لا ظهر ولا سند.. ترى كيف لا أتعب يا سميراميس مثلما تعبت؟ كيف لا أتمنى أن أكون واحدة من سرب الحمام الذي يطير في الفضاء كما تمنيت؟ أجل.. أنا أتمنى ذلك، بل أشعر أنني أتماهى معك.. كما كنت منذ البداية حتى النهاية. أواه، يا سميراميس، كيف لا أشعر بالحزن والغم، بالقنوط والإحباط، سيما وقد حلت بي مصيبة جديدة: العاملون الذين سرحتهم، كسبوا الحكم علي.. القضاء لدينا نزيه حر لا يأتمر بأمر أحد ولا يسمع إلا كلام القانون.. ثلاث جلسات عقدت وقبل كل جلسة كنت آتي بالقضاة، أحدثهم، أدفع لهم، أغريهم بوعود كثيرة للمستقبل ويقسمون لي أيماناً مغلظات أنهم معي، يأتمرون بأمري. مع ذلك صدر الحكم ضدي. بات لزاماً علي أن أخضع للقانون، أن يعود المسرحون وإن كره الكافرون.. رضيت، طأطأت رأسي وأنا أراهم يعودون إلى الاقطاعة رافعي الهامات منتصبي القامات.. ينظرون إلي شزراً ويعلقون علي هزءاً، همسات وغير همسات، ثم يقهقهون عالي القهقهات..

الهزائم تترى يا سميتي.. هي أيضاً كالمصائب لا تأتي فرادى.. بل تأتي مجتمعة، تتداعى كما تتداعى الأفكار: المساءلة، التفتيش، تشكيل اللجان، إلغاء الكثير من القرارات... وكنت أتحمل على أمل أن أجد طريقاً للخلاص.. لكن ما لم أستطع تحمله هو تلك الضربة التي وقعت كالصاعقة على أم رأسي: "صاحبة العفة والصون، أسمعت الأخبار؟" أفقت ذات صباح على صوت رجاء." "لا، أية أخبار؟" "غيروك يا صاحبة الصون... بدلوك.. أمير إقطاع جديد حل محلك. "وصعقت.. أردت أن أخرج من الفراش فلم أستطع.. أردت أن أتكلم، أن أستفسر فلم أستطع.. غير أن صوتها جاءني من جديد حاثاً محرضاً "صاحبة العفة والصون.. أسرعي.. صفّي أمورك. عزلي أدراجك قبل أن يجيء البديل." وانتفضت.. أجل.. ثمة كثير من الأمور ينبغي إنهاؤها، دروج ينبغي تعزيلها، ملفات، قضايا عالقة ينبغي التخلص منها أو كانت فضائح أخرى لا يعرف إلا اللّه عاقبتها. ولا أدري كيف ارتديت ثيابي.. ركبت سيارتي ثم مضيت بسرعة الريح..

لكن لأجد أمير الإقطاع الجديد قد سبقني إلى المكتب.. أسلمه كل شيء كما أراد وبكل ما فيه من فضائح، ثم أخرج مطرقة خائبة لا يسير في ركابي أحد ولا يود عني أحد..

(وعلى ضوء الشموع، شاهدت سميراميس في المرآة خطوطاً عميقة تحت العينين الذابلتين والكثير من الشعرات البيضاء تومض خلال الشعر الذي كان أسوداً فاحماً. ولأول مرة انحدرت على خديها دمعتان.. قضت سميراميس ليلتها ساهرة وعندما تنفس الفجر، كانت قد تنازلت عن عرشها لابنها الوحيد واختفت الملكة الساحرة التي كانت لفترة طويلة من الزمن معبودة بابل وآشور).

حتى إذا ما وصلت، يا سميتي، إلى السلم الخارجي، توقفت. فقد كنت لا أرى أمامي، عيناي غائمتان، رأسي طبول افريقية وجسدي قصبة في مهب الريح. نظرت إلى الأسفل فكان هناك.. عاصم بشحمه ولحمه ينتظرني، الانتقام ينتظرني فوجهه ليل وعيناه شرر. نظرت إلى الأعلى.. ثمة سرب حمام يطير في الفضاء. تلك اللحظة تمنيت، يا سميراميس، لو يكون مصيري كمصيرك.

(وشاع بين الناس أن سميراميس، ابنة الآلهة، تحولت إلى حمامة بيضاء طارت من القصر مع أسراب الحمام..)